

عبد قاسم الهاشمي

المصانيع الساطعة للذنور

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الامام زيد بن علي (ع) الامام القاسم بن ابراهيم (ع) الامام محمد بن القاسم (ع)
(٥٧٢ - ١٢٢ هـ) (١٩٦ - ٢٤٦ هـ) (٢٨٤ هـ)

الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين (ع) الامام ابو الفتح الديلمي (ع) الامام الحسين بن القاسم العياني (ع)
(٢٤٥ - ٢٩٨ هـ) (٤٥٠ هـ) (٣٧٦ - ٤٠٤ هـ)

الجمعة - الأحقاف

جمع وتاليف

العلامة عبدالله بن أحمد بن إبراهيم الشرقي (١٠٦٢ هـ)

الجزء الثاني

تحقيق

محمد قاسم الهاشمي عبد السلام عباس الوجيه

أشرف عليه

السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صعدة - مفرق الطلح

مكتبة التراث الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الطبعة الثالثة

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صنعاء

ت: ٥١٣١٥٠

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده على ما أنعم به علينا من الهداية لطريق الحق وصراط
مستقيم، ونصلي ونسلم على نبي الأمة محمد الأمين وعلى آله الطيبين
الطاهرين.
وبعد

فإننا نقدم اعتذارنا لتأخر صدور هذا الكتاب عن الوعود التي كنا قد
قطعناها على أنفسنا لانجاز هذا المجلد، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي
السفن.

كما نتقدم بالشكر والعرفان لإخوة لنا ساهموا في اخراج هذا الكتاب
إلى النور ليكون بين يدي القراء الأعزاء، وطلبة العلم، وأهل البحث
والتحقيق وعلى رأس هؤلاء سيدي العلامة محمد بن الحسن العجري والأخ
خالد بن قاسم بن محمد المتوكل جزاهما الله خير الجزاء عن جهودهم التي
كان لها دور أساسي في إنجاح عملنا هذا.

كذلك نشكر آباءنا العلماء الأفاضل والأخوة المهتمين بهذا الكتاب
الذين ابدوا ملاحظاتهم لنا في الجزء الأول من هذا السفر العظيم وقدموا
نصائحهم؛ حرصاً منهم على أن يكون هذا العمل متميزاً، قليل الأخطاء،
حسن المظهر.

كما نرجو أن نكون قد وفقنا، وعملنا بنصائحهم، ونطلب منهم ومن
غيرهم المزيد من التوجيه والنصح فالكمال لله وحده جل وعلا.

عملنا في هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب بأننا قد عدنا إلى الأصول التي اعتمدها المؤلف رحمه الله والمتوفرة لدينا، وكذلك جرى تصحيحه على أكثر من نسختين خطيتين له.

وقد اضعنا في حاشية الكتاب تفسير الإمام الأعظم الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام والمسمى (بغريب القرآن) وكذلك تفسير (غريب القرآن) للإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم العياني عليه السلام واضفنا إليه في الحاشية أيضاً كثيراً من الفوائد المهمة اعتمدنا فيها على كثير من كتب التفسير واللغة من أهمها تفسير الحاكم الجشمي، وحاشية العلوي على الكشف، حاشية الشهاب، إعراب القرآن (لمحي الدين درويش)، تفسير التبيان للطوسي، ومجمع البيان للطبرسي، وغير هذه الكثير من المراجع كما سيلاحظه القارئ الكريم.

وقد تتبعنا أقوال الأئمة عليهم السلام من مصادرها التي ذكرها المؤلف وأضفنا في الحاشية أيضاً الأقوال التي وجدت لهم في مصادر أخرى لم يتعرض لها المصنف تمييزاً للفائدة.

أخيراً نسأل الله الكريم أن يعيننا على إتمام بقية هذا التفسير وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

ولا غنى لنا عن النصيح والإرشاد والتقويم.

وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

بيروت ١٤/٢/١٩٩٩م

المحققان

محمد قاسم عبد الله الهاشمي

عبد السلام عباس الوجيه

سورة الجمعة

إحدى عشرة آية اتفاقاً ، مدنية ، وقيل : مكية

قوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى ﴿بِسْمِ﴾ فهو : باسم الله يبدأ كل شيء ﴿الرحمن﴾ فهو ذو الرحمة والإحسان ﴿الرحيم﴾ فهو ذو التعطف بالرحمة والامتنان ، وقد مر تفسيره في سورة عم .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) أراد سبحانه ما يتأتى منه التسبيح الحقيقي ، وأراد كل ما فيهما يقضي له بالتسبيح ، ويحمل الناظر إليه على التسبيح ، أي : التنزيه لله من سوء ، وألا يكون له شريك بدلالة صنعه فيه ، فكأنه ينطق بتوحيده وعدله لما في مصنوعاته من الدلالة على ذلك .

قال الرازي : (وإنما قال في هذه السورة : ﴿يُسَبِّحُ﴾ بلفظ المستقبل ليدل على التسبيح في زماني الحاضر والمستقبل)^(٢) .

(١) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام في هذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي ، عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾ معناه : في الذين لا يكتبون وقوله تعالى : ﴿وَيَزَكِّيهِمْ﴾ معناه : يطهرهم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ﴾ هم الأعاجم .

وقوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ معناه : كتب ، واحداً سفر .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ معناه : أحيوه ، وذكر الله تعالى : موعظة الإمام ، ويقال : الوقت .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ اللهو : الطبل ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ معناه : أسرعوا ، وتفرقوا عنك .

(٢) الفخر الرازي هو : أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي ، الطبرستاني الأصل ، شافعي المذهب ، مفسر متكلم ، أصولي ، متطبب ، صاحب التصانيف المشهورة ، إذا نقل عنه علماء الأصول ، قالوا : قال الإمام ، أو : وعند الإمام ، ولد في ٢٥ من شهر رمضان سنة ثلاث ، أو أربع ، أو خمس وأربعين وخمسائة ، قال في ترجمته في تفسيره :

(وقد جاء في بعض الفواتح ﴿يسبح﴾ على لفظ الماضي ، وفي بعضها على لفظ المضارع وذلك إشارة إلى أن كون هذه الأشياء مسبحة غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي ، وتكون مسبحة أبداً في المستقبل ، وذلك لأن كونها مسبحة صفة لازمة لماهياتها ، فيستحيل انفكاك تلك الماهيات عن ذلك التسبيح^(١) .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يسبح﴾ فهو: يقدس وينزه ، وأصل التسبيح هو التنزيه لله ، و التبعيد له من شبه المخلوقين ، ومعنى (سبحان الله) هو : بعدان الله من كل قبيح من الصفات ، وكل صنيع لله في الأرضين والسموات يبعده عن ذوي العقول من الآفات ، ويسبحه عن شبه المصنوعات^(٢) .

قلت : وقد أوضح الهادي عليه السلام معنى التسبيح ، وبين مخارجه ، وما يؤول إليه في أول سورة التغابن ، فارجع إليه ، فإنه ريٌّ من الضِّمَّا ، وشفاء من داء الجهالة والعمى^(٣)

كان الفخر الرازي من أفضل علماء عصره في الفقه وعلوم اللغة والمنطق والمذاهب الكلامية ، ومن أبرع أهل زمانه في الطب والحكمة ، يقول ابن خلكان : إن كنيته متمعة ، وقد انتشرت تصانيفه في البلاد ، توفي بهراً يوم الاثنين أول شوال من سنة ست وستمائة ، وقيل : إنه مات مسموماً ، وله كلام عظيم في تنزيه الأنبياء عن المطاعن التي تستلَب إليهم ، وقد أفرد لها كتاباً مطبوعاً ، وقد شنع على من نسب المعاصي إلى الأنبياء ، ونزههم بوجه لطيف حسن ، وقد نقل منه في هذا الكتاب كما ستجده في سورة يوسف وغيرها . كما صف السيد العلامة علي بن محمد العجري كتاباً في التفسير يرد فيه على الفخر الرازي الكثير مما يذهب إليه وسماه نهج السعادة ولم يتمه . وما بين القوسين من كتاب الرازي التفسير الكبير في سورة الجمعة ٢/٣٠ . وكان في الأصل لتفسير المصاييح (في الزمان) وفي الرازي (في زمانه) فأثبتنا ما في الرازي .

(١) ما بين القوسين هو من تفسير الرازي في سورة الحديد ٢٩/٢٠٦ .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام الآتي قريباً في الحاشية .

(٣) قال الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام في تفسير سورة التغابن : قول الله سبحانه ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ معنى ﴿يسبح﴾ فهو يقدس ويعظم ، ويجل ويكرم ﴿ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو : كل ما أنشأ وبرأ من الخلق ، فمن الخلق ما يسبحه ويقدسه بلسان ناظم ويدكره ، وهم أهل الأمر والنهي من الخلق المأمورين بالطاعة ، المنهين عن المعصية ، من الملائكة والقليل من الجن والإنس المذكورين ، فهؤلاء يسبحون له ويدكرونه بالتقديس والتكبير ، والإجلال والتعظيم ، وما كان مما في السموات

والأرض من غير المأمورين من الأشياء المخلوقات ، والأمور المدبرات من سائر ما خلق الله وذرا ، من جميع ما أوجد من الأشياء ، من النجوم والشجر ، وغيرهما من كل ما فطر ، فإنما تسيحه وتقديسه تسيح من يسبح من أجله ، ولعظم ما فيه من صنعة ربه ، فإذا رأى المؤمنون أثر صنع الله في هذه الأشياء ، سبحوه بما رأوا فيها ، وقدسوه لعظم ما رأوا من صنعه في إيجادها فكان تسيحهم لما رأوا من أثر الصنع فيها سببا لقول القائل : إنها سبحت ، لما كان التسيح من أجلها وبها ، ولما رأوا فيها من أسبابها ، كما كان من السجود من الملائكة لآدم عليه السلام هو سجودهم لله الذي أوجد آدم ، فكان سجودهم لله من أجل ما رأوا من أثر صنعه في عبده ، وعظم تقديره في خلقه ، فجاز أن يقال : سجدوا لآدم ، إذ كان السجود من أجل آدم وسببه ، ولما أظهر الله سبحانه فيه من قدرته ، فعلى ذلك ومثله جاز أن يقول القائل في قوله : سبح كل شيء لربه من حجر أو مدر ، أو نجم أو شجر ، وفي هذا المعنى يدخل ما قال الله تبارك وتعالى ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ (مجموع تفسير الأنمة).

وقال الرازي في تفسيره ٢٠٦/٢٩ : زعم الزجاج أن المراد بهذا التسيح التسيح الذي هو القول ، واحتج عليه بوجهين الأول : أنه تعالى قال ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسيحهم﴾ فلو كان المراد من التسيح هو دلالة آثار الصنع على الصانع لكانوا يفقهونه ، والثاني : أنه تعالى قال ﴿ووسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ فلو كان تسيحا عبارة عن دلالة الصنع على الصانع لما كان في ذلك تخصيص لداود عليه السلام . واعلم أن هذا الكلام ضعيف لحجتين أما الأولى : فلأن دلالة الأجسام على تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله من أدق الوجوه ، ولذلك فإن العقلاء اختلفوا فيها فقوله ﴿ولكن لا تفقهون﴾ لعله إشارة إلى أقوام جهلوا بهذه الدلالة ، وأيضا فقوله ﴿ولا تفقهون﴾ إشارة إن لم يكن إشارة إلى جمع معين فهو خطاب مع الكل ، فكأنه قال : كل هؤلاء ما فقهوا ذلك ، وذلك لا ينافي أن يفقه بعضهم .

وأما الحجة الثانية : فضعيفة لأن هناك من المحتمل أن الله خلق حياة في الجبل حتى نطق بالتسيح ، أما هذه الجمادات التي تعلم بالضرورة أنها جمادات يستحيل أن يقال : إنها تسبح الله على سبيل النطق بذلك التسيح ، إذ لو جوزنا صدور الفعل المحكم من الجمادات لما أمكننا أن نستدل بأفعال الله تعالى على كونه علما حيا ، وذلك كفر ، بل الحق أن التسيح الذي هو القول لا يصدر إلا من العاقل العارف بالله تعالى ، فينوي بذلك القول تنزيه ربه سبحانه ، ومثل ذلك لا يصح من الجمادات ، فإذا التسيح العام الخاصل من العاقل والجماد لابد وأن يكون مفسرا بأحد وجهين الأول : أنها تسبح بمعنى أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه . والثاني : أن الممكنات بأسرها منقادة له بتصرف فيها كيف يريد ليس له عن فعله وتكوينه مانع ولا دافع ، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إن حملنا التسيح المذكور في الآية على التسيح بالقول كان المراد بقوله ﴿وما في السموات﴾ من في السموات ومنهم حملة العرش ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون﴾ ومنهم المقربون ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ ومن سائر الملائكة ﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا﴾ وأما المنسبحون الذين هم في الأرض ، فمنهم الأنبياء كما قال ذو النون ﴿لا إله إلا أنت سبحانك﴾ وقال موسى : ﴿سبحانك إنني تبت إليك﴾ والصحابه يسبحون كما قال : ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ .

ثم قال سبحانه: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾^(١) أي: البليغ النزاهة عما يستقبح .
قال الحسين بن القاسم عليه السلام^(٢): معنى ﴿الملك﴾ هو المالك المدير ، السيد الخالق
البارئ المصور ، و﴿القدوس﴾ هو المستحق للتقديس . والتقديس : هو التنزيه لله
والتعظيم ، وهذا قول الهادي صلوات الله عليه وما كان يذهب في تفسير هذه الآية إليه . اهـ

وأما إن حملنا التسيح على التسيح المعنوي : فأجزاء السموات ، وذرات الأرض والجبال والرمال والبحار والشجر
والدواب والجنة والنار ، والعرش والكرسي ، واللوح والقلم ، والنور والظلمة ، والذنوب والصفات ، والأجسام
والأعراض كلها مسيحة خاشعة لجلال الله منقادة لتصرف الله كما قال عز من قائل: ﴿وإن من شيء إلا يسبح
بحمده﴾ وهذا التسيح هو المراد بالسجود في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

(١) قال الحاكم الحسني : القدوس مشددة العين فالفاء منصوبة نحو سَفُود وكُلُوب إلا ثلاثة أحرف سُوح ...
وحكى الفراء عن الكسائي قال : سمعت أبا الدنيا وكان أعرابيا فصيحاً يقول : القدوس يفتح القاف لعلها لغة .

(٢) الحسين بن القاسم عليه السلام : هو الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن
الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي الحسني ، المعروف بالعياني ، كوالده الإمام القاسم بن علي ٣٧٦ هـ — ٤٠٤ هـ —
أحد أئمة آل الكرام ، مجتهد ، فقيه ، عالم ، مفسر ، نابغة ، أخذ عن والده وعلماء عصره ، وحكم بعد وفاة والده ،
وفي عهده تقلص نفوذ الدولة وأصبح محصوراً بين ناحية الهام وصعدة ، وقوي نفوذ الدولة الزيدية ، ونازعه الإمام
محمد بن القاسم بن الحسين الزيدي ، ووقعت بينهما معارك كثيرة ، واستشهد المرحوم في سن مبكرة بمرار في وادي
البون بالقرب من مدينة ريدة ، وقبره هناك مشهور مزور ، وقد خلف آثاراً عظيمة للفكر الإسلامي في اليمن ، وقد
شنع عليه وعلى أبيه مسلم اللحجي المطري ، وأثار الشكوك حول عقيدته ، فالف السيد حميدان كتاباً ينفي عنه
الشائعات المغرضة بعنوان (بيان الإشكال فيما يعكس عن المهدي الحسين بن القاسم العياني من الأقوال) أنظره ضمن
مجموع السيد حميدان خ ، وللمرحوم مؤلفات كثيرة تزيد على الثلاثين مؤلفاً بالرغم من استشهاده في سن مبكرة ، منها
تفسير الغريب من كتاب الله ، وهو الذي رجع إليه مؤلف هذا الكتاب منه نسخ كثيرة . عنه وعن مؤلفاته وأماكن
مخطوطاتها ومصادر ترجمته انظر (أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم) .

في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام (خ ١٣٤ ، ١٣٥) ما لفظه :

﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض﴾ يريد بالتسيح التقديس ، ومعنى يسبح : هو يقدر ويتزه ، وأصل
التسيح هو التنزيه لله ، والتباعد له من شبه المخلوقين . ومعنى سبحانه الله : هو بعدان الله من كل قبيح من الصفات ،
وكل صنع الله في الأرضين والسموات يبعده عند ذوي العقول من الآفات ، ويسبحه عن شبه المصنوعات ﴿الملك
القدوس﴾ معنى الملك : هو المالك المدير السيد الخالق البارئ المصور ، والقدوس : هو المستحق للتقديس ، والتقديس :
هو التنزيه لله والتعظيم ، وهذا قول الهادي إلى الحق صلوات الله عليه ، وما كان يذهب في تفسير الآية إليه ، ومعنى

ومعنى ﴿الْعَزِيزِ﴾ فهو الغالب القادر على كل شيء .

﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا بحكمة وصواب ، وهو أيضا الذي يضع الأشياء في مواضعها ، والله تعالى حكيم بهذا المعنى .

قوله : ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو أرسل إليهم رسولا يعرفونه ، ويميزون كلامه ويفهمونه ، ومعنى قوله : ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ هو يطهرهم من الذنوب ، والتركية : هي التطهير ، ومعنى قوله : ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحِقُوا بِهِمْ﴾ يريد عز وجل أنه بعث رسوله إلى الأميين ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ويعلم آخرين منهم من ذريتهم لم يلحقوا بهم بعد ، ولم يخلقوا ولم يبدئوا ، فهو يريد الأولين والآخرين ، وهذا لمن كان في عصره وبعده من العالمين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا الثَّوْرَةَ﴾ ثم لم يحملوها كمثلي الحمار يحمل أسفارا ﴿هُوَ أَنَّ حَمَلَهُمُ الْأَمَانَةَ فِي الْبَيَانِ ، والدعاء إلى الحق والهدى والبرهان ، فلم يحملوا ذلك ولم يقبلوه ولم يميزوه ولم يدبروه ، ولم يعقلوه ، ولكنهم رَوَوْا ذلك وهذروهم ، وتلوه تلاوة ظاهرة ولم يتبينوه ، ولكنهم عموا عنه وجهلوه ، ومعنى ﴿كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ قيل : إن الأسفار هي السفر التي هي الكتب فهم يحملونها ، ولا يميزون ما فيها فهم بمنزلة الحمار الذي يعملها وهو لا يميزها ولا يعقلها ، ولا يعمل بما فيها ولا يقبلها ، قال الشاعر في مثل ذلك :

زوامل للأخبار لا علم عندهم يمكنونها إلا كعلم الأباغر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأحماله أو راح ما في الغرائر

ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هو أنه عز وجل لا يجرهم على الهدى ولا يخرجهم من الضلال والردى ، ولا يوفقهم للصواب أبدا ؛ لأن من قبل الهدى الأول زاده هدى إلى هداة ، وبصره وكشف ضلالته وعماه ومن أدبر عن الهدى الأول لم يعطه الثاني ولا كرامة له ، ولم ينزع من قلبه ضلاله ولا جهله ، ومعنى قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يريد عز وجل أنكم إن كنتم تهابون الموت فأنتم كاذبون ، وفي زعمكم وادعائكم للإيمان مبطلون ، لأن المؤمن لا يهاب الموت ثقة بالثواب ، والكافر لا يتقى عمله خوفا من العقاب ، وأيضا فلا فرج له في الموت والحساب .

ثم قال عز وجل : ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يريد عز وجل أنهم لا يتعنون الموت بما قدمت أيديهم ، فقامت الباء مقام اللام ، ومعنى قوله بما قدمت أيديهم هو من أجل ما قدموا عند الله من الأفعال والكفر والجحdan بالضمر والمقال ، وما ارتكبوا من الفواحش والمحال ، والفسق والفجور وأنواع الضلال ، فهم من أجل ذلك للموت راهبون ، وله في كل سبب متجنبون ، حتى يحل بهم وهم له كارهون ، وينزل بهم وهم صاغرون ، ومعنى قوله : ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَكُمْ﴾ يريد عز وجل أنه لا ينفعهم من الموت فرارهم ، ولا يغني عنهم إشفاقهم وحذارهم ، ومعنى قوله : ﴿ثُمَّ تَرْدُونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد أنه يوفقهم ويخبرهم يوم القيامة بما كانوا يعملون .

ثم تمنى الله سبحانه على عباده ، واستحمد إليهم بما طرحه بين ظهرانيهم من الكتاب والسنة لما لهم في ذلك من المطلب الصالح والمتجر الرابح ، فقال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ أي : من العرب ، أرسل إليهم رسولاً يعرفونه ، ويميزون كلامه ، ويفهمونه ؛ لأنه صلى الله عليه وآله ، أميٌ مثلهم منسوب إلى أمة العرب ؛ لأنهم كانوا لا يقرؤون ، ولا يكتبون من بين الأمم ، وقيل : بُدِئَتِ الكتابة من الطائف ، أخذوها من الحيرة ، وهم من أهل الأنبار بلد بالعراق .^(١)

(فإن قيل : ما وجه الامتنان بأن بعث فيهم نبياً أمياً ؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : لموافقة ما تقدمت بشاره الأنبياء به في الكتب التي تقدمت ، بأنه النبي الأمي والثاني : لمشكلة أحواله أحوالهم فيكون أقرب إلى موافقتهم . والثالث : ليتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعاهم إليه من الكتب التي قرأها ، والحكم التي تلاها)^(٢) وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة بالكتابة ، فكانت حاله مشكلة لحال الأمة التي بعث فيهم ، وذلك أقرب إلى صدقه^(٣) .

ومعنى ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ هو القرآن ، أي : يقرأها عليهم ، وقراءة الأمي بغير تعلم آية بيّنة .

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي : يظهرهم من الشرك ، وخبائث الجاهلية ، وجميع الذنوب ، ويجعلهم أزكيا القلوب^(٤) .

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي : القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ هي الفهم والفقه في الدين ، وقيل : السنة

(١) قال الحاكم الجشمي : والأمي : الذي لا يكتب كأنه منسوب إلى ولادة الأم في أنه لا يحسن الكتابة .

(٢) ما بين القوسين مثله في البرهان بلفظه (انظر البرهان خ ٣٧٨) .

(٣) وانظر أيضاً زاد المسير في علم التفسير ، فهذه الثلاثة الأوجه مذكورة فيه (زاد المسير ٢٥٨/٨) .

(٤) في البرهان : ويجعلهم أزكيا القلوب بالإيمان (البرهان ٣٧٨) قال الحاكم الجشمي : والتركية : التطهير ، زكاه يزكيه إذا وصفه بالطهارة ، وقيل : منه الزكاة ، وقيل : من النماء ، يقال : زكى الزرع .

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام^(١): فالكتاب : هو القرآن ، والحكمة معانيه ، فالحكمة تفيد المعرفة بمعاني كتاب الله تعالى ، وعليه يحمل قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُوْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢).

ومثل هذا التأويل مروى عن جدنا عبد الله بن الحسين^(٣) عليها السلام . انتهى
﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي : وإنهم كانوا من قبل أن يبعث إليهم ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي : ذهاب عن الصواب لا يرى أيمن منه .

ثم قال سبحانه : ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ﴾ أي : بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين منهم ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي : لم يلحقوا حينئذ بهم وسيلحقون^(٤) وهم الذين بعد الصحابة ، فالمعنى : ويعلمهم الكتاب و الحكمة ، ويعلم آخرين من ذريتهم لم يلحقوا بهم ، ولم يحدثوا فهو يريد الأولين والآخرين ، وهذا لمن كان في عصره ، ومن بعده من العالمين^(٥) .

(١) تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ٢٢ ، ونحن نحاول الآن العثور على تفسيره ليتمكن الاستفادة منه .

(٢) البقرة : ٢٦٩

(٣) عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسي عليه السلام ، المعروف بصاحب الزعفرانة ، المتوفى بعد سنة ٣٠٠ هـ ، عالم مجتهد ، مفسر إمام في العلوم ، قدم اليمن مع أخيه الإمام الهادي إلى الحق ، وكان من أعلم أهل زمانه أخباره كثيرة مثبتة في سيرة الإمام الهادي ، وهو أحد الرجال الأشداء ، الذين كان يعتمد عليهم الإمام الهادي عليه السلام في إدارة معاركه ، ويؤمرهم على البلدان ، وله وقائع مشهورة مع القرامطة ، من مؤلفاته كتاب الناسخ والمنسوخ من القرآن ، مخطوطة ، وفي مكتبة الوالد العلامة عبد الله بن اسماعيل الهاشمي رحمه الله نسخة منه بخط جميل ، وقد سلمت للأخ الأستاذ المحقق عبد الله الحوثي الذي شارف على الانتهاء من تحقيقها وإخراجها إلى الوجود إنشاء الله .
(٤) وهذا مستفاد من النفي بلما ؛ لأن النفي بها يستمر إلى الحال ، ويتوقع حصوله بعده ، وهذا هو الفرق بين النفي بلم ، والنفي بلما .

(٥) قال الحاكم الجشمي : في قوله ﴿وَأَخْرَيْنَ﴾ وجهان من الإعراب أحدهما : الكسر تقديره وفي آخرين عطفًا على الأميين ، وثانيهما : النصب رداً على الهاء والميم في قوله : ﴿ويعلمهم﴾ أي : ويعلم آخرين منهم .

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القوي الغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تمكنه رجلا أميا فقيرا من ذلك الأمر العظيم ، والملك الجسيم ، واختياره إياه من بين البشر ^(١).
 ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أعطاه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ أي: عطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من يشاء إعطاءه ، وتقتضيه حكمته .
 ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (والفضل: النبوة والإمامة ، يؤتيهما من اختاره واصطفاه من خلقه) ^(٢).

ثم إنه تعالى حث على العمل بكل واحد من الكتاب والسنة ، والاهتداء بما فيهما ، وأمر بذلك وشدد ، وكرر وردد ، ووعد وأوعد على ترك ما هنالك ، فضرب لهم مثلا في اليهود ، الذين أعرضوا عن العمل بالتوراة ، والإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةُ﴾ أي: كلفوا علمها ^(٣) والعمل بها ، وهم اليهود ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أراد لم يعملوا بها ، فكأنهم حيث لم ينتفعوا بما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله ، والأمر بمتابعتة ﴿كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ شبه اليهود — في أنهم حاملة التوراة ، وحفاظ ما فيها ، ثم انهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها ، وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والبشارة به ، والغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوي الحاليتين عنده من حمل أسفار الحكمة ، وحمل ما سواها من الأوقار ، ولا يشعر من ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب به ، ولم يؤمنوا به — بالحمار حمل أسفارا ، أي: كتباً كبارا من [كتب] العلم ، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا بما يمر بـ [جنبه و] ظهره من الكد والتعب ، كذلك اليهود حظهم التعب من حمل التوراة فقط ، وهذا المثل يدخل فيه

(١) ومثله في الكشاف ٥٣٠/٤ بزيادة (وتأييده عليه) بعد قوله: الأمر العظيم .

(٢) ما بين القوسين مثله في البرهان ٣٧٨ .

(٣) وفي نسخة (حملها) وفي الكشاف: علمها ، وفي الحاكم الجشمي: كلفوا العمل فلم يعملوا بها .

كل من علم علما ولم يعمل به^(١). قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: "المعنى هو أنه حملهم الأمانة في البيان، والدعاء إلى الحق والهدى والبرهان، فلم يحملوا ذلك ولم يقبلوه، ولم يميزوه، ولم يعقلوه ولكنهم رروا ذلك، وهذرموه^(٢) وتلوه بتلاوة ظاهره، ولم يبينوه، ولكنهم عموا عنه وجهلوه، ومعنى ﴿يحمل أسفار﴾ قيل: إن الأسفار هي السفر التي [هي]^(٣) الكتب، فهم يحملونها ولا يميزون ما فيها، فهم بمنزلة الحمار الذي يحملها وهو لا يميزها ولا يعقلها، ولا يعمل بما فيها ويقبلها، قال الشاعر في مثل ذلك:

زوامل للأسفار لا علم عندهم يجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأحماله أو راح ما في الغرائر^(٤)

(قال أهل المعاني: هذا [المثل] مثل من لم يفهم معاني القرآن، ولم يعمل به، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه.

فإن قيل: ما الحكمة في تعيين الحمار من بين سائر الحيوانات؟

قلت: قال بعض المفسرين: تعيين ذلك لوجوه منها: أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، والزينة في الخيل أكثر وأظهر بالنسبة إلى الركوب وحمل الشيء

(١) ما بين أقواس الزيادة من الكشف، فهذا اللفظ موجود في الكشف بنصه. (انظر الكشف ٤/٥٣٠).

(٢) الهذمة: السرعة في القراءة والكلام، يقال: هذرم ورده، أي: هذمه (عنتار الصحاح).

(٣) ما بين المعقوفين من تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، وقد أصلحنا اللفظ منه.

(٤) في الأصل زال الأخبار، والصحيح ما أثبتناه، وهو الموجود في تفسير الطبرسي فقال: عن أبي سعيد الضريسر، بلفظ: زوامل للأسفار في البيت الأول، وفي البيت الثاني المطي بدلا عن البعير، وبأسفاره بدلا عن أحماله، ونسبها المحقق إلى مروان بن سليمان. وزوامل: جمع الزاملة البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع، وفي تفسير القرطبي ٩٤/١٨ للأسفار في البيت الأول، وأوساقه بدلا عن أحماله في البيت الثاني ونسبها المحقق كذلك لمروان بن سليمان بن يحيى ابن أبي حفصة يهجو قوما من رواة الشعر، وقال الحاكم الجشمي: والأسفار: الكتب واحدا سفر، نحو شئ وأشياء، وإنما سمي سفرا لأنه يكشف عن المعنى بإظهاره، أسفر الرجل عن عمامته إذا كشف، وسفرت المرأة عن وجهها، ومنه الصبح إذا أسفر. وفي تأويل مختلف الحديث لعبدالله بن مسلم بن قتيبة، الجزء الثالث: زوامل للأشعار لاعلم عندهم.... الخ ما هنا مثله مائما.

عليه ، وفي البغال دون الخيل ، وفي الحمار دون البغال ، فالبغال كالمتوسط في المعاني الثلاثة ، وحيث يلزم أن يكون الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال ، وغيرهما من الحيوانات .

ومنها : أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة [وذلك في الحمار أظهر] .

ومنها : أن في الحمار من الذل والحقارة مالا يكون في الغير ، والغرض من الكلام في هذا المقام تعبير أولئك القوم وتحقيرهم ، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى .

ومنها : أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل [وأسلم] لكونه ذليلاً سلس القياد ، وهين الانقياد ، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة ، وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره^(١) .

ثم ذم تعالى هذا المثل فقال : ﴿ بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ أي : بئسَ مثلاً مثلاً ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم اليهود .
﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم بالكذب لما علموا صحته ، فهم لا يقبلون الهدى .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : "معناه : أنه عز وجل لا يجبرهم على الهدى ، ولا يخرجهم من الضلالة والردى ، ولا يوفقهم للصواب أبداً ؛ لأن من قبل الهدى الأول زاده

(١) المراد ببعض المفسرين ، هو الفخر الرازي ، والكلام كله مثله في تفسير الرازي ، وكذلك ما بين القوسين زيادة منه وفيه أيضاً (ولين الانقياد) بدلاً من (هين الانقياد) وكذلك (ذلولا) بدلاً من (ذليلاً) كل ما بين أقواس الزيادة في هذا النص مثله في الرازي ، وفيه أيضاً زيادة وجه آخر وهو قوله :

ومنها : أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام ، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى . (انظر الرازي ٥/٣٠ ، ٦) .

(٢) يجوز أن يكون ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ ﴾ فاعل بئس ، و﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ هو المخصوص بالذم ، بتقدير مضاف كما ذكره فيتحد الفاعل والمخصوص بالذم ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويجوز أن يكون ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ صفة للقوم ، فالمخصوص بالذم محذوف والتقدير : مثلهم .

الله هدى إلى هداة ، وبَصَّرَهُ ، وكشف ضلّالته وعماءه ، ومن أدبر عن الهدى الأول لم يعطه الثاني ، ولا كرامة له ، ولم ينزع من قلبه ضلاله وجهله .

ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله بهذا الخطاب وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾ تهودوا : أي : دخلوا في دين اليهود ﴿ إِنَّ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ لأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، أي : [فلو] ^(١) كان قولكم حقا وكنتم على ثقة ﴿ فَتَمْنُوا الْمَوْتَ ﴾ أي : فتمنوا على الله الموت لينقلكم سريعا إلى دار أوليائه ، أي : جِوّه بقلوبكم ، وارغبوا فيه ؛ لأن الآخرة خير لكم من الدنيا ، وقيل : معناه : — الفظوا بتمني الموت فقولوا : ليتنا نموت . وهذا تعد لهم بأن يلفظوا بالتمني للموت ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في قولكم : نحن أبناء الله وأحباؤه .

﴿ وَ ﴾ أخبر الله أنهم ﴿ لَا يَتَمَنَوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فكان كما أخبر ، وهذه معجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال العلماء : وكان التحدي مختصا بقوم منهم كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : (والذي نفسي بيده لا يقولها واحد منهم إلا غص بريقه) ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ بَمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بسبب ما قدموا من الكفر ، فلولا أنهم كانوا موقنين ، بصدق رسول الله لتمنوا الموت ليكذبوه صلى الله عليه وآله وسلم لكنهم علموا أنهم لو تمنوا لما تواتوا من ساعتهم ، ولحقهم الوعيد ، فلم يتمنوا خوفا من العقاب ، فهم من أجل ذلك للموت راهبون ^(٣) ، وله في كل سبب متجنبون ، حتى نجل بهم وهم صاغرون .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي : بظلمهم ، من تحريف الآيات ، وعنادهم لها ومكابرتهم إياها ، فهم يردون إليه فيجازيهم بما هم أهله .

(١) ما بين القوسين مثله في الرازي ٦/٣٠ .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره بلفظ (والذي نفس محمد بيده لا يقولها واحد منهم إلا غص بريقه) على ظهرها يهودي إلا مات) ٩٦/٨ .

(٣) في الأصل (راهبين) والصواب رفعه بالواو خيرا .

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تحسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لا محالة ، وأنتم لا تفوتونه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ﴾ قيل : الغيب المعدوم ، أو الغائب عن العباد ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الموحودة ، أو الشاهد للعباد ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : تردون إلى العالم بسرائركم ، فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب ، ومعنى إنبائهم بعملهم : توبيخهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، حين يوقفهم على فعلهم ، ويخبرهم يوم القيامة بما كانوا يعملون .

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ إذا : بمعنى الوقت ، الذي وقع فيه النداء ، و﴿من﴾ بيان لإذا^(١) وتفسير له . والنداء : الأذان ، وقالوا : المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وقيل : أذان الجمعة للوقت كأذان الظهر ، وقد كان له صلى الله عليه وآله وسلم مؤذن واحد ، فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد ، فإذا نزل أقام الصلاة ، ثم كان أبو بكر وعمر على ذلك ، ثم زاد عثمان مؤذنا كان يؤذن من داره لما كثر الناس ، وكانت في سوق المدينة ، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني ، فإذا نزل أقام الصلاة ولم يعب عليه أحد^(٢) .

﴿فَاسْعَوْا﴾ (المراد بالسعي القصد ، وهو السير المعتدل ، دون العُدو ، والسعي : التصرف في كل عمل ، ومنه ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣) الحسن^(٤) : "ليس السعي على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب"^(٥) .

(١) من هذه تحتل التبعيض ، وأن تكون بمعنى في كما ذهب إليه أبو البقاء ، فإن أراد المصنف رحمه الله تعالى لغيره لأن تعيين اليوم الذي فيه ذلك الوقت تعيين له ولا لغيره فيه ؛ لأن المعاني متقاربة ومثله يسمى إجمالاً لا لبساً ؛ لأن اللبس باحتمال مالا يصح كما ذكره ابن الحاج في المدخل ، وظاهره أنه أراد البيان المشهور لكن أورد عليه أن شرط من البيانية أن يصح الحمل فيها ، وهو متف هنا ؛ لأن الكل لا يحمل على الجزء ، واليوم لا يصح أن يراد به مطلق الوقت لأن يوم الجمعة علم لليوم المعروف لا يطلق على غيره في العرف ولا قرينة عليه هنا . (انظر حاشية الشهاب ٨ / ١٩٦) .

(٢) الخبر موجود في مجمع البيان للطبرسي عن السائب بن زيد ٣٦٦/٩ . والكشاف وتخريجه ٥٣٢/٤ ، والرازي ٨/٣٠ .

(٣) النجم : ٢٩

ومعنى ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فهو إلى سماع موعظة الإمام ، أي : الخطبة والصلاة ، وذكر الصالحين فيها من جملة ذكر الله ، نبه الله تعالى المؤمنين بقوله : ﴿فَاسْمَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ معناه : إلى ما ينفعكم في الآخرة ، وهو حضور الجمعة ؛ لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية قال تعالى : ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(١) .

(وكان اسم يوم الجمعة في الجاهلية عروبة ، وأول من سماه باسمه هذا كعب بن لؤي بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ منع تعالى منه عند صلاة الجمعة ، وحرّمه في وقتها على كل من كان مخاطباً بفرضها ، ووقت التحريم من بعد الزوال إلى الفراغ من الصلاة^(٣) والمراد ترك كل عمل يلهي عن ذكر الله ، وإنما خص البيع لأنه مظنة الذهول في ذلك الوقت ، من ذلك اليوم لاجتماع الناس فيه من كل أوب .

قال في البرهان : ” وإن عقد في هذا الوقت المحرّم [بيعا]^(٤) بطل لظاهر قوله تعالى في النهي عنه ، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه “ . اهـ

(٤) في مجمع البيان ٣٦٧/٩ ، وقال الحسن : ما هو السعي على الأقدام ، وقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

والحسن : هو الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد مولى أم سلمة ، أحد الأعلام ، كان إمام أهل البصرة ومن عظماء التابعين وكبارهم ، اشتهر بعلمه وزهده وتقواه ، وهو من أشهر المحدثين روى عنه أمم كثيرة ، انظر معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله ص ١٥٤ ، الجداول مخطوط ، الطبقات مخطوط ، رأب الصدع ٧٢٥/٣ ، معجم المفسرين ٨٤/١ ، معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وانظر بقية المصادر فيه .

(٥) ما بين القوسين مثله في الكشف ٥٣٥/٤ .

(١) الأعلى : ١٧

(٢) في مجمع البيان ٣٦٤/٩ ، وقيل : إن أول من سماها جمعة كعب بن لؤي ، وهو أول من قال في الخطبة : أما بعد وكان يقال للجمعة : العروبة .

(٣) ما بين القوسين مثله في البرهان بلفظه ٣٧٨ .

(٤) ما بين المعقوفين زيادة من البرهان ٣٧٨ .

﴿ذَلَّكُمْ﴾ المذكور من السعي إلى تجارة الآخرة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تجارة الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم^(١).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: فرغ منها ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لمنافع دنياكم التي أمرتم بتركها عند النداء ، وهذا أمر إباحة .

قال في البرهان : وروينا أن يحيى بن زيد عليها السلام^(٢) كان إذا صلى الجمع انصرف فوقف على باب المسجد فقال : "اللهم قد أحبت دعوتك ، وصليت فيضتك ، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي : نعمة الله في الدنيا موصولة بنعمة الآخرة^(٣) اهـ .

وقيل : اطلبوا من رزقه بالتجارة .

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي : لإرادة أن تظفروا بمرادكم .

قال في البلغة^(٤) : "تستعمل لفظ لعل على وجوه ، أحدها : لام كي ، والثاني : الشك ، والثالث : التعرض للأمر ، فمعناه على الوجه الأول : اذكروا خالقكم لكي تفلحوا ، وإذا حمل على معنى الشك ، حمل على شك المخاطبين ؛ لأن أمورهم وأحوالهم تجري بين الخوف والرجاء والطمع ، وعلى هذا الوجه يؤول قوله تعالى :

(١) قال في البرهان : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الصلاة خير لكم من البيع والشراء ؛ لأن الصلاة تفوت بخروج وقتها والبيع لا يفوت .

(٢) الإمام الشهيد يحيى بن زيد عليها السلام ، تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ١٦٣ .

(٣) انظر البرهان ٣٧٨ .

(٤) لمحمد بن محمد بن أحمد بن الحكم الفلكي الطوسي ، أبو العباس ، والكتاب : هو البلغة لمن لا يحضره المفسر في تفسير القرآن الكريم ، منه نسختان خطيتان ، هما الجزء الثالث والرابع ، برقم ١١ و ١٢ تفسير / المكتبة الغريسة ، ونسخ أخرى في جامع شهارة وغيره ، انظر مصادر التراث في المكتبات الخاصة ، وإلى الآن لم نعثر على نسخة منه ليتسنى لنا المراجعة بالرجوع إلى الأصل ، ونسأل الله أن يسر لنا نسخة منها . ٨٧٦ هـ

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١) أي: قولا له ذلك على ظنكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشى

وعلى الوجه الثالث معناه: اذكروا الله متعرضين للفلاح، فجميع ما في القرآن من لفظ لعل متأول على أحد هذه الثلاثة "اهـ".

(فإن الله سبحانه أباح لهم الانتشار، وطلب الربح مع التوصية بإكثار الذكر، ولا يلهيهم عنه شيء).

ابن عباس^(٢) "لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله".

الحسن وابن المسيب^(٣) (طلب العلم). وقيل: صلاة التطوع^(٤).
ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: تفرقوا عنك إليها^(٥)

(١) طه: ٤٤

(٢) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ٣٢.

(٣) ابن المسيب: هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي [١٣ - ٩٤هـ] أبو محمد، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ومن كبار التابعين، جمع الحديث والفقه والورع، وكان يعيش من تجارة الزيت، أجمعوا على توثيقه، روى العجلي بإسناده عن سعيد ابن المسيب أنه قال: كان أبو هريرة إذا أعطاه معاوية سكت، وإذا أمسك عنه تكلم، خرج لابن المسيب أمتا الخمسة والسمان. (انظر معجم رجال الاعتبار) (تحت الطبع)، (معجم الرواة في أمالي المؤيد بالله ص ١٧٩) و(الجداول) و(الطبقات) خطية، وبقية المراجع في معجم رجال الاعتبار.

(٤) ما بين القوسين مثله في الكشاف (انظر الكشاف وتخرجه ٥٣٦/٤).

(٥) قال في البرهان: ﴿وانفَضُّوا﴾ معناه: تفرقوا، قال الشاعر:

انفض جمعهم عن كل نائرة تبقى وتدنس عرض الراحم الشتم

قال الحاكم الجشمي في تفسيره: الانفضاخ: الانحلال والتفرق، والفض: تفريق الشيء، وانفض القوم: تفرقوا، وففضت عن الكتاب ختمه: فرقته، والفضضة شقة الثوب، ودرع فضفاضة لتفرقها على الشوب، والفضفاض: ما تقفضض عن الشيء إذا انفض، واللهو واللعب: نظيران، وكلما شغلك فقد أهلك، ومن ذلك سميت المرأة لهوا، والجماع هوا.

[سبب النزول] روي أن أهل المدينة أصابهم غلاء شديد ، فقدمت تجارة والرسول صلى

الله عليه وآله وسلم يُخطب يوم الجمعة ، فضرب لقدموها طبل فتفرق الناس عن النبي صلى الله عليه وآله إلى التجارة والطبل ولم يبق معه إلا اليسير ، فنزلت هذه الآية ، والذي قدم بالتجارة دحية بن خليفة الكلبي^(١) من الشام عند مجاعة وغلاء سعر ، وكان معه ما يحتاج إليه الناس من بر ودقيق وغيره ، فنزل عند أحجار الزيت^(٢) ثم ضرب الريح ليؤذن الناس بقدومه ، وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليه ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة رجال^(٣)

﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي : في الخطبة ، فقال صلى الله عليه وآله : (والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي نارا)^(٤) .

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي : قل لهم يا محمد تويخا لهم ، على اختيار القليل الفاني ، على الجزيل الباقي : ما عند الله من الثواب على تجارة الآخرة خير لكم من اللهو ومن تجارة الدنيا .

(١) هو الصحابي دحية بن خليفة بن فروة الكلبي ، الذي كان يحب رسول الله صلى الله عليه وآله من جبريل أن يراه على صورته فيما رءوا .

(٢) موضع بالمدينة ، وهو الموضع الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله أنه يسيل دم الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية إليه عند قتله عليه السلام .

(٣) وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٦٩/٩ نفس مضمون الحديث ، إلا أنه قال : ولم يبق مع رسول الله في المسجد إلا اثنا عشر رجلا وامرأة ، وقيل : إلا ثمانية رهط عن الكلبي وابن عباس ، وقيل : إلا أحد عشر رجلا عن ابن كيسان ، وقد روي عن جابر بن عبد الله مختصرا ، وفيه : لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ، أخرجه أبو يعلى في مسنده ٤٠٥/٣ ، قال محققه وأخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٣/٣٧ ، ٣٦ ، ٣٨ ، والبخاري في الجمعة رقم ٩٣٦ ، والبيوع ٢٠٥٨ ، ٢٠٦٤ — ٤٨٩٥ والترمذي في التفسير ٣٣٠٨ . والبيهقي في الجمعة ١٩٧/٣ ، والدارقطني في الجمعة ٥/٢ ، وفي التفسير والطبري في التفسير ١٠٤/٨ ، ١٠٣ ، والواحدي في أسباب النزول ص ٣٢٠ ، ٣١٩ ، وفي تفسير النسائي ٤٢٩/٢ ، قريب من هذا التخريج . (٩٨ / ١٢ ط دار الكتب العلمية) .

(٤) وفي البرهان : (والذي نفسي بيده لو ابتدروا نارا) البرهان ٣٧٩ . وفي تفسير الطبري ٥٨/١ عن قتادة ، فقال : والذي نفسي بيده لو اتبع آخركم أولكم لانتب عليكم الوادي نارا ، ومثله عن قتادة موقوفا ، وفي تفسير القرطبي ١١١/١٨ ، الحديث بلفظه عن الرمحشري .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي : خير من توجه العباد إليه في [طلب] ^(١) الرزق ، فاجعلوا همكم طلب الرزق العظيم منه بتجارة الآخرة ، دون تجارة الدنيا ، فقد ضمن أرزاقكم في العاجلة ، وكلفكم إصلاح الآجلة ^(٢) .
والله أعلم



(١) ومثله في البرهان ، و ما بين أقواس الزيادة من البرهان (انظر البرهان ٣٧٩) .

(٢) في كتاب فيه مسائل عن القاسم بن إبراهيم ، قال محمد بن القاسم : وسأنته عن يترك الأعمال يوم الجمعة وفيها من الرجال والنساء تعظيما لها ؟ قال : لقد بلغني أن بعض الصحابة كان يكره ذلك لما فيه من التشبه باليهود في ترك الأعمال يوم السبت ، ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب عاتب رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضا عن التعجيل للجمعة ، فقال : أهذه الساعة ؟ فقال الرجل : كنت في السوق ، وهذا خلاف ترك الأعمال فيها تعظيما لها .

Handwritten text in Urdu script, likely a title or header, possibly mentioning a date or location.



Handwritten text in Urdu script, likely a body of text or a signature block, located at the bottom of the page.

سورة الصف

أربع عشرة آية ، مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) أراد : أن كلما فيها يقضي له بالتسبيح ويحمل من نظر إليه على التسبيح ؛ لما في مصنوعاته من عجائب الحكمة ، وقد مر تفسيره ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال الرازي : "العزیز : من عزَّ إذا غلب ، وهو الذي يغلب على غيره أي : شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره ، والحكيم : من حكم على الشيء إذا قضى عليه ، وهو الذي يحكم على غيره أي : شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيره" .

فأخبر سبحانه أنه العزيز القادر ، والقاهر الذي ما أراد كان بلا كلفة ولا أعوان ، وأنه الحكيم : أي : المتقن لفطرته ولجعله وخلقه ، الذي لا يتغير ما أثبت ، ولا يثبت ما غير ، الحسن التدبير ، الجيد التقدير ، الذي لا تفاوت في خلقه ، ولا فساد في تدبيره .
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي : لأي سبب تقولون ما لا تفعلون ؟ هذا يتناول الكذب ، وإخلاف الوعد .

(١) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿كَبِيرٌ مَّقْتَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني : عظم مقتا . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيَانٌ مَرْصُوعٌ﴾ معناه : منظم بعضه إلى بعض . وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ معناه : عدلوا . وقوله تعالى : ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ الحواريون : هم صفوة الأنبياء عليهم السلام . وقوله تعالى : ﴿فَأَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عُدُوهُمْ﴾ معناه : قوتناهم عليهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ معناه : قاهرين .

[سبب نزول الآية]

وهذه الآية نزلت في قوم قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأفعال إلى الله لعملناه ، ولبلدنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلهم الله على الجهاد في سبيله فثاقلوا عنه ، وفروا يوم أحد ، فعيرهم الله^(١) .

وقيل : كان الرجل يقول : قَتَلْتُ ولم يَقْتُلْ ، وطَعَنْتُ ولم يَطْعَنْ ، وضَرَبْتُ ولم يَضْرِبْ ، وكان ذلك بعد وقعة بدر^(٢) .

قوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ نصب على التمييز^(٣) والمقت : أشد البغض ، أي : عَظُمَ بُغْضًا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي ﴿كَبُرَ﴾ مبالغة ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه ، قصد في ﴿كَبُرَ﴾ التعجب من غير لفظه ، ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأنه لا يكون إلا من خارج عن نظائره لزيادته عليه^(٤) .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : ” هذا خطاب من الله عز وجل لهؤلاء المستسلمين بالإيمان ، الذين آمنوا باللسان وكفروا بالجوارج والجنان ، وتكلموا بعد بما لا يفعلون ، فمقتهم الله فيما كانوا يقولون وعاتبهم في قبيح ما به يتكلمون ، ومقت الله عز وجل :

(١) ومثله في البرهان ص ٣٧٧ .

(٢) هذا القيل نشر للأول الذي هو الكذب ، وقوله : وهذه الآية نزلت في قوم .. الخ نشر للثاني الذي هو إخلاف الوعد ، وهذا لف ونشر غير مرتب . (انظر حاشية العلوي مخطوط ص ٣١٤) .

(٣) قال العلوي : والحق أن مقتا تمييز عن نسبة كبر إلى أن تقولوا كما أن نفسا تمييز عن نسبة الطيب إلى زيد في طاب زيد نفسا لا فرق بين الصورتين إلا في تقديم التمييز على الفاعل في الآية .

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشف ص ٣١٤ : لما كان التعجب محال في حق الله تعالى ؛ لأنه حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء بين معناه هنا فكأنه قال : معنى هذا التعجب هو التعظيم ، ثم بين إفادة التعجب معنى التعظيم بقوله : لأنه لا يكون إلا من خارج عن نظائره .. الخ يعني أن التعجب يستلزم كون المتعجب منه خارجا عن نظائره فأطلق لفظ التعجب ، وأريد كون الشيء خارجا عن نظائره ، فيكون مجازا ، أو يقال لما لم يعهد مثله : إنه عجب ..

بغضه وعذابه ، ونقمته للكاذبين وعقابه ، فاحترزوا رحمكم الله عن هذا ومثله ، فقد سمعتم وعيد الله فيما نزل في هذه السورة من وحيه وتنزيله^(١) . اهـ

(١) قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن (خ ١٣٥ ، ١٣٦)

بعد قوله : (من وحيه وتنزيله) :

(ومعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَا كَأَنَّهُمْ بَنِيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ والمرصوص : المصفوف بعضه إلى بعض ، لا يبرح ولا يتحول عن اصطفاؤه ولا يتزحزح ، ومعنى قوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يريد عز وجل لما زاغوا وما لوا عن الهدى ، أي : تركهم على الضلالة والميل والردى ؛ إذ لم يغيرهم على الثبات فصدوا ، ومعنى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ معنى ذلك : أرادوا إهلاك الحق ومقال الدين الواضح المبين من الصدق — بكلامهم القبيح وكذبهم وبهتانهم ، وجهلهم وعمى قلوبهم وخذلانهم ﴿وَاللَّهُ مَتَمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ومعنى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ هو أن الله عز وجل وعد رسوله صلى الله عليه وآله بإظهار دينه وعلوه وارتفاعه على جميع الأديان ، فكان ما وعد به عز وجل من الظهور والبيان حتى علا دين خاتم النبيين ، وقهر بالحجج جمع المختلفين ، فلم تزل أئمة الهدى الذين [هو] جدهم قائمين وبكتاب ربهم لجميع الأمم قاهرين ، وأتى في الخير عن الأئمة عن الرسول صلى الله عليه وآله وعلى أهل بيته الطاهرين أن معنى هذه الآية وتفسير ما ذكرنا من ظهور دين جدنا ونبيتنا وعلو دين ربنا وخالقنا عند ظهور رجل في آخر الزمان يقهر بدين جده جميع أديان الأمم ، ويبين فضل هذا الدين على أديان العرب والعجم ، وقد بينا ذلك بحمد الله بكل البيان ، وأوضحناه بأعظم الحجج والبرهان ، ولكن شغلهم عن ذلك زهدهم في الرحمن ، وقلة شوقهم إلى الثواب والجنان ، وتركهم للهرب من النيران ، وركابهم وتفريطهم في طلب الإيمان إلا نفر قليل ، خطرهم عند الله عظيم جليل ، تمسكوا بنا خوفا من العذاب ، وطمعا بالرحمة من الله والثواب ، فهم بما ذكرت عارفون ، ويعقوبهم فيما ادعت منصفون ، وإلا فأين حجة بعد الرسول أين من حجتنا ، وأين درجة في دين الحق مثل درجتنا حتى نرجع إليه مسلمين ، ونقر بذلك إن رأينا معترفين ، أرونا ذلك إن كنتم صادقين حتى نرجع لقولكم مصدقين ، فوالله ما تجدون من ذلك مثل معشار كلامنا من غير نقص وتقصير عند آباءنا ، وكيف يكون ذلك وبهم اقتدينا ، وبهنايتهم عليهم السلام اهتدينا ، وفي آثارهم إلى الجنة مشينا .

ومعنى قوله عز وجل : ﴿فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ﴾ أي : في جنات وإقامة لا تزول ، ولا تغير أبدا ولا تحول ، ومعنى ﴿ذَلِكِ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : ذلك هو الظفر والريح الكثير ، والرزق الأعظم الأجل الكبير ، وأي : فضل أعظم وأفضل وأظفر وأجل وأنبل من حياة ليس بعدها موت ، ونعمة ليس بعدها فوت ، في الرحمة من الله والرضوان ، والخور الصين الحسان ، وعجائب تحف الجنان .

ومعنى ﴿فَأَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوبِهِمْ﴾ فالتأييد : هو التقوية ، قال الشاعر : وأطرقني تحت صلب مؤيد

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾^(١) أي : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين صفوفا كالصلاة ؛ لأنهم إذا اصطفوا مثلاً صفين كان أثبت لهم وأمنع لعدوهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين ، ذكره في البرهان^(٢).

﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ أي : كأنهم في تراصهم من غير فرجة بنيان رص بعضه إلى بعض ، أي : رصيف ، وألصق ، فالمرصوص : هو المصفوف بعضه إلى بعض لا يتزحزح ولا يتحول عن اصطفاؤه ولا يبرح ، وقيل : معناه كالبنيان الذي ألحم بالرصاص^(٣) قال الراجز^(٤) :

ومعنى ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ هو فصاروا ظاهرين وعالين ، ولكن أصبح تقوم مقام صار ، وهما من الحروف التي ترفع الأسماء والنعوت وتصب الأخبار ، وهي كان ، وصار ، وليس ، وأليس ، وأصبح ، وأمسى ، وظل ، وأضحى ، وبات وما دام ، وما انفك ، وما برح ، وما زال ، وما أشبه ذلك في اللفظ والمقال .

(١) في تفسير الرازي ، قرأ زيد بن علي (يقاتلون) بفتح التاء .

(٢) ذكره في البرهان خ ٣٧٧ ، وقال السيد العلوي : صفا .. كأنهم بنيان .. حالان متداخلتان قال في الانتصاف : يريد أن معنى الأولى مشتمل على الثانية ، فإن هيئة التراص هي هيئة الاصطفاف ، قال صاحب الإنصاف ليس المراد بالتداخل هذا بل إن الحال الثانية وقعت أجزاء من الحال الأولى ؛ لأن معنى صفا : مصطفين ، وفيه ضمير ، وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ﴾ حال من الضمير المذكور فالحال الثانية داخلية في الحال الأولى ، وهي كقوله : ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ لا هيئة قلوبهم ، وقال الطيبي : فرق بين الصورتين فإن قوله : ﴿صَفًّا﴾ كأنهم بنيان مَرْصُورٌ مثبته والمشبه به ، والمشبه به في الحقيقة بيان للمشبه ووصف له ، وقلت : ثبوت الفرق بين الصورتين لا يقدح فيما قاله صاحب الإنصاف من أن التداخل عندهم هو ما ذكره . (انظر حاشية العلوي ٣١٥)

(٣) ذكره الفراء (الرازي ٢٩/٣١١) .

(٤) الحرقوص : دويبة صغيرة تنقب الأساقبي وتقرضها ، وهي من جنس الجعلان ، إلا أنها أصغر منها ، وهي سوداء منقطعة ببياض ، قالت أعرابية :

من مارد لص من المصوص

ما لقي البيض من الحرقوص

بمهر لا غال ولا رخيص

يدخل تحت الغلق المصوص

وقيل : هي دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل : هو النمر ، وقيل : دويبة كالبرغوث نبت له جناحان فطار (انظر لسان العرب ٦١٤/١ ترتيب يوسف خياط) .

يفتح باب المغلق المخصوص

ما لقي البيض من الحرقوصي

وللأول قول الشاعر :

وأسمر مرصوص بطين وجندل له شرفات فوقهن نضائب
ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي : واذكر يا محمد ^(١) حين قال ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْذُونَنِي﴾ أي : لأي : سبب كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من النقص والعيب في نفسه وجحود آياته وعصيانته وتكذيبه ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾ أي : تؤذونني في حال كونكم عالمين يقينا ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقضية علمكم بذلك توجب تعظيمي لا أذيتي ؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ، وقد معناه : التوكيد ^(٢) [كأنه] قال : وتعلمون علما يقينيا لا شبهة فيه .

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يريد : لما زاغوا ، ومالوا عن الهدى — تركهم على الضلالة والميل والردى ، إذ لم يجبرهم على الثبات قصدا ، بل خذلهم وتركهم على زيغهم

(١) يعني أنه منصوب بإضمار اذكر .

(٢) ما بين أقواس الزيادة من الرازي ، والنص موجود فيه بلفظه . انظر الرازي ٣١٢/٢٩ .

قال في الانتصاف : أهل العربية تقول : إنَّ قد تصحب الماضي لتفريه من الحال ، ومنه قول المؤذن : قد قامت الصلاة ، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضا على معنى التوقع ، فلذلك قال سيويه : قد فعل . جواب لما يفعل ، وقال الخليل : هذا الخبر لقوم ينتظرونه ، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل مثل : ربما ، كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل ، وقد دخلت في الآية على مضارع — فالوجه — والله أعلم — أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الإفراط فيما ينعكس عنه ، وتكون قد في هذا المعنى نظيرة ربما في قوله : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير ، فلما أوردت ربما في التكثير على عكس معناها الأصلي في التقليل ، فكذلك إيراد قد هاهنا لتكثير علمهم ، أي : تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلي في تقليل الأصل ، وعليه (قد أترك القرن مصفرا أنامله) وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلي ، ولا يقال : إن حملها في الآية على التكثير متعذر لأن العلم معلوم التعلق لا يتكرر ولا يتقلل ؛ لأننا نقول : يعبر عن ثبوت الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية في نوعه بما يعبر به عن التكثير ، وهو تعبير صحيح ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ هو من هذا القبيل ، فإن المراد شدة ودهم لذلك ، وبلوغه أقصى منتهاه لا غير . انظر الكشاف ٥٣٤/٤ .

عن الحق ، ولم يعدمه بالطفه لعدم قبولهم الهدى ، وقيل : معناه حكم بزيغها ، وقيل : المعنى فلما زاغوا عن الحق عاقبهم الله بعقاب الزيغ ، فسمي جزاء الزيغ زيغا .

وقال في البرهان : " فلما زاغوا عن الإيمان أزاع الله قلوبهم عن الثواب ، وهذه الآية عامة في كل من زاع عن الهداية والرشد والطاعة " . اهـ .

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يريد المتمردين ، أي : لا يحكم لهم بالهدى ، ولا يسميهم به ، وقيل : إنما لم يهدم ؛ لأنه لا لطف لهم ، لعلمه أنهم لا يقبلون الهدى ، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره ، وهذا تسلية له صلى الله عليه وآله مما كان يلقي من أذى قومه .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾ أي : واذكر حين قال عيسى ﴿ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ أي : أمامي : أي : أرسلت حال تصديقي لما تقدمني ﴿مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا﴾ أي : وحال تبشيري ^(١) ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ قرئ بسكون الياء في ﴿بعدي﴾ والخليل وسيبويه ^(٢) يختاران الفتح ، أي : ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه ، من تقدم ومن تأخر .

وعن كعب الأحبار " أن الحواريين قالوا لعيسى : يا روح الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة أحمد حكماء علما أبرار أتقياء ، كأنتهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى منهم باليسير من العمل " ذكره في التجريد ^(٣) .
﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الدالة على صدقه ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .

(١) قال الزجاج : فإن قلت : لم انتصب مصدقا ومبشرا ؟ أما في الرسول من معنى الإرسال أم إليكم ؟ قلت : بل بمعنى الإرسال ؛ لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئا ؛ لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل ؟ ٥٢٥/٤ كشف . وهو هنا لا يريد عملها الجر ، وإنما عمل الفعل ، أي : أنها لا تعمل هنا عمل الفعل بنفسها لأنها لم تتضمن فعلا ، وذلك لوقوعها صلة
(٢) لأن الياء بمنزلة كاف الخطاب ، لأنها كلمة على حرف واحد فثبت على الفتح فيختار الفتح لأنه الأصل .
(٣) انظر تجريد الكشف مع زيادة نكت لطف ، لعلي بن أبي القاسم (مخطوط) .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق : هذا سحر ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي : لا أشد ظلما ممن يدعو ربه إلى الإسلام ، الذي فيه سعادته في الدارين ، فجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله ، بقوله لكلامه : إنه سحر ؛ لأن السحر كذب وتمويه ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا يحكم لهم بالهدى ، أو لا يسميهم به ، لعلمه أنهم لا يقبلون الهداية .

قال في البرهان : ” وهذه الآية عامة في الكفار والمنافقين .

وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام ومقال الدين الواضح المبين بقولهم — القبيح وبهتانهم في القرآن — : هذا سحر . ﴿وَاللَّهُ مَتِّمٌ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي : ولو كرهوا ذلك فهو متم له على رغم أنوفهم قال فيه (١) : وهذه عامة في كل من أبطل أحكام رب العالمين ، وكذب بالأئمة الطاهرين ، والهداة المهتدين ، وإنما ضرب الله تعالى ذلك مثلا بالنور لمن أراد إطفاء نور الشمس بغمه ، فوجده مستحيلا ممتنعا ، كذلك من أراد إبطال نور الحق ” . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ أي : محمدا صلى الله عليه وآله بالهدى وهو الدلالة الموصلة إلى الخير ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الملة الخيفة ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي : يعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي : على جميع الأديان المخالفة له ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وقد فعل ، فما بقي دين إلا وهو (٢) مقهور بدين الإسلام .

بجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلا دين الإسلام .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : ” معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ هو أن الله عز وجل وعد رسوله صلى الله عليه وآله بإظهار دينه ، وعلوه وارتفاعه على الأديان ، فكان ما وعد من الظهور والبيان ، حتى علا دين خاتم النبيين ، وقهر بالحجج جميع المختلفين ، فلم تزل أئمة الهدى بدين جدهم قائمين ، وبكتاب ربهم لجميع الأمم قاهرين ، وأتى في

(١) أي : في البرهان ، انظر البرهان ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٢) في الكشف : إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

الخبر عن الأئمة عن الرسول صلى الله عليه وآله أن معنى هذه الآية ، وتفسير ما ذكرنا من ظهور دين جدنا ، وعلو دين ربنا وخالقنا ، عند ظهور رجل في آخر الزمان يقهر بدين جده جميع أديان الأمم ، وبين فضل هذا الدين على أديان العرب والعجم “ (١) . اهـ .
قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ .
قال في التجريد : نزلت جوابا في قولهم : لو تعلم أي الأعمال أفضل وأحب إلى الله لعملناه وبذلنا فيه الوسع “ (٢) .

وسمى العمل الصالح تجارة ؛ لأنه ينال به الثواب والنجاة من النار ، فأشبهه الربح .
وقوله : ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال : ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالله
ورسوله ﴿خبر في معنى الأمر ، ولهذا أجيب بـ ﴿يَغْفِرُ﴾ بالجزم ، وحيء به على لفظ الخبر إشعارا بوجود الامتثال ، وهو أبلغ من الأمر في المعنى ، كأنه قد فعل ، وهو يخبر عن موجود “ (٣) .

(١) وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٥٤/٩ روى العياشي بالإسناد عن عمران بن ميثم ، عن عبد الله أنه سمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ : أظهر بعد ذلك ؟ قالوا : نعم قال : كلا فالذي نفسي بيده ، حتى لا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرة وعشيا .
وفي تفسير القمي : بالقائم من آل محمد عليهم السلام ، حتى إذا خرج يظهره الله على الدين كله ، حتى لا يعبد غير الله وهو قوله : ﴿يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا﴾ ٣٧٨/١ .

(٢) عزاه في الكشف لابن عباس ٥٢٧/٤ .

(٣) قال السيد العلوي رحمه الله : قال الزجاج : قد غلط بعض النحويين فقال : ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ﴾ جواب ﴿هل أدلكم﴾ وذلك أنه ليس إذا دهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما ينفعهم غفر الله لهم ، إنما يغفر الله لهم إذا آمنوا وجاهدوا وإنما هو جواب ﴿تُؤْمِنُونَ بالله ورسوله وتجاهدون﴾ لأن معناه معنى الأمر أي : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يغفر لكم أي : إن فعلتم ذلك يغفر لكم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود ، وخلاصة هذا الكلام أن قوله : ﴿تُؤْمِنُونَ بالله﴾ الخ بيان لجملة قوله : ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم﴾ على سبيل الاستئناف ، وقد علم أن البيان والمبين واحد ، فهذا الاعتبار كان جوابا . وقال صاحب الانتصاف : هذا التأويل لا يحتاج إليه فإنه يلحق بقوله : ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ﴾ ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ؛ لما فيه من السعادة في دار الخلود ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم ؛ لأنكم إذا علمتموه أحببتم الإيمان [والجهاد] أكثر مما تحبون أنفسكم وأموالكم فتفعلون .

[فضل الجهاد]

قال الهادي عليه السلام: "إن قال قائل : أليس المؤمنون — والله الحمد — عند الله من العذاب فمبعدون ؟ ومن غيرهم في يوم الدين فمميزون ؟ كما قال الرحمن الرحيم فيما نزل على نبيته الكريم صلى الله عليه وعلى آله : ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُورَثُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَانَتْ يَوْمَئِذٍ تُنْفِقُ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون" (١) وفي ذلك من تمييزهم ما يقول : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (٢) فأخبر تبارك وتعالى بالفرق بين المؤمنين والفاسقين ، وقص علينا ما يكون في عباده يوم الدين ؟ .

قيل له : إنما أراد الله الواحد الأحد ، المتقدس الفرد الصمد ، الدلالة على فضل الجهاد ، والقيام بالحق في الخلق والبلاد ، فدلهم بما قال ، وبما ضرب من التجارة في الأموال على أنه أفضل ، لاشيء عنده يعدل الجهاد ، ومن جميع ما افترض على العباد ، فنبههم للحظ والفضل المبين ، وأخبر أنه أعظم وأجزل ما يلقونه به يوم الدين ، وكيف لا يكون ما ذكر الله من الجهاد عنده كذلك ، ولا تكون تجارة عند الله سبحانه للعباد نجاة من

وأمثاله وقال أبو البقاء : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جواب شرط محذوف ، أي : إن تؤمنوا يغفر لكم ، أو جواب لما دل عليه الاستفهام ، أي : هل تقولون إن دلتكم . حاشية العلوي ٣١٥ ، ٣١٦ .

وقرأ الإمام زيد بن علي عليه السلام (تؤمنوا ... وتجاهدوا) ووجهها أنها جزمت على إضمار لام الأمر كقوله :

محمد فقد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالا (كشاف ٥٢٧/٤)

(١) الروم : ١٤ — ١٦

(٢) السجدة : ١٨

العذاب والمهالك ، وبه تقوم أحكام رب العالمين ، ويحيي دين خاتم النبيين ، ويعز المؤمنين ، ويذل الفاسقون ، وتشيع الأكباد الجائعة ، وترفع الرقاب الخاضعة ، وتظهر حجج الحق الدامغة ، وتموت البدع الشائعة ، وتعلو وتظهر الخيرات ، وتماط وتبقى الفاحشات ، ويعمل في كل البلاد بالصالحات ، وينصر المظلومون ، ويردع الجائرون ، وتكسى الظهور والجنوب العاريات ، ويمت الظلم والشرور ، وتقضى عن الغارمين الغرامات ، فيألفها من تجارة ما أربحها ، ودعوة ما أنورها ، لو كان لها من الأنام مجيئون ، أوفى هذه الأمة المخذولة طالبون ، ولكن لا طالب ولا تاجر فيها ، ولا مقبل إليها ، تعلقوا بالشبهات ، وتسلبوا بالأمنيات ، وكرهوا الوفاة ، واستطابوا تافه الحياة ، ومالوا إلى غرور الدنيا ، وجرؤا واستبقوا في ميادين الهوى ، وزهدوا في دار الخلد التي تبقى ، لانصب فيها ولا تعب ولا شقاء ، كأن لم يسمعوا الواحد العلي الأعلى يقول فيما نزل من الوحي على نبيته المصطفى : ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾^(١) .. إلى آخر كلامه عليه السلام .

ثم قال سبحانه : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي : طاهرة من جميع الأقدار والأكدار ، كاملة الأوصاف ..

وفي التجريد عن رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله : ﴿ومساكن طيبة﴾ (قصر من لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر ، في كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من

(١) العنكبوت : ٦٤ ، والكلام للإمام الهادي عليه السلام .

طعام ، في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة ، قال : فيعطى المؤمن من القوة في مقدار غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله ﴿ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيُّ وَالْحَاكِمُ ﴾^(١) .

ومعنى ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي : جنات إقامة وخلود لا انتقال عنها ﴿ذَلِكَ﴾ أي : الجزاء والريح في هذه التجارة ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : الظفر الذي لا أعظم منه ﴿وَأُخْرَى﴾ أي : ولكم إلى هذه النعمة المذكورة في الآجلة نعمة أخرى عاجلة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ أي : محبوبة لكم

ثم فسرهما فقال : ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ فتح مكة^(٢) وقيل : فارس والروم ، وفي قوله : ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ نوع توبيخ لهم على حب العاجل ، وقوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ لأنه في معنى الأمر كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا .. إلى آخره ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ الحواريون : هم أصفياؤه^(٣) كانوا أول من آمن به ، وكانوا اثني عشر ، وحواري الرجل صفيه الخالص من الخور ، وهو البياض الخالص ، والتشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح ، أي : كونوا أنصارا لله ، كما قال الحواريون من أنصار عيسى حين قال لهم : ﴿من أنصاري إلى الله﴾ وإلى بمعنى مع ، ومنه المثل "الذود إلى الذود إبل" أي : مع الذود .

(١) أورده في مجمع البيان ٣٥٦/٩ ، بلفظه عن الحسن عن عمران بن الحصين وأبي هريرة ، وهو في التزغيب والتزهيب ٥١٦/٤ ، عنهما ، وقال : رواه الطبراني والبيهقي بنحوه ، وعزاه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٦٩٥/٦ إلى كتاب الزهد لابن المبارك ٥٥٠ ، وتفسير القرطبي ٨٨/١٨ ، والطبري ١٢٤/١٠ ، والآل المصنوعة للسيوطي ٢٥٤ ، وتنزيه الشريعة للعراقي ٣٨٢/٢ ، والدر المنثور ٢٥٧/٣ ، وموضوعات ابن الجوزي ٢٥٢/٣ . وذكره الحاكم المحامي في تفسيره لهذه السورة (مخطوط) .

(٢) في مجمع البيان ٣٥٧/٩ فتح مكة عن الكلبي ، وقيل : يريد فارس والروم وسائر الفتوحات عن عطاء .

(٣) وسبق في تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام أن الحواريين هم صفوة الأنبياء عليهم السلام ، وفي مجمع البيان ٣٥٧/٩ : الحواريين ، وهم خاصة الأنبياء وسماوا بذلك لأنهم أخلصوا من كل عيب ، عن الزجاج .

وقال في الكشف^(١): بل هي على معناها الأصلي ، أي : من جندي متوجها إلى نصره الله وإضافة ﴿أنصاري﴾ خلاف إضافة ﴿أنصار الله﴾ فإن معنى ﴿نحن أنصار الله﴾ : نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى ﴿من أنصاري﴾ من الأنصار الذين يختصون بي ؟ ويكونون معي في نصره الله ؟ ولا يصح أن يكون معناه : من ينصرنني مع الله ؟ لأنه لا يطابق قول الحواريين .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي : ينصرون دينه ﴿فَأَمَّنتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي : صدقت بعيسى ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ .

وفي التجريد عن ابن عباس "يعني في زمن عيسى بن مريم أنه لما رفع تفرق قومه ثلاث فرق ، فرقة قالت : كان الله فارتفع ، وفرقة قالوا : كان ابن الله فرفعه إليه ، وفرقة قالوا : كان عبد الله ورسوله فرفعه ، وهم المؤمنون ، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس فاقتتلوا فظهرت الفتتان الكافرتان على المؤمنين ، حتى بعث محمد صلى الله عليه وآله فظهرت الفرقة المؤمنة على الفرقتين الكافرتين ، قيل : بالحجة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله وافقهم ، وقيل : بالسيف"^(٢) .

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ التأييد : هو التقوية ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي : فصاروا عالىين لهم .

وعن زيد بن علي عليه السلام : "بالحجة لا بالسيف" . والله أعلم .

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل ، تأليف أبي القاسم جابر الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . والنص في الكشف : ٩٥/٤ ، "فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿من أنصاري﴾ إلى الله ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين : ﴿نحن أنصار الله﴾ والذي يطابقه أن يكون المعنى : من جندي ؟ متوجها إلى نصره الله وإضافة ﴿أنصاري﴾ خلاف إضافة ﴿أنصار الله﴾ فإن معنى ﴿نحن أنصار الله﴾ : نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى ﴿من أنصاري﴾ من الأنصار الذين يختصون بي ؟ ويكونون معي في نصره الله ؟ ولا يصح أن يكون معناه : من ينصرنني مع الله ؛ لأنه لا يطابق الجواب ، والدليل عليه قراءة من قرأ (من أنصار الله)" . ٥٢٨/٤ .

(٢) وفي مجمع البيان ٣٥٧/٩ عن ابن عباس بلفظه .

سورة المودة [الممتحنة]

ثلاث عشرة آية اتفاقاً ، مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (١) أي : أصدقاء .

(١) الولي : خلاف العدو ، والولاية : نقيض العداوة ، والمحبة والمودة من النظائر ، والمرضاة : للرضاء وهو خلاف الغضب . (التهذيب للحاكم الجشمي) .

في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليها السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ فالعدو : واحد وجمع ، وتلقون إليهم : معناه تخبرونهم سرا أنكم على مودتهم ، وأنهم يقولون إياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، فلا تتخذوهم أولياء ، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وقوله تعالى : ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني : جار عن وسط الطريق . وقوله تعالى : ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ﴾ معناه : يلقوكم وقوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه : لا تنصرهم علينا فيظنوا أنهم على حق ، ونحن على الباطل . وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَاجِرَاتٍ فَاثْتَحَنُوهُنَّ﴾ معناه : أختبروهن وجربوهن . وقوله تعالى : ﴿وَأَتَوْهُمَ مَا أَنْفَقُوا﴾ معناه : أعطوهم مهر النساء اللاتي يخرجن إليكم منهم مسلمات . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ معناه : بجلهن وستتهن .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ معناه : أعجزكم أحد من الكفار ، معناه : إن ذهبت امرأة مسلمة فلحقته بالكفار من أهل مكة مرتدة ، وليس بينكم وبينهم عهد فاعطوا زوجها مهرها من الغنيمة بدل الخمس وقوله تعالى : ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ يعني : فأصبتم عقبي مثلهن ، ويقال : فغنمتم .

السبب : أن حاطب بن أبي بلتعة^(١) كتب إلى قريش مع ضعيقة^(٢) يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله يريدهم ، وذلك أيام تهيؤ النبي صلى الله عليه وآله للفتح ، فنزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله في أثرها فرسانا فيهم علي عليه السلام إلى روضة خاخ^(٣) فحدث وحلفت فهموا بالرجوع ، فقال علي عليه السلام : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسل سيفه فأخرجته من عقاص رأسها^(٤) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لحاطب : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ما كفرت منذ أسلمت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت ملصقا^(٥) في قريش ، وكل من معك لهم قرابات بمكة يحمون أموالهم

(١) حاطب بن أبي بلتعة ، بفتح الموحدة ، وسكون اللام بعدها مثناة ثم مهملة مفتوحات ، ابن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهيل اللخمي ، حليف بني أسد بن عبد العزى ، يقال : إنه حالف الزبير ، وقيل : مولى عبيد الله ابن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد فكتابه ، فأدى كتابته ، اتفقوا على شهوده بدرا ، وعلى قصته في كتابه إلى أهل مكة يخبرهم بتحيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية .

قال في الإصابة ٢٩٩/١ روى قصته ابن مردويه من حديث ابن عباس ، وروى ابن شاهين والبارودي والطبراني من طريق الزهري ، عن عروة عن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة ، الخ بنحو هذا الحديث ، كما رواه ابن مردويه من حديث أنس وفيه نزول الآية ، ورواه ابن شاهين من حديث ابن عمر بإسناد قوي ، وفي الاستيعاب للقرطبي بهامش الإصابة ٣٤٧/١ : حاطب بن أبي بلتعة ، اللخمي من ولد لخم بن عدي ، في قول بعضهم ، ويقال : إنه من مذجج ، شهد بدرا والحديبية ، ومات سنة ٣٠ هـ بالمدينة ، وهو بن خمس وستين سنة ، وصلى عليه عثمان ، وروى قصة كتابه إلى أهل مكة ، وقال : فبعث رسول الله في طلب المرأة علي بن أبي طالب وآخر معه قيل : المقداد بن الأسود ، وقيل : الزبير بن العوام . وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٤٦/٩ مضمون القصة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث عليا وعمارا وعمر والزبير ، وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد ، وذكر رواية البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي رافع ، قال : سمعت عليا عليه السلام يقول : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله والمقداد والزبير ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ضعيقة ، معها كتاب ، فخرجنا ، وذكر نحوه ، وفي تفسير القمي ٣٧٤/٢ أن اسم المرأة : ضعية .

(٢) الضعيقة : أصلها الراحلة التي يرجل ويضعن عليها ، أي : يسار ، وقيل للمرأة : ضعيقة . (علوي)

(٣) روضة خاخ ، موضع بقرب حمراء الأسد من المدينة ، وقيل : إنه موضع قريب من مكة ، والأول أصح ، تفسير الخازن ٢٨٨/٤ .

(٤) أصل العقص : اللّي وإدخال أطراف الشعر في أصوله . (علوي ٣١٢) .

(٥) ملصقا : أي : غريبا . ذكره في الكشف

وأهاليهم غيري ، فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم من الله شيئا ، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله " ومثل هذا في البرهان ^(١) .

وفي رواية أن حاطب كتب إلى أهل مكة مع امرأة مولاة لبني عبد المطلب يقال لها : سارة ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة ، فقال صلى الله عليه وآله : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا ، قال : أمهاجرة جئت ؟ قالت : لا ، قال : فما حاجتك ؟ قالت : ذهبت الموالي يوم بدر ، أي : قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة ، فحث عليها بني عبد المطلب ^(٢) فكسوها وحملوها وزودوها ، فأتاها حاطب فأعطاهم عشرة دنانير ، وكساها بردا ، واستحملها الكتاب إلى أهل مكة ، فبعث صلى الله عليه وآله عليا وعمر وعمارا وطلحة والزبير خلفها ، وهم فرسان فأدركوها .. الخبر كما مر آنفا ^(٣) .

ثم فسر اتخاذهم الأولياء [فقال] عز وجل : ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ ^(٤) التي بينكم وبينهم والباء إما زائدة ^(٥) أو للسببية ^(٦) والمفعول محذوف ، أي تلقون إليهم أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله بسبب المودة ، وكذلك ﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ ^(٧) .

(١) انظر البرهان خ ٣٧٥ . وتخرج هذه الرواية والرواية الثانية بعدها مذكور في تخریج الكشف لابن حجر ٥١١/٤ وذكر الروایتين أيضا الحاكم الحسني في تفسيره التهذيب خ .

(٢) في تفسير الرازي : مولاة لبني هاشم يقال لها : سارة ، وكذلك في تفسير الطبري ٥٧/١٨ ، وتفسير الخازن ٢٧٨/٤ ، تفسير ابن الجوزي ٢٣٠/٨ ، أما في تفسير القمي فقال : إن اسم المرأة صفية ٣٧٤/٢ .

(٣) النص في تفسير الرازي وفي تفسير الطبري من عدة طرق ٥٧/٢١ ، وفي تفسير النسائي ٤١٤/٢ وردت قصة حاطب عن علي ، وأخرجه البخاري كتاب الجهاد ، باب الجاسوس رقم ٣٠٠٧ وكتاب المغازي باب غزوة الفتح رقم ٤٢٧٤ ، وكتاب التفسير رقم ٤٨٩٠ ، ومسلم في صحيحه رقم ١٦/٢٤٩٤ ، وأبو داود رقم ٢٦٥٠ ، والترمذي رقم ٣٣٠٥ ، وفي تفسير الخازن ٢٨٠/٤ وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٣٠/٨ وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٤١/٩ .

(٤) الإلقاء : عبارة عن إيصال المودة ، والإفضاء بها إليهم ، يقال : ألقى إليه خراشي صدره ، وأفضى إليه بقشوره .
(٥) وهو قول الفراء وأبي عبيدة ، وابن قتيبة ، والجمهور ، ذكره ابن الجوزي في تفسيره . وهي زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ .

(٦) وهو قول الزجاج . أي : أنها ثابتة لا زائدة ، والمفعول محذوف كما ذكر .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ” يريد عز وجل النهي عن المودة للكافرين ، الذين باينوا الله والمؤمنين ، ولا يجوز لأحد أن يكاثرهم ، ولا يوادهم ، [ولا يذل] ولا يخضع لهم ^(١) .

(٧) أي : تفضون إليهم بمودتكم سرا ، أو تسرون إليهم أسرار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبب المودة .

(١) ما بين القوسين من تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، وقال فيه بعد هذا الكلام :

ومعنى ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ هو أنهم فعلوا ذلك لئلا تؤمنوا بالله ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿إن كنتم خرستم جهادا في سبيلي﴾ على التقديم والتأخير ، وهو راجع إلى قوله : ﴿لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ ﴿إن كنتم خرستم جهادا في سبيلي﴾ ولكن قدم وأخر .

﴿ومن يفعل ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ يريد عز وجل أن من كاتب أعداء الله ، وأرسل إليهم بالمودة فقد ضل سواء السبيل . السواء : هو الوسط ، والسبيل : هو طريق الإسلام ، الذي جعله الله برحمته لجميع الأنام .

ومعنى ﴿إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء﴾ يريد : إن يظفروا بكم ويستمكنوا منكم ، قال الشاعر :

فأما تقفني بني لؤي حذبة إن قتلهم دواء

﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم﴾ يريد عز وجل أنه لا ينفع أحدا من الناس مواصلة ذوي الأرحام ، بل النفع في هجرتهم غضبا لذي الجلال والإكرام ، ومعنى ﴿يفصل بينكم﴾ هو : يفرق بينكم ، ولا ينفعكم في ذلك اليوم مواصلةكم ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة﴾ أي : مساواة حسنة بإبراهيم ومشابهة وقودة ، وعن تبعه وهاجر قرابته وكان معه ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ والبراءة : هي المقاطعة والمباينة ، ومعنى ﴿كفرنا بكم﴾ هو تبرأنا منكم وعاديناكم ، قال الشاعر :

كفرت به حين احتبى بكسائه

﴿ويدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ ومعنى ﴿يدا﴾ هو : ظهر وبان بيننا وبينكم ، حتى لم يخف ولم نكنم عداوتنا لكم أبدا ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ . ومعنى ﴿واليك أنبأ﴾ هو : رجعنا وتبنا . ومعنى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ يريد : عند توبتهم ورجعتهم سيجعل المودة والمحبة بينكم وبينهم ، وهو جعل أمر وحكم . ثم قال عز وجل فرقا بين المحاربين منهم وبين المسيئين في فعلهم ، الذين لا يطعنون على أولياء الله ولا في دينهم : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ فرخص بهذا القول في مكابنتهم ، والانتفاع في بعض الأوقات بهم ، ولكن لا يجوز مع ذلك الركون ولا تحاب دعوتهم ، ولا توكل ذبايحهم ، ولا تقبل شهادتهم ، ولا تجوز ولايتهم ، بل يحترز منهم ، ولا يشر إليهم ولا يتكل في أكثر الأمور عليهم ، ولكن تقضى حوائجهم ويلقون الكلام الجميل فيهم ، ويكرمون ويوعظون في غفلتهم .

ثم قال سبحانه: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي فيه نجاتكم وسعادتكم ، وهو القرآن ودين الإسلام .

﴿يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة ، وهو معطوف على الرسول ، وقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ تعليل ليخرجون ، أي : يخرجونكم لأجل إيمانكم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي﴾ أي : للجهاد في حق ديني ولأجله ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ عنكم

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني : المحسنين ، والقسط : هو العدل والإحسان ، والقسط : هو المحسن العدل في أفعاله ، والقاسط : هو الجائر عن الحق في فعله ومقاله ، وهذان وجهان متضادان متغايران ، وهما في الكلام واللفظ متقاربان ، فافهم الفرق بينهما ، وميز بين تفسير معناهما ، ومعنى ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ يعني ظاهروا ، أي :عاونوا على إخراجكم ، فنهى عز وجل عن بر أولئك ، ومكاتبتهم ، وأمر بعداوتهم ومقاطعتهم ومباذلتهم ومحاربتهم . ومعنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الله أعلم بإيمانهن يريد : فاختبروهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ روي — والله أعلم — أن هؤلاء الكفار الذين أمر الله عز وجل ببرد ما أنفقوا إليهم ، وأمرُوا أَنْ يَعْوِضُوا بِدَلِّ نَسَائِهِمُ الْمِهَاجِرَاتِ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْمَهْرِ وَالصَّدَقَاتِ قَوْمٌ كَانُوا مُعَاهِدِينَ ، وقيل : إنه ما كان ليردوا إليهم عوضاً لو كانوا عارفين ؛ لكن الله قد أحل من المحاريب أكثر من الأموال من سفك دمائهم وقتلهم عند القتال وأخذهم وهلاكهم في كل الأحوال . ومعنى قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي : لا مَأْثَمَ عليكم ، والجناح : هو المأْثَمُ قال الشاعر :

فبأنه لو أرسلت فيهن مطلقاً وقالوا تحير ما عليك جناح

يريد : ما عليك مأْثَم . ومعنى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ العصم : هي عقد النكاح . ومعنى ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ وروي في هذه الآية أن الله عز وجل أمر لمن ذهب زوجته إلى الكفار المحاريب بمثل ما أعطاهما تؤخذ له من أموال الكافرين ، وتكون عوضاً له من الغنيمة التي أخذت عند معاقبة المشركين ، وفي هذا نظر سنينه إن شاء الله تعالى . ومعنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هي البعثة اليمينية والعهد والميثاق ومعنى ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِتَانِ يَفْرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ والبهتان : هو الكذب . والافتراء : هو الإخراق والاختراع للمحال بأنفسهن اللواتي ما بين أيديهن وأرجلهن . ومعنى ﴿قَدْ يَمْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَمْسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ يريد كما يمس المشركون الذين حصلوا في القبور ، فصاروا في ترك التوبة في حياتهم بمنزلة الأموات الذين في قبورهم ، ويحتمل وجهاً آخر : وهو أنهم قد يمسا من الوعد والوعد والحساب ، ووجدوا ما وعد الله من الثواب والعقاب ، كما جحد الكفار بعث أهل القبور ، ويمسا لهم من البعث والنشور .

وقال عليه السلام : "معنى الآية على التقديم والتأخير ، وهو راجع إلى قوله : ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي ﴿وَلَكِنَّهُ قَدَمٌ وَأَخِرٌ﴾. اهـ وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلق بـ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ، فهو شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه ^(١) .

﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ تفضون إليهم بمودتكم سرا ^(٢) أو تسرون إليهم أسرار رسول الله ﷺ عليه وآله بسبب المودة ، وهو استئناف معناه : أي طائل لكم في إسراركم ، وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان بيان في علمي [وأنا مطلع رسولي على ما تسرون] ^(٣) وفيه نوع من تأكيد التوبيخ ، ولذلك قال سبحانه : ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ ولم يقل : بما أسررتم وما أعلنتم ، مع أنه أليق بما سبق ، وهو ﴿تَسْرُونَ﴾ وذلك لأن فيه من المبالغة ما ليس في ذلك ، فإن الإخفاء أبلغ من الإسرار ، دل عليه قوله : ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي : أخفى من السر ^(٤) .

﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي : الإسرار ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي : أخطأ وسط طريق الحق والصواب ، وهو الطريق إلى الإسلام ، الذي جعله الله برحمته لجميع الأنام .

(١) قال الزجاج : هو شرط جوابه متقدم ، أي : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء .

(٢) إشارة إلى أن قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلق بـ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ وأن جوابه محذوف غير منوي ، وأنه قد جعل تنميماً للكلام السابق ومبالغة فيه كما يقال : لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي ، ولو قيل : إن كنتم أوليائي لا تتولوا أعدائي لم يكن بذلك ، لأن الشرط في الأول كالتعليل للنهي يقتضي حصول مضمونه قبل ذلك ، وفي الثاني بمجرد التعليق ، وعمله على الحالية من فاعل لا تتخذوا ، أي : لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، والحال حال خروجكم في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله .

(٣) أي : أنه ضمن تسرون معنى تفضون وعدي تعديته ، فالباء هنا زائدة للتوكيد ، والمفعول هو مودتكم ، وقوله : أو تسرون . هو الوجه الثاني وهو كون المفعول محذوف والباء سببية .

(٤) ومثله في الكشف ، وما بين أقواس الزيادة من الكشف ٥١٢/٤ .

(٥) طه : ٧ . والنص بين المعقوفين مثله في تفسير الرازي ٢٩٩/٢٩ .

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ﴾ أي: إن يظفروا بكم، والثقف: الأخذ بقدرة^(١) ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: خالصي العداوة، ولا يكونوا لكم أولياء، كما أنتم لهم، والمعنى: إن يتفقوكم تظهر عداوتهم لكم، ويعظم أثرها ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: بالقتال والشتيم ﴿وَوَدُّوا﴾ تمنوا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تردون عن دينكم، الذي فيه سعادتهم، فإذا مودتهم خطأ عظيم^(٢).

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراياتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أحلهم [وتتقربون إليهم محاماة عليهم] ثم قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾^(٣) فمالكم ترفضون حق الله [مراعاة] لحق من يفر منكم غدا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الموالاة وغيرها^(٤).

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ أي: إقتداء، وهي اسم لما يؤتسى أي: يقتدى به^(٥) وقرئ بضم الهمزة أسوة ﴿حَسَنَةً﴾ مرضية ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين التابعين

(١) يتفقوكم: يصادفوكم ويجدوكم، يقال: ثقفته أثقفه ثقفا، وأنا ثاقف، ومنه تعيف، ومنه المثاقفة طلب مصادفة في المسافة. (التهذيب للحاكم).

(٢) ذكر في الكشف أنه أورد جواب الشرط ماضيا فقال: ﴿وودوا﴾ وعدل عن المضارع لنكته، وهي كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، قال السيد العلوي: وذلك لأن أعظم متعنى الكفار، والأهم لديهم كسان ارتداد المسلمين ولا انحسار مادة العداوة به صرح بتعنيهم إياه عدل إلى لفظ الماضي لبيان الأولوية، والأولية، وتحريره: أنه تعالى لما نهى المسلمين عن اتخاذ من يعاديهم أولياء بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأراد أن يخبر عن مطوي سرائرهم من ثمتهم للمسلمين عثار الدنيا والدين، وانتهاز الفرصة لتحقيق متعناهم قال: ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ﴾ يكونوا لكم أعداء كما قررنا فظهر أن الجزاء مقدر، وهذا دال عليه، وهو من إطلاق السبب على المسبب. (علوي ٣١٣).

(٣) عيسى: ٣٤

(٤) ما بين القوسين مثله في الكشف، وما بين أقواس الزيادة منه (انظر الكشف ٥١٣/٤).

(٥) وفي الرازي: الأسوة لما يؤتسى به مثل القدوة لما يقتدى به، يقال: هو أسوتك، أي: أنت مثله وهو مثلك، وجمع الأسوة أسى، فالأسوة لكل ما يقتدى به ٣٠٠/٢٩.

لأثره ، وقيل : هم الأنبياء ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أي : وقت قالوا ﴿لِقَوْمِهِم﴾ الكفار منهم ﴿إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فكاشفهم بالعداوة ، وأفصحوا عن محض الإخلاص ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي : بدينكم ، وعبودكم من دون الله ، والمعنى : أنكرناكم وقطعناكم ﴿وَبَدَأَ﴾ أي : ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ حتى لم نخف ، ولم نكنم عداوتنا لكم ﴿أَبَدًا﴾ مادمتم كافرين ﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ لا تشركوا به شيئا .
(إن قيل : ما الفائدة في قوله : ﴿وَحْدَهُ﴾ والإيمان به وبغيره من اللوازم ، كما قال : ﴿كُلَّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ؟)

قيل له : — ولا قوة إلا بالله — والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله وحده ؛ إذ المراد من قوله : ﴿وَحْدَهُ﴾ هو وحده في الإلهية ، ولا شك في أن الإيمان بإلهيته وإلهية غيره لا يكون إيمانا بالله ؛ إذ هو الإشراك في الحقيقة ، والمشارك لا يكون مؤمنا) .

وقوله : ﴿إِنَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مستثنى من أسوة أي : قد كانت لكم في مكاشفتهم أسوة ، بقول إبراهيم صلى الله عليه وآله ما خلا وعده لأبيه بالاستغفار .
قال ابن عباس : كانت لكم أسوة حسنة في صنيع إبراهيم ، إلا في استغفاره لأبيه وهو مشرك ، فإنه لا يجوز الاستغفار للمشركين .

وقد روى السيد العلوي عن الزمخشري أنه قال : القدوة والأسوة لكل واحد منهما معنيان ، أحدهما : الاقتداء والإتساء وهو الأصل ، والثاني : المقتدى به والمؤتسى به ، والآية تحتل الأمرين (علوي ٣١٣) وقال الحاكم الحشمي في تفسيره : الأسوة : القدوة ، ولي فيه أسوة وهو أن يفعل مثل فعله متأسيا به ، وتأسى به أي : اقتدى به .
(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) ومثل ما بين القوسين موجود في الرازي بلفظه (٣٠١/٢٩) .

(٣) قال السيد العلوي : والظاهر أنه استثناء منقطع لاختلاف القولين .. قال أبو البقاء : ﴿إِنَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو استثناء منقطع من غير الجنس ، إلا تأسوا به في الاستغفار للكفار .

وقوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لم يقع عليه الاستثناء ؛ إذ لا يحسن استثناءه ، لكنه تابع للوعد الذي وقع عليه الاستثناء ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما في طاقتي إلا الاستغفار دون الغفران^(١) .

وقوله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ متصل بما قبل الاستثناء من جملة الأسوة الحسنة ، ويجوز أن يكون المعنى : قولوا : ربنا ، أمراً ، أمر المؤمنين أن يقولوا : أسندنا جميع أمورنا إليك [وتعليماً منهم] تميمًا لما أوصاهم به من قطع علائق الكفار ، والإتساء بإبراهيم وقومه^(٢) .
﴿وَالَيْكَ أَنْبَأُ﴾ أي : رجعنا وتبنا عما لا يرضيك ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : لا تجعلنا موضع فتنة لهم ، أي : موضع عذاب لهم ، يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا ، أو تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك

﴿وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على إجابة دعوتنا ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئاً إلا لحكمة وصواب .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كرره تأكيداً وتقريراً^(٣) وقوله: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بدل من ﴿لَكُمْ﴾ في ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ

(١) قال الزمخشري في الكشاف ٥١٤/٤ : فإن قلت : فإن كان قوله: ﴿أستغفرن لك﴾ مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فما بال قوله: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء ألا ترى إلى قوله: ﴿قل فمسن علك من الله شيئاً﴾ قلت : أراد استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبني عليه وتابع له كأنه قال : أنا أستغفر لك وما في طاقتي إلا الاستغفار .

(٢) ومثله في الكشاف ، وما بين أقواس الزيادة منه وزاد في الكشاف بعد قوله : والإتساء بإبراهيم وقومه : وتبنيها على الإنابة إلى الله ، والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر ، والاستغفار مما فرط منهم . (انظر الكشاف ٥١٤/٤)

(٣) ولذلك جاء به مصدراً بالقسم ؛ لأنه الغاية في التأكيد ، وأبدل عن قوله: ﴿لَكُمْ﴾ قوله: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وعقبه بقوله: ﴿ومن يتول الله فإن الله هو الغني الحميد﴾ فلم يترك نوعاً من أنواع التأكيد إلا جاء به (انظر الكشاف ٥١٤/٤) .

أسوة حسنة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإيتساء بإبراهيم والذين معه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنه وعن موالاته ، وهو المحتاج إليه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد على عباده وإن لم يحمدوه .
قال الرازي : والحميد قد يكون بمعنى الحامد ، وبمعنى المحمود ، فالمحمود : هو الذي يستحق الحمد من خلقه بما أنعم عليهم ، والحامد : [أي] يحمد الخلق ويشكرهم ، حيث يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال ^(١) .

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ يا مسلمون ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ﴾ مشركي مكة ﴿مُودَّةً﴾ بأن يهديهم للدين ، فيصرون لكم أولياء وإخوانا ، وقد فعل ذلك بعد الفتح فأسلم قومهم ، وتم بينهم من التحاب ماتم ، و ﴿عَسَى﴾ وعد من الله على عادة الملوك ، حيث تقول في بعض الحوائج : عسى ولعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك ، أو قصد [به] إطماع المؤمنين .

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على قلبب القلوب وتيسير أسباب المودة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أسلم من المشركين .

ولما رأى تشددهم في عداوة آبائهم وأبنائهم وأقاربهم وعدهم بعسى كما مر ، ورخص لهم في صلة من لم يقاتلهم فرقا بين المحاربين منهم وبين المسيئين ^(٢) في فعلهم ، الذين لا يطعنون على أولياء الله [في فعلهم] ^(٣) ولا في دينهم فقال :
﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ من مكة ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾ قيل : خزاعة ^(٤) كان لهم عهد ، فأمرهم الله تعالى ، أن يبروهم بالوفاء ، حتى نسخت بآية السيف ، ذكره في البرهان ^(٥) .

(١) تفسر الرازي ٣٠٢/٢٩ ، وما بين المعقوفين منه وكذلك تصحيح بعض الألفاظ منه .

(٢) في تفسير القمي ٣٧٥/٢ قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿عَسَى رَبِّكُمْ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ : فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بالبراءة من قومهم ماداموا كفارا ، فقال : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

(٣) هنا اشتباه في اللفظ هل هو (المسيئين) بلون (في فعلهم) لأنه يحتمل أن يكون مكانها هو موضع أقواس الزيادة . أو ما أشتبه

(٤) ما بين القوسين زيادة ليستقيم الكلام .

وقيل : من لم يهاجر من مكة ^(١) وقيل : نزلت في قتيلة ^(٢) أم أسماء بنت أبي بكر أتت بنتها أسماء مشركة بهدايا من مكة ، فلم تأذن لها بالدخول ، ولا القبول حتى أذن لها صلى الله عليه وآله ففعلت ^(٣).

وقيل : إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية ^(٤) وقيل : بقوله : ﴿فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٥) .
وقيل : إنها لا تنافي النهي عن موالاة المشركين ؛ لأن هذه في البر بين المسلمين والمشركين ، وإن كانت الموالاة منقطعة ، وهي المحبة والنصرة ، ذكر معناه الواحدي وقال في البلغة : "لما عوتب حاطب بن أبي بلتعة ، وأمر المؤمنين بالبراءة من المشركين بين أنه لا ينهي المسلمين عن حسن العشرة ، ولين القول مع الكفار الذين لم يقاتلوهم ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، فرقا بينهم وبين المحاربيين " اهـ .
وهذا هو الأولى ، وهو معنى كلام الواحدي ، ويدل عليه أنه ذكر البر ولم يذكر الموالاة . والله أعلم .

وقوله : ﴿أَنْ تَبْرَهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ لَمْ يقاتلوكم﴾ أي : لا ينهاكم عن برهم وصلتهم

(٥) قال في الرازي : وهم خزاعة إلى قوله : وهذا قول ابن عباس والمقاتلين والكلبي ، وروي عن الحسن البصري .

(٦) انظر البرهان ص ٣٧٦ . وقد نسب الكشف هذا القول إلى قتادة ٥١٦/٤ .

(١) في تفسير الرازي : وهو قول مجاهد ، وكذلك في الكشف ٥١٦/٤ .

(٢) وفي تفسير الطبري ٦٢/١٨ عن عبد الله بن الزبير ، نزلت في أسماء بنت أبي بكر ، وكانت لها أم في الجاهلية يقال

لها : قتيلة ابنة عبد العزى الخ ، وفي تفسير الخازن نفس الرواية ٢٨١/٤ .

(٣) هذا القول هو قول عبد الله بن الزبير .

(٤) المجادلة : ٢٢

(٥) التوبة : ٢٩

﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي : تعدلوا فيهم بالإحسان ، وناهيك — بتوصية الله المؤمنين ، أن يقسطوا مع المشركين ، ويتحاموا ظلمهم — مترجمة عن حال مسلم يجتري على ظلم أخيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ القائمين بحق الرحامة .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ” يعني المحسنين ، والقسط : هو العدل والإحسان ، والمقسط : هو المحسن العدل في أفعاله ، والقاسط : هو الجائر عن الحق في فعله ومقاله ، وهذان وجهان متضادان ، وهما في الكلام متقاربان فافهم الفرق بينهما ، وميز تفسير معناهما “ (١) اهـ .

قال المرتضى عليه السلام (٢) : ” هذا إطلاق من الله سبحانه لأوليائه في المسألة والمعاملة والمكاتبة لمن لم يطعن عليهم ، ولم يقاتلهم ولم تبين العداوة منه لهم ، ممن كان مهادنا لهم محالفاً ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لما حظر على أوليائه الموالاة والمودة والمكاتبة لمن كان حاربهم ، وأخرجهم من ديارهم ، وأبان العداوة لهم ، فلما منعهم سبحانه منهم امتنعوا منهم ومن غيرهم ممن كان من أحلافهم ، طلبا لرضاء الله ، ومباينة لأعدائه ، فأخبرهم الله سبحانه أنه إنما نهاهم عن حاربهم وطعن عليهم وقاتلهم ، فأما من لم يطعن عليهم ولم ينقض عهدهم ، لم ينقض عهده وذمته ، فهم على ما كان بينهم حتى ينقضوه بفعلهم فإذا كان ذلك منهم وجب عليهم الترك والمباينة ، والمعاداة لهم “ . اهـ .

ثم أخبر سبحانه عما نهاهم عنه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي : عن تولى الذين قاتلوكم في الدين بسبب الإيمان والدخول فيه ﴿وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ والمظاهرة : المعاونة ، أي : وعاونوا على إخراجكم ، فهى عز وجل عن بر أولئك ومكاتبتهم ، وأمر بمقاطعتهم وعداوتهم ومناذتهم ومحاربتهم ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي : عن أن تولوهم ، وهو بدل ممن قاتلوكم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بموالاة أعداء الله وموادتهم

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام أوائل هذه السورة .

(٢) تقدمت ترجمته في الجزء الأول ص ٢٧ .

ثم قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾^(١) سماهن مؤمنات ، لنطقهن بالشهادة ، ولم يظهر فيهن ما ينافيها ، أو لمشارفتهن [لثبات]^(٢) الإيمان بالامتحان .

﴿فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي : فاختبروهن بالخلف ، والنظر في الأمارات .
وكان صلى الله عليه وآله يقول للممتحنة : (بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله ، بالله ما خرجت من بغض زوج)^(٣) .

(١) قال الجشمي في التهذيب : المجر : ضد الوصل ، وهو الأصل في الباب ، قال الأزهري : المهاجرة عند العرب خروج البدوي من البادية إلى المدن إذا أقام بها ، وهاجر القوم من دار إلى دار تركوا الأولى للثانية ، وتهجر : إذا تشبه بالمهاجرين ، وفي الحديث (هاجروا ولا تهاجروا) قاله عمر ، والمجر : الهذيان ، والمجر : الفحش في المنطق لأنه هجر الصواب . والامتحان : الاختبار يقال : امتحنت الذهب والفضة إذا أذبتها لتختبرها حتى خلصت الذهب والفضة ، واصله من المحنة . والعصمة : سبب به يمنع من المكروه ، وجمعه عصم ، والاعتصام : التمسك بالشئ ، واعتصم به : امتنع به ، وكلما يتمسك به فهو معصم ، وأصل الباب المنع ، ومنه ﴿والله يعصمك من الناس﴾^(٤) لا عاصم اليوم من أمر الله والعصمة : العقدة ، يقال : عصمة المرأة بيد الرجل . الكوافر : جمع كافرة كقابله وقوابل ، وزانية وزواني ، فعلى هذا كوافر جمع النساء ، وقيل : هي على تقدير فرقة كافرة ، وفرق كوافر ، ويقع على الرجال والنساء ، وقيل : كوافر جمع كافر ، وقد يجمع فاعل على فواعل إذا كان اسما كفارس وفوارس ، وخالد وخوالد قال جرير :

أخالد قد علقتك بعد هند فتتسبي الخوالد والهند

وقيل : فواعل جمع فاعل إذا أجرى بها مجرى الاسم ، وإذا أجرى بها مجرى الصفة ، في جمع فاعلة ، وكافر أجري مجرى الاسم ، قال تعالى : ﴿فمنكم كافر﴾ ولم يقل : رجل كافر .

قال الرازي في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ...﴾ إلى قوله ﴿والله عليم حكيم﴾ : في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول ، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة ، إما أن يستمر عناده ، أو يرجى منه أن يترك العناد ، أو يترك العناد ويستسلم ، وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم ، وأمر المسلمين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال .

(٢) في الكشف : أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهم بالامتحان ٥١٧/٤ ، وفي الرازي : أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهم بالامتحان ، فاستحسننا كتابة [لثبات] لهذا .

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ منكم ، يعني بما في قلوبهن بعد امتحانهن ، ولو حلفتموهن ، لكن ذلك جهدكم ، والتحقيق عند الله تعالى ^(١) .

والسبب في نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وآله هادن قريشا عام الحديبية ، فقالت قريش : على أن ترد إلينا من جاءك منا ، و[لا] ^(٢) نرد عليك من جاءنا منك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : على أن نرد إليكم من جاءنا منكم ، ولا تردون علينا من جاءكم منا ، من اختار الكفر على الإيمان أبعد الله ، فعقد الهدنة بينه وبينهم على هذا — إلى أن جاءتهم منهم أم كلثوم ابنة عقبة ابن أبي معيط ، وقيل : إن زوجها جاء في طلبها ، فقال : يا محمد قد شرطت لنا رد النساء ، ورطب ^(٣) الكتاب لم يخف بعد ، وهذه امرأتني فارددها علي فلما طلب المشركون رد من أسلم من النساء منع الله من ردهن بعد امتحان إيمانهن بقوله : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ (أي : العلم الذي في وسعكم ، وهو الظن الغالب) ^(٤) ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ (أي : إلى أزواجهن المشركين) ^(٥) ولم

(٣) الحديث في الرازي ٣٠٥/٢٩. وفي الطبري من طريق ابن عباس ٦٤/١٢. وفي الكشاف بتقديم وتأخير ، وانظر تخرجه في الكشاف ٥١٧/٤.

(١) قال الزمخشري ٥١٨/٤ : فإن قلت : ما فائدة قوله : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ وذلك معلوم لا شبهة فيه ؟ قلت : فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمنن به النفس ويلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، وأن ما يؤدي إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك ، وأن تكليفكم لا يعده .

(٢) في الأصل : ونرد ، والصحيح ما أثبتاه بين قوسي الزيادة ، وفي البرهان مثل الأصل ، ونرد (البرهان ٣٧٦) .

(٣) كذا في الأصل ، ومعناه أن الشيء الرطب في الكتاب سواء كان الطين الذي يجفف به حبر الورقة ، كما ورد في مجمع البيان ، أو طية الكتاب ، وفي البرهان (وطين) وفي مجمع البيان (وطينة) وفي الكشاف (وطينة) وفي الكشاف أن الشيء جاءت سبعة بنت الحارث الأسلمية ، فأقبل زوجها مسافر المحزومي ، وقيل : صفي بن الراهب ، وفي السرازي الروائين ، سبعة ، وأم كلثوم ، وزاد الرازي وكانت هربت من زوجها عمرو بن العاص ، ومعها أخوها عمارة والولد فرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخويها وحسبها ، فقالوا : ارددها علينا ، فقال عليه السلام : كان الشرطي في الرجال دون النساء ..

(٤) وفي هذا دليل على أن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد جار مجرى العلم ، ولذا سماه الله علما . وما بين القوسين زيادة عما في البرهان ، وكذلك ما بين المعقوفين بعد هذا ، وما بين أقواس الزيادة ، وتصحيح الألفاظ من البرهان ، ومن قوله : سبب نزول الآية .. إلى قوله : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ مثله في البرهان بلفظه إلا ما جعلناه بين المعقوفين .

يشترط ردهن [في العقد] لفظاً ، وإنما أطلق العقد في رد من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال فبين الله خروجهن من العموم ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين : — أحدهما : أنهن ذوات فروج ، يحرم عليهن .

والثاني : أنهن أرق قلوباً ، وأسرع تقلباً منهم ، فأما المقيمة منهن على الشرك فمردودة عليهن ، وقد كان من أراد منهن إضرار زوجها قالت : سأهاجر إلى محمد ، فلذلك أمر رسول الله ﷺ بامتناعهن .

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَّهُنَّ﴾ الحل : بمعنى الحلال ، أي لا يحل أحدهما للآخر

﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ أي أزواجهن ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ يعني بالنفقة مهور من أسلم منهن ، إذا سأل ذلك أزواجهن ، وهاجرن إلى الرسول ﷺ مؤمنات ، راغبات في الحق ومسلمات .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : "وهن أم الحكم ابنة أبي سفيان ^(١) كانت عند عياض بن شداد الفهري ^(٢) ومرة ابنة ربيعة ، يقال لها : بروع ^(٣) كانت تحت شماس بن عثمان المخزومي ، وعمرة ابنة عبد العزيز [بن] نضلة ^(٤) ويقال : هند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص بن وائل السهمي ، فهؤلاء اللواتي هاجرن إلى رسول الله ﷺ وأعطى رسول الله ﷺ أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهور ، وكان مما أعطاهم فيه من

(٥) من قوله : ولم يشترط .. إلى قوله : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ تعليل لعدم رد النساء إلى المشركين .

(١) في تفسير الرازي : أم الحكم . وفي الكشف : أم الحكم .

(٢) عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد الفهري ، شهد بدرًا وأحلاً والخندق ، والمشاهد ، وكان يقال له : زاد الراكب ؛ لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده ، وإن كان مسافراً آثرهم زاده ، فإن نقد نحرهم جملة . زاد المسير ٢٤٣/٨

(٣) هي بروع بنت عقبة ، كما في تفسير الخازن وفي الكشف أيضاً ٥١٩/٤ .

(٤) في تفسير الخازن ٢٨٣/٤ ، وعمرة بنت عبد العزيز بن نضلة ، وتزوجها عمرو بن ود . وفي الكشف ٥١٩/٤ : عبدة بنت عبد العزى بن نضلة ، وتزوجها عمرو بن عبد ود .

الغنيمة وكان مما أعطى في ذلك عمر بن الخطاب كانت عنده قريبة^(١) ابنة أمية بن المغيرة المخزومي ، فلما هاجر أدارها على الهجرة فأبت عليه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله ما أنفق عليها ، ولم تكن آمنت ولا هاجرت ، وتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وهو كافر يومئذ ، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضا ما أنفق على امرأته أم كلثوم ابنة جرجول الخزاعي ، حيث أبت أن تهاجر معه^(٢) .

ثم قال سبحانه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا إثم ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ يعني المؤمنات إذا أسلمن عن أزواج مشركين ، أباح نكاحهن للمسلمين إذا انقضت عدتهن ، أو غير مدخول بهن .

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ غير ما دفع إلى أزواجهن .

وعن الضحاک^(٣) كان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين المشركين عهد : لا تأتيك منسا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها ، وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الشرط مثل ذلك .
قال قتادة^(٤) : ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد ﴿برأة﴾ ذكره في التجريد .

(١) ذكر الرعمشري أن اسمها فاطمة بنت أبي أمية ، وهي أخت أم سلمة وكانت تحت عمر بن الخطاب (٤/٥١٩) .
(٢) عن الزهري : طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة مشركتين ، قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية بن أبي سفيان ، وهما على شركهما بمكة ، والأخرى أم كلثوم بنت عمرو بن جرجول الخزاعية ، وهي أم ابنه عبيد الله ، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غنم ، وهما على شركهما . تفسير الخازن ٤/٢٨٣ . وبعض المفسرين يطلق عليها كلثوم بدون لفظ أم ، ومثل ما ذكره الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام ذكر الثعلبي ، ثم البغوي عن ابن عباس بلا إسناد (٣) وقد ذكره البغوي هكذا عن ابن عباس بدون إسناد ، وانظر الكشاف ٤/٥١٨ .

والضحاك : هو الضحاک بن مزاحم الهلالي ، البلخي ، الخراساني ، أبو القاسم ، ويقال : أبو محمد ، المتوفى سنة ١٠٥ هـ وقيل : ١٠٢ هـ وقيل : ١٠٦ هـ ، تابعي ، محدث ، مفسر ، مشهور ، روى عن أنس ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وجماعة من التابعين ، قال سفيان الثوري : أخذوا التفسير عن أربعة ، مجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك . مات بخراسان ، وله تفسير استخدمه الثعلبي ، والطبري عن طريق الرواية ، وبواسطة النقول من المراجع المختلفة . (انظر معجم المفسرين ١/٢٣٧) .

(٤) ومثله في الكشاف ٤/٥١٨ .

ثم نهى تبارك وتعالى عن نكاح الكوافر فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾ جمع عصمة ، وهي ما يعتصم به من عقد أو سبب ، أي : لا يكون بينكم وبينهن علاقة زواجة ، فإن العصمة لا تبقى بين المشتركة والمؤمن ، المعنى : إن لحقت بالمشركون واحدة من نسائكم فلا تمسكوا نكاحها^(١).

والمذهب الشريف : أن اختلاف الدينين يعني عن الطلاق في رفع النكاح ، ويكون ذلك فسخا لا طلاقا .

﴿وَأَسْأَلُوا﴾ يا مسلمون ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهر أزواجكم .

قال في البرهان : ”يعني أن المسلم إذا ارتدت زوجته ، إلى ذي العهد من المشركون المذكورين أن يرجع عليهم بمهرها ، كما ذكرنا أن للمشرک أن يرجع بمهر زوجته إذا أسلمت ، فإن لم يكن بينهم عهد شرط فيه الرد فلا يرجع ، وللأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعتقدوا في أعصارهم على قدر مصالح الخلق من العهود والعقود والشروط ما كان لأبيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وقته“^(٢) .

﴿وَلَيْسَ أَسْأَلُوا﴾ الكفار ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهر نسائهم المهاجرات ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ وقوله : ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف [أو حال من ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ على حذف الضمير] أي : يحكم الله بينكم ، وهذا من أحكامه ، أو جعل الحكم حاكما على البالغة^(٣) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل معلوم ، ومنه كيفية الحكم على الصحيح ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يحكم إلا بالصواب .

(١) قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها من نسائه ؛ لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ، وعن النخعي : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر . وعن مجاهد : أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن (انظر الكشف ٥١٨/٤) .

(٢) انظر البرهان ص ٣٧٦ .

(٣) المعنى لا يستقيم إلا بالزيادات التي أثبتناها ، وقد اعتمدنا في إثباتها الكشف ؛ لأن مثل اللفظ الذي أثبت المصنف موجود فيه (انظر الكشف ٥١٨/٤ ، ٥١٩) .

روي (لما نزلت [هذه] الآية أدى المسلمون ما أمروا به ، وأبى المشركون أن يؤدوا مهور من لحقت بهم إلى المسلمين فنزل قوله : ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ يا مسلمون ، أي : انفلت منكم وسبقكم ﴿شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي : أحد منهن أوقع ﴿شَيْءٌ﴾ موقع أحد^(١) لفائدة ، وهو ألا يترك شيء من جنس الأزواج وإن قل غير معوض عنه تغليظا في هذا الحكم ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ أي : أصبتم وغنمتم من أموالهم ، وقيل : من العقبة وهي النوبة ، شبه ما حكم به على الفريقين تارة بتارة بأمر يتعاقبون فيه ، كما في الركوب وغيره ، ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر .

وقال الزجاج^(٢) : وعاقبتكم : من المعاقبة ، أي فكانت المعاقبة لكم على المشركين والظفر . ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي : فاعطوا الأزواج من رأس الغنمة مثل ما أنفقوا على زوجاتهم اللاحقات بالمشركين ، أي : مثل مهرها الذي أعطاها قيل : من مهر المهاجرة ، ولا تؤتوه زوجها الكافر .

وفي البرهان : "أن من فاتته زوجته بارتدادها إلى أهل العهد المذكور ولم يصل إلى مهرها منهم ، ثم غنمهم المسلمون ردوا عليه مهرها من أموال غنائمهم [وفيهم]"^(٣) . قال الحاكم : "ورد المهر من الجانبين منسوخ ، وكذا رد مهر من فاتته زوجته" . اهـ .

قيل : وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين ست نسوة^(٤) رجعن عن الإسلام ، وأعطى رسول الله أزواجهن من الغنمة مهور نسائهم . وقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ تشديد في التوصية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما دخل مكة عام الفتح بايعة الرجال ، وجاء النساء فأمر أميمة^(٥) أخت خديجة ابنة خويلد خالة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تبايع النساء عنه

(١) وقد قرأ ابن مسعود (وإن فاتكم أحد) (انظر الكشاف ٥١٨/٤) .

(٢) انظر الكشاف ٥١٩/٤) .

(٣) البرهان : ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(٤) وهن اللواتي تقدم ذكرهن عن الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام .

فإن قيل : فما معنى مبايعته لهن ، ولسن من أهل الجهاد ، فتؤخذ عليهن البيعة ؟ .
 فالجواب : أن بيعته لهن تعريفا لهن ما عليهن من حقوق الله تعالى وحقوق أزواجهن ؛
 لأنهن دخلن في شرع لم يعرفن حكمه ، فبينه لهن ، وكان أول ما أخذ عليهن ألا
 يشركن بالله شيئا توحيدا له ، ومنعا من عبادة غيره ^(١) .
 وقوله : ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ يتضمن النهي عن الخيانة في الأموال ، والنقصان من العبادة ،
 فإنه يقال : أسرق [من] السارق من سرق من صلاته .
 ثم قال : ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ يحتمل حقيقة الزنى ، ودواعيه ، على ما قال صلى الله عليه وآله وسلم :
 (اليدان ترنيان والعينان ترنيان والرجلان ترنيان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) ^(٢) .
 ثم قال : ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد : وأد البنات ، الذي كانت الجاهلية تفعله .
 ﴿وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ البهتان والافتراء : هو الكذب ^(٣) أي : لا يأتيان بولد
 فينسبانه إلى الزوج ، يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، لأن المرأة كانت تلتقط ولدا
 فتلققه بزوجها ولدا ^(٤) أي : ما أخذنه لقيطا ^(٥) وأرجلهن ^(٦) أي : ما ولدنه من

(٥) أميمة : هي أميمة بنت رقيقة ، وأما : رقيقة بنت خويلد بن أسد ، أخت خديجة ، قال ابن حجر في (الإصابة)
 كانت من المبايعات ، وهي عالة فاطمة الزهراء .

وأورد ابن الأثير بأنها بنت خالتها ، فإن خويلدا والد خديجة هو والد رقيقة لا أميمة ، وورد عن طريق ابن المنكدر أنه
 سمع أميمة بنت رقيقة تقول : بايعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نسوة ، فقال لنا : فيما استطعن وأطقن ، فقلن :
 الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، وقال في الاستيعاب : أميمة بنت رقيقة ، أمها : رقيقة بنت خويلد بن أسد بن عبد
 العزى ، أخت خديجة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي أميمة بنت عبد بن أمجد بن عمير ، بن الحارث ، روى عن
 أميمة بنت رقيقة محمد بن المنكدر ، وابتنها حكيمة بنت أميمة (الإصابة ٢٣٤/٤) .

(١) من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلى قوله : ومنعا من عبادة غيره . مثله في البرهان ٣٧٧ .

(٢) من قوله : وقوله : ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ إلى قوله : أو يكذبه . مثله في الرازي والحديث فيه بنصه ٣٠٨/٢٩ .

(٣) قال الحاكم في التهذيب : البهتان والافتراء والاختلاق معنى ، وهو الكذب ، والمعروف : ما تعرف
 صحته عقلا وشرعا ، وضده المنكر ، والتولي : أخذ بعضهم ولدا ، واليأس : ضد الرجاء ، وهو قطع الطمع على اليقين .

زنا ، وقيل : كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا ، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين ^(١) .

﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ المعروف : كل فعل كان لله فيه طاعة ولرسوله ، والمنكر : كل فعل كان فيه معصية لله ولرسوله ، يعني فيما يأمرهن به من المحسنات ، وينهاهن عنه من المقبحات ، وقد علم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يأمر إلا بالمعروف إلا أنه نبه بذلك على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فكان جديرا بغاية التوقي .

وقوله : ﴿فَبَايِعْنَهُنَّ﴾ جواب إذا ، أي إذا بايعتك على هذه الشرائط [فبايعهن] ، واختلفوا في كيفية المبايعة [فقبل : بايعهن بالكلام] [وقيل :] بايعهن وبين يده وأيديهن ثوب .

وقيل : كان يشترط عليهن البيعة ، وعمر يضافنهن ، قاله الكلبي ^(٢) .

وقيل : دعا بقدح فيه ماء فغمس يده فيه [ثم غمسن أيديهن] وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وآله يد امرأة قط ^(٣) .

(١) قال الجشي في التهذيب : ﴿ولا يأتيان بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ يعني : لا يأتيان بكذب في مولود وجد بين أيديهن وأرجلهن . قال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، وقيل : هو السحر ، وهو السعي بالنعمة فذلك بين أرجلهن ، وما يعمل باليد مما يوهم عن أبي مسلم ، وقيل : كانت المرأة تلتقط الولد وتقول لزوجها : هذا ولدي منك فذلك البهتان المفترى عن الفراء ، وقيل : المراد لا يقذف بعضهن بعضا ، وقيل : أراد بالبهتان ما نهى عنه من جميع ما يتعلق به من إلحاق ولد بالزوج ليس منه ، أو سعي بالنعمة ، أو قذف المحضات والكذب على الناس ، وقيل : الخيانة للزوج في المال والنفس من خلفه ، والرمي بالعظائم بين يديه ، وقيل : البهتان والافتراء واحد ، ومعناه أن تأتي ببهتان عظيم من زنا أو غيره ثم تفترى بذلك على غيره فيكون هو الفاعل لذلك وترمي به غيره .

(٢) الكلبي : هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي ، أبو النصر ، عالم مفسر ، مشهور في التفسير والأنساب وأخبار الغرب ، مولده ووفاته بالكوفة ، وفاته سنة ١٤٦ هـ روى عن الشعبي وجماعة ، استدعاه والي البصرة سليمان بن علي العباسي ، ففسر القرآن بالبصرة ، أخرج له أبو داود في المراسيل ، والزمدي ، وابن ماجه ، في التفسير ، وشهد وقعة دير الجاحم مع ابن الأشعث ، من كتبه (تفسير القرآن) مخطوط في مكتبات استانبول (انظر معجم المفسرين ٥٣٠/٢) .

فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ وما وجهه ؟ .
 قيل : منهم من قال : المرأة إذا التقطت ولدا ، فإنما التقطته بيديها ، ومشيت برجلها إلى
 أخذه ، فإذا أضافته إلى زوجها فقد أتت ببهتان تغتر به بين يديها ورجليها .
 وقيل : يفترينه على أنفسهن حيث يقلن : [هذا] ولدنا ، وليس كذلك ، إذ الولد ولد الزنى .
 وقيل : الولد إذا وضعته أمه سقط بين يديها ورجليها — والله أعلم ^(١) .
 ثم أمر تعالى رسوله بالاستغفار لمن فقال عز وجل : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ﴾ يغفر لمن ويرحمهن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا﴾ أي : لا تصافوا ﴿قَوْمًا
 غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ والمغضوب عليهم جميع العصاة المذنبين .
 وقيل : فيما روي أن بعض فقهاء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ، ليصيبوا من ثمارهم
 وقيل : كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين يتوصلون بذلك إلى أن يصيبوا من ثمارهم
 فنهاهم الله عن ذلك ، أي : لا توادوهم لمنافع دنيوية .
 ﴿قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من أن يكون لهم حظ فيها ، لعنادهم رسول الله صلى الله عليه وآله
 وسلم مع علمهم بأنه حق بما نعت لهم في التوراة .
 ﴿كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي : من موتاهم أن يرجعوا أحياء .
 وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : ” معنى ﴿يَسْأَلُ الْكُفَّارُ﴾ يريد كما يسأل المشركون ، [من]
 الذين حصلوا في القبور فصاروا في ترك التوبة في حياتهم بمنزلة الأموات ، الذين في قبورهم .

(٣) قوله : وقيل : دعا بقدرح .. الخ أخرجه ابن سعد عن الواقدي عن أسامة بن زيد ، عن عمرو بن شعيب نحوه ، وله
 شاهد في الطبراني عن عروة بن مسعود ، وآخر في تاريخ أصحابنا لأبي نعيم في حرف الحاء ، من حديث أسماء بنت
 يزيد . (انظر الكشاف ٥٢١/٤) .

(١) من قوله : فإن قيل : ما الفائدة .. إلى قوله : والله أعلم ، مثله في الرازي ٣٠٨/٢٩ ، ٣٠٩ .
 ويمكن أن يضاف إلى هذه الأوجه التي ذكرها ما ذكره المصنف أولا وهو قوله : ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما أخذناه لقيطا ،
 و﴿بَيْنَ أَرْجُلِهِمْ﴾ ما ولدته من زنا ، وقيل : كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها
 كذبا ؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلده بين الرجلين .

ويحتمل وجهها آخر : وهو أنهم قد يتسوا من الوعد والوعيد والحساب ، وجحدوا ما وعدوا الله من الثواب والعقاب ، كما جحد الكفار بعث أهل القبور ، ويتسوا من البعث والنشور . اهـ
 وقيل : ﴿من أصحاب القبور﴾ بيان للكفار أي كما يتس الكفار المقبورون من خير الآخرة ؛ لأنهم علموا ذلك بعد موتهم ،
 ومثل هذا في البرهان (١) وهذا أظهر . والله أعلم

(١) ولفظ البرهان ٣٧٧: ﴿قد يتسوا من الآخرة كما يتس الكفار من أصحاب القبور﴾ بعد المعانية من ثواب الآخرة ؛ لأنهم قد تيقنوا العذاب . اهـ
 و﴿من﴾ على هذا الوجه الذي ذكره المصنف بيانية ، أي : يتس الكفار أصحاب القبور من ثواب الآخرة .
 قال الحاكم الحشمي في تفسيره التهذيب : ﴿قد يتسوا من الآخرة﴾ قيل : يتسوا من ثواب الآخرة كما يتس الكفار من النشأة الثانية عن ابن عباس ، وقيل : يتسوا من ثواب الآخرة كما يتس منه أصحاب القبور ؛ لأنهم أيقنوا بعذاب الله عن مجاهد . وقيل : يتسوا من الآخرة — اليهود كما يتس كفار العرب أن يحيا أهل القبور عن الحسن ، وقيل : هم أعداء المؤمنين من قريش يتسوا من خير الآخرة كما يتس سائر الكفار من أصحاب القبور من حظ الآخرة .
 وقيل : كما يتس الكفار أن ينال الموتى في القبور جزاء ، وقيل : كما يتس الكفار من لقاء أقاربهم وأصدقائهم الموتى بخلاف المؤمنين . وقيل : كما يتسوا أن ينالهم خير من أصحاب القبور .
 قال : وتدل الآية أن الاستغفار لا يقع إلا بهذه الشرائط ، فيبطل قول المرجئة في الشفاعة .

سورة الحشر

أربع وعشرون آية باتفاق القراء ، مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ^(١) قد مر تفسير التسييح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا بعذر وحكمة .

(١) التسييح : التنزيه والبراءة من السوء ، والمعنى : سَبِّحَ لَهِ أَي : تَزَهَّ كُلُّ شَيْءٍ بِأَن دَلَّ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ ، وَكَأَنَّهُ يَنْطِقُ بِتَنْزِيهِهِ (انظر التهذيب ٤٩٠ ، ٤٩٢) .

في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليها السلام من تفسيره هذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾ معناه : الخروج من أرض إلى أرض ، وهو الحشر ، ويقال : القتل . وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ﴾ معناه : حاربوا الله ، وعادوه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ معناه من نخلة وهو ألوان النخل ما خلا العجوة ، أو البرني . وقوله تعالى : ﴿وَكَيْ لَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فالدولة : في الملك والسير التي تغير وتبدل ، والدولة بفتح الدال في الجيش ، يهزم هذا ثم يهزم الهازم ، فيقال : قد رجعت الدولة على هؤلاء .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ﴾ معناه : نزلوها . وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ معناه فقر وحاجة .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْقُ شَحْ نَفْسِهِ﴾ معناه يمنع بخل نفسه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ معناه : حسد . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا﴾ يعني : غشا .

وقوله تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ معناه : خوف . وقوله تعالى : ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ معناه : متفرقة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ يعني : تركوا طاعته .

وقوله تعالى : ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ هو الشاهد لكل شيء ، والمهيمن من الناس : المؤمن على الشيء .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يريد عز وجل أخرجهم من نواحي المدينة ، ومنازلهم بالحجاز ، وهم نفر من اليهود كانوا هنالك ، فخرجوا صاغرين^(١) كانوا صالحوا رسول الله ﷺ عليه وآله وسلم ألا يكونوا عليه [ولا له]^(٢) فلما غلب يوم بدر ، قالوا : هو الذي في التوراة لا ترد له راية^(٣) فلما غلب يوم أحد ارتابوا فحاقوا^(٤) قريشا ، فأصبحهم^(٥) بالكتائب ، فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، وكان عبد الله بن أبي المنافق وعدهم بالنصرة ، قال ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم﴾^(٦) فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوه الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء ، فجلّوا إلى الشام ، وطائفة إلى خيبر ، وطائفة إلى الحيرة ، وأطلق لهم أن يحمل كل ثلاثة آيات على بعير ما شاءوا من متاعهم .

قوله : ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ متعلق أخرج^(٧) أي : أخرجهم عند أول الحشر ؛ لأنهم أول من أجلاء من اليهود ، وحشروهم جمعهم إلى أرض الشام^(٨) .
قال في التجريد : وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام ، إلى أذرعات^(٩) وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام إلى أريحا^(١٠) .

(١) صاغرين : أي : ذليلين مهانين

(٢) ما بين القوسين زيادة في الكشف ٤/٤٩٨ ، والبرهان ٣٧٢ .

(٣) كناية عن نصرته ، وعدم خذلانه .

(٤) أي : عاهدوا ، وتحالفوا تعاهدوا .

(٥) في الأصل (فأصبحهم) وفي الكشف (فصبحهم) (٤/٤٩٨) .

(٦) الحشر : ١١

(٧) ذكر في (الاتصاف) أن اللام هنا لام التأريخ ، كقوله : كتبه لعام كذا ، أو لشهر كذا ، وقيل : هي لام العلة ، والمعنى : أخرجوا ليكون حشرهم إلى الشام أول الحشر ، وقيل : هو معنى في . تمت علوي ٣٠٨ ، ومثل هذا في الرازي ٢٧٨/٢٩ .

(٨) ومثل هذا في البرهان ٣٧٢ ، والحشر : الجمع من سوق ومنه ﴿وحشروناهم﴾ وكل جمع حشر ، تهذيب ٤٩١ .

(٩) أذرعات : بلد في أطراف الشام تجاور أرض البلقاء وعمّان .

قال في البقرة: ”ورد في الخبر أن الله تعالى يبعث نارا قبل يوم القيامة تطرد الناس إلى الشام ، وتنزل إذا نزلوا ، وترتل إذا ارتحلوا ، وتقوم عليهم ساعة في الشام ، وهو قوله تعالى: ﴿أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية^(١) ثم تقوم الساعة وهو الحشر الثاني ، ولهذا قيل لخروج بني النضير إلى ناحية الشام : أول الحشر . اهـ ومثله في التجريد.

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: ”إن معنى قوله تعالى: ﴿أَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ هو أنهم خرجوا صاغرين من أجل ما رأوا وشاهدوا من أول الجمع جمع المؤمنين فزعاً ورهبة لجمع خاتم النبيين^(٢) .

(١٠) أريحا : مدينة في من أرض الأردن بالشام ، قال في زاد المسير ، وهي مدينة فلسطينية ، وهي الآن تحت الاحتلال الإسرائيلي اليهودي . وانظر الكشف ٤/٤٩٩ .

(١) في الأصل ﴿لَمْ تَرَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ولا يوجد في القرآن آية بهذا اللفظ ، والموجود هو ما أثبتناه هنا (سورة الرعد : ٤١) وفي (سورة الأنبياء : ٤٤) بلفظ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ .
(٢) قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن :

تأويل قول مولانا عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ يريد عز وجل أنه أخرجهم من نواحي المدينة وهم نفر من اليهود كانوا هنالك فخرجوا صاغرين لأول الحشر ، وأصل الحشر : هو الجمع ، فخرجوا من أجل ما رأوا وشاهدوا من أول الجمع جمع المؤمنين فزعاً ورهبة بجمع خاتم النبيين .

ومعنى قوله: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يريد أنهم ظنوا أن حصونهم تمنعهم من أمر الله الذي أمر به المسلمين من جهاد الكفرة البغاة المحاربين ، ومعنى ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ يريد عز وجل : من حيث لم يعلموا ولم يقدروا ، ولم يظنوا ﴿وَوُذِفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ﴾ يريد : رمى في قلوبهم بالخوف والفسزع والرعب والحرب والفرع ، قال الشاعر :

نالت عصاي جناحها وعاجلها يهتر يهرب منها وهو مرعوب

ومعنى قوله: ﴿يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو أنهم فيما روي كانوا يهدمون بعض السقوف لينتفعوا بها عند خروجهم وهربهم ، ومعنى قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ هو تفكروا يا ذوي العقول في هذا الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم حتى أخرجوا منازلهم بأيديهم ، وهربوا ورحلوا عن أموالهم ، وقد كانوا في العز والمنعة في حصونهم ودورهم ، وقد كان المؤمنون يظنون في أنفسهم أن ذلك لا يكون أبداً من فعلهم ، فسهل الله برحمته ذل

أعدائهم بما قذف في قلوبهم“ ومعنى قوله: ﴿لَوْ لَا أَن كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ لَعَذِبُكُمْ﴾ يريد أنه أوجب عليهم الخروج والهرب من بلدكم ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا والآخرة على كفرهم ، والجلاء في لغة العرب : هو الحرب والخروج من المقام والبلد قال الشاعر : والله ما حاربنا أقوام إلا جلوا من حيث ما أقاموا

ومعنى ﴿شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يريد : باينوا الله وقاطعوه ، وعصوا رسوله وعادوه وحاربوه ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يريد عز وجل أنكم ما قطعتم من نخلة ، أو تركتموها فهو بأمر الله عز وجل حين أمر نبيه بقطع بعض نخيلهم وترك بعضها ، والليْنة : هي النخلة ، والليان : هن الجماعة من النخل قال الشاعر : وسالفة كسحوق الليان أضرم فيها القوي السمر“

ومعنى ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ هو أراد أن يفضحهم ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مَنْ خَيْلَ وَلَا رِكَابَ﴾ ومعنى ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ هو ما رد الله إلى نبيه من الأموال والغنائم وجاء به إليه وأوصله إلى رسوله صلى الله عليه وآله ﴿فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلَ وَلَا رِكَابَ﴾ هو فما ركضتم عليه ولا تهبتموه له ، ولكن أخذ الله لنبيه بالعرب والفرع الذي جعله في قلوبهم وألقاه سبحانه في صدورهم ، والإيخاف : هو الخب والركض ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رِسَالَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يريد : أنه يرسل الرسل على من يشاء أن يعذبهم وأراد أن ينتقم منه ويعاقبه ، ومعنى قوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ يعني الغني ، ويريد أنه حكم بهذا الحكم لئلا يكون دولا بين الأغنياء ، فحكم به لمن هو أحق به منهم وأولى ، وأنت تجد قسمة ذلك ويانه في كتاب الأحكام في باب الغنائم مما وضعه الهادي إلى الحق صلوات الله عليه .

﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ يريد : ما أعطاكم فاقبلوه ، وما نهاكم عنه فخلوه واتركوه .
﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ يعني الذين سكنوا الدار واتخذوا الإيمان يعني بذلك أهل المدينة الأنصار ، والتبوء : هو التسكن والحلول ، قال الشاعر : كم من أخ لي ماجد بوأته بيدي لحدا

يريد حلته وأسكنته ، ومعنى ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ يريد بالحاجة : الضيق والخرج مما أوتوا من الحق ، ومعنى ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يريد أنهم يقدمون غيرهم بقوتهم ، ويؤثرون سواهم بنفقاتهم ، ولو كان بهم خصاصة ، يريد ولو كان بهم فقر وفاقة ، والخصاصة : هي الفاقة ، قال الشاعر :

أم غاب ربك فاعترتك خصاصة ولعل ربك أن يؤب مؤيدا

ومعنى ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الغل : هو الحقد والمقت والشئان ، ومعنى ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ يريد أنها متشعبة مختلفة مفترقة غير مجتمعة ، قال الكميّ بن زيد رحمة الله عليه :

فمن أوتى وكيف ضلالهم هدى وأهوى شتاتهم

ومعنى ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ هو : ذاقوا النكال على فعلهم . ومعنى ﴿كَمِثْلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا مثل ضربه الله للمنافقين الذين كانوا يقولون لليهود : إنهم معهم وإنهم بزعمهم أنصارهم ، فلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله قال المنافقون : لا نحارب رسول الله ونحن

مسلمون ، وهم على الحقيقة فاسقون ومنافقون في قولهم كاذبون ، فضرب الله لهم مثلاً بالشیطان ، وهو شیطان منافق من الآدميين ، وليس فيما أظن من تلك الشياطين ؛ لأنه قال : ﴿إني أخاف الله﴾ [رب العالمين] لما حين وذل ، وخشي أن يعاقب أو يقتل ، فجعل الدين جنة يحمي بها ، وينافق خوفاً من العقوبة لما رهبها ، وشياطين الجن لا تقع أبصار المؤمنين عليهم ، ولا ينافقون خوفاً لعقوبتهم ﴿فكان عاقبتهم﴾ أي : كان عاقبة أمرهما وآخر شأنهما في النار ، محل الظلمة الأضرار ، ومعنى ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ أي : كان عاقبة أمرهما وآخر شأنهما في تركهم على نسيانهم لأنفسهم ؛ لأن من نسي الله فقد نسي نفسه من الخيرات ، وأوقعها في أعظم المهلكات ، فلما نسوا الله كان ذلك منهم نسياناً لأنفسهم ، ولما تركهم الله على نسيانهم جاز أن يقول : أنساهم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ يريد عز وجل : أنا لو ركبنا في الجبل من العقل ما ركبنا فيكم ثم يسمع هذا القرآن وما فيه من التهديد والوعيد ﴿لرأيته خاشعاً متصدعاً﴾ متقطعاً متحركاً من الرهبة ، فرعاً ، وهذا مثل ضربه الله على ما ذكرنا يدل على ذلك قوله في آخر الآية : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ ومعنى ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ فالغيب : ما غاب عن أبصارنا ، والشهادة ما حضرنا وشاهدنا لمواجهتنا ، والغيب : هو ما غاب عن محضرك قال الشاعر :

وليس أخى من كان لي عند محضري
ولكن أخى من كنت بالغيب أطلبه

والشهادة : هي الأسباب الحاضرة قال الشاعر : ولقد شهدت الخيل تضجع في حياض الموت ضبحاً يريد حضرت وشاهدت ، ويحتمل التفسير وجه آخر وهو أن الغيب : هو الضمير [بالجنان] والشهادة : هي الكلام والإقرار باللسان ، ومعنى قوله : ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن﴾ فهو المستحق من خلقه التقديس ، والتقديس : هو التنزيه لله والتعظيم ، وكذلك ربنا الواحد الكريم قال الشاعر :

قد علم القدوس مولانا القدس
أن أبا العباس قولاً يقتبس
في معدن الملك القديم الكرس
والسلام : هو السلام من الآفات ، الذي لا تحمل به النازلات قال الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما
ومن يبك حولا كاملاً فقد اعتذر

والمؤمن : هو المؤمن لأولياته من أليم عذابه [وإنما سمي نفسه مؤمناً ، لأمانته للمؤمنين ، وأنهم لا يكونون عنده أبداً مفرغين ، بل يؤمن روعتهم بأمانه للمحسنين ، لأنه كريم يحب الكرم والإحسان ، مؤمن يحب الرحمة والإيمان ، وما عسى أن يبلغ من نعمة الناعتون أو ينال من وصف كرمه الواصفون] والمهيمن : فهو الشاهد العالم المتقدس الفاصل الحاكم قال الشاعر : ملك على عرش السماء مهيم
لعرته تعنو الوجوه وتسجد

والعزيز : هو الغالب الجليل المنيع ، والجبار : هو الذي ما حير من الأشياء كلها انحر ، وما فعل بقوته أطاع واقتهر قال العالم صلوات الله عليه : عسى جابر العظيم الكسير بلطفه سيراتح للعظم الكسير فيحبر .

والتكبر : هو العظيم الكبير ، وهو الجليل العظيم الخبير ، هو الله الخالق البارئ المصور ، معنى الباري هو المصور ، قال الإمام الهادي إلى الحق صلوات الله عليه وعلى آبائه : والله يفعل ما يشاء بقدره باري البرية عادل الأحكام

﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ من ديارهم لشدة بأسهم ومنعتهم ، وإنما ذكر الله ذلك تعظيماً لهذه النعمة ، فإن النعمة إذا وردت على المرء والظن بخلافه تكون أعظم ، فالمسلمون ما ظنوا أنهم يصلون إلى مرادهم في خروج هؤلاء اليهود ، فيتخلصون من ضروب مكائدهم ، فلما تيسر لهم ذلك ، كان موقع هذه النعمة أعظم . ثم قال تعالى ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي : أن حصونهم تمنعهم من بأس الله (١) (وقوله : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي : أمره ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ فيه وجهان : أحدهما : أن يكون الضمير في قوله : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ عائداً إلى اليهود ، أي : فأتاهم عذاب الله وأخذَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .

والثاني : أن يكون عائداً إلى المؤمنين ، أي : فأتاهم نصر الله وتقويته مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، ومعنى ﴿يَحْتَسِبُوا﴾ أي : لم يُقَدِّرُوا ولم يَظُنُّوا ، وذلك أَنْ سَهَّلَ قَتْلَ رُئُسِهِمْ كَعَبِ بْنِ الْأَشْرَفِ عَلَى يَدَيِ أَخِيهِ مِنَ الرِّضَاعِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمَةَ الْأَنْصَارِيِّ أَمْرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِقَتْلِهِ غِيلَةً فَقَتَلَهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا فَتَّ فِي أَعْضَادِهِمْ ، وَثَبَّطَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ (٢) .

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ يريد : ما في قلوبهم من الخوف والفزع .

والرُّعْبُ : هو الهَرَجُ والفَزَعُ قال الشاعر :

نالت عصاي جناحها وعاجلها يهتز يهرب منها وهو مرعوب

قال في التجريد : ” أي : ألقى في قلوبهم الخوف الذي يرعب الصدر ، أي : يملأه ، وقذفه إثباته فيه وركزه “ (٣) .

(١) الحصن : البناء العالي المنيع ، وجمعه : حصون ، وتحصن فلان : امتنع . تهذيب ٤٩١ .

(٢) ما بين القرينين مثله في الرازي بلفظه ١٧٩/٢٩ ، ٢٨٠ . وزاد بعده قوله : المسألة الثانية : قوله : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره باتفاق جمهور العقلاء ، فدل على أن باب التأويل مفتوح ، وأن صرف الآيات عن ظواهرها بمقتضى الدلائل العقلية جائز . اهـ وقد نقلته ليظهر فساد من يمنع التأويل ، ويجعل ألفاظ القرآن على ظواهرها وإن تعارضت مع كل عقل ومنطق سليم .

(٣) ومثله في الكشف ٤٩٩/٤ وزاد فيه : ومنه قالوا في صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قنفاً لا كتازه وتداخل أجزائه .

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقرأ ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بالتخفيف والتشديد^(١) كانوا يخربون بواطنها حاجة إلى الخشب والحجارة ، ليسدوا بها أفواه الأزقة أيام الحرب ولئلا يتحسروا بعد جلالتهم على بقائها مساكن للمسلمين ، ولتحملوا معهم من جيدها كالساج وكان المؤمنون يخربون ظواهرها زيادة في غيظهم ، ولتسع مجال الحرب .

ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين : أنهم بمعاداتهم عرضوهم لذلك ، وكانوا السبب فكأنهم أمروهم به وحثوهم عليه ، وكل ذلك لم يكن في حسابهم^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي : البصائر^(٣) .

قال ابن عباس : يريد يا أهل القلب والعقل والبصائر وقيل : يا من عاين تلك الواقعة المذكورة ، أي : أن اتعظوا بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم من غير قتال .

قال الإمام الحسين عليه السلام : ” معناه هو : تفكروا يا ذوي العقول في هذا الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم حتى أخرجوا منازلهم بأيديهم ، وهربوا ورحلوا عن أموالهم ، وقد كانوا في العز والمنعة في حصونهم ودورهم ، وقد كان المؤمنون يظنون في أنفسهم أن ذلك لا يكون أبدا من فعلهم ، فسهل الله برحمته ذل أعدائهم بما قذف في قلوبهم “ . اهـ
والاعتبار : النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها .

(وفي بيان الوجه الذي أمر الله فيه بالاعتبار احتمالان - أحدهما : أنهم اعتمدوا على حصونهم وعلى قوتهم وشوكتهم ، فأباد الله شوكتهم وأزال قوتهم ، ثم قال : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ ولا تعتمدوا على شيء غير الله فليس للزاهد أن يعتمد على زهده ، فإن زهده لا أكثر من زهد (بلعام بن باعوراء) وسيأتي ذكر قصته في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى ، وليس للعالم أن يعتمد على علمه . انظر إلى الواو لندي مع كثرة ممارسته كيف صار ، بل لا اعتماد لأحد في شيء إلا على فضل الله ورحمته .

(١) التخريب والإحراق : الإفساد بالنقض والهدم ، والحربة : الفساد .

(٢) من بعد قوله : قال في التجريد إلى هنا مثله في الكشف ٥٠٠/٤ .

(٣) الاعتبار : النظر في الشيء ، ومعنى اعتبروا : استدلوا بما شاهدتم على ما غاب عنكم ، والعاير : الناظر في الشيء ومنه : تعبير الرؤيا ؛ لأنه ينظر ويعتبر فيخبر بما يؤول إليه أمره ، والعيرة : الدليل . تمت تهذيب ٤٩١ .

والثاني : ^(١) أن المراد أن يعرف الإنسان عاقبة الغدر والكفر والظعن في النبوة ، فإن أولئك اليهود وقعوا بشؤم الغدر والكفر في البلاء والجلاء ، والمؤمنون أيضا يعتبرون به فيعدلون عن المعاصي ^(٢) .

والمعنى تدبروا عاقبة الغدر ، وتدبروا لطيف صنع الله بما دبر ويسر من إخراجهم بغير قتال وإظهار نبيته ، وتصديق ما وعد من نصره .

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي : الظعنون من أوطانهم مقهورين ، أي : لولا حكمة الله التي اقتضت عذابهم بالجلاء ، إذ كان أشق عليهم من القتل ﴿لَعَذَّبَهُمُ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ سواء أجلوا أو قتلوا ﴿ذَلِكَ﴾ الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ﴾ أي : عادوه ﴿وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿لَمَنْ عَادَاهُ﴾ ، وقيل للمعاداة : مشاقة ؛ لأن كلاً من المتعادين في شقٍ خلاف شق صاحبه ، ومعنى ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يريد باينوا الله وقاطعوه وعصوا رسوله ، وعادوه وحاربوه ^(٣) .

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ هي النخلة من الألوان ، وهي ضروب النخل ، سوى البرنية والعجوة ، وهما أجود النخل ^(٤) وقيل : اللينة النخلة الكريمة كأنها مأخوذة من اللين لكرمها ، وجمعها : لين .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : "اللينة : هي النخلة ، والليان : هن الجماعة من النخل قال الشاعر ^(٥) :

(١) مثل هذا في الرازي ، ونسب القول الثاني : للقاضي ، والمراد به القاضي البيضاوي .

(٢) ما بين القوسين من قوله : وفي بيان الوجه ، إلى هنا مثله في الرازي ٢٨١/٢٩ .

(٣) يشاق : بكسر القاف لاجتماع الساكنين .

(٤) كذا في الكشاف ٥٠٠/٤ ، وفي تفسير الرازي ٢٨٢/٢٩ ، ٢٨٣ . وأصله اللون قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبله ، قال محي الدين الدرويش في كتابه (إعراب القرآن) : (لينة) اللينة بالكسر في اللغة مصدر لان ، والمراد بها هنا النخلة من الألوان ، وهي ضروب النخل ما خلا العجوة والبرنية ، وهما أجود النخل ، وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها كالديمة ، وقيل : اللينة النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين (إعراب القرآن ١٠ / ٣٦) .

وسالفة كسحوق اللبان أضرم فيها الغوي السعير اهـ
 وذكر في البرهان الاستشهاد في اللينة بقول الشاعر :
 غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام^(١)
 وخصت اللينة بالقطع ليستبقوا الجيد لأنفسهم ، وإن كانت من الكرائم فليشتد غيظ
 اليهود ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزل على حصون بني النضير ، وهي النويرة
 قطع المسلمون من نخلهم ما قطعوا ، وأحرقوا ما أحرقوا .
 وفي ذلك قال حسان بن ثابت^(٢)
 وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير



(٥) البيت لامرئ القيس يصف عنق فرسه ، انظر القرطبي ، وقد أصلحنا البيت من مجمع البيان ، والسحوق مسن النخل : الجرداء الطويلة ، والسالفة : ناحية مقدم العنق ، وهي هنا العنق .

(١) انظر البرهان ٣٧٣ ، وزاد فيه : قال ذو الرمة : طراق الحواقي واقع فوق لينة ندى ليلة في ريشه يجرق
 (٢) حسان بن ثابت : هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، الأنصاري ، أبو الوليد ، الصحابي ، شاعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأحد المخضرمين الذين أدرکوا الجاهلية والإسلام ، عاش ستين سنة في الجاهلية ، ومثلها في الإسلام ، وكان من سكان المدينة ، واشتهرت مدائحه في الفسانيين ، وملوك الحيرة قبل الإسلام ، وعمي قبل وفاته ، لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشهدا ، قيل لجنبه ، وكان شديد الهجاء ، فحل الشعر ، ومما كتب في سيرته وشهره (أخبار حسان) للزبير بن بكار ، و(حسان بن ثابت) (لحنا نمر) ومثله (لخلدون الكنانة) ومثله (لقواد البستاني) . مصادر الترجمة (الأعلام ١٧٥/٢ ، ١٧٦) وبقية مصادره مذكورة هناك . وفي البرهان (حريق بالبويرة مستطير) ٣٧٣ ، وكذلك في الأصل (بالنويرة) وقد أصلحنا اللفظ من تفسير الطبري ٣٤/١٢ بالبويرة ، وكذا في تفسير الخازن ٢٦٨/٤ ، وأيضاً في مجمع البيان للطبرسي ٣٢٤/٩ ، قال بعد أن أورد البيت : والبويرة تصغير بويرة ، وهي إرة النار أي : حفرتها .

ولما قطع رسول الله صلى الله عليه وآله نخلهم جاءت إليه جماعة اليهود فقالوا : يا محمد ألسنت ترعم أنك تريد الصلاح ؟ فمن الصلاح قطع النخيل وعقر الشجر ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ ۖ ﴾ .

﴿ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ۖ ﴾ أي : فقطعها بإذن الله ، أي : بأمره ، والمعنى : أنه أذن لكم إن شئتم قطعتم ، وإن شئتم تركتم ، وذلك أنهم لما تحققوا أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقطع نخلهم جزعوا ، وقالوا : من أين لك يا محمد ذلك وقد كنت تنهى عن الفساد ؟ فوقع في أنفس المؤمنين شيء فنزلت .

﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۖ ﴾ أي : يفضحهم ، وليذل اليهود ويغيظهم ، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم ، واحتج العلماء بهذه الآية على أن حصون الكفرة وديارهم لا بأس أن تهدم وتحرق وتغرق ، وترمى بالمحانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة .

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ ۖ ﴾ يعني بني النضير ، أي : ما جعل الله من أموالهم فينا خاصة ، والفنيء : الرجوع ، سمي به الغنيمة ؛ لأنها ترجع من أموال الكفار إلى المسلمين ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ۖ ﴾ أي : أسرعتم على تحصيله ، والإيجاف من الوجيف وهو السير السريع مع الاضطراب ^(١) .

﴿ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ۖ ﴾ أي : مقاتلين ، والركاب : الإبل تحمل القوم واحداً راحلة أي : ما قاتلتم عليه وأخذتموه بالقتال ، وإيجاف الخيل والركاب . قال زيد بن علي عليه السلام : فالإيجاف : السير إلى الأعداء ، والركاب : الإبل ^(٢) .

(١) في التهذيب للحاكم (الإيجاف : الإزعاج في السير ، وهو سير مع سرعة ، وجف يجف وجيفا إذا تحرك باضطراب ومنه : قلب واجف أي : مضطرب ، والوجيف : سرعة السير ، وأوجفها راكبها أوجافاً ، ومنه (قلوب يومئذ واجفة) التهذيب ٤٩٦ .

(٢) تفسير الإمام زيد عليه السلام أنظره في أول السورة ، والمطبوع ص ٣٢٨ . قال في إعراب القرآن للدرويش ٣٧/١٠ ، أوجفتم : أسرعتم ، وفي المصباح (وجف الفرس والبهيمة وجفا عدا ، وأوجفته بالآلف أعديته ، وهو العنق في السير . والركاب : الإبل واحداً راحلة ، وتجمع على ركائب وركائب)

قال في التجويد فكان لرسول الله ﷺ خاصة ملكا عندنا في حياته ، ويورث عنه قلت : والدليل على ذلك إجماع العترة الطاهرة وشيعتهم عليهم السلام جميعا ، وما أخذ هكذا بعد النبي ﷺ فهو للإمام يملكه ، ويورث عنه ، وفيه الخمس لرسول الله ﷺ الله عليه وآله وسلم منه خمسة أو سدسه على قول الهادي عليه السلام فيكون لرسول الله ﷺ الله عليه وآله وسلم خمسة وعشرين نسهما من ثلاثين — والله أعلم — اهـ .

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

قال في البرهان : وذلك أن مال الفبيء المأخوذ من المشركين بغير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب جعله الله لرسوله يضعه حيث يشاء ؛ لأنه واصل بتسليط الرسول عليهم لا بمحاربتهم ، وقهرهم وقتلهم ، فجعل الله تعالى ذلك طعمة للرسول ولمن قام مقامه من ولده عليهم السلام ^(١) . اهـ .

وقد سلط رسوله على بني النضير فأمره فيما أخذ منهم مفوض إليه لا يقسم قسمة الغنائم ، التي قوتل عليها ، وأخذت عنوة ؛ لأنهم طلبوه القسمة فنزلت . قال في البلغة : كانت أموال بني النضير له ﷺ خالصة يعطي ما أعطى منها ويحبس ما حبس ، ونخل فاطمة عليها السلام فدكا منها ، وكان جنب النخيل زرع كثير ، وكان صلى الله عليه وآله يدخر قوت سنة الشعير والتمر لأزواجه ، وبني المطلب وما فضل يجعله في الكراع والسلاح “ . اهـ .

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ” هو ما رد الله إلى نبيته من الأموال والغنائم ، وجاء به إليه ، وأوصله إلى رسوله ﷺ الله عليه وآله وسلم “ ^(٢) . اهـ . ومعنى ﴿مِنَ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي : من أموال أهل القرى الكافرة بالقتال والقهر ﴿فَلِلَّهِ

وركابات ، وركاب السحاب الرياح ، والركاب أيضا : ما يعلق في السرج فيجعل الراكب رحله فيه ، وقال الفراء : العرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راکب البعير ، يسمون راکب الفرس : فارسا .

(١) انظر البرهان : ٣٧٣ .

(٢) الفئ : أصله الرجوع ، فالفئ : ما يرجع من مال الكفار إلى المسلمين ، فاء فئ : فينا إذا رجع ، ومنه الفئ الظل (تهذيب ٤٩٦) .

وَلِلرَّسُولِ أَي : فخمس ذلك لله ولرسوله ، لنفسه ولمن يشاء ، وقد بين ذلك بآية الخمس وفي سيرة ابن هشام ^(١) ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قال ابن إسحاق ^(٢) : ” فما يوجف عليه المسلمون بالخيال والركاب ، وقسح بالحرب عبوة فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، يقول : هذا قسم آخر فيما أصيب بالحرب بين المسلمين على ما وضعه الله عليه ^(٣) وَلِلَّذِي الْقُرْبَى﴾ أولاد بني هاشم ، أي : يقسم بينهم الخمس كما في الأنفال ^(٤) ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي : من بني هاشم ^(٥) واليتيم : الذي لم يبلغ مبالغ الرجال ^(٦) ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ مساكينهم ، وهم الذين لا شيء لهم ^(٧) ﴿وَأَنِ السَّبِيلِ﴾ منهم ، وهو المنقطع ، وقيل : الضيف ، فإن لم يوجدوا جاز الصرف إلى هذه الأصناف من غيرهم ^(٨) .

(١) ابن هشام : هو أبو محمد ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، نشأ بالبصرة ، ثم نزل مصر ، وهو مجهول المولد ، أما الوفاة فقد قيل : إنه توفي سنة ٢١٨ هـ وقيل : سنة ٢١٣ هـ ، وكان بارعا في النحو ، واللغة العربية ، قيل : اجتمع به الشافعي حين جاء إلى مصر ، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة ، تعقب على ابن إسحاق في السيرة ، ونقد ، واختصر وأضاف ، وقال : إنه ترك بعض ما رواه ابن إسحاق ، وذكر من ذلك : ﴿وَأَشْيَاءُ يَشْنَعُ الْحَدِيثُ بِهِ ، وَبَعْضُ يَسُوءُ بَعْضُ النَّاسِ ذَكَرَهُ ..﴾ الخ (انظر مقدمة السيرة النبوية لابن هشام) بتحقيق مصطفى السقاء وآخرين ، دار الوفاق بيروت (وقد ذكر كثير أن من بين ما حذفه ما كان يسوء القوم ؛ إما لأنه يخالف لما يعتقدونه ، أو ما رواه ابن إسحاق في أهل البيت وما جرى عليهم ، وذكر ظلم أصحاب السلطة للمسلمين) .

(٢) ابن إسحاق : هو محمد بن إسحاق بن يسار ، أبو بكر ، ويقال : أبو عبد الله المدني ، القرشي ، مولى قيس بن عكرمة ، مولده بالمدينة سنة ٨٥ هـ ووفاته قيل : سنة ١٥٠ ، أو ١٥٣ هـ ، ونشأته بالمدينة ، وتنقل في البلدان ، فرار الإسكندرية سنة ١١٥ هـ ، وحدث عن جماعة من أهل مصر ، ثم رحل إلى الكوفة ، والجزيرة ، والري ، والحيرة ، وبغداد ، وفيها ألقى عصا الرجال ، وصنف للمهدي العباسي كتاب (السيرة) وفي بغداد كانت وفاته ، ودفن بمقبرة الخيزران ، اختلف فيه بين ملاح وقادح ، ورمى بالتدليس في كتابه السيرة [وذلك لما كان لا يعجب القوم] قد أكثر من الأشعار والأخبار ، وذكر أنه تجنب الكثير من فضائل أهل البيت عليهم السلام ؛ إرضاء للدولة ، ومع ذلك جاء من بعده ابن هشام ، فاختصر وحذف الكثير مما أبقي المترجم (انظر مقدمة سيرة ابن هشام المطبوعة) .

(٣) قال الحاكم : وقيل : يدفع إليهم [أي : إلى بني هاشم] يستوي فيه الغني والفقير ، من كان منهم على نصرة الحق عن الهادي عليه السلام ، وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وآله لما أعطى بني هاشم وبني المطلب ، ولم يعط بني أمية وبني نوفل ، فجاء جبير بن مطعم ، وعثمان بن عفان وقالوا : لا ننكر نحن فضل بني هاشم لمكانك منهم ، ولكن نحن

ثم قال ابن الجوزي ^(١): "اختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فذهب قوم إلى أن المراد بالفئ هاهنا الغنيمة ، التي يأخذها المسلمون من أموال الكفار عنوة ، وكان في بدء الإسلام للذين سماهم الله في هذه الآية دون الغنائم ^(٢) ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية ^(٣) وهذا قول قتادة ويزيد بن رومان .

وذهب قوم إلى أن هذا الفئ ما أخذ من أموال المشركين مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، كالصلح والجزية والعشور ، ومال من مات منهم في دار الإسلام ولا وارث له وهذا كان يقسم في زمن الرسول ﷺ على خمسة أقسام أربعة لرسول الله ﷺ عليه وآله وسلم يفعل بها ما يشاء ، والخمس الخامس للمذكورين في هذه الآية " ذكر هذا في التجريد قال : وعند أبي حنيفة أن مال الفئ كله يقسم على خمسة أقسام كما يقسم جملة الغنيمة ، ومعه ظاهر الآية .

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ أي : الفئ الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها ﴿دولة﴾ أي : ما يدول للإنسان ، أي : يدول له من البخت والحظ ، يقال : دالت له الدولة ، وأدبل له ، أي : لا يكون حظا .

وبنو المطلب كهاتين فلم أعطيتهم وحرمتنا ؟ فقال ﷺ عليه وآله لأنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام ، وقيل : إنه أعطى العباس وكان غنيا ، (وانظر كلام أحمد بن المنير الإسكندري في حاشيته على الكشاف فقد بين على عدم اشتراط الفقر في أهل البيت عليهم السلام . الكشاف ٥٠٣/٤) .

(٤) وفي مجمع البيان للطبرسي ٣٣٠/٩: التقدير ولذي قرباه ، ويتامى أهل بيته ، ومساكينهم ، وابن السبيل منهم ، وروى المنهال بن عمرو عن علي بن الحسين عليه السلام قال : قلت قوله: ﴿ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ ؟ قال : هم قربانا ويتامانا ، ومساكيننا ، وأبناء سبلنا .

(١) انظر تفسير ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير ٢١٠/٨ والنص منه .

وابن الجوزي : هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ٢١٠/٨ .

(٢) في تفسير ابن الجوزي : الغالين بدلا عن الغنائم هنا .

(٣) الأنفال : ٤١ .

قال في التجريد : الدولة : بالضم اسم للشئ يتداوله القوم ، يكون لهذا مرة ولهذا مرة وبالفتح : الفعل الانتقال من حال إلى حال حكاه ابن الجوزي^(١).

قال زيد بن علي عليه السلام : " فالدولة في الملك والسنن التي تغير وتبدل ، والدولة بفتح الدال في الجيشين يهزم هذا هذا ، ثم يهزم الهازم فيقال : قد رجعت الدولة على هؤلاء^(٢) .

﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ يعني الرؤساء ، كان الرؤساء في الجاهلية يستأثرون بالغنيمة .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد أنه حكم بهذا الحكم لثلاثين دولة بين الأغنياء ، فحكم به لمن هو أحق به منهم وأولى . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي : عن أخذه منها ﴿فَاتَّهَوْا﴾ أي : فخلوه واتركوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفوه وتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسوله ، والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى به صلى الله عليه وآله ونهى عنه ، والفىء داخل في عمومه ، والأئمة قوام بعده صلى الله عليه وآله وسلم مقامه^(٣) .

قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ قيل : هو يدل من قوله ﴿لِذِي الْقُرْبَى﴾ وما بعده^(٤) .

(١) قال في البرهان : فالدولة : الظفر في الحرب ، والدولة بالضم : الغنى بعد الفقر ، قال الشاعر :

ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول (برهان ٣٧٣) .

وقال الحاكم الحسني : قال عيسى بن عمر : هما لغتان بمعنى واحد ، وقال غيره : بينهما فرق ، والدولة بالفتح : الظفر والغلبة في الحرب وهي مصدر ، والدولة بالضم : اسم الشئ يتداوله الناس بينهم ، مثل العارية ، وقيل بالفتح : المرة من الاستيلاء ، وبالضم : نقل النعمة من قوم إلى قوم (تهذيب ٤٩٦) .

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام في أول السورة ، والمطبوع ص ٣٤٨ ، وفيه السير بدلا من السنن ، والجيش بدلا من الجيشين . وفي النسخة المخطوطة منه على ما هو هنا ، فيحتمل أنه غلط في المطبوع .

(٣) ومثله في الكشف ٥٠٣/٤ ، وقال السيد العلوي : قوله : والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ونهى عنه : لأن الواو ليست بعاطفة فالجملة تذييل ، ولذلك عقبه بقوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وأطلقه ليشمل كل ما يجب أن يتقى ، ويدخل فيه ما سبق له الكلام دخولا أوليا . حاشية العلوي ٣١٠ .

(٤) قال السيد العلوي ما معناه ، أن من ذهب إلى هذا القول هو من يشترط الفقر في ذوي القربى ، والصحيح أنه ليس بشرط كما تقدم من إعطائه العباس ، وهو غني .

وقال الواحدي : بين الله من المساكين الذين لهم الحق بقوله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ يريد أن الفقر لا يشترط في أهل الخمس غير المساكين ، وعند أبي حنيفة يشترط إلا في الرسول قال في التجريد : والصحيح أنه لا يشترط في ذوي القربى .

وأما اليتامى وابن السبيل فإن كانوا من ذوي القربى لم يشترط ، وإن كانوا من غيرهم اشترط ، والمراد بالمهاجرين : من هاجر عن وطنه من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دار هجرته ، وهي المدينة خوفا من أذى قومه ، ورغبة في نصرة نبيّه فهم المقدمون في الإسلام على من لم يكن لهم هجرة من المسلمين ، ذكره في البرهان

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾^(١) يعني من مكة أخرجهم منها المشركون لما خرجوا خوفا منهم فكأنهم أخرجوهم ﴿يَتَتَوْنَ﴾ بخروجهم ﴿فَضَلْنَا مِنَ اللَّهِ وَرَضُونَا﴾ أي : عطاء ، وهو الثواب ، ورضوانا منه عليهم ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وجهادهم .

ثم مدح الأنصار حين طابت نفوسهم عن الفئء فقال : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أي : المدينة وهم الأنصار ، أي : اتخذوها مباءة ، أي : مرجعا يرجع إليه ، تبوؤها : نزلوها وتوطنوها ، وهو عطف على المهاجرين ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ تقديره : وآثروا الإيمان ، أو وأخلصوا الإيمان كقوله : " علفتها تبنا وماء باردا " أو معناه : وجعلوا الإيمان مستقرا لهم ، لتمكنهم منه ، أو سمي المدينة إيمانا لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان^(٢)

(١) ديارهم : أصله دوارهم إلا أن الواو صارت بين كسرة وألف فقلبت ياء كالحياض والسياط (تهذيب ٤٩١) .

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : حاصل الوجوه الأربعة يعود إلى أن عطف الإيمان على الدار إما من باب التقدير أو الانسحاب ، والإيمان إما مجرى على حقيقته ، أو هو استعارة ، ففي الوجوه الإيمان حقيقة ، والعطف من باب التقدير لكن بحسب ما يناسب الإيمان ، والوجه الثالث أيضا العطف فيه من باب التقدير لكن بحسب السابق أعني الدار ، والثاني والرابع العطف فيهما من باب الانسحاب ، والإيمان على الوجه الثاني استعارة مكنية ، وعلى الثالث والرابع مصرحة حقيقية ، فإن قلت : بين لي تخريج الاستعارتين وتصحيحهما ؟ قلت : شبه في الوجه الثاني الإيمان من حيث أن المؤمنين من الأنصار تمكنوا فيه تمكن المالك المتسلط في مكانه ومستقره ، بمدينة من المدن الحصينة بتوابعها ومرافقها ، ثم تخيل أن الإيمان مدينة بعينها ، على سبيل الاستعارة التخيلية ؛ لتكون مانعة من إرادة الحقيقة ، وعلى الثالث والرابع

وقوله: ﴿مَنْ قَبْلَهُمْ﴾ يرجع إلى ﴿تَبَوَّأُوا الدَّارَ﴾ فقط وهم المهاجرون ؛ لأن إيمان المهاجرين قبل الأنصار .

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم أحسنوا إلى المهاجرين ، وأشركوهم في أموالهم ومسكنهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ أي : لا يعلمون ﴿فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ أي : لا يجدون في صدورهم حسدا ولا حزازة ولا غظا مما أعطى النبي صلى الله عليه وآله المهاجرين من الفئء دونهم

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : "يريد بالحاجة : الضيق والخرج مما أوتوا من الحق" (١) . اهـ .
وقيل : ﴿حَاجَةً﴾ بمعنى محتاج إليه ، والمحتاج إليه يسمى حاجة ، أي : لا يجدون في أنفسهم طلب محتاج إليه ﴿مِمَّا أوتُوا﴾ أي : مما أعطى المهاجرون من الفئء وغيره .
قال في الكشف (٢) : "السبب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين

شبه طيبة لكونها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان — بالتصديق الصادر من المخلص ، المتحلي بالعمل الصالح ، ثم أطلق الإيمان عليها بوساطة نسبة التبوؤ فهي استعارة مصروفة تحقيقية ، لكون المشبه المتزكك وهو طيبة حسية ، فقي الوجه المبالغة ، والمدح يعود إلى سكان المدينة أصله ، وفي الثاني بالعكس ، والأول هو المناسب للمقام ؛ لأن الكلام وارد في مدح الأنصار . فإن قلت : فما تصنع بقوله : ﴿مَنْ قَبْلَهُمْ﴾ ؟ فإنه يؤدي إلى أن الأنصار سبقوا المهاجرين في الإيمان ؟ ولذلك قال المصنف رحمه الله [المراد به الزمخشري] سبقوهم في دار الهجرة والإيمان ، أي : دار الإيمان ؟ قلت قالوا : تقدير الآية والذين تبوأوا الدار من قبلهم والإيمان ، ويمكن أن يقال : قد ذكرنا أن التقدير : تمكنوا في الإيمان تمكن المالك في ملكه ، لا يرعجهم فيه مزعج ، ولا شك أن التمكن من الإيمان على هذا الوجه كان حاصلًا للأنصار قبل المهاجرين ؛ لأنهم كانوا في مكة خائفين ، فلم يحصل لهم التمكن إلا بعد الهجرة . حاشية العلوي ٣١١ .

قلت : ولهذا قال المصنف هنا : (من قبلهم) يرجع إلى ﴿تَبَوَّأُوا الدَّارَ﴾ فقط ؛ لأن إيمان المهاجرين قبل الأنصار . وزاد الزمخشري وجها فقال : أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه مقامه (الكشاف ٤/٥٠٤) .

(١) هذا لفظ الإمام الحسين بن القاسم العباسي عليهما السلام ، وفي المصاييح زيادة [دونهم] بعد قوله : الحق .
(٢) ما بين أقواس الزيادة من الكشف ، والنص في الكشف ٥٠٥/٤ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين ، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين أبا دجانة سماك بن خريشة ، وسهل بن حنيف ، والخزيم بن الصيم ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم ، وشاركموهم في الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لهم شيء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشاركهم فيها ، فزلت .

دون الأنصار إلا ثلاثة [نفر] محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه [وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شئ من الغنيمة] فقالوا : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا [ونؤثرهم بالغنيمة] ولا نشاركهم في هذه ، فنزلت ثناء عليهم “

وقد سبق ما ذكره في البقرة وغيرها أن أموال بني النضير كانت للنبي ﷺ.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : يقدمون غيرهم ، وَيُسَدُّونَ سَوَاهِمَ بِنَفَقَاتِهِمْ ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي : حاجة عظيمة^(١) أي : ولو كان بالأنصار خصاصة والخصاصة : الفقر والفاقة ، قال الشاعر :

أم غاب ربك فاعتزتك خصاصة فلعل ربك أن يؤوب مؤيدا
بين الله أن إثارهم لم يكن عن غنى .

قال في البرهان : وفي إثارهم وجهان — أحدهما : أنهم آثروا المهاجرين على أنفسهم بما حصل من فيء وغيره من غنائم ، حتى قسمت بين المهاجرين . والثاني : أن النبي ﷺ عليه وآله وسلم قال لهم : (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم ، فقالوا : إن أموالنا بين المهاجرين قطائع ، فقال النبي ﷺ عليه وآله وسلم : إنهم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر ؟ فقالوا : نعم يا رسول الله^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ يوق من الوقاية ، والشح : اللؤم ، وأن تكون النفس كربة ، أي : منقبضة حريصة على المنع^(٣) وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها ، قال تعالى : ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنفُسَ الشُّحَّ﴾^(٤) أما البخل : فهو المنع نفسه .

(١) الخصاصة : الإملاق وكل ثلثة خصاصة ، وأصله الاختصاص وهو الانفراد بالأمر كأنه انفراد عما يحتاج إليه ، ومنه الاختصاص والخاصة انفراد المعنى ، وقيل : الخصاصة والخلة سواء ، وأصله الفرقة ، يقال للقمير : بدا من خصاصة الغيم أي : فرجته ومنه سمي الخص وهو البيت من القصب لما فيه من الفرقة . والخصاص الفرج بين الأناسي (التهذيب ٤٩٦)

(٢) انظر البرهان ٣٧٤ .

(٣) واستشهد في الكشف بقوله : يمارس نفسا بين جنبه كربة إذا هم بالمعروف قالت له مهلا

وفي التجريد " الشح واللوم والبخل بمعنى واحد ، وقيل : الشح : أخذ الحرام ، ومنع الواجب فهو أقبح من البخل " .

والمراد هو أنه يشح بإخراج حقوق الله عز وجل من ماله ولا ينفقه في المبار ، والمعنى : من غلب ما أمرته به نفسه من الشح بتوفيق الله ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الظافرون بما أرادوا من الخير .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ قيل : عطف على المهاجرين أيضا [وقيل : لا] ^(١) أي : والذين هاجروا من مكة إلى المدينة من بعد مهاجرة أولئك الأولين ، وقيل : عام في الذين يحيئون من بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة .

قال في البرهان : " أي : والذين جاءوا من بعد المهاجرين أمروا أن يستغفروا لمن سبقهم من إخوانهم المهاجرين والمسلمين " ^(٢) . اهـ

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فذكر أنهم يدعون بالمغفرة لأنفسهم ، ولن سبقهم من أصحاب رسول الله بالإيمان ، يعني المهاجرين والأنصار ؛ لأن من حق المؤمن أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فلذلك استغفروا لهم .

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الغل : الحقد ، وهو العداوة الخفية ، وقيل : هو استعاذة من الشيطان لكيلا يوسوس لهم بما يضعف قلوبهم على السلف ، كما فعل بالخوارج على علي عليه السلام ، وبالروافض ^(٣) .

قال السيد العلوي يصف إنسانا بالشح المتبالغ ، بأنه إذا هم في بعض الأحيان معروف قالت له مهلا فيطيعها ، ويمتنع من المعروف ، والكثرة : المنقبضة . (الكشاف ٥٠٥/٤ ، وحاشية العلوي ٣١١) .

(٤) النساء : ١٢٨ . الشح : الحرص على المال ، والفرق بينه وبين البخل أن الشح غريزة ، والبخل : المنع نفسه فهو أعم ؛ لأنه قد يوجد البخل ولا شح له ، ولا ينعكس ، وفي الصحاح : والشح : البخل مع حرص . إعراب القرآن ٤٣/١٠ .

(١) ما بين القوسين غير موجود في الكشاف ، مع أن كتاب التجريد هو تجريد للكشاف ، ولما لم يكن التجريد لدينا فقد جعلناه بين قوسين حتى نحصل لنا الكتاب إنشاء الله .

(٢) انظر البرهان ٣٧٤ .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ عظيم الرأفة والرحمة ، فاستجب لنا .
ثم قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُمْ الْيَهُودُ ﴿لَنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم بالقهر ، يعنون من المدينة ﴿لَنُخْرِجَنَّ عَنْكُمْ﴾ قاله ابن أبي وأصحابه لبني النضير لما نقض بنو النضير العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وهموا بغدره ، وأعلمه الله ، بعث محمد بن مسلمة إليهم : أن اخرجوا من بلادي ولكم أجل عشرين ، فغزموا على ذلك فمنعهم ابن أبي ووعدهم النصرة ، فقالوا للنبي ﷺ : إن شئت حاربناك .
ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التعجب من حال المنافقين^(١) الذي جرى مجرى المثل في غرابته ، وإنما كانوا إخوانهم ؛ لأنهم إخوانهم في الكفر برسول الله ﷺ وفي عداوته أو لأنهم كانوا حلفاءهم قبل الإسلام ، والمعنى : قالوا : لا تخرجوا من دياركم ، فإن خرجتم خرجنا معكم ﴿وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي : في قتالكم ، أو في خذلانكم ﴿أَحَدًا﴾ يعنون رسول الله والمسلمين ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم .
﴿لَنْ أُخْرِجُوا﴾ من ديارهم ، أي : اليهود ﴿لَنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَنْصُرَهُمْ لِيُؤَلَّوْا﴾ المنافقون ﴿الْأَذْيَارُ﴾ أي : الظهور هارين ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ معناه : ولئن قدر وجود نصرهم انهزموا ﴿لَمْ لَا يَنْصُرُونَ﴾ يعني بني النضير لا يصيرون منصورين ، أي : لا تنفعهم نصرة المنافقين ، أو لا ينصرونهم مرة أخرى .

(٣) قال الحاكم الحشمي : قيل : غشا للبعض ، وقيل : خيانة ، سألو الله أن يزيل ذلك بلطفه ، وقيل : بل هو استعادة من الشيطان لكي لا يوسوس فتضعف قلوبهم على السلف كما فعل بالخوارج والروافض .
(١) النفاق : إظهار الإسلام وإبطان الكفر ، وهو مأخوذ في الأصل من نفاقاء اليربوع ، وهو أن يكون له جحر ليه بابان إذا أخذ من واحد خرج من الآخر ، فشبّه المنافق به ؛ لأنه يدخل في الإيمان ظاهرا ويخرج باطنا ، وهو اسم شرعي لم يكن يعرفه أهل اللغة ، والمنافق كافر لاجتماعهما على الكفر (التهذيب ٥٠٣) .

ويحتمل ثم لا ينصر المنافقون بعد ذلك ، أي : يهلكهم الله ؛ لأنه يظهر نفاقهم فيقتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله أو يخرجهم لقوله : ﴿لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾^(١) .

ثم ذكر تعالى أن خوف المنافقين من المؤمنين أشد من خوفهم من الله فقال : ﴿لَأْتِمَّ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ﴾ يريد لآتم أيها المؤمنون أخوف عند المنافقين ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي : يخافونكم أكثر مما يخافون الله ، وقيل : المراد اليهود ﴿ذَلِكَ﴾ أي : شدة الرهبة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون الله وعظمته ، حتى يخشوه حق خشيته .

ثم بين تعالى شدة خوفهم للمؤمنين بما قذف الله في قلوبهم من الرعب فقال تعالى : ﴿لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي : لا يقدر اليهود والمنافقون على قتالكم في حال كونهم مجتمعين متساندين ﴿إِلَّا فِي قَرْيٍ﴾ أي : إلا كائنين في قرى ﴿مُحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروع ﴿أَوْ﴾ يكونوا ﴿مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ دون أن يظهروا لكم ، و يبارزوك^(٢) مواجهين لكم خوفا منكم

ثم قال تعالى : ﴿بِأَسْهُمٍ﴾ أي : شجاعتهم إنما هي فيما ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، فأما إذا قاتلوكم فهم أذلة للرب الذي نصركم الله به ، وقيل : معناه متعادون متباغضون ، وقال مجاهد : المعنى : أنهم يقولون : لنفعلن كذا وكذا فهم يتهددون المؤمنين ببأس شديد من وراء الجيطان والحصون ، ثم يحتززون عن الخروج للقتال^(٣) .

﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي : ذو ألفة واتفاق ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي : مختلفة متفرقة قال الشاعر :

(١) الأحزاب : ٦٠ .

(٢) في الأصل : (كونكم) والصواب ما أثبتناه ، لأن جميعا لليهود والمنافقين ، وكما هو في الكشف ٥٠٧/٤ .

(٣) في الأصل (يبارزونكم) بإثبات النون ، والظاهر أنه معطوف على يظهروا لكم ، ومعناه : دون أن يظهروا لكم ، ودون أن يبارزوكم ، فهو منصوب بحذف النون .

(٤) في البرهان (٣٧٤) : ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ وخرّب بعضهم لبعض ، واختلاف قلوبهم حتى لم يفقهوا على أمر واحد ، وهذه الآية عامة في كل من عادى الحق وبانته أن يجعل الله حالهم كذلك .

إلى الله أشكو فرقة شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جميع

أي : متفرقة ، أي : بينهم احن وعدوان ، فلا يتعاقدون حق التعاضد ، وهذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ﴿ذَلِكَ﴾ التشتت في قلوبهم ﴿يَأْنَهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بأن تشتت القلوب مما يوهن قواهم .

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي : مثل هؤلاء المنافقين واليهود في ترك الإيمان والغفلة من عذاب الله كمثال المقتولين بدر من قبلهم ﴿قَرِيْبًا﴾ متصب بمثل^(١) أي : وجود مثلهم في هذا الزمان ، كوجود مثل أهل بدر قريبا ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي : سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قولهم : كلاً وبيل أي : حشيش وخيم أي : سيئ العاقبة^(٢) أي : ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلاً فقال : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي : مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر ، ثم إخلافهم لهم كمثال الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أي : حين استغوى الإنسان وزين له الكفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) تراءً منه في العاقبة ، وقيل : المراد استغوى الشيطان قريشاً يوم بدر بقوله ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾^(٤) إلى

(١) قال في البرهان : قوله عز وجل : ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وهم كفار قريش يوم بدر ، والثاني : أنهم بنو النضير الذين أجلوا عن الحجاز إلى الشام . (البرهان ٣٧٤) .

(٢) يعني أن ﴿قريباً﴾ منصوب على الظرفية متعلق بالاستقرار المحذوف ، الذي تعلق به ﴿من قبلهم﴾ ولك أن تعلقه بـ ﴿ذاقوا﴾ وعلقه الزمخشري بمضاف مقدر في الخير ، أي : كوجود مثل أهل بدر قريبا [فهو عنده منصوب على الظرفية بالمحذوف المضاف ، الذي أقيم المضاف إليه مقامه] .

(٣) الويال : ثقل الشيء المكروه ، وماء وبيل ، وطعام وبيل إذا كانا غير مريين ، ومنه ﴿أخذنا وبيلاً﴾ أي : شديداً ثقيلاً

(٤) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام المذكور أول السورة ، وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه .

في تفسير كثيرة لأوردوا عن ابن عباس وغيره قصة العابد رصيصة الذي كان في بني إسرائيل ، وعبد الله زماناً ، ثم زين له الشيطان وقوع بامرأة وقتلها ، ثم سجد للشيطان .. الخ ، وقد تجب للولف ذكرها ، وفسر الآية التفسير الصحيح ، البعيد عن الأساطير والإسرائيليات للندوسمة .

(٥) الأنفال : ٤٨ . وفي البرهان : ﴿يأسهم بينهم شديد﴾ وحرب بعضهم لبعض ، واختلاف قلوبهم حتى لم يتفقوا على أمر واحد ، وهذه الآية عامة في كل من عادى الحق وبينه أن يجعل الله حالهم كذلك (٣٧٤) .

قوله : ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ والأول هو الوجه ^(١) .
 قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : " هذا مثل ضربه الله للمنافقين الذين كانوا يقولون لليهود : إنهم معهم ، وإنهم بزعمهم أنصارهم ، فلما حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله قال المنافقون : لا نحارب رسول الله ونحن مسلمون ، وهم على الحقيقة فاسقون ومنافقون في قولهم كاذبون ، فضرب الله لهم مثلاً بالشیطان ، وهو شیطان منافق من الآدميين ، وليس فيما أظن من تلك الشياطين ؛ لأنه قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [رب العالمين] لما حین وذل ، وخشي أن يعاقب أو يقتل ، فجعل الدين حجةً یحتمي بها وينافق خوفاً من العقوبة لما رهبا ، وشياطين الجن لا تقع أبصار المؤمنین علیهم ، ولا ینافقون خوفاً لعقوبتهم ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ الشیطان والإنسان ، أي : كان عاقبة أمرهما ، وآخر شأنهما ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ وحل الظلمة الأشرار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ﴾ أي : الوقوع فيها والخلود ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر ومعاداة الرسول .
 ثم رجع تعالى إلى موعظة المؤمنین فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي : يوم القيامة من عمل صالح .

قال الإمام الناصر لدين الله عليه السلام في برهانه : " يجب على كل مسلم أن يرعى سمعه إذا قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه خير يؤمر به ، أو شر ينهى عنه " . اهـ
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيداً ، وسمى يوم القيامة : الغد ، وهو الذي يلي يومك تقريباً [له] جعله بمنزلة الكائن غداً ، وقلل النفس استقلالاً للأنفس النواظر فيما

(١) وفي البرهان : وهذا مثل ضربه الله للكافر في طاعته لرؤسائه في الكفر والضلالة ، وهو عام في كل من هذه صفة (٣٧٤) . وقال الحاكم : وقيل : كمثل الشيطان يوم بدر دعا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله فلما رأى الملائكة رجع القهقري .

(٢) قال الحاكم الجسفي في تفسيره : ومتى قيل : كيف يقول : ﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾ وهو يدعوهم إلى الكفر ؟ قلنا : قيل إنه يقولها تصنعاً وغلقاً لا تحقيقاً ، وقيل : يقولها يوم القيامة ، وقيل : قاله يوم بدر حين رأى الملائكة .

قَدَمَنْ إِلَى الْآخِرَةِ^(١) كأنه قال : فلتنظر نفس واحدة في ذلك ، ونكر الغد تعظيما له ، وإبهاما لأمره كأنه قال : لغد لا يعرفُ كنهه لعظمه) .

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يحفظه عليكم ويجزيكم بحسنه وسيئه .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ أي : تركوا حقه وطاعته قال ابن عباس : "هم بنو قريضة والنضير وبنو قينقاع ، وهم يهود المدينة ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلهم ناسين لأنفسهم ، أي : تاركين لحقها من الخير ، وذلك بأن خذلهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعها عنده ، أو أنساهم إياها يوم القيامة بما يريهم من الأهوال .

وفي البرهان "يعني ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ بترك شكره على ما أولاهم ، وتعظيمه على ما أسداهم ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضا"^(٢) . اهـ

المعنى : أنهم لما نسوا الله تركهم على نسيانهم لأنفسهم ؛ لأن من نسي الله فقد نسي نفسه من الخيرات ، وأوقعها إلى أعظم الهلكات ، فلما نسوا الله كان ذلك نسيانا لأنفسهم ، ولما تركهم على نسيانهم جاز أن يقول : ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾^(٣) .

(١) والتقليل مستفاد من التكرير ، قال السيد العلوي في حاشيته (٣١٠) : (الاتصاف) قال في قوله : ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتُ﴾ المراد بالتكرير التكرير ؛ لأن كل نفس حينئذ تعلم ما أحضرت ، كقوله : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ حتى قيل : إنه من عكس الكلام الذي قصد به الإفراط ، كقوله تعالى : ﴿رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي بمعنى كم ، فقدر المصنف هنا ما يطابق الواقع من قلة الناظر في المعاد ، فالفعل الذي أسند إلى نفس ، ليس في وقوع النظر بل في طلب النظر فهو عام التعلق بكل نفس ، قال صاحب الإنصاف : إن ما ذكره المصنف أمكن وأحسن ، وقال الطيبي : أصل الكلام يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وانظروا ما تقدمون لأنفسكم ليوم القيامة ، فوضع موضع الضمير نفس منكرا تقيلا لها ، وتقريرا على قلة النظر في العاقبة ، وأقيم مقام يوم القيامة غدا منكورا تهويلا ، كأنه قيل لتنظر نفس واحدة لذلك اليوم الهول ، ومنه قوله : ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ثم رشح التقرير بقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ الآية . وما بين القوسين من قوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إلى قوله : لعظمه مثله في الكشف ٨٦/٤ .

(٢) البرهان : ٣٧٤ .

(٣) قال الحاكم في تفسيره : قيل : تركوا ذكر الله فأنساهم بأن خذلهم حتى صاروا كالنسي في حال استحقاق الثواب وقيل : نسوا الله بترك ذكره فأنساهم أنفسهم بالعذاب ، الذي ينسى بعضهم بعضا لأجله عن أبي علي ، كقوله : ﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ وقيل : لا تكونوا كالذين نسوا علوم الله حتى أنساه ذلك نفسه ، فلم يفكر في مصاره وشر عواقبه ، وإنما يفكر في ملاده وشهوته ، وقيل : أنفسهم : حظ أنفسهم أن يقدموا لها ، يعني لم يذكرهم بالطاف بل خذلهم . (التهذيب ٥٠٨) .

ثم قال : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والمقصود منه الذم .
 واعلم أنه تعالى لما أرشد المؤمنين إلى ما هو فصلحتهم يوم القيامة بقوله : ﴿وَلَنُظَاهِرَ
 نَفْسَ مَا قَدَمْتُ لَكُمْ﴾ وتهدد الكافرين بقوله : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بين الفرق
 بين الفريقين فقال سبحانه : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وهذا تنبيه للناس بشدة غفلتهم ، وقلة فكرتهم في العاقبة ،
 وانهماكهم في الشهوات ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، ولا البون الذي بين
 أصحابهما ، وأن الفوز مع العمل الصالح ، وهو الظفر بالجنة ^(١) .
 ثم إنه تعالى لما شرح هذه البيانات عظم أمر القرآن فقال : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى
 جَبَلٍ﴾ يريد عز وجل أنا لو ركبنا في الجبل من العقل ما ركبنا فيكم ، ثم سمع هذا
 القرآن وما فيه من التهديد والوعيد ﴿لَرَأَيْتُهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾ متقطعا متحركا من الرهبة
 فرعا ^(٢) ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهذا مثل ضربه الله ، وتمثيل وتخيل على جهة المبالغة ، بالغ
 في عظم موعظة القرآن ، والمبالغة جارية في الكلام ، ولا تعد من الكذب ، وليس
 بتحقيق بدليل قوله : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى هذا المثل وأمثاله في
 مواضع [من] التنزيل ، والغرض توبيخ الإنسان على فسوة قلبه ، وقلة تخشعه عند
 قراءة القرآن ، وتذير زواجره .

وقوله : ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي : نمثلها كما يضرب المثل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي :
 لإرادة أن يتفكروا ، فيعملوا بها ؛ لأن الأمثال طرق إلى المعاني المحتجبة تكشف عنها
 وتصورها للأفهام حتى تترك التخيل في صورة المتحقق ، والغائب في صورة

(١) انظر الكشف ٥٠٩/٤ وزاد فيه : فمن حقهم أن يعلموا وينبها عليه ، كما تقول لمن يعق أباه : هو أبوك .
 يجعله بمنزلة من لا يعرفه فيه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطف .

(٢) الإنزال : إرسال الشيء من علو إلى سفلى ، أنزله إنزالا ، ونزله تنزيلا . التصدع : التفرق بعد التلازم ، ونظيره
 التفكك ، صدع يصدع صدوعا ، وهو مصدر ، ومنه الصداق في الرأس ، وتصدع تصدعا ، وانصدع انصدعا .
 التهذيب ٥٠٨ .

المشاهد^(١) .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بالعظم ، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف أتبع ذلك بشرح عظمة الله فقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود يحق غيره ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي: المعدوم ، وقيل: ما غاب عن العباد ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الموجود المدرك كأنه يشاهده ، وقيل: ما يشاهده العباد ، وقيل: السر والعلانية ، وقيل: الدنيا والآخرة^(٢) .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام: الغيب: ما غاب عن محضرك قال الشاعر:
وليس أخي من كان لي عند محضري ولكن أخي من كنت بالغيب أطلبه
والشهادة: هي الأسباب الحاضرة قال الشاعر:

ولقد شهدت الخيل تضجح في حياض الموت ضبحا

يريد حضرت وشاهدت ، ويحتمل أن يكون الغيب: هو الضمير [بالجنان] والشهادة: هي الكلام والإقرار باللسان اهـ .

ومعنى ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ أي: هو ذو الرحمة والإحسان .
وتأويل ﴿الرَّحِيمُ﴾ كتأويل الرحمن ، وهو تأكيد لذكر الرحمة ، وزيادة في البيان .
﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ الذي عم ملكه الدنيا والآخرة ﴿الْقُدُّوسُ﴾^(٣)
أي: البليغ النزاهة عما يستقبح ، الطاهر عما لا يليق ، ونظيره: السبوح ، وفي تسييح الملائكة (سبوح قدوس)^(٤) .

(١) قال الحاكم: قيل: معناه لو أحيينا الجبل ، وركبنا فيه العقل لرأيت حاشعا ، وقيل: لو كان الجبل يتصدع من شئ لعظمته لتصدع من هذا القرآن لعظم ذلك ، وهذا هو الوجه ، وقيل: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل مع صلابته لكان ينبغي له أن يتصدع ، فينبغي للإنسان مع ضعفه أن يكون عند تلاوته خاشعا متصدعا عن أبي علي (تهذيب ٥٠٩) .

(٢) — انظر الكشف ٨٧/٤ وقال في البرهان: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: عالم السر والعلانية ، وما كان وما يكون من الحياة والموت والآجال والأرزاق .

(٣) في مجموع الإمام الهادي عليه السلام (باب تفسير معنى القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . القدوس: فهو المستحق من خلقه للتقديس ، والتقديس: فهو التنزيه والتعظيم ، فكذلك ربنا الواحد الكريم .

﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن ، أو المصدق رسله بالمعجز .

والسلام : فهو السالم من الآفات التي تحمل بغيره النازلات بالخلائق ، الحالة بهم ، الحاجة عليهم .
والمؤمن : فهو المؤمن لأوليائه من أليم عذابه ، الصارف عنهم ما يوقع بأعدائه من عقابه .
واللهيم : فهو المتقدس الحاكم الشاهد على خلقه بحكمه العادل .
والعزيز : فهو الغالب الجليل الممتنع ، المتعالي عن التشبيه والتمثيل ، المتعزز فلا يرام العظيم الجليل فلا يضيق ، المعزز لأوليائه المذل لأعدائه .

والجبار : فهو المالك القاهر الذي ما جبر من الأشياء كلها أنجر فكان على ما جبره وصوره من الأجسام فتبارك الله ذو الجلال والإنتع ، الذي جبل الأشياء وجبرها على ما شاء من تصوير خلقها ، وتركيب أجسامها وأعضائها ، وتقدير ألوانها وأماكها ، وتغيير طعم ما كوتها واختلافها ، فحبر السموات على ما أراد من الارتفاع ، وجبر وجبل الأرضين على ما أراد من الاندحاء والإنتضاع ، وجبر ما بينهما على ما يشاء من تصويرهم ، وخلق ما خلق من تقديرهم ، فجعلهم من ضعف ، ثم جعل من بعد الضعف قوة ، ثم جعل من بعد القوة ضعفا وشية ، كما قال الله سبحانه : ﴿اللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ الضَّعْفِ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ الْقُوَّةِ ضَعْفًا وَشَيْئَةً﴾ ، كذلك جعلهم على ما شاء من خلق أجسامهم ، فجعل منهم الطويل والقصير ، وجعل منهم الثيل في جسمه والحقير ، وكلهم يريد للأفضل من الأمور ، فكانوا كما شاء أن يجعلهم ، وجعل فعله فيهم وفي غيرهم آية لهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقَ الْإِنسَانِ الْمُسْتَكْمِلِ﴾ ، فكان تركيب خلقهم كما أراد من تصويرهم لا اختلاف في ذلك ولا تفاوت ، كما قال سبحانه : ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُتُوْرٍ ثُمَّ اَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ فالحمد لله الذي جبل العباد وجبرهم على ما يشاء من تركيب خلقهم محبوبهم من ذلك وغير محبوبهم ، ولم يجبرهم على شيء من أفعالهم صغیرها ولا کبیرها ، دقیقها ولا جلیلها ، بل أمرهم ونهاهم ، وبصرهم عیهم ونهائهم ، ثم بعث إليهم النبيين فأمرهم بطاعة رب العالمين ، وحذروهم أن يكونوا له من العصاة ، وخلق للمطيعين ثوابا وللعاصين نكالا وعقابا ، ثم لم يخل بين أحد وبين طاعته ، ولم يجبر أحدا على معصيته ، بل أمر عباده بتحيزا ، ونهاهم بتحذيرا ، ثم قال ذو المن والعزة والجلال من بعد إكمال الحجة عليهم في كل حال : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، المتعالي عن جبرهم على شيء من أفعالهم ، العدل في كل أفعاله ، الصادق في كل مقال ، البرئ من شبه الجعولات ، المتعالي عن درك الغفلة والسنات

والتكبر : فهو العظيم الخبير الذي لا يشبهه في القدرة والعظمة كبير .
(٤) وهو بالضم والفتح ، قال الحاكم : القدس : الطهارة ، والتقديس : التطهير ، والقدوس والسبح روي أنهما من تسيح الملايكة ، وهي كلمتان في العربية لم يأت علي نائهما غيرهما ، ومعنى السبح الذي يجب له التسيح ، والقدوس : الذي يجب له التطهير .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: "معنى السلام: هو السالم من الآفات، الذي لا تحل به النازلات" (١) قال الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكمما
ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
والمؤمن: هو المؤمن لأوليائه من أليم عذابه [وإنما سمي نفسه مؤمنا، لأمانه للمؤمنين،
وأنهم لا يكونون عنده أبدا مفرعين، بل يؤمن روعتهم بأمانه للمحسنين، لأنه كريم
يحب الكرم والإحسان، مؤمن يحب الرحمة والإيمان، وما عسى أن يبلغ من نعته
الناعتون أو ينال من وصف كرمه الواصفون] (٢). اهـ

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ (٣) الرقيب على كل شيء الحافظ له ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الذي لا يغلب (٤)
﴿الْجَبَّارُ﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد، يقال: جبره بمعنى أجبره، يحتمل أنه
من جبر أي: أغنى الفقير وأصلح الكسير (٥) ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة، وقيل:
المتكبر عن ظلم عباده وعملا لا يليق.

(١) وفي البرهان: السلام: أي: أنه السالم من الآفات والعاهات، والزوال والفناء بخلاف خلقه، والثاني: سمي
بذلك لسلامة عباده من ظلمه.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة، وما بين القوسين ليس موجودا في نسخة تفسير
الغريب للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام، وهي موجودة في أصل هذا التفسير المصباح.

(٣) — انظر تفسير الإمام زيد في أول السورة.

وفي البساط للإمام الناصر الأطروش عليه السلام ص ٥٠، في تفسير قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ قال عليه السلام:
تقول العرب: آمن فلان نفسه، وآمن غيره أن يظلمه، فهو يؤمن نفسه ويؤمن غيره، أمنا وأمانا، وإمانا، وبهنا
الإيمان سمي الله سبحانه نفسه فقال: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ فعنى بالمؤمن المؤمن عباده أن يظلمهم، والمهيمن: الشهيد
عليهم بأعمالهم ولهم، قال جل ذكره في تبيان أن المهيمن الشهيد: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة ٤٨] أي: وشهيدا عليه.

وفي مسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام خ ص ٢٩٨ وسألت عن المؤمن المهيمن، فأله هو المؤمن لأوليائه من
سخطه، والمهيمن: الشهيد، والله هو الشهيد مع أعدائه بمعصيته، انظر مجموع تفسير الأئمة.
المهيمن: مقتل من الأمانة، وأصله مؤمن، قلبت الهمزة هاء، وفخم اللفظ به لتفخيم المعنى.

(٤) وزاد في البرهان: العزيز في انتقامه (٣٧٥)،

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عما يجعلونه شريكا له في الإلهية من الأصنام وغيرها .
 ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ الخالق : المقدر لما يوجده ^(١) والبارئ : المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الممثل ^(٢) ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي هي أحسن الأسماء لدلالاتها على التقديس والتعظيم ، وجميع أسمائه حسنى لنفي القبايح من فعلته ، وأنه لا يفعل إلا حسنى ، ولا يأمر إلا بحسن ، فلذلك صارت أسماءه وصفاته حسنى .
 ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قد مر تفسير التسبيح .
 أبو هريرة : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن اسم الله الأعظم فقال : (عليك بآخر الحشر) فأعدت عليه فأعاد علي ، فأعدت عليه ، فأعاد علي ^(٣) .
 وفي الثمرات عنه صلى الله عليه وآله وسلم : (من قرأ آخر سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ﴾ إلى آخره فمات من ليلته مات شهيدا) ^(٤) .

(٥) وفي البرهان : العظيم الشأن في القدرة والسلطان .

وقال الحاكم : الجبار : العالي الفائق الذي لا تناله الأيدي ، وهو من التعظيم ، وجبروت الله عظمت ، وقيل : هو من الجبر الذي هو الإصلاح ، جبرت العظم أجبره إذا أصلحته بعد الكسر ، وجبرته فجبر ، وهو لازم ومتعد .
 (١) قال الحاكم : الخلق : الإبداع على تقدير لا ينقص عن مراده ولا يزيد ، وقيل : الخلق أن يفعل لا بآلة ، وقيل : هو الاختراع . والبرء والخلق من النظائر ، برأ الله الخلق أي خلقهم .
 (٢) وفي البرهان : المصور : لتصويره الخلق على مشيئته ، قال :

الخالق البارئ المصور في الأرحام ماء حتى يعود دما

(٣) حديث أبي هريرة في القرطبي ٤٩/٨ بلفظ : عن أبي هريرة سألت خليلي أبا القاسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن اسم الله الأعظم .. الخ وهو في مجمع البيان عن أبي هريرة ، قال : سألت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
 (٤) الثمرات : كتاب في تفسير آيات الأحكام ، وهو للفقير العلامة يوسف بن أحمد بن عثمان الثلاثي ، عالم مجتهد ، مفسر ، من أعيان العلماء في القرن التاسع ، أخذ عن العلامة الفقيه الحسن النحوي ، والعلامة عبد الله بن الإمام يحيى بن حمزة ، والعلامة الفقيه أحمد بن سليمان الأزوري ، وغيرهم ، حتى أصبح من كبار العلماء ، وكان بين طلبته وبين طلبية الإمام أحمد بن يحيى المرتضى منافسة ، وقد عكف على التدريس في جامع ثلا ، وأقبل الناس لأخذ عنه من سائر البلدان ، ومن أشهر تلامذته ، القاضي يحيى بن أحمد مظفر ، صاحب البيان الشافي ، ومن أشهر كتبه المبرجحة له (الثمرات البانعة من آي القرآن المحتاج من كلام الرحمن في تفسير آيات الأحكام) كتاب شهير ، قال السيد المولى العلامة مجد الدين المويدي حفظه الله : وما يقع في الثمرات في أسباب نزول الآيات من المخالفة للحق الذي عليه العترة

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم (من قرأ آخر سورة الحشر غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر) رواه السيد العلوي رحمه الله في حاشية الكشاف .^(١)

المطهرة عليهم السلام ، والروايات الملوثة المتواترة ، فمنشؤه الاعتماد على كتب المخالفين في النقولات ، مع عدم الالتفات إلى تصحيح الروايات ، على غير قصد لما تضمنه من الدلالات ، ولا تعمد لمخالفة المعلومات ، وموجب التأويل لمثل هذا العالم ما علم من الحال من الطريقة الصالحة ، والسيرة المرضية مع عدم التصريح بما يوجب التأنيب ، الخ توفي المرحوم له نبلا في جمادى الآخرة سنة ٨٣٢هـ ، وعنه وعن مؤلفاته انظر (أعلام المؤلفين الزيدية ، وفهرست مؤلفاتهم) تحت الطبع ، ومن مصادر ترجمته أيضا أئمة اليمن لزيارة ٣٠٤/١ ، الجواهر المضئية للقاسمي خ ، طبقات الزيدية للسيد إبراهيم بن القاسم خ ، البدر الطالع للشوكانني ٣٥٠/٢ ، المقصد الحسن للعلامة أحمد بن يحيى حابس في رجال الأزهار للجندي ، في أول شرح الأزهار ، ص ٤٢ ، لوامع الأنوار للمولى العلامة مجد الدين المؤيدي ٣١٧/١ مطلع البدور ، لابن أبي الرجال . والحديث أخرجه النعالي عن يزيد الرقاشي عن أنس ، وفي القرطبي ١/١٨ ، وأعاده عن ٤٩/١٨ ، بلفظه ، وفي مجمع البيان ٣٣٦/٩ .

(١) السيد العلوي : هو السيد يحيى بن القاسم بن عمر بن علي العلوي ، البغدادي ، الصنعاني [٦٨٠ هـ - ٧٥٣ هـ] عالم حافظ ، مفسر ، رحالة ، مولده ونشأته باليمن ، وأخذ عن علماءها حتى برع في فنون العلم ، ثم رحل إلى عدة بلدان إسلامية ، فدخل دمشق سنة ٩٤٧ هـ وزار بغداد ، والري (وهي المسماة الآن بطهران عاصمة الجمهورية الإسلامية الإيرانية) والديلم ، وأصفهان ، وكان شاعرا مجيدا ، ومؤلفا بارعا ، لاقت مؤلفاته استحسانا كبيرا من العلماء ، ومن أشهر كتبه حاشيته على الكشاف ، تعرف بحاشية العلوي ، وتسمى تحفة ذوي الإشراف في كشف غوامض الكشاف ، وتسمى أيضا (درر الأصداف في حل عقد الكشاف) مخطوطة في عدة مكاتب عامة وخاصة ، وهي حاشية نفيسة ، وابن شهاب في حاشيته على البيضاوي يعتمد عليها ، وكثير من المعلقين على الكشاف ويطلقون عليه المحقق العلوي والنصف الأخير موجود لدينا مخطوط ، وإلى الآن لم نحصل على الجزء الأول نسأل الله تيسيره لنا ، توفي المرحوم له ببلاد الشرف ، وقبر بجهة اللجب ، ومن مصادر ترجمته (أعلام المؤلفين الزيدية) (مصادر التراث الإسلامي في المكتبات الخاصة) (أئمة اليمن ٢٥٠/١) (البدر الطالع ٣٤٠/٢) (طبقات الزيدية خ) (المستطاب خ) (مطلع البدور) .

ولفظ الحديث في حاشية العلوي : (عن رسول الله صلى الله عليه وآله : من قال حين أصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة) . وهو في تهذيب الحاكم عن أنس .

والحديث في تفسير القرطبي عن أنس ٤٩/١٨ ، وهو في مجمع البيان ٣٣٦/٩ ، والحديث أيضا في كثر العمال ٥٩٣/٢ بلفظه ، وعزاه إلى أبي الشيخ عن أبي أئمة ، وهو في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٤٨٢/٨ ، وعزاه إلى كثر العمال وهو بلفظ من قرأ غواتيم الحشر من ليل أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو الليلة فقد أوجب الجنة ، في كثر العمال رقم ٢٦٤٣ — وعزاه إلى (عدهب) عن أبي أئمة ، وهو في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٤٧٢/٨ ، وعزاه إلى الكثر ، وإلى إتحاف السادة المتقين ٤٦٨/٤ .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المترلة^(١)). وعنه صلى الله عليه وآله (من قرأ آخر سورة الحشر فمات وجبت له الجنة)^(٢). وجاء في الحديث الرباني (أن من قرأ آخر سورة الحشر من قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ وهو واضح ليده على رأسه كان في ذلك شفاء من كل شيء إلا السام)^(٣) وروي للقرئى الفاضل أحمد بن مسعود العنسي بإسناد طويل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (قرأت القرآن على جبريل عليه السلام فقال لي: ضع يدك على رأسك وقال: قرأت القرآن على إسرائيل عليه السلام فقال لي كذلك، وقال: إن للملحكة قرؤوا القرآن كله حتى انتهوا إلى آخر سورة الحشر فقال تعالى: ضعوا أيديكم على رؤوسكم فقالوا: يا ربنا ولم هذا؟ فقال لهم رب العزة: هذه الآية شفاء من كل شيء إلا السام) يعني للوت . والله أعلم

-
- (١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٢٢ وقال: حديث حسن غريب، وأحمد بن حنبل في مسنده ٢٦/٥، والبيهقي ٧٣/٧ وهو في مجمع الزوائد ١١٤/١٠، والترمذي والزهبي ٤٤٧/٠، وإتحاف السادة المتقين ١٣٢/٥، ومشكاة المصابيح برقم ٢١٥٧، وعزاه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٤٣٢/٨ إلى من سبق وإلى ابن السني ٧٨، ٦٢٥، وهو في كنز العمال برقم ٣٥٩٧، وعزاه إلى أحمد والترمذي والطبراني وابن السني والبيهقي، وهو في تفسير القرطبي ١/١٨.
- (٢) ذكره القرطبي ٤٩/١٨ عن أبي أمامة بلفظ مقارب، وهو في مجمع البيان ٣٣٦/٩. وفي تهذيب الحاكم: عن أبي أمامة: من قرأ خواتيم الحشر من ليل أو نهار فقبض في ذلك اليوم أو الليلة فقد أوجب الجنة.
- (٣) في مجمع البيان ٣٣٨/، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اسم الله الأعظم في ثلاث آيات في آخر سورة الحشر.

سورة المجادلة

مدينة إحدى وعشرون آية في المدني والمكي ، واثنان في عدد الباقيين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ قال الإمام الناصر لدين الله عليه السلام في برهانه : هي خولة ابنة ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت رآها وهي تصلي ، وكانت حسنة الجسم ، وكان بالرجل لم فلما سلمت راودها فأبت ، فغضب وكان به خفة ، فظاهر منها ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تستفتيه في ذلك ، فقالت : إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما خلا سني ونثر بطني — أي : كثر ولدي — جعلني عليه كأمه ^(١).

وروي ^(٢) أنها قالت له : إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلي

(١) هذه الرواية موجودة في الكشف بلفظها وقال في تخريجها : أخرجه الدارقطني والبيهقي . وأما لفظ البرهان فهو : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ هي خولة ابنة ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت وكان قد ظاهر من امرأته ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وآله تستفتيه في ذلك وتشتكي إلى الله فأمر الله تعالى قوله : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ اهـ . وكذلك الرواية الثانية وهي قوله : وروي أنها قالت ... الخ موجودة في الكشف وليست موجودة في البرهان . وإنما الموجود في البرهان هو ما ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَغَاوْرَكُمَا﴾ وهو قوله : وروينا أن أم سلمة . ومعنى (خلا سني) : مضى سني . (علوي) .

(٢) هذه هي الرواية الثانية في الكشف . وقد جمع إليها المصنف الرواية الثالثة في الكشف وأمعها بها ، ولفظ الكشف بعد قوله : (ما عندي في أمرك شيء) : وروي أنه قال لها : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله ما ذكر

جاعوا فقال : ما عندي في أمرك شيء ، فقالت : أشكو إلى الله فاقني ووحدي^(١) كلما قال رسول الله صلى الله عليه وآله حرمت عليه هتفت وبكت إلى الله فأنزل الله تعالى ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾^(٢) . ﴿وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾

طلاقاً وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلى فقال : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى الله فاقني ووحدي .. الخ ما ذكره المصنف هنا (الكشاف ٤/٤٨٤ . ٤٨٥) .

قال ابن حجر في تخريجها : هذه الرواية الثانية أخرجها الطبري من طريق أبي معشر ، عن محمد بن كعب القرظي قال : كانت حولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت ، وكان رجلاً به لم فقال في بعض هجراته : أنت علي كظهر أمسي ، قال : ما أظنك إلا قد حرمت علي ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يا نبي الله إن أوس بن الصامت أبو ولدي وأحب الناس إلى ، والذي أنزل الكتاب ما ذكر طلاقاً ، قال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله لا تقل كذلك ، والله ما ذكر طلاقاً ، فراودت النبي صلى الله عليه وآله وسلم مراراً ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك فاقني ووحدي ، وما يشق علي من فراقه ... الحديث ، ومن طريق أبي العالية قال : فجعلت كلما قال لها : حرمت عليه هتفت وقالت : أشكو إلى الله ، فلم ترم مكانها حتى نزلت .

(١) في الكشاف : أشكو إلى الله فاقني ووحدي ، وفي المصايح أشكو إلى الله فاقني ووحدي ، وكذلك هو في تخريج ابن حجر لهذا الحديث في الكشاف (الكشاف ٤/٤٨٥) . ومعنى (هتفت) : صاحت ودعت (علوي) .

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام من تفسيره هذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام في قوله تعالى ﴿والذين يظهرون منكم من نسائهم﴾ وهو أن يقول لامراته : أنت علي كظهر أمسي ، فإذا قال ذلك ، فليس له أن يقربها حتى يحق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يقدر على ذلك أطعم ستين مسكيناً ، فإذا فعل ذلك فله أن يقربها . وقوله تعالى ﴿كتبنا كما كتب الذين من قبلهم﴾ معناه : أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم .

وقوله تعالى ﴿وما يكون من نحوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ فالنحوى : السر ، والله عز وجل بكل الأمكنة محيط بهما ، ومدير لها ، وشاهد لها غير غائب عنها ، وكل ذلك منه بخلاف ما يعقل من خلقه .

وقوله تعالى ﴿وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ وهو قول اليهود : سام عليكم .

وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسخوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ معناه : أوسعوا .

وقوله تعالى ﴿وإذا قيل انشروا فانشروا﴾ معناه : إذا قيل لكم : قوموا . قوموا .

وقوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ معناه : غلب عليهم وحازهم .

وقوله تعالى ﴿من حاد الله ورسوله﴾ معناه : من شاق الله وعاداه .

وقوله تعالى ﴿وأيدهم بروح منه﴾ معناه : قواهم . وقوله تعالى ﴿يجادون﴾ معناه : يعادون .

ورويانا (أن أم سلمة ^(١) زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت : تبارك الله الذي أوعى سمعه كل شيء سمع الله كلام خولة بنت ثعلبة وأنا في ناحية البيت ما أسمع بعض ما تقول ، وهي تقول : كلَّ شبابي وانقطع ولدي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني ظاهر مني اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية .

وفي التجريد فقال لها — يعني أوسا — ما أراك إلا قد حرمت علي ، فقالت : والله ما ذكرت طلاقا ، وأمرها أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتسأله ثم أتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله أوس أبو ولدي ، وابن عمي ، وأحب الناس إلي ، ظاهر مني ، والله ما ذكر طلاقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : (ما أراك إلا قد حرمت عليه) فقالت : أشكو إلى الله فاقني ووحدي ، وجعلت تراجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكلما قال : (حرمت عليه) هتفت وشكت إلى الله فنزلت ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي : في قول زوجها كلما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : (قد حرمت) قالت : والله ما ذكر طلاقا ، فهذا جدالها ، فيينا هي كذلك إذ تريد وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ونزلت هذه الآية .

ثم إنه صلى الله عليه وآله أرسل إلى زوجها فقال : (ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : الشيطان فهل من رخصة ؟ قال : نعم ، وقرأ عليه الأربع الآيات ، وقال له هل تستطيع العتق ؟ فقال : لا والله ، فقال : هل تستطيع الصوم ؟ فقال : لا والله لولا أنني أكل في اليوم مرة أو مرتين لَكَلَّ بَصْرِي ، ولظننت أنني أموت ، فقال له : فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ فقال : لا والله يا رسول الله إلا أن تعينني منك بصدقة ، فأعانه بخمسة عشر صاعا ، وأخرج من عنده مثله ، فتصدق به على ستين مسكينا .

واعلم أن في هذا الخبر مباحث :

قال أبو سليمان الخطابي ^(٢) : ليس المراد من قوله في هذا الخبر : وكان به لم : الخبل

(١) وهو في الكشف عن عائشة ٤/٤٨٤ .

(٢) أبو سليمان الخطابي : هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي (٣١٩ - ٣٨٨ هـ) من ولد زيد بن الخطاب أخى عمر بن الخطاب ، أبو سليمان . محدث ، لغوي ، فقيه ، أديب ، ولد وتوفي ببست في رباط علي

الجنون ، إذ لو كان كذلك ثم ظاهر في تلك الحال لم يكن يلزمه شيء ، بل معنى (اللمم) هاهنا : هو الإمام بالنساء وشدة الحرص والتوقان إليهن .

البحث الثاني : أن الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية ؛ لأنه في التحريم أوكد ما يمكن فإن كان ذلك الحكم صار مقررا بالشرع كانت الآية ناسخة له ، وإلا لم يعد نسخا ؛ لأن النسخ إنما يدخل في الشرائع لا في عادة الجاهلية ، لكن الذي روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لها : (حرمت) أو قال : (ما أراك إلا قد حرمت) كالدلالة على أنه كان شرعا ، وأما ما روي أنه توقف في الحكم فلا يدل على ذلك .

البحث الثالث : أن هذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاءه عن الخلق ، ولم يبق له في مهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك المهم ^(١) .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿سمع﴾ يحتمل وجهين أحدهما : علم . والثاني : أجاب دعاءها ورحم تضرعها ونداءها ، وهي امرأة من الأنصار [ظاهرها زوجها ثم ندمت عليه وندم عليها] .

ومعنى ﴿تجادلك﴾ تخاطبك في زوجها وتسألك ، ومعنى قوله : ﴿وتشتكي إلى الله أي : تدعو الله وتشكو إليه فراق زوجها ومعنى ﴿والله يسمع تحاوركما﴾ يريد : والله يعلم مخاطبتكما وكلامكما ^(٢) . اهـ

شاطبي هـنـد مند ، من تصانيفه : معالم السنن في شرح كتاب السنن لأبي داود ، غريب الحديث ، شرح البخاري ، أعلام الحديث ، إصلاح الغلط ، وله شعر ، وانظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٢٣٨/١ .

وفي هذا الكلام رد على من قال بأن معنى اللمم : الجنون ، كما قال عليان في حاشيته على الكشاف : اللمم أي : طرف من الجنون ، أو من الجن ، أفاده الصحاح (الكشاف ٤/٤٨٤) وقد بين فساد هذا المعنى للمصنف والرازي في قولهما : قال أبو سليمان الخطابي .

(١) من قوله : (واعلم أن في الخبر مباحث) إلى هنا مثله في الرازي ٣٤٩/٢٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٢) ما بين أقواس الزيادة من تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

ثم قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن بعد قوله : مخاطبتكما وكلامكما :

قال الشاعر : غراء أكمل من يمشي على قدم حسنا وأحسن من جاورته الكلم

ومعنى قوله: ﴿الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ معنى الظهار: هو طلاق الجاهلية، وقيل: هو قول القائل: هي عليه كظهر أمه، قال الله: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ والمنكر: هو ما لا يرضاه الله عز وجل، وأما الزور: فهو الكذب والمحال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يحاربون أولياء الله، ويتعدون حدوده، ويعصون أمره ﴿كَبِتُوا﴾ كما كتبت الذين من قبلهم ﴿قِيلَ: أَيُّ مَعْنَى﴾ ﴿كَبِتُوا﴾ أي: عموا عمى، وردوا وخابوا ونكبوا، ولم يظفروا بما أحبوا وبما طلبوا. ومعنى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أيما كانوا وأصل النجوى هو الكلام والخطاب، قال الشاعر:

هل أنت سامعي أم قد صممت فلا
نجوى تردين من غيٍّ ومن رشَدٍ

ومعنى ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يريد: أنه غير غائب عنهم، بل شاهد لا يغيب منهم، وهو مدير في كل الأماكن، لا يخلو من تدبيره وشهادته أحد، بل هو مدرك بشهادته، وليس كما يتوهمه الجاهلون أنه معهم بذاته، وبيان ذلك في الرد على المشبهة في كلامنا، وقطعنا لكفرهم بجدلنا.

ومعنى ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لَهَا﴾ نَهَوْا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿يُرِيدُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنِ الْغِيَةِ وَالْإِنْقَاصِ لِلْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ عَادُوا وَلَمْ يَقْلَعُوا، وَلَمْ يَتَوَبَّأُوا إِلَى اللَّهِ، وَشَنَّعَ اللَّهُ إِقْدَامَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْكَمْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ يريد عز وجل أنهم إن جازوا رسول الله حيوه وسلموا عليه في ظاهر قولهم، ويصدقون في ذلك الشتم في قلوبهم، والأذية له والانتقاص للمسلمين في ضميرهم، ويقولون في أنفسهم هلا يعذبنا الله بما نقول، وإليه اعتقادنا في محمد يؤول لو [كان] محمد كما يقول لعاقبنا الله في شتمنا له ويعذبنا في عيتنا وطعننا عليه، ولنصر منا رسوله، فرد الله عليهم فيما اعتقدوا وأظهر قبح ما كتموا فقال: ﴿حَسِبْتُمْ أَنْ تُتِجَّ بِمَنْ يَصْلُونَهَا﴾ فبئس المصير ﴿يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: كَفَى لَكُمْ بِمُحَمَّدٍ، وَهِيَ كَفَاتِهِمْ، وَهِيَ عَذَابُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَنَقْمَتُهُمْ.

ومعنى قوله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يريد عز وجل أن الغيبة منهم لأولياء الله طاعة للشيطان، وسخط ومعصية للرحمن، ثم قال عز وجل: إن هذه النجوى التي أمر بها الشيطان لا يضر بها أحد من المسلمين ومعنى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يريد أنه لم يقدر هو وأعوانه على عيبه المؤمنين إلا بتخليه الله لهم، لبثت أولياءه على غمهم أكثر مما نالهم من كلام أعدائهم.

ومعنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يريد: أنه يفتح الله لكم، ويوسع لكم في معيشتكم، وفي دنياكم وآخرتكم، ثوابا على توسيعكم في المجلس لإخوانكم؛ لأنه عز وجل يثيب على القليل اليسير بالثواب الجزيل العظيم الكثير، فانظروا رحمكم الله كيف جعل الرحمة والثواب في كل عمل من الأعمال ولو قل وصغر عند العلماء والجهال، فذلكم يدلکم على رحمة الله الواحد الفضال، فاطلبوا ثوابه في جميع الأحوال، وتقربوا إليه بحسن الفعل والمقال، والرحمة للعباد والطف وحسن الجدل.

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاَنْشُرُوا﴾ [أي: ارتفعوا وقوموا، قيل: حتى يجلس العلماء مكانكم؛ لأنهم أحفظ

وأروى للحكمة منكم . ﴿وانشروا﴾ وقوموا لما شاء نبيكم وولي أمركم وإمامكم ، والانشور في لغة العرب هو النهوض والقيام والانتصاب قال الشاعر

انشروا عنا فأنتم معشر
أهل رجس وفجور وأشر

ومعنى ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴿﴾ روى بعض هذه الأمة ونقلوا في رواياتهم ما الله به أعلم وهو حسن لا بأس به إن أكثر التجلي عند رسول الله صلى الله عليه وآله والتزين في عينة بكثرة السؤال في المخاطبة والعلم والجدال ، فأراد الله عز وجل أن يكشف أمرهم ، ويبين لنبيه عوارهم وزهدهم في الحق ونفاقهم وكفرهم ، فأنزل الله هذه الآية ليمتحنهم ويختبرهم ليفقروا بالصدقة ويلوهم ، فوقفوا عن السؤال خوفا من الإنفاق ، وتبين عند ذلك ما كانوا يخفون من النفاق ، ثم صير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات رب العالمين وكان يتصدق ويسأل نبيه صلى الله عليه وآله ، ويبحث من العلم والحكمة ما لديه ، وتاب قوم بعد ما وقفوا عن السؤال ورجعوا عن البخل ولزوم الأموال ، واستغفروا الله بما أنوا به من أفيح المقال ، فعطف عليهم بالنوبة سيدنا ذو الجلال ، وعاتبهم سبحانه بأحسن المقال فقال لهم عز وجل : ﴿أشفقت أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فروى هؤلاء الفقهاء في رواياتهم أن الله نسخ آية النجوى بقوله : ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ يعني زكاة الأموال ، ولنا في هذا ومثله نظر بتوفيق الله ذي الجلال ، ومعنى ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم﴾ يعني بذلك المنافقين الذين تولوا أعداء الله الفاسقين ، فأخبر الله عز وجل أن هؤلاء المنافقين ما هم من المسلمين ، ولا من المحاربين ، ولكنهم كما قال الله عز وجل مذنبين ، وكما قال في هذه السورة : ﴿وَيُحْلِقُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم لا يحاربون لضعفهم وجنهم ، ولا يؤمنون لما هم عليه من كفرهم وفسقهم وإنما همتهم الكذب والفسق والمحال والنفاق والخسة والجهل والضلال .

ثم قال عز وجل : ﴿أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ إلى قوله : ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ أي : تولاهم وانقطع في ضلالهم وحازهم وحواهم في الضلالة واقتطعهم ، ومعنى ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ يريد أنهم أصحابه وجماعته ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ يريد عز وجل : وعد وحكم لأغلبن أنا ورسلي بالدين والحق الواضح النير المستبين ، والحكمة الباهرة ، والصدق واليقين ، ثم الغلبة الثانية من الرحمن بما يحل بأعدائه من الموت والأحزان ، ومزق أعضائهم في القبور والأكفان ، والثالثة عند البعث والهوان والحساب والعذاب في النيران ، فهو عز وجل قاهر غالب هر وأوليائه وحزبه وأنصاره وأحباؤه .

ومعنى ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ وصدق الله عز وجل أنك لا تجد مؤمنا يواد كافرا ، ولو كان أقرب الناس إليه ، ولا تجده له محبا ولو كان أعز الناس عليه ، بل تجد المؤمنين لأعداء الله مائتين ، ولهم مجانين ، وغير مائتين ، لأن الله عز وجل جعلهم للمقت

والمحاورة : مراجعة الكلام ، قال عنتره :

لو كان يعلم بالمحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي^(١)
﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي : عليم بكل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ عليم بكل مبصر . ثم قال :
﴿الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي : أزواجهم^(٢) . قال في التجرید : قرئ
﴿يَظْهَرُونَ﴾ بتشديد الظاء ، وأصله يتظاهرون ، وقرئ ﴿يَظَاهَرُونَ﴾ بتشديدها وفتح الياء
وألف بعد الظاء ، وأصله يتظاهرون ، وقرأ عاصم^(٣) ﴿يَظَاهَرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء
قال في البرهان : والظهار : قول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي . وكان ذلك في
الجاهلية طلاقاً باتاً لا رجعة فيه ، ولا زوجية بعده ، فنسخه الله بما استقر عليه من
وجوب الكفارة فيه بالعود^(٤) . ثم قال سبحانه : ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ تكذيباً من الله تعالى

مستحقين ، وما أحسب أنه يصبر على معاصي الله أحد فيه رفق ولا صلاح ؛ لأنه لا يصبر على الكفر إلا وهو نذل
دنيء ليس فيه خير ولا صلاح ، فازهدوا زحمتكم الله فيهم غاية الزهد ، وأبعدوهم منكم ولو قربت أرحامهم كل البعد .
ومعنى قوله عز وجل في المؤمنين المهاجرين الظلمة الكافرين : ﴿أُولَئِكَ كَبُتْ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ يريد : ألهمهم الإيمان
وأعانهم ووقفهم لحقيقة الإيقان ، ومعنى ﴿وَأَيَّدَهُمُ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي : قواهم بروح القرآن ، كما قال : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ فسمى القرآن روحاً ، ويمكن أيضاً في التفسير أن يكون أيدهم بروح من التوفيق والتسديد ، والحكمة
والبصيرة والعون والتأييد . ومعنى ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يريد : أنهم جماعة أوليائه
وأنصاره ، وأهل محبته وتقديمه وإيثاره . ومعنى ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يريد : أنهم الباقيون الراجيون ، نسأل الله الفلاح برحمته
والتوفيق لجهاد أهل معصيته وعداوته ، فالجهاد أفضل ما دعا به الداعون ، وأنبئ ما طلبه من الله الطالبون ، فرحم الله عبداً
جاهداً بلسانه وقلبه ويده ، واجتهد في نكابة أعداء الله بطاقته ، ومبلغ ما ركب الله فيه من قوته ، حتى يموت على ذلك أو في
الجهاد فيبلغ أفضل درجات العباد ، فنسأل الله العون على ما قصدنا من الرشاد ، وهلاك المنكر والمحال والفساد .

(١) مثله في البرهان ٣٧١ .

(٢) وفي قوله تعالى : ﴿مِنْكُمْ﴾ توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم ، يعني أن الظاهر أن يقال : الذين يظاهرون من نسائهم
فأقحم منكم ليدمج فيه تهجين عادة العرب . وقد فند السيد العلوي قول صاحب الانتصاف : واستدل بعضهم على أنه
لا يصح ظهار الذمي بقوله : ﴿مِنْكُمْ﴾ فقال : ليس بالقوي لأنه غير المقصود .

(٣) عاصم هو : عاصم بن أبي النجود أحد القراء المشهورين (تقدمت ترجمته).

(٤) انظر البرهان ٣٧١ . وكذلك ما بعده مثله في البرهان ، إلى قوله : فتشبههم باطل .. الخ

لقوله في امرأته : أنت علي كظهر أمي . فتشبههم باطل لتباين حالتي الأم والزوجة^(١) ﴿إِنَّ أَهْمَاتَهُمْ﴾ حقيقة ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة وهو ذم لهم^(٢) وتوبيخ ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ . قال في البرهان^(٣) : يعني بمنكر القول الظهار ، وبالزور : كذبهم في جعل الزوجات أمهات . وفي التجرس : ﴿مُنْكَرًا﴾ من القول تنكره الحقيقة ؛ لأن زوجة الرجل ليست أما له ، وتنكره الأحكام الشرعية^(٤) . ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ﴾ لما سلف من الظهار لمن تاب وفعل الكفارة . وأما قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فقد اختلف في تفسير العود هنا ، فقال أبو العالية : ”العود لا يكون إلا بتكرير الظهار ، فإذا كرر الظهار كان عودا يلزم فيه الكفارة المذكورة ، وإن لم يكرره لم يكن عودا ، ولا يلزمه شيء“ وهذا قول أهل الظاهر^(٥) والعلماء على خلاف ذلك ، وهو أنه يلزمه الكفارة من غير اعتبار تكرير اللفظ ، ثم اختلف الأكثرون في معنى العود . فقال ابن قتبية^(٦) وغيره : معناه والذين كانت عاداتهم أن يقولوا هذا القول في الجاهلية ،

(١) قال السيد العلوي : قوله : (تشبيه باطل) : [هذا هو] معنى كلامه ﴿مَا هُنَّ أَهْمَاتُهُمْ﴾ وفيه إشعار بأن خبر ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ محذوف وهو : محطون ، و﴿مَا هُنَّ أَهْمَاتُهُمْ﴾ الخ بيان لخطيئتهم .

(٢) الضمير في هم للمظاهرين .

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٧١ .

(٤) ومثله في الكشاف ٤/٤٨٦ وزاد ﴿وَزُورًا﴾ وكذا باطلا منحرفا عن الحق .

(٥) أهل الظاهر : تقدم تعريفهم في الجزء الأول ٧٥ ، قال السيد العلوي : وقال أبو علي : وأما من ذهب من المتأخرين إلى أن الظهار لا يقع في أول مرة حتى يعيد الظهار مرة أخرى فليس بشيء ، وذلك لأن العود على ضربين أحدهما : أن يصير إلى شيء وقد كان عليه فتركه ثم صار إليه ، والآخر : أن يصير إلى شيء وإن لم يكن عليه ، قيل : ومنه قول الشاعر :

إذا السبعون أقصدني سراها وسارت في المفاصل والعظام وصرت كأنني أقتاد عزرا وعاد الرأس مني كالثغام فإن معنى عاد الرأس : صار . انظر العلوي ٣٠٧ .

(٦) ابن قتية : هو عبد الله بن مسلم بن قية الدينوري (أبو محمد) عالم مشارك في أنواع من العلوم كاللغة والنحو ، وغريب القرآن ، ومعانيه ، وغريب الحديث ، والشعر ، والفقه ، والأخبار وأيام الناس ، وغير ذلك ، سكن بغداد وحديث بها ، وولي قضاء ديور ، وله مصنفات جمة في كل فن ولد : سنة ٢١٣هـ توفي سنة ٢٧٦هـ انظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٢/٢٩٧ .

ثم عادوا لقول مثله في الإسلام ، أو عادوا إلى قول الجاهلية فعليهم الكفارة .
وقال الفراء ^(١) : يعودون لما قالوا ، وفيما قالوا معناه : يرجعون عما قالوا ، يقال : عاد
لما فعل ، أي : نقض ما فعل
وقال الأخفش ^(٢) : في الكلام تقديم وتأخير ، والأصل والذين يظهرون من نسائهم
فتحري رقة لما قالوا ، ثم يعودون إلى نسائهم ، و التقديم والتأخير كثير في القرآن .
ورَدَّ الفارسي ^(٣) وغيره ما قاله أبو العالية وأهل الظاهر بأن العود قد يكون إلى شيء لم
يكن العائد عليه ، ومنه سميت الآخرة معاداً ، ولم يكن فيها ثم عاد إليها .
واختلف الفقهاء أيضاً فقيل : تجب الكفارة بمجرد لفظ الظهار ، وقال الشافعي ^(٤) : بأن يسكت
عن الطلاق وقتاً يمكنه أن يطلق فيه ، لأنه إذا ظاهر فقد قصد التحريم ، وإن وصل ذلك

(١) الفراء : هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء ، البغدادي ، الحنبلي ، أبو علي ، محدث ، فقيه ، أصولي
مفسر ، ولد في الحرم سنة ٣٨٠هـ وحدث وأفتى ودرس ، وتوفي ببغداد في ٢٠ رمضان ٤٥٨هـ من تصانيفه الكثيرة
المعتمد في الأصول ، أحكام القرآن . انظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٢٥٩/٣ .

(٢) الأخفش : يحتمل أن المراد به الأخفش الأوسط وهو : سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ، البلخي ، المعروف
بالأخفش الأوسط (أبو الحسن) نحوي ، لغوي ، عروضي ، أخذ عن سيويه ، والخليل بن أحمد ، من تصانيفه : كتاب
الأوسط في النحو ، معاني القرآن ، الاشتقاق ، العروض ، والمقاييس في النحو توفي سنة ٢١٥هـ (وانظر مصادر
ترجمته في أعلام المؤلفين ٧٦٩/١ .

أو الأخفش الصغير : وهو علي بن سليمان بن الفضل الأخفش الصغير البغدادي (أبو الحسن) لغوي ، نحوي ، إخباري
سمع المبرد وثلج بن يحيى وغيرهما توفي ببغداد وقد قارب الثمانين سنة ٣١٥هـ له من التصنيفات الأنواء ، الشبية
والجمع ، شرح كتاب سيويه في النحو ، الجراد ، وتفسير معاني القرآن . أعلام المؤلفين رضا كحالة ٤٤٨/٢ .

(٣) الفارسي : هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي الفسوي (أبو علي) نحوي ،
صربي ، عالم بالعربية ، والقراءات ولد ببلدة فسا سنة ٢٨٨هـ ، وقدم بغداد ، وسمع الحديث ، وبرع في علم النحو
وانفرد به ، وقصده الناس من الأقطار ، وعلت منزلته في العربية ، أقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، ثم رجع
إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٧٧هـ من تصانيفه الكثيرة : الإيضاح في النحو ، التكملة في
التصريف ، الحجة في علل القراءات السبع ، المقصور والمدود ، والعوامل المائة ، المسائل الشيرازية جمعها تلميذه أحمد
بن سابور (انظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٥٣٥/١ .

(٤) تقدمت ترجمته ٢٨/١

بالطلاق فقد جرى على ما ابتدأه ، ولا كفارة عليه ، وإذا سكت عن الطلاق فذلك ندم منه على ما ابتدأه من الظهار فهو عود إلى ما كان عليه فتلزمه الكفارة ^(١) .

ويدل عليه أن ابن عباس فسر العود في الآية بالندم ، فقال : يندمون فيرجعون إلى الألفة وهذا معنى قول الفراء : يعودون إلى نقض ما قالوا .

وقال أهل العراق ^(٢) لا يكون عائدا إلا بالعزم على الوطء ، فإذا عزم لزمت الكفارة ، وهو قول أصحابنا إلا أنهم قالوا : يكون عائدا بالعزم على ما منع الظهار ، ومرادهم بقولهم : لا يكون عائدا إلا بالعزم أنه لا يكون عائدا قبل العزم كما قال الشافعي لا الحصر فإنه يكون عائدا بالوطء بالاتفاق .

وقال مالك ^(٣) لا يكون عائدا إلا بالوطء ، وهو قول الحسن وطاووس والزهري ^(٤) أي : لا يكون عائدا حتى يوطأ ، وإن وقع منه عزم فقط فلا كفارة عليه .

قال في الكشف ^(٥) : ويحتمل أن يراد — بما قالوا — ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار — تنزيلا للقول منزلة المقول فيه ^(٦) نحو ما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿وَنُورِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ^(٧) ويكون المعنى ثم يريدون العود [للتماس] ^(٨) . اهـ

(١) وقد احتج أبو بكر الرازي في أحكام القرآن على فساد هذا القول من وجهين ، وأجاب عليه الفخر الرازي (انظر تفسير الرازي ٢٩/٢٥٦) .

(٢) أهل العراق : المراد بهم الحنفية .

(٣) مالك : هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي المدني ، أبو عبد الله ، أحد أئمة مذاهب أهل السنة الأربعة ، واليه تنسب المالكية ، ولد بالمدينة سنة ٩٣هـ وتوفي بالمدينة في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٩هـ ودفن بالبقيع ، ومن تصانيفه الموطأ ، رسالته إلى الرشيد .

(٤) طاووس : تقدمت ترجمته ١/١٥٣ ، والزهري : تقدمت ترجمته ١/١٥٤ .

(٥) هذا هو الوجه الثالث من الأوجه التي ذكرها في الكشف . ٤/٤٨٦ .

(٦) قال السيد العلوي : قوله : (منزلة المقول فيه) وهو الجماع واللمس بشهوة والتقييل .

(٧) مريم : ٨٠ .

(٨) ما بين أقواس الزيادة من الكشف . ٤/٤٨٦ ، وهذا يقوي كلام مالك ، وفي حاشية الكشف ما يبين هذه الأقوال ويوجهها ٤/٤٨٧ . قال ابن المنير في حاشيته على الكشف : وهذا التفسير يقوي القول بأن العود الوطء نفسه ؛

ثم قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أي : فعلية تحرير رقبة ، أي : إعتاق رقبة ، قبل أن يماس زوجته ، واختلفوا في التماس ، فقيل : هو الجماع ؛ لأنه قد وقع كناية عن الجماع ، وهو قول الحسن وسفيان ^(١) وأحد قولي الشافعي ، وقيل : التماس هنا : الاستمتاع بها من جماع أو تقبيل أو لمس لشهوة ، أو نظر إليها لشهوة ، فذلك كله لا يجوز قبل الفتق ، وهو أحد قولي الشافعي وقول أصحابنا .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ﴾ ذلك التحريم إنما شرعناه لتعظوا به ، أي : لتزددجروا فلا يقع منكم ظهار ، فإنه لا يجوز ؛ لأن الحكم بالكفارة دليل على الجنابة ، وقيل : ﴿ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ﴾ أي : تؤمرون به من الكفارة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التكفير وتركه ثم ذكر تعالى حكم العاجز عن الرقبة فقال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الرقبة﴾ ﴿فَصِيَامٌ﴾ أي : فعلية صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أي : الواجب عليه [صيام] شهرين لا يفرق بينهما لغير عذر ، فإن أفطر بطل التتابع ، ووجب عليه الاستئناف ، فدللت الآية على أن التتابع شرط ، وذكر في موضع تحرير الرقبة والصوم أنه لا بد من أن يوجد من قبل أن يتماسا .

ثم ذكر تعالى إن لم يستطع ذلك فقال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام لمرض أو خوف مشقة عظيمة ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ غداء وعشاء ، أو غداءين أو عشاءين ، يجوز

لأن حاصله : ثم يعودون للوطء . وظاهر قولك : عاد للوطء فعله ، وحمل العود على الوطء من جملة أقوال مالك ، فقد تلخص أن كلام المختلفين في العود له مأخذ من هذه الآية ، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلا على مجرد الظهار فحمل العود على الظهار ، وتسميته عودا والحالة هذه باعتبار أنه كان في الجاهلية وانقطع في الإسلام ، فإيقاعه بعد الإسلام عود إليه ، وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار ، وهو قول داود فاعتبر ظاهر اللفظ ، وأما من حمل العود على العزم على الوطء فرأى أن العود إلى القول الأول هو عود بالتدارك لا بالتكرار ، وتدارك بعضه ببعض ، وهل نقيضه العزم على الوطء ؛ لأن الأول امتناع منه ، أو العزم على الإمساك ؛ لأن العصمة تقتضي الحل وعدم الامتناع فيكفي عل خلاف ، وأما من حمله على الوطء نفسه فرأى أن المراد بالقول المقول فيه ، ويجعل قوله : ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أي : مرة ثانية .. ومن أراد مزيد إيضاح فلي نظر الكشف ٤/ ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(١) سفيان : تقدمت ترجمته ١/ ١٦٢ .

عدم التوالي ، وإن شاء أخرج لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاع من غيره من الحبوب ، وهو قول أبي حنيفة ^(١) وعند الشافعي ربع صاع من طعام بلده الذي يقتات . واختلفوا هل يجب تقديم الإطعام على التماس كالكفارتين الأولتين ، فقال أبو حنيفة : يجب ، وقال مالك : لا يجب لأنه لم يذكر في الإطعام قبل أن يتماسا ، قلنا : إنه لم يذكر في الإطعام قبل أن يتماسا اكتفاء بالأول ، وإلا فالتقديم واجب على تخرج المؤيد بالله لمذهب الهادي ، وخرج أبو العباس ^(٢) على أصل الهادي أنه إذا مسها قبل كمال الإطعام لم يستأنف ، قيل : وكذا قبله على ما ذكره أبو العباس لأن أبا حنيفة يقول بوجوب تقديم الإطعام على التماس ، ويقول : ترك ذكره دلالة على أنه إذا وقع منه تماس خلال الإطعام لم يستأنف فيجوز أن يقول أبو العباس بمقالته .

قال الرازي في هذه الآية : " ولم يذكر أنه لابد من وقوعه قبل المماس إلا أنه كالأولين بدلالة الإجماع ^(٣) والمسائل الفقهية المفرعة على هذه كثيرة مذكورة في كتب الفقه . اهـ ثم قال تعالى ﴿ ذَلِكْ ﴾ أي : ذلك البيان والتعليم للأحكام ﴿ لَتُؤْمِنُوا ﴾ أي : لتصدقوا ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿ وَتَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ فلا يجوز تعديها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ الذين لا يتبعونها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ شديد الألم .

(١) تقدمت ترجمته ٢٨/١ .

(٢) أبو العباس : هو أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، المعروف بأبي العباس الحسيني ، المتوفى سنة ٣٥٣ هـ أحد أعلام آل البيت الكرام ، إمام حافظ ، مسند حجة ، قيل فيه : (رباني آل الرسول ، شيخ المعقول والمنقول) لم يبق شيء من العلوم إلا طار في أرجائه ، تتلمذ على يد الإمام الناصر الأطروش ، وتلمذ عليه الإمامان الجليلان الأخوان المؤيد بالله ، وأبو طالب (أحمد ويحيى ابنا الحسين الهارونيان) وله العلوم الواسعة ، والمؤلفات الجامعة ، ومن آثاره كتاب المصاييح في السيرة تحت التحقيق ، والنصوص ، وشرح أحكام الإمام الهادي عليه السلام ، وشرح المنتخب ، وغيرها (أنظر مصادر ترجمته في أعلام المؤلفين الزيدية ، وفهرست مؤلفاتهم) .

(٣) الرازي ٢٩/٢٦١ ، ولفظه : ثم ذكر تعالى أن من لم يستطع ذلك فإطعام ستين مسكينا ، ولم يذكر .. الخ ما هنا

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : يخالفون أمره ، ويعادون ويحاربون أوليائه ، ويتعدون حدوده ، وذلك تارة بالمحاربة لأولياء الله ، وتارة بالكذب والصد عن دين الله ، والضمير في قوله : ﴿يُحَادُّونَ﴾ يمكن أن يكون راجعا إلى المنافقين ، فإنهم كانوا يوادون الكافرين ، ويظاهرون على الرسول ، فأذهم الله تعالى ، ويحتمل سائر الكفار .

ثم أعلم الله رسوله أنهم ﴿كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل ، أي : أخزوا وأهلكوا ، قيل : أريد كتبهم يوم الخندق . والكبت : الإخزاء ، قال المبرد ^(١) : يقال : كبت الله فلانا ، إذا أذله ، والمردود بالذل يقال له : مكبوت .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام معناه : غُمُوا غَمًّا ، وَرُدُّوا ^(٢) ، وخابوا ، ونكبوا ، ولم يظفروا بما أحبوا وبما طلبوا .

وقال زيد بن علي عليه السلام : ” معناه أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم ^(٣) ” . اهـ
ثم قال سبحانه : ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي : معجزات واضحات ، تدل على صدق الرسول ، وصحة ما جاء به ، وقيل : ﴿آيَاتٍ﴾ شرائع ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ قيمة معروفة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أي : لمن لم يصدق بالآيات البينات ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ، فبين سبحانه أن عذاب هؤلاء في الدنيا بالذل والهوان ، وفي الآخرة العذاب الشديد .

ثم ذكر سبحانه ما يتكامل به هذا الوعيد فقال : ﴿يَوْمَ يَعْزِطُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم منصوب

(١) المبرد : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان الأزدي ، المعروف بالمبرد (أبو العباس) أديب نحوي ، لغوي ، إخباري ، نساب ، إمام اللغة ، ورأس النحاة البصريين في زمانه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار ، ولد بالبصرة سنة ٢١٠ هـ تلمذ على أكابر العلماء في عصره ، وتخرج على يديه خلق كثير من العلماء المشهورين مثل الزجاج ، والأخفش الصغير ، وابن درستويه ، وابن السراج ، والصولي ، وابن نفطويه ، توفي يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٢٨٥ هـ وله تصانيف كثيرة (انظر تعدادها ومصادر ترجمته في أعلام المؤلفين ٧٧٣/٣) .

وقد ذكر الرازي قول المبرد في تفسيره ٢٩/٢٦٢ .

(٢) لفظ الأصل هنا : عَمُوا عَمًّا أَرَادُوا . وما ذكرناه هو لفظ تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، ويحتمل أنه نسخان

(٣) انظر تفسير الإمام زيد أول السورة ، والبرهان مخطوط ٣٧١ .

بـ (لهم) أو مبهين أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم^(١) وفي قوله: ﴿جميعا﴾ قولان : —
أحدهما : كلهم لا يترك منهم أحد غير مبعوث والثاني : مجتمعين في حال واحدة^(٢).

ثم قال سبحانه: ﴿فَيُنْثَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا لحالهم ، [الذي] يتمنون
عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾
أي : أحاط بجميع أحوال تلك الأعمال من الكمية والكيفية والزمان المكاني^(٣).

ثم قال سبحانه: ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم استحقروها وتهاونوا بها فلا جرم نسوها ﴿وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء من الأعمال .

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
قال ابن عباس : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم . والهمزة لتحقيق علمه صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن كونه
تعالى عالما بالأشياء لا يرى ، ولكنه معلوم بواسطة الدلائل ، وإنما أطلق لفظ الرؤية على
هذا العلم لأن الدليل الدال على كونه تعالى عالما هو أن أفعاله متقنة محكمة متسقة
منتظمة ، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم .

ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك [ظاهرا]^(٤) لا جرم بلغ هذا العلم
الاستدلالي^(٥) إلى أعلى درجات الظهور والجلال ، وصار جاريا مجرى المحسوس المشاهد

(١) قال السيد العلوي في حاشيته : قوله: ﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم ... أي : الجار والمجرور وهو قوله :
﴿وللّٰكافرين﴾ وإنما قال : بلهم للإشارة إلى أن الظاهر في للكافرين وضع موضع الضمير ؛ لأن الأصل لهم ليعود إلى
الذين يحادون . هذا واعلم أن قوله: ﴿وللّٰكافرين عذاب مبهين﴾ إما تميم أو تذييل ، فإن كان تميما فاللام للعهد والكافرون
وضع موضع المضر كما قررناه ويتصّب ، وإن كان تذييلا فاللام للجنس فيدخل فيه المحادون دخولا أوليا ويتصّب يوم
بإضمار اذكر لتنام الكلام هناك ، فتستقل دلالة الجملة المتبداة وتعظيم شأن القوم ، ويجمع لهم ذل الدارين

(٢) فعلى الوجه الأول هو حال مؤكدة كطبر أو كافة وقاطبة ، وعلى الثاني وهو قوله : مجتمعين حال غير مؤكدة
(٣) وانظر الكشف ٤٨٩/٤ ، والرازي ٢٩/٢٦٣ ، وذكر الرازي أن يوم منصوب بـ ﴿ينثبهم﴾ وينظر هل يصح هذا الإعراب فبيان
الفاء تمنع أن يعمل ما بعدها في ما قبلها . وفي البضايي : ولا وجه لنصبه بالكافرين ؛ إذ لا وجه لتخصيص كفرهم بذلك اليوم ، وقال
الحاكم الجشمي في تفسيره : ﴿يوم﴾ نصب على الظرف ، وهو يصل بما قبله أي : لهم عذاب مبهين .

(٤) ومثل هذا في الرازي ، وما بين القوسين زيادة من الرازي ٢٩/٢٦٣ .

(٥) في تفسير الرازي : لا جرم بلغ هذا العلم والاستدلال .

فلذلك أطلق عليه لفظ الرؤية ، فقال : (ألم تر) .

واعلم أنه سبحانه قال : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يقل : يعلم ما في الأرض وما في السموات ، وفي رعاية هذا الترتيب سر عجيب .

ثم إنه تعالى أكد ذلك وخص ما يكون من العباد من النجوى فقال سبحانه : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي : الله تعالى ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ كان تامة ، والنجوى بمعنى التناجي ، وهو التشاور بالحديث ، ولا يغلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة ، أي : من نجوى ثلاثة نفر ، أو موصوفة أي : [من] أهل نجوى ثلاثة [محذف الأهل]^(١) وأصل النجوى هو الخطاب والكلام قال الشاعر^(٢) :

هل أنت سامعي أم قد صممت فلا
نجوى ترددين من غسي ولا رشد
﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ قرئ ﴿أكبر﴾ بالباء المنقوطة من تحت ، والمراد من كونه تعالى معهم كونه تعالى عالما بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم كأنه حاضر معهم ، وشاهد لهم ، أي : يعلم ما يتناجون به كما لو كان معهم رجل رابع ، فإنه يعلم تناجيهم ، وإنما عين هذين العديدين ؛ لأنها نزلت في

(١) ومثله في الرازي ٢٩/٢٦٤ ، وفي الكشاف ٤/٤٨٩ ، وزاد الزمخشري وجها آخر فقال : أو حملوا نجوى في أنفسهم مبالغة كقوله تعالى : ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ قال السيد العلوي : وفي بعض الخواشي (وبالاء على أن النجوى تأنيثها غير حقيقي ، يعني : يجوز أن تكون النجوى فاعل يكون ، ومن زائدة ، وترك التأنيث لما ذكر ، ويجوز أن يكون ﴿من نجوى﴾ صفة موصوف محذوف وهو شيء ، فترك التأنيث على هذا ظاهر .. ثم قال : يجوز أن يكون نجوى بمعنى متناجين ، ويكون نصب ثلاثة على الحال من الضمير المستكن في نجوى [وهذا على قراءة ابن أبي عبلة ﴿ثلاثة .. وخمسة﴾ بالنصب وهذا كما قال الزمخشري بعد ذكر قراءة ابن أبي عبلة : بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ، أو على تأويل نجوى بمتناجين ونصبها من المستكن فيه (كشاف ٤/٤٩٠) .

وقال محيي الدين الدرويش في إعراب القرآن : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير سعة علمه تعالى وتبيان كفيته ، وما نافية ، ويكون فعل مضارع تام ، ومن حرف جر زائد ، ونجوى مجرور بمن لفظا فاعل يكون محلا ، وثلاثة مضاف لنجوى ، وإلا أداة حصر وهو مبتدأ ورابعهم خبر ، والجملة في محل نصب على الحال ، فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .

(٢) سبق الاستشهاد به في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني ، أول هذه السورة ، فلي نظر .

قوم على هذين العدين ثلاثة وخمسة^(١).

قال ابن عباس : نزلت في ربيعة ، وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية كانوا يومها يتحدثون ، فقال أحدهم : أترون الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضا ولا يعلم بعضا ، أي : يعلم ما جهروا به ، ولا يعلم ما أسروه ، وقال الثالث : إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله .

وقيل : إن قوما تحلقوا^(٢) للتناجي على هذين العدين مغايطة للمؤمنين ، فقيل : ما تناجي منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم [يتناجون] كذلك ، ولا أدنى من عددهم ، ولا أكثر إلا والله معهم .

«أينما كانوا» أي : في أي مكان كانوا فيه ، فهو معهم غير غائب عنهم ، بل شاهد لا يغيب منهم ، وهو مدبر في كل الأماكن لا يخلو من تدبيره وشهادته أحد ، بل هو مدرك بشهادته ، وهذا مجاز ؛ لأنه متعال عن المكان والمشاهدة ، وليس كما يتوهم الجاهلون أنه معهم بذاته .

وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ يَنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ توبيخا لهم ، أي : يحاسبهم على ذلك ، ويجازي على قدر الاستحقاق ، ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيستوي في علمه السر والظهر والباطن والظاهر ، وهو تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات .

(١) قال الكرخي : وخص الثلاثة والخمسة بالذكر لأن قوما من المنافقين تحلفوا للتناجي ، وكانوا بعدة العدد المذكور ؛ مغايطة للمؤمنين ، فنزلت الآية بصفة حالهم ، وتعريفا بهم ، أو لأن العدد المفرد أشرف من الزوج ، لأن الله تعالى وتر يحب الوتر ، فخص العددين المذكوران بالذكر تنبيها على أنه لا بد من رعاية الأمور الإلهية في جميع الأمور ، ثم بعد ذكرهما زيد عليهما ما يعم غيرهما من المتناجين .

وللحازن عبارة لطيفة نوردها فيما يلي استيفاء للبحث قال : فإن قلت : لم خص الثلاثة والخمسة ؟ قلت : لأن أقل ما يكفي في المشاورة ثلاثة حتى يتم الغرض فيكون الاثنان كالمتنازعين في النفي والإثبات ، والثالث كالتوسط الحاكم بينهما ، فحينئذ تحمد المشورة ، ويتم الغرض ، وكذا كل جمع يجتمع للمشاورة لا بد من واحد يكون حكما بينهم مقبول القول ، وقيل : إن العدد المفرد أشرف من الزوج فلها خص الله تعالى الثلاثة والخمسة . إعراب القرآن ١٠/١٦ .

(٢) في الأصل (تحلفوا) وفي الكشف (تحلقوا) ومثل هذا الكلام موجود في الكشف بلفظ قريب جدا .

ثم إنه تعالى بين حال أولئك الذين نهوا عن النجوى فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ﴾ معناه: الإنكار عن^(١) الذين عادوا بعد النهي عن النجوى .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد عز وجل أنه نهاهم عن الغيبة، والانتقاص للمسلمين، ثم عادوا ولم يقلعوا ولم يتوبوا إلى الله، وشنعوا فذمهم الله على ذلك . قال في التجرية: كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين يوهمونهم أنهم يتناجون بما يسوءهم وكثر ذلك، فشكا المؤمنون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنهاهم عن ذلك التناجي فلم يتبهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأُنزل الله هذه الآية .

وقيل: كان تناجيهم بما هو إثم وعداوة للمؤمنين، وتواص بمعصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وهو كالتفسير للنجوى التي نهوا عنها، وفي معنى ذلك وجهان أحدهما: — أن الإثم والعدوان هو مخالفتهم للرسول في النهي عن النجوى؛ لأن الإقدام على المنهي يوجب الإثم والعدوان ولا سيما إذا كان ذلك الإقدام لأجل المناصبة، وإظهار التمرد .

الثاني: أن الإثم والعدوان هو ذلك السر الذي كان يجري بينهم لأنه إما مكر وكيد بالمسلمين، أو بشيء يسوءهم . قال في البرهان: "والنجوى السرار"^(٢) ومن ذلك قول جرير: من نفر البيض الذين إذا انتحوا أقرت لنجواهم لؤي بن غالب

والمنهي عن النجوى هم المنافقون؛ لأنهم كانوا يتناجون بما يسوء المسلمين لوقيعتهم في رسول الله صلى الله عليه وآله .

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ﴾ يا محمد ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ كانت اليهود إذا دخلت على رسول

(١) يتحمل أن يكون هنا حذف، تقديره فعل، أو نحوه ليستقيم الكلام .

(٢) في البرهان: النجوى السرار، وفي الأصل المطبوع عليه هذا التفسير: النجوى: الإسرار، فأثبتنا ما في البرهان

الله صلى الله عليه وآله قالوا له : السام عليك ، فكان النبي صلى الله عليه وآله يرد عليهم فيقول : (وعليكم) .
وقيل : إن بعض الناس في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله رد عليهم : وعليكم السام وإلزام فقال
النبي صلى الله عليه وآله : (إن الله لا يحب الفحش والتفحش) وأرادوا لعنهم الله بالسام : الموت .
وقيل : إن اليهود كانوا إذا رد رسول الله صلى الله عليه وآله جواب سلامهم هذا ، قالوا : لو كان
هذا نبيا استحب له فينا قوله : (وعليكم) يعني : السام وهو الموت فليس بنا سامة ولا في
أجسادنا فترة ، فنزل فيهم ^(١) [لولا يعذبنا الله بما نقول] . اهـ —

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون فيما بينهم ولا يظهرون
القول : ماله إن كان نبيا لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بسبب ما نقول فيه ، فقال تعالى
﴿حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول عز وجل : كفى لهم بجهنم ، وهي كفايتهم ، وهي عذابهم
عند الله ونقمتهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يغمرون بنارها كما يفعل بالشاة المصلية بين الجمر
﴿فَيُشْسِ الْمَصِيرُ﴾ أي : يش المرجع جهنم التي يصيرون إليها .
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ يريد
بالذين آمنوا المنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم ، ويجوز أن يريد المؤمنين المخلصين ، نهاهم
أن يتشبهوا بأولئك الذين يتناجون بالشر ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالْتَّقْوَى﴾ مثل التشاور في
الغزو في سبيل الله وسائر الطاعات .

قال الرازي : اعلم أن في المخاطبين بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قولين ؛ لأننا إن حملنا
قوله فيما تقدم : ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ على اليهود ^(٢) حملنا في هذه الآية
قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على المنافقين ، أي : يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ، وإن
حملناه على جميع الكفار من اليهود والمنافقين حملنا هذا على المؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما
ذم اليهود والمنافقين على التناجي بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول أتبعه بأن نهى

(١) إلى هنا من البرهان ، وما بين أقواس الزيادة من البرهان . انظر البرهان مخطوط ٣٧١ .

(٢) في الرازي (على اليهود) وفي الأصل لهذا التفسير (على المنافقين) فأتينا ما في الرازي ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة
من الرازي انظر (الرازي ٢٩/٢٦٧)

أصحابه المؤمنين أن يسلكوا مثل طريقهم فقال : ﴿لَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ﴾ وهو ما يقبح مما يخصهم ﴿وَالْعُدْوَانَ﴾ وهو ما يؤدي إلى ظلم الغير ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وهو ما يكون خلافا عليه ، وأمرهم أن يتناجوا بالبر الذي يضاد العدوان ، وبالتقوى وهو ما يتقى [به] من النار من فعل الطاعات ، وترك المعاصي .

واعلم أن القوم متى تناجوا بما هذه صفته قلت مناجاتهم ؛ لأن ما يدعو إلى مثل هذا الكلام يدعو إلى إظهاره ، وذلك يقرب من قوله : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ ^(١) وأيضا فمتى عُرِفَتْ طريقة الرجل في هذه المناجاة لم يتأذ من مناجاته أحد . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عام في كل ما يتقى من أسباب الإثم ، وعنه صلواته عليه وآله (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه) ^(٢)

ومعنى ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ أي : تجمعون إلى موضع جزائه حيث يحاسب ويجازي . ثم قال : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أراد النجوى المنهي عنها ، وهو النجوى بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، واللام في النجوى للعهد ^(٣) وقوله : إنها من الشيطان : أي : حملهم عليها الشيطان بأن زينها لهم فكأنها منه .

﴿لِيَحْزَنَ﴾ الشيطان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك أن المؤمنين كانوا يظنون أنهم يتناجون بما يبلغهم عن إخوانهم الذين خرجوا في السرايا من قتل أو موت أو هزيمة .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ أي : وليس الشيطان والتناجي المنهي عنه بضار للمؤمنين قليلا من الضر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي : بمشيئته ، وهي أن يقضي الموت على أقاربهم ، أو بترك نصره المؤمنين لعصيانهم ، فيكون للعدو الغلبة على الغزاة .

(١) النساء : ١١٤ .

(٢) متفق عليه ، وهذا اللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود ، وفي رواية البخاري زيادة (دون الثالث) . فائدة : أخرج

البراز من حديث ابن عمر نحوه ، وزاد (إلا بإذنه ، قلت : فإن كانوا أربعة ؟ قال : لا بأس به) .

(٣) كونها للعهد هو سبب لما ذكر من أنها النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .

ثم قال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي : ليفوضوا أمورهم إليه في كل ما أرادوا في دفع الشيطان خصوصا ، فإنه من توكل على الله لا يخيب أمله ، ولا يبطل سعيه ، والفاء جواب شرط محذوف كأنه قيل : إن أرادوا التوكل على كافٍ لهم في جميع الأمور فليتوكلوا على الله وحده .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : " معنى ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يريد عز وجل أن الغيبة منهم لأولياء الله طاعة للشيطان ، وسخط ومعصية الرحمن ، ثم قال عز وجل : إن هذه النجوى التي أمر بها الشيطان لا يضر بها أحد من المسلمين [ومعنى] ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يريد أنه لم يقدر هو وإخوانه على غيبة المؤمنين إلا بتخليفة الله لهم ، ليثبت أوليائه على غمهم أكثر مما نالهم من كلام أعدائهم " (١) . اهـ

واعلم أنه تعالى لما نهى عباده المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم بما يصير سببا لزيادة المحبة والمودة فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

قال في البرهان : " والمجلس المراد مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومجالس الأئمة من ولده عليه السلام ، فيجب على من حضرها وسبق إليها أن يفسحوا على من دخل عليهم ، ويؤثروه به ؛ لأن الناس كانوا إذا جلسوا في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله شحوا بأمكناتهم على من يدخل عليهم " (٢) . اهـ

و﴿تَفَسَّحُوا﴾ معناه : توسعوا (٣) ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يوسع عليكم ، قيل : أراد يوسع عليكم في الجنة في مجالسكم فيها ، وقيل : هو مطلق يصح أن يدخل فيه ذلك وغيره من كل ما تحب الفسحة فيه من رزق وجاه ومكان في الدنيا وفي القبر .

(١) انظر تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة ، وما بين القوسين منه .

(٢) انظر البرهان مخطوط ٣٧١ .

(٣) وزاد الزمخشري (وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم : افسح عني أي : تنح ، ولا تتضاموا . وزاد الرازي يقال : بلدة فسيحة ، ومنارة فسيحة ، ولك فيه فسحة ، أي : سعة ، وقال الحاكم في التهذيب : التفصح : الاتساع في المكان تفصح تفصحا ، ويت فسيح عليه ، فسيح ما بين المنكبين ، أي : بعيد ما بينهما لسعته عليه .

كان الصحابة يتضامون إذا جلسوا إلى رسول الله حرصا على القرب منه واستماع كلامه^(١).

وقيل : وهو اختيار الحسن أن المراد تفسحوا في مجالس القتال^(٢) وهو كقوله : ﴿مقاعد للقتال﴾^(٣).

وقيل : المراد جميع المجالس والجامع^(٤) والأقرب هو الأول أن المراد به مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعظم التنافس فيه ، ومعلوم أن للقرب منه مزية عظيمة لما فيه من المنزلة^(٥) ولذلك قال صلوات الله عليه وآله وسلم : (ليبي منكم أولوا الأحلام والنهي)^(٦) ولذلك كان يقدم الأفاضل من أصحابه وكانوا لكثرتهم يتضايقون وكان يأتي من يأتي فلا يجد مكانا فأمرُوا أن يوسعوا لمن جاء من المؤمنين يريد مثل ما أرادوا ؛ لأن ذلك أدخل في التحجب ، وفي الاشتراك في سماع ما لابد منه في الدين ، فإذا صح ذلك في مجلسه ، فحال الجهاد ينبغي أن يكون مثله بل ربما كانت أولى ؛ لأن الشديد البأس قد يكون متأخرا عن الصف الأول ، والحاجة إلى تقدمه ماسة فلا بد من التفسح . ثم يقاس على هذا سائر مجالس العلم والذكر .

وأما قوله تعالى : ﴿يفسح الله لكم﴾ فهو مطلق في كل ما يطلب [الناس] الفسحة فيه من المكان والرزق ، والصدر والقر والجنة .

واعلم أن هذه الآية قد دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير [والراحة] وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ، ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم ، وإدخال السرور في قلبه ، ولذلك قال صلوات الله عليه وآله وسلم : (لا يزال

(١) عن ابن عباس وقادة ومقاتل وجماعة (تهذيب الحاكم)

(٢) عن محمد بن كعب ، وأبي العالية والحسن (تهذيب الحاكم) .

(٣) آل عمران : ١٢١ .

(٤) وهو اختيار القاضي البيضاوي .

(٥) زاد القاضي : لما فيه من سماع حديثه ، ولما فيه من المنزلة . انظر الرازي ٢٩/٢٦٩ .

(٦) رواه الحاكم في تفسيره .

الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه المسلم ذكر معنى هذا الرازي^(١).
قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ” معنى ﴿يَفْسَحُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هو يفتح الله لكم ، ويوسع لكم في معيشتكم وفي دنياكم وآخرتكم ، ثوابا على توسيعكم في المجلس لإخوانكم ؛ لأنه عز وجل يثيب على القليل اليسير بالثواب الجزيل العظيم الكثير ، فانظروا رحمكم الله كيف جعل الرحمة والثواب في كل عمل من الأعمال ولو قل وصغر عند العلماء والجهال فذلكم يدلكم على رحمة الله الواحد المفضل ، فاطلبوا ثوابه في جميع الأحوال ، وتقربوا إليه بحسن الفعل والمقال ، والرحمة للعباد واللطف وحسن الجدل.

﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَاَنْشُرُوا﴾ [أي : ارفعوا وقوموا ، قيل : حتى يجلس العلماء مكانكم ؛ لأنهم أحفظ وأروى للحكمة منكم . وانشروا :] وقوموا بما يشاء ببيكم وولي أمركم وإمامكم ، والانشور في لغة العرب هو النهوض والقيام والانتصاب قال الشاعر :

انشروا عنا فأنتم معشر
أهل رجس وفجور وأشر^(٢)

قال في البرهان : ” كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله أطالوا ليكون كل واحد منهم هو الآخر عهدا به ، فأمرهم الله أن [ينشروا إذا قيل لهم : انشروا ، ومعنى تفسحوا : توسعوا ومعنى انشروا] : ارفعوا وقوموا^(٣) عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أمرتم بالنهوض ، ولا تملوه بطول الوقوف “^(٤).

وقيل : حتى يجلس العلماء مكانكم ؛ لأنهم أحفظ وأروى للحكمة منكم .
واعلم أنه تعالى لما نهاهم أولا عن بعض الأشياء وعدهم على الطاعة فقال : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ يعني بإيمانه على من ليس بمنزلة في الإيمان ، أو بامتنال أو امره وأوامر

(١) انظر الرازي ٢٦٩/٢٩ . وهو بلفظه من قوله : واعلم أن هذه الآية . وزيادة ما بين القوسين من الرازي .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة . وما بين أقواس الزيادة منه .

(٣) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وقوله عن مجلس رسول الله .. الخ ليس من البرهان وما بين أقواس الزيادة من البرهان

(٤) ونسبه الحاكم إلى ابن زيد ، وقال الحاكم في تفسيره : النشور : الارتفاع ، والنشر : ما ارتفع من الأرض ، ويقال :

: نشر الرجل ينشر ، وتنشر إذا كان قاعدا فنهض ، ونشور المرأة عصيانها للزوج . قال الحاكم : ومتى قيل : كيف

أمروا بالتفسيح والنشور ؟ قلنا : في حالين إن كان في الموضع سعة تفسحوا ، وإن كان ضيق فانشروا كي يتسع المكان

رسوله ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ والمراد بهم الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله رفعهم الله في الدنيا والآخرة على كل شريف ومشروف والحمد لله على ذلك كثيرا ، وإنما أعلم الله تعالى خلقه بذلك ليعرفوا منازلهم ومراتبهم وألا يتقدموا عليهم في حال من الأحوال^(١) .

وقيل : معناه ويرفع العالمين من المؤمنين خاصة ﴿درجات﴾ أي : ترفيعا بليغا في زيادته على رفع المؤمنين غير العلماء عنه صلى الله عليه وآله (بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمّر سبعين سنة)^(٢) والمضمّر : الذي علفه أربعين يوما علفا مخصوصا ليحري أعظم الحري .

قال القاضي^(٣) : ولا شبهة أن [علم] العالم يقتضي لطاعته من المنزلة مالا يحصل للمؤمن ولذلك فإنه يقتدى بالعالم في كل أفعاله ، ولا يقتدى بغير العالم ، والعالم يعلم من كيفية

(١) من قوله : ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ والمراد بهم .. إلى قوله : (في حال من الأحوال) . مثله بلفظه في البرهان مخطوط ٣٧٢ .

(٢) في الصحاح : أحضر الفرس إحضارا ، واحتضر أي : عدا ، واستحضرت : أعدته ، وفرس محضر : كثير العدو وقال السيد العلوي في حاشيته : الحضر : العدو ، وتضمير الفرس : أن يلفه حتى يسمن ثم يرده إلى القوت ، وذلك في أربعين يوما ، وهذه المدة تسمى المضمار ، فكذلك الموضع أيضا .

وقال ابن حجر في تخرجه على الكشف : أخرجه أبو يعلى وابن عدي من رواية عبد الله بن محرز عن الزهري ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وعبد الله بن محرز بمهمات — ساقط الحديث ، وذكر ابن عبد البر في العلم أن ابن عون ، رواه عن ابن سيرين عن أبي هريرة ، فينظر من خرج ، وفي الباب عن ابن عمرو بن العاص في السّريغ للصّبغاني . (كشف ٤٩٢/٤)

(٣) المراد بالقاضي : القاضي البيضاوي وهو : عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشيرازي ، الشافعي ناصر الدين أبو سعيد ، قاض ، عالم بالقرآن والتفسير والأصول والعربية ، والمنطق والحديث ، ترك القضاء وتخلّص للعلم ، وأنزوى في تبريز وتوفي فيها سنة ٦٨٥ هـ له مصنفات كثيرة من أشهرها أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير ، وشرح مصابيح السنة للبخاري سماه تحفة الأبرار ، منهاج الوصول إلى علم الأصول . (أعلام المؤلفين ٢/٢٦٦) .
ومثل هذا في الرازي ٢٩/٢٧٠ ، وفي تفسير البيضاوي (فإن العلم مع علو درجته يقتضي للعمل المقرون به مزيد رفعة) (حاشية الشهاب على البيضاوي ٨/١٧١ ، ١٧٢)

الاحترار عن الحرام والشبهات ، ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير ، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره ، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره ، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ [منه] غيره ، وفي الوجود كثرة ، لكنه كما تعظم منزلة أفعاله من الطاعات في درجات الثواب ، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيرا منه . اهـ

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو يجازيكم عليه .
ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ التَّقْدِيمُ﴾ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ﴾ خير في دينكم ، وزيادة في التطهير من الذنوب ؛ لأن الصدقة طهرة ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ صدقة تقدمونها .

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال في البرهان : وسبب ذلك أن المسلمين اقتصروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى شقوا بها عليه ، فأراد الله تعالى أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فلما قال ^(١) ضن الناس ، وكفوا عن المسألة فلم يباحه إلا أمير المؤمنين صلوات الله عليه قدم ديناراً فتصدق به ثم ناجى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله عن عشر خصال ^(٢) [ثم نزلت الرخصة] .

وروى الأئمة من آل رسول الله عليه وعليه السلام ومجاهد وكثير من علماء العامة عن أمير المؤمنين أنه قال : (إن في كتاب الله آية وفرضا ما عمل بهما أحد غيري ولا يعمل بهما أحد بعدي لما أنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ وكان معي دينار فصرفته ، وكنت كلما أردت أن أناجي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصدقت بدينار ، فلم يفرغ الدينار حتى نسخت الآية) .

(١) أي الله عز وجل ، والمراد منه الأمر منه سبحانه بتقديم الصدقة .

(٢) انظر البرهان ٣٧٢ ، وهو في الحاكم عن ابن عباس . ورواه الطبري في تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن المسروقي قال : حدثنا أبو أسامة ، عن شبل بن عباد ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .. (شواهد التنزيل ٢٣٩) .

ومثل هذا في البرهان قال : وهي إحدى فضائله ^(١) ورواه أيضا في الكشف ^(٢) قال الكليني : تصدق [به] في عشر كلمات سألن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(٣) .

وعن ابن عمر قال : "لعلي ثلاث خصال لو كان لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى ^(٤) .

وفي سبب ذلك أيضا يقول الحسين بن القاسم عليه السلام : قد روي أن قوما أكثروا التحلي عند رسول الله صلى الله عليه وآله والتزين في عينه بكثرة السؤال في المخاطبة والعلم والجدال ، فأراد الله عز وجل أن يكشف أمرهم ، ويبين لنبئته عوارهم وزهدهم في الحق ، ونفاقهم وكفرهم فأنزل الله هذه الآية ليمتحنهم ، ويختبرهم بالنفقة والصدقة ويلوهم ، فوقفوا عن السؤال خوفا من الإنفاق ، وتبين عند ذلك ما كانوا يخفون من النفاق ، ثم صير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمام المتقين [عليه صلوات رب العالمين] وكان يتصدق ويسأل نبيته صلى الله عليه وآله ، ويبحث من العلم والحكمة ما لديه ، وتاب قوم بعدما وقفوا عن السؤال ، ورجعوا عن البخل ولزوم الأموال ، واستغفروا الله مما أتوا به من أقبح المقال ، فعطف عليهم بالتوبة ذو الجلال ، وعاتبهم بأحسن المقال فقال عز وجل : ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ أي : خفتهم لما

(١) البرهان ٣٧٢ .

(٢) قال قتادة : لما نهوا عن مناجاته حتى يتصدقوا لم يناحه إلا علي بن أبي طالب قدم دينارا فتصدق به ثم نزلت الرخصة ، وفي الكشف ٤٩٤/٤ قال ابن حجر في تحريمه عليه : أخرجه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن علي به وأتم منه ، وأخرجه ابن أبي شيبة من رواية ليث بن سليم عن علي .

(٣) رواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ولفظه : قال : حدثنا محمد بن فضيل عن الكليني عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال في قوله : ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ إلى آخر الآية : بلغنا أن رجلا من أصحاب رسول الله كان أول من فعل ذلك وهو علي بن أبي طالب قدم دينارا في عشر كلمات كلمهن رسول الله ، فأما سائر الناس فلم يفعلوا وشق عليهم أن يعتزلوا رسول الله وكلامه ، ويحلوا أن يقدموا صدقاتهم . (شواهد التنزيل تحقيق المحمدي ٢٣٩) .

وعلى الجملة فقد روى هذه الأحاديث الجمل الغفير من الصحابة والتابعين ، والمفسرين والمحدثين وغيرهم ، ومن أراد المزيد فلينظر شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني تحقيق محمد باقر المحمدي ٢٤٣/٢٣٠ .

(٤) في الأصل (عن عمر) وفي الكشف عن ابن عمر ٤٩٤/٤ .

يعدكم الشيطان من الفقر ^(١) ﴿أَنْ تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ لما فيه من الأنفاق الذي تكرهونه .

واختلفوا كم لبثت غير منسوخة ، فقليل : عشر ليال ، وقيل : ما كان ذلك إلا ساعة من نهار . واختلفوا بم نسخت ؟ فقال ابن عباس : بالآية التي بعدها ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ الآية ، وقيل : هي منسوخة بآية الزكاة ^(٢) .

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ أي : تقدموا ما أمرتم به ، وشق عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي : عذرکم ورخص لكم في أن لا تفعلوا ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : لا تفرطوا في الصلاة والزكاة ، وطاعة الله ورسوله ^(٣) ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تنسوا شيئا أحاط به وحفظه عليكم .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ هم المنافقون ، وقوله : ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود ، كان المنافقون يتولونهم ، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿تَوَلَّوْا﴾ قيل : الموالاته ، وهي الموادة والمناصرة ، وقيل : إن الموالاته هي المداناة والمخالطة ، وإظهار الموادة ، ولو أضمر خلافها .

قال سبحانه : ﴿مَا هُمْ﴾ أي : المنافقون ﴿مِنْكُمْ﴾ يا مسلمين ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي : من اليهود . قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يعني بذلك المنافقين الذين تولوا أعداء الله الفاسقين ، فأخبر الله عز وجل أن هؤلاء المنافقين ما هم من المسلمين ، ولا من المحاربين ، ولكنهم [كما قال الله عز وجل] مدبذين ، وكما قال [في هذه السورة] : ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى

(١) قال الحاكم : الإشفاق : الخوف ورقة القلب ، والشفقة : أصلها الرقة ، ومنها : الشفق الحمرة واليباض .

(٢) قال الحاكم : ومتى قيل : هلا كان ذلك واجبا ؟ قلنا : نعم ، ثم نسخ بالآية التي بعدها عن الحسن وقتادة ، وتلك الآية وإن اتصلت بهذه في التلاوة فيجوز أن تكون متأخرة بزمان في النزول ، وروي أنه بقي زمانا ثم نسخ عن مقاتل ، وقيل : بل كانت ساعة ثم نسخ عن الكلبي ، وقيل : عمل بها علي بن أبي طالب فقط .

(٣) قال السيد العلوي : قيل : أشعر هذا بأنه جعل فأقيموا الصلاة جوابا لقوله : ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ قال أبو البقاء : إذ بمعنى إذا ، وقيل : هي بمعنى إن الشرطية ، وقيل : هي على بابها ماضية ، والمعنى : أنكم تركتم ذلك فيما مضى فنداركوه بإقامة الصلاة ، وإنما قال : لا تفرطوا في الصلاة ، لأن معنى الإقامة توفية حدودها وإقامتها . (٣٠٨)

الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ فهم لا يحاربون لضعفهم وجبنهم ، ولا يؤمنون لما هم عليه من كفرهم وفسقهم وإنما همتهم الكذب والفسق والمحال والنفاق والخسة والجهل والضلال " قال في البرهان : " هذه الآية نزلت في طلحة والزبير حين هما بمخالفة اليهود والنصارى يوم أحد رهبة من إداتها على المسلمين ، فأُنزل الله تعالى فيهم ذلك ^(١) .

قال في التجريد : ﴿يُحْلِفُونَ﴾ أي : يقولون : إنا لمسلمون ، وهم يعلمون أن المحلوف عليه كذب بحث جرأة منهم على الله ، وفيها إشارة إلى أن الكذب في اللغة ما خالف الواقع " ثم أخبر عز وجل بما أعد لهم من العذاب بقوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي : نوعا من العذاب عظيم الشدة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي : عظم في القبح ما كانوا عليه من سوء العمل مصرين .

قال في التجريد : " نزلت في عبد الله بن نبتل وكان منافقا يجالس رسول الله ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، وأنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : (علام تشتمني أنت وأصحابك) ؟ فحلف بالله ما فعل ، وجاء بأصحابه فحلفوا ، فقال عليه السلام : (فعلت) ونزلت ^(٢) ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي : حلفهم ما سبوا رسول الله ، وأنهم مؤمنون . اهـ

ومعنى ﴿جُنَّةً﴾ أي : ستره يتسترون بها من المؤمنين ، ومن قتلهم وأخذ أموالهم ^(٣) .

(١) البرهان ٣٧٢ .

(٢) في الكشف نبتل ، وفي الحاكم عبد الله بن أبي ، وذكر القصة ، ثم قال عن السدي ومقاتل . قال ابن حجر في تخرجه : لم أحده هكذا ، وروى أحمد والبخاري والطبراني والطبري ، وابن أبي حاتم ، والحاكم من رواية سماك عن ابن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ظل حجرة ، وقد كاد الظل أن يقلص ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه ، فلم يلبث أن طلع عليهم رجل ازرق أعور ، فقال حين رآه : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فقال : ذرني أتيك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا ما قالوا وما فعلوا ، فأُنزل الله تعالى الآية . لفظ الحاكم . (الكشاف ٤/٤٩٥) .

(٣) قال الحاكم : الجنة : السرة التي تقي البلية ، واصله : السرة ، ومنه : الجن الثرس ، ومنه : الجن لاستراهم عن أعين الناس ، والجنان والجنون والجنة من ذلك .

وَقَرَأَ ﴿إِيمَانَهُمْ﴾ بكسر الهمزة ، أي : إيمانهم الذي يظهرونه ، أو إيمانهم التي حلفوا^(١) ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و[كانوا] يشيطون من لقوا عن الدخول في الإسلام ، ويضعفون أمر المسلمين عندهم^(٢) ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ فوعدهم الله عز وجل بالعذاب المهين — والمهين : المخزي لهم — لكفرهم وصددهم .
﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي : تنفعهم ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ بأن تدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي : قليلا من الإغناء ، الذي هو النفع بدفع العذاب ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ روي أن رجلا منهم قال : لننصرن يوم القيامة بأنفسنا [وأموالنا] وأولادنا فنزلت ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ في الآخرة أنهم مسلمون ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَيَخْسِبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من نفع أنفسهم باليمين فلا تعجبون من حلفهم لكم في الدنيا ، فحلفهم لله عالم الغيب والشهادة في الآخرة أعجب ، يعني لا عجب من حلفهم لكم ، وأنتم بشر ، تخفى عليكم سرائرهم ، ويصلون بذلك إلى منافع ، إنما العجب من حلفهم مع علام الغيوب ، وعدم النفع ، والمراد : وصفهم بالتوغل في النفاق حتى في الآخرة ، فكان هذا الخلق الذميمة يبقى معهم أبدا ، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوَا عَنْهُ﴾^(٣) .
ثم قال تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يريد في الآخرة ، أي : هم الغاية التي لا مطمح وراءها في قول الكذب ، وقد اختلف العلماء في جواز وقوع الكذب في الآخرة ، فمنع منه أبو علي^(٤)

(١) هذا على قراءة فتح الهمزة .

(٢) قال الحاكم : صدوا عن سبيل الله . قيل : أعرضوا عن الدين ، وقيل : صدوا غيرهم بالقاء الشبه .

(٣) قال الحاكم : قيل يحلفون أنهم لم يكونوا كفارا عند أنفسهم ؛ لأن دار الآخرة لا يمكن فيها من الكذب عن أبي علي وجماعة من مشائخنا ، وقيل : يجوز أن يحلفوا في الآخرة ككذب الصبي للدهش الذي يلحقهم عن أبي بكر أحمد بن علي ، وقيل : يحلفون في الآخرة أنهم كانوا في الدنيا من المؤمنين ، وظنوا أن ذلك يجوز ثم كما في الدنيا عن الحسن والأصم .

(٤) أبو علي : هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، المتكلم ، أخذ العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام ، البصري ، وله مقالات مشهورة في الأولين ، قال الحاكم الجشمي : هو الذي سهل علم الكلام وذهبه ، وله شرح على مسند ابن أبي شيبة ، وتفسير القرآن مائة جزء (مفقود) قيل : جملة مصنفاته مائة ألف ورقة ، وخمسين ألف

وأبوها شتم وأكثر المعتزلة ، وتأولوا هذه الآية : أن يكونوا قد نسوا كفرهم ونفاقهم ، واستبدلوا أن يقع منهم خلاف الإخلاص لما شاهدوا أمور الآخرة ، وحلفوا على ذلك .

وقوله : ﴿أَلَا أَنهَمُ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يريد في الدنيا ، وجوز بعض العلماء وقوع الكذب منهم في الآخرة ، وهو ظاهر هذه الآية ، وظاهر قوله : ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) والقرآن ناطق بنباته نظفا مكشوفاً .

ثم أخبر تعالى أنه ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي : غلب واستولى عليهم في الدنيا من حاذ الحمار أتن الوحش ، إذا جمعهن وساقهن غالباً عليهن^(٢) ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ وهو أوامره بالعمل بطاعته ، وزواجه عن النهي عن معصيته ، ومعنى ﴿أَنسَاهُمْ﴾ أي : أغفلهم فهم لا يذكرون [الله] بقلوبهم ولا بألسنتهم^(٣) .

﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يريد أنهم أصحابه وخاصته وجماعته وجنده ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ

ورقة ، الورقة نصف كراس ، قرأ عليه أبو الحسن الأشعري ، وخالفه ، وحرت بينهما مناظرات طويلة ، ولأبي علي عناية في الرد على الفلاسفة والملحدة ، وتقرير العدل والتوحيد ، ولد سنة ٢٣٥هـ ، وتوفي في شعبان سنة ٣٠٢هـ ، وذكر محقق الأساس أنه توفي سنة ٣٠٣هـ (وتحقق ولادته أو ولادة ابنه أبو هاشم ؛ لأن الفرق بين ولادتهما إحدى عشرة سنة فقط) . انظر (من الأساس المطبوع بتحقيقنا) .

وأبو هاشم هو : عبد السلام بن محمد [بن عبد الوهاب] بن سلام (خفف) بن خالد بن أبان ، بن حمران ، مولى عثمان بن عفان — الجبائي ، المعتزلي ، أبو هاشم ، قال ابن خلكان : هو الإمام في مذهب الاعتزال ، المتكلم ابن المتكلم ، العالم ابن العالم ، كان هو وأبوه من كبار العلماء ، وولادته سنة ٢٤٦هـ ببغداد ، وإليه تنسب الفرقة البهشمية ، ذكره في المنية والأمل في الطبعة التاسعة ص ٩٤ ، والقاضي عبد الجبار من أنصاره ، وإن خالفه في بعض الأمور (انظر من الأساس المطبوع ص ٢٣) .

(١) الأنعام : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) وهذا هو أحد ما جاء على الأصل على معنى أن السين والتاء ليستا للطلب ، بل حاذ واستحوذ بمعنى واحد ، قال الحاكم : والقياس أن يقال : استحاذا لأنه استفعل ، نحو استغاث واستقال ، قلبت الواو ألفاً إلا أن هذا الحرف مفارق لأخواتها فأخرجوا الواو كما قالوا : حيوة .

(٣) قال الحاكم : ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ قيل : عرضهم لترك ذكر الله فتركوا ، ولذلك ذمهم عليه ، وقيل : شغلهم بوسوسته حتى نسوا ذكر الله ، نسب النسيان إليه من حيث سبب إلى ذلك .

الشَّيْطَانُ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١﴾ الكاملون في الخسران يوم القيامة .
ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : يعادونه ويتجاوزون حدوده
ويعادون رسوله ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَى﴾ أي : في حملة [من] هو أذل خلق الله في الآخرة
حتما ، وفي الدنيا إذا أراد أن يذلهم فهو قادر .

ومعنى قوله : ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي : وعد وحكم وقضى قضاء مبتوتا ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ قال
الحسين بن القاسم عليه السلام : الغلبة بالدين والحق الواضح النير المستبين ، والحكمة الباهرة ،
والصدق واليقين ، ثم الغلبة الثانية من الرحمن بما يحل بأعدائه من الموت والأحزان ، وتمزق
أعضائهم في القبور والأكفان ، والثالثة عند البعث والهوان والحساب والعذاب في النيران ، فهو
عز وجل قاهر غالب هو وأوليائه وحزبه وأنصاره وأحباؤه ^(١) . اهـ

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قادر قاهر ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغلب ، ثم قال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿يُوَادُّونَ﴾ من الود ،
وكذلك ما ظاهره المودة من الأفعال والأقوال والمخالطة .

قال المرتضى عليه السلام في جواب من سأله عن معنى هذه الآية ما لفظه : ” هذا إخبار من
الله سبحانه لنبيته صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يجد قوما صحت بصائرهم ، وجاد إيمانهم يوادون
أبدا من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم ، لأن ما في قلوبهم
من مستحکم الإيمان ، ونور الحق والبرهان مانع لهم من ذلك ، والمادة فقد تكون بالحجة
والمواصله ، والمكاتبة ، وحسن اللقاء ، فنهى الله تبارك وتعالى المؤمنين من ذلك ، وأخبر
أنه لا يصح إيمان عبد أدخل إلى المنافقين ، وركن إلى الفاسقين “ . اهـ

ومعنى قوله : ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي : تعدى حدوده التي جعلها حدودا يحرم تجاوزتها ، هذا
من باب التخيل ^(٢) [خيال] أن من الممتنع الخيال أن تجد مؤمنين يوادلون المشركين ، والغرض أنه لا

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) أي : من باب تنزيل الموجود الكائن منزلة المعلوم الذي لا يمكن تصوره إلا في خزانة الخيال ، وإليه الإشارة بقوله :
حقه أن يتمتع ولا يوجد بحال .

ينبغي أن يكون ذلك [وحيه أن يمتنع] ^(١) وأن لا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والتصلب في مجانبة أعداء الله ومخالطتهم ^(٢) وزاد على ذلك تأكيداً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: أقاربهم غير من ذكر، فنفي الإيمان ممن يوالي أعداء الله، وإن كانوا من هؤلاء الأقارب. قال زيد بن علي عليه السلام: "حاد الله معناه: شاق الله وعاداه".

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: المعنى لا تجد مؤمناً يواد كافراً [ولا فاسقاً] ولو كان أقرب الناس إليه، ولا تجده له محباً ولو كان أعز الناس عليه ^(٣).

قال في التجريد: في ذلك قولان. أحدهما: أن المراد أن إيمانهم لا يجتمع مع موالاته أعداء الله ومحبتهم؛ لأن حب الله لا يجتمع مع حب أعدائه، كما يقال: أعداؤك ثلاثة: عدوك، وصديق عدوك، وعدو صديقك، وعلى هذا موادة أعداء الله كفر وثانيهما: أن المراد أن إيمانهم يقع محبطاً؛ لأن محبة أعداء الله كبيرة، وعلى هذا يحتمل أنهم غير كافرين. "أهـ ثم قال تعالى في المهاجرين للظلمة الكافرين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُؤَادُونَ مَنْ حَادَ اللَّهُ﴾ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ أي: ألهمهم الإيمان وأعانهم، ووقفهم لحقيقة الإيقان، ومعنى ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ أي: أثبت فيها بتوفيقهم، كما ثبت الشيء المكتوب أي: حكم لهم بحقيقة الإيمان، وشلة ثباته في قلوبهم بالإخلاص والإيقان والله أعلم وقيل: معناه جعل في قلوبهم سمة تدل على أنهم من أهل الإيمان ^(٤). ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: قواهم بروح القرآن، كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ ^(٥) فسمى

(١) ما بين القوسين هو لفظ الكشف، ولفظ الأصل (والفرض أنه لا ينبغي أن يكون ذلك حقاً).

(٢) ومثل هذا في الكشف، ولفظ الكشف: وأن لا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه، والرجح عن ملاسته، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم. الكشف ٤٩٧/٤.

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام، وكذلك بقية كلامه هنا في أول السورة هذه. وما بين قوسين الزيادة موجود في أصل هذا التفسير، وليست موجودة في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام المخطوط النسخة التي لدينا، والآية تنص على عدم موالاته الكافر، بقوله: ﴿مَنْ حَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أما الفاسق ففيه دخوله إشكال.

(٤) قال الحاكم: قيل: جعل بحكمه كأنه مكتوب فيه، وتقديره: حكم لهم بالإيمان، وقيل: كتب بأن جعل لهم سمة تدل من عاينها أنهم من أهل الإيمان، وقيل: ثبت في قلوبهم بلطفه عن الحسن، وقيل: كتب للملائكة في اللوح المحفوظ أن قلوبهم بصفة الإخلاص.

(٥) الشورى: ٥٢.

القرآن روحا ، ويحتمل أن يكون أيدهم بروح من التوفيق والتسديد ، والحكمة والبصيرة والعون والتأييد ، فحييت بذلك قلوبهم ، كما يحيى البدن بالروح ^(١) .
قال في التجريد : ” ويجوز أن يريد بروح من الإيمان أي : بحياة من حياة الإيمان ^(٢) لم يرحص الله لأحد في محبة أعداء الله ، ولو كانوا أبا ، أو ابنا ، أو أخا ، أو من العشيرة ، وهم الأقربون . وعن الثوري : أنها نزلت فيمن يصحب السلطان .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد ^(٣) أنه لقيه المنصور في الطواف ، فهرب منه وتلاها .
وقيل : نزلت في الذين عادوا عشائهم الكفار ، وقتلوهم غضبا لله ولدينه . انتهى
ثم قال سبحانه ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ قال الهادي عليه السلام : والجنت : فهي دار الكرامات التي جعلها للمتقين ، وكرم بها عباده المؤمنين ، دار السرور في المآكل والمشرب والمناجح والملابس ، التي لا يفتقر من نال ملكها ، ولا يسقم من حلها ، ولا يشقى من نالها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ يقول : تجري من تحت أشجارها وبين دورها وقصورها الأنهار ، والأنهار : فهي التي ذكر الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ^(٤) . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾
فرضاء الله عنهم ثوابهم لهم ، ورضاهم عنه بما أعطاهم وجزاهم . ثم ذكر سبحانه أمرا من الأمور التي توجب ترك المواد مع أعداء الله فقال : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أي : جماعة أوليائه وأنصاره ، وأهل محبته وتقديمه وإيثاره . ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
الباقيون في الخير ، الراجحون الظافرون بالمراد ، وهو في مقابلة قوله فيهم : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . والله أعلم .

(١) قال الحاكم : قيل : ينصر منه عن الحسن ، وقيل : بالإيمان عن السدي ، وقيل : بالقرآن عن الربيع ، وقيل : بنور وهدي وبرهان عن ابن جرير ، وقيل : برحمة ، وقيل : بحميد في كثير من المواطن .
(٢) بناء على أن الضمير عائد للإيمان ، على أنه في نفسه روح حياة القلوب .
(٣) وانظر الكشف ٤/ ٤٩٧ ، وكذلك ما قبله عن الثوري أنظر أيضا الكشف .
(٤) محمد : ٤٧ .

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال زيد بن علي عليها السلام : معناه خضع وذل قال في التجريد : هذا وأمثاله يحتمل أن يراد بالعموم فيه الخصوص ، وهم الملائكة والمؤمنون من الجن والإنس .

والتسبيح : التنزيه ، أو قول : سبحان الله ، أو الصلاة ، ويحتمل أن يراد كلما في السموات والأرض من حماد وحيوان فيه آية بينة تدل على تنزيه الله تعالى فهي تسبحة أي : دالة على التسبيح بلسان الدليل .

قلت : وهذا الاحتمال الآخر هو معنى ما ذكر الهادي عليه السلام في أول سورة التغابن وأطال الاحتجاج عليه هناك ، وإنما صح أن كل مصنوعاته تسبحة وتبعده عن شبه خلقه ؛ لأن فيها من عجائب قدرته ما يدعو العقلاء الناظرين إليها إلى تسبيحه .

قال في الكشف : وقد جاء التسبيح بغير لام كسبحوه ، وتارة معدى باللام كسبح لله ، وأصله التعدي بغير لام ؛ لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، منقول من سبى في الأرض : ذهب فيها وأبعد ، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له ^(١) وإما أن يراد سبى لله : أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصا ^(٢) .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الغالب الذي لا يفعل فعلا إلا بعدل وحكمة وغرض صحيح ؛ فلذلك سبحه كل شيء ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا شريك له فيه .

(١) أي : أنها هنا للتعدي ، وفي قوله : أحدث التسبيح لأجل الله اللام للتعليل .

(٢) لفظ الكشف : وقد عدي هنا الفعل باللام تارة ، ونفسه أخرى في قوله : ﴿سُبِّحْهُ﴾ وأصله التعدي بنفسه ؛ لأن معنى سبحه

: بعدته عن السوء ، منقول من سبى إذا ذهب وأبعد ... الخ ما ذكره هنا (الكشاف ٤/٤٧٢) وانظر الرازي ٢٩/٢٠٦ .

ثم إنه لما ذكر سبحانه من دلائل الآفاق ملك السموات والأرض لأنه شئ مشاهد محسوس ، وأكثر الخلق عقولهم ضعيفة ، قلما يمكنهم الترقى من المحسوس إلى المعقول — ذكر بعده دلائل الأنفس فقال : ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يحيى النطف والبيض والموتى ، ويحيى ويميت الأحياء ^(١) قال الرازي : ذكر المفسرون [فيه] وجهين أحدهما : يحيى الأموات للبعث ، ويميت الأحياء في الدنيا . والثاني : قال الزجاج : يحيى النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ، ويميت الأحياء وعندى فيه وجه ثالث ^(٢) : وهو أنه ليس المراد منه تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين ، وبأشخاص معينين ، بل معناه : أنه القادر على خلق الحياة والموت ، كما قال في سورة الملك : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ والمقصود منه كونه [سبحانه] المنفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق ، لا يمنععه عنهما ولا يرده عنهما راد ، وحيث يدخل فيه الوجهان اللذان ذكرهما المفسرون .

واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الآفاق أولا ، ودلائل الأنفس ثانيا — ذكر لفظا يتناول الكل فقال : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٣) لا يعجزه شئ بل هو عليه يسير .
﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ قال [الإمام] زيد بن علي عليه السلام : فالأول : الذي كان ولا شئ غيره ^(٤) . والآخر : الذي يكون ولا شئ معه . والظاهر : الذي ليس ما ظهر من الأشياء بأقرب إليه مما بطن . والباطن : الذي ليس ما بطن من الأشياء بأبعد عنه مما ظهر ^(٥) . اهـ

(١) وفي الرازي مثله بمعناه ٢٩/٢٠٨ .

(٢) هذا هو لفظ الرازي ، ولفظ الأصل لهذا التفسير : وزاد بعضهم وجها ثالثا . فأثبتنا ما في الرازي لأنه ناقل عنه .

(٣) إلى هنا انتهى النقل من الرازي ، وما بعده ليس من الرازي ، وقد حذف المصنف بعض كلام الرازي الواقع بين قوله : ذكرهما المفسرون .. إلى قوله : واعلم أنه لما ذكر [الرازي ٢٩/٢٠٨ ، ٢٠٩] .

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله (أي الزمخشري) : هو الأول قيل : قال المحققون : لا يقال لله : أول الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تماثل ، وأفعال يضاف إلى ما هو منه . قلت (الضمير للعلوي) : ولقائل أن يقول : إنها مماثلة له في الشبهة لأن الشئ هو ما يصح العلم به والخبر عنه ، وهذا المعنى مستوفى في القديم والحديث ، وهذا القدر كاف في إضافة أفعال التفضيل ، قالوا : وأول يأتي على ثلاثة أوجه : اسم منصرف ، تقول : ما تركت له أولا ولا آخر ، أي قديما ولا حديثا . وصفة ويلزمها من ، أو الألف واللام ، أو الإضافة . وظرف نحو ما رأيته منذ عام أول ، وينى على الضم كالتغايات ، والذي جاء في حق الله هو الاسم لا الوصف ، وفأوه وعينه واوان ، وليس في كلام العرب له نظير . حاشية العلوي ٣٠٥ .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ويحتمل هذا الكلام وجهها آخر : وهو أنه ظاهر لا يخفى عن أوليائه بما أظهر من آياته ونعمه وآلائه . والباطن : الذي لا يدرك بالحواس ، ولا تلحقه مشاعر أحد من الناس ، ولا باطنيته كباطنية أحد من المخلوقين ، ولا يتوهم عاقل أنه محتجب كاحتجاب المصنوعين ، تعالى عن ذلك رب العالمين . اهـ

وقيل : الظاهر : العالي على كل شيء ، الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه .

وقيل : الباطن : الذي بطن كل شيء ، أي : علم باطنه ^(١) .

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه مضمهر ولا مظهر .

(٥) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وآله الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه : خضع وذل .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ فالأول : الذي كان ولا شيء غيره ، والآخر : الذي يكون ولا شيء معه ، والظاهر : الذي ليس ما ظهر من الأشياء بأقرب إليه مما بطن . والباطن : الذي ليس ما بطن من الأشياء بأبعد عنه مما ظهر . وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِتْنَةٌ أَنْفُسُكُمْ﴾ معناه : أهلكتموها .

وقوله تعالى : ﴿وَارْتَبِعْ﴾ أي : شككم ، وقوله تعالى : ﴿وَوَعَدُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي : الشيطان . وقوله تعالى : ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ معناه : أولى بكم . وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه : ألم يدرك . وقوله تعالى : ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ معناه : الغاية . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَهْجِجُ﴾ معناه : يبس . وقوله تعالى : ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَرَاهَا﴾ معناه : تخلقها .

وقوله تعالى : ﴿لَكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي : لا تحزنوا ولا تفرحوا بما أعطاكم .

قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وآله الصلاة والسلام : ليس من أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن إن أصابه خيرا فليجعله شكرا ، ومن أصابته مصيبة فليجعلها صبرا .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَحِبُّ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَخُورٌ﴾ معناه : متكبر . وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ معناه : العدل ليقوموا به . وقوله تعالى : ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ معناه : ليميز الله وبين . وقوله تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرَسُولِنَا﴾ معناه : أتبعنا . وقوله تعالى : ﴿مَا كُتِبَ عَلَيْهَا عَلَيْهِمْ﴾ معناه : ما أمرناهم بها . وقوله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ معناه : ضعفين بلسان الحبشة ، وقوله تعالى : ﴿لَنْ يَلْعَلُ﴾ معناه : ليعلم .

(١) وذكر مثله عن الزجاج والليث . ومثله في الكشف (٤/٤٧٢) .

وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فالقصد منه دلائل القدرة والعلم ومعنى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدة مقدرة فيها؛ إذ لم يكن حينئذ شمس يُعرَفُ اليوم بها. ابن جبير^(١) هو قادر على خلقها في لحظة لكن خلقها في ستة أيام تعليماً لخلق الرافق والتثبت في الأمور. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام معناه: استولى وغلب على الملك، قال الشاعر:

رأينا الملك أرسى في بلاد بها ملك العراق مع الوزير
قد استويا بملكهما جميعا على ملك العراق بغير زور
وقال آخر^(٢): قد استوى بشر على العراق
بغير سيف ودم مهورا

يريد أنه ملك العراق، ولا يتوهم أحد يعقل أن العراق سرير يقعد عليه. اهـ
لأن العرش في الأصل سرير الملك، والاستواء عليه: كناية عن الملك الكامل؛ لأن استواء الملك على السرير من توابع ملكه، فهو أبلغ من قولك: ملك.
ثم بين تعالى كمال علمه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني من مطر وغيره ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وغيره ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: من مطر وغيره ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وغيرهم، ذكره في البرهان^(٣)

(١) ابن جبير: هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء الكوفي، أبو عبد الله [٤٥ - ٩٥هـ] أحد عظماء الإسلام، ومن سادات التابعين علما وفضلا وصدقا وعبادة، خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الملك بن مروان، وقضى عليه وأرسل إلى الحجاج، فجرى بينهما حوارا يكشف عن بطولة سعيد وجهاده، ووقوفه ضد حكام الجور فقتله الحجاج صبرا، ولم يلبث الحجاج بعد مقتله إلا خمسة عشر يوما حتى هلك، وله تفسير مفقود لم يصل إليها إلا في الروايات التي تناقلتها الكتب المتأخرة، ذكره غير واحد في رجال الشيعة، وعده أبو العباس الحسيني فيمن بايع الإمام الحسن بن الحسن الرضا، وعن السيد صارم الدين الوزير، وابن خابس، وابن حميد في ثقة محدثي الشيعة، وخرج له اثنتا عشرة والخمسة والستون السيلقي، والجماعة. (انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين - تحت الطبع - وفيه بقية مصادر الترجمة).

(٢) الشاعر: هو البيهقي، وبشر: هو بشر بن مروان لما ولاه أخوه عبد الملك بن مروان. (البيان ٥١٩/٩).

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٦٨، ٣٦٩.

والولوج : هو الدخول ، أي : يعلم ما يدخل في الأرض من الغيث والكنوز والأموال وغير ذلك ، وما يخرج منها من الشجر والنبات وماء العيون ، وما ينزل من السماء من الأرزاق والملائكة والصواعق وغير ذلك .

ومعنى ﴿يعرج﴾ : يطلع ويصعد من الملائكة وأعمال العباد وأرواحهم . قال الرازي : وإنما قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء ؛ لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً . وقال : ﴿وما يعرج فيها﴾ ولم يقل : يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ، ومرتبة النفوس الزكية ، وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال : وما يعرج إليه لفهم الوقوف عند السموات فقال : ﴿وما يعرج فيها﴾ ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ، ولهذا قال في الكلم الطيب : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾^(١) وأما السماء فهي : دنيا وفوقها المنتهى .

ثم قال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ حتى لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، ولا يعجزه شيء من أموركم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيحزيكم بحسبه من حسن وسيئ .

قال المتكلمون : هذه المعية إما بالعلم ، وإما بالحفظ والحراسة ، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معاً بالمكان والجهة والحيز ، فإذا قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ لا يبد فيه من التأويل ، وإذا جوزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع .

واعلم أن في هذه الآيات ترتيباً عجيباً ، وذلك لأنه سبحانه بين بقوله : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ كونه إلهاً لجميع الممكنات والكائنات ، ثم بين كونه إلهاً للعرش والسموات والأرضين ، ثم بين بقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معيته معاً^(٢) بسبب القدرة والإيجاد والتكوين ، وبسبب العلم وهو كونه عالماً بظواهرنا وبواطننا ، فتأمل في كيفية هذا الترتيب ، ثم تأمل في ألفاظ الآيات فإن فيها أسراراً عجيبة ، وتنبيهات على أمور عالية . ذكر هذا الرازي^(٣)

(١) فاطر : ١٠ .

(٢) في الرازي (معيته لنا) .

(٣) من قوله : قال المتكلمون ... إلى هنا موجود في تفسير الرازي (٢٩ / ٢١٥) .

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يملك أحد إلا بتمليكه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أمور العباد يوم القيامة ، فيجزئهم بأعمالهم ، فهو المالك للدارين ، ودل بهذا القول على إثبات المعاد .

ثم قال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي : يحصل ظلمة الليل مكان ضياء النهار بغيوبة الشمس ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهو العكس من الأول ، وقيل : الإيلاج زيادته في أحدهما ما ينقصه من الآخر من الساعات .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : ^(١) معناه : أنه يدخل الليل على النهار ، ويدخل النهار على الليل

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام ما نلظه :

تأويل قول سيدنا ومولانا عز وجل : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ يريد عز وجل أنه الأول قبل إيجاد المخلوقين ، وهو القديم الذي لم يكن قبله أحد من المحدثين ، وهو الآخر الذي لا يزول ولا يتغير مثل خلقه ، ولا يتحول وأوليته آخرته ، وظاهرته باطنه ، لا فرق بينه تعالى عن الإفتراق والاختلاف ، ولا تضاد عز وجل في شيء من الأوصاف ، ومعنى الظاهر : هو القوي العلي الذي لا يضعف ولا يفتر وين ، يدل على ذلك قوله عز وجل : ﴿وَأَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُومِهِمْ فَاصْبِرُوا﴾ ظاهرين يريد فصاروا غالبين قاهرين ، ويحتمل هذا الكلام وجهاً آخر : وهو أنه ظاهر لا يخفى عن أوليائه بما أظهر من آياته ونعمه وآلائه . والباطن : الذي لا يدرك بالحواس ، ولا تلحقه مشاعر أحد من الناس ، وليس باطنة كباطنية أحد من المخلوقين ، ولا يتوهم عاقل أنه محتجب كاحتجاب المصنوعين ، تعالى عن ذلك [مولانا وسيدنا] رب العالمين . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يريد عز وجل : أنه استولى وغلب على الملك ، قال الشاعر : رأينا الملك أرسى في بلاد بها ملك العراق مع الوزير

قد استويا مملكتهما جميعا على ملك العراق بغير زور

وقال آخر : قد استوى بشر على العراق بغير سيف ودم مهوراق

يريد أنه ملك العراق ، ولا يتوهم أحد يعقل أن العراق سرير يقعد عليه . ومعنى : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يريد أنه يعلم ما يلج في الأرض والولوج : هو الدخول . ومعنى : ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ بمعنى يعرج : هو يطلع ويصعد ، وهو عز وجل عالم بذلك غير جاهل به ، لا يخفى عليه العالم جميعاً في كل أسبابه ، ومعنى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يريد عز وجل أنه يدخل الليل على النهار ، ويدخل النهار على الليل ، ومعنى : ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ يريد : أنفقوا مما جعلكم مالكين له بعد غيركم من سلف ، وملك الأموال قبلكم ، ثم هلك وخلفها لكم فستفارقونها كما فارقها الأولون منكم ، ومعنى قوله : ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يريد : أنه أخذ عهدكم بما أوجب الله من الأسباب عليكم ، والعهد : هو الميثاق والعقد ،

وهو اللازم الواجب على العبد . ومعنى ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ هو : ليخرجكم من الجهل والغسي إلى الحق والبيان والدين والهدى ، ولكنه ضرب النور والظلمات مثلا . ومعنى ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ يريد عز وجل أنه يرثهما بعد فناء أهلها ليزهدهم بذلك في ملكهم ، ويعلمهم بقصر أعمارهم وهلاكهم ، ومعنى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له﴾ يريد عز وجل : من يقدم إلى الله عملا صالحا يكون بمنزلة القرض الذي يقتضيه وهو يسمى في اللغة سلفا ودينا وقرضا . معنى ﴿فيضاعفه له﴾ يريد : فيضاعف له الثواب عليه ، والمضاعفة : هي الزيادة على مثله وأمثاله ، قال الشاعر : حملت على ضعفي وقلة حيلتي من الحب أضعاف الذي حملوا وحدي يريد أنه حمل أمثل ذلك الذي حمل أصحابه وأشكاله ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿اليوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ قيل : إن الأنوار إذا كورت ، انس الله أوليائه بنور يسطع بين أيديهم وبأيمانهم ، ويسرع ويسيرهم عند سيرهم ، وعند ذلك يقول المنافقون والمنافقات ماحكى الله عنهم : ﴿انظرونا نقبس من نوركم﴾ يريدون انتظرونا لعلنا نأخذ من نوركم ، ونستضيء بذلك معكم ، والإقباس في اللغة : أخذ الشيء من النار قال الشاعر : يرى القابس العجلان ميا مليحة ومي إذا ردت لها العين أملح وقال آخر : فهي تظلي كشهاب القيسي . فيقال عند ذلك : ﴿ارجعوا وراءكم فاتمسوا نورا﴾ قيل : إن المؤمنين يعدونهم ويقولون لهم عند ذلك : التمسوا نورا غير هذا النور وراءكم ، واطلبوا نورا غير نورنا لكم يعنون بذلك فيما روي نور الشمس والقمر والنجوم ، فيرجعون وراءهم فيضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب كما قال الله عز وجل ﴿باطنه فيه الرحمة﴾ يعني باطن باب النور ، والسور في اللغة : هو سور المدينة والقرية ، وهي الدرب المحيط المحقق بها ﴿وظاهره من قبله العذاب﴾ يريد : أن العذاب وراء ظاهر السور من قبله ، والقبل : هو الجهة التي تلي وتقابل ، فدل على أن النار لا تقابل الجنة ولا تقاربها ، وإنما تكون وراء ظاهر سورها . ومعنى ﴿فتنتم أنفسكم﴾ يريد أضللتم أنفسكم ، ومعنى ﴿تربصتم وارتبتم﴾ هو تأنيتم ووقفتم عن الحق ، وشككنم ، ومعنى ﴿وغررتكم الأماني﴾ يريد : خدعكم من الله إبليس الخدوع ، والفرور : قد يكون الخدع والزور ، واللذات الملهية والسرور ، ومعنى ﴿ألم يأن للذين آمنوا﴾ ألم يحن ؟ قال الشاعر :

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا

﴿أن تخشع قلوبهم﴾ تلين قلوبهم لذكر الله خالقهم ، وما نزل من الحق على لسان نبيهم ، ومعنى ﴿فطال عليهم الأمد﴾ يريد : أنه طال عليهم الوقت والحد ، فلما طال عليهم التكليف وبعُد أمدهم الذي هو موتهم وأجلهم وحدهم لم يشكروا على ذلك سيدهم ﴿ففسدت قلوبهم﴾ حينئذ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ولم تلن لذكر الله ، وقد كان يجب عليهم شكر مولاهم على طول مدتهم ، ويكثروا من العمل الصالح في أوان حياتهم ، وقبل حضور موتهم ووفاتهم ، ومعنى ﴿إن المصدقين والمصدقات﴾ يعني المتصدقين والمتصدقات ، والمنفقين أموالهم في سبيل الله من المؤمنين والمؤمنات ، ولكن التشديد للصاد يقوم مقام التاء عند أهل المعرفة باللغات . ومعنى ﴿هم الصديقون والشهداء﴾ أما الصديقون فهم الصادقون ، وأما

الشهداء : فهم المجاهدون ، وأكثر ما يستعمل هذا الاسم للمقتولين الذين قتلوا في الجهاد من المسلمين ، والأصل في الشهادة هي الحضور عند القتال ، ثم استعمل للعلاء خاصة لعظم خطرهم وشأنهم عند الله وقدرهم ، فصار القتل هو الشهيد لمشاهدته الجهاد ، وجليل خطره عند ذي العزة والأيد ، وإنا لخاص في ذلك غير فاترين ، فنبشأ الله وهو أرحم الراحمين ، ولا قوة لنا إلا بالله رب العالمين ، ومعنى ﴿عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ يريد عز وجل أن عنده لهم الثواب ، وأما النور فهو الهدى ، وهو العلم واليقين الذي يحويه من الرضا ويمكن أن يخصهم في ذلك بنور يسطع في وجوههم لصبرهم على الجهاد في طاعة ربهم ، ومعنى ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فزاه مصفرا ثم يكون حطاما﴾ يريد عز وجل أن مثل الحياة الدنيا كذلك تحسن في أعيان أهلها ، ويعظم سرور الكفرة لذلك بجهلها ، ويفرطون في الإعجاب بخطرها وبهجتها ، ثم تهيج وتيس ، ثم تحطم وتتكسر ، وقيل : إن الكفار هاهنا هم الزراع الذين يكفرون الحب ويسترونه ، ويذرونه في الحرث ويغطونه ، والكفر في اللغة : هو السر ، والعرب تقول : كفرنا على المغافر بعمائنا ، يريدون أنهم ستروا عليه المغافر بعمائهم ، ومعنى يهيج : هو ييس ، والهياج في هذا الموضع : اليبس ، قال الكمي رحمه الله عليه :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تزل لهم روضة خضراء منه ومذنب

ومعنى ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ هو بادروا وأسرعوا وادخلوا وعجلوا ولا توانوا ولا تقفوا . ومعنى ﴿جنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾ يريد أن الجنة في السعة والإنسباط كعرض السموات والأرض في هذه الدنيا ، والعرض هاهنا : هو السعة ، قال الشاعر : كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حائل ، وذلك أن الأرض تمد يوم القيامة حتى تكون كعرض سموات الدنيا وأرضها . معنى ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ يريد في علم حافظ من قبل أن نبرأ أنفسكم وخلقها ، ومعنى قوله : ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي : هين سهل لا تمتنع عليه ولا يعجز منه ، بل هو عالم به وبغيره ولا يغيب عنه . معنى ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ يريد عز وجل أنه نزل هذه المصائب التي ذكرها لئلا يفرط العباد في السرور والفرح بنعيم الدنيا ليزهدوا في ذلك عند ذكرهم للمصائب والفناء لئلا يأسوا ولا يجزنوا على ما فاتتهم من حطام هذه الدنيا ، ولم يرد الله النهي عن فرح المسلمين برزقه ، وإنما ذكر الله زهدهم بالمصائب لعلمه بأنهم يحتاجون إلى الزهد عند الموت ، ويحتمل وجه آخر أن يكون أراد النهي عن المرح والخيلاء والصلف عند الفرح ، يدل على ذلك قوله في آخر الآية : ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ ومعنى قوله : ﴿وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ يريد الكتاب والعدل ، ولكنه ضرب الميزان مثلاً لما إن كان الميزان مستقيماً معتدلاً ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ يريد : ليعملوا بالعدل والإحسان ، وليقوموا بما افترض عليهم من الأديان ، ويهربوا إليه بطاعته من النيران . ومعنى ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ يريد : خلقنا ، ولا فرق بين أنزلنا وفعلنا ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ ونصرهم الله فيما غاب عنهم من الوعد والوعيد ، فيعلم عز وجل من ينصره وينصر أنبياءه ، ويقاتل وينابذ في الدين أعداءه ، ويعز بجهده وصبره

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : مضممراتها ، وهذه الآيات جامعة بين الدلائل على قدرته ، وبين إظهار نعمته .

واعلم أنه لما ذكر أنواعا من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة أتبعها بالتكليف ، وبدأ [بالأمر] بالإيمان بالله وبرسوله فقال : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

أولياء مع ما شاهد في ذلك من حر الجلاء ، ومفارقة الوطن والأهل والأولاد ، والمحن والسير في أقطار البلاد ، فأهملوا أنفسهم فراق ذلك مختارين ، قبل يفارقونه كارهين مأزورين ، وكونوا لذلك مستعدين منتظرين محتسبين لله عز وجل صابرين ، فالدنيا غير مقيمة لأهلها ، ولكن هذه الأمة أبت إلا التماسي في جهلها ، فمن لم يخر فراق الدنيا فارقه صاغرا ، وارتحل بالموت وكان عند الله باثرا ، وأنا أعطي الله عهدا وعهيدا ، وميثاقا وثيقا أكيدا لمن بلغني ما أؤمل من الجهاد والمناجزة لدوي الغي والفساد لأثرن طاعته في جميع الأحوال ولأنصرن دينه بالفعل والمقال ، ولو ذهب في ذلك رأسي ، أو رخصت في الغضب لله نفسي ، فسنأل الله العون على ذلك برحمته ، والتوفيق والتسديد لطاعته بالجهاد أقرب ما يتقرب به إلى الرحمن ، ويطلب به الفرار من النيران ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ثُمَّ قَفِينَا عَلَى آثَارِهِمْ بَرَسْنَا﴾ هو أتبعنا على آثارهم برسلنا ، وأتبعناهم بعيسى بن مريم إلى قوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ يريد أنا جعلنا في قلوبهم ذلك بأمرنا ، وهذا جعل أمر ، وليس يجعل خلق ولا حتم ولا حير . ثم قال عز وجل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ معنى الراهبانية : مأخوذ من الرهبة لمولانا الجليل بالنوافل والتقرب إليه بالفعل النبيل ، والتكرم الذي ابتدعوه من الجميل ، ولم يكلفهم الله كل ذلك في التنزيل . ومعنى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ يريد : ما فرضنا عليهم ، ولكن ذلك ابتغاء رضوان الله ربهم ، والتقرب إليه بنوافلهم . ثم رجع إلى تعنيف هؤلاء الذي بعدهم من خلفهم وذريتهم ونسلهم فقال عز وجل : ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يريد فما حفظوا تلك الأفعال حقيقة حفظها ، ولا عملوا بعد آبائهم بها ، ومعنى ﴿يُؤْتِكُمْ كُفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ هو يعطيكم نصيبين من نعمته ، نصيب في الدنيا للمعونة على طاعته ، ونصيب في الآخرة من مغفرته ، ويمكن أن يكون الكفل الأول : هو التوفيق والتسديد ، والخبرة منه والعون والتأييد ، ومعنى ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يريد يجعل لكم هدى تمشون به إلى الجنان ، وتسيريون به في طلب النجاة والرضوان ، والرحمة من الله الواحد الرحمن ﴿لَعَلَّكُمْ يَعْلَمُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يريد : لأن يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله الذي يعطيه المؤمنين ، ولعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ولكنه أقام لئلا مقام لأن ، ولا صلة ، وليس لها معنى غير أنها زينة للكلام متلو ، وهي موجودة في لغة العرب وأشعارها ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما .

قال الرازي : فإن قيل : قوله : ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ خطاب مع من عرف ؟ أو مع من لم يعرف الله ؟ فإن كان الأول كان ذلك أمرا بأن يعرف من عرفه ، فيكون ذلك أمرا بتحصيل الحاصل ، وهو محال . وإن كان الثاني كان الخطاب متوجها على من لم يكن عارفا به ، ومن لم يكن عارفا استحال أن يكون عارفا بأمره ، فيكون الأمر متوجها على من يستحيل أن يعرف أن يكون مأمورا بذلك الأمر ، وهذا تكليف مالا يطاق ؟ ! .
 قيل له : معنى قول الله سبحانه : ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي : صدقوا بتوحيد الله ، وما أتاكم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن معرفة وجود الصانع حاصلة للكل ، وإنما المقصود من هذا الأمر معرفة الصفات .

ثم قال سبحانه : ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ اعلم أنه تعالى أمر الناس أولا بأن يشتغلوا بطاعة الله ، ثم أمرهم ثانيا بترك الدنيا والإعراض عنها ، وإنفاقها في سبيل الله .
 واختلف في هذا الإنفاق ، فقال بعضهم : هو الزكاة الواجبة ، وقال آخرون : بل يدخل فيه التطوع ، ولا يمتنع أن يكون [عاما] في جميع وجوه البر^(١) . ومعناه : أنفقوا مما جعلكم مالكين له بعد غيركم ممن سلف وملك الأموال قبلكم ثم هلك وخلفها لكم ، فستفارقونها كما فارقها الأولون منكم فاعتبروا حيث انتقل إليكم ، وسينتقل عنكم فلا تبخلوا به ، وأنفقوا بالإنفاق أنفسكم .

وقيل : معناه أنفقوا في الجهاد من الأموال التي في أيديكم ؛ لأنها أموال الله أنشأها ومولكم إياها ، وجعلكم خلفاء له في التصرف فيها ، فليست لكم حقيقة ، إنما أنتم بمنزلة النواب عنه ، فأنفقوا منها في الجهاد وسائر حقوق الله تعالى ، والخطاب لكفار مكة وغيرهم .

ثم إنه تعالى ضمن لمن فعل ذلك أجرا كبيرا فقال : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ دلت هذه الآية على أن هذا الأجر لا يحصل بالإيمان المنفرد حتى ينضاف

(١) من قوله : (واعلم أنه لما ذكر أنواعا من الدلائل ... إلى هنا مثله في الرازي ٢٩ / ٢١٥ ، ٢١٦) .

هذا الإنفاق إليه ، ومن هذا الوجه تدل على أن من أخل بالواجب من زكاة أو غيرها فلا أجر له ^(١) .

ثم إنه تعالى وثب على ترك الإيمان فقال سبحانه : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ﴾ أي : فأبي عذر لكم في ترك الإيمان بالله مع هذه الحال ، وهي أن الرسول يدعوكم ﴿لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي : لتوحدوه ، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بصحة ما يدعوكم إليه ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ معناه : أخذ عهدكم بما أوجب الله من الأسباب عليكم ، أي : أخذ ميثاقكم على الإيمان بما ركب فيكم من العقول ، ونصب لكم من الأدلة ، فلم تبق لكم علة بعد أدلة العقل وبيّنة الرسول . والعهد : هو الميثاق والعقد اللازم على العبد .

ثم قال تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي : إن كنتم مؤمنين لأمر يدلکم على الإيمان ، ويهديکم إليه ، فإن دعوة الرسول لكم ، وتركيب عقولکم السوية أبلغ أمر يهدي [إلى] الإيمان ، فما لكم لا تؤمنون الآن إن كنتم ممن يهدي بالأدلة ؛ فإنه قد تطابقت الدلائل العقلية والنقلية وبلغت مبلغا لا يمكن الزيادة عليها .

واعلم أن تلك الدلائل لما اقتضت وجوب القبول فهي أؤكد من الحلف واليمين ، ولذلك سماه ميثاقا ، وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل . أما النقل : فيقوله ﴿والرسول يدعوكم﴾ وأما العقل فيقوله : ﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾ ومتى اجتمع هذان النوعان فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة [عليه] . ذكر هذا الرازي ^(٢)

(١) من قوله : (جلت هذه الآية .. إلى هنا نسبة الرازي إلى القاضي البضاوي . انظر الرازي ٢٩/٢١٦).

(٢) من قوله : واعلم أن تلك الدلائل .. إلى هنا مثله في الرازي ، وقد أصلحنا بعض الألفاظ من السرازي ، وكان الأصل (من الحلف باليمين) (هذان الأمران) (تمتنع الزيادة) انظر الرازي ٢٩/٢١٦/٢١٧.

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يدل على قدرتهم على الإيمان ؛ إذ لا يجوز أن يقال ذلك لمن لا يتمكن من الفعل كما لا يقال : مالك لا تطول ولا تبيض . ويدل على أن الاستطاعة قبل الفعل ، وعلى أن القدرة صالحة للضدين ، وعلى أن الإيمان حصل من العبد لا بخلق الله ^(١) .
ثم قال سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وآله ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الإعجاز والهداية ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي : ليخرجكم من الجهل والعمى إلى الحق والدين والهدى ، فأخير سبحانه وبين بذلك أن مراده بإنزال الآيات البينات التي هي القرآن وغيره من المعجزات أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، أي : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ولكنه ضرب النور والظلمات مثلاً ، وأكد ذلك بقوله : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ معنى الرأفة والرحمة واحد ، أي : هو عظيمهما ، ومن رأفته ورحمته أن دعاكم إلى سعادتكم من غير حاجة به إليكم ، وهو غني عن إيمانكم ولا تضره معصيتكم .

واعلم أنه لما أمر أولاً بالإيمان وبالإنفاق ، ثم أكد في الآية المتقدمة إيجاب الإيمان أتبعه في هذه الآية بتأكيد إيجاب الإنفاق فقال سبحانه : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عام في كل خير ، والمراد هنا الجهاد .
﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : لله ملك السموات والأرض ، وأنهما إليه يرجعان كرجوع الميراث إلى المستحق ، وأنه يرثهما بعد فناء أهلها ليزهدهم بذلك في ملكهم ، ويعلمهم بقصر أعمارهم ، وأن ليس لهم إلا ما قدموه فهو يجازيهم ؛ لأنهم ميتون فمحاسبون ومجازون .

ثم بين تعالى طبقات المنفقين في سبيل الله فقال : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ﴾ قبل الفتح حين كثرت الحاجة إلى القتال ، وفيه حذف ، أي : ومن أنفق من بعد الفتح ، حذف لوضوحه .

(١) من قوله : قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ إلى هنا . نسبه الرازي إلى القاضي البيضاوي . الرازي ٢٩٧/٢٩٠ .

قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي عليه السلام ؛ لأنه الذي قاتل قبل الفتح ، يعني به فتح مكة ، وواسى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه وماله ، ومواقفه قبل الفتح مشهورة ، ومقاماته بعده مذكورة صلوات الله عليه ، وإنما كان القتال والنفقة قبل الفتح أفضل منهما بعد ؛ لأن الأشياء كانت قبل الفتح متضايقة ، والدار لم تكن واسعة ، والأنصار كانوا يومئذ أقلهم ، فصارت المواساة عند الضيق أفضل وأجزل ثوابا منها عند الفسحة ^(١) .

﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي : منزلة وثوابا ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾ [أي : من بعد] الفتح ﴿وَقَاتَلُوا﴾ قال عطاء : هي درجات الجنة وهي تفاضل .

ومعنى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي : الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا ، الذين قال فيهم صلى الله عليه وآله وسلم : (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) ^(٢) .

قال في البلغة : وأول من فاز بهذه الصفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ؛ لأن الله تعالى شرط في هذه الآية شرطين الإنفاق والقتال ، وكل من أنفق وقاتل قبل الفتح كان أفضل ممن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ، ولا خلاف أنه لم يكن أحد أبذل لنفسه في الجهاد ، وما ملكت يمينه قبل الفتح وبعده من أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وقد كان من الصحابة رحمة الله عليهم من أنفق قبل الفتح ولم يقاتل ، ومنهم من لم ينفق وقاتل ، وكذلك حالهم بعد الفتح ، وأول من جمع بينهما قبل الفتح أمير المؤمنين علي عليه السلام ^(٣) . اهـ

قال الرازي : وقد جعل علماء التوحيد هذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول عليه وآله الصلاة والسلام قبل الفتح ، وبينوا الوجه في ذلك ،

(١) انظر البرهان مخطوط ٣٦٩ .

(٢) من قوله : (ومعنى ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى هنا مثله في الكشف ، قال ابن حجر في تحريجه لهذا الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (الكشاف ٤/٤٧٤) .

(٣) في كلام البلغة رد على الكلبي والرازي في أن الآية نزلت في فضل أبي بكر وتقديمه على علي عليه السلام .

وهو عظم موقع نصره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالنفس ، وإنفاق المال في تلك الحال ، وفي عدد المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد ، فكانت الحاجة إلى النصر والمجاعة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويا ، والكفر ضعيفا ، ويدل عليه قوله : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(١) ثم قال سبحانه : ﴿وَكُلًّا﴾ من المنافقين قبل الفتح وبعده ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ﴾ أي : المثوبة الحسنی وهي الجنة ، مع التفاوت في الدرجات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيفاضل بين أجوركم على حسب أعمالكم .

ثم اعلم أنه تعالى أكد ترغيب الناس في أن ينفقوا أموالهم في نصره المسلمين ، وقال الكافرين ، ومواساة فقراء المسلمين ، وسمى ذلك الإنفاق قرضا من حيث وعد به الجنة ، تشبيها بالقرض فقال سبحانه : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ . قال في البرهان : وروينا أن اليهود أتت رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا محمد أفقر ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : إن قال قائل : إن الاستقراض لا يكون إلا عن حاجة من المستقرض إلى ما استقرض ، فما معنى هذا القول ؟ قيل له : إن الاستقراض خارج على معنيين ، فأحدهما : يكون للإنسان ولا يكون للرحمن ، والآخر يجوز للإنسان وللرحمن ، ويجوز بذلك القول في الإنسان ، فأما الوجه الذي يكون للإنسان ولا يجوز للرحمن فهو استقراض المحتاج إلى ما يحتاج إليه مما يقيمه أو يحويه من قوته المضطر إليه ، وهذا فلا يجوز القول فيه في الرحمن . وأما الوجه الذي يجوز أن يقال به في الرحمن وفي الإنسان فهو ما يكون من طاعة المطيع لمن أطاعه ، وذلك موجود في اللغة والكلام عند

(١) التوبة : ١٠٠ . وانظر الرازي ٢٩/٢١٩ .

(٢) آل عمران : ١٨١ . انظر البرهان ٣٦٩ .

أهل الفصاحة والعلم والتمام ، وذلك قول العرب لمن اصطنع خيرا أو أسدى إلى صاحبه
يدا : إن لك عند فلان لقرضا حسنا يجزيك به ، وكذلك إن كان سوءا قيل له : إن لك
عنده لقرض سوء قدمته إليه وأقرضته إياه فاحذره . وكذلك وعلى ذلك يخرج معنى
القرض لله ، فمن أقرض لله قرضا حسنا ، وقدم إليه عملا حسنا أعطاه على ذلك ثوابا
حسنا؛ لأنه يجزي بالحسنة حسنات ، ويعطي من أقرضه بطاعته ثوابا وخلودا في جنته . اهـ
والمعنى : من يقدم إلى الله عملا صالحا يكون بمنزلة القرض الذي يُقْتَضَى ، وهو يسمى
في اللغة سلفا ودينا وقرضا ، والعرب تقول : له عند فلان قرض خير ، أو قرض شر ،
إذا فعل به خيرا أو شرا ، ومنه قول الشاعر ^(١) :

ويجزي سلامان بن مفرح قرضها بما قدمت أيديهم وأزلت

قال في التجريد : هو الإنفاق في سبيل الله ، شبه بالقرض لأنه يرد عوضه ^(٢) ، وأراد
بكونه حسنا أن يكون لوجه الله لا يشوبه رياء ، ولا من ، ولا غرض دنيوي ، ويجوز أن
يسميه حسنا لما كان جزاؤه الأضعاف الكثيرة ، فحسن لعظم منفعته ، وأن يكون ممن
حلال ، ومن جيد ماله يخرج ، ويخرجه طيبة به نفسه .

﴿فِيضَاعَفَهُ لَهُ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد فيضاعف له الثواب عليه ،
والمضاعفة : هي الزيادة ، قال الشاعر :

حملت على ضعفي وقلة حيلتي من الحب أضعاف الذي حملوا وحدي

يريد : أنه حمل أمثال ذلك الذي حمل أصحابه وأشكاله . اهـ

(١) قائله هو الشنفرى ، وفي التبيان : ونجزي — بالنون — سلامان بن مفرح — بالخاء — . وفي مجمع البيان : ويقضى
سلامان بن مفرح — بالجيم — وذكر أن في ثلاث نسخ : ويجزي . انظر التبيان ٥٢٥/٩ ، ومجمع البيان ٣٨٩/٩ .
وفي البرهان : والعرب تقول : له عند فلان قرض خير ، أو قرض شر إذا فعل به خيرا أو شرا ، ومنه قول الشاعر :
ويجزي سلامات بن مفرح قرضها بما قدمت أيديهم وأزيد ، والمراد في هذه الآية النفقة في الجهاد .
(٢) أي : على سبيل المجاز ، والجامع بينهما رد العوض ، وذكر الزمخشري أن الجامع أنه إذا أعطاه لوجهه فكأنه أقرضه إياه .

والمراد : أنه يعطيه أجره أضعافا من فضله .

﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مرضي في نفسه ، أي : ذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف^(١) . قال في التحريد : يحتمل أنه يزيد بالأجر الكريم الأصل والمضاعف^(٢) كأنه قيل : وذلك أجر كريم ، ويحتمل أنه أراد : وله أجر غير المضاعفة ، فتكون المضاعفة تفضلا^(٣) والأجر : هو المستحق غير مضاعف ..
واختلف في المراد من هذا الإنفاق ، فمنهم من قال : الإنفاقات الواجبة ، ومنهم من قال : بل هو في التطوعات ، والأقرب دخول الكل فيه .
قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي : له أجر كريم يوم ترى المؤمنين ، فيكون ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرفا لقوله : ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾^(٤) أو منصوبا بأذكر تعظيما لذلك اليوم ، ووعظا بذكره ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ بسعيهم ، قيل : وذلك حين يسرون إلى الجنة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قدامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قيل : إنما خص هاتين الجهتين ؛ لأن السعداء يؤتون كتبهم منهما ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ، ووراء ظهورهم ، فيجعل النور في هاتين الجهتين علامة لهم ؛ لأن الكافر إذا مشى يستدل بسواده وظلمته على كفره ، قيل : إن الأنوار إذا كورت آنس الله أوليائه بنور يسطع بين أيديهم وبأيمانهم ، ويسرع ويسير عندهم مسيرهم .

(١) وإنما وصف الأجر بكونه كريما ؛ لأنه هو الذي جلب ذلك الضعف ، وبسببه حصلت تلك الزيادة ، أو أن كريم هنا بمعنى مكرم صاحبه مثل قتل بمعنى مقتول ، فعيل بمعنى مفعول .

(٢) وهذا بناء على قول من يقول : إن الثواب جميعه تفضل .

(٣) هذا بناء على قول المعتزلة : إن الثواب مستحق ، والمضاعفة تفضل ، قال أبو علي الجبائي : إن الأعواض تضم إلى الثواب ، فذلك هو المضاعفة .

(٤) فالعامل فيه (له) أي : المستقر في الظرف .

قال في البرهان : وهذا النور ضياء يعطيهم الله تعالى ثوابا لهم وتكرمة يتميز بها المؤمن من الكافر ، والمطيع من العاصي ^(١) .

قال في التجريد : وهو دليلهم إلى الجنة ، قال قتادة : المؤمن يضيء له نوره كما بين عدن إلى صنعاء ، ودون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه ، وذلك على قدر أعمالهم ^(٢) .

ثم قال سبحانه : ﴿بَشِّرْكُمْ﴾ أي : تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم : ﴿بَشِّرْكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تقدير الآية : وتقول لهم الملائكة : بشراكم اليوم كما قال : ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ ودلت هذه الآية على أن المؤمنين لا تنالهم أهوال يوم القيامة ؛ لأنه بين تعالى أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص .

وقوله سبحانه : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ عائد إلى جميع ما تقدم ، وهو النور والبشرى بالجنات المخلدة ، والفوز : هو الظفر الذي لا أعظم منه ، وقرئ : (ذلك الفوز) بإسقاط كلمة هو .

واعلم أنه تعالى لما شرح حال المؤمنين في موقف القيامة أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ما حكى الله عنهم ﴿أَنْظَرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ^(٣) أو هو أيضا منصور بأذكر تقديرا ^(٤) .

(١) انظر البرهان ٣٦٩ .

(٢) وذكر في الرازي مثله ، وأسند إلى ابن مسعود وقاتدة وغيرهما .

(٣) أي : على أنه ظرف لقوله ﴿وله أجر كريم﴾ .

(٤) من قوله : أي : تقول لهم الملائكة ... إلى هنا مثله في الرازي ٢٢٣/٢٩ .

ومعنى ﴿انظرونا﴾ انتظرونا لعلنا نأخذ من نوركم فنهتدي ونستضيء بذلك معكم ؛ لأنه يسرع بهم إلى الجنة ، والمنافقون مشاة . قال الكلبي : يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ، ولا يعطون النور ، فإذا سبقهم المؤمنون قالوا : انظرونا . وقراءة حمزة (أنظرونا) بفتح الهمزة وقطعها ، وكسر الظاء ، ومعناه : أمهلونا . وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : الاقتباس في اللغة : أخذ الشيء من النار قبالة الشاعر :

يرى القاييس العجلان مياً مليحة ومي إذا ردت لها العين أملح
فالمنافقون طمعوا في شيء من أنوار المؤمنين أن يقتبسوه ، كقبس نيران الدنيا ، وهذا منهم جهل ؛ لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا فلم يالما توجد تلك الأعمال في الدنيا امتنع حصول تلك الأنوار في الآخرة^(١) . وقوله تعالى : ﴿قِيلَ ارْجِعُوا﴾ أي : فيقال عند ذلك : ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي : قيل لهم على وجه الطرد والتهكم بهم ، والقائل إما الذين آمنوا ، وإما الملائكة عليهم السلام .

وفي معنى الكلام أقوال ، أحدها : أن معناه الرد والتخيب ، كما قيل في المثل : وراءك أوسع لك .

والثاني : ارجعوا إلى الموقف الذي أعطينا منه هذا النور فمنه اقتبسنا .
والثالث : ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور لهم^(٢) وإنما هو إقناط لهم .

(١) ومثل هذا في الرازي ٢٩/٢٢٥ .

(٢) الوجه الثاني والثالث في الكشف ، ولفظ الكشف : وقد علموا أن لا نور وراءهم .. الخ ٤/٤٧٦ .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : قيل : إن المؤمنين يتعدونهم ، ويقولون عند ذلك لهم : التمسوا نورا غير هذا النور وراءكم ، واطلبوا نورا غير نورنا لكم ، يعنون بذلك فيما روي نور الشمس والقمر والنجوم ، فيرجعون وراءهم . اهـ .
وقيل : إن المراد ارجعوا إلى الدنيا حيث كانت الأعمال الصالحة ، فإن الأنوار إنما حصلت من نتائجها ^(١) .

قال في البرهان : أي : ارجعوا فاعملوا عملا يجعله الله تعالى بين أيديكم نورا ^(٢) .
﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ أي : لذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون منه ، وهو أن بين الجنة والنار سورا وحجابا بينهما ، والباء في قوله : ﴿بِسُورٍ﴾ صلة وهو للتأكيد ، والتقدير : ضرب بينهم سور ، كذا قاله الأخفش .
ثم قال سبحانه : ﴿بِاطْنِهِ﴾ أي : باطن السور أو الباب ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ يعني الجنة ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ جهنم .

ومعنى قوله : ﴿وَبِاطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي : النعمة الكاملة ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ أي : ما ظهر لأهل النار ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي : من عنده ومن جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ وهو الظلمة والنار .
قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد أن العذاب وراء ظهر السور ، والسور من قبله ، والقبل : هو الجهة التي تلي وتقابل ، فدل على أن النار لا تقابل الجنة ولا تقاربها ، وإنما تكون وراء ظاهر سورها . اهـ .

قال الواحدي : والمعنى أن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقين يحصلون في العذاب والنار ، وبينهم السور .

قال في البرهان : قد ضرب الله ذلك بين أهل النار والجنة ، وذلك إنعام من الله على أهل الجنة ليعلموا أن الذي قد أعطوا كان بحسن فعالهم ، وانتقام من الكفار ؛ لأنهم إذا

(١) انظر الكشاف ٤/٤٧٦ .

(٢) انظر البرهان ٣٦٩ .

أبصروا أهل الجنة وما هم فيه من النعمة ، كان ذلك أشد عليهم منهم إذا لم يروا ويبصروا ، ففي اقتراب أهل الجنة من أهل النار من الحكمة ما ذكرنا ^(١) .

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي : يقولون ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نصلي مثل ما تصلون ؟ ونغزو مثل ما تغزون ؟ ونفعل مثل ما تفعلون من الصلاة والصيام وإظهار الإيمان ؟ والاستفهام للتقرير . ثم حكى أن المؤمنين ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أي : كنتم معنا في الظاهر في تلك الطاعات ، إلا أنكم فعلتم أشياء بسببها وقعتم في العذاب ، أولها : قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ، وإتباع هوى نفوسكم في شهواتها ، وقيل : أهلكموها بالنفاق . وثانيها : قوله ﴿وَوَرِثْتُمْ﴾ أي : انتظرتم بالنذر إليكم من لدنا ، الأنبياء والأئمة عليهم السلام دائرة السوء ، وقيل : بالمؤمنين ، وقال ابن عباس : تربستم بالتوبة ، وقيل : كنتم ترصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار ، وتخلصوا من النفاق .

وثالثها : قوله : ﴿وَوَرِثْتُمْ﴾ أي : شككتم في أمر الله عز وجل ، وقيل : في الدين . ورابعها : قوله : ﴿وَوَرِثْتُمْ الْأَمَانِي﴾ قال ابن عباس : يريد الباطل ، وهو ما كانوا يتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ، أو طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار . قال في البرهان : يعني في الدنيا حيث أصررت على الذنوب ولم تتوبوا ، وزعمتم أنه سيغفر لكم مع عدم الإنابة والتوبة ﴿وَحَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي : الموت ^(٢) .

والمعنى : ما زالوا في خدع الشيطان وغروره حتى أماتهم الله ثم ألقاهم في النار . ﴿وَوَرِثْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي : والنفوس المتبوعة في هواها ^(٣) . وقال زيد بن علي عليها السلام : (هو الشيطان) ^(٤) . بأن قال لكم : إن الله غفور رحيم لا يعذبكم ، وقد يكون الخدع والزور واللذات الملهية والسرور .

(١) انظر البرهان ٣٦٩ .

(٢) انظر البرهان ٣٦٩ .

(٣) ولفظ البرهان في قوله : وغركم بالله الغرور (ورأي النفس المتبوعة في هواها) .

(٤) انظر تفسير غريب القرآن ٣٢٤ ، والكلام بعد قوله : (هو الشيطان) للمؤلف وليس للإمام زيد .

قال الرازي: [قرأ سماك بن حرب]: الغرور — بضم الغين — والمعنى: وغرکم بالله الاغترار، وتقديره: على حذف المضاف، أي: غرکم بالله سلامتکم منه مع الاغترار، وأما الغرور — بفتح الغين، فهو الشيطان، لإلقائه إليکم أن لا خوف علیکم من محاسبة ومجازاة^(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فَدِيَّةٌ﴾ هي ما يفقدى به الشيء، أي: يتخلص، أي: لا يقبل منكم ما تقدون به أنفسكم من العذاب ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهرا ولم ينافقوا مثلکم^(٢).

واعلم أن الفدية: ما يفقدى به، فهو يتناول الإيمان والتوبة والمال، وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلا^(٣)؛ لأنه تعالى بين أنه لا يقبل الفدية أصلا [والتوبة فدية] فتكون الآية دالة على أن التوبة غير مقبولة أصلا، وإذا كان كذلك لم تكن التوبة واجبة القبول عقلا كذا ذكره الرازي^(٤).

قال^(٥) وأما قوله: ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ففيه بحث، وهو أن عطف الكافر على المنافق يقتضي أن لا يكون المنافق كافرا لوجوب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه. والجواب: المراد الذين أظهروا الكفر، وإلا فالمنافق كافر.

ثم قال تعالى: ﴿مَأْوَاكُمْ النَّارُ﴾ أي: هي مقرکم الذي تأوون إليه، وتصيرون فيه، وأصل المأوى: موضع البيتوة بالليل.

(١) انظر تفسير الرازي ٢٩/٢٢٧، وما بين قوسي الزيادة من الرازي.

(٢) قوله: ظاهرا ولم ينافقوا مثلکم. هذا بناء على ما استوحجه العطف من المغايرة بين الكافر والمنافق، وإلا فإن المنافق كافر، وهو أيضا ما سيأتي مما ذكره المصنف عن الرازي.

(٣) هذا بناء على ما تقوله المعتزلة.

(٤) انظر الرازي ٢٩/٢٢٧.

(٥) أي: الرازي.

﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ قال زيد بن علي عليهما السلام : معناه : أولى بكم .
 وحقيقته : هي مكانكم الذي يقال فيه : هي أولى بكم لما أسلفتم من المعاصي .
 ﴿وَيُنْسِ الْمَصِيرُ﴾ أي : ينس المرجع .
 ثم قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿ألم يأن﴾ ألم يحين ؟ قال الشاعر :
 ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا . وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا
 و﴿تخشع﴾ تلين قلوبهم لذكر الله ، وتذل من خشيته . اهـ .
 وعن أبي بكر : أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل الإمامة^(١) فبكوا بكاء شديدا فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . وأما قوله : ﴿لذكر الله﴾ ففيه قولان ، الأول : تقديره أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم لذكر الله ؟ أي : لمواعظ الله التي ذكرها في القرآن ، وعلى هذا (الذكر) مصدر أضيف إلى الفاعل .
 والقول الثاني : الذكر مضاف إلى المفعول ، والمعنى : لذكرهم الله ، أي : يجب أن يورثهم الذكر خشوعا ولا يكونوا^(٢) كمن نذكره^(٣) بالغفلة فلا يخشع قلبه للذكر .
 ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ على لسان نبيهم ، والحق : القرآن ، ويصح أنه المراد بالذكر لجمعه الأمرين الذكر والنزول ، وأن يراد بذكر الله ذكر عقابه ، والاستفهام للتقرير .
 أي : ألم يقرب لقلوبهم أن تلين لأجل ذكر الله^(٤) .

(١) في المصايح النسخة (أ) : من أهل المدينة ، وفي النسخة (ب) وفي الكشاف وتفسير الرازي : من أهل الإمامة ، فأثبتنا ما في ب .

(٢) في الأصل (يكونون) والصواب ما أثبتناه بحذف النون ، وهو إما عطف على المنصوب ، أو جزم على أن لا ناهية

(٣) وفي ب (كمن يذكره بالغفلة) .

(٤) موضع هذه الجملة في الأصل لهذا الكتاب جاء متأخرا بعد قوله : (فنزلت عتابا لهم) وحققها أن تكون هنا .

قال السيد العلوي رحمه الله : فإن قيل : كل واحد من ذكر الله ، وتلاوة القرآن سبب لخشوع القلب ، كأنه قيل : ألم يقرب للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لهذين الموجبين .

﴿يَأْنِ﴾ من أنى الأمر يأنى إذا حان وقته ، ومثله : آن يئين ، معناهما : قرب ، والمعنى : ألم يقرب .

[سبب النزول]

واختلف فقيل : نزلت في المؤمنين المخلصين كانوا بمكة فقراء مقبلين على ذكر الله ، فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة فتروا عما كانوا عليه من العبادة فنزلت عتابا لهم . وقيل : هم طائفة من المؤمنين لا كلهم فإن الله وصفهم بالركة والخشوع . وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين^(١) . وعن ابن عباس : عاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وقال في البرهان : هذه الآية نزلت في المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . اهـ وما في قوله : ﴿وما نزل من الحق﴾ في موضع جر بالعطف على الذكر ، وهو موصول والعائد محذوف على تقدير : وما نزل من الحق .

وإنما قدم الخشوع بالذكر على الخشوع بما أنزل من القرآن ؛ لأن الخشوع والخوف والخشية لا تحصل إلا عند ذكر الله ، فأما حصولها عند سماع القرآن فذلك لأجل اشتغال القرآن على ذكر الله .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ أي : الزمان بينهم وبين الأنبياء .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه : أنه طال عليهم الوقت والحد ، فلما طال عليهم التكليف وبعد أمدهم الذي هو موتهم وأجلهم وحدهم لم يشكروا على ذلك سيدهم ﴿فَقَسَتْ﴾ حيث ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ولم تلن لذكر الله ، وقد كان يجب عليهم شكر مولاهم على طول مدتهم ، ويكثروا من العمل الصالح في أوان حياتهم ، وقبل حضور موتهم . اهـ

(١) قال في تخرج الكشاف ٤/٤٧٧ : أخرجه مسلم بلفظ : ﴿وبين أن عاتبنا الله﴾ ووجه الحاكم فاستدركه .

وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، فإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله وورقت قلوبهم ، فملا طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره .

وقال مقاتل ابن حيان^(١) : الأمد هاهنا هو : الأمل البعيد .

والمعنى : طال عليهم الأمد بطول الأمل ، أي : لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم

وقيل : طال عليهم أمد خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقيل : طال عهدهم بسماع التوراة والإنجيل فزال وقعها عن قلوبهم فلا جرم قست قلوبهم ، فكأنه تعالى نهى المؤمنين عن أن يكونوا كذلك^(٢) .

وقوله : ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ قال الفراء : هو في موضع نصب معناه : ألم يأن أن تخشع

قلوبهم وأن لا يكونوا؟! ولو كان جزماً على النهي كان صواباً ، ويدل على هذا قراءة

من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات .

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين .

ثم قال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي : يحييها بالمطر والنبات

بعد موتها بالجدب واليبس ، وهذا مثل ضربته الله تعالى لإحياء الموتى ، ودليل عليه .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل : كيف يحيي الله الأرض بعد موتها؟ فقال عليه السلام :

أما مررتم بواد محلا^(٣) ثم مررتم به خضرا يهتز؟ قالوا : نعم . قال : كذلك يحيي الله الموتى .

(١) في المصاييح : وقال مقاتل بن حيان ، والرازي نسب هذا القول إلى ابن حبان . وقول المصنف بعده : وقيل : طال

عليهم أمد خروج النبي .. نسبة الرازي إلى مقاتل بن سليمان .

وابن حبان : هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي البصري الشافعي أبو حاتم محدث حافظ

مؤرخ فقيه ، لغوي ، واعظ ولد بسجستان في بضع وسبعين ومائتين ، وسمع خلائق بخراسان والعراق والحجاز والشام

ومصر والجزيرة وغيرها ، توفي في شوال سنة ٣٥٤هـ وله مصنفات عديدة . (سير أعلام المؤلفين ٢/٣٠٧)

(٢) نسب الرازي هذا القول إلى القرظي (تفسير الرازي ٢٩/٢٣٠) ..

وقيل : هو تمثيل لإحياء القلوب بذكر الله بعد موتها بالغفلة^(١) ومعناه : أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة ، فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها ، كما يحيي الله الأرض بالغيث ، فذكر ذلك ترغيبا في الخضوع والخضوع ، وزجرا عن القساوة . والله أعلم .

ثم قال سبحانه : ﴿قَدْ يَبِّئُكُمْ آيَاتِ﴾ أي : فصلناها وأوضحنا ما فيها من المواعظ والعبر ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لإرادة أن تعقلوها فتعملوا بها .

ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ أصله المتصدقين والمتصدقات الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ النفقة في سبيله ﴿قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أجرهم أضعافا كثيرة ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قد مر شرحه قريبا .

(٣) المحل : الشدة ، والمحل : الجوع الشديد وإن لم يكن جذب ، والمحل : نقيض الخصب ، وجمعه محول وأحال ، قال في لسان العرب : وفي الحديث : أما مررت بواد أهلك محلا . أي : جدبا . والمحل في الأصل انقطاع المطر . لسان العرب بترتيب يوسف خياط ٤٤٦/٣ . وانتصاب (علا) هنا صفة منصوبة على المحل ، أو على الحالية ، ولكن صاحب الحال لابد أن يكون معرفة ، فيحتمل أنه واد من أوديتهم معروف ، كما في حديث لسان العرب المتقدم ، أو لتوغل في النكرة عومل معاملة المعرفة .

(١) قوله : (هو تمثيل..) يعني أنه شبه تليين القلوب بالذكر والتلاوة بعد قساوتها ونبوها عن استماع الحق ، والعمل بأوامره بإحياء الأرض الميتة بالغيث حيث اشتغال كل واحد منهما على بلوغ الشيء إلى كماله المتوقع بعد خلوه عنه ، أو يكون استعارة تمثيلية لإحياء الأموات بأنه شبه إحيائها بإحياء الأرض الميتة ، وإن من قدر على الثاني قادر على الأول فحقه أن تخشع القلوب لذكره .

(٢) قال الزمخشري : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿وَأَقْرَضُوا﴾ ؟ قلت : على معنى الفعل في المصدقين ؛ لأن السلام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا كأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا .

قال السيد العلوي : فائدة العدول إلى الفعل في ﴿وَأَقْرَضُوا﴾ تصوير معنى التصديق ، ومزيد تقرير التمثيل بالإقراض ، قال صاحب التفسير : وفي عطف أقرضوا على صلة اللام نظر ؛ للزوم الفصل بين أجزاء الصلة بأجنبي ، وهي المصدقات ، فإما أن يحمل على المعنى إذ التقدير : إن الناس المصدقين والمصدقات وأقرضوا ، ولا يجعل عطفا بل اعتراضا فيحوز الفصل به كما بين الموصول والصلة في مثل ذلك الذي وأييك يعرف مالك ، وقيل : هو من باب كل رجل

واعلم أنه تعالى قبل هذه الآية الكريمة ذكر حال المؤمنين والمنافقين ، وذكر الآن حال المؤمنين وحال الكافرين فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ المؤمنون بتصديق الله ورسوله ، وقوله : ﴿ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ كلام مستأنف ، وهم الأنبياء ، والأئمة عليهم السلام يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ، وقيل : أراد سبحانه بذلك المتصدقين والمتصدقات ، والمنفقين أموالهم في سبيل الله من المؤمنين والمؤمنات ، وأما الصديقون فهم الصادقون ، وأما الشهداء فهم المجاهدون ، وأكثر ما يستعمل هذا الاسم للمقتولين الذين قتلوا في الجهاد من المسلمين ذكره في البرهان ^(١).

قال في التجريد : اختلفوا في نظم الآية على قولين : أحدهما أن تمام الكلام عند قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ثم ابتداء فقال : ﴿ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ هذا قول ابن عباس ومسروق ، والفراء وغيرهم .

وضيعة ، أي : إن المصدقين والمصدقات في الثواب والمنزلة ، أو يقدر خير ، أي : إن المصدقين والمصدقات يفلحون ، فيقع بعد تمام الجملة ، وأقرضوا في الوجهين ليس عطفا على الصلة بل هو مستأنف ، ويضعف في الوجهين صفة قرضا أو استئناف ، وكان استقامة المعنى والإعراب على حذف الموصول بتقدير : والذين أقرضوا إن جوز ، كما هو مذهب الكوفيين . الطيبي [أي : قال الطيبي] : الوجه القوي هو الاعتراض بأن المصدقات لو لم يذكرن لأي : درجن بحكم التغليب تحت المصدقين ، كما أن قوله : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ ﴾ عام في الرجال والنساء ، فذكر المصدقات لمزيد التقدير ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى ﴾ وقلت : إن قوله : ﴿ وَأَقْرَضُوا ﴾ في الحقيقة عطوف على صلة المصدقين والمصدقات معا فهما بمنزلة شيء واحد ، قصد العطف عليه فلا يلزم ما ذكر من الفصل بأجنبي من الصلة ، وهذا كما جاز الفصل بين الموصول والصلة بمعمول الصلة نحو الذي أباه ضربت زيد ؛ لأن الفصل ليس بأجنبي منهما ، ولا يجوز مثل ذلك إن كان الموصول حرفا ، فلا يقال : أعجبت أن زيدا ضربت منطلق ؛ لأن الحروف الموصولة جروف مصدرية هي والجملة التي بعدها بتأويل المصدر ، فيطلب قربها من متضمن المصدر ، وكذا في الألف واللام الموصولة ؛ إذ لا يدخل إلا على فعل في صورة اسم الفاعل أو المفعول . حاشية العلوي ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(١) لفظ البرهان كلام مستأنف ، وهم الأنبياء ، والأئمة عليهم السلام يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب .

والثاني : أن الشهداء متصل ، والواو والنسق^(١) ثم في تصحيح المعنى على هذا القول قولان أحدهما : أن كل مؤمن صديق شهيد قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، ومعنى التصديق على هذا كثير الصدق والتصديق لأنبيائه ، والشهداء عند ربهم : هم الذين يشهدون لأنبيائهم يوم القيامة وهم المؤمنون ، أو الذين يشهدون أن لا إله إلا الله .
وثانيهما : أن المراد : ان الذين آمنوا بالله ورسوله مثل الصديقين ، ومثل الشهداء في الأجر يزيد الله لهم تفضلا حتى يلحقوا بأجر الصديقين والشهداء الأصلي دون التفضل ، فإن الله يتفضل على الصديقين والشهداء فيكون أجرهم أكثر مع التفضل ، والصديقون على هذا هم أول من صدق الأنبياء ، وقد جاء في الحديث (الصديقون ثلاثة مؤمن آل فرعون ، ومؤمن آل يس ، وعلي بن أبي طالب)^(٢).

(١) يعني أنه يجوز أن يكون والشهداء عطفًا على ما قبله ، فالوقف عنده تام ، أخر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وعلى الوجه الأول فالواو استئنافية والشهداء مبتدأ ، ولك في خبره وجهان أحدهما : أنه الظرف بعده ، والثاني : أنه قوله : ﴿لهم أجرهم﴾ ولهم خير مقدم ، وأجرهم مبتدأ مؤخر .

(٢) أخرجه ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام من تاريخ الجزء الأول بتحقيق محمد باقر المحمودي ص ٩١ بسنده إلى ابن أبي ليلى ، وبلغظ (الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين الذي قال : ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ وحرز قيل مؤمن آل فرعون ، الذي قال : ﴿اتقوا الله أن يقول ربي الله﴾ وعلي بن أبي طالب ، وهو أفضلهم ﴿قال المحقق ما ملخصه : رواه أبو نعيم في كتاب معرفة الصحابة ، ورقة ٢٢ ، نسخة قديمة في تركيا ، ورواه عنه السيوطي في الجامع الصغير ٨٣/٢ ، ورواه أيضا عنه في الفتح الكبير ص ٢٠٢ ، والسيوطي في المسلول ص ٤٩ ، ورواه عنهم ، وعن مصادر كثيرة أخر ، في إحقاق الحق ٥/٥٩٩ ، ٦٠١ ، ورواه أيضا تحت الرقم ٨٠٩ ج ٢ ص ٢٨٢ ط ١ بمغايرة جزئية ، وروي بعده أيضا ما في معناه .

ورواه أيضا في الباب ٤٢ من كفاية الطالب ص ١٢٤ ، وقال : أخرجه محدث الشام في تاريخه عن أبي نعيم ، وألحقه بحقيقته في الحاشية في آخر الجزء التاسع والأربعين بعد الثلاثمائة .

ورواه .. عن كنز العمال ١٥٢/٦ نقلا عن الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ، وعن فيض القدير ١٣٥/٤ ، والصواعق ص ٧٢ ، وذخائر العقبى ص ٥٨ ، والرياض النضرة ١٥٨/٢ ، وتاريخ بغداد ٥٥/١٤ ، قال السيد المحمودي : وأقول : ورواه في الحديث ٩٣٩ من كتاب شواهد التنزيل ٢٢٥/٢ بخمسة أسانيد ، ورواه بأسانيد كثيرة

وأما الشهداء : فهم الذين قتلوا في سبيل الله ، وقيل : الأنبياء ، وهذا كقوله : ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ .
وعلى القول الثاني قوله : ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ عطف على الآية الأولى ، والتقدير إن الذين آمنوا بالله ورسوله هم الصديقون ، وهم الشهداء ، أي : لهم مثل أجر الصديقين والشهداء^(١) ومثل نورهم ، والمراد بنورهم هو المذكور في قوله : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ .

فإن قلت : كيف سوى بينهم في الآخرة ولا بد من التفاوت ؟ قلت : المعنى أن الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه بفضله حتى يساوي أجرهم مع إضعافه أجر أولئك ، أي : أجرهم المستحق من دون إضعافه ، وفي الآية كلام أكثر من هذا .
وأما على القول الأول المذكور عن ابن عباس ومسروق والقراء فهو يحتاج إلى تأويل^(٢) . اهـ

في الباب ١٦٥ من غاية المرام ص ٤١٧ ، وكذلك في الحديث ٨ من الفصل الرابع من مناقب الخوارزمي ص ٢٠ ، ورواه الثعلبي مرسل في الباب ٤ من كتاب قصص موسى عليه السلام من كتاب قصص الأنبياء ص ١٥٣ ، ورواه أحمد في الفضائل الحديث ١٨٤ من باب مبغض علي في الحديث ٢٣٩ منه عن ابن أبي ليلى ، ورواه عنه في الحديث الثالث من الباب ١٠١ من غاية المرام ص ٦٤٧ ، وفيه ستة عشر حديثاً بهذا المعنى من طريق القوم ، ورواه أيضاً الخوارزمي في الفصل ١٩ من مناقبه ص ٢١٩ ، والسلفي في مشيخة البغدادية ، وابن المغازلي في الحديث ٢٩٣ من مناقبه ص ٢٤٥ ط ١ . اهـ ملخصاً ، انظر ترجمة أمير المؤمنين من تاريخ ابن عساكر تحقيق المحمودي ٩١/.. ، ٩٢ .

(١) قال السيد العلوي : قوله : (لهم مثل أجر الصديقين) مؤذن بأنه لا يجوز حمل الصديقين على المؤمنين فيجب الحمل على التشبيه ، نحو زيد أسد ، وذلك أن اسم الإشارة دال أن ما بعده جدير بمن سبق ذكره لاكتسابه الخصال التي استحق بها ذلك ، ولا ارتياب أن المؤمن لا ينال درجة الصديقين الذين درجتهم دون درجة الأنبياء ، وكذا من مات حتف أنفه لا ينال درجة من استشهد في سبيل الله في صف جهاد الكفار إلا بالتشبيه ، وأن يقال : هم مثلهم وأجرهم مثل أجرهم ، لاسيما وقد وسط بين المبتدأ والخبر ضمير الفصل المفيد للحصر ، ويجوز قطع الشهداء عن هذا الحكم ، وإليه أشار بقوله ، ويجوز أن يكون الشهداء مبتدأ . قيل : وأما سؤاله كيف سوى بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت ؟ فليس بذلك لأننا إذا قلنا : إن الكلام مبني على التشبيه والإلحاق للمبالغة ترغيباً علم عدم المساواة ، وقلت : بل السؤال وارد مع التشبيه ؛ لأنهم إنما شبهوا بهم لمساواتهم لهم ، أو قربهم منهم . حاشية العلوي ٣٠٦ .

(٢) تجريد الكشف مخطوط

قلت : وهو الذي في البرهان فلا يحتاج إلى تأويل ، [ومثل هذا في البرهان]^(١) .
واعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين أتبعه بذكر حال الكافرين فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده
ما يدل على حقارة الدنيا وكمال الآخرة فقال : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ
وَزِينَةٌ﴾ لأن كلما عدا الأعمال الصالحة فهو لهو ولعب ، والمقصود الأصلي من الآية
تحقير حال الدنيا ، وتعظيم حال الآخرة فقال : الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ، ولا
شك أن هذه الأشياء أمور محقرة ، وأما الآخرة فهي عذاب شديد دائم [أ] ورضوان
الله على سبيل الدوام ، ولا شك أن ذلك عظيم .

واعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب ، ولذلك لما قال سبحانه : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾^(٢) الآية قال : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولولا أنها حكمة
وصواب لما قال ذلك ، ولأن الحياة خلقه كما قال : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾^(٣) وأنه
لا يفعل العيب على ما قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾^(٤) وقال : ﴿وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾^(٥) ولأن الحياة نعمة بل [هي] أصل لجميع النعم ،
وحقائق الأشياء لا تختلف بأن كانت في الدنيا أو في الآخرة ، ولأنه تعالى عَظَّمَ الْمُنَّةَ بِخَلْقِ
الحياة فقال سبحانه : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(٦) فأول ما ذكر من

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجود في النسخة (ب) ولفظ البرهان : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ﴾ أي : المؤمنون بتصديق الله ورسوله ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ هُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ والشهداء عند ربهم :
كلام مستأنف وهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام يشهدون على أنهم بالتصديق والتكذيب . البرهان ٣٧٠ .

(٢) البقرة : ٣٠

(٣) الملك : ٢

(٤) المؤمنون : ١١٥

(٥) ص : ٢٧

(٦) البقرة : ٢٨

أصناف نعمه هو الحياة ، فدل مجموع ما ذكرنا [على] أن الحياة الدنيا غير مذمومة بل المراد أن من صرف هذه الحياة لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذاك هو المذموم .

ثم إنه تعالى وصفها بأمور أولها : أنها لعب ، وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم ، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة ، وثانيها : أنها لهُو وهو فعل الشبان ، والغالب أن بعد انقضائه لا تبقى إلا الحسرة ، وذلك لأن العاقل بعد انقضائه يرى المال ذاهباً ، والعمر ذاهباً ، واللذة منقضية ، والنفس ازدادت شوقاً وتعطشاً إليها مع فقدانها ، فتكون المضار مجتمعة متوالية ، وثالثها : أنها زينة ، وهذه من دأب النساء ، وكان المطلوب [من الزينة] تحسين القبح . ورابعها : قوله ﴿ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ ﴾ بالصفات الفانية الزائلة ، وهو إما التفاخر بالنسب ، أو التفاخر بالقوة والقدرة والعساكر ، وكلها ذاهبة .

وخامسها قوله : ﴿ وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ قال ابن عباس : يجمع المال في سخط الله ، ويتباهي به على أولياء الله ، ويصرفه في مساخط الله ، فهي ظلمات بعضها فوق بعض . وأعلم أنه لا وجه يبتغيه أهل الدنيا يخرج عن هذه الأقسام ، وبين أن حال الدنيا إذا لم يخل من هذه الوجوه فيجب أن يعدل عنها إلى ما يؤدي إلى عمارة الآخرة ^(١) .

ثم ضرب الله لهم مثل الحياة الدنيا فقال عز وجل : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَ ﴾ قال زيد بن علي عليه السلام : معنى ﴿ يَهِيَ ﴾ ييس ^(٢) . ﴿ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ﴾ تنقلب خضرته صفرة عند ييسه ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ فتأثراً أسود لشدة ييسه ، كذلك الإنسان يهرم ثم يموت [ثم يلى] ^(٣) .

(١) من قوله : (واعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب ... إلى هنا مثله في تفسير الرازي ٤٦٤/١٠ ، وما بين الأقواس منه ولفظه في بعضها : وهذا دأب النساء ؛ لأن المطلوب من الزينة تحسين القبح ، وقد استصوبنا الموجود وهي (وكان) .

(٢) إلى هنا انتهى كلام الإمام زيد بن علي عليهما السلام ، وما بعده ليس موجوداً في تفسيره .

(٣) ما بين أقواس الزيادة موجود في ب ، وساقط من أ .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : فأراد سبحانه أن مثل الحياة الدنيا كذلك تحسن في أعين أهلها ، ويعظم سرور الكفرة لذلك بجهلها ، ويفرطون في الإعجاب بخضرتها وبهجتها ، ثم تهيج وتيس ، ثم تنحطم وتتكسر ، قيل : هذه حياة الكافر في دنياه ، فأما المؤمن فحياته على العكس من ذلك ، وهذا مروي عن ابن عباس ؛ لأن حياة الكافر تنقضي في اللهو واللعب ، ويشغل في جميع حياته بالزينة الدنيوية والمفاخرة واللكاثة بالأموال التي يجمعها من غير حلها ، ومن حلها كما حكى عن قارون ﴿فخرج على قومه في زينته﴾^(١) . وقيل : المراد الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور ، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام ، وهي العذاب الشديد لمن عصى الله ، والمغفرة والرضوان لمن أطاعه .

ثم شبه حالها في سرعة تقضيها مع عدم نفعها بنبات أنبت الغيث وهو المطر ، أعجب الكفار نباته ، فبعث الله عليه عاهة أهلكته فهاج أي : ييس واصفر بعد خضرته وريبه ﴿ثم يكون حطاما﴾ فثابتا متكسرا بعد يسه .

وقيل : إن الكفار هاهنا هم الزراع الذين يكفرون الحب ويسترونه ، ويذرونه في الحرث وينقلونه ، والكفر في اللغة هو الستر ، والعرب تقول : كفرنا على المغافر بعمائنا ، تريد أنهم ستروا المغافر بعمائهم . والهاج في هذا الموضع : اليس قال الكميت :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تزل بهم روضة خضراء منه ومذنب
والكاف في قوله : ﴿كمثل غيث﴾ موضع رفع من وجهين أحدهما : أن يكون صفة لقوله : ﴿لعب وهو وزينة وتفاجر بينكم وتكاثر﴾ والآخر : أن يكون خبرا بعد خبر قاله الزجاج^(٢) .

(١) القصص ٧٩ .

(٢) الوجه الأول الجار والمجرور في محل رفع صفة لغير أن المتقدم . وعلى الوجه الثاني يحتمل أن تكون الكاف خبرا لمبتدأ محذوف ، أو الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف ، ويحتمل وجها آخر ، وهو أن تكون منصوبة على الحالية من معنى ما تقدم ، أي : ثبت لها هذه الصفات حال كونها مشبهة بغيث .

ثم إنه تعالى ذكر بعده حال الآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أراد: أن العذاب الشديد في الآخرة لأعدائه، والمغفرة والرضوان لأوليائه، فشبه^(١) حال الدنيا بلعب وهو اجتمع عليه صبيان ساعة ثم تفرقوا عنه، ثم شبه ثانيا سرعة تقضيها نبات أنبته الغيث كما تقدم، وذلك أنه لما وصف الدنيا بالحقارة وسرعة الانقضاء بين أن الآخرة إما عذاب شديد دائم، وإما رضوان وهو أعظم درجات الثواب، ثم قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: إلا انتفاع مغر، وهو انتفاع يسير كعجالة الراكب، وهي ما يتعجل من ثمرات أو سويق، أي: ما هي في جنب الآخرة إلا كذلك لمن أقبل عليها، وأعرض عن طلب الآخرة.

قال سعيد بن جبور: (الدنيا متاع الغرور إذا أهلك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة).

ثم قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بادروا وأسرعوا وحثوا وعجلوا ولا توانوا ولا تفقوا، المراد كأنه تعالى قال: لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم في غير ما أنتم عليه، بل احرصوا أن تكون مسابقتكم في طلب الآخرة.

واعلم أنه تعالى لما أمر بالمسارعة في قوله: ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ شرح هاهنا كيفية المسارعة فقال: ﴿سَارِعُوا﴾ مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار، ولا شك أن المراد منه المسارعة إلى ما يوجب المغفرة، فقال قوم: المراد سابقوا إلى التوبة، وقال آخرون: المراد سابقوا إلى سائر ما كلفتم به فدخل فيه التوبة، وهذا أصح لأن المغفرة والجنة لا ينالان إلا بالانتهاء عن جميع المعاصي، والاشتغال بكل الطاعات، وقد نبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأفضل من المسابقة إلى المغفرة بما رواه عاصم بن ضمرة عن علي عليه السلام قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا تقرب الناس إلى

(١) المراد به هنا تشبيه التمثيل، أي: الاستعارة التمثيلية، فهو تمثيل للحياة الدنيا في سرعة انقضائها وقلة جذواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى، وأعجب به الحراث، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطانا.

خالقهم بأنواع البر، فتقرب إليه بأنواع العقل^(١)، تسبقهم بالدرجات والزلف عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة.

وقد فسر معنى هذا علي عليه السلام بما رواه عنه عاصم بن ضمرة أيضا قال: قال علي بن أبي طالب (والله لقد سبق إلى جنات عدن أقوام فما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياما ولا حجا ولا اعتقارا ولكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منهم القلوب وخشعت منهم الجوارح واطمأنت منهم النفوس ففاتوا الخليفة برفيع الدرجات وعظيم المنزلة عند الله في الآخرة). اهـ

ودلت هذه الآية على أن الأمر يفيد الفور، ودلت على وجوب المسارعة فوجب أن يكون التراخي محظورا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال في آل عمران: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٢) ففيه أقوال:

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد سبحانه: أن الجنة في السعة والانبساط كعرض السموات والأرض في هذه الحياة الدنيا، والعرض هاهنا: هو السعة قال الشاعر:

كأن بلاد الله وهي عريضة
على الخائف المطلوب كفة حائل

وذلك أن الأرض تمد يوم القيامة حتى تكون كعرض سموات الدنيا وأرضها. اهـ
وقيل: أي: كعرض سبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضهم ببعض، وذكر العرض دون الطول ليدل على أنه أبسط، لأن ماله عرض وطول فعرضه أقل.

وقال الزجاج: إن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع في نفوسهم وأفكارهم، وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض^(٣).

(١) سيأتي تفسير التقرب بالعقل في الرواية الثانية الآية قريبا عن عاصم بن ضمرة أيضا.

(٢) آل عمران: ١٣٣.

(٣) يعني أنه كناية عن اتساع الجنة، فكما أننا نحس اتساع الأرض والسماء، فكذلك الجنة، فشبهت الجنة في اتساعها بالشيء المشاهد المحسوس في سعة، وهو السماء والأرض، وقد سألني بعض إخواننا الأساتذة المصريين في جامع بـ

قلت : ومما يؤيد القول الأول قول المرتضى عليه السلام وقد سأل سائل عن معنى هذه الآية: أَمَثَلُ هو أم حق ؟ قال عليه السلام : بل هو حق كما أنكم تنطقون .

فأخبر سبحانه وجل عن كل شأن شأنه أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض . قال عليه السلام : فإن قال قائل : فإذا كانت كذلك فهي أوسع من هذه الدنيا ؟ قيل له : ألا تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مَدَّتْ﴾ ومعناه أي : بسطت وزيد فيها مثلها ؛ لأن السماء والأرض في الطول والعرض سواء وذلك قول الله سبحانه في كتابه : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾^(١) فلما أن كانت على قدر الأرض صارت سقفا لها ، ولو كانت السماء أمدًا من الأرض لكانت على غير الأرض سقفا ، وليس شيء بعد الأرض توقع عليه ، ولا يقال به ، فسماء الآخرة كما ذكر الله سبحانه كعرض السماء والأرض ، والأرض فتمد حتى تكون كمثليها كما ذكر الله سبحانه من فعله فيها ، وما تصير إليه من حالها^(٢) . اهـ

ومعنى قوله : ﴿أَعَدْتُ﴾ أي : هيأت ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ﴾ أي : الموعود من المغفرة والجنة ﴿فَفَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ مِنَ يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون .

عند رحلتنا إلى هناك عن معنى هذه الآية ، وقال : إذا كانت مثل السموات والأرض فأين هي السموات والأرض ؟ فأجبت بما ذكرنا .

(١) الأنبياء : ٣٢ .

(٢) يريد الإمام المرتضى عليه السلام أن هذه الآية تدل على اتساع الجنة أولا ، وثانيا : تدل على أن السماء سيزداد اتساعها في الآخرة ، لأن الله قد أخبر عن الجنة بأنها كعرض سماء الدنيا وأرضها ، فلا بد أن تسع السماء في الآخرة لتكون شاملة للجنة ، وكذلك الأرض ستمد أيضا ، ولكن من المعلوم أيضا أن النار أيضا لا بد من مكان لها ، وأن السماء ستكون شاملة لها ، فالظاهر أن المراد به ما ذكرناه من أنه كتابة عن اتساع الجنة بما يعقله المخاطبون ويشاهدونه وأما الاستدلال بقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ بأن السماء على قدر الأرض ، ولذا صارت سقفا لها ، وأن السقف لا بد أن يكون على مقدار ما هو سقف له فقط ، ففيه نظر ، وليس ثم ما يمنع أن تكون السماء سقفا للأرض ولغيرها كما هو معلوم مشاهد . والله أعلم .

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وفضل الله الجنة التي وصفها في هذه الآية ، والمراد منه التنبيه على عظم جلال الجنة ، وذلك لأن ذا الفضل العظيم إذا أعطى عطاء مدح به نفسه ، وأثنى بسببه على نفسه — فإنه لا بد وأن يكون ذلك العطاء عظيماً .
ثم أخبر سبحانه عن علمه بالغيوب مما هو كائن فقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ فمصيبة الأرض : القحط والجذب والغلاء ، وما في الأنفس : الأمراض والأوصاب والقتل والموت ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي : في علم محفوظ ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ من قبل أن نخلق الأنفس والأرض .
ويحتمل وجهاً آخر : يعني من قبل أن نخلق المصائب ذكره في البرهان (١) .

قال محمد بن القاسم بن إبراهيم عليها السلام : سألت أبي رحمه الله عليه عن تفسير هذه الآية ؟ فقال عليه السلام : فالمصيبة في الأرض : فهو ما تكون في الأرض عامة ، والمصيبة في الأنفس فهو : ما يكون في الأنفس خاصة ، والكتاب فهو علم الله بذلك كله وما أحاط بالأرض والأرض يقينا من علمه ، فكل ذلك كما قال الله لا شريك له : لا يؤوده منه علم ما علم ، وقوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ فهو : من قبل أن نخلق الأنفس وإنشائها . اهـ
ثم أخبر سبحانه ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : هين سهل لا يمتنع عليه ، ولا يعجز منه ، بل هو عالم به وبغيره لأي : غيب عنه وإن كان على العباد عسير .

ثم علل ذلك وبين وجه الحكمة فيه فقال: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا﴾ أي : تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ من خيرها ؛ لأن من علم أنما عنده مفقود لا محالة لم يشتد حزنه عند فقده ؛ لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذا من علم أن بعض الخير واصل إليه لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نياله ، ولا ينبغي الفرح إلا عند توفيق الله لطاعته وعصمته من معصيته ، والمراد النهي عن الحزن المخرج صاحبه عن الصبر

(١) من قوله : فمصيبة الأرض : القحط .. إلى قوله : من قبل أن نخلق المصائب . موجود في البرهان بلفظه (٣٧٠)

والتسليم لأمر الله ، والنهي عن الفرح المطغى الملهي عن الشكر ، فأما ما لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى ، والاعتداد بها فلا بأس بذلك وقَلَّ من يملك نفسه عن ذلك .

وفي معنى هذه الآية يقول أمير المؤمنين وإمام المتقين ، وسيد الوصيين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه : (الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه).

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : (يريد عز وجل أنه نزل هذه المصائب التي ذكرها ؛ لئلا يفرط العباد في السرور والفرح بنعيم الدنيا ، وليزهدوا في ذلك عند ذكرهم المصائب والفناء ، ولئلا يأسوا ولا يحزنوا على ما فاتهم من حطام هذه الدنيا ، ولم يرد الله النهي عن فرح المسلمين برزقه ، وإنما ذكر الله زهدهم بالمصائب لعلمه أنهم يحتاجون إلى الزهد عند الموت وذكره).

قال زيد بن علي عليه السلام في تفسيره لهذه الآية : (ليس من أحد إلا ويحزن ويفرح ، ولكن من أصابه خير فليجعله شكرا ، ومن أصابته مصيبة فليجعلها نصرا) ^(١) .

وفي البرهان ﴿على ما فاتكم﴾ يعني : من العافية والدنيا التي لم تقدر لكم لاقتضاء مصلحتكم ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ من العوافي والنعم التي لا توجب الفرح بها لفنائها وقلة بقائها ^(٢) .

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ أي : يبغض ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ معجب متكبر ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس ؛ لأن من فرح بحظ من الدنيا ، وعظم في نفسه افتخر على الناس .

(١) تفسير الإمام زيد بن علي عليها السلام ٣٢٥ .

(٢) انظر البرهان ٣٧٠ ، وقال بعد قوله : وقلة بقائها : وليس أحد إلا يفرح ويحزن ، ولكن الثواب لمن جعل المصيبة نصرا ، والخير شكرا .

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من ﴿كُلِّ مَخْتَالٍ فَجُورٍ﴾ كأنه قال: لا يحب المختال، ولا يحب الذين يخلون، يريد: الذين يفرحون بالفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبه وعزته عندهم يخلون به، ولا يكفهم أنهم يخلون به بل يأمرون الناس بالبخل به، وكل ذلك نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته

قال في البرهان: وهذه الآية نزلت في اليهود بخلوا بما في التوراة بما في صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأمروا الناس بكتمانه، وهي عامة في كل من كان عنده حق لله عز وجل فبخل به^(١). اهـ

قيل: وعلى هذا القول ﴿الذين يخلون﴾ كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله، وهو مبتدأ وخبره محذوف دل عليه قوله: ﴿وَمَنْ يَقُولُ﴾ أي: يعرض عن أوامر الله ونواهيه، ولم ينته عن الأسى على الفاتت، والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عنه وعن أمثاله ﴿الْحَمِيدُ﴾ أي: المستوجب للحمد، وإن لم يحمد.

قرأ نافع وابن عامر (فإن الله الغني الحميد) وحذفوا لفظة هو، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقون (هو الغني الحميد) معناه: أن الله غني فلا يعود عليه ضرر ببخل ذلك البخيل.

ثم أخبر سبحانه عن إرسال رسله إلى خلقه فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الحجج المعجزات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الوحي ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يريد: الكتاب والعدل، فالميزان: هو العدل ليقوموا به، ذكره زيد بن علي عليه السلام في تفسيره^(٢).

(١) البرهان ٣٧٠.

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام ٣٢٥.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ولكنه ضرب الميزان مثلاً لما أن كان الميزان مستقيماً معتدلاً ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يريد ليعملوا بالعدل والإحسان ، وليقوموا بما افترض عليهم من الأديان ، ويهربوا إليه بطاعته من النيران . اهـ

وقيل : الميزان الذي يوزن به ، وقيل : المراد إنزال الوحي الذي هو أمر باستعماله ، والقسط والإقساط : هو الإنصاف ، والعاذل : مقسط ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمَقْسُطِينَ﴾^(١) والقاسط : الجائر قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ يريد : خلقناه وأظهرناه ، ولا فرق بين أنزلنا وفعلنا ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام ، ومثله عن الحسن^(٣) ، وقيل : نزل به آدم من الجنة ، قيل : نزل ومعه خمسة أشياء من حديد — السندان^(٤) أي : السفلة ، والكلبتان ، والميقعة ، والمطرقة ، والإبرة .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد ، والنار ، والماء ، والملح) .

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ قال في البرهان : يعني أن بسلاحه وآلته تكون الحرب التي هي بَأْسٌ شديد^(٥) . اهـ

والبأس : العذاب ، جعل القتال به كالعذاب الشديد للمقاتل به ؛ لأن أكثر ما يقع القتل بالحديد .

(١) الحجرات : ٩٠

(٢) الجن : ١٥

(٣) الحسن : المراد به الحسن البصري ، وكلما أطلق فالمراد به هو .

(٤) في (أ) السنبان ، وفي (ب) السندان .

(٥) لفظ البرهان : قوله عز وجل : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني : أظهرناه وأنزلناه ، والثاني : أن يكون محمولاً على أن الماء منزل من السماء فينعد في الأرض جوهر فيصير بالسبك حديداً ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني : أن بسلاحه وآلته تكون الحرب التي هي بَأْسٌ شديد . انظر البرهان خ ٣٧٠ .

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم ومعاشهم ، وما يدفع عنهم دروع الحديد من الأذى ، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها كآلة الحائك .

قال الرازي : وأكثر مصالح العالم لا تتم إلا بالحديد ، ويظهر أن الذهب لا يقوم مقام الحديد في شيء من هذه المصالح ، فلو لم يوجد الذهب في الدنيا ما كان يختل شيء من مصالح الدنيا ، ولو لم يوجد الحديد لاختل جميع مصالح الدنيا ، ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة جعله سهل الوجدان كثير الوجود ، والذهب لما قلت الحاجة إليه جعله عزيز الوجود ، وعند هذا يظهر أثر جود الله ورحمته على عبده ، فإنما كانت حاجتهم إليه أكثر جعل وجدانه أسهل ، ولهذا قال بعض الحكماء : إن أعظم الأمور حاجة إليه هو الهواء ، فإنه لو انقطع وصوله إلى القلب لحظت لمات الإنسان في الحال ، فلا جرم جعله الله أسهل الأشياء وجدانا ، وهما أسباب التنفس وآلاته ، حتى إن الإنسان يتنفس دائما بمقتضى طبعه من غير حاجة فيه إلى تكلف عمل ، وبعد الهواء الماء إلا أنه لما كانت الحاجة إلى الماء أقل من الحاجة إلى الهواء جعل تحصيل الماء أشق قليلا من تحصيل الهواء ، وبعد الماء الطعام ، ولما كانت الحاجة إلى الطعام أقل من الحاجة إلى الماء جعل تحصيل الطعام أشق من تحصيل الماء ، ثم تتفاوت الأطعمة في درجات الحاجة والعزة ، فكلما كانت الحاجة إليه أشد كان وجدانه أسهل ، وكلما كان وجدانه أعسر كانت الحاجة إليه أقل .

والجواهر لما كانت الحاجة إليها قليلة جدا [لا جرم] كانت عزيزة جدا ، فعلمنا أن كل شيء كانت الحاجة إليه أكثر كان وجدانه أسهل ^(١) قال الشاعر :

سبحان من خص الفلز بعزه والناس مستغنون عن أجناسه
أذل أنفاس الهوا وكل ذي نفس فمحتاج إلى أنفاسه اهـ ^(٢)

(١) في الرازي زيادة بعد قوله : (أسهل) ما لفظه [ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله تعالى أشد من الحاجة إلى كل شيء فرجو من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا] ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة ، وقد أصلحنا اللفظ منه . أنظر تفسير الرازي ٢٩/٢٤٢ .

ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح ، وسائر السلاح المصنوع منه في مجاهدة أعداء الله ، والمراد بنصر الله : نصر دينه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: نصر الله فيما غاب عنهم من الوعد والوعيد ، فيعلم تعالى من ينصره ، وينصر أنبياءه ، ويقاتل وينابذ في الدين أعداءه ، ويعز بجهدته وصبره أوليائه ، مع ما يشاهد في ذلك من حر الجلال ومفارقة الوطن والأهل والأولاد ، والحن والسير في أقطار البلاد ، ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام^(١)

وقيل : المراد بالغيب حال كون الله غائبا عن الناظرين ، ينصرونه ولا يبصرونه ، قاله ابن عباس ، وأراد بالعلم : المعلوم ، فكأنه تعالى قال : وليقع نصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن ينصره ، ولما كانت النصره قد تكون ظاهرة كما تقع من منافق ، أو ممن مراده المنافع في الدنيا ، بين تعالى أن إرادة النصره بالغيب ، ومعناه : أن يقع عن إخلاص القلب ثم بين تعالى أنه قوي على الأمور فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي : غالب ، يريد : أنه غني عنهم بقدرته على من يريد إهلاكه ، لكن عرضهم للثواب بالتكليف بالجهاد . وأعلم أنه تعالى لما ذكر أنه نصر الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرتهم — أتبع ذلك ببيان سائر الأشياء التي أنعم بها عليهم فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فبين تعالى أنه شرف نوحا وإبراهيم عليهما السلام بالرسالة ، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ، فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما ، وإنما قدم النبوة على الكتاب لأن كمال حال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع .

ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي : الذرية ، أو المرسل إليهم ﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي : أتبعنا ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي : الرسل الأولين

(٢) تفسير الرازي ٢٤٢/٢٩ ، ٢٤٣ وفي الرازي سبحانه من خص العزيز بعزه . وما بين الأقواس من الرازي .

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليهما السلام في أوائل هذه السورة .

﴿بُرْسُلَنَا﴾ أي : برسل آخرين ﴿وَقَفَيْنَا﴾ معناه : أتبعنا في آثارهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصه بالذكر لإرادته ذكر قصته ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ الإنجيل اسم عجمي ، والمراد : أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى بن مريم عليه السلام فأرسله بعدهم ، وآتاه الإنجيل .

ثم قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي : وقفيناهم لأن يتراحوا ، ويرأف بعضهم على بعض ، والرأفة : شدة الرحمة ، والمراد : أنهم متوادون فيما بينهم كما في صفة المؤمنين ، رحماء بينهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي : ترهبهم فارين من الفتنة في الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، متحملين كلفا زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم ، من الخلوة واللباس الخشن ، والاعتزال عن النساء ، والتعبد في الغيران والكهف ، والرهبانية : الفعل المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف ، من رهب ، نحو خشيان من خشى ، وقرئ (رهبانية) بضم الراء منسوبة إلى رهبان جمع راهب ^(١) نحو ركبان جمع راكب .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ هو : أنا جعلنا في قلوبهم ذلك بأمرنا ، وهذا جعل أمر وليس يجعل خلق ولا حتم ولا جبر ، بل جعلها في قلوبهم بالحكم والأمر بها ، والترغيب فيها ^(٢) .

(١) فيه إشكال فالنسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول حتى يرد إلى المفرد ؛ إلا أن يقال : لما صار الرهبان طائفة مخصوصة صار هذا الاسم وإن كان جمعا يكون مفردا . ذكره الراغب . (حاشية العلوي) قال الراغب : (٣٦٧) والرهبانية : غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة ، قال : ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبان يكون واحدا وجمعا ، فمن جعله واحدا جمعه على رهابين ، ورهبانية بالجمع أليق . وقال في القاموس : أو الرهبان بالضم قد يكون واحد وجمعه رهبانين ورهبانية ، ورهبانون .

(٢) ليس في هذه الآية ما يمنع من كون الجعل بمعنى الخلق ، ولا سيما أن الأمر بالرأفة والرحمة ليس مخصوصا بالمؤمنين ، بل الكل مأمور به ، ويمكن أن الذي ألجأ الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام إلى هذا الكلام هو عطف ورهبانية على ما قبله ، فكيف يعطف ما نسبته الله إلى العبد بقوله : ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ على ما هو من جعل الله وخلقه ، ولهذا نحا

ثم قال عز وجل : ﴿ مَا كُتِبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان : —

أحدهما : أنه استثناء منقطع ، أي : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله .

الثاني : أنه استثناء متصل ، والمعنى : أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى ^(١) ، والمراد أنها ليست واجبة ، ولم يعن تعالى بـ ﴿ ابْتَدَعُوا ﴾ طريقة الذم ، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ، ونذروها .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : الرهبانية مأخوذ من الرهبة لمولانا الجليل بالنوافل ، والتقرب إليه بالفعل النبيل والفكر ، ثم الذي ابتدعوه من الخفيل ، ولم يكلفهم الله كل ذلك في التنزيل ، ومعنى ﴿ مَا كُتِبْنَا عَلَيْهَا ﴾ يريد : ما فرضنا عليها ، ولكن ذلك ابتغاء رضوان الله ربهم ، والتقرب إليه بنوافلهم .

ثم رجع إلى تعنيف هؤلاء الذين من بعدهم من خلفهم وذريتهم فقال عز وجل : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ يريد : فما حفظوا تلك الأفعال حقيقة حفظها ، ولا عملوا بعد إيمانهم بها ^(٢) . اهـ

قال في التجريد : وذلك أن الجبارة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى ، فقاتلهم ثلاث مرات ، فقتل المؤمنون وبقي منهم القليل ، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فقالوا : تعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث النبي الذي وعدنا به عيسى ، فتفرقوا في غيران

الزعشري وأبو علي الفارسي والمعتزلة إلى أنها منصوبة بفعل مقدر يفسره الظاهر ، فتكون المسألة من باب الاشتغال ، وقال أبو البقاء : ورهبانية هو منصوب بفعل دل عليه ابتدعوها لا بالعطف على الرحمة ، لأن ما جعله الله لا يتدعونه ، وقيل : هو معطوف عليها ، وابتدعوها : نعت له ، والمعنى : فرض عليهم لزوم رهبانية ابتدعوها . (إعراب القرآن ٤٧٧/٩ ، ٤٧٨ .)

(١) فأعراب ابتغاء على الوجه الأول استثناء منقطعا ، وإلا أداة استثناء . وتكون بمعنى لكن . وعلى الوجه الثاني : تعرب ابتغاء مفعولا لأجله ، وإلا أداة حصر ، والمعنى : ما كُتِبْنَا عَلَيْهَا شيء من الأشياء إلا لابتغاء مرضاة الله ، وقد اكفى الزعشري بالوجه الأول .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العباسي عليها السلام أول هذه السورة .

الجال ، وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من صبر على دينه ، ومنهم من لم يصبر وكفر ، رواه ابن مسعود . [ثم قال فيه : يحتمل عطف رهبانية على مفعول جعلنا ، أي : وفقناهم لها ولابتدائها ، ما كتبناها عليهم إلا ليبغوا بها رضوان الله ، وذلك لأنها هجرة يتخلصون بها من الفتنة ﴿فما رعوها﴾ أي : فما حفظها من ضيعها منهم ، وهم الذين لم يصبروا عليها وتركوها] ^(١) .

﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين رعوها حق رعايتها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوها .

وقيل : ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ محمد منهم ﴿أجرهم﴾ وهم الذين آمنوا في وقت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم الذين آمنوا في الحبشة ، وجماعة من الروم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ، وجاء هذا في خبر مرفوع .

وقال الرازي : (أما قوله : ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ ففيه أقوال — أحدها : أن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية ما رعوها حق رعايتها ، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد ، وأقام أناس منهم على دين عيسى ، حتى أدركوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فآمنوا به فهو قوله : ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

وثانيها : أن ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله ، ثم إنهم أتوا بتلك الأفعال ، لكن لا لهذا الوجه ، بل لوجه آخر ، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة . وثالثها : أنه لما كتبناها عليهم تركوها فيكون ذلك ذما لهم من حيث أنهم تركوا الواجب .

ورابعها : أن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ولم يؤمنوا به ، وقوله : ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي : [الذين] آمنوا بمحمد

(١) ما بين قوسي الزيادة ، ساقط من النسخة (أ) وثابت في النسخة (ب) .

﴿وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني : الذين لم يؤمنوا به ، ويدل على هذا ما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : (من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم المالكون) .

وخامسها : أن الصالحين من قوم عيسى عليه السلام ابتدعوا الرهبانية وانقرضوا عليها ، ثم جاء بعدهم قوم اقتدوا بهم في اللسان ، وما كانوا مقتدين بهم في العمل ، فهم الذين ما رعوها حق رعايتها ، قال عطاء : لم يرعوها كما رعاها الخواريون ، ثم قال : ﴿وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ والمعنى : أن بعضهم [قام]^(١) برعايتها ، وكثير منهم أظهر الفسق ، وترك [تلك] الطريقة ظاهراً وباطناً^(٢) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي : خافوا عقابه ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ يعني : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

اعلم أنه لما قال في الآية الأولى ﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : من قوم عيسى ﴿أَجْرَهُمْ﴾ قال في [هذه] الآية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمراد به أولئك ، فأمرهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم قال تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم أولاً بعيسى ، وثانياً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ عن ابن عباس أنه نزل في قوم جاؤا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول وأسلموا ، فجعل لهم أجرين . والكفل في اللغة : النصيب .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي : يعطيكم أجرين ونصيبين من نعمته ، نصيب في الدنيا للمعونة على طاعته ، ونصيب في الآخرة من مغفرته .

(١) في الأصل (أخَّل برعايتها) وفي الرازي (قام برعايتها) . فأتينا ما في الرازي .

(٢) انظر الرازي التفسير الكبير ٢٩/٢٤٦/٢٤٧ . وما بعده أيضاً مثله في الرازي بلفظه إلى قوله .. فجعل الله لهم أجرين . وقد أصلحنا بعض الألفاظ من الرازي ، فليعلم .

ويحتمل أن يكون الكفل الأول هو التوفيق والتسديد والخيرة منه والعون والتأييد ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا﴾ يوم القيامة ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ إلى الجنان قيل : والنور : هو المذكور في قوله : ﴿يَسْعَى نورهَم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد يجعل لكم هدى تمشون به إلى الجنان ، وتسيرون به في طلب النجاة والرضوان ، والرحمة من الله الواحد الرحمن . اهـ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يتعاضم عليه ما وعدكم به من المغفرة إذا امتثلتم أمره ، ويجوز أن يكون خطابا لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وآله من غير أهل الكتاب ، والمعنى : اتقوا الله واثبتوا على الإيمان يؤتكم الله ما وعد من آمن بمحمد من أهل الكتاب من الكفار الكفيلين في قوله : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾^(١) .

﴿لَا يَلْمِزُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ (لا) زائدة . والمعنى : ليعلم أهل الكتاب ، الذين لم يسلموا ﴿أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أصله : أنه لا يقدرُونَ ، أي : الشأن لا يقدرُونَ ﴿على شيء﴾ أي : لا ينالون شيئا مما ذكر من الكفيلين والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله ، ولم ينفعهم إيمانهم . عن قتبه ، وإنما الكفلان لمن آمن من أهل الكتاب بمحمد ، لأنه لم يحبط إيمانه الأول ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي : في ملكه وتصرفه ، واليد : مثل في الملك لأن أبلغ الملك وأخصه بالمالك ما قبض باليد ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ولا يشاء أن يؤتيه إلا من يستحقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والعظيم لا بد وأن يكون إحسانه عظيما ، والمراد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نبوته وشرعه وكتابه . قال الرازي : قال الواحدي : هذه آية مشككة ، وليس للمفسرين

فيها كلام واضح في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها .

(١) القصص : ٥٤ .

واعلم أن أكثر المفسرين على أن (لا) هاهنا صلة زائدة ، والتقدير : ليعلم أهل الكتاب . وقال أبو مسلم الأصفهاني وجمع آخرون : هذه الكلمة ليست زائدة . ونحن نفسر الآية على القولين بعون الله وتوفيقه ، أما القول المشهور : وهو أن هذه اللفظة زائدة ، فاعلم أنه لا بد هاهنا من تقديم مقدمة ، وهي أن أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل كانوا يقولون : الوحي والرسالة فينا ، والكتاب والشرع ليس إلاننا ، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين . إذا عرفت [هذا] فنقول : إنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ووعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان — أتبعه بهذه الآية ، والغرض منها [أن يزيل] عن قلوبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة إلا في قومهم فقال : إنما بالغنا في هذا البيان ، وأطيننا في الوعد والوعد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على تخصيص فضل [الله] بقوم معينين ، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً . أما القول الثاني : وهو أن لفظة (لا) غير زائدة ، فاعلم أن الضمير في قوله : ﴿ألا يقدرُونَ﴾ عائد إلى الرسول وأصحابه ، والتقدير : لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله ، فإنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرُونَ عليه ، فقد علموا أنهم يقدرُونَ عليه . ثم قال : ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ أي : وليعلموا أن الفضل بيد الله ، فيصير التقدير أننا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرُونَ على حصر فضل الله وإحسانه في أقوام معينين ، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله ^(١) . اهـ

والله أعلم

(١) انظر تفسير الرازي ٢٩/٢٤٧، ٢٤٨ . وما بين الأقواس تصحيح من الرازي . وقال بعده : واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا أنا أضمرنا فيه زيادة ، فعلنا في قوله : ﴿وأن الفضل بيد الله﴾ تقدير : وليعتقدوا أن الفضل بيد الله . وأما القول الأول ، فقد افتقرنا فيه إلى حذف شيء موجود ، ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف ؛ لأن الكلام إذا افتقر إلى الإضمار لم يوهم ظاهره باطلاً أصلاً ، أما إذا افتقرنا إلى الحذف كان ظاهره موهماً للباطل ، فعلمنا أن هذا القول أولى ، والله أعلم .

سورة الواقعة

تسع وتسعون آية (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قال الهادي إلى الحق عليه السلام: الواقعة: فهي الساعة^(١) النازلة، والقيامة الواقعة بأهلها^(٢) ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يقول: ليس لنزولها ووقوعها بهم كاذبة.

(١) في نسخة: فهي السابقة النازلة.

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام من تفسيره لهذه السورة (٣١٩/٣٢٣) ما لفظه:

أخبرنا أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آتاه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ فالواقعة: هي القيامة، وكذلك الآزفة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَجََّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ اضطربت وتحركت.

وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ أي: خلطت، والمبسوس: المبلول، والهباء: الغبار الذي تراه من الشمس في الكوة، ويقال: الغراب الذي يكون على إثر الدواب، والمنبث: المتفرق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشَاةِ﴾ أي: أصحاب الميسرة.

وقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: جماعة. وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرَرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ معناه: مزمولة بالذهب.

وقوله تعالى: ﴿مَتَكِينٍ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ معناه: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض أينما شاؤوا تقابلوا.

وقوله تعالى: ﴿وُلَدَانِ مَخْلُودِينَ﴾ معناه: شباب لا يموتون.

وقوله تعالى: ﴿يَا كُؤَابَ وَأَبَارِيقَ﴾ فالأكواب: الأباريق التي لا عري لها، واحدها كوب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ﴾ فالكأس: الإناء بشرابه، ولا يسمى إلا به، والمعين: الخمر.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ أي: لا تصدع رؤوسهم، ولا ينزفون: أي: لا يسكرون.

وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ فالحور: السواد الخدق. ويقال: الحور: الذي يحار فيه الطرف.

والكاذبة : فهي الباطلة الدافعة لما يهجم منها زائلة عمن يقصد بهولها ، تقول العرب للشيء المصمم الواقع : أتى غير مكذب حتى وقع به ، وتقول : ما كذب حتى أصابه ، أو حتى ضربه ، تريد ما انصرف ولا التوى ولا عوج ولا عرج حتى وقع بما أراد أن يقع به . اهـ
قال في التجريد : ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ هو كقولك : إذا حدثت الحادثة . والمراد القيامة ، وصفت بالوقوع ، لأنها تقع لا محالة ، كأنه قيل : إذا وقعت لا بد من وقوعها ، ووقوع الأمر : نزوله ، وجواب إذا إما قوله : ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ أو محذوف تقديره : وقع

وقوله تعالى : ﴿في سدر مخضود﴾ أي : لا شك لها ، ويقال : المرقر .
 وقوله تعالى : ﴿وطلح منضود﴾ فالطلح : الموز ، والطلح : العظام الكثير الشوك .
 وقوله تعالى : ﴿وظل غدود﴾ معناه : دائم . وقوله تعالى : ﴿وماء مسكوب﴾ أي : سائل .
 وقوله تعالى : ﴿فجعلناهم أبقارا عربيا أثرا﴾ فالعرب : الحسنات النبل لأرواحهن ، والأثراب : الأسنان والأمثال .
 وقوله تعالى : ﴿في سموم وحيم وظل من يحموم﴾ فاليحموم : الدخان . وقوله تعالى : ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مغرقين﴾ معناه : متكبرون .
 وقوله تعالى : ﴿يصبرون على الحث العظيم﴾ معناه : يقيمون ويدعون على الإنثم العظيم ، ويقال : هي اليمن الغموس ، ويقال : على الشرك . وقوله تعالى : ﴿فشاربون شرب الغيم﴾ معناه الإبل العطاش التي لا تروى ، وكذلك الرمل .
 وقوله تعالى : ﴿أفرأيت ما تبتون﴾ معناه من المني ، وقوله تعالى : ﴿أفرأيت ما تخرثون أنتم ترعون﴾ معناه تبتونه .
 وقوله تعالى : ﴿وتنشئكم﴾ أي : نبلكم . وقوله تعالى : ﴿أو نشاء جعلناه حطاما﴾ معناه رفات .
 وقوله تعالى : ﴿فظلمت تفكهن﴾ معناه تتعجبون ، ويقال : تتلامون ، ويقال : تندمون ، وهي لغة لعكل وميم .
 وقوله تعالى : ﴿إنا لمغرمون﴾ معناه معذبون . وقوله تعالى : ﴿أنتم أنزلتموه من المزن﴾ معناه السحاب .
 وقوله تعالى : ﴿أو نشاء جعلناه أجاجا﴾ معناه : مالح أشد ما يكون الملوحة .
 وقوله تعالى : ﴿أفرأيت النار التي تورون﴾ أي : تسحرون ، يقال : أوريت ، ووريت .
 وقوله تعالى : ﴿ومتاعا للمقوين﴾ معناه الذين لا زاد معهم ، ويقال : للمسافرين والحاضرين .
 وقوله تعالى : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ معناه : أقسم بالقرآن نزل نجوما متفرقا ثلاث آيات أو أربع أو خمس آيات .
 وقوله تعالى : ﴿لا يمس إلا المطهرون﴾ معناه الملائكة الموكلون باللوح المحفوظ الذين طهروا من الشرك ، وقال : لا يمس طعم القرآن ونفقه إلا من آمن به . وقوله تعالى : ﴿أنتم مدهون﴾ أي : مدهونون بما لزمهم .
 وقوله تعالى : ﴿ويجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ معناه يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، والرزق : الشكر .
 وقوله تعالى : ﴿غير مدنين﴾ معناه : غير مجزين .
 وقوله تعالى : ﴿فروح وريحان﴾ معناه : برد وهو الاستراحة ، والريحان : معناه حياة وبقاء ورزق .

الجزاء ، أو خفضت ناسا ورفعت آخرين^(١) . اهـ .
وانتصب إذا محذوف تقديره كان من الأهوال مالا يوصف ، أو بليس كقولك : يوم الجمعة ليس لي شغل^(٢) و﴿كاذبة﴾ صفة لمحذوف أقيمت مقامه ، تقديره : ليس لها نفس تكذب ، أي : لا يكون حين تقع القيامة نفس تكذب على الله في تكذيب البعث ، لأن كل نفس ذلك اليوم صادقة مصدقة ، وأكثر النفوس كواذب مكذبات ، قال في البلغة : كاذبة مصدر مثل العافية ، أي : ليس لوقعة القيامة مرد ولا تكذيب ولا مثنوية ؛ لأنها كائنة لا محالة .
قال في التجريد : وفي المعنى على هذا قولان : أحدهما — ليس لها رجعة ولا ارتداد ، من قولهم : حمل على قرنه فما كذب ، أي : فما جبن وما تبط ، وهو معنى قول قتادة .
والثاني : ليس الإخبار عن وقوعها كذبا ، قاله الواحدي ، واللام في لوقعتها للتعليل ، أوليس لها نفس تكذبها ، وتقول لها : لم تكوني ، كما لها اليوم نفوس كثيرة تكذبها اهـ .

(١) ذكر في إعراب القرآن أن في إذا أوجه ١ — ظرف محض ليس فيها معنى الشرط ، والعامل فيها ما في ليس من معنى النفي ٢ — أن العامل فيها اذكر مقدرا . ٣ — أنها شرطية وجوابها مقدر ، أي : إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت ، وهو العامل فيها ٤ — أنها شرطية والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويلها ، وهو اختيار أبي حيان ، وتبع في ذلك مكي ، قال مكي : والعامل فيها وقعت لأنها قد يجازى بها ٥ — أنها مبتدأ وإذا رجت خبرها ، وهذا على القول إنها تصرف . ٦ — أنها ظرف لخافضة رافعة ، قاله أبو البقاء ، أي : إذا وقعت خفضت ورفعت ٧ — أنها ظرف لرجت ، وإذا الثانية إما بدل من الأولى أو تكرير لها ٨ — أن العامل فيها ما دل عليه قوله : ﴿فأصحاب المينة﴾ أي : إذا وقعت باتت أحوال الناس فيها ٩ — أن جواب الشرط قوله : ﴿فأصحاب المينة﴾ ١٠ — قال الجرجاني : إذا صلة ، أي : وقعت الواقعة ، مثل ﴿اقتربت الساعة﴾ و﴿أتى أمر الله﴾ (إعراب القرآن ٩/٤٢٤ ، ٤٢٥) .

(٢) قال السيد العلوي : اعلم أن الأفعال الناقصة لا تمنع تعلق الظرف بها لدلالته على معنى الحصول ، فإذا قلت : كان يوم الجمعة زيد قائم فلا منع من تعلق الظرف بكان لدلالته على معنى الحدث ، بل هو أولى من تعليقه بخبر كان المؤخر ، فكنا ليس ؛ لأنه بمعنى ما كان ، وكنا سائر الأفعال الناقصة ، ولهذا قال من منع من تقدم خبر ليس عليها لعدم تصرفها ، وهو المبرد والمالكي : إن يوم في قوله تعالى : ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ منصوب بليس لا بمصروفا ، فكنا إذا في الآية . ويوم في التمثيل منصوبان بليس . والله أعلم (حاشية العلوي ٣٠٤) . وقد رد أبو حيان هذا الإعراب على الزمخشري ، وعلل بأن ليس في النفي كمسا وما لا تعمل ، فكذلك ليس ، وذلك أن ليس مسلوقة الدلالة على الحدث والزمان ، والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز . وذكر بأن العامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث (إعراب القرآن ٩/٤٢٣ ، ٤٢٤) .

﴿خَافِضَةٌ﴾ فهي الخافضة لمن تحفض من الخلق عن محل الثواب فتصيرهم بخفضها لهم إلى أليم العقاب ، والخفض هاهنا من باب الإطراح والقلة والذلة .
 ﴿رَافِعَةٌ﴾ فهي : رافعة للمؤمنين إلى مراتب الصالحين ، مصيرة لهم إلى رضی رب العالمين ، ذكره الهادي عليه السلام .

وفي الكشف (هي خافضة رافعة ترفع أقواما وتضع آخرين ، إما وصفا لها بالشدة لأن الوقائع العظام [كذلك] يرتفع فيها [ناس إلى مراتب] ، ويتضع [ناس] ، وإما لأن الأشقياء يحطون إلى الدرجات ، والسعداء يرفعون إلى الدرجات ، وإما لأنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضها ، وترفع بعضا) (١) . اهـ

أي : إذا وقعت الواقعة يزلزل الناس فيخفض المرتفع ، ويرفع المنخفض ، وعلى هذا فهي كقوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنَا سَاكِنِيهَا﴾ (٢) في الإشارة إلى شدة الواقعة ، إذ العذاب الذي جعل الأعمالي سافلا والسافل عاليا ، حتى تصير الأرض المنخفضة كالجبال الراسية ، والجبال الراسية كالأرض المنخفضة ، فإنه أشد وأبلغ ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ .

قال الهادي عليه السلام : (رجت : هو زعزعت للبواد [للبنوار] والفناء وارتجت ، وقلقلت للتبديل وزعزعت ، ومعنى رجا : فهو تحريكا وقلعا) (٣) . اهـ
 وفي التجريد أي : حركت تحريكا شديدا ، حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء (٤) .

(١) انظر الكشف ٤/٥٦ ، وما بين الأقواس من الكشف ، وكذلك إصلاح بعض الألفاظ .

ولفظ الأصل : وفي الكشف : أي : خافضة رافعة ترفع أقواما وتضع آخرين ، إما وصفا لها بالشدة ، لأن الوقائع العظام يرتفع بها قوم ، ويتضع ، وإما أن الأشقياء يحطون بالدرجات ويرفع السعداء إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارها فتخفض بعضها ويرفع بعضها .

(٢) في نسخة المصاييح (وجعلنا عاليها سافلها) ولا توجد آية في القرآن بلفظ وجعلنا ، والذي في القرآن آيتان أحدهما في الحجر : ٧٤ ، بلفظ ﴿فَجَعَلْنَا﴾ ، والثانية : في هود : ٨٢ ، بلفظ ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيهَا سَافِلَهَا﴾ .

(٣) ما بين القوسين إشكال في اللفظ هل البواد ، أو البنوار .

(٤) ومثله في الكشف ، وقد أصلحنا اللفظ على ما في الكشف ٤/٥٦ .

قال في الكشاف : [فإن قلت م] انتصب ﴿إذا رجت﴾ ؟ [قلت : هو] بدل من ﴿إذا وقعت﴾ ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خافضة رافعة﴾ [أي] : تخفض وترفع وقت رج الأرض ، وبس الجبال [لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرفع ما هو منخفض] ^(١) .
قال تعالى : ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿بست﴾ فهو : أبيدت وأفنيت حتى انبست غيرها من الأشياء واختلطت فصارت بعد العظم كالبسيس ، والبسيس : فهو الشيء المائع كالطعام المسكوب فيه الماء .

وفي البرهان : أصله من البسيصة وهو السويق أو الدقيق يلت ويتخذ زادا ^(٢) .
ثم قال عليه السلام ^(٣) : وإنما أراد الله بذلك أن يخبر أنها تعود بعدما هي عليه من العظم إلى الذهاب والبواد والاختلاط غيرها من الأشياء التي بس لها بسا ، أي : خلط خلطا .
وفي التجريد أي : فقت حتى تعود كالسويق ، يقال : بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتا أو سيقا ، من بس الغنم إذا ساقها ، كقوله : ﴿وسيرت الجبال﴾ ^(٤) . اهـ .
﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ قال الهادي عليه السلام : والهباء : فهو الغبار الخفي الذي يدخل مع الشمس من الكوى ^(٥) ، والمنبث : فهو الكثير المنتشر ، فأخبر سبحانه أنها تعود بعد ما هي عليه من الهباء إلى الذهاب والفناء .

قال في البرهان : وروينا عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (أن الهباء المنبث هو : رهج الغبار

(١) لقد نقلنا نص الكشاف ، وكان في رواية اختلاف يسر في ألفاظها عما في الكشاف والمعنى واحد ، فرأينا نقول نص الكشاف . وما بين الأقواس من الكشاف . انظر الكشاف ٤/٤٥٦ . ولفظ الأصل ، قال في الكشاف : انتصب إذا رجت بما انتصب بها إذا وقعت ، لأنه بدل منه ، ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة ، والعامل تقديره : تخفض الواقعة وقت رج الأرض ، وبس الجبال .

(٢) انظر البرهان مخطوط ص ٣٦٦ . وفيه زيادة [والمعنى : أنها سالت سيلا فكانت هباء منبثا] .

(٣) ليس المراد به الإمام الناصر صاحب البرهان ؛ لأنه لا يوجد هذا اللفظ في البرهان ، ويحتمل أنه للهادي عليه السلام فلينظر في التفسير المجموع .

(٤) النبأ : ٢٠ .

(٥) الكوى ، والكوة : الخرق في الحائط والثقب في البيت ، وجمعها : كواء بالمد . لسان العرب ٣/٣١٦ .

يسطع ثم يذهب) وكذلك أعمال العصاة التي عملوها للخير لا ثواب لهم عليها تشبيهاً بالهباء الذي لا يحصل منه شيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي: في ذلك اليوم أنتم (أزواجاً) ^(١) ثلاثة أصناف يقال للأصناف التي يكون بعضها مع بعض، أو يذكر بعضها عقيب بعض: أزواج. ثم فسر الأصناف الثلاثة بقوله: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وما بعده، قيل: وأصحاب الميمنة الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ هم الذين يؤتونها بشمائلهم. وقال الهادي عليه السلام: معنى ﴿أزواجاً ثلاثة﴾ فهو: أصنافاً ثلاثة ﴿فأصحاب الميمنة﴾ فهم أصحاب اليمين والبركة [والإيمان] ^(٢) والطاعة ﴿وأصحاب المشأمة﴾ فهم أصحاب الشؤم واللعنة. قال في البرهان: وإنما سموا بذلك لأن العرب تنسب إلى اليمين ما كان من فعل الخير، فتقول: تيمنت بفلان في الخير، وتشاءمت به في الشر ^(٣). اهـ

ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره ثم قال فيه أيضاً، وأما تكريره لأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، فهو تأكيد منه ليمين المؤمنين، وشؤم أصحاب المشأمة الفاسقين، و(ما) فهي تخمّل وجهين: إما أن تكون صلة وترتينا للكلام مثل قوله: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ ^(٤) وإما أن تكون تنبيهاً منه على جليل أمرهم وعظيم خطرهم، والعرب تقول: وما فلان لو خيرته! توقيفا على خطره، وتنبيهاً على جليل أمره ^(٥). اهـ

(١) (أزواجاً) هكذا في الأصل، وهو حكاية لما في الآية، وإلا فهو مرفوع خبر عن أئمة.

(٢) ما بين القوسين زيادة من (ب).

(٣) انظر البرهان خ ٣٦٦، ولفظ البرهان: فأما أصحاب الميمنة فهم أهل الجنة، وإنما سموا بذلك لأن العرب تنسب إلى اليمين ما كان من فعل الخير فتقول: تيمنت بفلان في الخير وتشاءمت به في الشر، وأصحاب المشأمة هم أهل النار. (٤) ص: ١١

(٥) ما في الوجه الأول تكون زائدة (صلة) وفي الوجه الثاني استفهامية، مقصود بها التعظيم. وما بين قوسي الزيادة ليس موجوداً في نسخة تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام الموجودة لدينا، وأظنه سقط منها.

قال الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام في تفسيره لهذه السورة :

﴿الواقعة﴾ هي القيامة ، ومعنى ﴿خافضة رافعة﴾ هو : أنها خافضة لأعداء الله إلى الذل والهوان ، رافعة لأوليائه إلى العز والجنان . ومعنى ﴿رجت الأرض رجاً﴾ يريد : أنها زلزلت زلزلة . ومعنى ﴿بست الجبال بساً﴾ أي : عرقت عركاً . ومعنى ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ أي : غباراً مثيراً ﴿وكنتم أزواجا ثلاثة﴾ يريد : أصنافاً ، والأزواج في اللغة هي الأصناف وأصحاب المينة : هم أصحاب اليمن والبركة ، وأصحاب المشأمة : هم أصحاب الشؤم واللعنة . وأما تكريره لأصحاب المينة وأصحاب المشأمة ، فهو تأكيد منه ليمن المؤمنين ، وشؤم أصحاب المشأمة الفاسقين ، و﴿أما﴾ (ما) فهي تحتل وجهين : إما أن تكون صلة وترتينا للكلام مثل قوله : ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ وإما أن تكون تنبيهاً منه على جليل أمرهم وعظيم خطرهم ، والعرب تقول : وما فلان لو خبرته ! توقفاً على خطره ، وتنبيهاً على جليل أمره . ثم قال : ﴿والسابقون السابقون﴾ يعني الأنبياء والأئمة الطاهرين ، الذين سبقوا إلى الخيرات ، واستنكروا من الحسنات ﴿وأولئك المقربون﴾ الذين لا يلحق بدرجتهم أحد من المسلمين ، ولا يدانيهم في سبقهم جميع المؤمنين . ومعنى قوله : ﴿ثلة من الأولين﴾ أي : جماعة كثيرة من قبل خاتم النبيين ﴿وقليل من الآخرين﴾ يعني الذين بعده من السابقين . ومعنى ﴿على سرر موضونة﴾ أي : مشبكة ، قال الشاعر :

وبيضاء كاليهن موضه لها قونس مثل جيب البدن

ومعنى قوله : ﴿ولدان مخلدون﴾ أي : غلمان باقون ، والأكراب : هي الكيزان التي لا علائق لها ، قال الشاعر :

يسعى عليه العبد بالكوكب .

يصب أكوأبا على أكوأب .

وقال آخر :

والأباريق : هي كيزان ذات علائق . ومعنى ﴿وكأس من معين﴾ أي : قدحان مملوءة من المعين ، والمعين : هو حمرة الجنة ، الذي يجري في وجه الأرض كجري الماء ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي : يسكرون منها ﴿ولا ينزفون﴾ والنزف هي القي والسكر والأذى ، فنفى ذلك عنهم تبارك وتعالى ، والفاكهة : هي أنواع الثمار ، ومعنى ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ يريد أنه يوجد لهم يوم القيامة لحم طير من المواشي ، وليس يريد ذبح شيء من الحيوانات ﴿وحور عين﴾ الحور : هن الدعج . والعين : حسان الأعيان ، والدعج : هو سود الحدق مع حسن تقدير الأعيان ، قال الشاعر :

بأعين محورات حور

ومعنى ﴿كأمانث اللؤلؤ المكنون﴾ يريد : في صفاء الألوان والبياض ، والمكنون : هو المصون . ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ معنى اللغو : هو الكلام القبيح من اللغو ، ومعنى قوله : ﴿إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ يريد : إلا قولاً سالماً سالماً لا عيب فيه ، وهذا كله في السابقين ، ثم ابتداءً للمؤمنين فقال : ﴿وأصحاب اليمن ما أصحاب اليمن في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة﴾ أما السدر المخضود : فهو اللين الذي لا شوك فيه ، وأصل الخضد هو التكسير للشيء حتى يلين قال الشاعر :

كان الترين والدماليح علقت على عشر أو خروع لم ينضد

أي : لم يكسر ، والطلع المنضود : هو الموز الذي بعضه فوق بعض منضود . والظل الممدود : هو الواسع ، والمساء المسكوب : هو الذي يسيل ويتحرك ويجري على وجه الأرض ويغيل . والفاكهة : هي ألوان الثمار . والفرش المرفوعة : هي الفرش الرفيعة المقدار التي رفعها الله عز وجل على الأسرة للأبرار .
ثم وصف ما أعطاهم من الخور العين ، فقال : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾ أي : خلقناهن خلقاً ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ الأبتكار : هن ذوات الشباب وحدثاء الأسنان ، قال الشاعر :

سوى أن للبكر الغريرة بهجة بها فضلت عندي وطيب مزاج

والعُرب : هن العاشقات لأزواجهن المتبسطات للحديث إليهم قال الشاعر :

يعرين عند بعوضن إذا خلوا وإذا هم خرجوا فهن خفار

وقيل : إن العرب هاهنا : هن العربات في كلامهن ، اللاتي لا لحن ولا عيب في قوهن ؛ لأن الله زين كلامهن ، وحسن لفظهن كما حسن وجوههن وخلقهن . ثم قال في أصحاب اليمين المؤمنين غير قوله في السابقين ؛ لأنه قال في السابقين : ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فدل على أن السابقين في أول الزمان أكثر من السابقين في الذين بعد خاتم النبيين وقال في أصحاب اليمين : ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ فدل بذلك على كثرة المؤمنين في آخر الزمان وأولسه ، وبين أنهم أكثر من الأئمة السابقين ، وسرّج إلى التفسير ولا قوة إلا بالله . ومعنى ﴿أَتْرَاباً﴾ يريد : أشباها متواخيات متحابات غير متعديات . ثم رجع إلى ما أعد لأصحاب الشمال من السموم والنكد والعذاب والنكال فقال : ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا يَبَارِدُ وَلَا كَرِيمٌ﴾ فأما الشمال : فيخرج في اللغة على وجه منها : أن يكون ضرب لم مثلاً بتفسير الشمال ، كما ضرب المثل باليمين ؛ لأن اليمين يمن وبركة ، والشمال ضعف وعسر وتعسير ، ومن ذلك ما يمكن أن يكون من حشر المتقين إلى اليمين ، وحشر الكافرين إلى الشمال ، والوجه الثالث : أن يكون سماهم أصحاب الشمال لأخذهم كتبهم في الشمال ، وقد قيل : إن الكتاب مثل من الأمثال ، وكل ذلك يمكن في اللفظ والمقال ، ومعنى ﴿فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ فالسموم : هو الحر ، والعرب تسمى الرياح إذا هبت بالحر سموماً ، قال الشاعر :

والحميم : هو الماء الحار . والظل من اليجموم : هو الدخان الأسود الشديد السواد فيما ذكر بعض المتكلمين ، ومعنى ﴿لَا يَبَارِدُ وَلَا كَرِيمٌ﴾ يريد أنه ليس يبارد ولا كريم : هو اللين والطيب ، ودل بذلك على غلظه وشدة حره ويسسه . ومعنى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مَعْرِفِينَ﴾ أي : متعنين .

قال الإمام المرتضى لدين الله صلوات الله عليه وعلى آبائه وسلم :

تلك ضرب صيرت للكريمة نفساً سسي لا كفعل المترف الطياش

﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ يريد : أنهم كانوا يقيمون على المأثم العظيم . ومعنى ﴿إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ يريد : إلى وقت معروف مفهوم . الشاربون شرب الهيم أي : شرب الإبل الهيم ، والهيم : داء حار يأخذ الإبل ، قال

الشاعر : إذا ما سقى الله البلاد بلاداً تسمى برح من أرض خثعما

سقيت بها نضوى ورويت قريبي فأصحبت محموما وأصبح أهيم

وقال آخر : شربن من دعيج شرب الميم .

وقال آخر : وأهيم صاد قد تصلصل جوفه طوى الصيف حمسا فهو للماء قارف

ومعنى قوله عز وجل : ﴿هَذَا نَزْلُمُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي : طعامهم وشرابهم الذي ينزلون عليه ، ويصيرون بما قدموا إليه ، ومعنى قوله : ﴿فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ قال الشاعر :

فلولا قتلتم مالكا بسميه ولم تتركوه والرماح دوامي

يريد : فهلا قتلتم مالكا . ومعنى ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونُ﴾ المني : هو النطفة التي تنزل من الأصلاب ﴿عَسَنَ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ أي : قدرناه تقديرا ، ودبرنا للحكمة تدبرا ، ومعنى ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حِطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ إنا لمغرمون ﴿الْحِطَامُ﴾ هو اليابس المتكسر ، ومعنى ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ فهو فظلتتم ، فحذف أحد اللامين . ومعنى ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ أي : تحدثون وتعجبون ، وتقولون ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ أي : معذبون قال الشاعر :

وما أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام

أي : بعذاب . ومعنى ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجْحَا﴾ أي : مالحا ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي : تخرجون ، قال الشاعر : وأرى الزناد وبعوث النار . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي : منفعة ومتعة وبلاغا للذين هم حالون في القواء والقفار قال الشاعر : أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح تهابي الترب موار

يريد : خلا وأقفر . وأصدق من هذا قول الهادي [صلوات الله عليه وعلى آله] : (فساحتها قفر قواء بلاقع).

ومعنى قوله : ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أي : فأقسم بمواقع النجوم ، وأدخل لا صلة للكلام قال الشاعر :

يوم حدود لا فضحتم أباكم وسالتم والخيال يدمى شكيمها

أراد : يوم حدود فضحتم أباكم ، وأدخل لا صلة للكلام ؛ لأنه عابهم بالمسألة ، ومعنى ﴿وَإِنَّ لِقْرَانَ كَرِيمٍ﴾ أي : مرتفع عظيم ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وهم الأئمة الطاهرون ، وسنضع — إن شاء الله تعالى — من عجائب مكنونه ما فيه دلالة على رب العالمين ، وحكمة بالغة من صنع أحكم الحاكمين ﴿نَنْزِيلُ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : من كلامه وقوله بنفسه ، قبل أن ينزل به روح قدسه ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ يريد : أفبهذا الحديث أنتم مدارون ؛ لأن أعداء الله لا تجوز مداراتهم في القرآن بكفرهم بما أنزل الرحمن ، بل يباينون في كفره ، وقله معرفتهم بقدر ربه ، فأقام الباء مقام في ؛ لأنهما جميعا من حروف الصفات ، قال الشاعر :

ودار وداهن من تدانيك داره كما قد ينداري جاره السبع الهجري

﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ المعنى في ذلك : وتجعلون شكركم على رزقكم أنكم تكذبون ، فاختصر واكتفى بعلم المخاطب ، وقد مضى ذكرنا لجواز الاختصار ، قال الشاعر :

وكيف نواصل من أضحت أمانته كأبي مرحب

وهذا مما تستعمله العرب في الإضمار ، وإنما أراد كأمانة أبي مرحب .

وفي الكشف : هو تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة [والمعنى] : أي : شيء [هم] ^(١) . على التعظيم بشأنهم .

فإن قيل : فما إعرابه ومنه يعرف معناه ؟ أجاب الرازي فقال : ﴿فأصحاب الميمنة﴾ مبتدأ أراد المتكلم أن يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه ، وقوله : ﴿فأصحاب الميمنة﴾ جملة استفهامية على معنى التعجب ^(٢) ... إذا عرفت هذا فكان المتكلم في أول الأمر مخبر ، ثم لم يخبر بشيء ؛ لأن في الإخبار تطويلا ثم لم يسكت وقال : وما ذلك ؟ ممتحنا زاعما

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ يعني النفس عند خروجها من الخلق ، ولكنه اختصر لعلم المخاطب ، ولم يذكر النفس كما قال الشاعر :

أيما مئ ما تغني الرقاء عن الفتى إذا حشرت يوما وضيق بها الصدر
يعني النفس عند خروجها من البدن ، ولكنه اختصر ﴿فلولا إن كنتم غير مدين﴾ يريد : فها إن كنتم غير مجازين بأعمالكم ، ولا محاسبين على أفعالكم قال الشاعر :
وأيام لنا غير طوال عصينا الملك فيها أن يدينا
يريد : أن يحتكم للجزاء . وقال آخر :

دانت لنا الأرض طرا من مناكبها طوعا وكرها ورزق الله مقسوم
ومعنى ﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾ أي : تردونها ، يعني النفس ﴿فأما إن كان من المقربين﴾ يريد : من الأنمة السابقين ﴿فروح وريحان وجنة نعيم﴾ والروح : هو الريحان ، وهو يريد التسييم والراحة من الهوان الأليم ، إلا أنه وكد الروح بذكر الريحان ، كما وكد ذكر الرحمة بالرحيم والرحمن ، وذلك تأكيد وزيادة في البيان .
ثم رجع إلى ذكر المؤمنين فقال : ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾ أي : سلامة لك أيها الميت إن كنت من المؤمنين ﴿فأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾ إن هذا هو حق اليقين فسيح باسم ربك العظيم ﴿أي : سبح بأسماء ربك العظيم .

(١) لفظ الكشف ﴿فأصحاب الميمنة﴾ ﴿فأصحاب المشأمة﴾ تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة ، والمعنى : أي : شيء هم . انتهى ما في الكشف ، وما ذكره بعده هو المصنف رحمه الله . ولفظ (هم) ساقط في (أ) وثابت في (ب) . قال السيد العلوي رحمه الله تعالى : قال القاضي : الجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة المظهر مقام الضمير ، ومعناه التعجب من حال الفريقين (حاشية العلوي خ ٣٠١) .

(٢) هنا حذف عما في تفسير الرازي ، والمخدوف هو : [كما تقول لدعي العلم : ما معنى كذا ؟ مستفهما ممتحنا زاعما أنه لا يعرف الجواب ، حتى إنك تعب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ، ولو أجاب لكرهته ؛ لأن كلامك مفهوم كأنك تقول : إنك لا تعرف الجواب] .

أنك لا تعرف كنهه ، [وذلك] لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر ، قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر ، ألا ترى أن المبتدأ وحده يكفي لمن قال : من جاءني ؟ فقال المحيب : زيد ، فالله تعالى لما قال : ﴿فَأَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾ كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر ، ثم سكت عنه ، ثم قال في نفسه : إن السكوت قد يتوهم أنه لظهور حال الخبر كما سكت عن زيد في جواب من جاء ؟ فقال : ﴿مَا أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾ ممتحننا زاعماً أنه لا يفهمه ليكون ذلك دليلاً على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه ، وفيه وجه ظاهر ، وهو أن يقال : معناه أنه جملة واحدة استفهامية كأنه قال : ما أصحاب الميمنة على سبيل الاستفهام ، غير أنه أقام المظهر مقام المضر فقال : ﴿فَأَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾ والإتيان بالمظهر إشارة إلى تعظيم أمرهم حيث ذكرهم ظاهراً مرتين ، وكذلك القول في قوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ وكذلك ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ و ﴿القارعة ما القارعة﴾^(١) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ أي : المخلصون الذين سبقوا إلى رضى الله ، وسارعوا إلى ما دعاهم إليه هم السابقون الذين عرف حالمهم ووصفهم البليغ ، كقوله :
أنا أبو النجم وشعري شعري^(٢)

(١) انظر تفسير الرازي ٣٨٨/١٠ . وما بين الأقواس منه ، وكذلك إصلاح بعض الألفاظ ، ويكون إعراب الآية على أن الفاء عاطفة تفريعية ، للشروع في تفصيل وشرح أحوال الأزواج الثلاثة ، وأصحاب الميمنة مبتدأ ومضاف إليه ، وما استفهامية في محل رفع مبتدأ ثان ، والمقصود بالاستفهام التعظيم ، وأصحاب الميمنة الثاني خبر ما ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه أغنى عن الرابط ، كما مثل بقول تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ .

(٢) أنا أبو النجم وشعري شعري لله دري ما أجن صدي

تمام عيني وفؤادي يسري مع العفريت بأرض قفر

لأبي النجم العجلي يريد : أنا المعروف بالبلاغة بين الناس كالعلم المشهور ، وشعري هو البليغ المعروف بأنه شعر أبي النجم ؛ لأنه إذا اتحد المبتدأ والخبر ، أو الشرط والجزاء دل الكلام على المبالغة في التعظيم أو في التحقير ، وما هنا من الأول ، وفيه ادعاء أن نهاية العظمة في الرجل المسمى بأبي النجم ، ونهاية البلاغة في الشعر المنسوب إليه ، والدر :

ومنهم من جعل ﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني تأكيدا ، والخبر عنه وعن الأول ﴿أولئك المقربون﴾ وليس بالوجه ^(١) [ووقف بعضهم على ﴿والسَّابِقُونَ﴾ وابتدأ ﴿السَّابِقُونَ أولئك المقربون﴾] والأحسن أن يوقف على الثاني ؛ لأنه تمام الجملة [وهو في مقابلة ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ و ﴿ما أصحاب المشأمة﴾] ذكره في الكشف ^(٢) .

وقال في البلغة : ﴿السَّابِقُونَ﴾ هم الذين سبقوا سائر الناس من كل أمة إلى تصديق الأنبياء عليهم السلام وهم من أصحاب اليمين أيضا ، إلا أنهم خصوا بالذكر تشريفا وتعظيما . قال الهادي عليه السلام : والسَّابِقُونَ : هم الذين سبقوا إلى الله بالطاعة ، وقدموها إليه في الحياة الدنيا .

وفي البرهان : هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وإنما كرر لفظهم لأن المعنى والسَّابِقُونَ إلى الإيمان والإسلام السَّابِقُونَ إلى الجنة . اهـ
ومثله في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام .

وروى المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام بإسناده إلى الفقيه ابن المغازلي ^(٣) الواسطي يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال : سبق

اللبن ، وجن الليل : أظلم ، والنبت : طال والتف ، وأجن : فعل تعجب ، أي : شيء عظيم جعل صدري يحيط بالمعاني الغريبة . ويحتمل أن (ما) بدل من (دري) وأجن : فعل ماض صلة أو صفة له .

(١) في النسخة (أ) وليس بالآخر ، وفي (ب) وليس بالوجه ، وهو الصواب ، وفي الكشف (وليس بذاك) . قال السيد العلوي قوله : وليس بذاك . أي : ليس بمعمول عليه ؛ لأنه يفوت تلك المبالغة التي سبقت في جعل الخبر نفس المبتدأ ، وتلك المقابلة التي بينه وبين أصحاب الميمنة ، ثم استئناف جملة أخرى على تقدير سؤال سائل عند أولئك . حاشية العلوي خ ٣٠١ .

(٢) ولفظ الكشف : وقد جعل (السَّابِقُونَ) تأكيدا و ﴿أولئك المقربون﴾ خبرا وليس بذاك ، ووقف بعضهم على ﴿السَّابِقُونَ﴾ وابتدأ ﴿السَّابِقُونَ أولئك المقربون﴾ والصواب أن يوقف على الثاني ؛ لأنه تمام الجملة ، وهو في مقابلة ﴿ما أصحاب الميمنة﴾ و ﴿ما أصحاب المشأمة﴾ . فما بين الأقواس هو من الكشف ٤/٥٨ .

(٣) ورواه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل بسند ليس فيه الواسطي عن ابن عباس قال : السباق ثلاثة : سبق يوشع بن نون إلى موسى ، و سبق صاحب ياسين إلى عيسى ، و سبق علي إلى النبي صلى الله عليه وآله ٢١٣/٢ بتحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي .

يوشع بن نون إلى موسى ، وصاحب ياسين إلى عيسى ، وسبق علي إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم اهـ (من الشافي) .

ثم قال عز وجل فيهم : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ قال الهادي عليه السلام : يخبر أنهم عند الله في القيامة مدنون من كراماته ومن جزيل ثوابه ، مدخلون في جنات نعمته ، وهو تمثيل عن يقربه الملك في جنات النعيم .

ثم قال تعالى : ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال الهادي عليه السلام : الثلاثة : فهي الجماعة الصالحة ، فأخبر أن المتقين يكونون ثلثة من الأولين ، ويكونون قليلا من الآخرين ، ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام قال : ومنه قول الشاعر :

ولست ذليلا في العشرة كلها
أبي : جماعة ، وقال آخر :

وجاءت إليهم ثلثة خندفية
بجيش كتيار من السيل مزبد^(١)
وهي من الثل ، وهو الكسر ، كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم لكثرتها ، أي : السابقون ثلثة من الأولين ، وقليل من الآخرين .

[قال في التجريد : وهذا خبر ، والمبتدأ محذوف تقديره : السابقون ثلثة من الأولين ، وثلثة من الآخرين]^(٢) .

واختلف من المراد بالأوليين والآخرين ؟ فقيل : الأولون من تقدم النبي صلى الله عليه وآله من الأنبياء وأئمتهم ، والآخرون : أمة محمد صلى الله عليه وآله ، والمعنى : أن السابقين من الأمم أكثر من سابقي أمة محمد صلى الله عليه وآله .

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ، في أول هذه السورة .

(٢) يقول : وجاءت إليهم جماعة من الناس منسوبة إلى خندف امرأة إلياس بن مضر ، وقوله : بجيش من باب التجريد ، كأنه انتزع من الثلثة جيشا غيرها مبالغة في الكثرة ، ويحتمل أن الباء بمعنى مع ، أو في ؛ لأن الجيش أوسع من الثلثة ، وهو من حاش إذا تحرك واضطرب ، كأنه يغلي ، والتيار : الماء الشديد الجري ، ومن : بيانية أو تبعية ، والمزبد : المرتفع على وجهه لكثرتة وفورانه .

(٣) ما بين قوسي الزيادة ساقط من (أ) وثابت في (ب) .

قال في البرهان : يعني بالأولين جماعة كثيرة من قبل خاتم النبيين ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي : جماعة من اللاحقين [المسلمين] القليل عددهم ، لأن من حقق الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله كان قليلا وإن كثروا في المنظر والمراى ^(١) . اهـ

ومثل هذا في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام ^(٢) .
وقيل : المراد أولوا أمة محمد صلى الله عليه وآله ، وبالأخرين آخرهم ، وعنه صلى الله عليه وآله (الثلاثان جميعا من أمي) ^(٣) واختلف هؤلاء فقليل : الأولون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخرين : التابعون ، وقيل : الأولون والآخرين كلهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، فالأولون : الذين صلوا في القبوتين ، وقيل : الذين أسلموا قبل فتح مكة ، والآخرين : خلافهم على القولين ، ذكره في التجريد .

ثم قال تعالى : ﴿عَلَى سِرٍّ مَوْضُوءَةٍ﴾ قال الهادي عليه السلام : السرر فهي : السرر المعروفة باسمها ﴿موضوءة﴾ فهي : منسوجة معمولة ، وهي سرر تنضد للمؤمنين بالذهب والجوهر قال في البرهان : [والسرر : جمع سرير] وسميت بذلك لأنها مجلس السرور ، والموضوءة : المنسوجة بالذهب [القوم اللحمية والسدا] ^(٤) لأن التوضين : التشبيك والنسج ، ومنه قول لبيد :
إن يفرغوا فسوايغ موضوءة والبيض تبرق كالكواكب لامها ^(٥)

(١) ولفظ البرهان : ﴿ثلة من الأولين﴾ أي : جماعة من السابقين الأولين ﴿وقليل من الآخرين﴾ أي : جماعة من الآخرين ، أي : وجماعة من اللاحقين المسلمين القليل عددهم لأن من حقق الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قليلا وإن كثروا في المراى والمنظر . البرهان خ ٣٦٧ .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام أول السورة هذه .

(٣) قال صاحب تخريج أحاديث الكشاف هو أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢ هـ في تخريج الحديث : أخرجه الطبري ، وابن عدي من رواية أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال في هذه الآية ﴿ثلة من الأولين وثلاثة من الآخرين﴾ قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (هما جميعا من أمي) وأبان هو ابن أبي عيشة مزيك ، ورواه إسحاق ، وسنده إلى الطيالسي ، وإبراهيم الحربي ، والطبراني من رواية زيد بن صهبان عن أبي بكره مرفوعا وموقفا ، والموقوف أولى بالصواب ، وعلي ضعيف . (حاشية الكشاف ٤/٤٥٨ ، ٤٥٩) .

(٤) ما بين القوسين الأولين موجود في البرهان ، وما بين القوسين الآخرين ليس موجودا في البرهان . (البرهان ٣٦٧)

(٥) في (أ) إن تفرغوا . وفي (ب) إن يفرغوا .

ويحتمل أن يكون بمعنى مظفورة ، ومنه ، وضين الناقة ، وهو البطان العريض المظفور من السيور . اهـ

والوضين : هو الحبل العريض ، والمعنى إنها منسوجة مشبكة بالدر والياقوت متداخلة كحلق الدرع ، ومنه يقال للدرع المنسوجة : موضونة .

ثم قال سبحانه : ﴿مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا﴾ أي : مستندين على السرر ، وقوله : ﴿عَلَيْهَا﴾ بيان لخالصهم في الاستقرار عليها .

ثم وصفهم عز وجل بحسن العشرة ، وحسن الآداب ، وتهذيب الأخلاق فقال : ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ قال الهادي عليه السلام : معناه فهو بعضهم حذاء بعض .

وقال زيد بن علي عليه السلام : معناه لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، أينما شأوا تقابلوا . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم ﴿وَلِدَانٌ﴾ صبيان أي : غلمان لهم صغار ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ قال الهادي عليه السلام : المخلدون فهم : الباقون الذين لا يفنون ولا يزولون في الآخرة . اهـ

وقيل : مبقون على شكل الولدان ، وخذ الوصافة لا يتحولون إلى كبر ، ومنه قول امرؤ القيس :

وهل ينعمن إلا خلي مخلد قليل المموم ما يبيت بأوجال^(١)

وقيل : مقرطون ، والمخلد : القرط من الخلدة ، وهي القرط ، قيل : وهؤلاء الولدان أولاد الكفار الذين ماتوا صغارا ، وفي الحديث (أولاد الكفار خدم أهل الجنة)^(٢) ذكره في التجرید .

(١) ذكره أيضا في البرهان ، كما سيأتي قريبا .

(٢) قال في تخریج أحاديث الكشاف لابن حجر : أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من رواية عباد بن منصور عن أبي رجاء العطاردي ، عن سمرة بن جندب [قلنا : وسمرة بن جندب غير ثقة عندنا لكثير من الأسباب منها : ما روي أن معاوية بذل له مبلغا من المال جعل يزيد حتى وافق على رواية أن قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ نزلت في عبد الرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين عليه السلام . وقوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أنها نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فرواهن بعدما أجزل له معاوية العطاء (انظر نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد)] . عودة إلى التخریج :

قوله تعالى: ﴿بَآكُوبَ﴾ جمع كوب: إناء بلا عروة ولا خرطوم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق: إناء له عروة وخرطوم ، ومثل هذا في البرهان^(١) .

قال الهادي عليه السلام: الأكواب: هي ضرب من آنية الشرب تكون من الجوهر، ومن الدر والياقوت ، يشرب فيها المؤمنون في الآخرة ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ فهو: الأباريق المعروفة في الدنيا من الصفر ومن الفضة والذهب، يستعملها المتحIRON ، وتكون في الآخرة من الدر والياقوت وأنواع الجواهر .

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَأْسٍ﴾ اسم الزجاجاة بشرط أن يكون فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها كأساً أيضاً .

قال زيد بن علي عليه السلام: الكأس الإناء بشرابه ، ولا يسمى [كأساً] إلا به .
وقوله: ﴿مِنْ مَّعِينٍ﴾ بيان ما في الكأس ، وصفت بما يوصف به الماء ، لأن حمر الجنة تجري في أنهار كالماء المعين الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون .

ثم قال تعالى: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي : لا يصيبهم صدام الرأس بسببها ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ ينزفون إذا ذهب عقله .

وقال الهادي عليه السلام: والنزف : فهو أتقيى وغير ذلك مما يكون من شراب الخمر فيما ذكر لنا عنها — والله أعلم بأمرها — فقد ذكر لنا أنهم ينزفون من طرفيهم من فوق ومن أسفل إذا شربوها ، ومعنى ﴿ينزفون﴾ فهو : يخرج وينزف ما في بطونهم ، فأخبر الله

قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أولاد المشركين فقال : هم خدم أهل الجنة ورواه البزار من رواية علي بن يزيد بن جدهان والطبراني وأبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه . انظر تمام كلام ابن حجر في حاشية الكشف ٤/٥٩٤ .

(١) ولفظ البرهان : والمجتلدون : المسورون المقرطون ، قال الشاعر :

ومجلدات باللجين كأنما أعجازهن أقارور الكلبان

ويجتمل وجهها ثانيا : أن يكون المعنى الباقون على صفرهم ، ولا يموتون ولا يتغيرون ، قال امرؤ القيس :

وهل ينعمن إلا خلي مخلد قليل المموم ما بيت بأوجال

قوله : ﴿بَآكُوبَ وَأَبَارِيقَ﴾ والأكواب : ما ليس لها عرى ، والأباريق : ما كان لها عرى . البرهان خ ٣٦٧ .

تعالى أن حمر الآخرة لا ينزل بشاريها ما ينزل بشارب حمر الدنيا منها من الآفات ، بل حمر الآخرة فيها اللذات والطيبات والصحة والسلامة والنعمة الكاملة. اهـ —
ثم قال تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ والفاكهة : هي أنواع الثمار ما يتلذذ به ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ تخيرت الشيء إذا أخذت خياره ﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ فيأني على حسب شهواتهم ومرادهم .

(التعليق) : في الجنة طير كأعناق البخت تخر بين يدي أحدهم على ألوان مختلفة يأكل مما أراد وبغى ، ويعاد الطائر يرعى في الجنة^(١) .
وعن ابن عباس (يخطر على قلبه الطير فيقع ممثلا بين يديه على ما اشتهى ، فيأكل منه حتى تنتهي نفسه ثم يطير) .

قال الرازي : ما الحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم ؟ أجاب : من وجوه أحدها — العادة في الدنيا التقديم [للفواكه] ^(٢) في الأكل ، وعلى الخصوص عادة أهل الشرب ، وكان المقصود بيان [حال شرب] ^(٣) أهل الجنة .

وثانيها : الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولا ، لأنها ألطف وأسرع انخدارا [وأقل حاجة إلى المكث الطويل في المعدة للهضم] ^(٤) ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل ، واللحم يدفعها .

وثالثها : أنه تعالى لما بين أن الفاكهة دائمة الحضور [والوجود] واللحم يحضر عند الإشتهاء

(١) قال القرطبي في تفسيره : وخرجه التعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن في الجنة طيرا مثل أعناق البخت تصطف على يد ولي الله ، فيقول أحدها : يا ولي الله ، رعبت في مروج تحت العرش ، وشربت من عيون التسنيم ، فكل مني ، فلا يرلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد ، فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى في الجنة حيث شاء) فقال عمر : يا نبي الله إنها لناعمة ؟ فقال : (أكلها أنعم منها) .

(٢) ما بين القوسين زيادة من الرازي .

(٣) في الأصل (بيان شراب أهل الجنة) وفي الرازي ما أثبتناه .

(٤) ما بين القوسين زيادة من الرازي .

دل هذا على عدم الجوع ، لأن من الفواكه ما لا يؤكل إلا بعد الطعام^(١) .
ثم قال تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال الهادي عليه السلام : الحور هن : الدعج ، والعين : حسان الأعيان ، والدعج : هو سواد الخدق مع حسن تقدير الأعيان ، قال الشاعر :
بأعين محورات حور

قال زيد بن علي عليه السلام : ويقال : الحور الذي يخار فيه الطرف^(٢) . اهـ
وحور : جمع حوراء ، وهي شديدة سواد العين وبياضها مع سعتها ، وعين : جمع عينا ، وهي واسعة العين .

قال في التجريد : من قرأ بالرفع فالتقدير : ولهم حور . وقيل : هو عطف على ولدان ، ومن قرأ بالجر فالتقدير : ويكرمون بحور لأنه لا يليق عطفه على بأكواب ، لأن الولدان لا يطوفون عليهم بالحور ، ومن قرأ بالنصب فالتقدير : يؤتون حورا^(٣) .

﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ يريد في صفاء الألوان والبياض ، والمكنون : هو المصون . اهـ
واللؤلؤ : هو الدر المستور في كنهه ، أي : في الصدفة ، وهي أوعيته ، لأنه رطباً أصفى
إن قال قائل : الكاف للتشبيه ، والمثل حقيقة فيه فلو قال : أمثال اللؤلؤ لكفى فلا حاجة إلى الكاف ؟ قيل له : المشهور أن كلمتي التشبيه تفيدان التأكيد ، أو زيادة في الشبهة ؛

(١) ما بين الأقواس من الرازي . والنص منقول منه باختصار وتصرف ٤٩٦/١٠

(٢) لفظ الإمام زيد في تفسيره (وقوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾) فالحور السواد الخدق ، ويقال : الحور الذي يخار فيه الطرف . وقد تقدم .

(٣) قال الزجاج : الرفع أحسن ؛ لأن المعنى : يطوف عليهم ولدان مخلدون بهذه الأشياء ولهم حور . ومن قرأ بالرفع كره الخفض لأنه عطف على قوله يطوف عليهم بأكواب فقالوا : الحور ليس مما يطاف ، ولكنه مخفوض على معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بها ، وكذلك يعطون هذه الأشياء ، ويؤتون حورا عينا (حاشية العلوي)
وقال في إعراب القرآن : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ يقرأ بالرفع وفيه أوجه : أحدها — هو معطوف على ولدان ، أي : يطفن عليهم للتعميم لا للخدمة ، والثاني : هو مبتدأ خبره محذوف ، أي : لهم حور ، أو وثم حور ، والثالث : هو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : ونساؤهم حور ، ويقرأ بالنصب على تقدير يعطون أو يجازون حورا ، ويقرأ بالجر عطفاً على أكواب في اللفظ دون المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهن ، وقيل : هو معطوف على جنات أي في جنات ، وفي حور ، وعين صفة لحور . إعراب القرآن للدرويش ٤٢٨/٩ ، ٤٢٩ .

لأن المشابهة في الكيفية ، والمماثلة في النوعية ، فيتحقق بهما كل واحد من هذين الأمرين ، ولو قال تعالى : أمثال اللؤلؤ المكنون ، لتوهم أن كلا من الحور واللؤلؤ من نوع واحد ، وليس كذلك ، فلا بد من لفظ لا يوهم هذا .

ثم قال تعالى : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفي نصبه وجهان — أحدهما : أنه مفعول له ، وهذا ظاهر ، وعلى هذا فيه فائدة ، وهي أن المعنى أن يقول : هذا كله جزاء عملكم ، وأما الزيادة فلا يدرى أنها أحد منكم .

وثانيها : أنه مصدر (لأن الدليل دل على أن كلما يفعل العبد فهو مجزي) فكأنه قال : تجزون جزاء ، ذكر هذا الرازي^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ وهو الكلام القبيح من اللهو والباطل ، والكذب ، وقيل : اللغو سقط الحديث الذي تقضي المرأة باطراحه ، وتأثيما : ما نسب صاحبه إلى الإثم في الدنيا ، أي : لا يقع منهم كلام ساقط من حقه أن يلغى ، ولا يؤثم بعضهم بعضا ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ يعني يتداعون بالسلام على أحسن الآداب وأبلغها ، وأكرم الأخلاق وأطيبها ، وهو استثناء منقطع ، والمعنى : أنهم يفشون السلام بينهم ؛ لأن السلام ليس من جنس اللغو ، تقديره : لكن يسمعون فيها قولا سلاما سلاما

وقيل : إنه متصل أي : يسمعون كلاما فائقا عظيم الفائدة ، كامل اللذة ، أدناها وأقربها إلى اللغو قول بعضهم لبعض : سلام عليكم ، فلا يسمعون كلاما يقرب إلى اللغو إلا سلاما ، فما ظنك بالذي يعده عنه ، وفيه من المبالغة ما فيه ، وحيث يكون اللغو مجازا ، والاستثناء متصلا . ولما بين حال السابقين شرع في أصحاب الميمنة من الأزواج الثلاثة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ قد مر شرحه ﴿ فِي سِدْرٍ ﴾ هو شجرة النبق ﴿ مَخْضُودٍ ﴾ هو اللين الذي لا شوك فيه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ وهو الموز الذي بعضه فوق بعض ، أي : نضد بالحمل من أعلاه إلى أسفله ، فليست له ساق بارزة ، وعن السدي :

(١) التفسير الكبير ٣٩٨/١٠ ، وفي الرازي بدلا عما في القوسين (لأن الدليل دل على أن كلما يفعله الله فهو جزاء) الخ ما ذكره هنا ، وقد تصرف المصنف حتى لا يتوهم نسبة أفعال العباد إلى الله .

هو شجر يشبه طلع الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل^(١) .
قال في البرهان : وروينا عن آبائنا أن أمير المؤمنين عليا عليه السلام كان يقرأ (وطلع منضود)
وهو طلع النخلة قال الشاعر :

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبال^(٢)

قال الرازي : ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ في سدر ﴾ [وأية نعمة تكون في كونهم في سدر] والسدر من أشجار البوادي لا يمر [ولا يحلو] ولا يطيب^(٣) ؟ ! قال : فيه حكمة بالغة وهي أنا قد بينا [مرارا] أن البليغ^(٤) يذكر طرفي أمرين يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما ، كما يقال : فلان ملك الشرق والغرب ، ويفهم منه أنه يملكهما وما بينهما ، فنقول : لا يخفى أن بين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار ، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال [به] ، وتارة يقصد إلى ثمرها ، وتارة يجمع بينهما لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة ، ويجمعها نوعان أوراق صغار ، وأوراق كبار ، والسدر في غاية الصغر [والطلح] : وهو شجر الموز في غاية الكبر ، فقوله تعالى : ﴿ في سدر منضود وطلع منضود ﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر^(٥) من الأشجار ، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها فيكون إشارة إلى الطرفين ، جامعة لجميع الأشجار ولأوراقها ، ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار^(٦) .

(١) رفع ثمر لأن لكن مخففة ، فهي مهملة .

(٢) نسبه في إعراب القرآن إلى بعض الحداة ٤٣١/٩ وفي التبيان إلى الحارثي ، وذكر في حاشية التبيان أنه ورد في القرطبي ٢٠٨/١٧ ، ومجاز القرآن ٢٥٠/٢ . انظر التبيان ٤٩٦/٩ ،

(٣) في الأصل (لا ثمر ، ولا رطب) وفي الرازي ما أثبتاه .

(٤) في الرازي (البليغ) وفي الأصل المنقول عليه هذا التفسير (الضليع) وهو المتضلع في الأمور المتعمق في معرفتها .

(٥) ما بين قوسي الزيادة ساقط من أصل المصاحف ، وثابت في تفسير الرازي . وكان المحذوف من باب ما يقال غلطة نبيه ، حيث الحذف من قوله : (في غاية الصغر إلى قوله : في غاية الصغر) .

(٦) النص منقول من الرازي بتصريف ، وما بين الأقواس من الرازي ٤٠٤/١٠ ، وقد ذكرناها لئتم في بعضها المعنى .

ثم قال تعالى: ﴿وَزِلْ مَمْدُودٌ﴾ زمانا ، أي : لا زوال له فهو كما قال تعالى: ﴿أَكْلَهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ فيه وجهان أحدهما : مسكوب من فوق ، وثانيهما : جار في غير محدود ؛ لأن الماء المسكوب يكون جاريا في الهواء ^(١) .

ثم لما ذكر الأشجار التي يطلب ورقها ذكر بعدها الأشجار التي يقصد ثمرها فقال تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي : لا مقطوعة اللذة بالقيام والعدم كفواكه الدنيا دائمة لا تنقطع ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ من اليد بشوك أو بعد ، أولا تمتنع عن تناولها بوجه ، ولا يحضر عليها ما يحضر على فواكه الدنيا ، ولا يجعل عليها حوائط كبساتين الدنيا .

قال الرازي : وفيه مباحث الأول : في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة ، يقول : هذا بطريقة الارتقاء من نعمة إلى ذكر نعمة فوقها ، والفواكه أتم نعمة ^(٢) .

الثاني : ما الحكمة في ذكر الأشجار المورقة بأنفسها ، وذكر الأشجار المثمرة بشمارها ^(٣) ؟ يقول : أما الأوراق فحسنها عند كونها على الشجر (وأما الثمار فحسنها بحسب نفسها على الشجر ، أو على غير الشجر بعد القطع) ^(٤) .

الثالث : ما الحكمة في وصف الفاكهة بالكثرة لا بالطيب واللذة ؟ يقول : لفظ الفاكهة يدل على الطيب واللذة ، ولهذا تسمى الحكاية الطيبة اللذيذة : فاكهة القوم ، وأما الكثرة فقد مر ، قلت : يعني في سورة ص فإنه قال ^(٥) هناك في معنى قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ : السبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة فرغبهم الله فيه .

(١) زيادة في الرازي بعد قوله : يكون جاريا في الهواء [والأنهار هناك]

(٢) اللفظ في الرازي : المسألة الأولى : ما الحكمة في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة يقول : هي ظاهرة ، وهو أنه قدم الورق على الشجر على طريقة الارتقاء ، وقد ذكرها المصنف بالمعنى .

(٣) اللفظ في الرازي (وذكر أشجار الفواكه بشمارها) .

(٤) ما بين القوسين منقول بتصريف ، والمعنى واحد ، وعبرة الرازي : وأما الثمار فهي في أنفسها مطلوبة سواء كانت عليها أو مقطوعة .

(٥) الضمير في (قلت) للمؤلف الشرقي ، وفي (قال) للرازي .

ثم قال سبحانه: ﴿وَفَرَشَ مَرْفُوعَةً﴾ جمع فراش وهي البسط والحشاياء، وقرئ بسكون الراء شاذة تخفيفا، وهي الفرش الرفيعة المقدار التي رفعها الله على الأسرة للأبرار، وقيل: مرفوعة نضدت أي: جعل بعضها فوق بعض حتى ارتفعت، وقيل: هن النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش، مرفوعة على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مَتَكُونُونَ﴾^(١) ويدل عليه ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾ أي: الزوجات، وإن لم يتقدم لهن ذكر؛ لأن ذكر الفراش دل عليهن.

قال في التجريد: فعاد الضمير إلى الفراش^(٢) والمراد بالمنشآت الزوجات، وفي رفعهن وجوه أحدها: أنهن مرفوعات فوق الأرائك، وثانيها: مرفوعات بالجمال على نساء الدنيا، وثالثها: مرفوعات عن الأدناس. اهـ

ومعنى ﴿أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: ابتدأنا خلقهن ابتداء من غير ولادة، فإما أن يريد اللاتبي ابتداء خلقهن وإنشأوهن، أو اللاتبي أعيد إنشأوهن، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أن أم سلمة سألته عن هذه الآية فقال: (يا أم سلمة هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شططا رمضا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء كلما أناهن أزواجهن وجدوهن أبكارا)^(٣).

(١) يس: ٥٦

(٢) قال السيد العلوي: قال أبو البقاء: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ الضمير للفراش؛ لأن المراد بها النساء، ويكون قوله: لأصحاب اليمن مظهرا أقيم مقام الضمير للإشعار بالغلبة، أو أعيد للطول. حاشية العلوي ٣٠٢.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/٤٦٢، وفيه زيادة ولفظه في الكشاف (يا أم سلمة هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شططا رمضا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء، كلما أناهن أزواجهن وجدوهن أبكارا، فلما سمعت عائشة ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله قالت: واوجعاه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليس هناك وجع). قال في التخريج: أخرجه العللي بتمامه من طريق الحسن بن علوية القطان عن إسماعيل بن عيسى، عن المسيب بن شريك فذكره، ولم يرفع إلا قصة عائشة، ومن طريق غنجار: حدثنا إسماعيل بن أبي الباء عن يونس، عن الحسن، عن أم سلمة مرفوعا دون قصة عائشة، وروي الطبري وابن مردويه من طريق عمر بن هاشم البيروني، عن سليمان بن أبي كريمة، عن هشام عن الحسن عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿عَرَبَا أْتَرَابًا﴾ فذكره، وفيه (فجعلهن عذارى عربا متعشقات متحبات إلى أزواجهن، أترابا على ميلاد واحد) وروي الترمذي من طريق موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاش طرفا منه، واستضعفه.

وعنه صلى الله عليه وآله (يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مردأً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين سنة) (١).

ثم وصف تعالى ما أعطاهم من الخور العين فقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَبْكَارًا﴾ كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ؛ لأن البكارة في الآخرة على خلاف الأبكار في الدنيا ، إذ البكارة لازمة للأبكار في الآخرة ، فالبكر بكر كل مرة .

قوله: ﴿عُرُوبًا﴾ جمع عروب ، وهي المتحبة إلى زوجها بالتبعل ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن ، بنات ثلاث وثلاثين سنة ، وكذلك أزواجهن .

واللام في ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ من صلة أنشأنا وجعلنا ، أي : أنشأناهن لأصحاب اليمين وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: الأبكار هن ذوات الشباب وحادثة الأسنان ، قال الشاعر :

سوى أن للبكر الغيرة بهجة بها فضلت عندي وطيب مزاج

والعروب : هن العاشقات لأزواجهن المستقلات للحديث إليهم قال الشاعر :

يعربن عند بعولهن إذا خلوا وإذا هم خرجوا فهن خفار

وفي البرهان (العرب : المتحنات على أزواجهن ، للتحببات إليهم ، واحدها عروب قال الشاعر :

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الروادف يعيشي دونها البصر^(٢)

﴿أَتْرَابًا﴾ أي : أمثالا في الخلق والأخلاق لا تباعض بينهم ولا تحاسد . اهـ

ثم قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية ﴿وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ من هذه الأمة ، يعني أصحاب اليمين نصفان نصف من الأمم الماضية ، ونصف من هذه الأمة ، وقد

(١) ذكره في الكشف ٤/٤٦٢ ، وقال ابن حجر في تخرجه : أخرجه أحمد وابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، والطبراني في الأوسط من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة بهذا . وزاد (على خلق آدم ستون ذراعاً عرض سبعة أذرع) وذكر ابن أبي حاتم في العلل أن أباه قال : رواه أبو سلمة عن حماد مرسلاً ، ولم يذكر فيه أباه هريرة ، وكذا أخرجه ابن سعد عن يحيى بن السكن ، عن حماد ، وعلي بن زيد ضعيف ، وفي الباب عن معاذ بن جبل ، أخرجه الترمذي ، وقال : غريب ، وبعض أصحاب قتادة أرسلوه ، وأخرجه البيهقي موصولاً ، ثم أخرجه موقفاً على قتادة .

(٢) ذكره الطوسي في التبيان ونسبه إلى لبيد ، فقال : وقال لبيد : وفي الحدوج عروب غير فاحشة .. الخ البيت وذكر أنه استشهد به في إعجاز القرآن ٢/٢٥١ ، والقرطبي ١٧ ، ٣١١ . انظر التبيان ٩/٤٩٧ .

وقد مر تفسير الثلة ، والخلاف في المراد من الأولين والآخرين .
ثم رجع إلى ما أعد لأصحاب الشمال من السموم والنكد والعذاب والنكال فقال :
﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ فأما الشمال فيخرج في اللغة على وجوه
منها [الوجه الأول] : أن يكون ضرب لهم مثلاً بتعسير الشمال كما ضرب المثل باليمين ؛
لأن اليمين يمن وبركة وتيسير ، والشمال ضعف وعسر وتعسير ، قلت : وهذا هو الذي
ذكره الهادي عليه السلام .

[الوجه الثاني] ومن ذلك ما يمكن أن يكون من حشر المتقين إلى اليمين ، وحشر الكافرين
إلى الشمال .

والوجه الثالث : أن يكون سماهم لأخذهم كتبهم في الشمال ، وقد قيل : إن الكتاب مثل
من الأمثال ، وكل ذلك يمكن في اللفظ والمقال . قاله الحسين بن القاسم عليه السلام .
ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ والسموم : حر نار ينفذ في المسام ، وهي
خروق الأعضاء كسم الأذنين ، والمنخرين ، والعرب تسمي الرياح إذا هبت بالحر سموماً
قال الشاعر :
اليوم يوم بكرت سمومه

والحميم : هو الماء الحار المتناهي حره .

إن قيل : ما الحكمة في ذكر السموم والحميم ، وترك ذكر النار وأهوالها ؟ قيل له : فيه
إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فقال : هواؤهم الذي يهب عليهم سموم ، وماؤهم الذي
يستغيثون به حميم [مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء وهما أي : السموم والحميم من أحر
الأشياء بخلاف الهواء والماء في الدنيا فإنهما من أنفع الأشياء] فما ظنك بنارهم التي هي
عندنا أيضاً أحر] ولو قال : هم في نار ، كنا نظن أن نارهم كنارنا ، لأن ما رأينا شيئاً
أحر من التي رأيناها^(١) .

﴿وَزُلْ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ هو الدخان الأسود الشديد السواد ، ذكر معناه زيد بن علي عليه
السلام وغيره . وقيل : جبل في جهنم يستغيثون بظله ، وهو نار ؛ لأنه في جهنم .

(١) ما بين الأقواس من تفسير الرازي ٤٠٩/١٠ ، وقد صححنا اللفظ أيضاً منه .

ومن في قوله: ﴿مَنْ يَحْمُومٌ﴾ إن قلنا : إنه حميم جهنم فهي لا ابتداء الغاية ، وإن قلنا : إنه دخان فهي للبيان ، وإن قلنا : إنه الظل فكذلك .

ثم قال تعالى : ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي : لا بارد المدخل ، ولا كريم المنظر ، نفى عنه صفتي الظل وهما برده ونفعه وراحته ، أي : هو ظل حار مؤذ ، ليس ببارد ولا طيب ، والكرم : هو اللين والطيب ، فدل بذلك على غلظه وشدة حره وبسسه^(١).

وقال ابن الجوزي : العرب تجعل الكريم تابعا لكل شئ نفت عنه صفة ذم فتقول : ما هذه الدار بواسعة ولا كريمة ، وما هذا بسمين ولا كريم^(٢).

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي : أصحاب الشمال ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ العذاب في الدنيا ﴿مُتَرَفِّينَ﴾ متكبرين ، وقيل : متنعمين أترفهم النعمة فأبطرتهم — إشارة إلى إنكار الحشر — لا يظن أن الإتراف من حيث هو إتراف يكون قبيحا ، لكن ذلك من قبيح ما ذكر عنه بعده وهو قوله : ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْغَنَةِ الْعَظِيمِ﴾ .

قال زهير بن علي عليه السلام : معناه يقيمون ويدعون على الإثم العظيم ، ويقال : هي اليمين الغموس ، ويقال : على الشرك . اهـ

(١) قوله : فدل بذلك على غلظه وشدة حره . قال السيد العلوي (تقريبا على ورود النفي وأنه أبلغ من الإثبات) : أراد أن يكون أبلغ في إثبات الحر والضر له من حيث أن يدل عليهما حيث بطريق الكناية ، وقيل : كان من حق الظاهر أن يقال : وظل حار ضار ، فعدل إلى قوله : ﴿وَوَظِلٌّ﴾ ليتبادر منه إلى الذهن أولا الظل المتعارف فيطمع السامع ، فإذا نفى عنه ما هو المطلوب من الظل وهو البرد والاسترواح جاءت السخرية والتهكم ، والتعريض بأن الذي يستأهل الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء ، فيكون أشجى لخلقهم ، وأشد لتحسره . حاشية العلوي ٣٠٢ . وذكر في إعراب القرآن ٤٣٦/٩ بأن في قوله : ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ فن الاحتراس ، وهنا فإنه لما قال : ﴿وَوَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أوهم أن الظل ربما جلب لهم شيئا من الراحة بعد التعب ثم قال : كما أن فيه فن التعريض ، وهو أن الذين يستأهلون الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء . وهذا هو ما ذكره السيد العلوي رحمه الله .

(٢) زاد المسير في علم التفسير ط المكتب الإسلامي لابن الجوزي ، والنص فيه : والعرب تجعل الكريم تابعا لكل شئ نفت عنه فعلا ينوي [به] الذم فتقول .. الخ ما ذكره المصنف ، واللفظ الذي نقله المصنف هو الصواب ، ولنا لم نثبت نص زاد المسير . لأن العرب تصف به من لا يمكن منه البتة .

وقوله: ﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَى الْخَنثِ الْعَظِيمِ﴾ فيه مبالغة [من وجوه] لأن (كانوا يصرون) أكد من قوله: كانوا أصرروا لأن الإجماع من لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار، وثانيها: لفظ الإصرار، إذ الإصرار مداومة المعصية، وثالثها: الخنث فإنه فوق الذنب؛ لأنه لا يكاد في اللغة يقع على الصغير^(١)، ورابعها: العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ من البلى وعظاما بالية ﴿أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر بعد الموت، فأتوا بالكلام على طريقة الاستفهام بمعنى الإنكار، وأشاروا في الإنكار إلى أمور اعتقدوها لصحة إنكارهم فقالوا أولاً: ﴿أَنَّا مِتْنَا﴾ ولم يقتصروا عليه بل قالوا: ﴿وَكَانُوا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي: فطال عهدنا بعد كوننا أمواتا حتى صارت اللحوم ترابا وعظامنا رفاتا، ثم زادوا وقالوا: ﴿أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بطريقة التأكيد من ثلاثة أوجه أحدها: استعمال كلمة إن، وثانيها: إثبات اللام [في الخبر] وثالثها: الإتيان بالمفعول كأنه كائن، فقالوا: ﴿أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ثم زادوا وقالوا: ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ معناه: أو نقول أو آباؤنا الأولون إشارة إلى أنه الإشكال الأعظم.

ثم إنه تعالى أحابهم، ورد عليهم بالمبالغة في كل مرتبة أتوا بالمبالغة [فيها] كما مر فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ أي: إلى وقت معروف مفهوم، أي: إلى ما وقتت به الدنيا من يوم القيامة، والميقات: ما وقت به الشيء إلى حد، ومنه: مواقيت الإحرام، وهي الحدود وقوله: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور؛ لأن معناه أن هذا من جملة الأمور التي بلغت في الظهور إلى حد يشترك فيه العوام والخواص، وعلى هذا في كل موضع قال [فيه]: ﴿قُلْ﴾.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ بتقديم الأولين على الآخرين في جواب قولهم: ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ فإنهم أخرجوا ذكر الآباء لكون الاستبعاد فيهم أكثر، فقال:

(١) والذنب يقع عليها، فلها كان فوقه. وقوله: ورابعها: العظيم، أي: وصفه بالعظيم يدل على عظم هذا الذنب ومثله هذا الكلام في الرازي، ولم يجعل الرابع من أوجه المبالغة، بل جعله مسألة مستقلة يدل على الشرك. وانظر الرازي ١٧١/٢٩.

﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تستبعدون بعثهم وتؤخرونهم يبعثهم الله في أمر مقدم على الآخرين، يتبين منه إثبات حال من أخرتموه مستبعدين ، إشارة إلى كون الأمر هينا^(١)

وتالثها : قوله تعالى : ﴿لَجْمُوعُونَ﴾ فإنهم أنكروا قوله : ﴿لَجْعُوثُونَ﴾ فقال : هو واقع مع أمر زائد وهو أنهم يحشرون ويجمعون في عرصة الحساب ، وهذا فوق البعث .

ثم قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمْ الضَّالُّونَ﴾ عن الهدى ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث ، يعني أهل مكة وَمَنْ حَالُهُ مِثْلُ حَالِهِمْ ﴿لَا كَلْبُونَ مِنْ شَجَرٍ﴾ في جهنم ، و(من) لابتداء الغاية ، وقوله : ﴿مِنْ زُقُومٍ﴾ (من) لبيان الشجرة وتفسير له ، وهو طعام أهل النار ﴿فَمَا تُلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ من الشجر لأنها جمع شجرة^(٢) في المعنى .

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي : على الشجر ، ذكره لأن لفظه مذكر^(٣) ﴿مِنْ الْحَمِيمِ﴾ الماء المتناهي حره ﴿فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ﴾ أي : شرب الإبل الهيم : جمع أهيم وهيماء ، وهي الإبل التي بها الهيام ، والهيام : داء حار يأخذ الإبل قال الشاعر :

إذا ما سقى الله البلاد بلادا تسمى برح من أرض خثعما
سقيت بها نضوي ورويت قريتي فأصبحت محموما وأصبح أهيماء

وهو يحدث عطشا فلا تزال الإبل تشرب الماء حتى تموت ، قال قيس بن الملوح :

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسي مكان دواثيا

(١) ما بين القوسين سقط من الأصل بين الأول ، وهو : قوله ﴿قل﴾ .. الخ والثالث ، وليس موجودا في النسخ التي بين يدينا ، ولما كان الكلام مثله في الرازي بألفاظ متقاربة ، نقلنا ما بين القوسين من الرازي ليطمأئنه المصنف رحمه الله انظر الرازي ١٧٢/٢٩ ، ١٧٣ .

وزاد الرازي وجهين آخرين فقال : رابعها : قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ فإنه يدل على أن الله تعالى يجمعهم في يوم واحد معلوم ، واجتماع عدد من الأموات لا يعلم عددهم إلا الله في وقت واحد أعجب من نفس البعث ...
خامسها : حرف (إلى) أدل على البعث من اللام ... إلى آخر كلامه .

(٢) في الأصل : جماعة شجر ، وفي العلوي : جمع شجرة ، فأثبتنا ما في العلوي .

(٣) أي أنه أنش ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ ، لأنه في المعنى جمع شجرة ، وإن كان مفرد اللفظ ، وقال في الانتصاف : لو أعاده على الشجر باعتباره مأكولا ، لكونه قال : ﴿لَا كَلْبُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي : على أكلهم لكان أحسن (علوي)

قال الرازي : ومآل الأقوال في الزقوم^(١) إلى كون ذلك في الطعم مراراً ، وفي اللمس حاراً وفي الرائحة منتناً ، وفي المنظر أسود .. ثم قرن بالأكل ليدل على أنه طعام ذو عقاب وقوله : ﴿فَمَالَتْ مِنْهَا الْبُطُونُ﴾ زيادة في بيان العذاب ، والهباء عائدة إلى الشجر ، و﴿فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ﴾ بيان لزيادة العذاب أيضاً .

ثم أخبر تعالى عن رزقهم وطعامهم فقال عز وجل : ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء ، أي : طعامهم وشرابهم الذي ينزلون عليه ، ويصيرون بما قدموا إليه ، والنزل : الرزق الذي يعد للضيف النازل تكريماً له ، وفيه تهكم بهم نحو ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وليس هذا كل العذاب ، بل هذا أول ما يلقونه ، وما بعده أفظع منه .

ثم قال تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي : هلا تصدقون بالخلق الثاني ، وهو البعث ، حثهم على التصديق به ؛ لأن من خلق أولاً لم يمتنع أن يخلق ثانياً قال الشاعر :

فلولا قتلتم مالكا بسميه ولم تتركوه والرماح دوامي

يريد : فهلا قتلتم مالكا . فمعنى لولا : التحضيض والحث ، ولولا مركبة من كلمتين ، والأصل فيه لم ، ولا ، وهي كلمة شرط في الأصل ، فلولا تصدق معناه ، لم لا ؟ وهلا ؛ لأنه دل على نفي ما دخل عليه ، وهو عدم التصديق^(٢) ويجوز أن يراد : فلولا تصدقون أنا خلقناكم ، وهم وإن كانوا مقرين أن الله خلقهم فهم في الحكم غير مقرين بذلك

(١) ما بين القوسين من أصل هذا التفسير ، واللفظ الثابت في الأصل لهذا التفسير : وأقوى الأقوال في الزقوم كون ذلك في الطعم مراراً فأثبتنا ما في الرازي ، وذلك ليناسب قوله : إلى كون ذلك ، فإنه يناسب ومآل ، ولا يناسب أقسوى ، وهذا الكلام منقول من الرازي بتصريف إلى قوله : بيان لزيادة العذاب أيضاً . انظر الرازي ١٧٤/٢٩ ، ١٧٥ .

(٢) مثل هذا الكلام في الرازي ١٧٦/٢٩ ، قال الرازي : والأصل فيه : لم لا ، فإذا قلت : لم لا أكلت ؟ ولم ما أكلت ؟ جاز الاستفهامان فإن معناه : لا علة لعدم الأكل ، ولا يمكنك أن تذكر علة له . كما تقول : لم فعلت ؟ موبخاً ... ثم قال : ثم إنهم تركوا حرف الاستفهام عن العلة ، وأتوا بحرف الاستفهام عن الحكم ، فقالوا : هلا فعلت ... ثم قال : وفيه زيادة حس لأن قول القائل لم فعلت ؟ حقيقته سؤال عن العلة ، ومعناه : أنه في جنسه غير ممكن ... ثم قال : وأما لولا فتقول : هي كلمة شرط في الأصل والجملة الشرطية غير مجزومة ، كما أن جملة الاستفهام غير مجزومة به ، لكن لولا تدل على الاعتساف ، وتزيد نفسي النظر والتواني ، فيقول : لولا تصدقون ، بدل قوله لم لا ، وهلا لأنه أدل على نفي ما دخلت عليه وهو عدم التصديق .

لإنكارهم البعث ، ومن حق من أقر بأن الله خلق ابتداء أن يقر بأنه قادر على الإعادة .
ثم قال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أي : فأخبروني عما تمنيون ، أي : تصبونه في
الأرحام من المني ، والمني : النطفة التي تنزل من الأصلاب فتقذف في أرحام النساء ، يقال :
أمنى النطفة ومناها ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي : أنتم تخلقونه بشرا تقدرونه وتصورونه ﴿ أَمْ
نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ المقدرين له خلقا بعد خلق في الأرحام ، لأنه تعالى لما قال : ﴿ نَحْنُ
خَلَقْنَاكُمْ ﴾ قال المشركون : خلقنا من النطف كما قال به الطبيعيون فقال الله تعالى ردا
عليهم : هل رأيتم النطفة جسما صغيرا ، ولا يكون له خالق ، وذلك الخالق غير مخلوق ،
وإلا لدار أو تسلسل ، والكل باطل .

ثم قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْعَثَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قال في البرهان : يعني سوين في الموت بين
المطيع والكافر ، وقدرناه تقديرا ، ودبرناه للحكمة تدبيرا ^(١) . اهـ

وقيل : قسمناه عليكم قسمة على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا وحكمتنا ،
فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي : بعاجزين في
أن يسبقنا في فعلنا أحد ، سبقه على الشيء : أعجزه عليه فلم يمكنه منه ، أراد أنا قادرين
﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي : نهلككم فنستأنف خلقا غيركم ، أي : نحن قادرين
على أن نبدل مكانكم أشباهكم من الخلق ولا تغلبونا على ذلك ﴿ وَنَنْشِئَكُمْ ﴾ أي :
نبتدئكم ﴿ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : في وقت لا تعلمون به ، قاله في البرهان ^(٢) .

قال في التجرید : معناه أنا قادرين على تبديل أمثالكم ، وأمثال : جمع مثل بمعنى نظير
وشبه ، أي : نخلق خلقا أمثالكم بدلا منكم ، وعلى أن ننشئكم في خلق وصور لا
تعلمونها ، وما عهدتم بمثلها ، يريد أنا قادرين على الأمرين جميعا ، فكيف نعجز عن

(١) انظر البرهان ٣٦٧ ، وهنا زيادة على ما في نسخة البرهان التي بين أيدينا من قوله : وقدرناه .. إلى قوله : تدبيرا ،
وقد أضفناها في النسخة المخطوطة للبرهان ، وذكرنا نسبة التصحيح إلى المصايح .

(٢) ولفظ البرهان : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي : بعاجزين في أن يسبقنا في فعلنا أحد ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي :
نهلككم ونستأنف خلقا غيركم ﴿ وَنَنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : في وقت لا تعلمون به . انظر البرهان ٣٦٧

إعادتكم ، ويجوز أن يكون ﴿أَمْثَالِكُمْ﴾ جمع مثل^(١) بمعنى : صفة . [أي] نغير صفاتكم التي أنتم عليها ، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ، قال الحسن : نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بما كان قبلكم . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ تقريراً لإمكان النشأة الثانية ، وقال : ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ من الأرض وتلقون فيه من البذر والحراث : إثارة الأرض وإلقاء البذر فيها ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ﴾ أي : تبتنونه ، وتردونه نباتاً ، وينمى إلى أن يبلغ الغاية ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ذكر بعد دليل الخلق دليل الرزق فقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ﴾ إشارة إلى دليل الخلق ، وبه الابتداء و ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ إشارة إلى دليل الرزق ، وبه البقاء ، وذكر أموراً ثلاثة : المأكل ، والمشروب ، وما به صلاح المأكل ، ورتبه ترتيباً فذكر المأكل أولاً ؛ لأنه هو الغذاء ، ثم المشروب ؛ لأن به الاستمرار ، ثم النار التي بها الإصلاح ، وذكر من كل نوع ما هو الأصل ، فذكر من المأكل الحب ، وهو الأصل ، ومن المشروب الماء كذلك ، ومن المصلحات النار ؛ لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها ، ودخل في كل واحد منها ما هو دونه .

والفرق بين الحرث والزرع هو أن الحرث أول الزرع ومقدماته على ما عرف ، والزرع : هو أواخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه ، واستوائه على الساق^(٢) قال المبرد : زرعه الله : أنماه وعنه صلواته عليه وآله : (لا يقل أحدكم : زرعت ، وليقل : حرثت)^(٣) .

(١) قال السيد العلوي : قوله : ويجوز أن يكون ﴿أَمْثَالِكُمْ﴾ جمع مثل : هو عطف على قوله : جمع مثل بمعنى نظير وشبه : اعلم أنه قد سبق غير مرة أن التبديل : التغيير ، فيجوز تبديل الذات وتبديل الصفات ، وأن المثل بمعنى النظر ، وبمعنى الصفة ، والتفسير الأول مبني على تبديل الذات وعلى أن المثل بمعنى النظر ، والثاني على تبديل الصفات ، وعلى أن المثل بمعنى الوصف .

(٢) من قوله : ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ إلى هنا مثله في الرازي ، وهو هنا باختصار عما في الرازي ١٨٠/٩ ، ١٨١ .

(٣) في تفسير ابن كثير : قال ابن جرير : وقد حدثني أحمد بن الوليد القرشي ، حدثنا مسلم بن أبي مسلم الحرمي ، حدثنا محمد بن الحسين ، عن هشام بن محمد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تقولن

ثم قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ الخطام : الهشيم الهالك ، الذي لا ينتفع به ، قد تحطم ويس ولا حب فيه .

قال الرازي : وهو تدرج في الإنبات ، وبيانه : هو أنه لما قال : ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ لم يبعد ^(١) عن معاند أن يقول : هو بنفسه يصير زرعاً لا بفعلاً ، ولا بفعل غيرنا ، فقال تعالى : هب أنا سلمنا هذا الباطل ^(٢) ولكن كيف تقولون في سلامته عن الآفات [يفسد] قبل اشتداد الحب ، وقبل انعقاده ، وقبل ذلك ^(٣) ومن تأمل حق التأمل وترك العناد علم أن دفع الآفات بإذن الله تعالى وحفظه عنها بإذن الله ، وعلى هذا ذكر في القرآن أموراً مرتبة ^(٤) فالأول للمهتدين ، والثاني : للظالمين ، والثالث : للمعاندين الضالين ، فيذكر الأمر الذي لاشك فيه في آخر الأمر إقامة للحجة على الضال المعاند ^(٥) .

ثم قال تعالى : ﴿فَطَلَلْتُمْ تَتَكَهَّوْنَ﴾ أي : فظلمتم ، فحذف أحد اللامين ، ومعنى تفكهون : تحدثون وتعجبون ، وقيل : تندمون على بغيكم فيه ، أو على معاصيكم التي من أجلها أصبتم به .

﴿إِنَّا﴾ أي : يقولون ﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ أي : للمزومون غرامة ما اتفقنا ، أو لمهلكون بالجوع هلاك رزقنا ^(٦) من الغرام وهو الهلاك .

زرعت ، ولكن قل : حرثت قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ﴾ أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ﴿ ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم ، عن مسلم الجرمي به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد عن عطاء ، عن أبي عبد الرحمن : لا تقولوا زرعنا ، ولكن قولوا : حرثنا .

(١) في الأصل : ولا يبعد ، وفي الرازي لم يبعد .

(٢) في الرازي : ولو سلم لكم هذا الباطل فما تقولون .. الخ .

(٣) في الرازي : أو قبل اشتداد الحب ، وقبل ظهور الحب فيه ، فهل تحفظونه منها ، أو تدفعونها عنه ، أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات ، كما تقولون : إنه بنفسه ينبت ، ولا يشك أحد أن دفع الآفات بإذن الله تعالى ، وحفظه عنها بفضل الله ، وعلى هذا أعاده فليذكر أموراً مرتبة بعضها على بعض فيكون الأمر الأول للمهتدين .. الخ ما هنا

(٤) لفظ الرازي (وعلى هذا ذكر في القرآن أموراً مرتبة بعضها على بعض ، فيكون الأمر الأول للمهتدين .. الخ ما هنا

(٥) انظر الرازي ١٨١/٢٩ ، وقد نقله المصنف بتصرف يسير ، وحذف بعضاً من ألفاظ الرازي .

(٦) في الكشف (هلاك زرعنا) . قال السيد العلوي رحمه الله تعالى : وقيل : لو قال : أو مهنكون لما ارتكبنا من المعاصي ؛ لأن المعاصي من المهلكات كان أليق . حاشية العلوي ٣٠٣ .

وفي البرهان : ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ أي : لمعجبون قال الشاعر :

وثقت بأن الحفظ مني سجية وأن فؤادي مبتلى بك مغرم

وقد يكون المغرم بمعنى : المولع قال الشاعر

سلا عن تذكره تكثماً وكان رهيناً بها مغرمًا^(١)

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ أي : معذبون قال الشاعر :

وما أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام

[أي : بعذاب]^(٢) . وأصل الغرم والغرام : لزوم المكروه .

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون من الرزق ، ولا حظ لنا .

ثم قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

الْمُنزِلُونَ﴾ جمع مزنة ، وهي السحابة^(٣) وقيل : هو السحاب الأبيض خاصة ، وهو

أعذب ماء ، خصه بالشرب لأنه ألطف وأنظف ، أو تذكيراً بالإنعام عليهم .

ثم قال سبحانه : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ والأجاج : الملح الزعاق ، أشد ما يكون من

الملوحة لا يقدر على شربه ، وهو من أقبح الماء ، وذكر في الماء الطيب صفتين إحداهما :

عائدة إلى طعمه ، والأخرى إلى كيفية طبعه ، وهي الحارة .

ثم قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي : فهلا تشكرون على هذه النعم التامة الكاملة وتؤمنون

ثم قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي : تستخرجون من الزناد وتقذحون ،

والعرب تقذح بعودين تحط أحدهما على الآخر ، يسمون الأعلى الزند ، والأسفل الزندة ،

وشبهوه بالفحل والطرقة ، يقال : أوريت ووريت ، ومنه قول الشاعر :

فإن النار بالزندان توري وإن الحرب يقدمها الكلام^(٤)

(١) انظر البرهان ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في أول هذه السورة ، وما بين القوسين منه . وما بعد

القوسين ليس من تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام .

(٣) قال الرازي : والمزن : هو السحاب الثقيل بالماء .

(٤) وقيل هذا البيت : أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

والزند كالمرخ^(١).

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ﴾ أي : خلقتهم ﴿شَجَرَتَهَا﴾ أي : التي منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ لها دونكم .

ثم قال تعالى : ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي : تذكر بنار جهنم ، التي هي النار الكبرى ، حيث عممنا بالحاجة إليها البلوى ؛ لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ، وينظرون ما أوعدوا به .

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ناركم هذه جزء من سبعين جزء من حر جهنم)^(٢) .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ومعنى قوله تعالى : ﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي : منفعة ومتعة وبلاغا للذين هم حالون في القواء والقفار قال الشاعر :

أقوى وأقفر من نَعَمٍ وَغَيْرِهِ هوجُ الرِّيحِ تَهَابِي التُّرْبَ مَوَارِ
يريد : خلا وأقفر .

وأصدق من هذا قول الهادي [صلوات الله عليه وعلى آله] : (فساحته قفر قواء بلاقع)^(٣) . أهـ

(١) أي أن وزنه على فعل .

(٢) في لفظ الحديث في المصاييح (من حر جهنم) وفي الأحاديث التي وردت (من نار جهنم) .

قال ابن كثير في تفسيره : قال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (يا قوم إن ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم) قالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ؟ قال : (إنها قد ضربت بالبحر ضربين أو مرتين حتى يستتفع بها بنو آدم ، ويدنوا منها) وهذا الذي أرسله قتادة ، قد رواه الإمام أحمد في مسنده ، فقال : حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد) وقال الإمام مالك : عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة — مثل ما ذكر قتادة — رواه البخاري من حديث مالك ، ومسلم من حديث أبي الزناد ، ورواه مسلم من حديث عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة به ، وفي لفظ (والذي نفسي بيده لقد فضلت عليها تسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها) وقد قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عمه أبي سهل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله — وآله — وسلم : (أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهي أشد سواداً من ناركم هذه بسبعين ضعفاً) قال الضياء المقدسي : وقد رواه أبو مصعب عن مالك ، ولم يرفعه ، وهو عندي على شرط الصحيح .

والمراد منفعة للذين ينزلون القواء ، وهو القفر ، والذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام ، يقال : أقويت من أيام ، أي : لم أكل شيئا ، والمعنى ينتفع بها أهل البوادي ، يوقدون لها ليلا لتهرب منهم السباع ، ويهتدي بهم الضال ، وانتفاعهم بها أكثر من المقيمين ، ولأن ابن السبيل إذا رآها ليلا اهتدى بها ، وكانت سببا في تمتعه بالقوت أيضا ثم قال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي : فأحدث التسييح بذكر اسم ربك ، وأراد بالاسم الذكر ، أو سبح بذكر ربك ، أي : فقل سبحان الله ؛ تنزيها له عما يقولون ، أي : شكرا له على ما أعد من النعم ، دل جل وعلا عباده بذلك على توحيده وحكمته وعدله ، لأنه لا ينبغي أن يكفروا به ^(٣) .

قال الرازي : الوجه في التعلق لما ذكر الله تعالى حال المكذبين بالحشر والوحدانية كما تقدم قال لنبية صلى الله عليه وآله وسلم : إن وظيفتك أن تكمل في نفسك ، وهو علمك بربك [وعملك لربك] فسبح باسم ربك . والفائدة في ذكر الاسم من وجهين : [أحدهما وهو] المشهور أن الاسم مقحم ، وعلى هذا يكون فيه زيادة التعظيم ، فإن من عظم ملكا وبالغ في تعظيمه لم يذكر اسمه إلا وعظمه ، وهذا من جملة ما مر ذكره ، يقال : سبحته سبحت [له] وشكرته وشكرت له . [وثانيهما : أن يكون المراد بذكر ربك] أي : إذا قلت وتولوا ^(٤) فسبح بذكر .

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أول السورة وما بين قوسى الزيادة منه .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : فأحدث التسييح ، قيل : إنما قال : أحدث ؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان مشتغلا بالتسييح غير معرض عنه ، والمراد بالإحداث الاستمرار ، وقيل : هذا عكس ما يقتضيه لفظ الإحداث ، ولكن المراد بإنشائها أحطت بما ذكر لك فجدد التسييح لذلك ، وقلت : تجديد التسييح هو الاستمرار عليه ، لأنه مهما جدد بعد فعله فقد استمر عليه .
قوله : أو أراد بالاسم الذكر ، عن بعضهم : الباء سببية لا صلة ولا زائدة ، والمعنى سبح بأن تذكر اسمي ، ولا بد في إفادة هذا المعنى من أحد أمرين إما تقدير المضاف ، وهو الذكر ، أو أن يكون الاسم بمعنى الذكر ، قيل : وحاصله إما إضمار أو محذوف ، وتقديره : نزه الله إما بواسطة ذكر اسمه تعالى ، أو بواسطة ذكره ، ويجوز أن يجري على ظاهره من غير إضمار ولا محذوف ، قالوا في سبح اسم ربك الأعلى كما يجب تنزيه ذاته وصفاته تعالى عن النقائص ، كذلك يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب ، وهذا أبلغ لما به يلزم منه ، وذلك بالطريق الأولى على سبيل الكناية الرمزية حاشية العلوي ٣٠٣ .
(٢) أي : إذا حصل منك القول ، وحصل منهم التولي ، فسبح الله تعالى بذكر اسمه .

اسمه بين قومك ، واشتغل بالتبليغ ، والمعنى : اذكره باللسان وبالقلب [وبين وصفه لهم] ^(١) . ويحتمل أن يقال : [فسبح] مبتدئا باسم ربك [العظيم] فلا تكون الباء زائدة ^(٢) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر خلق الآدمي من المني ، بين بإرشاده إلى إيجاد الضدين في الأنفس قدرته واختياره ، [ثم لما ذكر دليلا من دلائل الأنفس] ذكر [من دلائل] الآفاق أيضا قدرته واختياره فقال : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ إلى غير ذلك ، وذكر قدرته على زرعه وجعله حطاما ، وخلق الماء الفرات ، وجعله أجاجا إشارة إلى أن القادر على الضديين مختار ولم يـ [كن] ذكر من الدلائل السماوية شيئا ذكر منها ^(٣) في معرض القسم فقال سبحانه ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ لما بين أنه خالق الخلق ورازقهم ، وله العظمة بالدلائل القاطعة ، ولم يؤمنوا قال : لم يبق إلا القسم فأقسم إني لصادق .

ثم ذكر المفسرون في (لا) وجوها أحدها : لا زائدة للتأكيد ، والمعنى : أقسم ، مثلها في قوله : ﴿ثَلَا يَعْلَمُ﴾ وثانيها : أصلها لأقسم بلام التأكيد ، أشبعت فتحتها [فصارت لا] كما في الوقف ، وثالثها : لا نافية ، وأصله ^(٤) على مقاتلهم والقسم بعدها كأنه قال : لا والله لا صحة لقول الكافرين ، وأقسم عليه .

وأما مواقع النجوم فقال : زيد بن علي عليه السلام : معناه أقسم بالقرآن نزل نحوما متفرقة ثلاث آيات وأربع وخمس آيات .

(١) وقد زاد الرازي : ولو قال : فسبح ربك ، ما أفاد الذكر لهم ، وكان ينبئ عن التسبيح بالقلب . ولما قال : فسبح باسم ربك ، والاسم هو الذي يذكر لفظا دل على أنه مأمور بالذكر اللساني ، وليس له أن يقتصر على الذكر القلبي . الرازي ١٨٥/٢٩ .

(٢) نقله المصنف من الرازي بتصريف ، وما بين الأقواس من الرازي ، وبعضها أثبتناه ليم المعنى .

(٣) في الرازي فذكر الدليل السماوي في معرض القسم . ومثل هذا الكلام في الرازي من قوله : واعلم أنه تعالى .. إلى هنا ١٨٨/٢٩ . وما بين الأقواس من الرازي ليتضح المعنى .

(٤) في الرازي : وأصله ، أي : وأصل النفي . وفي الأصل : وأصلها ، وما بين القوسين من الرازي ليتضح المعنى ١٨٧/٢٩ .

قلت : ومثله في البرهان^(١) وغيره ، وأما غيرهم فذكروا في مواقع النجوم وجوها أيضا منها : هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها ، ومنها : مواقعها في إتباع الشياطين عند الرجم ، ومنها : مواقعها يوم القيامة حين تسير .

وقال في التجريد : مواقع النجوم هي نجوم السماء ومواقعها : مساقطها عند الغروب ، ولعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا عظيمة ، أو للملائكة عبادات جليلة ، أو لأنه وقت قيام للمتجهدين من الصالحين فلذلك أقسم تعالى بها ، وعظم القسم . اهـ

وقيل : التقدير برب مواقع النجوم .

ثم قال سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يعني أن القرآن لقسم عظيم ، وهو اعتراض في اعتراض ، ومعنى الاعتراض هو الفاصل للتأكيد ، أي : اعترض به بين القسم وجوابه ، واعتراض بـ ﴿لو تعلمون﴾ بين الموصوف وهو (قسم) وبين صفته وهو (عظيم) وكل ذلك لتأكيد تعظيم المقسم به ، في ضمن ذلك تعظيم المقسم عليه ، وتحقيق ما ذكر من أوصافه^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضي في جنسه من الكتب .

وقال في البرهان : يعني أن القرآن كريم عند الله [أي : مرتفع]^(٣) عظيم النفع للناس . والضمير في ﴿إنه﴾ عائد على معلوم ، وهو الكلام الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان معروفا عند الكل ، وقال الكفار : إنه شعر وإنه سحر ، فرد عليهم : إنه لقرآن .

(١) ولفظ البرهان : قوله عز وجل : ﴿فَإِنَّمَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وذلك أن الله أقسم في القرآن بمخلوقاته ، فكأنه أقسم بقدرته وعظمته لما بان في خلقه من ذلك مالا يقدر عليه غيره ، ولا صلة زائدة ، وتقديره : فأقسم بمواقع النجوم ، ومواقع النجوم : أراد به نجوم القرآن من الله تعالى ؛ لأنه كان ينزل على الأوقات المختلفة . البرهان ٣٦٨ .

(٢) قال السيد العلوي : قوله : اعتراض في اعتراض . : فإن قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَكَرِيمٌ﴾ اعترض بين القسم وجوابه مقرر للتوكيد ، وتعظيم للملحوظ به ، وقوله : ﴿لَوْ عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَكَرِيمٌ﴾ اعترض بين الصفة والموصوف توكيد لذلك التعظيم ، أي : لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم . حاشية العلوي ٣٠٣ .

(٣) ما بين القوسين ثابت في الأصل ، وليس موجودا في نسخة البرهان التي بين أيدينا .

والقرآن : مصدر أريد به المفعول ، وهو المقروء ، وقيل : اسم لما يقرأ ، كالقربان لما يتقرب به .

قال بعضهم : في معنى (كريم) فائدة ، وهو : أن الكلام إذا كرر كثيرا يهون في الأعين والآذان ، والله تعالى لما قال : ﴿كريم﴾ أي : لا يهون بكثرة القراءة ، ويبقى أبد الدهر غضا طريا ، والكريم : اسم جامع لصفات المدح ، وقيل : الكريم : الظاهر الفضل ، والقرآن كذلك ، لفظه صحيح ومعناه صحيح ، وكما أن الكريم عند العوام هو الذي لا يطلب منه شيء إلا وقد أعطاه ، وكذلك القرآن ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم يستمد منه ويحتج ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، مع أنه تعالى وصف القرآن بكونه كريما وبكونه عزيزا ، وبكونه حكيما ، فلكونه كريما كل من أقبل عليه ناله ، ولكونه عزيزا كل من أعرض عنه لا يبقى معه منه شيء بخلاف سائر الكتب ، ولكونه حكيما كل من أشغل به وأقبل عليه بالكلية أغناه عن سائر العلوم . (١) اهـ

ثم وصفه تعالى بكونه ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي : في حفظ ، علم محفوظ لا يتغير ولا يتبدل ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ أي : القرآن ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني : المطهرون من الأحداث . وفي التجريد : إن كان الضمير في ﴿يَمَسُّهُ﴾ للقرآن فقد اختلف في المطهرين ، ف قيل : المتوضئون قالوا : ولا يجوز للمحدث من المصحف وهو مروي عن محمد بن علي بن الحسين عليه السلام وعطاء وطاووس ، وسالم ، والقاسم بن محمد ، ومالك ، والشافعي ، وهو مذهب الإمامين القاسم ، والهادي عليهما السلام .

وقيل : المراد المطهرون من الشرك عن ابن عباس . وقيل : مطهرون من الحيض والجنابة ، وهو مذهب الإمام المريد بالله عليه السلام .

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى (المكنون) هو : المستور المخزون ، ومعنى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ أي : لا يستبطن عجائب معقولة وحكمه ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وهم الأئمة الطاهرون . اهـ . وقيل : الكتاب المصحف عن مجاهد وقتادة ، وقوله : ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صفة للقرآن ، أي :

(١) قوله قال بعضهم : المراد به الرازي ، وقد نقل المصنف كلامه بتصرف (انظر الرازي ١٩١/٢٩ ، ١٩٢ .

منزل^(١) ﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : من كلامه وقوله بنفسه ، قبل أن ينزل به روح قدسه ؛ لأن عظمة الشيء بعظمة الله ، فإذا جعلت الشيء قائما بالعظيم كان أعظم ، فلهذا قال تعالى : ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى : ﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أيضا لتعظيم القرآن ؛ لأن الكلام يعظم لعظم المتكلم ، يقال : كلام الملوك ، فإذا قال : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بين منه عظمة لا عظمة مثلها ، وعند هذا يتبين الحق .

ثم عاد إلى توبيخ الكفار فقال سبحانه : ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ العظيم ، وهو القرآن ﴿أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أو مداهنون بما لزمهم ، ومنافقون في التصديق به ، ذكر معنى هذا زيد بن علي عليه السلام وغيره من أئمتنا عليهم السلام^(٢) .

وقال الزجاج : المدهن — المداهن الكذاب ، والمنافق^(٣) وهو الجاري في الباطن على خلاف الظاهر ، هذا أصله ، وقيل للمكذب : مداهن ، وإن صرح بالتكذيب ، والمعنى : أفيالقرآن أنتم تكذبون ، وقيل : مداهنون أي : متهاونون فيه ، كما يدهن في الأمر أي : يلين جانبه فيه ، ولا يتصلب فيه تهاونا به .

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي : شكر رزقكم ﴿أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول : تجعلون شكرنا على ما رزقناكم تكذيبا منكم بقولنا ، وجحدانا لحقنا ، فقال سبحانه بذلك إذ كان شكرهم له على نعمه التكذيب بآياته ، وهذا لا يكون شكرا للمنع على نعمه ، إلا لمتعرض منه لحلول نعمة . اهـ

والمعنى : تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به ، وضعتم التكذيب به موضع الشكر . وقيل : الرزق المطر ، كانوا يقولون إذا مطروا : مطرنا بنوء كذا ، فكذبوا بكونه من الله تعالى . ثم قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا﴾ أي : فهلا ﴿إِذَا بَلَغْتَ﴾ أي : الروح ﴿الْحُلُقُومَ﴾ قصة الرقية

(١) في الأصل : أي : تنزيل ، وهذا لم تظهر فائدة زائدة على ما في الآية ، وقد استصوبنا منزل ، لأن تنزيل هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، وكثيرا ما يذكر المصدر ويراد المفعول .

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي ، والبرهان للإمام الناصر أبي الفتح الديلمي عليهم السلام جميعا .

(٣) هذا وجه ثان ، وهو غير ما قاله الزجاج ، وقوله : والمعنى : أفيالقرآن أنتم تكذبون . هذا على قول الزجاج . وقوله : وقيل : مداهنون أي : متهاونون .. هذا على الوجه الثاني ، وأن المراد بالمداهن المنافق .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يعني النفس عند خروجها من الحلق ، ولكنه اختصر لعلم المخاطب ، ولم يذكر النفس كما قال الشاعر^(١):

أَيَا مَيِّ مَا يَغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

يعني النفس عند خروجها من البدن ، ولكنه اختصر . اهـ

﴿وَأَنْتُمْ﴾ يا أصحاب الميت ﴿حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ إليه وهو في النزاع ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي : المختصر ﴿منكم﴾ بقدرتنا وعلمنا ، أو بملائكة الموت ﴿وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ أي : لا تشاهدون قربنا إليه ، والاستفهام قد يستعمل للإنكار ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾^(٢) وقوله : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي : لم لا تقولون ما تقولونه عند الموت ، وفيه إشارة إلى أن كل واحد يؤمن عند الموت ، لكن لا يقبل منهم عند النزاع ، وقوله : ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ تأكيد لبيان الحق ، أي : في ذلك الوقت تصير الأمور مرئية مشاهدة ، ينظر إليها كل من يلقي في تلك الحالة .

ثم قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد فهلا إن كنتم غير مجازين بأعمالكم ، ولا محاسبين على أفعالكم قال الشاعر :

وَأَيَّامَ لَنَا غَرَطُوَالْ عَصِينَا الْمَلِكُ فِيهَا أَنْ يَدِينَا

يريد : [أَنْ] يحتكم للجزاء .

وقوله : ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي : ترجعون النفس بعد موتها ، أي : تردون الروح إلى الميت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم غير مجزين ولا مملوكين .

(١) في الأصل (أَيَا مَيِّ مَا يَغْنِي الرِّقَاءُ) ولفظ الرقاء غير ظاهر ، وفي القرطبي (الثراء) فأثبتنا ما في القرطبي . وقد نسبته القرطبي في تفسيره إلى حاتم ، ولفظه في القرطبي :

أَمَاوِيَّ مَا يَغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجْتَ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(٢) الواقعة : ٨١ .

(٣) الصافات : ١٢٥ .

وقوله: ﴿ترجعونها﴾ جواب لسببين الأول: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ والثاني: ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾^(١) وفلولا الثانية مكررة للتأكيد، والمعنى: أنكم في جحودكم آيات الله وأفعاله إن أنزل عليكم كتابا قلتم: سحرا، وإن أرسل رسولا قلتم: ساحر، وإن رزقكم مطرا قلتم: صدق نوء كذا، على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغها الحلقوم إن لم يكن ثم قابض، وكنتم صادقين في كفركم بالحجي المميت، أو إن كنتم صادقين أنكم غير مدينين، أي: غير مجزين ولا مبعوثين.

ولما بين أن الحشر بعد الموت لازم — بين ما يكون بعد الحشر ليكون ذلك حاملا للمكلف على العمل الصالح، وزاجرا للمتمرد عن العصيان والكذب، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني من الأزواج الثلاثة، أي: السابقين إلى أفعال الخير، وطاعة الله عز وجل كما تقدم في أول السورة ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ هذا وجه تعلقه معنى، وأما تعلقه لفظا فكأنه قال: أنتم بعد الموت دائمون في دار الإقامة ومجزون، فالمجزي إن كان من المقربين فله الروح والريحان، وفيهما وجوه أحدها: هو الرحمة قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾^(٢) أي: من رحمة الله، وثانيها: الراحة، وثالثها: الفرح، وأصل الروح: السعة.

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: الروح: هو الريحان، وهو يريد النسيم والرائحة من الهوان الأليم، إلا أنه وكد الروح بذكر الريحان، كما وكد ذكر الرحمة بالرحيم والرحمن، وذلك تأكيد وزيادة في البيان^(٣).

(١) قال الرازي: أجمع المفسرون على أن لولا في المرة الثانية مكررة، وهي بعينها هي التي قال تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ ولهذا جواب واحد، وتقديره على ما قاله الرمحشري: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم، أي: إن كنتم غير مدينين ٢٩٠/٢٠٠.

قال السيد العلوي: قوله: فلولا الثانية مكررة للتوكيد، وقال أبو البقاء: ترجعونها جواب الأولى، وأغنى ذلك عن جواب الثانية، وقيل: عكس ذلك، وقيل: لولا الثانية تكرير، وقيل: إن كنتم شرط دخل على شرط، فيكون الثاني مقاما في التقدير أي: إن كنتم صادقين إن كنتم غير ملوكين فأرجعوا أرواحكم إلى أبدانكم ممتعين عن الموت قبل. حاشية العلوي ٣٠٤.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العبادي عليه السلام أول السورة، واللفظ فيه كما ورد هنا، ووكد بمعنى أكد.

وفي البرهان : يعني عز وجل روحا من الغم ، وراحة من العمل ؛ لأنه ليس في الجنة غم ولا عمل ، وكذلك الريحان فيه راحة للروح . اهـ

وفي التجريد : الروح : الاستراحة ، والريحان : الرزق في الجنة .

ثم قال عز وجل : ﴿وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ لا يقدر على وصفه .

ثم رجع إلى ذكر المؤمنين فقال : ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أهل الميمنة الزوج الثاني من السعداء ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ يا صاحب اليمين ^(١) ﴿مِنْ﴾ إخوانك ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي : يسلمون عليك ، كقوله : ﴿إِلَّا قِيلَا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وقيل : سلامة لك من الغم يا من يشتغل بهم ، والمراد : لا تهتم بأمرهم ، فإنهم في نعيم ، وقيل : المراد سلامة من عذاب الله ، وتسلم عليه الملائكة ، وقيل : تقديره فسلام إنك من أصحاب اليمين ذكره في البلغة ، وهو يفيد عظم حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به وحسبك .

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ﴾ بالحق والجزاء ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى ، وهم أصحاب المشأمة ﴿فَنَزُلُ﴾ أي : فلهم نزل أعد لهم ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي : من شراب ماء حار ﴿وَنَصْلَةٍ جَحِيمٍ﴾ أي : دس في النار يغمرون بها ، كالشاة المصلية ، وهي المدسوسة وسط الجمر .

قال الرازي : وفيه مباحث الأول : قال : ﴿المكذبين الضالين﴾ وقال من قبل : ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون﴾ الثاني : ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة ، وأعادهم بعبارة أخرى ، فقال : ﴿أصحاب الميمنة﴾ ثم قال : ﴿أصحاب اليمين﴾ و ﴿أصحاب المشأمة﴾ ثم قال : ﴿وأصحاب الشمال﴾ وأعادهم ، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد ، أو بلفظتين مرتين ، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين ، وفي آخر السورة بلفظ المقربين ، وذكر أصحاب النار في الأول بذكر أصحاب المشأمة ، ثم بلفظ أصحاب الشمال ، ثم بلفظ المكذبين ، فما الحكمة فيه ؟ .

قال : نقول أما السابق فله حالتان إحداها : في الأولى ، والأخرى في الآخرة ، فذكره في

(١) قوله : فسلام لك يا صاحب اليمين . المراد بالخطاب هو صاحب اليمين ، و(من إخوانك أصحاب اليمين) تفسير قوله : أصحاب ، و(من) في إخوانك للابتداء ، وقيل : فيه إشارة إلى الاختصاص المستفاد من الالتفات في الآية . العلوي

المرّة الأولى بما له في الحالة الأولى ، وفي الثانية بما له في الحالة الآخرة ، وليس له حالة متوسطة من الوقوف للعرض والحساب ^(١) بل هو ينتقل من الدنيا إلى أعلى عليين ، ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظتين متقاربتين لأن حالتهن قريبة من حال السابقين ، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة ، كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم [بأنهم أصحاب موضع شؤم] فوضفوا بهم بموضع الشؤم [فإن المشأمة مقفلة وهي الموضع] ، ثم قال : ﴿أصحاب الشمال﴾ لأنهم في القيامة على الشمال لأنهم من أهل النار ، ثم لما ذكر الله حالهم في أول الحشر لكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم . ثم لم يقتصر عليه ، ثم ذكر السبب فيه فقال : ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرّون﴾ فذكر سبب العقاب لما بينا أن العادل يذكر للعقاب سببا ، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سببا فذكرهم في الآخرة بما عملوه في الدنيا فقال : ﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾ ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ القرآن الذي نزل عليكم ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي : الحق الثابت اليقين ، أو الإشارة إلى ما ذكر — إلى هذه السورة — من قصة المحتضر ، أو إلى ما ذكره في حق الأزواج الثلاثة ، وفي إضافة الحق إلى اليقين نوع تأكيد ، أي : هذا حق الحق ، وصواب الصواب ، كأنه قال : هذا هو اليقين حقا ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .
وأما قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فقد مر شرحه أنه تعالى لما بين الحق قال لنبيه : هذا حق ، فإن امتنعوا هم فلا تعرض عنهم وسبح ربك ، فما عليك من قومك صدقوك أو كذبوك ، ويحتمل أن يريد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم . والله أعلم .

(١) في الرازي : وليس له حالة واسطة بين الوقوف للعرض ، وبين الحساب .. الخ . وما هو مذكور هنا هو المناسب لما بعده من الكلام

(٢) انظر الرازي ٢٠٣/٢٩ . وفيه زيادة بعد قوله : ﴿من المكذبين الضالين﴾ ليكون ترتيب العقاب على تكذيب

الكتاب ، فظهر العدل ، وغير ذلك ظاهر . اهـ وما بين الأقواس من الرازي .

سورة الرحمن

سبعون وسبع آيات في الحجازي والمكي، وثمان في الكوفي والشامي، وست في البصري (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿الرَّحْمَانُ﴾ مبتدأ وما بعده إخبار مترادفة، ولم يدخل الواو بينها لمحيثها على نخط التعديد، كما نقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه.

قال في البرهان: (أما ﴿الرحمن﴾ فهو: اسم من أسماء الله تعالى، لا يجوز لأحد من الناس أن يستعملوه [في أسمائهم] أو يتحلوه في صفاتهم^(١)).

وفي معنى ﴿الرحمن﴾ يقول الهادي إلى الحق عليه السلام: ﴿الرحمن﴾ هو الواحد ذو المن والإحسان والرحمة والامتنان ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أنزله وأمر بقراءته وتعلمه^(٢). اهـ

(١) انظر البرهان مخطوط، وما بين الأقواس منه، وزاد فيه أيضا ﴿علم القرآن﴾ أي: علم رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بلغ جميع الناس وعلمهم.

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليها السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه:

أخبرنا أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان﴾ آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿علمه البيان﴾ معناه: بين له سبل الهدى والضلالة.

وقوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ معناه: بقدر يجران.

وقوله تعالى: ﴿والنجم يسجدان﴾ النجم: ما نجم من الأرض ولم يقم على ساق، والشجر: ما قام على ساق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسُرُوا الْمِيزَانَ﴾ معناه: لا تنقصوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّحْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ﴾ معناه: ذات الليف ﴿وَالْحَبَّ ذُو الْعَصْفِ﴾ فالعصف: الذي يؤكل أذنته، معناه: أعلاه ﴿وَالرِّيحَانَ الَّذِي يُوَكَّلُ﴾ وقال: الریحان الرزق.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وخلق الجن من نار ﴿قَالَ الْإِمَامُ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: الصَّلْصَالُ: الطين اليابس الذي لم يطبخ، وإذا طبخ فهو الفخار، والمرج: الخالط.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فالآلاء: النعمة، واحدها إلى، وأراد به الجن والإنس.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ معناه: مشرق الشتاء، ومشرق الصيف. و﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ معناه: مشرق كل يوم، ومغرب كل يوم.

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان معناه: المخلط من الماء، يلتقيان من العذب والمالح، واللؤلؤ: العظام، والمرجان: الصغار من اللؤلؤ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجَوَارِ الْمُنْشآتِ﴾ فالجواري: السفن، والمنشآت: الحجريات، والأعلام: الجبال واحدها علم.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال الإمام زيد بن علي عليه السلام: يجيب داعياً، أو يفك عقاباً، أو يشفي سقيماً، أو يغني فقيراً، أو يرفع ضعيفاً.

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ معناه: سنحاسبكم، والثقلان: الجن والإنس.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاقْطَرُوهَا﴾ فاقطروها: حوائبها، وتنفثوها: تفوتوها.

وقوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاظٍ مِنْ نَارٍ وَغَمَاسٍ﴾ معناه: نار تأجج ولا دخان لها، والغماس: الدخان.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ معناه: كلون الورد، والدهان: جمع دهن، وقال: وردة حراء، والدهان: الجلد المشور. وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ معناه: لا يسأل أحد عن ذنب أحد.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْجَرْمُونَ بِسِمَاتِهِمْ﴾ معناه: بعلاماتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنْ فَالْحَمِيمِ: الحار، والآن: الذي قد انتهى حره.

وقوله تعالى: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي: أغصان، وقال: الأفنان: هي الأغصان على الحيطان.

وقوله تعالى: ﴿مَتَكِينٍ عَلَى فَرْشٍ بَطَانَتِهَا مِنْ اسْتَرِقٍ﴾ فالبطائن: الظواهر، والاستريق: ليس في صفاقة الدياج، ولا خفة الفريد.

وقوله تعالى: ﴿وَحْنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ فالحنى: الثمار التي تجنى، والداني: القريب الذي لا يعي الجاني.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاصِرَاتِ الطُّرُقِ﴾ معناه: لا تطمح أبصارهن إلى غير أزواجهن.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا﴾ معناه: لم يمسهن. وقوله تعالى: ﴿هَلْ حِزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ قال الإمام زيد بن علي عليه السلام: فالإحسان الأول: هو الإيمان والتوحيد، والإحسان الثاني: هو الجنة.

وقوله تعالى: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ أي: حضراوان كالسود من شدة ربهما.

وفي الذي علمه القرآن قولان أحدهما : أنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلمه الله القرآن ، وعلمه محمد أمته ، حتى بلغ جميع الناس ، وهذا في البرهان .
والثاني : أنه عام لمحمد ولغيره من الملائكة ، فإن الله علمهم القرآن قبل خلق آدم وذريته ، ومن ثم قدم علم القرآن على خلق الإنسان ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاجَتَانِ ﴾ معناه : فوارتان .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴾ معناه : خيار ، واحدها : خيرة .

وقوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ واحدها : حورا ، وهي الشديدة بياض العينين ، والشديدة سواد العين ، ومقصورات : أي : مخدورات ، في الخيام : المنازل .

وقوله تعالى : ﴿ مَتَكِينٌ عَلَى رَفْرَفٍ ﴾ معناه : فرش وبسط ، ويقال : الوسائد ، ويقال : أرض الجنة .

(١) ومن تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه :

﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ أي : الكلام بين المفهوم ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أي : بحساب معروف ، ومعنى ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي : لا تمورون ﴿ ولا تحسروا ﴾ أي : لا تنقصوا ، ومعنى ﴿ والأرض وضعها للأنعام ﴾ أي : للخلق ، والأنام : الخلق ، قال الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصفير من هذا الأنام المسخر

﴿ ذات الأكماس ﴾ أي : ذات الغلف التي تكون فوق الطلع ، واحدها : الطلعة ، قال الشاعر :

كأن على أسنانها عذق نخلة تدلى من الكافور غير مكتم

﴿ والحب ذو العصف ﴾ أي : ذو العشب والتبن ، قال الشاعر : كصف قد تواكله الجواني

﴿ والريحان ﴾ هو شجرة طيبة الرائحة . ومعنى ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي : فبأي نعم ربكما وفضائله تكذبان ، وهذان المكذبان فهما القليلان الإنسي لنعم الله ، والجنان ، ومعنى ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من مارج من نار ﴾ الصلصال : هو الحمأ اليابس الذي يتصلصل إذا وطى وحرك ، ومعنى ﴿ كالفخار ﴾ في خلوص ترابه ، والفخار : هو طين الكيزان المعروف ، قال الشاعر :

كيف الجحود وإنما خلق الفتى من طين فخار له صلصال

والمارج : هو طب النار الذي يتقطع في الهواء عند اضطرامها ، ومعنى ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني : مشرق الشمس ومشرق القمر ومغربهما . ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ أي : خلط أطرافهما ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ البرزخ : هو الحاجز بينهما ﴿ لا يبغيان ﴾ أي : لا يتعديان ولا يختطان . ومعنى ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ هو ضرب من ضروب الجواهر ، قال الشاعر :

وأصبح الظل في أفاته علقا كأنه لؤلؤ أو فضل مرجان

ومعنى ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ يعني السفن ، والأعلام : هي الجبال ، قالت الخساء في أخيها :

وإن صحرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أي : كأنه جبل ﴿سفرغ لكم أيها الثقلان﴾ أي : من هذه المدة التي هي دون يوم القيامة ، والثقلان : هما الجن والإنس ، والمعشر : هم الجميع ، ومعنى قوله : ﴿إن استطعتم﴾ يريد إن قدرتم ﴿فأتقوا﴾ أي : فآخروا على وجه التحدي لهم والبيان لعجزهم عن ذلك ، ثم قال مخبرا عن ضعف الجميع ﴿لا تنفلتون إلا بسلطان﴾ أي : بقوة من الله الواحد الرحمن ﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ الشواظ : هو النار قال الشاعر :

تضيء كضوء ذبال السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

ومعنى ﴿فكانت ورده كالدهان﴾ الوردة : هي الحمراء ، هي الدهان لرقتها وضعفها ، وقيل أيضا : إن الدهان في اللغة هو الأديم الأحمر ، ومعنى قوله ﴿يعرف المحرمون بسماهم﴾ السماء : هي العلامات والصور والهيئات ﴿فؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ النواصي : هي مقادير الرؤوس ، والأقدام : مواطئ الأرجل ، قال الهادي إلى الحق ضلّلت الله عليه : يؤخذ بالأقدام والنواصي من كل جبار ، وكل عاص ﴿وبين حيم أن﴾ الآتي : هو الحار فيما روي والله أعلم . ومعنى ﴿ذواتا أفنان﴾ أي : أغصان وألوان ، والواحد من الأفنان ، قال الشاعر :

سوى ناعبات في الديار ترعنا يصحن على أفنان بان نوايس

ومعنى قوله : ﴿من كل فاكهة زوجان﴾ أي : صنفان ﴿وجنى الجنتين دان﴾ أي : ثمرها قريب غير بعيد . ومعنى قوله : ﴿قاصرات الطرف﴾ أي : غاضات الأبصار عن غير أزواجهن ، ورعات عن النظر إلى ما حظر الله عليهن . ومعنى ﴿لم يطمئنن إنس قبلهم ولا جان﴾ الطمئ هاهنا : هو الجماع والإدعاء ، قال الشاعر :

مشين إلي لم يطمئن قلبي وهن أصبح من يرض النعام

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ يريد : في حسن الصور ، وصفاء الألوان ﴿مدهامتان﴾ أي : قد علا سوادهما لشدة خضرتهما ، ومعنى ﴿عينا نضاختان﴾ أي : ينضح ماؤهما حوالهما لغزره ، قال امرؤ القيس :

فغادى عداء بين ثور ونعجة دراكما ولم ينضح بماء فيغسل

ومعنى قوله : ﴿عيرات حسان﴾ أي : مسلمات حسان الصور ﴿حورا﴾ أي : كحل دمع ﴿مقصورات﴾ أي : محجوبات في خيام الدياج ، ومعنى ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري﴾ المتكأ : هو المضطجع على أحد شقيه ، قال المرتضى لدين الله :

لا تولا متكأ الأرائك في البيت على الفرش أو لذيد الطعام

والرفرف : هو الفراش اللين والعبقري : قيل : إنه الفراش الغليظ من فرش الدياج ، قال الشاعر :

أكلف أن يحمل بنو سليم جنوب الإثم ظلم عبقري

أي : ظلم شديد ﴿تبارك اسم ربك﴾ أي : تعالى ذكره ، ومعنى ﴿ذي الجلال والإكرام﴾ هو القدر والعظمة والسلطان . والإكرام : هو الرحمة والكرامة للمؤمنين والإحسان .

ثم قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ فهو فطره وجعله وصوره ، وقدره ، ومعنى ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فهو : هداه إلى البيان ، وفهمه اللغة واللسان ، وفهمه ما يحتاج إليه من الحجج والبرهان^(١) .

(١) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام تحت عنوان مسائل الهادي عليه السلام (مخطوط)

قال الإمام الهادي عليه السلام : وسألت عن قول الله سبحانه : ﴿الرحمن علم القرآن ..﴾ إلى قوله : ﴿والحب ذو العصف والريحان﴾ ومن قوله : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فقلت : لم يذكر في أول هذه السورة اثنين ؟ فمن هذان ؟ فنقول : ﴿الرحمن﴾ فهو ذو الرحمة والإحسان ﴿علم القرآن﴾ فقد يكون تعليمه له هو تنزيله ، والحض على قراءته وتعليمه بما جعل في ذلك من الثواب لمن كان له من القارئ ، وبه في الليل من المتجهدين ، وقد يكون معنى ذلك : هو الدلالة منه سبحانه على تأويله ، والتسديد والتوفيق لعلم غامض سنته ، وللمن بذلك على عباده المؤمنين ، والإحسان به إلى أوليائه الشاكرين . فأما قوله : ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ فخلق له إيجاده له وتعليمه إياه ﴿البيان﴾ فهو تركيه فيه ما به يميز

ما بين السواية والإحسان ، ويفرق به بين الخير والشر ، وينقلب به فيما يحتاج إليه من الأمر ، وينال به الطاعات ، وينحرف به عن المهلكات من المعقول المفطور عليه ، المركب بفضل الله فيه ، ومن البيان ما جعله فيه من استطاعة القول ، والكلام باللسان ، وما ينال به من الحاجة لمن حاجه من الإنسان ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ فالحسبان : هو الحساب بالأيام والشهور والسنين والأزمان ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فسجودهما هو سجود من سجد لعظمة خالقهما عن تفكير في عجيب أمرهما ، وتصويرهما وما في خلقهما من العبر والآيات ، من ارتفاع النجوم ونورها وبجاريها وسيرها ، واعتدالها في فلكها وتوابعها ، وغير ذلك من عجيب حالاتها ، وكذلك الشجر في اختلافه وثمره ، وما نرى فيه من تدبير خالقه ، واختلاف ألوانه وطعمه ، وعجيب فعل الله في تغذيته وتقبيله من حالة الصغر والفساد إلى حال الانتهاء ومنافع العباد ، فلما أن كان سجود من يسجد لله من المؤمنين العارفين بالله المعترين للمستبدلين عليه بما خلق من المخلوقين من أجل ما يرون من آيات الله في خلق البشر ، وعجيب ما فعل في النجوم والشجر جاز أن يقول : ﴿يسجدان﴾ وإن كان الساجد غيرهما من الإنسان ، كما جاز أن يقال : إن الله زين للكافرين أعمالهم ، وأغفل عن ذكره قلوبهم ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ وقوله : ﴿زيننا لهم أعمالهم﴾ الترين من الله : فهو الإملاء والتأخير والنظرة والتعمير ، وكذلك الإغفال : فهو ترك التوفيق لهم والتسديد ، والعون من الله والتأييد ، فلما أن كان من الله السبب الذي كان به غفلة قلوبهم وإكسابهم ، لذلك جاز أن يقول : أغفل الله قلوبهم . وكذلك الترين لأعمالهم ، لما أن كان من الله السبب الذي كان به الترين جاز أن يقال : زين الله لهم أعمالهم ، لا أن الله فعل الترين للكفرة ، ولا شاءه ، ولا أراده منهم ، ولا ارتضاه ، ولا أغفل سبحانه عن ذكره قلوبهم ، بل نهاهم عن ذلك ، وعاقب من كان من الخلق كذلك ، فعلى هذا المثال والمجاز من قوله الله جاز أن يقال : ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ وإن كانا في أنفسهما لعدم استطاعة التخير لم يسجدنا ، ولكن لعجيب تدبير الله وصنعه فيهما إذا أسجد عباده المعترين

وأخشعنا من كان ذا خشية لرب العالمين . وأما قوله : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ فإنَّ جلاله بما رفع السماء بلا عمد ، ودلالة منه على قدرته لكل أحد ،

وقوله : ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فهو جعل الميزان ودل عليه ، وجعله حكما عدلا بين عباده لا حيف ولا ظلم فيه ، ثم نهاهم عن الظلم فيه ، وأمرهم باتباع القسط فيه ، والوزن بالحق والإحسان ، ونهاهم عن البخس والعدوان . ثم قال : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ فِيهَا فَالْكَهْةُ﴾ يقول : دحاها ، وللأنعام مهدها ، وأخرج لهم ما ذكر من فاكهتها تفضلا عليهم بها ، وإحسانا منه إليهم فيها ﴿وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ﴾ فالأكمام قشر الطلعة ، والغلاف الذي يكون فيه الشماريح قبل افتتاق أكمامها ﴿وَالْحَبَّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانَ﴾ الحب : فهو الحنطة والشعر ، وغير ذلك مما جعله اللطيف الخبير ، والعصف : فهو قصب الحب الأجوف ، الذي لا حشو فيه ولا صلابة لديه ، وذكر الواحد الجليل فيها حبرا من فعله في أصحاب الفيل حين يقول : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ثم قال : ﴿فَبَأَى آلاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ فعني بذلك من خلق الإنسان والجان ؟ والمنجاني في سورة الرحمن فهما الثقلان ، ألم تسمع كيف يقول سبحانه : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُتُوا لَا تَنْفُتُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ . اهـ من مجموع تفسير الأئمة ، وقد أورد المؤلف بعض ما نقلناه مرفقا ، ونصرف في بعضه

وفي ص ٣٩٢ من مخطوط المجموع من مسائل الهادي ، فقال : معنى الحسان : فهو بحساب وعدد ، ومعنى بحساب وعدد فهو للحساب والعدد يقول سبحانه : خلقنا الشمس والقمر ، وجعلناهما يعرف بهما ويسيرهما عدد الشهور والأيام والسنين والدهور ، وبحسب سيرهما عدد الأيام والليالي ، فيكون ذلك دليلا على حساب الدهور والأزمان .

وفي مجموع تفسير الأئمة مسائل الإمام الهادي عليه السلام ص ٤٨٧ من المخطوط قال عليه السلام :

﴿وَالنَّجْمَ وَالشَّجَرَ يَسْجُدَانِ﴾ فمعنى سجودهما : هو إسجادهما للمعتبرين المستدلين على الله من رآهما ، فلما أن كان السجود من معنى الساجدين جاز أن يطرح الساجدين ، ويثبت السجود كما قال : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ لما كانت القرية من سبب الأهل طرح الأهل وأثبت القرية ، وقد فسرنا يسجدان في موضع آخر ، واستقصاء التفسير فيه مع تفسير قوله : ﴿وَأَنْ يَسْجُدَ﴾ .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ معنى ﴿رَفَعَهَا﴾ هو علقها سماء وأقلها فوق الأرض ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ فهو جعل الميزان وهدى إليه ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ يقول : لا تظلموا فيه ولا تحتالوا بحيلة باطل عليه ، واستوفوا به وأوفوا ، فقد جعلته عدلا بيننا وبينكم ، وخلقته مينا لكم ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا﴾ واعدلوا الوزن ، وأوفوا بالحق ، ولا تبخسوا الميزان ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾ ومعنى وضعها : هو خلقها وبسطها ومهدها ﴿لِلْأَنْعَامِ﴾ فهم الخلق ﴿فِيهَا فَالْكَهْةُ وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ﴾ فالفاكهة : هي الفاكهة المعروفة من ألوان الفواكه والأشجار ، والنخل : فهي النخل المفهومة ذات الأكمام ، وتبقى الأكمام معلقة لا شيء فيها ، وهي القشور التي تكون عليه أول ما تخرج ﴿وَالْحَبَّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانَ﴾ فالحب ذو العصف : فهو الحب من البر والشعر ، والعصف فهو القصب الذي يدق فيكون تبا وهو الذي ذكر الله عز وجل أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول . والريحان هاهنا : فهو الرزق الواسع من الرحمن ، وهو في لغة العرب موجود ، اطلب من ريحان الله ، أي : اطلب من رزق الله ، ولربما صنف العرب الرزق ريحانا لما لها فيه من الطيب والمعيشة والإحسان .

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول : بأي نعم الله وإحسانه تكذبان ، ومعنى تكذبان أيها الثقلان ، والثقلان : فهما الجن والإنس ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ والإنسان : فهو آدم عليه السلام ، وهو بدء الناس ، والذي تفرعوا منه كلهم ، والصلصال : فهو الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يسه ، وصدم بعضه بعضا ﴿كالفخار﴾ يقول : هذا الطين في التيس والصلصلة كالفخار الذي [يظهر] صورته إذا دفر بعضه ببعض ، وإنما كان آدم صلصالا من بعد تصوير الله له جسما من صلصال قبل أن ينقله إلى الشحم والعظم والدم ، ومن قبل الصلصال كان طينا لازبا رطبا منفلكا . ﴿وخلق الجن من مارح من نار﴾ والجن : هي الجن كلها ، والمارج : الذي خلقت الجن منه : فهو اللسان الذي ينقطع ويذهب في الهواء من النار إذا أوجت وأوقدت ، وهو خالص النار وحيقيتها ، وإنما سمي مارجا لمرجه في الهواء ، ومرجه : فهو ذهابه وسرعته ، تقول العرب : فلان قد مرج ، أي : قد ذهب في معناه وأسرع ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ رب المشرقين ورب المغربين ﴿فقد تقدم تفسير﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿المشرقان والمغربان : فهما مشرقا الشمس والقمر ومغربهما من حيث يطلعان في الصيف ويغيبان ، وذلك أنهما في الشتاء مطلع ومغرب ، وفي الصيف مطلع والصيف ومشرق﴾ مخرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴿مخرج البحرين﴾ معناها : خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجرهما ، وإساحتها على وجه الأرض ، وهذا كاحتجاجنا في قوله ﴿مخرج﴾ وفي قول العرب : مرج الإنسان ، وقد تقدم شرح ذلك في أول السورة ، والبحران : فهما البحر المالح ، والبحر العذب ، وهو الذي يسمى دجلة ، والبحر المالح الذي يحصر إلى فارس ، وهما يلتقيان ويصطدمان ، وقدرهما على ذلك — سبحانه — من الشأن فيلتقي البحرين حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين ، ويقف السفر على ملتقاهما فينظر شق السفينة هذا أخضر ، وشقها هذا أبيض ، يشرب من يمنها مالها ومن يسارها عذبا ، ليس بينهما سبب يحجزهما ، ولا معنى ﴿بينهما برزخ﴾ والبرزخ : فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما ، وتقديره لالتقائهما واصطدامهما وما حجزهما به من قدرته سبحانه عن اختلافهما كما قال ذو الجلال والسلطان : ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ ومعنى ﴿يغيبان﴾ فهو : لا يجوز أن ما جعلاه ، ولا يقدر أن على أن يخرجهما ركباً عليه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴿فاللؤلؤ : هو اللؤلؤ المعروف المستغنى بفهم من سمع ذكره له من تفسير معناه ، والمرجان : فهو شيء أحمر يخرج منه فيجعل خرزا يلبيه من شاء وأراد﴾ ﴿وله الجوازي المنشآت في البحر كالأعلام﴾ فهي قلعوها التي ترفع بالحبال في رؤوس الأدغال لتدخل الريح فيها فتجري بها فتحملها على ظهر الماء بتقدير ربها ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿يخبر سبحانه أن كل شيء فان مما عليها ، وهذه التي ذكر الله سبحانه أنما عليها يفنى فهي الدنيا ، أراد بعلها كل من فيها ، فقامت على مقام في ، والدنيا : فهو كل ما خلق من سموات وأرضين ، وما فيهن وبينهن إنسين أو جنين ، ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فمعنى ﴿وجه ربك﴾ هو ربك ، أراد الذات ، لا أن ثم وجهها موجها ، وأعضاء غير مؤلفة — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فأخبر سبحانه أن كل ما في الدنيا فان ، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شيء الباقي . يقرأ بالخفض ﴿ذو الجلال﴾ ولا يجوز أن يقرأ : ذو الجلال ، كما يقرأها الجهال ، ردا على ربك ، لا ردا على الوجه . الجلال : فهو الكبرياء والعظمة والجمال . والإكرام : فهو التقديس والإجلال والإنعام ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿معنى ﴿يسأله من في السموات والأرض﴾ فهو : تطلب منه الخواص وتسأله الفضل والرزق

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: الإنسان معروف ، وهذا اسم عام للذكر والأنثى ، يقال : هذه الإنسان ، وهذا الإنسان ، وقول من يقول : إنسانة لا أصل له إلا القياس .

قيل : يريد آدم ، وقيل : محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل : جنس الإنسان ، أي : خلق الناس جميعا . وقال في البرهان : ﴿ علمه البيان ﴾ يعني : ما فيه من الحلال والحرام ، والنسخ والأحكام ، والهداية إلى أوامر الله عز وجل .

وفي الكشف : ﴿ علمه البيان ﴾ أي : المنطق . عدد الله آلاءه فبدأ بأهمها ، وهي نعمة الدين ، وقدم ما هو أعلى مراتبها ، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ؛ لأنه أعظم وحي لله رتبة ، وأحسنه في أبواب الدين أثرا ، ثم عقبه بخلق الإنسان ليعلم أننا خلقه للدين والعلم بوحيه وكتبه .

ثم ذكر ما يميز به باللسان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في ضميره . اهـ لأن المقصود تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ، ومنعه عن التكذيب .

ثم قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي : بحسبان بحسبان ، قال الأخفش : أضمر الخبر إن الخبر بحسبان مقدران قبل قوله : ﴿ بحسبان ﴾ أي : بحسبان معلوم له ، وتقدير سوي ، بحسبان في بروجهما ومنازلهما ، وفي ذلك منافع منها علم السنين والحساب .

قال في البلغة : قيل : حسان مصدر كالشكران والكفران ، وقيل : حسان جمع حساب ، كشهاب وشهبان .

قال الهادي عليه السلام : ومعنى بحسبان يقول : خلقهما للحساب ، يعرف بهما السنون والشهور والأزمان ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾^(١) فمعنى سجودهما : هو إسجادهما

والمغفرة والرحمة ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يقول : كل يوم هو في تقدير ما يحتاج إليه ملكه ، وتقدير أمر خلقه من موت من يموت ، أو خلق من يخلق . (وقد جاء ما نقلناه آخر في ثانيا تفسير هذه السورة ولكن أردنا جمعه هنا تبركا وتيمنا بتفسير الإمام الهادي عليه السلام فنقلناه مجموعا) .

(١) قال الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام في كتابه المجموع (مخطوط من خزائن والدي العلامة إسماعيل بن عبد الله الهاشمي رحمه الله) :

للمعتبرين المستدلين على الله من رآهما ، فلما أن كان معنى السجود من معنى الساجدين جاز أن يطرح الساجدين ، ويثبت السجود ، كما قال : ﴿وأسألوا القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾^(١) وإنما أراد أهل القرية وأهل العير ، فلما أن كانت القرية من سبب الأهل طرح الأهل وأثبت القرية^(٢) . اهـ

قال في التجريد : في النجم قولان : أحدهما — أنه مالا ساق له من النبات الذي نجم من الأرض كالبقول ، وهو قول ابن عباس والسدي .

والثاني : أنه نجم من السماء ، والشجر ماله ساق كالتين والرمان ، وسائر الأشجار القائمة ، وسجودهما يريد سجودهما لأن يدلان على وجوب السجود لله تعالى ، وإنما أخرج عنهما بالسجود وإن كان حاصلًا في الشمس والقمر ؛ لأن السجود يناسبهما من حيث هما في الأرض ، ولأن ظلالهما يسجد ، ولا ضلال للشمس والقمر .

قال الرازي : وفي الترتيب وجوه أحدها : أن الله تعالى لما بين كيفية رحمن ، وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن — ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان ، فإنه نعمة جميع النعم به تتم ، ولولا وجوده لما انتفع بها ، ثم بين نعمة الإدراك بقوله : ﴿علمه البيان﴾ وهو كالوجود إذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع .

وأما قوله : ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فقد قال بعض العلماء : إن معنى السجود سجود ظلال الأشياء ، ووقعها على الأرض ، وقال بعضهم : إن هنا على المثل ، يقول : إنه لو كان في شيء من الأشياء من الفهم والتمييز مثل ما جعل الله في آدميين ، والشياطين والملائكة المقربين ، إذا عبد الله كل شيء ، وسبحه بأكثر من عبادة الآدميين وتسبيحهم ، فجعل هنا مثلاً ، كما قال سبحانه : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ أراد تبارك وتعالى : أنه لو كان في السموات والأرض والجبال من الفهم والتمييز ما في الآدميين ، ثم عرض عليها ما عرض على الآدميين ، من حمل الأمانات التي قبلها الآدميون لأشفقت السموات والأرض والجبال من حملها ، ولما قامت بما يقوم به آدمي من نقضها ، مع ما في الأمانة من الخطر ، وعظيم الأمر على من لم يؤدها على حقها ، ويقم بها على صدقها .

(١) يوسف : ٨٢ .

(٢) وفي مسائل الإمام القاسم عليه السلام (مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام) : وأما ما سألت عنه من ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ فتأويله : يخضعان لله ، ويدلان بكل ما فيهما من أصل وفرع ، أو مفترق عن أفعالهما أو مجتمع .

ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية ، وهي الشمس والقمر ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحسبان لا يتغير ، ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما أُنْتَفَع بها أحد ، ولو كان سترها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ، وبناء الأمر على الفصول .

ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهو النبات الذي لا ساق له ، والذي له ساق ، فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله ، وأما أن النبات هو أصل الرزق فلأنه إما نباتي وإما حيواني ، ولولا النبات لما عاش الحيوان ، والنبات هو الأصل قائم على الساق كالخنطة والشعير والأشجار الكبار ، وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض .

ثانيها : أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافيا لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ ، ﴿ والشمس ﴾ ، ﴿ والنجم والشجر ﴾ وغيرهما من الآيات إشارة إلى أن بعض الناس إن لم تكن النفس الذكية في الدلائل فله في الآفاق آيات منها : الشمس والقمر ، وإنما اختارهما للذكر ؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرها على وجه مخصوص ، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما في القرآن من الدلائل السمعية .

ثم ذكر وجهها ثالثا تركناه استغناء بهذين الوجهين .

ثم قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ فهو علقها سماء ، وأقلها فوق الأرض . اهـ .
وإنما فعل ذلك لحكم ومصالح منها : أن تجري الرياح بينها وبين الأرض ، ويتسع الهواء للسحاب ، ولأنه يجعل ما بين ذلك طريقا للطير ومسكنا للحو ؛ ولأنه جعل السماء مسكن ملائكته ومنتشأ أحكامه ، ففي بعدها عن الأرض التي هي مقر الثقلين تباعد عن معرفة بعض الغيب ، الذي أراد أنه تعالى أن لا يطلع عليه الثقلين ، ولغير ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ في الكشاف ﴿ الميزان ﴾ : كلما يعرف به مقادير الأشياء من مكيال وميزان ومقياس ، أي : خلقه موضوعا محفوظا

على الأرض للتسوية والتعديل بين عباده في أخذهم وإعطائهم . اهـ
والعطف على الجملة الابتدائية التي هي قوله : ﴿والشمس والقمر﴾ و﴿ووضع الميزان﴾ إشارة إلى العدل ، وفيه فائدة ، وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف العلوم ، وهو القرآن ، ثم ذكر العدل ، وذكر أخص الأمور له وهو الميزان وهو كقوله : ﴿وأنزل الكتاب والميزان﴾ فالمراد بالميزان : العدل ، ووضعه : شرعه ، كأنه قال : شرع الله العدل لئلا تطغوا في الميزان الذي هو العدل ، وإطلاق الوضع للشرع والميزان للعدل جائز ، ومثل هذا في البرهان ، واستشهد بقول حسان :

ويشرب تعلم أني بها إذا التبس الحق ميزانها

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ووضع الميزان﴾ فهو : جعل الميزان وهدى إليه ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ يقول : لا تظلموا فيه ، ولا تحتالوا بحيلة باطلة عليه ، واستوفوا به وأوفوا ، فقد جعلته عدلاً بيننا وبينكم ، وخلقته مبيناً . اهـ

ثم قال سبحانه : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ في المعاملات ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي : قوموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي : لا تنقصوه واعدلوا الوزن ، وأوفوا بالحق ، ولا تبخسوا وهو أمر بالتسوية ، ونهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية ، وتقوية باستعماله والحث عليه .

ثم قال سبحانه : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي : خلقها وسطحها ومهداها للأنام وهم الخلق ، أي : كلما على الأرض من دابة ، وقيل : الأنام الناس ، وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بها أكثر ، فإنه ينتفع بها ، وبما فيها وبما عليها ، وقيل : الجن والإنس عن الحسن فهي كالمهاد يتصرفون فيها خفضها مدحوة على الماء .

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ قال الهادي عليه السلام : فالفاكهة هي الفاكهة المعروفة من أنواع الفواكه والأشجار ، أي : ضروب مما يتلذذ به ﴿وَالنَّخْلُ﴾ فهي : النخل المفهومة ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ هي قشر الطلع الذي ينشق عما فيه من الشماريخ ، حتى يخرج الثمر من جوف الأكمام ، وتبقى الأكمام معلقة لا شيء فيها ، وهي القشور التي تكون عليه أول ما يخرج . اهـ

والأكمام : جمع كم بكسر الكاف ، وهو غلاف التمر ، الذي يغطيه ، والفاكهة : ما تطيب النفس ثم صار اسما لبعض الثمار ، والتنكير فيها للتكثير ، أي : كثيرة ، وكأن القائل يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به كل أحد .

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قال الهادي عليه السلام : فالحب فهو الحب من السبر والشعير ، والعصف : فهو القصب الذي يدق فيكون تبنا ، وهو الذي ذكر الله عز وجل أنه جعل أهل الفيل كالعصف المأكول . اهـ

وقيل : ورق الزرع ، والريحان : هو الرزق ، وهو اللب أراد فيه ما يتلذذ به من الفواكه ، والجامع بين التلذذ والتغذي وهو تمر النخل ، وما يتغذى به وهو الحب .

قري (والريحان) بالكسر ، أي : الحب ذو العصف ، الذي هو علف أنعامهم ، والريحان : الذي هو مطعم الناس ، وبالرفع أي : وذو الريحان ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : معناه أي : وفيها الريحان الذي يشم ، والمعنى : فيها الحب الذي يجمع قوت الناس وقوت البهائم ، وفيها أيضا ما يشم ، لأن المشمومات غذاء الأرواح ، قال النمر بن تولب :

وجنته وسماء درر

سلام الإله وريحانه

ذكر هذا في البرهان^(١) .

قال بعض علمائنا عليهم السلام : وأما تفسير الريحان بالرزق فبعيد ، وأما ما حكاه الفراء عن العرب أنهم يقولون : خرجنا نطلب ريحان الله أي : رزقه ، فيحتمل التشبيه والمجاز . اهـ

قلت : لا وجه للبعد في ذلك ، كيف والدليل عليه قائم ، وهو أيضا صريح قول الهادي عليه السلام فإنه قال ما لفظه : والريحان هاهنا فهو الرزق الواسع من الرحمن ، وهو في لغة العرب موجود ، تقول : اطلب من ريحان الله ، أي : اطلب من رزق الله . اهـ ثم قال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث تكفران ولا تشكران .

(١) ولفظ البرهان (والريحان : هو الذي يشم ، لأن المشمومات غذاء الأرواح ، قال النمر بن تولب :

وجنته وسماء درر

سلام الإله وريحانه

والآلاء : النعم ، والخطاب للجن والإنس بدلالة قوله : ﴿الْأَنَامُ﴾ فيما سبق ؛ لأن الأنام اسم للجن والإنس ، فعاد الضمير إلى ما في الأنام ، وبدلالة قوله : ﴿سَنَفَرُغْ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ فيما سيأتي ، ومثل هذا قاله الهادي عليه السلام .

ثم قال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ قال عليه السلام : والإنسان : فهو آدم عليه السلام وهو بدء الناس ، والذين تفرعوا منه كلهم ، والصلصال : فهو الطين اليابس الذي يتصلصل إذا حرك عند يسه وصدم بعضه بعضاً^(١) ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ يقول : هذا الطين في اليبس والصلصلة كالفخار الذي صوته إذا دقر بعضه ببعض ، وإنما كان آدم عليه السلام صلصالاً من بعد تصوير الله له جسماً من صلصال قبل أن ينقله إلى اللحم والعظم والدم ، ومن قبل الصلصال كان طيناً لازباً رطباً متعلكاً . اهـ

والفخار : الطين المطبوخ بالنار ، وهو الحرف .

ثم قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ قيل : أبو الجن ، وقيل : هو إبليس ﴿وَخَلَقَ الْجَسَانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ المارج : اللهب الصافي لا دخان فيه ، وقيل : المختلط بسواد النار ، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط ، وقوله : ﴿مِنْ نَارٍ﴾ بيان لمارج كأنه قيل : من صاف من نار ، أو مختلط من النار ، أو أراد من نار مخصوصة .

وقال الهادي عليه السلام : والجنان هي الجن كلها ، والمارج الذي خلقت الجن منه : فهو اللسان الذي ينقطع ويذهب في الهواء ، ومرجه : فهو ذهابه وسرعته ، تقول العرب :

فلان قد مرج أي : ذهب في معناه وأسرع . اهـ

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال في التحريد : وإنما كررت هذه الآية للتأكيد ، قال ابن قتبية : لما عدد الله في هذه السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته جعل بين كل نعمتين ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ليفهمهم النعم ، ويقررهم بها ، كما تقول لرجل : ألم أسكنك منزلاً ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم أعطك مالا أفتنكر هذا ؟ ألم أنصرك

(١) وفي مسائل الإمام الهادي عليه السلام (تفسير الأئمة ص ٤٢٢) : والصلصال : فهو الطين اليابس .. فهو يتصلصل ويتققع

إذا أصاب بعضه بعضاً .

على عدوك أفتنكر هذا ؟

فإن قيل : المقصود تعديد النعم على الإنسان فما وجه بيان خلق الجان ؟ الجواب من وجوه أحدها : ما بينا أن قوله ﴿ رَبِّكُمَا ﴾ خطاب مع الإنس والجن ، ثانيها : بيان فضل الله تعالى مع الإنسان حيث بين أنه خلق من أصل كشف كدر ، وخلق الجان من أصل لطيف ، فإنه إذا نظر إلى أصله علم أنه ما نال الشرف إلا بفضل الله تعالى .
ثالثها : أن الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة .

ثم قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ مشرقى الصيف والشتاء ﴿ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي آلاء ربكما تكذبان مغربيهما ، قال الهادي عليه السلام : والمشرقان والمغربان فهما مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما حيث يطلعان في الصيف ويغيبان ، وذلك أن لهما في الشتاء مطلع ومغرب ، وفي الصيف مطلع ومغرب غير مطلع الصيف ومشرقه ؛ لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ دل على أن لهما مشرقين ومغربين .

ثم قال تعالى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ مرج البحرين معناه : خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجراهما وأساحهما على وجه الأرض ، وهذا كاحتجاجنا في قوله : ﴿ مَرَجَ ﴾ وفي قول العرب : مرج الإنسان ، وقد تقدم شرحه في أول السورة .

والبحران : فهما البحر المالح والبحر العذب ، وهو الذي يسمى دجلة ، والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس ، وهما يلتقيان بموضع يقال له رأس نهر السد عند مقصاه من البصرة ، ومعنى ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ فهو : جعلهما يلتقيان ويصطدمان ، وقدرهما على ذلك سبحانه من الشأن فيلتقي البحرين حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين ، وتقف السفن على ملتقاهما فينظر شق السفينة هذا أخضر ، وشقها هذا أبيض يشرب من عينيها مالحا ، ومن يسارها عذبا ليس بينهما سبب يحجرهما ، ولا معنى .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ والبرزخ : فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما وتقديره لالتقائهما واصطدامهما ، وما حجرهما به من قدرته سبحانه عن اختلاطهما كما قال ذو الجلال والسلطان : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ أي آلاء ربكما تكذبان ومعنى ﴿ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ فهو :

لا يجوز أن ما جعله ، ولا على أن يخرجهما ركبا عليه . اهـ

أي : لا يتجاوز أحدهما ولا يبغي أحدهما على الآخر بالمجازة .

واعلم أن الماءين في طبيعتهما السيلان والالتقاء ، والبرزخ قدرة الله تعالى التي تمنعهما .

ثم قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ﴾ قال عليه السلام : فاللؤلؤ هو اللؤلؤ المعروف

المستغنى بفهم من يسمع ذكره له عن تفسيره ومعناه ﴿وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ﴾ فهو شيء أحمر يخرج منه فيجعل خرز يلبسه من شاء وأراد . اهـ

اللؤلؤ : الدر الأبيض ، والمرجان : الخرز الأحمر ، وقيل : اللؤلؤ كبار الدر ، والمرجان :

صغاره ، وقال : ﴿منهما﴾ قيل — والله أعلم — : من أحدهما وهو الملح ؛ لأنها لما

التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز ذلك كما يقال : يخرجان من البحر ، ومعلوم أنهما لا

يخرجان من جميعه لكن من بعضه ، وكما يقال : خرجت من البلد وإنما خرج من دار

واحدة ، وقيل : إنما يخرجان من ملتقاهما .

﴿وَلَهُ الْجَوَارِي﴾ أي : السفن الجارية ﴿الْمُنشآت﴾ أي : المرفوعات الشرع جمع

شراع ، وهو القلع الذي يسير السفينة .

وقال عليه السلام : قلوها التي ترفع بالحبال في رؤوس الأدغال لتدخل الريح فيها فتحري بها

فتحملها على ظهر الماء بتقدير ربها .

﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ جمع علم ، وهو الجبل الطويل ﴿كُلُّ مَنْ

عَلَيْهَا فَإِنَّ﴾ هالك يخبر سبحانه أن كل شيء فان مما عليها ، وهذه التي ذكر الله سبحانه إنما

عليها يفنى فهي الدنيا ، أراد بعليها كل من فيها ، فقامت على مقام في ، والدنيا : فهي كل

ما خلق من سموات وأرضين وما فيهن وبينهن من ملامكة ، أو جنين أو إنسين . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ؛

لأن الوجه يستعمل في العرب لحقيقة الإنسان ، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره

يقول : رأيت ، وإذا رأى غير وجهه من اليد والرجل مثلا لا يقول : رأيت — ثم نقل إلى

غيره من الأجسام ، ثم نقل إلى ما ليس بجسم ، يقال في الكلام : هذا وجه حسن ، هذا

وجه ضعيف ، وقول من قال : إن الوجه من المواجهة كما هو المستطور في البعض من الكتب الفقهية ، فذلك فاسد ، والأمر على العكس ، قاله الرازي .
وقوله ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَيَأْتِي آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ صفة للوجه ، أي : ذو الجلال قالوا : بالواو إجماعا .

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ويبقى وجه ربك﴾ هو : ربك ، أراد الذات ، لا أن نسمي وجهها موجهها ، وأعضاء كغيره مؤلفة ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فأخبر سبحانه أن كل ما في الدنيا فان ، وأنه تبارك وتعالى الوارث كل شيء الباقي .

(١٤) في مجموع الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام (مخطوط من خزانة والدي العلامة إسماعيل بن عبد الله الهاشمي رحمه الله تعالى ص ٢٧) ما لفظه :

باب تفسير قول الله سبحانه : ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ والرد على من قال : إن الله وجهها وإنه صورة يقال لأهل الجهالة والضلال فيما يقولون به في الله ذي الجلال ، ويصفونه به من الكذب والمحال ، وينسبون إليه من فساد المقال : ماذا تقولون في قول الله ربكم ؟ وما تعتقدون إذ أنتم في قولكم ترعمون أن لربكم وجهها كالوجه الذي تعقلون ، وأنه ذو أبعاد فيما تصفون ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ أفقولون : إنما سوى وجهه في سائر أعضائه التي تذكر ، يبقى معه أم يبقى دونه ؟ فإن قالوا : يبقى معه . قيل : وكيف يكون ذلك كذلك ، ولم يذكر البقاء لشيء من ذلك ، فلقد قلتم بخلاف قول العلي الأعلى ، إذ لم يحكم لغير الوجه بالبقاء ، وأنتم تقولون : إنه يبقى مع الوجه غيره من الأعضاء ، فلقد بقي مع الوجه إذا شيء وأشياء ، وإن قالوا : لا يبقى مع الوجه غيره من الأعضاء . قيل لهم : فقد دخل على الله سبحانه في قولكم الزوال ، والفناء ، والإعاق ، والذهاب ، والهلاك ، والبلى ، إذ بعضهم في قولكم يموت ويذول ، ويتغير ويفوت ، فلقد أدخلتم على خالقكم الصفات الناقصات الزائلات وأزحمت عنه ما وصف به نفسه من البقاء في كل الحالات ، فلا تجعلون بهذا من أحد هذين المعنيين الخالين الباطلين في الله المخالفين الذين تكونون باتتعال أحدهما بالله كافرين ، وفي دينه فاجرين ، وجميع أهل الإسلام مخالفين ، ومن الإيمان

والحق خارجين ، أو ترجعوا إلى قول المحققين ، وتابعوا في مقاتلهم الموحدين ، فقولوا كما يقولون : إن معنى الوجه في الله سبحانه وتعالى عن كل شأن شأنه : هو الله ، وأنه ليس بذي أعضاء ، ولا أبعاد ، ولا أجزاء ، وذلك فمعروف في العربية ، يعرفه كل من فارق لسان الأعجمية ، من ذلك ما تقول العرب : هذا وجه بني فلان ، تريد أنه المنظور إليه منهم في كل شأن ، وأنه رجلهم وسيدهم ، والقائم في كل أمر دونهم ، وتقول العرب : هذا وجه المتاع . تريد بذلك أنه أفضل ما يتناع ، وتقول : هذا وجه الرأي ، أي : محضه وصدقه ، وصوابه في كل أمر وحقه ، لا أن له وجهها كما يعرف من الوجه المخلوقة في البشر المحمولة المقدرة المركبة المصورة ، وفي ذلك وما كان كذلك ما يقول الشاعر :

وقد يهلك الإنسان من وجه أمته وينجو بإذن الله من حيث يحذر
فقال : من وجه أمته ، وليس للأمن وجه ، ولا صورة ، وإنما أراد أنه يعطب من الوجوه المأمونة عنده المحموده ، وقال آخر :
فأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرها ثقلا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبان لا لا
وقال آخر : أصبحت وجوههم شتى وكلهم يرى لوجهته فضلا على الملل
فقال : أسلمت وجهي ، وإنما أراد أسلمت ديني فاستسلمت ، وقصدت خالقي بكل عملي ، لا أنه أسلم وجهه دون قلبه ، ولا قلبه دون عمله ، ولا عمله دون نفسه وقوله .

ومن الحجة فيما قلنا به من البيان ، من أن وجهه هو لا بعضه في قيم اللغة واللسان ما يقول الشاعر :
إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يعد الله دمر
وقال آخر : أعوذ بوجه الله من شر معقل إذا معقل راح البقيع وهجر
ومما يحتاج به أهل اللغة ، وما قالت في ذلك ما يقول العلي الأعلى مما بين فيه أن وجهه (هو) لا بعضه ما يقول : ﴿وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ فقال : تريدون وجه الله ، وإنما أراد سبحانه : تريدون الله ، ومن ذلك ما حكى رب العالمين عن خير خلقه أجمعين ، محمد وأهل بيته الطيبين فيما كان من إطعامهم لمن ذكر الله من الأسير ، واليتيم ، والمسكين ، حين يقول : ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ فقال سبحانه : ﴿نطعمكم لوجه الله﴾ ذي العزة والسلطان ، وإنما أراد بذلك الله الواحد العزيز الرحمن ، وقال سبحانه فيما نزل من الفرقان : ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير﴾ فقال سبحانه : ﴿ولكل وجهة﴾ أي : لكل مؤتم وقلة ، ولم يرد بذلك من القول والخبر أنه وجه مصور في صورة من الصور

وقال : ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ الآية ، فقال : ﴿من أسلم وجهه﴾ أراد بذلك سبحانه من سلم نفسه لربه ، واستسلم له في جميع أموره ، وأخلص له سبحانه دينه ، وقال جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله : ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ فأمره بإقامة وجهه للدين ، والإخلاص في ذلك لرب العالمين ، ولم يرد الوجه دون القلب وسائر الأبعاد والأعضاء ، وإنما أراد بذلك العلي الأعلى : أقم نفسك لخالقك وربك ، وتأويل (أقم وجهك) فهو : قم بالدين

بكليتك لمصورك وجاعلك ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أتزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ فلم يرد سبحانه فيما ذكر عنهم أن للنهار وجهها ، كما يعقل من الوجوه ذوات التصاوير ، التي أمر بفصلها عند الوضوء ، ففقد عن ذلك العلي الكبير . وقال عز وجل : ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ يريد على حقيقتها وصدقها ، لا أن لها وجهها عند جميع الخلق غير ما قلنا به من الحقيقة والصدق ، ومن الحجة في ذلك ، والبيان ما يقول الله ذو الجلال والسلطان : ﴿فأين ما تولوا فثم وجه الله﴾ ولو كان كما يصف المشبهون ، ويقول به في الله الجاهلون : إنه وجه كما يعرف من وجوه المخلوقين — تعالى وتقدس عن ذلك — إذا لما كان في كل النواحي والأقطار . فعلى عن ذلك العلي الواحد الجبار ، إذ المتوجه يتوجه شرقا وغربا ، ومنا وشاما ، فلا يكون أبدا وجه واحد وجهها ، كما لا

(ذي الجلال) يقرأ بالخفض والياء ، ولا يجوز [أن] يقرأ بالضم والواو (ذو الجلال) كما يقرأها الجهال ردا على ربك ، لا ردا على الوجه . الجلال : فهو الكبرياء والعظمة والمحال والإكرام ، وهو التقديس والإجلال والإنعام . اهـ

قال في الكشف : وقرئ (ذي الجلال) صفة لربك ، ومعناه ذو العظمة والإكرام ، أو الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ، أو الذي يقال له : ما أحلك وأكرمك ! ، أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

قال فيه : فإن قلت — ما النعمة في ذلك ؟ قلت : أجل النعمة وأعظمها ، وهي محمي وقت الجزاء عقيب ذلك . اهـ

ثم قال عليه السلام : ومعنى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو : يطلب منه الخوائج ، ويسأله الفضل والرزق والمغفرة والرحمة .

وفي البرهان : أما من في السماء فهم الملائكة يسألونه الرحمة ، والمنازل الرفيعة ، ولا يسألون الرزق ، وأهل الأرض يسألون الرزق والمغفرة . اهـ

ثم قال سبحانه : ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَإِيَّاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال عليه السلام : يقول : كل يوم هو في تدبير ما يحتاج إليه ملكه ، وتقدير أمر خلقه من موت من يموت ويخلق من يخلق . اهـ

وقيل : معنى ﴿كل يوم﴾ أي : كل وقت يحدث أمورا ، ويحدد أحوالا ، قال صلى الله عليه وآله وسلم لمن سأله عن ذلك الشأن : (يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين) .

قال في التحرير : نزلت حين قالت اليهود : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئا .

وروي أن بعض الملوك سأل وزيره عنها فعبى عليه الجواب واستمهل ، فقال له غلام أسود : شأن الله أن يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويشفي سقيما ، ويسقم صحيحا ، ويتلى معافى ، ويعافى مبتلى

تكون الوجوه الكثيرة وجها ، وإنما أراد بقوله : ﴿فثم وجه الله﴾ أي : الموجود بكل جهة الله الذي هو سبحانه بالمرصاد لا يغيب عنه شيء من ضمائر أسرار العباد ، وهو المحيط بالغيوب ، ذو المن والأباد .

فرفعه إلى الملك ، فقال سيده : اخلع ثياب الوزارة .
 قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وعيد ، مستعار من
 قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد سأبتعد للإيقاع بك من كل ما يشغلني حتى
 لا يكون لي شغل سواه ، والمراد التوفر إلى النكاية والانتقام .

واعلم بأن الله تعالى يوصف بكونه لا يشغله شأن عن شأن ، ومعناه : أن الشأن الواحد
 لا يصير مانعا له تعالى عن شأن آخر ، كما أنه يكون مانعا لنا ، بل يوجد منه تعالى من
 الأفعال مالا يحصر ولا يحصى في آن واحد ، إذا عرفت هذا فقد أفادك التحقيق في قوله :
 ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ .

وما أحسن قول الهادي عليه السلام في معنى ذلك فإنه قال : معنى ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ هو
 سنفرغ من إفناء الأجل الذي جعلناه أجلا لإمهالكهم وتأخيركم ، فإذا أفئنا هذه المدة
 وفرغنا منها أتى كلاً ما أوعدناه عند فناء مدته ، وانقضاء مهلته وإمهاله من موت أو
 حلول نقم ، فهذا معنى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ و﴿ الثَّقَلَانِ ﴾ فهما الجن والإنس ، وقد يكون
 المعنى الذي ذكره الله أنه يفرغ منه هو مدة الدنيا التي جعلها الله ووقتها ، وقد يكون
 عند فراغه منها وإفائه لها ما يكون من الجزاء في يوم الدين جزاء للمثابرين ، وجزاء
 للمعاقبين^(١) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ أي : جماعة الثقلين ، مشتق من المعاشرة
 ﴿ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي : إن قدرتم على ﴿ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي :
 إن قدرتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ، ومن جوانب سمائي وأرضي .
 وفي البرهان : إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هربا من الموت
 ونحوه ، وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴿ فَانْفُذُوا ﴾ ثم قال : ﴿ لَا تَنْفُذُونَ ﴾
 أي : لا تقدرُونَ على النفوذ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا بقوة وغلبة ،
 وأنى لكم ذلك ، وهذا وعيد على مخالفتهم لأمر الله .

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة (مسائل الهادي عليه السلام) ص ٣٩٣ (مخطوط).

وروي أن الملائكة تحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة قد أحاطت به .

قال أكثر المفسرين : يقال لهم هذا يوم القيامة .

وقال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه ، وتوقيف للثقلين على عجزهما ، وأنهما غير خارجين من قدرته ، ولا إرادته ، ولا ما جعله لهما مسكنا من الأرض والهواء ﴿ إلا بسلطان ﴾ والسلطان : فهو السبب من الواحد الرحمن ، يقول : لا تنفذوه ، أي : لا تقطعونه ، ولا تجوزونه ، ولا تخرجون منه إلا أن يشاء الله ذلك فيقدركم على ما يشاء ، وينقلكم إلى ما يحب من الأشياء ، فهذا معنى السلطان ، الذي ذكره العلي الأعلى .

ثم قال تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ أي : على جبريكم ﴿ شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ ﴾ والشواظ : فهو اليسير من النار واللهب ﴿ وَنَحَّاسٌ ﴾ فهي : الدخان . اهـ .
والشواظ : اللهب الخالص ، قال : (ونار حرب تسعر الشواظ) .

وعن ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر ، والنحاس هنا : دخان قال التابعة الجعدي :

يضىء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

ذكره في البرهان وغيره ﴿ فَلَا تَنْصَرِفَانِ فَبَئِىَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال عليه السلام : يقول إن نزل بكم ما ذكرنا وأرسلناه عليكم كما قلنا فلم يكن عندكم لأنفسكم انتصار ولا امتناع أي : من عذابنا .

ثم قال تعالى ﴿ فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ ﴾ صارت أبوابا لنزول الملائكة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي : حمراء كلون الفرس الورد ، وقيل : المراد بالوردة هي الوردة المعروفة .

قال الهادي عليه السلام : هذا في يوم الدين عند تبديل السماء فحينئذ تنشق للبواد والفناء ، ثم تعود وردة كالدهان ، والوردة : إنما هي مثل مثله الله تبارك وتعالى به يخبر أنها تكون عند تمحيها وتقطيعها كاصفران الوردة ﴿ كَالْدَّهَانِ فَبَئِىَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يقول : يكون لونها كلون الوردة ، وتكون بعد هذا التحسّم كالدهان ، والدهان : فهو المهل الذي شبه الله به في غير هذا الموضع وهو ماء القطران وصفوه ، فأخبر الله سبحانه أنها

تكون كهذا الدهن عند رجوعها إلى الدخان ، الذي منه خلقت من بعد ما هي عليه اليوم من العظم والجسم الذي عليه جعلت^(١) . اهـ

قال في البلغة : قال بعض العلماء : السماء أول ما تنشق تحمر ثم تصفر ، ثم تخضر ، ثم تكون ألوانا ، وقيل : السماء تذوب من حر نار جهنم يوم القيامة ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم تنشق السماء ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ﴾ بعض الإنس ﴿وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي : جن .

قال زيد بن علي عليه السلام : معناه لا يسأل أحد عن ذنب أحد . اهـ
يعني : لا يقال له : أنت المذنب ، ولا يقال : من المذنب منكم ؟ بل يعرفون بسواد وجوههم وغيره .

وقال في البرهان : هذا موقف من مواقف الآخرة يختم على أفواه القوم ، وتكلم أيديهم وأرجلهم عما كانوا يعملون ، وفي مواقف آخر يسألون فينطقون لقوله : ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٢) .

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿لَا يُسْأَلُ﴾ هو : لا يسأل لاستفادة أمر مجهول ، وإنما يسأل للتقريع والإخزاء ، لا على أن يعلم منه شيء من الأشياء^(٣) .

قال في البلغة : لأنه عالم الغيب والشهادة ، ولكن سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم المذكورة ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

قال الهادي عليه السلام : السيماء الذي يعرف به المجرمون : فهو خلقهم وشناعتهم واسوداد وجوههم في ذلك اليوم مع آيات كثيرة بيدها الله فيهم ، ويجعلها علامات عليهم . عما يعرفهم بها خزنة جهنم فحيثئذ يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ، والنواصي : فهي شعور

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام (مسائل الإمام الهادي عليه السلام) مخطوط ص ٤٩٠ .

(٢) الأنبياء : ٢٣ انظر البرهان خ ص ٣٦٥ .

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩١ .

رؤوسهم وأرجلهم حتى تلقىهم في جهنم وبئس المصير ^(١) . اهـ
 والناصية : مقدم الرأس ، قيل : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل :
 تسحبهم الملائكة تارة تأخذ بالنواصي ، وتارة بالأقدام **﴿هذه﴾** أي : يقال لهم : هذه **﴿جهنم﴾**
 التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ^(٢) أي : ماء حار قد انتهى حره .
 قال [الهادي] عليه السلام : معنى **﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾** هو : يعذبون بها وبالحميم
 والآن فهو : الشديد الحمو الحارة جدا ، الذي قد انتهى وبلغ في الحرارة كل مبلغ ^(٣) . اهـ
 أي يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وشرب الحميم ، وقيل : يغمسون في الحميم حتى
 تنخلع أوصالهم قال : **﴿فبأي آلاء ربكم تكذبان﴾** ولا نعمة في العذاب إلا أنه أراد
 الإخبار بذلك لمن هو في دار التكليف ، وهو إنذار وتخويف ففيه نعمة ، وأي نعمة .
 ثم قال تعالى : **﴿ولمن خاف مقام ربه﴾** أي : موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب
﴿جنتان فبأي آلاء ربكم تكذبان﴾ قال في البرهان : يعني لمن خاف بأداء فرائض الله
 والاجتناب لما حرمه ، والمقام يوم القيامة إذا أزلفت الجنة ، وبرزت النار ، والجنتان :
 جنة عدن ، وجنة النعيم . اهـ

وقيل : معناه كأنه قيل : لكل خائفين منكما يا ثقلان جنتان ، جنة للخائف الإنسي ،
 وجنة للخائف الجن ، أو لكل خائف جنة لفعل الطاعة ، وجنة لترك المعصية .
 وفي البلغة : جنة داخل قصره ، وجنة خارج قصره .
 وأحسن من هذا كله قول المرتضى عليه السلام جوابا عن من سأله عن قوله تعالى : **﴿جنة﴾**
﴿وجنتان﴾ و **﴿جنات﴾** ^(٤) فقال عليه السلام : إنما خاطبهم الله سبحانه وأوقفهم على ما
 يعرفون ، فالعرب تعرف الجنة ما كان حائطا فنا واحدا سمي جنة ، وما كان من الأشياء
 فنا وفنان ، سمي جنة وجنتان ، وما كان كثيرا من الفنون سمي جنانا ، إذ كل فن من هذه

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩١ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩١ .

(٣) في الأصل (وجنان) وليس في القرآن هذا اللفظ وهذا الجمع ، وإنما الموجد من ألفاظ جمع جنة **﴿جنات﴾** .

الفنون إذا انفرد وحده انتظمه اسم الجنة ، فإذا اجتمع هو وغيره سمي جنانا ، من ذلك العنب يسمى جنة إذا كان حسنا جميلا ناضرا كثيرا ، ومن ذلك حائط النخل إذا كان ملتفا حسنا كثيرا سمي جنة ، ومن ذلك جميع أنواع الفواكه كلها إذا اجتمعت والتفت كما ذكر الله سبحانه جنة كتابه ، فأخير عز وجل أن في الجنة من هذه صنوفا مختلفة ، وكل فن منها فهو عظيم جليل مُغنٍ كثير فلذلك قال سبحانه جنة وجنتان وحنان ، إذ كل صنف من هذه يقوم بنفسه ويدعا باسمه ، فإذا اجتمعت لأولياء الله وأعطوها صارت جنانا لتفتنها ، ويجمعها اسم الجنة بتمليكها وعزها لأصحابها ، المحين لها ، المخلدين فيها ، والاسم جامع للجنة كلها متفنن عند تحديدها ، فهذا معنى ما سألتكم وعليه جواب ما أردتم ، مثل ذلك في افتراقه واجتماعه مثل رجل كان هو وغيره في دار عظيمة فيها حجر له متها حجرتان ، فكان يقال : حجرتا فلان ، وحجرة فلان ، ثم صارت تلك الحجر جميعا له وحواءها ملكه فصار القائل يقول : دار فلان ، وهي دور كثيرة إذ حواها ملكه ، ودار بها حده ، فكذلك جنان ذكرها الله مفترقة ، ثم جمعها بقوله : جنة إذ حواها كله حده الذي جعله الله له وقسمه عليه ، وأعطاه إياه ، فلما أن دخلت كلها في ملكه جاز أن يقال : جنة إذا صارت له مجتمعة ، كما كانت تلك الدار تسب له فيها حجرة وحجرتان ، فلما أن ملكها بجميع حجرها جمعها اسم الدار وهي مفترقة إذ صارت في يده ، وإنما قال الله تبارك وتعالى ذكره ترغيا لخلقه فيها ، فسماها جنانا عند الافتراق ، فلما اجتمعت انتظمها اسم الجنة . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ ذَوَاتِى أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : صاحبتا أغصان وألوان الواحد من الأفنان : فنن ، قال الشاعر (١) :

ما هاج قلبك من هدير حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

وقال آخر :
 ما هاج قلبك من هدير حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

سوى ناعيات في الديار يرعتنا يصخرن على أفنان بان مؤانس

والمعنى : أن فيها أفنانا من الأشجار ، وأنواعا من الثمار ، والتكثير للأفنان للكثرة ، أو للعجب .

(١) ذكره أيضا في البرهان ص ٣٦٦ .

ثم قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ أي: في الجنة نهران ﴿تَجْرِيَانِ فَبَآئِ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيث شأوا في الأعالي والأسافل ، وقيل: تَجْرِيَانِ من جبل من مسك .

وعن الحسن بن علي رضوان الله عليه: تَجْرِيَانِ بالماء الزلال إحداهما التسليم ، والأخرى السلسيل ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبَآئِ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: صنفان ، صنف معروف ، وصنف غريب ، وقيل: أراد صنفاً رطباً ، وصنفاً يابساً ، لا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب ، ولا رطبه على يابسه .

ثم قال تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرَشٍ﴾ يعني الخائفين ، والنصب على الحال ، تقديره يتفكّه الكائنون على فرش متكبين ، من غير بيان ما يتكبن عليه ، ويحتمل أن يكون الفرش ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج نخين ، وهي أدون من الظهارة ، دل على أن الظهارة فوق الإستبرق ، قيل: وظهائرها من سندس ، وهو مارق من الحرير ، وقيل: من نور ، وإذا كانت البطائن من الإستبرق ، فما ظنك بالظواهر .

قيل لسعيد بن جبير: فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ﴾ ذكره في التجريد .

ثم قال عز وجل: ﴿وَجَنَّتِ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبَآئِ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال في البرهان: أما الجنى فهو الثمر ، وروينا أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يتمثل بهذا البيت كل عشية إذا دخل في بيت مال المسلمين وفرق ما فيه :

هذا جنائ وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

دان : أي : دانية يعني ثمرها من الجنتي ، قريب لا يبعد على قائم ولا قاعد ، ولا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك .

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: في هذه النعم المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش ، أو الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور .

وقيل: قاصرات الطرف صفة لموصوف محذوف ، وهو النساء والأزواج ، كأنه قال :

ففيهن نساء قاصرات الطرف .
 قال الهادي عليه السلام أي: هن غواض الطرف عن غير أزواجهن عفة وطهارة وكرما^(١)
 أي: نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم .
 وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئُنَّ﴾ قرئ بكسر الميم وضمها ، ومعناها واحد ، أي: يجامعن ،
 وقيل: لم يفتضهن ، لأن الطمئ: النكاح بالتدمية .
 قال الحسين بن القاسم عليه السلام: الطمئ هنا للجماع والإدماء قال الفرزدق:
 دفعن إلي لم يطمئن قبلي وهن أصح من بيض النعام
 وقوله تعالى: ﴿إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ قَبَائٍ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الفراء: أي: لم
 يطمئ الإنسيات أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن، ومثله في الكشف قال:
 وفيه دليل على أن الجن ينكحون .
 وقال في البلغة: والجن لم تمس النساء ، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الوصف .
 قلت: ويؤيد هذا قول جماعة من كبار أئمتنا عليهم السلام:
 من ذلك قول الهادي إلى الحق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث قال لما لفظه: يقول لم يذن
 منهن إنس ولا جان ، والجان فلا تدنوا ، وإنما هذا على مجاز الكلام كما تقول العرب: ما
 قال هذا القول جني ولا إنسي ، والجن لا تقول ذلك المقال ، وإنما هذا على مجاز الكلام^(٢) .
 وقال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: الجن لا يتناكحون ولا يتوالدون ، وأما قوله تعالى:
 ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ فإنما أراد بالذرية قبيلته ، كقوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
 حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(٣) .
 قال الإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام: إن الله سبحانه لم يجعل الأكل والشرب إلا

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٩١ .
 (٢) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .

(٣) الكهف: ٥٠ .

(٤) الأعراف: ٢٧ .

لبي آدم ، وما خلق الله معهم في الأرض من البهائم ، فأما الملائكة والجن فلم يجعل الله لهم الأكل ، وجعل لهم من الملاذ ما يتنعمون به ويسرون ، فإذا كان في دار الآخرة أعطى الله كل عبد من النعيم ما أعطاه في دار الدنيا ، ولما في الآخرة الفضل لأنه خلق للبقاء . اهـ .

ومثل هذه ذكر المرتضى عليه السلام في الإيضاح .
ثم قال تعالى : ﴿ كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يريد في حسن الصور وصفاء الألوان ، أي : هن في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان ، والمرجان : صغار الدر ؛ لأنهن أشد بياضا من كبارهن ، فهن كالياقوت الذي يكون في معدنه ، والمرجان الذي يكون في صدفه لا يكون قد مسه يد لأمس .

ثم قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ ﴾ في العمل ﴿ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : ما جزاء من أحسن عمله في الدنيا إلا أن يحسن الله إليه في الآخرة بالثواب .

وقال زيد بن علي عليه السلام : الإحسان الأول هو الإيمان والتوحيد ، والإحسان الثاني هو الجنة . اهـ .
ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴾ أي : الجنة الموعودتين للمقربين ﴿ جَنَّاتٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لأصحاب اليمين^(١) .

قال في البرهان : والجنة الأولى للسابقين إلى الطاعات والفضل ، والآخرة للتابعين ، لأن المنازل ترتفع في الجنة على قدر الأعمال والطاعات^(٢) .

روي في التجريد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما للسابقين ، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما للتابعين) .

وقال في البلغة : جنتان أقرب إلى قصره ومجالسه في قصره ، وهي أربع جنان ثتان أقرب ، وثنان أبعد .

(١) قوله : لأصحاب اليمين . متعلق بقوله : الموعودتين .

وفي مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام مسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ص ٣١٣ : وسأله عن قول الله سبحانه : ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ۚ ﴾ ؟ [فقال] : هاتان أخروان بعد الجنة المذكورتين ، وهذه الجنان كلها في الجنة ، غير أنها مواضع تنعيم مرتبة ، والجنة تجمع هذه الجنان كلها .

(٢) انظر البرهان ص ٣٦٦

قوله تعالى: ﴿مُدْهَامَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الهادي عليه السلام: هما الجنتان ، وهما ذواتا الأشجار والأنهار ، والمدهامتان : فهما الرياتان اللتان قد رويت أشجارهما حتى ادهامت ، ومعنى ادهامت : فهو علاها السواد لريها وشدة خضرتها .
قال في التجريد : والمراد أن خضرة شجرهما تضرب إلى السواد لكثرة الري ، لا أن الجنة سوداء ، فإنها مضيئة بأنوار من الله^(١) .

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي : فوارتان ، والنضخ — بالخاء المعجمة — أكثر من النضج بالخاء المهملة ، لأنه بها كالرش ، وفيما ينضخان به قولان : أحدهما — أنه الماء عن ابن عباس ، والثاني : أنه المسك والعنبر والكافور عن ابن مسعود وابن عباس أيضا .

وقال الهادي عليه السلام : فهاتان العينان [فهما الماء المنبثق الذي يشج من الأرض ثجاجة ، حتى يتطاير ويخرج من ينبوعه خروجاً ﴿نَضَاحَتَانِ﴾ فهما] اللتان ينضخ مأوئهما لكثرة خروجيه منهما حتى يتطاير عند انسكابه تطائرا يقع منه النضخ [على ما حواليهما ، وإنما أخذ ذلك من نضج الشيء ، تقول العرب : انضخ وانضخ^(٢) بالخاء والحاء جميعاً ، وبالحاء أفصح اللغتين . اهـ

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنما عطف النخل والرمان على الفاكهة ، وهما منها اختصاصا لهما وبيانا لفضلهما ، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران كقوله : ﴿جبريل وميكال﴾ في عطفهما على الملائكة ؛ أو لأن التمر فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه .

وفي التجريد : قال ابن الجوزي : قال ابن عباس : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرانيقها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة أهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم .
وقال سعيد بن جبیر : نخل الجنة جذوعها من ذهب وعروقها من ذهب ، وكرانيقها من

(١) مجمع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .

(٢) مجمع تفسير الأئمة المخطوط ص ٤٩٢ .

(١) مجمع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .

(٢) ما بين القوسين من تفسير الأئمة المخطوط ص ٤٩٢ .

زمرد ، ورطبها كاللداء ، أشد بياضا من اللبن ، وألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، ليس له عجم .

قال أبو عبيدة : الكرائيف أصول السعف . اهـ

ثم قال تعالى في صفة نسائهم : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي: في هذه الجنان ، ومعنى ﴿ خيرات ﴾ خيرات : جمع خيرة ، والمعنى : فاضلات الأخلاق ، حسان الخلق .

وقال الهادي عليه السلام : فهي كل خير مجتمع من حوريات ، أو طعام أو شراب ، أو فواكه ، أو شيء من النعم ، فجمع الله ذلك كله فيما سمي من الخيرات ، وحسان : فهن فاضلات في معانيهن ، كاملات في شبابهن ^(١) . اهـ

قال في التحريد : وروى أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيرها أنه قال : (خيرات الأخلاق حسان الوجوه) .

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الهادي عليه السلام : والحور هنا النساء الحور العين ، والحور : فهو نعت من صفات الأعين ، وهو حور يكون في العين دمع حسن تحسن به الأعين إذا كان فيهن ، وتفخر به من كان فيها منهن ﴿ مقصورات ﴾ فهن : محبوسات مصونات محجوبات ، لسن بسلوات ولا خارجات ، بل هن متأنفات لمساكنهن ، خفرات ، والخيام : فهي خيام الدر والياقوت المنضود والمنسوج ، وهي القباب المعمولات المرفوعات في قصور الحوريات . اهـ

ثم قال عز وجل : ﴿ مُتَكِنِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ والمعنى : أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائما ، وأما الرفرف فقال الهادي عليه السلام : فهو اللين من الفرش ، والعبقري : فهو اسم صنف من فرش الجنة ، وقد تقول العرب لما كان حرته الغالبة على غيرها من الألوان : عبقرى ^(٢) . اهـ

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

قيل : وأصله أن عبقر بلد يوشي فيها البسط وغيرها فنسب إليه كل شيء جيد ، حتى يقال للرجل الذي يعمل عملاً عجيباً : عبقرى ، أي : هو من ذلك البلد .
ثم قال تبارك وتعالى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ أي : تعظم عن صفات المخلوقين ، بمعنى علا وارتفع شأناً لا مكاناً ، وقيل : إن المراد أن البركة تكسب وتنال بذكر اسمه عز وجل وقيل : معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ كثر خيره لعباده . وقوله : ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ تقدم تفسيره في هذه السورة ، وقرئ (ذو) صفة للاسم وهذه الصفة من عظيم صفات الله تعالى ، وفي الحديث (أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) " أي : الزموا وألحوا به في الدعاء .

وسمع صلى الله عليه وآله يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : (قد استجيب لك) .

(١) في تفسير ابن كثير : وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو يوسف الجري ، حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلم قال : (أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) وكذا رواه الترمذي ، عن محمود بن غيلان ، عن مؤمل بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة به . ثم قال : غلط المؤمل فيه ، وهو غريب ، وليس بمحفوظ ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن يحيى بن حسان المقدسي ، عن ربيعة بن عامر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (أَلْظُوا بِذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك به ، وقال الجوهري : أَلْظَ فلان بفلان : إذا لزمه ، وقول ابن مسعود : أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، أي : الزموا ، يقال : الإلظاظ هو الإلحاح . قلت : وكلاهما قريب من الآخر ، والله أعلم وهو المداومة وال لزوم والإلحاح .

سورة اقتربت

خمسون وخمس آيات بإجماع القراء (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي : القيامة ﴿وانشق القمر﴾ قال زيد بن علي عليه السلام : فانشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقتين ، والناس ينظرون ، فقالت اليهود : سحر القمر ، فأنزل الله تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ والمستمر : الشديد ، ويقال : يشبه بعضه بعضا ، ويقال : الزاهب ^(١) . اهـ

(١) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالدة الواسطي ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال : فانشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى صار فرقتين والناس ينظرون ، فقالت اليهود : سحر القمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ والمستمر : الشديد ، ويقال : يشبه بعضه بعضا ، ويقال : الزاهب .
وقوله تعالى : ﴿مهطعين إلى الداع﴾ معناه : مسرعون ، ويقال : بارعون .
وقوله تعالى : ﴿وقالوا مجنون وازدرج﴾ معناه : أسفر جنونه ، ويقال : استطر ، والمزدرج : المنتهي المتعظ .
وقوله تعالى : ﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ معناه ماء السماء والأرض .
وقوله تعالى : ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ فذات الألواح يريد السفينة ، والأواحها : عوارضها . والدسر : المسامر واحدها دسار ، ويقال : دسر : معناه تدسر السفينة الماء بصدرها ، معناه تدفعه .
وقوله تعالى : ﴿ونجري بأعيننا﴾ معناه بحفظنا وبكلاءتنا .
وقوله تعالى : ﴿ولقد تركناها آية﴾ معناه ألقي سفينة نوح عليه السلام على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة . وقوله تعالى : ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم غمس مستمر﴾ والصرصر : الشديدة ذات الصوت ، والنحس : الشوم .

قال في الكشف: ^(١) انشقاق القمر من معجزاته صلى الله عليه وآله .
 (عن انس سأل الكفار رسول الله صلى الله عليه وآله آية فانشق القمر مرتين) وكذا عن ابن عباس وابن مسعود ^(٢) .
 قال ابن عباس : انفلق فلقتين ، قلقة بقيت ، وقلقة ذهبت ، وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر ^(٣) . اهـ
 قال الرازي والمفسرون بأسرهم : على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق ، وفي الصحاح ^(٤) خير مشهور رواه جمع من الصحابة قالوا : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، آية الانشقاق [بغيرها] معجزة ، فسأل ربه فشقه وقبض ^(٥) .

وقوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ أَجْزَاءُ نَجَلٍ مَّقْطُوعٍ﴾ معناه المنقطع . وقوله تعالى: ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فالذكر : القرآن
 وقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ معناه انتظرهم واصبر ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .
 وقوله تعالى: ﴿وَنُيْسِمُ﴾ معناه أخبرهم وقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَرْبٍ مَحْضَرٍ﴾ والشرب : النسيب .
 وقوله تعالى: ﴿كَهَشِيمٍ مَحْظَرٍ﴾ فاهشيم : ما تكسر من الشجر . والمحظر : الحظيرة .
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ معناه حجارة .
 وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّيْرِ﴾ وهي الكتب ، واحدها : زبور .
 وقوله تعالى: ﴿وَالسَّاعَةَ أَدْهَى وَأُمْرٌ﴾ معناه أعظم .

(١) نص الكشف : انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته النيرة .. الخ ما ذكره هنا
 (٢) قال ابن حجر في تخريج الكشف : حديث أنس متفق عليه من رواية قتادة عن أنس .
 (٣) قال ابن حجر في التخريج : رواه أبو نعيم في الدلائل من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه ، وفي الصحيحين عنه
 (انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه أيضا قال : وعن ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر
 ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين ، وفي
 الصحيحين عن أبي معمر عنه (بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، وكان قلقة
 وراء الجبل ، وقلقة دونه ، فقال : أشهدوا ، وفي الباب عن ابن عمر في مسلم ، وعن جابر بن مطعم عن الحسن بن علي
 المستدرک ، وعن أحمد أيضا .

(٤) في الرازي : الصحيح ، بدلا عن الصحاح . وما بين القوسين من الرازي .
 (٥) وفي بعض النسخ (ومضى) .

قال في البلغة : روي ذلك عن عبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وحذيفة بن اليمان ، وجبير بن مطعم ، ورواه مجاهد ، وإبراهيم ، وروي ذلك من طريق أهل البيت ، ووافقهم في الرواية عبد الله بن عباس ، وأشهر قولهم في الصحابة رواية ابن مسعود أنه كان ، ولا يقع له إنكار ، وذهب قوم إلى أنه في القيامة ، وهذا خروج عن الظاهر .

ولا يقدح في الرواية قولهم : لو انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لم يخف على أهل الأقطار لأنه يجوز أن يحبه الله عن أهل الأقطار بغيم وقيام ، وكان كثير من معجزاته صلى الله عليه وآله يختص بمعرفتها قوم دون قوم ، قالوا : الانشقاق أمر هائل فلو وقع لعدم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر ؟ قيل لهم : النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان يتحدى بالقرآن ، وكانوا يقولون : إنا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه ، وكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى ، فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر .

وقال الهادي عليه السلام : هو إخبار من الله سبحانه [لنبيه] ^(١) بقرب الساعة ودنوها ، وأنه لم يبق من الدنيا إلا يسير ، وقوله : ﴿انشق القمر﴾ يقول : اقتربت الساعة ، واقترب انشقاق القمر ، وانشاققه فهو في يوم الدين ، وفي وقت تبديل السموات والأرضين . قال في البرهان : روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصا ، ولا تزداد منهم إلا بعدا) .

﴿وانشق القمر﴾ أي : ينشق عند مجيء الساعة ، وذلك من علامات الآخرة ^(٢) . اهـ .
﴿وإن يروا آية﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول تبارك وتعالى : إن يروا المشركون آية من آياتنا ^(٣) يعرضوا عنها بالكذب لحقائقها ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ أي : [مستو] متتابع كل يوم يأتيها منه شيء ^(٤) . اهـ .

(١) ما بين القوسين من المجموع خ .

(٢) البرهان مخطوط ص ٣٦٢ .

وقيل : مستمر : أي دائم مطرد ، أي : قد استمر ، قالوا ذلك لما رأوا تتابع الآيات ،
وقيل : ﴿مستمر﴾ قوي محكم^(١) وقيل : هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته ، أي
مستبشع عندنا مر على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر ، وقيل :
﴿مستمر﴾ ماز ، ذاهب ما فيه ، فإن السحر لا بقاء له ، والتكيز في الآية للتعظيم ، أي :
إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا .

ثم قال تعالى : ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بالحق الواضح ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي : ما زين لهم
الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره .

قال الهادي عليه السلام : يقول : كذبوا بالآيات واتبعوا في ذلك ما يهون من الباطل ﴿وَوَكَّلْ
أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ يقول : كل أمر منهم فهو عندنا مستقر ، حتى نجازيهم غدا عليه ، ونوفيهم ما
كان من وعيدنا فيه ، ومعنى ﴿مستقر﴾ فهو : محفوظ ثابت لا ينسى ولا يضل^(٢) .

وفي البلغة : ﴿وَوَكَّلْ أَمْرٌ﴾ من خير وشر ﴿مستقر﴾ حتى يجازى به في الجنة والنار .

وفي البرهان : يعني لكل شيء غاية ونهاية في وقوعه وحلوله^(٣) ومثله في الكشف .

أي : لا بد له من غاية يستقر عليها ، وأمر محمد صلى الله عليه وآله سيصير إلى غاية يتبين عندها
أنه الحق والتكذيب يحتمل الأمرين أحدهما : وكذبوا محمدا ، والمخير عن اقتراب
الساعة ، وثانيهما : كذبوا بالآية ، وهي انشقاق القمر .

فإن قلنا : كذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقله : ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي : تركوا الحجة ، وأولوا
الآيات ، وقالوا : هو مجنون تعينه الجن ، وكاهن يقول عن النجوم ، ويختار الأوقات للأفعال ،
وساحر ، فهذه أهواؤهم ، وإن قلنا : كذبوا بانشقاق القمر فقله : ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في أنه
سحر القمر ، وأنه خسوف ، والقمر لم يصبه شيء فهذه أهواؤهم ، وكذلك قولهم في كل آية .

(٣) ما بين القوسين من المجموع المخطوط ، وفيه : بالتكذيب بحقائقها ، بدلا من : لحقائقها . هنا

(١) وهو أيضا قول السيد العلوي رحمه الله قال : قلت : من قولهم استمر مريرة . المرير : الجبل المحكم .

(٢) بمجموع تفسير الأئمة مسائل الهادي عليه السلام مخطوط ص ٤٨٣ .

(٣) البرهان مخطوط ٣٦٢ ، والكشاف ٤٣١/٤ .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ الإنباء : هو الإخبار العظيم ، أي : لقد جاءهم من القرآن المودع من أنباء القرون الخالية ، وأنباء الآخرة ، وما فيها من عذاب الكفار ما فيه ازدجار وإيقاظ .

قال الهادي عليه السلام : يقول : لقد جاءهم من الأخبار والآيات الصادقات ، والدلائل الباهرات ما فيه زجرهم عما هم عليه ، ومعنى زجرهم فهو : نهاهم ومنعهم عما هم فيه من أباطيلهم^(١) . اهـ

ثم قال سبحانه : ﴿حِكْمَةً بَالِغَةً﴾ أي : هو حكمة بالغة ، أي علم بالغ باهر لا ينتهي إلى مثله في الوعظ وغيره ﴿فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ﴾ أي : فما تنفع النذر لإعراضهم عن النظر في المعجزات ، والتفكر في الآيات ، ومعنى الاستفهام الإنكار ، أي : فأى غناء تغني النذر أي : تنفع ، والغناء : النفع ، نحو ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾^(٢) ويجوز أن تكون (ما) نافية .

وقال الهادي عليه السلام : ﴿حكمة بالغة﴾ يقول : آيات محكمة ودلائل كافية بالغة ﴿فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ﴾ فيه ، يقول : ما تردعهم الرسل عن ذلك ، والنذر هاهنا : فهي إنذار الرسل لهم ، [وتبليغها]^(٣) بذلك عن الله سبحانه . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي : اعرض عن هذا الإنذار والدعاء ، لعلمك بعدم نفعه قيل : والتولي منسوخ كتنظيره من الآيات ، وليس كذلك ، بل المراد منه لا ينظرهم بالكلام وكثرة الجدال لهم والخصام .

قال الهادي عليه السلام : يقول : دعهم إذا لم يقبلوا وأعرض عنهم إذا لم يطيعوا . ثم ابتدأ سبحانه الخير فقال : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا﴾ معنى ذلك : سيعلمون يوم يدع الداع لشئ نكر ، والنكر : فهو الأمر المنكر الذي ينكرونه حين يعاينونه

(١) أباطيلهم : أباطيلهم .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٣ .

(٣) يونس : ١٠١ .

(٣) في المجموع : وبعتها . انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٣ .

ويفرعهم حين يرونه ﴿خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي : يوم يدع الداع تراههم خشعا ^(١) معنى ﴿خشعا﴾ فهي : مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم ، ولا يمدون أبصارهم أمامهم من الفرع والخوف ، والإيقان بالبلاء العظيم . اهـ

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ متعلق بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أو اذكر يوم يدع الداع ^(٢) وهو إسرافيل أو جبريل ، يدعو الناس إلى المحشر ، أو عبارة عن سوقهم إلى النار .

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ قال [المهدي] عليه السلام : فالأجداث : هي القبور ، فشيهم في كثرتهم بالجراد المنتشر ، وهو الكثير المعروف ^(٣) . اهـ

فمنتشر الجراد مثل في الكثرة والتموج ، ومنتشر في كل مكان يحتمل أن يقال : المنتشر مطاوع نشره إذا أحياه فكأنه جراد يتحرك من الأرض ويدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم .

ثم قال تعالى : ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي﴾ قال [المهدي] عليه السلام : يعني ﴿مهطعين﴾ فهو : تابعون مسرعون إلى نحو الداعي ، والداعي : فهو الذي يدعوهم إلى موضع المحشر ، ويأمرهم بالمصير إليه . اهـ

وقيل : الإهطاع : أن يديم النظر إلى المرئي بلا تحريك الأجفان ، والمهطع على هذا الأصل هو المبهوت المتحير .

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ الكافرون : هم المغطون نعم الله ، ومعنى ﴿هذا يوم عسر﴾ قال [المهدي] عليه السلام : أي يقول عسر لدينا شديد علينا ، إذ حق وعد الله فينا ، لما شاهدوا فيه من الأهوال ، وذاقوا من العذاب والنكال ^(٤) . اهـ

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قال أبو البقاء : ﴿خشعا﴾ حال وفي العامل وجهان ، أحدهما : ﴿يدعو﴾ أي يدعوهم الداعي ، وصاحب الحال الضمير المحذوف ، و﴿أبصارهم﴾ مرفوع بـ ﴿خشعا﴾ وجاز أن يفعل الجمع ؛ لأنه مكسر ، والثاني : العامل ﴿يخرجون﴾ وقرئ (خاشعا) والتقدير : فريقا خاشعا ، ولم يؤنث ؛ لأن تأنيث الفاعل تأنيث الجمع ، وليس بحقيقي ، ويجوز أن ينتصب (خاشعا) على أنه مفعول به لـ ﴿يدعو﴾ ويخرجون على هذا حال من أصحاب (الأبصار) .

(٢) قال في الكشف ٤/٤٢ : نصب ﴿يوم يدع الداع﴾ يخرجون ، أو بإضمار اذكر .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٤ .

والفائدة فيه تنبيه المؤمن أن ذلك على الكافر عسير فحسب كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾^(١) يعني: له عسر لا يسر معه .

ثم أنه تعالى أعاد بعض الأنباء فقال: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: نوحا عليه السلام ، وفيه تخويف وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن حاله كحال من تقدمه ، وقال: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعد قوله: ﴿كَذَبَتْ﴾ لأن معناه كذبوا فكذبوا عبدا ، أي كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب كلما مضى قرن مكذب تبعه قرن مكذب ، أو كذبت قوم نوح الرسل ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾^(٢) أي: لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأسا كذبوا نوحا ؛ لأنه من جملة الرسل ذكره في الكشف^(٣) .

إن قيل: ما فائدة الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَبْدَنَا﴾ وكل واحد عبده ؟ قيل له: في الجواب وجهان أحدهما: أن الإضافة إليه تشريف منه في من خصصه بكونه عبده ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾^(٥) .

والثاني: أن الإضافة تفيد الحصر ، فمعنى ﴿عَبْدَنَا﴾ هو الذي لم يقل بمعبود سوانا ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلها فالعبد المضاف هو الذي بكلية في كل وقت إلى الله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى^(٦) .

(٤) انظر المجموع ص ٤٨٤ ، وما بين القوسين ساقط من نسخة المجموع التي لدينا .

(١) المدثر ٩ ، ١٠ ، ومثل هذه العبارة في الرازي ٢٩٣/١٠ .

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله: قال في الانتصاف: الأول مطلق ، والثاني: مقيد ، فليس بتكرير ، وهو كقوله: ﴿فَتَعَالَى فَعْقَرٌ﴾ فإن تعاطيه هو نفس عقره ، لكنه ذكره من جهة عمومه ، ثم من جهة خصوصه ، قيل: ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (حاشية العلوي على الكشف ٢٩٧) . وزاد في الانتصاف جوابا آخر وهو: أن المكذب أولا محذوف دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال: كذبت قوم نوح نوحا ، ثم جاء بتكذيبهم ثانيا مضافا إلى قوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ فوصف نوحا بخصوص العبودية ، وأضافه إليه إضافة تشريف ، فالتكذيب المخير عنه ثانيا أبشع عليهم من المذكور أولا لتلك اللمة . والله أعلم (الكشف ٤/٤٣٣) .

(٣) أنظر الكشف ٤/٤٣٣

(٤) البقرة: ١٢٥ .

(٥) الشمس: ١٣ ، والأعراف: ٧٣ ، وسورة هود: ٦٤ .

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ولما أتاهم بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا عنه ، ولم يقنعوا بقولهم : إنه كاذب — بَيَّنَّ تعالى مبالغتهم في التكذيب فقال سبحانه : ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي : هو مجنون ﴿وَأَزْدُجَرٍ﴾ .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿وَأَزْدُجَرٍ﴾ أي : زجر وانتهر ، هو افْتَعَلَ ، والمعنى فَعَلَ ، ولا فرق بينهما في المعنى ^(١) . اهـ

أي : زجروه ونهروه عن مقالته بالشتم والضرب ، وقيل : ازدجر من قولهم ، أي ازدجرته الجن وتخططه وذهبت بلبه .

قال زيد بن علي عليه السلام : معناه : أسفر عن جنونه ، ويقال : استسطر ، والمزدجر : المنتهى [المتعظ] .

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بالفتح أن يأتي ، وقوله : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ قرئ بالكسر ، أي يقال : إنني مغلوب غلبني قومي فلم يسمعوا مني ، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿فَأَنْتَصَرْتُ﴾ أي : انتقم منهم بعذاب تبعته عليهم .

وروي أن الواحد منهم كان يلقاه فيحنقه حتى يغشى عليه فيفيق ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، فانتصر الله عز وجل منهم بالغرق الذي ذكره في كتابه حين يقول : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي : عقيب دعائه .

قال المرتضى عليه السلام معنى (فتحنا أبواب السماء) فهو السحاب ، والعسرب تسمى السحاب سماء ، يقول القائل : أصابنا سماء في موضع كذا وكذا ، وتسمى كلما ارتفع سماء ، فذكر الله أنه فتح أبواب السماء بالماء المنهمر ، ومعنى فتحه : فهو حكمه بذلك ، فكان ما أراد فيه . اهـ

والمنهمر : المنصب المندفق ، أي غزير مبتدر قال الشاعر : (يغشاهم مسبل منهمر)
وقال آخر : (في بيت منهمر الكفين مفضال)

(٦) قريب منه موجود في الرازي ٢٩٤/١٠ .

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام الآتي قريبا في الحاشية .

والانهمار : هو السيلان الحثيث المنصب انصبابا في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما .
﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ يعني : ماء السماء وماء الأرض
على أمر قد قدر فيه هلاك من كفر ، وسلامة من آمن . قاله الحسين بن القاسم عليه السلام^(١)

(١) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره غريب القرآن :

تأويل قوله عز وجل : ﴿وانشق القمر﴾ روي أن المشركين تعجزوا النبي صلى الله عليه وآله بذلك ، فدعا الله تعالى فانشق له القمر حتى رأى عبد الله بن مسعود جبل حراء من فلقه معجزة للنبي صلى الله عليه وآله ﴿وان يروا آية يعرضوا﴾ أي : انشقاق القمر وغيره من آيات الله الكثيرة ﴿ويقولوا سحر مستمر﴾ أي : مريم محكم ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي : راجع إلى قراره وحقيقة أمره . ومعنى ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ من الأخبار ﴿مزدجر﴾ أي : عظة ومعتبر وانتهاء وحذر . ومعنى ﴿حكمة بالغة﴾ أي : بينة نيرة ﴿فما تغن النذر﴾ أي : ما تنفع فيهم النذر . ومعنى ﴿إلى شئ نكسر﴾ أي : منكر لم ير مثله ، ولم تجر العادة به ﴿مهطعين إلى الداعي﴾ أي : مقبلين إليه خاضعين ، قال الشاعر : نجر بن سعد لي مطيع ومهطع . أي : متذل خاضع . ومعنى ﴿وازدجر﴾ أي : زجر وانتهر ، وهو افعل ، والمعنى فعل ، ولا فرق بينهما في المعنى . ومعنى قوله : ﴿جاءهم منكم﴾ أي : غزير ، قال الشاعر : يغشاهم مسبل منهم وقال آخر : في بيت منهم الكفين مفضال . والانهمار : هو السيلان الحثيث ، ومعنى ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ والدر : هي المسامير والخيال ، ومعنى ﴿نجري بأعيننا﴾ أي : على أعيننا ، التي فجرتنا من الأرض والهواء ، ومعنى ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ أي : مكافأة لهم على ما جحد من حقه وكفر به ﴿فهل من مدكر﴾ يريد : فهل من معتبر مفكر . ومعنى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أي : سهلناه . ومعنى ﴿ربما صرصرا﴾ أي : شديدة ﴿في يوم غص مستمر﴾ أي : في يوم شؤم محكم مر ﴿تنزع الناس﴾ أي : تنزع أرواحهم ﴿كانهم أعجاز نخل منقعر﴾ أي : كأنهم أسافل نخل منقلع ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ هذا تقرير كما قال الشاعر : كيف رأيت في الحروب محضري . أي : قد رأيت فعالي . ومعنى ﴿في ظلال وسع﴾ أي : في جهل وعذاب من النار قال الشاعر :

وسالفة كسحوق اللبان أضرم فيها الغوي السع

أي : أوقد فيها النار . ومعنى ﴿ألقي الذكر عليه من بيننا﴾ أي : كيف نزل القرآن والوحي عليه خاصة من دوننا ﴿بل هو كذاب أشرف﴾ أي : بطر ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأشرف﴾ يريد : يوم العذاب . ومعنى ﴿فتنة لهم﴾ أي : حنة واختبارا وحجة ﴿فارتق بهم﴾ أي : فانتظرهم . ومعنى ﴿ونبهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محضر﴾ أي : خبرهم أن الماء بينهم وبين الناقة لهم شرب يوم ولها شرب يوم آخر . ومعنى ﴿محضر﴾ أي : محضور ، يحضرون لشربهم ، وتحضر الناقة لشربها ، ومعنى ﴿فتعاطى فعقر﴾ أي : فتناول بيده وعقر ، قال الشاعر :

كأن أيديهن بالقاع الحرق لذي عذارى يتعاطين الورق

ومعنى ﴿فكانوا كهشيم المحضر﴾ الهشيم : هو الشجر الذي ينهشم ويتكسر ، قال الشاعر :

أضحت تجربها الرياح ذيوها مصفرة أعصانها تنهشم

والمختظر : هي الخطيرة التي تكون من الشجر ، ومعنى «حاصبا» فالحاصب هو الحصى الذي رجوا به من السماء . ومعنى قوله : «بطشتا» أي : وقتنا ومصبتنا «فتماروا بالنذر» أي : شكوا في النذر . ومعنى «ولقد راودوه عمن ضيفه» أي : طالبوه عن الملائكة وحسبهم ضيفا ، قال الهادي إلى الحق عليه السلام :

والضيف إن حلَّ بليل بلدة فلست باغ حاجة المسترقد

ومعنى قوله : «فطمسنا أعينهم» أي : محونها ، وقيل : إن جبريل عليه السلام لطمهم لظمة أعما بها أبصارهم ، والله أعلم وأحكم . ويمكن أن يكون الله طمس أعينهم بالرحم وأهلكهم . ومعنى «عذاب مستقر» أي : مقبم عليهم غير زائل عنهم . ومعنى «أخذ عزيز مقتدر» أي : عذاب عزيز قادر ، قال الشاعر :

لها جبهة كسرة الجن ثقفه الصانع المقندر

«أكفاركم» يعني أمة محمد صلى الله عليه وآله «خبر من أولئك» أي : من أولئك ، خطابك للواحد وخطابكم للجماعة ، أولئك مثل ذلك وذلك . ومعنى «أم لكم براءة في الزبر» أي : براءة من العذاب في الكتب ، فلا تأمنوا نعم الله على معصيتكم «أم يقولون نحن جميع منتصر» أي : جماعة كثيرة تنتصر من محمد ونقتهر «سيهزم الجمع ويولون الدبر» يعني — والله أعلم — : يوم بدر عند هزيمتهم وخذلان الله لهم ، بل الساعة موعدهم ، أي : لكن الساعة وعدهم «والساعة أدهى وأمر» ومعنى «أدهى» أي : أفجع وأطم وألم وأعظم ، والذاهية : هي الفجعية ، قال الشاعر :

أصاب الدهر نسوة آل حرب بداهية همدن لها همسودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

«وأمر» أي : أنقطع وأشر ، والمرارة : هي ضد الخلو قال الشاعر : ولم مثل الحب أحلى ولا أمر . وإنما ضرب الله المرارة مثلا لفتح مذاقها ، وثقل مؤنتها وفظاعتها . ومعنى «إن المجرمين في ضلال وسعر» فالجرم : هو الكاسب للذنوب المحرم لها . ومعنى «يوم يسحبون في النار على وجوههم» أي : يجرون جرا وسحبا ، والسحب : هو الجر في اللغة ، والعامية تقول : إن السحاب يسمى سحبا لانسحابه عن الجبال «ذوقوا مس سقر» أي : حر النار «إنا كل شئ خلقناه بقدر» أي : بمقدار وحكمة . ومعنى «كلمح بالبصر» أي : كلمحة يظن المبصر في سرعة أمره إذا مر . ومعنى «ولقد أهلكنا أشياعكم» يريد : إخوانكم وأمثالكم ، قال الكمي بن زيد رحمة الله عليه :

وما لي إلا آل أحد شيعة ومالي إلا مشعب الحق مشعب

ومعنى «وكل شئ فعلوه في الزبر» أي : في الكتب ، محسوب عليهم . ومعنى «وكل صغير وكبير مستطر» أي : مسطور . ومعنى «في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر» فهذا بين والحمد لله ، وأما النهر : فهو الماء الجاري ، قال الشاعر :

خليجا عبابان من نهر يجري

وقيل أيضا في النهر : إنه السعة . والله أعلم وأحكم .

وقيل^(١): ﴿قَدْ قَدَّرَ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء ، أو مقدرة مستوية [وهي أن] قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء سواء .
ثم قال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ جمع لوح لأنها مؤلفة من الألواح قال الهادي عليه السلام : هي السفن ، التي تعمل من الألواح ، وتشد بالدر ، والدر فهي : الحبال والمسامير التي تربط بها وتدر^(٢) . اهـ

ودسر : جمع دسار وهو المسمار ، وهي هنا خيوط تشد بها الألواح ، وكل شيء أدخل في شيء يشده ، فهو الدر .

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي : محفوظة كأننا ننظر إليها .
وقوله: ﴿جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾ تعليل لما مر من فتح أبواب السماء وما يعده ، أي : فعلنا ذلك جزاء .

قال في البرهان : معناه جزاء لكفرهم بالله تعالى ، وتكذيبهم بنوح عليه السلام^(٣) . اهـ
أصل الكلام : لمن كان كفر به ، فأوصل الفعل بنفسه .
قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿تَجْرِي﴾ فهو تسير [في البحر] بعلمنا ﴿جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾ هو نوح صلى الله عليه يقول : جزئناه على من كان كفر نعمته ، وعصى أمره بالنجاة^(٤) في هذه السفن مما وقع بالكافرين لنعمه ، المشركين بما جاء من الله به^(٥) . اهـ
ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَوَكَّنَّا﴾ أي : السفينة أو الفعلة ﴿آيَةً﴾ والمراد : تركنا ذكرها عبرة .
قال زيد بن علي عليه السلام : معناه : أبقى سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة^(٦) .

(١) الفائق : هو الرمحشري . انظر الكشاف ٤/٤٣٤ .

(٢) المجموع ص ٤٨٤ .

(٣) البرهان ص ٣٦٢ .

(٤) في الأصل : النجاة ، وفي المجموع : بالنجاة .

(٥) المجموع ص ٤٨٤ .

(٦) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام أوائل هذه السورة ، والمطبوع ص (٣١٣) .

وعن قتادة : أبقاها بأرض الجزيرة ، وقال في البرهان : أي تركنا الأرض آية ^(١) .
 ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ يريد : فهل من معتبر متفكر ومتذكر مزدجر عن معاصي الله عز وجل .
 ثم قال عز وجل : ﴿كَفَيْكَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : هذا تهديد كما قال الشاعر : (كيف رأيت في القلوب محضري)

أي : قد رأيت فعالى ^(٢) . اهـ

﴿ونذر﴾ جمع نذير بمعنى الإنذار .

قال في البلغة : ويقال في اللغة : أنذره نذرا [معنى إنذارا] ^(٣) كأنزله نزلا بمعنى إنزالا ،
 ومثله عذر وإعذار ، وكذلك قوله : ﴿إلى شيء نكرك﴾ وقيل : نذر جمع نذير . اهـ
 ومعنى الاستفهام : تهويل العذاب الواقع ، والإعذار البليغ الذي لم يقبل ، والمعنى بهذه
 القصة الوعظ والتحذير من التعرض لمثلها ، أي : تأملوا كيف كان إهلاكهم إياهم
 وتخويف بهم ، ولهذا قال : ﴿وَلَقَدْ يَسْرَوْنَ الْقُرْآنَ لِلذَّكْرِ﴾ أي : سهلناه للذكر والاعتاظ
 بأن شحناه بالمواعظ الشافية ، ويجوز أن [يكون] المعنى : ولقد هيأناه للذكر من يسر
 ناقته للسفر إذا أراد رحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرحه وألجمه قال الشاعر :
 وقمت إليه باللحام ميسرا هنالک يجزيني الذي كنت أصنع ^(٤)

(١) قول قتادة : ذكره في الكشف ٤/٤٦ ، وانظر البرهان ص ٣٦٢

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي ، أول هذه السورة .

(٣) ما بين القوسين من تفسير التبيان للطوسي .

(٤) ما بين القوسين زيادة من الكشف ، وفيه أيضا : يسر ناقته للسفر إذا أراد رحلها ، وفي مشاهد الإنصاف على شواهد الكشف أن البيت للأعرج ٤/٥٧ . وقيله :

أرى أم سهل لا تزال تفجع ع تلووم وما أدري ع لأم توجع
 تلووم على أن أمنح الورد لقحمة وما تستوي والورد ساعة تفزع
 إذا هي قامت حاسرا مشمعة تحب القواد رأسها ما يقنع
 وقمت إليه باللحام ميسرا هنالک يجزيني الذي كنت أصنع
 قال السيد العلوي رحمه الله : يقول : قمت إلى فرسي مهينا له بالسر والجم ، ثم قال : في ذلك الزمان

وقيل : سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ، لا كسائر الكتب كالتوراة فإنها لا تقرأ إلا نظرا ، ولا تحفظ غيبا .

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي : متذكر لأن الافتعال والتفعل كثير ما يجيء بمعنى ، وقيل : ﴿فهل من مدكر﴾ أي : حافظ ومتعظ .

ثم قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ عاد قوم هود ، وإنما قال تعالى : ﴿فكيف كان عذابي﴾ حثا على التفكير والتدبر ، ومعنى الاستفهام التهويل ، أي : كيف كان إنذاري لمن بعدهم في تعذيبهم .

ثم أخبر تعالى بصفة عذابهم فقال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة الصوت بها قعقعة ، قال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه بما أرسل على عاد من ريح الصرصر ، وريح الصرصر : فهي الريح الباردة الشديدة العظيمة القوة ^(١) . اهـ . مأخوذة من الصبر ، وهو البرد ، كأنها الذي كرر فيها البرد ، فهي تحرق لشدة بردها . وقيل : من الصرير ، والصرة : شدة الصياح ، وقيل : دائمة الهبوب ، من أصرر على الشيء إذا دام وثبت ^(٢) .

ثم قال الهادي عليه السلام ومعنى ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ يقول : في يوم شؤم كان عليهم ، وعذاب نازل بهم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ فهو : مستمر دائم ^(٣) . اهـ .

يعني : استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، فاستمر على كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة ، وكان في أربعاء من الشهر لا يدور ، وقيل : المستمر الشديد المارة ، والبشاعة .

وقيل ^(٤) : استمر بهم العذاب إلى نار جهنم ، وإنما قال تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ وقال في السجدة : ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ ^(٥) وقال في الحاقة : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾

يجزي : أي يكفي ما أعانيه ، وما أعامله به من إشارة ، يا للين ، والتضمير ، والتعليق ، وأربع غير منصرفة ، ومعنى لا تدور : لا ترجع في ذلك الشهر ، فتشاءموا به .

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٤ .

(٢) ومثله في الرازي ٣٠٢/١٠ .

(٣) هذه الفقرة لم أجد لها في مجموع تفسير الأئمة .

حسوما^(١) لأن المراد من اليوم هنا الوقت والزمان ، كما في قوله تعالى : ﴿يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾^(٢) وقوله : ﴿مستمر﴾ يفيد ما تفيد الأيام ، لأن الاستمرار يبنى عن امتداد الزمان كما تنبي عنه الأيام ؛ لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار ، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره .

وقوله تعالى : ﴿تنزع الناس﴾ وصف أحوال ؛ إذ يصح أن يقال : أرسل ريحا صرصر نازعة للناس ، ويصح أن يقال : أرسل الريح نازعة .

ومعنى ﴿تنزع الناس﴾ تقلعهم عن أماكنهم ، وكانوا يصطفون آخذا بعضهم بأيدي بعض ، ويتدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتزعهم وتكبههم وتدق رقابهم^(٣) .

قال الهادي عليه السلام : يريد تنزع نفوس الناس من أبدانهم ، وتخرجها من جثثهم حتى تبقى أبداننا مطروحة^(٤) لا أرواح فيها .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعَرٍ﴾ شبه جثثهم وعظمها بأسافل النخل الساقط المنقلع ، والمنقعر : فهو المنقلع من أصله . اهـ

قال ابن قتيبة : يقال قعرته فانقعر أي : قلعه من أصله فسقط ، أي : كانوا يتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل ، وهو أصولها بلا فروع ﴿منقعر﴾ أي منقلع عن مغارسه ، وقيل : كانت تقلع رؤوسهم فتبقى الأغصان بلا رؤوس ومنقعر : وصف للنخل على اللفظ ، لأن لفظ النخل مذكر ، ولو حمل على المعنى لأنث ، كما قال : ﴿أعجاز نخل خاوية﴾^(٥)

(٤) القائل : هو الرازي ، انظر تفسيره ٣٠٣/١٠ . وهو من قوله : استمر بهم العذاب .. إلى قوله : ولم يذكر مقداره وهي منقولة بتصرف .

(٥) فصلت (السجدة) : ١٦ .

(١) الحاقة : ٧ .

(٢) مريم : ٣٣ .

(٣) هذه الفقرة مثلها في الكشف ٤٦/٤ .

(٤) في مجموع تفسير الأئمة : تبقى أبداننا مطروحة لا أرواح فيها . ص ٤٨٤ .

(٥) الحاقة : ٧ .

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي﴾ قد مر تفسيره ، والتكرير للتقريب ، أكثر المفسرين على أن النذر في هذا الموضع جمع نذير ، الذي هو مصدر معناه : إنذار .
ثم قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني : سهلنا تلاوته وحفظه على أهل كل لسان حتى إنه لا يحفظ غيره من كتب الله عز وجل ، ولا يضبط سواه ، ذكره في البرهان ^(١) .
﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ قد مر تفسيره .

ثم بين تعالى حال قوم آخرين فقال : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﴿بِالنُّذُرِ﴾ أي : بالإنذار ، وبالمنذرين ، فهو جمع نذير ؛ لأن من كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل لاتفاقهم على تصديق كل منهم ؛ لأن ثمود لما أنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة ، وكانت تدور بينهم كذبوا ، فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة .
﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ فقالوا : ﴿أبشرا﴾ إنكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة عليهم السلام ، وقالوا : ﴿مِنَّا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى ، وقالوا : ﴿واحدًا﴾ إنكار لأن تتبع الأمة رجلا واحدا من أفئدتهم ، ووجه الحكمة في تأخير الفعل أنهم كانوا يريدون تبين كونهم محقين في ترك الإتياع ، فلو قال : تتبع بشرا ؟ يمكن أن يقال : نعم اتبعوه . وماذا يمنعكم من إتياعه ؟ فإذا قدموا حاله وقالوا : هو من نوعنا بشر ! ومن صنفنا رجل ! ليس غريبا يعتقد فيه أنه يعلم ما لا نعلم ، أو يقدر على ما لا نقدر ، وهو واحد وحيد ، وليس له جند وحشم وخيل وخدم ! فكيف تتبعه ؟ فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع في الإتياع . وفي الآية إشارات إلى ذلك . منها : تنكيره حيث قالوا : أبشرا ؟ ولم يقولوا أتتبع صالحا ؟ أو الرجل المدعي أو غير ذلك من المعارف ، والتنكير يجوز .
ومنها : قالوا : أبشرا ولم يقولوا : رجلا .
ومنها : قالوا : ﴿مِنَّا﴾ أي : من صنفنا ليس غريبا ^(٢) .

(١) البرهان ٣٦٢ .

(٢) ومثله هذا في الرازي ٣٠٦/١٠ .

وقال سبحانه مخبرا عنهم: ﴿إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٌ وَسُعْرٌ﴾ الضلال في هذا الموضع : الهلاك والسعر : جمع سعي ، وهي النار ، وقيل : في جهل وعذاب .
وفي التجريد كان صالح يقول لهم : إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق ، وفي سعر ونيران ، فعكسوا عليه وقالوا : إن اتبعناك كنا كما تقول فينا .
وقيل : أرادوا إنا لفي ضلال عن الصواب ، وسعر : شقاء وعناء وتعب مما يلزمنا من طاعته .

وقال عطاء عن ابن عباس : وسعر جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة إذا كان بها جنون . أهدى قال الرازي : السعير في الآخرة واحد فكيف جمع ؟ قال : نقول الجواب [عنه] من وجوه أحدها : أن في جهنم دركات ، يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرا ، ثانيها : لدوام العذاب عليهم فإنه كلما أنضج جلودهم يبدلهم جلودا فكأنهم في كل زمان في سعي آخر ، وعذاب آخر .

ثالثها : لسعة السعير الواحد كأنها سعر ، يقال للرجل الواحد : فلان ليس برجل واحد بل هو رجال^(١) .

ثم حكى قولهم : ﴿أَوَلَيْيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنَا﴾ أي كيف نزل الوحي عليه من دوننا وفيما من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ أي : بطر متكبر ، حمله تكبره على ادعاء ذلك ، وفيه إشارة إلى كل ما ينكرونه من طريق المبالغة ، وذلك أن الإلقاء : إنزال بسرعة ، والنبي كما يقول : جاءني الوحي مع الملك في لحظة يسيرة فكأنهم قالوا : الملك جسم ، والسماء بعيدة فكيف ينزل في لحظة ؟ فقالوا : ألقى ، وما قالوا : أنزل ، وذلك أن النفي بطريق الاستفهام أبلغ ؛ لأن من قال : ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذب فيه ، فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يخشى بقوله : ما أنزل ، فيجعل الأمر حيثئذ منفيا ظاهرا لا يخفى على

أحد ، بل يقول كل أحد : ما أنزل ، وقولهم : ﴿عليه﴾ إنكار آخر ، كأنهم قالوا : ما ألقى ذكر أصلاً ، ثم قالوا : وإن قالوا : لا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء ، ثم المبالغة في كذاب إما في الكثرة ، وإما في الشدة ، فالكذاب إما شديد الكذب ، يقول ما لا يقبله العقل ، أو كثير الكذب^(١) .

وقولهم : ﴿أشهر﴾ إشارة أنه كذب لا لضرورة وحاجة إلى خلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما هو استغناء وبطر وطلب الرياسة عليكم .

ثم قال : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ وهو عبارة عن الوقت المستقبل ، أي : عند نزول العذاب عليهم ، أو يوم القيامة ﴿مَنْ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ﴾ أصالح أم من كذب به ، وهذا وعيد لهم ، والمعنى : سيعلمون غدا أنهم الكاذبون ، الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة ، بل بطشوا وأشروا لما استغنوا ، وأن هذا التهديد بالعذاب لا يحصل العلم .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّا مُرْسَلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام : أي : جاعلوا الناقة فتنة ، أي : محنة واختباراً لهم [فارتقبهم] أي : انتظر معصيتهم فيها ﴿واصطبر﴾ أي : اصبر حتى يعصوا في فعلهم ، فترى ما تحب فيهم^(٢) . اهـ

وقوله : ﴿فتنة﴾ مفعول له ، فتكون الفتنة هي المقصودة من الإرسال ، لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب ، ويتميز المصدق عن المكذب ، بإخراج الناقة من الصخرة كان معجزة ، وإرسالها ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ، ولهذا قال : ﴿إِنَّا مُرْسَلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً﴾ ولم يقل : إنا مخرجوا الناقة فتنة .

وفي الكشف^(٣) : ﴿إِنَّا مُرْسَلُو النَّاقَةِ﴾ أي : مخرجوها من الحجر كما سألوا ، روي أنه قال سيدهم ، وهو جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة يقال لها : الكائبة : أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخرجة جوفاء وبراء — والمخرجة : التي شاكلت

(١) وانظر أيضاً تفسير الرازي ٣٠٧/١٠ ، والكشاف ٤٦/٤ ، ٤٧ .

(٢) ما بين القوسين ليست في الأصل لهذا التفسير ، وهي موجودة في مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٤ .

(٣) انظر الكشف ٤٧/٤ .

البخت — فإن فعلت صدقتك وأجبتك ، فأخذ صالح عليه السلام الموائق عليهم لأن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن . قالوا : نعم ، فصلي ودعاريه ، فتمخضت الصخرة تمخض التتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنبها إلا الله وعظماؤهم ينظرون ، ثم نتجت ولدا مثلها في العظم ، فأمن به جنسده ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤسائهم أن يؤمنوا ، فمكنت الناقة مع ولدها ترعى الشجر ، وتشرب الماء وكانت ترد غبا ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر ، فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ، ثم تتفحج فيحتلبون ما شاؤا ، حتى تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدخرون .

قال أبو موسى الأشعري : أتيت أرض ثمود وذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا ، وكانت الناقة إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادي ، فتهرب منها أنعامهم ، فتهدط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم ، وزينت عقرها لهم امرأتان ، فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها حتى رقا جبلا اسمه فاره ، فرغا ثلاثا ، وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا ، وانفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبحون غدا وجوهكم مصفرة ، وبعد غد وجوهكم محمرة ، واليوم الثالث وجوهكم مسودة ، ثم يصحبكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين ، فلما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفئوا بالأنطاع ، فأتتهم الصيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا . اهـ

واعلم أن الله سبحانه إنما قص على نبينا صلوات الله عليه وعلى آله وسلم في هذه السورة خمس قصص ليتأسي بمن تقدمه من أنبياء الله عليهم السلام في الصبر والدعاء إلى الحق ، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه حيث وصف عز وجل قصة ثمود مستقصاة في هذا الموضع ليقنت بصالح في الصبر ، لأن حال صالح عليه السلام كان أكثر مشابهاة بحال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه لما أتى بأمر عجيب أرضي كان أعجب ما جاء به الأنبياء ،

لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت ، لكن الميت كان محلا للحياة ، فأثبت بإذن الله الحياة في محل كان قابلا لها ، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فأثبت له في الخشب الحياة ، لكن الخشب نبات له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب ، وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر ، والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى بأعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ، ولا إمكان انشقاقه وخرقه ، وأما الأرضيات فقالوا: إنها أجسام مشتركة المراد ، يقبل كل واحد منها صورة الأخرى ، والسموات لا تقبل ذلك ، فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ذكر هذا الرازي (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أي : انتظر معصيتهم فيها ، وتبصر ما هم صائرونه ﴿ وَأَصْطَبِرْ ﴾ أي : اصبر على أذاهم حتى يعصوا في فعلهم فترى ما تحب فيهم (٢) وإنما قال : ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ ولم يقل : فارتقب بالعذاب إشارة إلى حسن الأدب ، والاحتساب عن طلب الشر .

وقوله : ﴿ فَاصْطَبِرْ ﴾ يريد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل بهم العذاب ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى أقرب الوقت إلى أمر فيما الأمر فيه بحيث يعجز عن الصبر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ أي : أخبرهم ﴿ أَنَّ الْمَاءَ ﴾ الذي يردونه ﴿ قِسْمَةٌ ﴾ مقسوم ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ تغليبا للعقلاء ، ولو غلب غيرهم لقال : بينهم ، أي : لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم .

قال الهادي عليه السلام يقول : أعلمهم وقل لهم : إنا قد قسمنا الماء بين الناقة وبينهم ، فيوم لها شربه كله لا يشربون معها ، ولا يردون الماء يوم ورودها ، ويوما لهم لا ترد فيه الناقة

(١) التفسير الكبير ٣٠٩/١٠ .

(٢) انظر كلام الإمام الهادي عليه السلام الذي سبق .

عليهم ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ يقول : كل يوم فهو شرب لأهله ، يشربون فيه الماء ويحتضرونه ، معنى يحتضرونه : يحضرونه ويشهدونه ، فكانوا كذلك حتى عقروا الناقة ، فنزل بهم عذاب الله ^(١) . اهـ

وقيل : يحضرون الماء في نوبتهم ، واللبن في نوبتها .
قال في البرهان : روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل الحجر في مغزى تبوك قال لأصحابه : أيها الناس لا تسألوا عن الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم آية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون منها يوم غيها ، وتصدر من ذلك ^(٢) . اهـ

قال ابن عباس : تعنتوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة كانت عندهم ناقة حمراء عشراء تضع ثم ترد ماءهم فتشربه ، ثم تغدو عليهم بمثله لبنا ففعل الله ذلك لصالح ثم قال تعالى : ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ نداء المستغيث ، كما تقول : يا الله للمسلمين .

قال في البرهان : وصاحبهم الذي نادوه لعقرها قدار بن سالف ، قال الأفوه :

فإنه كقدار حين تابعه
على الغواية أقوام فقد بادوا

﴿فَتَعَاطَى فَقْعَرٌ﴾ أي : تناولها بيده بعد ما كمن لها في أصل صخرة على طريقها فرماها بسهم ، فانقضم به عضلة ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فضرب عرقوبها فخرت ورغت ، ثم نحرها ، فأتاهم صالح فلما رأى الناقة قد عقرت بكى ، ثم قال : انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ، وكان قدار أحمر أزرق ^(٣) . اهـ

وقيل : ﴿فَتَعَاطَى﴾ أي : اجترأ على الأمر العظيم غير مكترث ﴿فَقَعْرٌ﴾ أي : فأحدث العقر بالناقة ، رماها مسطح بسهم في رجلها فسقطت فعقرها قدار بن سالف .

ثم قال عز وجل : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ قد مر تفسيره .

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ .

(٢) انظر البرهان ٣٦٣ ، وفي زيادة : وهو معنى قوله : ﴿وَنَبِيَّهُمْ أَنِ الْمَاءِ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ .

(٣) البرهان ٣٦٣

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً﴾ قيل: هي صيحة جبريل التي فلفت قلوبهم ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ﴾ الهشيم: الشجر اليابس المت هشم المتكسر. والمحْتَظِر: الذي يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم.

قال الهادي عليه السلام: والعذاب الذي نزل بهم فهو ما ذكر الله من الصيحة الواحدة، والصيحة: فهي الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم، وهشيم المحتظر: فهو دقاق ما قد بلي من الشوك والعيذان الذي احتظر به المحتظر على نفسه وغنمه، ثم طال عنده فبلي وتفتت، وهو شيء كانت العرب تفعله يجمع الرجل منها الشوك والعيذان فيحظره حظيرة على غنمه، حتى لا يخرج منها شيء، فشبه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك، الذي جعل حظيرة بعد فئائه وبلائه^(١). اهـ

قال الشاعر: أثرت عجاجة بدخان نار تشب بفدغد بال هشيم
وقال آخر: ترى جيف المطي بجانيبه كأن عظامها خشب الهشيم
ذكره في البرهان^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسْرُونَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكَرٍ﴾ تكرار للتذكير. ثم بين سبحانه حال قوم آخرين، وهم قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ﴾ أي: بالرسول، أو بالإنذار، ثم بين عذابهم وهلاكهم فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾. قال الهادي عليه السلام: الحاصب فهو الرمي الذي وقع بهم، والرحم الذي نزل من السماء عليهم^(٣).

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥. وفي الأصل: فيحظر به على غنمه، وما أبتناه هو ما في المجموع.

(٢) البرهان ص ٣٦٣، ولفظ البرهان: قوله عز وجل: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ﴾ أراد الحظائر البالية إذا صارت

هشيمًا، ومنه قول الشاعر: أثرت عجاجة بدخان نار تشب بفدغد بال هشيم

والمحتضر: هو الذي تحضر به العرب حول مواشيها من السباع.

قال الشاعر: ترى جيف المطي بجانيبه كأن عظامها خشب الهشيم.

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥.

وفي الكشف (حاصبا) : ربما تحصيهم بالحجارة ، أي : ترميهم بها ^(١).
وفي التحريد قال أبو عبيدة : الحاصب الحجرة في الريح ، ويكون الحاصب الرامي بالحصاء .

المعنى : أنا أرسلنا عليهم عذابا يحصيهم يرميهم بالحجارة ، التي هي الحصاء ، وكثير استعمال الحاصب في الريح الشديد ، فأقام الصفة مقام الموصوف ، والمراد عذاب حاصب ؛ لأن المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب .

ثم في الاستثناء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وجهان : أحدهما أن الاستثناء عائد إلى الضمير في ﴿عليهم﴾ وهم القوم بأسرهم ، غير أن قوله : ﴿كذبت قوم لوط﴾ لا يوجب كون آلهم مكذبين ؛ لأن قول القائل : عصي أهل بلدة كذا يصح وإن كان فيها شرذمة قليلة يطيعونه ، فهذا إذا كان منهم واحدا أو اثنان من المطيعين لا غير .

والثاني : أن الاستثناء من كلام مدلول عليه ، فإنه قال : ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا﴾ فما أنجينا من الحاصب إلا لوط ، فكان الحاصب من كان الإرسال عليه مقصودا ، ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم ، فما نجا منهم ﴿إلا آل لوط﴾ يعني : من آمن من ولده ^(٢).

في الكشف : أقاربه الذين على دينه ، ومن آمن معه ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل ، والسحر : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض النهار ؛ لأن في هذا الوقت تجتمع ملامكة الليل وملامكة النهار ، وقيل : بقطع من الليل ، وهو السدس الأخير منه ، وقيل : هما سحران الأول : قبل انصداع الفجر ، والآخر : عند انصداعه .

ثم قال تعالى : ﴿نِعْمَةٌ مِنَّا﴾ أي ذلك الإنجاء كان فضلا منا لأجل إنعامنا عليهم ، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلا .

(١) الكشف ٤٧/٤ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٣١٣/١٠ ، ٣١٤ .

وفي نصبها وجهان : أحدهما — مفعول له كأنه قال : نجيناهم بنجاتهم نعمة منا .
 ثانيهما : على أنه مصدر ؛ لأن الإنجاء منه إنعام ، فكأنه تعالى قال : أنعمنا عليهم
 بالإنجاء إنعاما .

ثم قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه
 وطاعته .

ثم أخبر سبحانه بإنذار نبيه ، وإتيانه بما هو عليه فقال : ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط عليه السلام
 ﴿بَطْشَتْنَا﴾ أي : وقعتنا ومصيبتنا ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي : شكوا في النذر ، وهذا يدل
 على أن النذر هي الإنذارات ، وفي قوله : ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا﴾ تنزيه لوط عليه السلام ،
 وبيان أنه أتى بما عليه ، فإنه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب — وكان من الرحمة
 أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة — بين ذلك فقال : أهلكتهم وكان قد أنذرهم
 من قبل بطشتنا ، أي : البطشة التي وقعت ، وقيل : المراد بها في الآخرة كما في قوله
 تعالى : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ هم الملائكة عليه السلام ، أي : خادعوه وطلبوه
 ترك المدافعة لما أرادوا بهم من فعل الفاحشة ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ قيل : مسخناها
 وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق .

روي أنهم عالجوا باب لوط عليه السلام وهو يدافعهم ، فقالت الملائكة عليهم السلام : خلهم
 يدخلوا ﴿إِنَّا رَسَلْنَا رَيْكَ أَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾^(٢) فدخلوا ، فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه
 [صفقة] فتركهم يترددون ولا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم^(٣) .

وعن الضحاك : طمس الله أبصارهم عن الضيف ، ولم يعمهم فجعلوا يقولون : قد
 رأيناهم دخلوا فأين ذهبوا .

(١) الدخان : ١٦ .

(٢) هود : ٨١ .

(٣) وذكر هذه الرواية أيضا الزمخشري في كشافه (٤/٤٣٩) وما بين قوسي الزيادة منه .

قلت : ويؤيد هذا قول الهادي عليه السلام حيث قال : ﴿ ولقد راودوه ﴾ هو لوط صلى الله عليه وآله راوده هؤلاء المرجومون ليسلم إليهم ضيفه ، وهم الملائكة المقربون ، وكانوا يظنون أنهم فتية آدميون فطمس الله أعينهم ، ومعنى طمس أعينهم : فهو حجبها عن رؤيتهم ومنعها من الوقوع على ملائكة ربهم ^(١) . اهـ

وكذلك روي عن ابن عباس أنه قال : المراد من الطمس الحجب عن الإدراك ، فما جعل على بصرهم شيء غير أنهم دخلوا ولم يروا هناك شيئاً ، فكانوا كالمطموس . قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ﴾ أي : قيل لهم على ألسنة الملائكة : ذوقوا ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴾ أي : وعقاب تكذيب إنذاري ، أي لما نزل العذاب بهم قالت الملائكة عليه السلام لهم : ذوقوا عذاب الله ونذره : أي إنذاره إليكم .

وقيل : هنا خطاب مع كل مكذب ، تنذره : كنتم تكذبون فذوقوا عذابي ؛ فإنهم لما كذبوه ذاقوه . إن قيل : النذر كيف تذاق ؟ قيل له : ذق فعلك ، أي : مجازاة فعلك وموجبه ، ويقال : ذق الألم على فعلك ، وقوله : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي ﴾ كقولهم : ذق الألم ، وقوله : ﴿ وَنُذُرِي ﴾ كقولهم : ذق فعلك ، أي ذق ما لزم من إنذاري ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أي أول النهار وبساكره ، كقولهم : مشرقين ومصبحين ﴿ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي : مقيم عليهم غير زائل عنهم ، قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة ، ويحتمل : عذاب مستقر أنه لا مدفع له ، أي : يستقر عليهم ويثبت ، ولا يقدر أحد على إزالته ورفع أو إحالته ودفعه . ثم قال تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ﴾ أي : وإنذاراتي ومصداق ما أنذرته ، وهو تقرير بما لهم في الحال من العذاب .

[فائدة في التكرير]

قال في البلغة : وإنما كرر ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي ﴾ لأن الأول قيل عند الطمس ، والثاني قيل لهم عند الخسف ولا شك .

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ .

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي ٣١٧/١٠ .

وفي الكشف : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله سبحانه وتعالى ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن تفرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات ؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم العقلة ، وهكذا حكم التكرير كقوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عند كل آية أوردها في سورة الرسائل ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون [تلك] العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان (١). اهـ

ثم قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ آل فرعون : أهله وخاصته ، والنذر : موسى وهارون وغيرهما ؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون ، أو جمع نذير وهو الإنذار ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي : التسع ، وسيأتي إنشاء الله تعالى عددها في سورة النمل ، وقيل : قوله تعالى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ كلام مستأنف ، والضمير عائد إلى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب : أي لا يغالب ﴿مُقْتَدِرٌ﴾ أي : عذاب عزيز قادر لا يعجزه شيء .

ولما أخرج سبحانه عن قصص من ذكر في هذه السورة ممن أهلكتهم من القرون الأولين يكفرهم قال ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يعني قريشا والعرب ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلَانِكُمْ﴾ يقول : من أولئك الذي قصصنا عليكم هلكتهم ، وهم قوم نوح وهود وصالح وآل فرعون ، أي : هم خير قوة وآلة ومكانة في الدنيا ، أو أقل كفرا وعنادا ، يعني أن كفاركم مثل أولئك ، بل هم شر منهم وأضعف .

﴿أَمْ لَكُمْ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة ﴿بِرَاءَةٍ فِي الزُّبُرِ﴾ أي : في الكتب المنزلة بأن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنا من عذاب الله تعالى ، فأمتهم بتلك البراءة ،

(١) الكشف ٤/ ٤٣٩ . وما بين قوسي الزيادة منه .

يقول : أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم ممن كفر ككفرهم ﴿أَمْ لَكُمْ براءة في الزبر﴾ يقول : مما وقع بغيركم ، فأنتم تحذرون بذلك على ربكم ، ذكر معنى هذا كله الهادي عليه السلام ^(١).

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ بمعنى : بل ، يريد يقولون : يا محمد نحن لكثرة جماعتنا وعددنا منتصرون من جنود الله إن قاتلنا ، فهذا قليل من جهلهم ، وضعف رأيهم ، وقوله : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ﴾ الذي به يدلون ، وعليه من دون الله يتكلمون حتى ينهزموا من جند الله ﴿وَيُؤَلِّوْنَ الدِّبْرَ﴾ أي : أدبارهم هارين من أولياء الله .

قال في البرهان : يعني : يهزم جمع كفار قريش ، وذلك يوم بدر ، فهذه معجزة وعدهم الله تعالى بها فحققتها ، وفي ذلك شعر حسان :

ولقد وليتم الدبر لنا حين سال الموت من رأس الجبل ^(٢)

وعن عكرمة : لما نزلت [هذه الآية] قال عمر : أي جمع يهزم ؟ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يشب في الدرع بيدري ويقول : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ﴾ عرف تأويلها ^(٣).

فقوله ﴿وَيُؤَلِّوْنَ الدِّبْرَ﴾ أراد بالمفرد الجمع ، أي : كل واحد دبره ، كما قال :
كلوا في بعض بطنكم تغفوا
فإن زمانكم زمن خميص ^(٤)

(١) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، قال الهادي عليه السلام في قول الله سبحانه : ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ أم لكم براءة في الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر فقال : شبه سبحانه قصص من ذكر في هذه السورة بمن أهلكتهم من القرون لكفرهم ، ثم قال : ﴿أكفاركم﴾ يعني قريشا والعرب ﴿خير من أولئكم﴾ يقول : من أولئك الذين قصصنا عليكم هلكتهم ﴿أَمْ لَكُمْ براءة في الزبر﴾ يقول : أهم خير فنصرف عنهم ما أوقعناه بغيرهم ممن كفر ككفرهم ، أم لهم براءة في الزبر ، والزبر : فهي كتب الله من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، يقول : هل لكم من الله حكم بالبراءة مما وقع بغيركم ، فأنتم تحذرون لذلك على ربكم ﴿أَمْ يَقُولُونَ نحن جميع منتصر﴾ يريد : أم يقولون : يا محمد نحن لكثرة جماعتنا وعددنا منتصرون من جنود الله إن قاتلنا ، فهذا قليل من جهلهم ، وضعف رأيهم وقولهم ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ﴾ الذي به يدلون ، وعليه من دون الله يتكلمون ، حتى ينهزموا من جند الله ، ويولون أدبارهم هارين من أولياء الله .

(٢) انظر البرهان ٣٦٣ ، وقد صححتنا اللفظ منه .

(٣) في الأصل (ثبت) وفي الكشف (شب) . في الأصل (عرفت) وفي الكشف (عرف) (الكشاف ٤/٤٤٠)

قال الرازي : وإفراد الدبر إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحد ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ، ولا يثبت أحد للزحف ، فهم كانوا في التولية دبر واحد ^(١).

ثم قال تعالى : ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي : لكن الساعة ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ أي : موعد عذابهم إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم ، بل الأمر أعظم منه ، فإن الساعة موعدهم ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ أي : أشد وأفظع وأطم وآلم وأعظم من يوم بدر ، ومنه : الداهية ، وهي الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : والداهية هي الفجيعة ، قال الشاعر :

أصاب الدهر نسوة آل حرب بداهية همدن لها همودا

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

ومعنى ﴿وَأَمْرٌ﴾ أي : أفظع وأشر ، وأمر مذاقا من المزعة يوم بدر ، والمرارة : هي ضد الحلاوة قال الشاعر :

ولم أر مثل الحب أحلى ولا أمر

وإنما ضرب الله المرارة مثلا لقبح مذاقها ، وثقل مؤنتها وفظاعتها .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي : هم ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ والمجرم : فهو الكاسب للذنوب المحترم لها . اهـ

ومعنى ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي : في هلاك ونيران ، أو في ضلال عن الحق في الدنيا ، ونيران في الآخرة ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي : يجرون جرا وسحبا ، والسحب : هو الجر ، والعامّة تقول : السحاب سمي سحابه لانسحابه على الجبال ، والسحب : هو الجر في اللغة ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام ^(٢) وهذا متعلق بمحذوف ، أي يوم

(٤) انظر الكشاف ٤/٤٤٠ ، قال ابن حجر في تخريج هذا الحديث : عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، وعن أيوب عن عكرمة ، أن عمر فذكره وأثم منه ، ورواه من هذا الوجه إسحاق ، والطبري ، وابن أبي حاتم ، ورواه الطبراني في الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبي رؤاد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولا .

(١) التفسير الكبير ١٠/٣٢٢ .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام في أوائل هذه السورة .

يسحبون يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: حر النار، وسقر: اسم مؤنث علم لجهنم، من سقرته الشمس إذا أذاخته، ذكره في التجرید .
وقيل: من سقرته النار وصقرته إذا لوحث قال ذو الرمة:

إذا ذابت الشمس أتقى صقراتها بأفنان مربوع الصرمة معبل^(١)

والمس هنا: من قولك: وجدت مس الحما، وذاق طعم الضرب؛ لأن النار إذا أصابتهم بحرها ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم مسا كما يمس الحيوان، فقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا﴾ استعارة، وفيه حكمة، وهو أن الذوق من جملة الإدراكات، فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضا حرارته وبرودته وخشونته وملاسته كما يدرك سائر أعضائه، ويدرك أيضا طعمه، ولا يدركه غير اللسان، فإدراك اللسان أتم، فإذا المذوق إدراك لمسي أتم من غيره من الملموسات فقال: ﴿ذُوقُوا﴾ إشارة إلى أن إدراكهم بالعذاب أتم الإدراكات فيجتمع في العذاب إذا شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ قال في البرهان: أي بمقدار وحكمة وتقدير قال الراجز:

وقدر المقدر الأقدارا^(٢) . اهـ

والقدر والقدر التقدير أي: خلقنا كل شيء مقدرًا، أي: محكما على حسب ما اقتضته الحكمة، وقرئ (كل) بالنصب والرفع، فإذا رفعت على أن كل شيء مبتدأ احتمل أن يكون صفة لشيء المضاف إليه ﴿كل﴾ إذ هو نكرة، ويكون الخبر قوله ﴿بقدر﴾ متعلقا بمحذوف وهو خلقناه، وذلك يبطل ما ذهب إليه ابن الحاجب من التنصيص على القدر، ويحتمل أن يصير المعنى إنا كل شيء مخلوق لنا لا لغيرنا خلقناه بقدر، وإذا نصبت

(١) البيت من شواهد الكشاف ٤/٤٤١، قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف: يصف ثور وحش ومعنى ذابت الشمس: اشتد حرها، ويقال: ذاب لعباب الشمس، فيكون إسناد الذوبان إلى الشمس مجازًا، والمربوع: الذي أتى عليه مطر الربيع، والصرمة: الرملة المنقطعة من الرمال، والمعلل: جماعة الشجر ذي العيل، وهو ورق الأرطى، والأفنان: الغصون، الواحد فن. والصقرات: شدة وقع الشمس. وقيل: يصف الظي، وأنه إذا اشتد الحر عليه اتقى منه بأفنان الشجر، واستظل به. (حاشية العلوي على الكشاف ٢٩٨).

(٢) البرهان ٣٦٣، ولا يوجد في نسخة البرهان التي بين أيدينا لفظ: بمقدار..

﴿كل﴾ فهذا الاحتمال أيضا مع قراءة النصب باق ؛ لأن ﴿خلقناه﴾ مع النصب يكون صفة لشيء كما كان مع الرفع ، والفعل الناصب لـ ﴿كل شيء﴾ محذوف جوازا ، وليس هو من باب ما أضمر عامله على شريطة التفسير ، بل من باب زيدا لمن قال : من أضرب ؟ وسوغ حذفه القرينة ، فلا وجه لما ذكره ابن الحاجب هاهنا من التنصيص على الجبر بزعمه من غير احتمال ، ذكر معنى هذا إمامنا المنصور بالله^(١) عليه السلام .

(١) هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام .

هذا هو خلاصة ما ذكره أيضا السيد العلوي في حاشيته ، بعد أن ذكر أن قراءة الرفع شاذة (أعني ليست عن القراء السبعة) وبعد أن حاول دعاة الجبر أن يستدلوا بهذه الآية ، على أن كل شيء مخلوق لله ، وأن ليس للإنسان أي تعلق بأفعاله ، وإنما هو كالشجرة التي تحركها الرياح . قال السيد رضي الله عنه : قال أبو البقاء : ﴿كل شيء﴾ بالنصب العامل فيه محذوف ، و﴿يقدر﴾ حال من إلهاء ، ومن ﴿كل﴾ مقدرا ، ويقرأ بالرفع على الابتداء ، و﴿خلقناه﴾ نعت لكل ، أو لشيء ، و﴿يقدر﴾ خبره ، وإنما كان النصب أقوى لدلالته على عموم الخلق ، والرفع لا يدل على عموميه ، بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر .

وذهب ابن الحاجب إلى أن ﴿كل شيء﴾ مبتدأ ، و﴿خلقناه﴾ خبره ، و﴿يقدر﴾ حال ، والمجموع خبر ﴿إنا﴾ فيفيدا لمعنى المقصود من الآية ، لكن لا تأمن أن يغلط بعض فيجعل ﴿خلقناه﴾ صفة لكل شيء ، ويقدر خبرا له ، فيكون التقدير : كل شيء مخلوق له ، فكان النصب أولى لما فيه من النصوية على المقصود .

الاتصاف : ما مهده النحاة اختيار رفع كل ، ولم يقرأ بها أحد من السبعة ؛ لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملته ، فالرفع أخصر ، وإنما وقع إجماع السبعة على النصب لأنه لو رفع لكان ﴿خلقناه﴾ صفة لشيء ، و﴿يقدر﴾ خبرا عن كل شيء المقيد بالصفة ، ومعناه : أن كل شيء مخلوق لنا بقدر ، فيفهم من ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير الله ليس بقدر ، وعلى النصب يصير الكلام : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى ، وهذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية ، مع ما فيه من نقض المعنى ، لا جرم أجمعت السبعة عليها ، ولما كان الزمخشري يريد أن أفعال العباد مخلوقة لهم استروح إلى قراءة الرفع ، وإن كانت شاذة ، وإجماع المتواتر حجة عليه وقلت : لا تفاوت بين الرفع والنصب من حيث المعنى ، وذلك لأن مراده تعالى ﴿بكل شيء﴾ مخلوق نصبت كل أو رفعت ، وسواء جعلت ﴿خلقناه﴾ صفته مع الرفع ، أو خبرا عنه ، وذلك أن قوله ﴿خلقنا كل شيء بقدر﴾ لا يريد به خلقنا كل ما يقع عليه اسم الشيء ؛ لأنه تعالى لم يخلق جميع الممكنات التي لا تنهاى ، وكل واحد منها يقع عليه اسم الشيء ، فإذا تقرر هذا قلنا : إن معنى ﴿كل شيء خلقناه بقدر﴾ برفع كل ، على أن خلقناه خبر كل مخلوق يخلق بقدر ، وعلى أن خلقناه صفة كل شيء مخلوق كائن بقدر ، فلا تفاوت بين المعنيين ، وكما أن الشيء مخصوص بخلق بقدر ، قراءة الرفع بما ذكرناه ، كذلك هو مخصوص على تقدير النصب ؛ لامتناع العموم . والله أعلم

ثم أخبر سبحانه عن سرعة فعله فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ يعني: أن ما أردناه من صنع شيء أمرناه، أي: صنعناه مرة واحدة، ولا يحتاج إلى ثانية، فيكون ذلك الشيء مع أمرنا له وصنعنا إياه ﴿كَلِمَةً بِالْبَصَرِ﴾ في سرعته، أي: كلمحة بصر المبصر في سرعة أمره إذا أمر، ومعنى ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ أي: شأننا إذا أردنا تكوين شيء إلا فعله واحدة سريعة، كسرعة الملح بالبصر، واللمح: خطف البصر، وهو تحريك الجفن، وقيل: معناه إلا كلمة واحدة سريعة التكوين، والأول أولى؛ لأن الكلمة التي هي كن إنما هي عبارة عن سرعة تكوين المراد كما سبق ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ﴾ تدل على أن قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ تهديد بالهلاك والأشياء الأشكال.

قال الهادي عليه السلام: هي أمثالهم ونظائرهم وإخوانهم في كفرهم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ يقول: هل من متذكر ومعتبر^(١).

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْرِ﴾ إشارة إلى الأمر غير مقتصر على هلاكهم، بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل هو الذي معد لهم على ما فعلوه (والزير هاهنا: فهو العلم، يقول: كل شيء فعلوه وأحدثوه أو قالوه فهو في علمنا ثابت مستقر ولا يزول منه ما كبر ولا ما صغر)^(٢).

وقيل: الزير الكتب، أي مكتوب محفوظ في ديوان الحفظ، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ تعميم بالحكم، أي ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضا مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة وقال في البرهان: ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ أي: معلوم محفوظ كالشيء المكتوب الذي إذا احتيج إليه نظر فيه^(٣). اهـ قلت: ومثل هذا ذكر الهادي والقاسم^(٤) عليهما السلام وغيرهما.

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٨.

(٢) ما بين القوسين من كلام الإمام الهادي عليه السلام. مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٨.

(٣) البرهان ٣٦٣.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ قال الهادي عليه السلام: فالنهر: نهر الأنهار التي تجري في الجنان^(١). اهـ

فمعنى ﴿نهر﴾ أي: أنهار لكن اكتفى بذكر الجنس، ولوفاق الفواصل؛ لأن اسم الجنس يقوم مقام الأنهار، وقيل: النهر السعة والضياء مأخوذ من النهار. ومعنى قوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدٍ صَدْقٍ﴾ فهو: في محل صدق، أي: في مكان مرضي ومجلس حق لا لغو فيه.

﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ معنى ﴿عند﴾ لدى، و﴿ملك﴾ فهو المالك لكل شيء ﴿مقتدر﴾ فهو القادر على ما يريد، الذي لا يمتنع منه قريب ولا بعيد، ذكره الهادي^(٢) عليه السلام وذلك لما كانوا في الجنة وهي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لهم مثلت حالهم بحال خواص الملك المقربين عنده في المنزلة على جهة التخييل، والله سبحانه يتعالى عن الأمكنة؛ لأن المراد قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان.

وقوله: ﴿مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لأن القرب من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتدارا كان المتقرب إليه أعظم التذاذا، وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك إنما يقربون ناسا يحبونه وناسا يرهبونه مخافة أن يعصوا عليه وينحازون إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى قال: ﴿مُقْتَدِرٌ﴾ لا يُقَرَّبُ أَحَدًا إِلَّا بِفَضْلِهِ.

وصلّى الله على خير خلقه محمد وآله وسلم تسليما كثيرا

(٤) قال الإمام الهادي عليه السلام: معنى ﴿مستطر﴾ فهو مكتوب، ومعنى مكتوب: فهو محفوظ. مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٨٦.

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٨٦.

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٨٦.

سورة النجم

ستون وآيتان في الكوفي ، وإحدى وستون في عدد الأكثر (مكية)
قال في البرهان : وهي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [بمكة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا قسم من الله سبحانه بالنجوم عند هويها ، ومعنى ﴿النجم﴾ فهو النجوم جميعا كما قال الله : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾^(١) وهو يريد الناس طرّاً ، ومعنى ﴿هوى﴾ فهو غاب وتدلّى ، فأقسم بهويّه عند هويّه لما في ذلك من عظيم الآيات وكبير الدلالات على منشيئ الأرضين والسموات^(٢) . اهـ

(١) الإنشطار : ٦ . والإنشقاق : ٦ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٧٧ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه السلام في قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ معناه بنجوم القرآن ، كان ينزل به جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمس آيات أو أكثر أو أقل .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ معناه أي : بالهوى . وقوله تعالى : ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ معناه : قوة .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ معناه : بالجانب ، وقال : هو مطلع الشمس الأعلى .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي : جبريل عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ معناه : ما بين الوتر إلى كبد القوس ، وقال : كل ما قست به فهو قوس .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَكْذِبُ الْفُوَادُ مَا رَأَىٰ﴾ معناه : ما علم ، وصدق ما رأى .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ معناه : ما عدل . وقوله تعالى : ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معناه : ما جار .

وقيل : أقسم بالنجم وهو اسم غالب على الثريا وهو جنس النجوم ، وقيل : النجم الذي يرحم به ، وهوى : غرب أو انتثر يوم القيامة .
وقال في البرهان : معناه نجوم القرآن ؛ لأنه كان ينزل نجوما ، أي : آية بعد آية ، وسورة بعد سورة ^(١).

وفي الكشف وغيره عن عروة بن الزبير : أن عتبة بن أبي لهب وكانت تحت بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتين محمدا فلاؤذينه ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورد عليه بنته وطلقها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : (اللهم سلط عليه كلبا من

وقوله تعالى : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ معناه : من علاماته وعجائبه . وقوله تعالى : ﴿أفرايتم اللات والعزى﴾ قال : هي أصنام كانوا يعبدونها . وقوله تعالى : ﴿تلك إذا قسمه ضيزى﴾ معناه : حجارة . وقوله تعالى : ﴿وما أنزل الله بها من سلطان﴾ معناه : من حجة . وقوله تعالى : ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ معناه : البيان . وقوله تعالى : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ معناه : أن يلم بالذنب ثم يتوب منه . وقوله تعالى : ﴿وإذا أتمت أجنة في بطون أمهاتكم﴾ معناه : أولاد في بطونهن ، واحدها : جنين . وقوله تعالى : ﴿فلا تركوا أنفسهم﴾ معناه : لا تبرئوها . وقوله تعالى : ﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ معناه : أقل . وقوله تعالى : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ معناه : بلغ ما أمر به . وقوله تعالى : ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾ معناه : لا يؤخذ بذنب غيره . وقوله تعالى : ﴿وأن سعيه سوف يرى﴾ معناه : عمله . وقوله تعالى : ﴿من نطفة إذا تمنى﴾ معناه : تخلق . وقوله تعالى : ﴿وأن عليه النشأة الآخرة﴾ معناه : إحياء الأموات . وقوله تعالى : ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ معناه : مؤل وكثر . وأقنى أي : جعل له قية ، معناه أصل مال ، ويقال : قنى : رضى ، ويقال : أخدم . وقوله تعالى : ﴿وأنه هو رب الشعري﴾ معناه : الكوكب المضي الذي وراء الجوزاء . وقوله تعالى : ﴿وأنه أهلك عادا الأولى﴾ وهم الذين أرسل الله تعالى عليهم الريح فدمت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى هلكوا . وقوله تعالى : ﴿والمؤتفة أهوى﴾ قال : رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء ، ثم أهوى بها ، والمؤتفة : هي المحسوف بها . وقوله تعالى : ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ فالآلاء : النعماء واحدها إلى ، وتمارى : أي : تشك . وقوله تعالى : ﴿أزفت الأزفة﴾ معناه : قربت القيامة . وقوله تعالى : ﴿وأنتم سامدون﴾ معناه : غافلون ، ويقال : لاهون

(انظر تفسير غريب القرآن للإمام زيد ٢٠٩ ، ٣١١)

(١) قال في البرهان : ﴿والنجم إذا هوى﴾ معناه : نجوم القرآن . الخ وكل ما ورد في هذه السورة ، هو موجود في نسخة البرهان (مخطوط) التي لدينا ص ٣٥٩ - ٣٦٢ . وانظر أيضا تفسير الإمام زيد بن علي عليها السلام فقيه مثله .

كلابك) وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها^(١) وقال : ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة ، فرجع عتية إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب [من الدير] فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لب لأصحابه : أعينوني يا معشر قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جماعهم وأناخوها حولهم ، وأحلقوا بعتية فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتية فقتله^(٢) فقال حسان في ذلك :

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع^(٣)

وجه قوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي : ما ضل صاحبكم يا قريش ، أي : محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) فوجم لها : أي : اشتد حزنه . أفاده في الصحاح . وقال السيد العلوي : ومعنى وجم لها : أي : للكلبنة أو للدعوة ، أنه أسكنه لهم ، وعلته الكتابة ،

(٢) قال ابن حجر في تهذيب الكشاف : أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله ، إلا أنه قال : فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فمات مكانه . ورواه البيهقي في الدلائل ، والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه ، لكن قال عتية : ورواه الحاكم والبيهقي في الدلائل أيضا من رواية أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه ، قال : (كان لب بن أبي لب) فذكره مختصرا ، وقال البيهقي : هكذا قال ابن عباس بن الفضل الأزرق . وليس بالقوي ، وأهل المغازي يقولونه : عتية ، أو عتية .

قال السيد العلوي رحمه الله : قيل : إن هذا الحديث موضوع ؛ لأن صاحب الاستيعاب وجامع الأصول ذكرا أن عتية بن أبي لب أسلم هو وأخوه معتب يوم فتح مكة ، وكانا قد هربا ، فبعث العباس وأتى بهما فأسلما ، وسر رسول الله صلى الله عليه وآله بإسلامهما ، ودعا لهما وشهدا معه حينئذ والطائف (حاشية العلوي ٢٩٥) .

(٣) لا يرفع الرحمن مصروعكم ولا يوهن قسوة الصانع

وكان فيه لكم عبرة للسيد المتبوع والتابع

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

من عاد فاليث له عائد أعظم به من خير شائع

قال السيد العلوي : من جملة أبيات منجولة إلى حسان وليست له ، والله أعلم .

ويوهن بالتشديد مجزوما بلا الدعائية ، والمصروع : المطروح ، وسكون السبع لغة ، ثم قال : من عاد لمثل فعل عتية فالأسد له عائد . وقد صححنا الألفاظ من الكشاف ، وهي ألفاظ يسيرة (انظر الكشاف ٤١٨/٤) .

قال الهادي عليه السلام : فأقسم بالنجم أن محمدا صلى الله عليه وآله ما ضل عن الهدى ، ولا عما أمر به العلي الأعلى ، وأنه ما أفك ولا غوى ، ومعنى ﴿غوى﴾ فهو : ضل فهلك إذا أساء ^(١) . اهـ

والضلال : نقيض الهدى ، والغي : نقيض الرشد ، أي : ليس كما تزعمون أنه ضال غاو .
وقوله : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ دليل على أنه ما ضل وما غوى ، تقديره : كيف يضل أو يغوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ! وإنما يضل من يتبع الهوى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ^(٢) قال [الهادي] عليه السلام : يقول ما يتكلم محمد بهوى نفسه ، ولا يأتيكم بشيء من عنده ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ يقول : ما يأتيكم صاحبكم إلا بوحي يوحى إليه ، وما يأمركم إلا بما ينزل من الله عليه .
وذلك أنه تعالى لما قال : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ كأن قائلا قال : فيماذا ينطق عن الدليل والاجتهاد ؟ فقال : لا وإنما ينطق عن الله بالوحي ^(٣) .

ثم قال عليه السلام : معنى ﴿عَلَّمَهُ﴾ فهمه وأمره به ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ : فهو جبريل صلى الله عليه يقول : شديد الأسر والخلق ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ والمِرَّةُ : فهي العزيمة والقوة والنفاد فيما يؤمر به ﴿فَاسْتَوَى﴾ معناه : فتمَّ وكمل ^(٤) .

وظاهر هذا أن الضمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ عائد إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم تقديره : علم محمدا شديد القوى جبريل ، وحيث يكون عائدا إلى صاحبكم ، وقيل : إن الأشهر عند المفسرين أنه عائد إلى الوحي ، أي الوحي ﴿عَلَّمَهُ شديد القوى﴾ ولهم في قوله ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وجوه ^(٥) أحدها : ذو كمال في العقل والدين جميعا ، ثانيها : ذو منظره وهيئة عظيمة ، ثالثها : ذو خلق حسن ، رابعها : ذو قوة .

(١) جميع ما نقله المصنف رحمه الله عن الإمام الهادي عليه السلام في هذه السورة هو من مجموع تفسير الأئمة مخطوط .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) هذه الفقرة من كلام المصنف ، وليست من كلام الإمام الهادي عليه السلام .

(٤) إلى هنا تمام كلام الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام .

(٥) ومثله في الرازي ٢٣٨/١٠ ، وقال فيه : أحدها ذو قوة .

قيل : ومن قوته اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وجعلها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بشمود صيحة فأصبحوا جاثمين ، كان هبوطه على الأنبياء وصعوده أوحى : أي أسرع من رجعة الطرف ، وقيل : معنى ﴿فَاسْتَوَى﴾ أي : استقام على صورته الحقيقية لا التي كان يتمثل بها كلما هبط ، وكان ينزل في صورة دحية الكلبي بحماله ، وذلك لأنه صلى الله عليه وآله أحب أن يراه في صورته التي خلق عليها فاستقام له ^(١).

﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ قال [المهادي] عليه السلام : فالأفق الأعلى : أفق سماء الدنيا .
﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ يقول : تقرب ودنى ونزل ﴿فَكَانَ﴾ أي : حتى كان من محمد صلى الله عليه وآله في الهواء ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فهو : قدر الغلوتين في الهواء ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ يقول : أقرب من القوسين ، وفوق القوس ^(٢) . اهـ

أي أقرب من مقدارهما على تقدير كم ؛ لأن الله تعالى عالم لا يجوز عليه الشك ، وقيل : الأفق الأعلى : أفق الشمس فملأه ، قيل : ما رآه على هذه الصورة أحد من الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وآله هذه المرة في الأرض ، ومرة في السماء ليلة الإسراء ، ولما رآه في هذه غشي عليه ، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل منه صلى الله عليه وآله ﴿فَتَدَلَّى﴾ تعلق عليه في الهواء ، ومنه دنا رجليه من السرير ، وهذا من المقلوب ، أي ثم تدلى من السماء فدنى من رسول الله صلى الله عليه وآله فكان منه صلى الله عليه وآله في القرب على قاب قوسين ، أي على قدرهما ، والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس : المقدار ، أي : فكان مسافة قربه منه صلى الله عليه وآله مثل قاب قوسين ، وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والخطوة والشبر والقير والإصبع قال :

و[قد] جَعَلْتَنِي مِنْ خَزِيْمَةِ إِبْصَاعِهِ ^(٣)

(١) وقرب من هذا الكلام في الكشف ٤/٤١٩.

(٢) لفظ الأصل (قرب يقرب ومنازل نزل) وقد صححنا اللفظ من مجموع تفسير الأئمة مخطوط .

(٣) في الأصل (وفوق القوسين) وقد أصلحنا اللفظ من مجموع تفسير الأئمة مخطوط .

(٤) والبيت هو : فأدرك إبقاء العراوة ظلمها . وقد جعلتني من خزيمة إصبعها

ثم قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل المتدلي الذي على قاب قوسين أو أدنى ﴿إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ أي عبد الله محمد صلى الله عليه وآله وإن لم يمر لاسمه عز وجل ذكر ؛ لأنه لا يليس كقوله تعالى ﴿عَلَى ظَهْرَهَا﴾^(١).

ثم قال [الهادي] عليه السلام : وقوله : ﴿مَا أَوْحَى﴾ من الوحي الذي بعثه الواحد [العلي] الأعلى^(٢) . اهـ

وأبهم الوحي تفخيما له^(٣) قيل : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها يسا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

ثم قال تعالى : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ أي : ما رآه يبصره من صورة جبريل ، والمعنى : ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله ، واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ وفي قوله : ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ وقوله : ﴿مَا ضَلَّ

للكلحية ، وهو لقب ، لعبد الله بن هبيرة ، وقيل : جرير بن هبيرة ، وقيل : هبيرة بن عبد مناف ، وقيل : هو للأسود بن يعفر ، وقيل : لرؤية . وليس بشيء ، قال السيد العلوي رحمه الله : البيت لأبي الأسود ، والعراة : اسم فرسه ، أي : أدركها الظلع وهو وجع الرجل ، وقد أدتني من هذه القبيلة ، وبقي بيني وبينها مسافة إصبع [كتابة عن القرب] والمراد بالإبقاء : ما أبقت الفرس من عدوها ؛ لأن من عادة عتاق الخيل أن لا يعطي ما عنده من العدو بل يبقى شيئا منه بعد شيء وقت الحاجة إليه ، وقيل : ومفعول إبقاء محذوف وهو ذخيرتها . اهـ

وقال عليان : والعراة : كعراة ، وقيل : بالكسر اسم لفرسه ، والظلع — بالفتح — غمز في المشية من وجع الرجل ، أي : أدرك الظلع ما أبقت الفرس فلم تقدر على بذله ، والحال أنها جعلتني قريبا من عدوي حزيمة بمهمة مفتوحة فمعجزة مكسورة ، رجل كان قد أغار على إبل الشاعر قتيبة ، وقيل : قيلته وليس بذلك ، ويروى : فأدرك إرقال العراوة ، والإرقال : الإسراع في السير ، أي : أبطل إسرائيها العرج ، ومعناه ، أنه جعلته من ذا مسافة قريبة بقدر إصبع .

(١) فاطر : ٤٥ .

(٢) لفظ الإمام الهادي عليه السلام ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ يقول : أوحى جبريل المتدلي الذي على قاب قوسين أو أدنى إلى عبد الله محمد ﴿مَا أَوْحَى﴾ من الوحي الذي بعث به الواحد الأعلى . وقد ذكر المصنف بعض هذا الكلام ولم ينسبه إلى الإمام الهادي عليه السلام قبل هذا ، وما بين قوسين الزيادة ليست موجودة في مجموع تفسير الأئمة .

(٣) التفخيم لما فيه من الإبهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله : ﴿إِذَا يَغْشَى السَّدْرَ مَا يَغْشَى﴾ .

صاحبكم ﴿وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ لِأَنَّ الْكَذِبَ هُوَ الْوَهْمُ وَالْخِيَالُ ،
وَالْمُرَادُ أَنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَكْذِبْ ^(١) .

قال الهادي عليه السلام يقول : ما كذب فؤاد محمد وقلبه فيما قد أيقن [به] من آيات ربه ،
من تدلي جبريل إليه بوحى خالقه ﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ يقول : تكابرونه وتجادلونه
فيما قد عاينه عيانا ورآه ^(٢) . اهـ

[رؤية النبي لجبريل (ع) وثبوت المعراج إلى السماء وخلق الجنة عند الإمام الهادي ع]
ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً﴾ أي : مرة ﴿أُخْرَى﴾
من النزول ، أي : نزل عليه جبريل نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها في ليلة
المعراج ، وهذا دليل على أنه عرج بجسده إلى السماء .

قال الهادي عليه السلام : فشهد سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله أنه قد رأى جبريل في الصورة التي
خلق الله فيها مرتين حين دنا فتدلى ، ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ وسدرة المنتهى : فهي
أعلى عليين . اهـ

والمنتهى في اللغة : هو الغاية في الفضل ، أو في المنقطع والنهاية والحد والأمد ذكره
الحسين بن القاسم عليه السلام ^(٣) .

(١) وانظر أيضا الكشاف ٤/٤٢٠ ، والرازي ١٠/٢٤١ .

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة ، ٤٧٨ ، وقد صحح اللفظ منه ، وكذا ما بين القوسين منه .

(٣) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره غريب سورة النجم ما لفظه :

معنى قوله عز وجل : ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى﴾ هو قسم بالقرآن ، روي أنه كان ينزل نجوما ، وكان بين أوله وآخره
عشرون سنة ، وقيل : هو بالكوكب إذا حوى للغروب والله أعلم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي : ما ضل عن
الحق ، ولا غوى عن الصدق ، والغوى في هذا الموضع : هو الضلال قال الشاعر :

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره

يوما بأسرع من غاو إلى غاري

ما السيل منحدر من رأس رابية

وقال آخر :

ومعنى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ يعني بذلك سيدنا جبريل عليه السلام . ومعنى قوله : ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ أي : ذو

حكمة وقوة ورجلة ، قال الشاعر :

قد كنت أحسب أنني ذو مرة

جلدا إذا غرم الخليط زبالا

وقال آخر : يقول لها ذو مرة القوم منهم

لصاحبه أو خاف منه المهالك

ومعنى «فاستوى» أي : أكمل الدين والهدى «وهو بالأفق الأعلى» يعني السماء «ثم ذنا فتدل» يعني : انحدر . قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : إذا رأيت النجوم أفلا تدل . «فأوحى إلى عبده ما أوحى» أي : إلى عبد الله ما أوحى ، والهاء في هذا الموضع اسم الله مختصر مضمر ، ومعنى «ما كذب الفؤاد ما رأى» أي : ما كذبه عقله في مشاهدته لجبريل صلى الله عليه «ولقد رآه نزلة أخرى» أي : مرة أخرى «عند سدرة المنتهى عندها حنة المأوى» والمنتهى في اللغة : هو الغاية في الفضل ، أو في المنقطع والنهاية والحد والأبد . وقيل : إنها منتهى لمعارج الملائكة عليهم السلام «إذ يغشى السدرة ما يغشى» يمكن أن يغشاها نور من الأنوار ، أو صنع عجيب من الأقدار كتمه الله وأخفاه عن مسامع الفجار ، وسوء ظنون الفاسقين أهل النار . ومعنى «ما زاع البصر» أي : ما أخطأ ولا مال «وما طغى» أي : لم يتعد إلى غير الحق ، بل أصاب . ومعنى «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» لأن جبريل عليه السلام آية عظيمة باهرة منيرة . ومعنى «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» فهذه ثلاثة أصنام للجهال أهل الحيرة والعقلاء والضلال ، وقيل : إن اللات كانت لتقيف بالطائف ، قال الشاعر :
واللات والأنصاب ما أدري
ثم اختصر فلم يأت بخبرها لعلمهم أنها لا تنفع من عبدها . وقيل : إن اللات كانت لرجل يلت السويق عندها ، والعزى كانت شجرة تغطفان بعدونها من دون الله ، ومناة : صخرة لهديل وعزاعة . وروي أن للهند كعبة سميت بها . ولما بعث رسول الله خالد بن الوليد لقطع العزى فقطعها وهو يقول :

يا عز كفرا بك لا سبحانه

إني رأيت الله قد أهانك

ثم ابتدأ فقال : «الكم الذكر وله الأثني» توقيف لهم على ركاكهم ، وفاحش كذبهم وجهلهم ؛ لأنهم كانوا يقولون : للملائكة بنات الله ، فأكذبهم الله ، ورد قولهم ؛ لأنه لو كان يتخذ الأولاد لاتخذ أفضلها ، ولكنه غي عن ذلك عز وجل . ثم قال : «تلك إذا قسمة ضيزى» أي : حائرة عن الحق ، قال الشاعر :

جارت بنو أسد بحكمهم

إذ يعدلون الرأس بالذنب

أي : جارت بنو أسد . ومعنى «إمام للإنسان ما مكنى» أي : لا ينال أمنيته ، بل هو مقهور على ما يكره من الأمور «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم» يريد أنهم لم يبلغوا من العلم إلا كبلغ البهائم الحسم من المأكول والشرب والمزاج واللعب . ومعنى قوله : «إلا اللهم» يعني الخطأ وما يلم بالقلب من الخواطر التي لا يقبلها مسلم ولا يعمل بها ، وذلك فلا يغضب الله عليه من اتقاه ، قال الشاعر :

وإن تغفر اللهم تغفر لنا

وأي عبد لك لا إلها

لا ما يقول الجاهلون من مدانة المعاصي فيما دون أعظمها إلها ، أي : لم يحط «إذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم» الجنين هو الولد ، قال الشاعر :
ألا من لقلب يعرف الناس ما به
كأنه ميلاه قد أوثق قيدها
ولا يرتجى منه السلو لحين
ومر لها في الراحلين جنين

وعيد عليها بالعقال توثقا

إذا ذكرته رجعت بخنين

﴿فلا تركوا أنفسكم﴾ أي : لا تمدحوا أنفسكم ، فالمدح يؤول إلى الكبر ، والإنسان أقل من ذلك لضعفه وكثرة خطئه وإنما أراد الله بهذا النهي عن العجز وسوء الأدب والكبر .

وأما قول النبي صلى الله عليه وآله (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقول العالم صلوات الله عليه :

ودافع ما يؤذيه بالمبال والنفسين

وإنني لمعروف بأسوة صاحبي

والأفلس القاسم العالم الراسي

أحامي عليه إن تغير حاله

محفظي لأصحابي على السر والتعس

بذلك وصاني سلاله أحمد

فذاك من الإملاق أهل انكسار

ومن لم يكن يونسى أحياه بنفسه

فذاك من الإملاق أهل انكسار

وقول الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

أمتي من الله في الخلق

أنا الهادي إلى الحق

فذاك من الإملاق أهل انكسار

وقول المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

تحت ظيل الرياح بين الكباش

لو تأملت طاعني وانكاسي

لست كالطعن نعو الفرائش

لتقنت أنسني طعالي

فناسمي ناي عن الإفحاش

وإلى قوله : أحدي مطهر هاشمي

فضلهم فأرادوا بيان ذلك لأضدادهم ، وذلك

فلم يريدوا بذلك تركية لأنفسهم ولكن تكذبا لمن جحد

فرض واجب عليهم ؛ لأن الله بشر بهم ، وأخبر النبي صلى الله عليه وآله بهم قبل كونهم ، وأيضا فلو كتموا فضلهم لأعانوا بذلك أعداء الله على ظلمهم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ هو : بخل وأقل عطيته ، قال الشاعر :

عالم الكاسب لا يكدي حشاشته

كالبحر يلحق بالتيار أنهارا

ومعنى قوله عز وجل : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي : استوفى خصال الخير فأكملها فلم يترك منها شيئا ﴿وإن إلى ربك

المنتهى﴾ يريد : إليه الغاية والانتهاى وانقطعا جميع الفضائل ، وكل فضل ينتهي عند فضله ، وفضائل الله لا تحصى .

ومعنى ﴿أعنى وأنى﴾ هو أعطى وملك ، والعرب تقول : أقناه الأمير ما لا جما ، أي : ملكه ما لا كثيرا . ومعنى ﴿إنه

هو رب الشعري﴾ والشعري : نجم مضى يتبع الجوزاء ، وكان بعض الجاهلية تعبده ، قال الشاعر :

وأبيكم للحمد ما بدت الشعري

وأبيكم للحدود ما ذر شارقي

معنى ﴿المؤتفة﴾ يريد : الأهم الكاذبة ، ومعنى ﴿أهوى﴾ أي : أسقط في الهلاك . وأراد ﴿فبأي آلاء ربك تتمازى﴾

أيها الإنسان ، ولكنه اختصر . ومعنى ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي : من ذريتهم ونسلهم ، لا أنه عليه السلام

منهم ، ومعنى قوله : ﴿أزفت الآزفة﴾ أي : قربت الساعة ، والعرب تقول : أزف رحيلنا ، أي : قرب ودنا ، ومعنى

﴿وأنتم سامدون﴾ أي : لاهون ، قال الشاعر : قيل قم وانظر إليهم ثم ذر عنك السمودا

أي : ذر اللهو .

وفي البرهان : المنتهى هو موضع ينتهى إليه علم الأنبياء والملائكة ولا يجاوزه ؛ لأن عندها جنة الخلد ، فالمجازة [إليها] تكون في الآخرة ^(١) . اهـ

ثم قال الهادي عليه السلام في قوله تعالى : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ في أعلى عليين أيضا من فوق السماء السابعة العليا ، وهذه الآية حجة بأنه أسري بعبد ليلة أسري به ^(٢) إلى المسجد الأقصى إلى السماء السابعة العليا التي فوقها سدة المنتهى حتى رأى جبريل عندها نزلة أخرى ، وهذه [الآية] حجة في أن الله قد خلق الجنة

قال المرتضى عليه السلام : وقد روينا في ذلك عن بعض السلف عليهم السلام أن الجنة والنار قد خلقتا وأنهما فوق السماء السابعة ، ورووا لنا في ذلك أن جبريل عليه السلام هبط ذات يوم على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متغير اللون ، فقال له : ما لي أراك يا حبيبي على هذه الحالة قال : إني أتيتك عند ما أمر الله سبحانه بالنار فأوقدت حتى صارت أشد حمرة من الدم ، ثم أمر بها [فأوقدت] حتى صارت أشد بياضا من الثوب الأبيض ، ثم أمر بها فأوقدت حتى صارت أشد سوادا من الليل المظلم ، فوالذي بعثك بالحق ما يضيء نورها ولا ينظر لهبها ، ولو علق الله شيئا من سلاسلها بين السماء والأرض لذابت السماء ومن فيها ، والأرض ومن عليها قال : فخر رسول الله صلى الله عليه وآله مغشيا عليه ، فأقام وقتا

(١) انظر تفسير البرهان مخطوط ص ٣٦٠ . وما بين القوسين منه .

(٢) في المجموع : ليلة إسرائه . ينظر في ما نقله المصنف عن مجموع تفسير الأئمة من كلام الإمام الهادي في خلق الجنة ، فإن المشهور عنه الذي تناوله كتب الأصول بأن الجنة لم تخلق بعد ، حتى قال الإمام القاسم بن محمد في متن الأسس الهادي عليه السلام ، وأبو هاشم ، وغيرهما : الجنة والنار لم يخلقما قطعا ، لقوله تعالى : ﴿كُلُّهَا دَائِمٌ﴾ (الرعد : ٣٥) ولا بد من فناء كل شيء كما مر . (متن الأسس ص ٢٠٦) . وكذلك يبحث عن المصدر المنقول عنه كلام المرتضى عليه السلام .

وأیضا على قراءة الإمام علي والزبير ليس في الآية دليل على شيء من أمور الجنة . قال في الكشف : وقرأ علي وابن الزبير وجماعة : ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أي : سره بظلاله ، ودخل فيه . وذكر أن عائشة أنكرت هذه القراءة . وقال الرازي : في تفسيره : وقرئ : جنة بالهاء من جن بمعنى أجن ، يقال : جن الليل وأجن ، وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير في قوله : ﴿عِنْدَهَا﴾ عائدا إلى النزلة ، أي : عند النزلة جن محمدا المأوى ، والظاهر أنه عائدا إلى السدة ، وهي الأصح (كشف)

على تلك الحال ، فأنزل الله عند إفاقته ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ السورة فكان هذا النهار هبة من الله سبحانه لنبيه وتطمينا لقلبه ، وإذهابا لغمه . اهـ

ثم قال الهادي عليه السلام : قوله تعالى : ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ فالسدره : هي سدره المنتهى ، والذي غشها : فهو جبريل حين رآه محمد عندها وفوقها غاشيا [لها] ولغيرها في خلقه الأعظم الذي خلق فيه .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ويمكن أن يغشاها نور من الأنوار ، وصنع عجيب من الأقدار كتمه الله وأخفاه عن مسامع الفجار ، وسوء ظنون الفاسقين أهل النار . اهـ
وقيل : ﴿يَغْشَى﴾ عبارة تعيد التعظيم والتكثير^(١) لما يغشاها من الخلاق الدالة على عظمة الله وجلاله ، وأنها لا يحيط بها الوصف ، وقيل : يغشاها الحم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى .
وعنه صلوات الله عليه وآله (رأيت على كل ورقة منها ملكا قائما يسبح الله تعالى)^(٢) .

قال في البرهان : فإن قيل : لم اختيرت السدره لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ فالجواب : أن السدره تختص بثلاثة أوصاف : ظل مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونية ، وظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزها ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره [اهـ]

ثم قال سبحانه : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي : بصره صلوات الله عليه وآله .
قال الهادي عليه السلام : يقول ما عدل عنه [ولا شبهه] ولا تخايله ، ولا ظنه بل قد رآه بحقائق الرؤية وأبصره ﴿وَمَا طَغَى﴾ رجع الخير إلى محمد صلوات الله عليه وآله يقول : ما طغى فيما خيركم به ، ولا دخله في ذلك أشر ولا بغي ، بل قد صدقكم عما أبصر ورأى . اهـ
وقيل : معنى ﴿مَا طَغَى﴾ ما تجاوز ما رآه ، ومعناه : ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ، ويمكن منها^(٣) .

(١) وذلك مستفاد من الإبهام ، الذي جعلها كأنها شيء عظيم لا يحيط به بيان . وقد تقدم

(٢) قال في تخريج الكشف : أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قيل له : يا رسول الله أي شيء رأيت يغشى تلك الشجرة ؟ فذكره وأنتم منه ، وعبد الرحمن ضعيف ، وهذا معضل .

ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال [الهادي] عليه السلام: يقول رأى [من] جبريل عليه السلام في هذه الصورة مرة بعد مرة آية من آيات الله العظمى لا يشبهها شيء من الأشياء.

قال في البرهان: لأنه رأى جبريل عليه السلام قد سد الأفق بأجنحته^(١).

لأن جبريل عليه السلام آية عظيمة باهرة منيرة.

وقيل: رأى كبرى آيات ربه وعظمتها حين عرج به إلى السماء، فأرى عجائب الملكوت في تلك الليلة^(٢).

واعلم أنه تعالى لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يتدبّر به الرسول، وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك فقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول، كما أن ضعيفا إذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه، يقولون: انظروا إلى هذا الذي يدعي الملك منكبرين عليه، [غير] مستدلين لظهور دليل أمره، فلذلك قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ أي: كما هما فكيف يشركونهما بالله^(٣).

قال الهادي عليه السلام: واللات فهي قبة كانت في الطائف، والعزى: قبة أخرى كانت لهم بطن نخلة على مرحلتين من مكة كانوا يزيتونها بالجواهر والذهب والفضة والثياب الحسنة، وكانوا يعبدونهما كما يعبدون الأصنام، ويرونهما أعظم قدرا من الأصنام. اهـ

وقيل: اللات صنم لثقيف بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعبد بها قريش^(٤).

قال في البرهان: قرئ بتشديد اللات وتخفيفها^(٥)، فمن خففها فإنه أراد به صنما بالطائف، ذكر أن صاحبه كان يلت السوق لأصحابه، ومن شدد فإنه أراد به رجلا

(٣) هذا القول موجود في الكشف من دون نسبة إلى أحد، فيحتمل أنه له؛ لأنه جعله معنى آخر. ٤٢١/٤.

(١) إلى هنا انتهى ما في البرهان، وما بعده ليس من البرهان (بناء على المخطوطة التي بأيدينا).

(٢) صاحب القيل هو الزمخشري (انظر الكشف ٤٢١/٤).

(٣) من قوله: واعلم أنه تعالى لما قرر الرسالة... إلى هنا مثله في الرازي. وقد أصلحنا اللفظ منه، وكذلك ما بين

أقواس الزيادة منه ما ٢٤٧/١٠.

(٤) القول للزمخشري (الكشف ٤٢٢/٤).

كان يلت السويق على الحجر ، ثم مات فعكف أصحابه على قبره ، وصاروا يعبدون الحجر الذي كان يلت عليه . شعر

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها فكيف ينصرهم من ليس ينتصر

والعزى : قيل إنها شجرة تعلق عليها أنواع العهن يعيدها سليم وغطفان ، وهي سمرة وكانت بطن نخلة أرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة من قطعها ^(١) . اهـ قوله : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ تقديره : أفرأيتم اللات والعزى ، المعبودين بالباطل ، ومناة الثالثة المعبودة الأخرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره : ومناة الأخرى الثالثة ^(٢) .

قال الهادي عليه السلام : ومناة فهو صنم كان لهم على الكعبة فعنفهم الله في عبادتهم ^(٣) مثل ذلك ، يقول : أرايتم ما تعبدون من هذه لأي معنى تعبدونه ، ولأي سبب تتخذونه إلهًا من دون الله وهي لا تنفعكم ولا تضركم . اهـ

وقيل : مناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وقيل : سميت مناة ؛ لأن المناسك كانت تمني عندها ، أي : تراق .

وقوله : ﴿ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ صفة لمناة ، ذم من الله ، أي المتأخرة الوضيعة القدر كقوله : ﴿ وَقَالَتِ آخِرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ ^(٤) أي : وضعائهم لرؤسائهم ، ويجوز أن يكون التقديم عندهم والفضل لللات . والعزى : تأنيث الأعز ومناة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عند هذه الأنواء تبركا ، وهذه أصنام مؤنثات ، وكانوا يقولون : هن ^(٥) والملائكة بنات الله ، ويعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله مع وأد هم البنات ، فقبل لهم :

(٥) المراد بتشديد اللات ، أي : تشديد تاء اللات وتخفيفها ، فالتشديد على أنه مأخوذ من لت السويق يلتسه ، والتخفيف على أنه اسم صنم نطق مخففا وإن كان الأصل فيه اللت .

(١) انظر البرهان مخطوط ٣٦٠ . وفي نسخة أخرى للبرهان (ألوان العهن) بدلا عن أنواع العهن .

(٢) صاحب القيل : هو الرازي ٢٤٧/١ .

(٣) في المجموع : فعنفهم الله في عبادة مثل ذلك . وفي المجموع أيضا : ولأي سبب تتخذونه آلهة من دون الله

(٤) الأعراف ٣٩٢ .

(٥) أي : هذه الأصنام .

﴿الْكُمْ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ قال عليه السلام : هذا فيما كانوا يزعمون من أن الملائكة بنات الله إناث ، وأن لهم هم البنين الذكور ، فقال الله : أي حكم هذا ؟ أو عدل عندكم أن تجعلوا لربكم البنات ، وتجعلون لأنفسكم البنين !
﴿تِلْكَ﴾ أي القسمة ﴿إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ والضيزى : فهي الجائرة الفاسدة التي لم تقع على عدل ولا حق قال الشاعر :

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يعدلون الرأس بالذنب

أي : جارت بنو أسد .

ويجوز أن يراد أن هذه الأصنام إناث ، [وقد جعلتموهن لله شركاء] وأنتم تستنكفون من أن يولدن لكم [وينسبن إليكم] فكيف تجعلون [هؤلاء] الإناث أندادا لله ، أي : أمثالا ، وتسمونهن آلهة ؟!

وضيزى : من ضازه يضيظه إذا ضامه ، ويقال : ضازه حقه يضيظه إذا نقصه ، ووزنها فعلى بضم الفاء ، فكسرت لأجل الياء ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ أي : ما هذه الأصنام إلا مجرد أسماء ﴿سَمِيتُوهَا﴾ لا مسميات تحتها لخروجها عن الإلهية بالكلية ؛ لأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ﴿سَمِيتُوهَا﴾ أي : سميت بها ^(٢) ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي : بصحتها

(١) هذا الوجه عائد إلى قوله : ﴿الْكُم الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ والفرق بين هذا الوجه وبين السابق عليه أن الإنكار على الأول وارد على قولهم : هذه الملائكة وهذه الأصنام بنات الله مع استكافهم عن البنات فأنكر عليهم قولهم المقيد ، ألا ترى كيف أوقع قوله مع وأدهم البنات حالا من فاعل يقولون ، وعلى الثاني الإنكار وارد على فعلهم ، فإنهم لما عبدوها وهي إناث جعلوها شركاء لله في العبادة ، فأنكر عليهم ذلك الفعل ، ولذلك قال : وقد جعلتموهن شركاء [وهي ما بين القوسين وقد أضفناها من الكشف ليلم المعنى] هذا ما ذكره السيد العلوي في حاشيته على الكشف

(٢) أي : أن أصله : ضوزى ، ففعل به ما فعل بيض فنقلت إلى فعلى بالكسر لتسلم الياء كما فعلوا مثل ذلك بيض ، والأصل بوض بالضم كحجر ، وإنما قالوا بأن أصلها الضم ؛ لأنه ليس في الكلام فعلى بالكسر صفة ، وكذلك قالوا في حلي : إن أصلها فعلى بالضم .

﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ من دليل لكم .

قال الهادي عليه السلام يقول سبحانه : هذا الذي تقولون وتسمعون إلى الله ، وتسمون باطلا ، وهي أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ، وكذب كذبتموه على الله ، لم ينزل به سلطانا . والسلطان : فهو الحجة والدليل والبرهان .

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ أي : ما تتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أنها آلهة تشفع ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ يقول :

إن تتبعون فيما تسمون وتذكرون إلا هوى أنفسكم ، وظننا منكم بلا حقيقة ولا بيان .

قال الرازي : كيف قال : ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ بلفظ الجمع مع أنهم لا يتبعون ما تهواه

كل نفس ، فإن من النفوس ما لا تهوى ما يهواه غيره ، قال : يقول هو من باب مقابلة

الجمع بالجمع ، معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه ، يقال : خرج الناس بأهلهم

أي : كل واحد بأهله ، لا أن كل واحد بأهل الجميع .

ثم قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي : الدليل على صحة النبوة

والقرآن ، وأما أدعوه باطل لكن تركوه .

وقال [الهادي] عليه السلام : يقول قد جاءهم من الله نفي ذلك على لسان نبيته صلى الله عليه وآله

وسلم ، وبأن لهم طريق الهدى والحق والتقوى ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ هي أم المنقطعة ، والمعنى : إنكار أن يكون لهم ما

تمنوا ، نحو قولهم : إن الأصنام تشفع لهم ، وقيل : هو قول بعضهم : ﴿ولئن رجعت إلى

ربي إن لي عنده للحسنى﴾ ^(٢) ﴿لأوتين مالا وولدا﴾ ^(٣) وقيل : هو تمنى بعضهم أن يكون

هو النبي .

(٣) قال أبو البقاء : ﴿أسماء﴾ يجب أن يكون المعنى ذوات أسماء ، كقوله : ﴿سميتوها﴾ لأن لفظ الاسم لا يسمى ،

وقد ذهب المصنف إلى أن هذه التسمية تسمية ليس لها مسميات تستحقها يسمى بها ؛ لأن الإله ينبغي أن يكون خالقا رازقا مشيا ومعاقبا ، وبين بقوله : سميت بها على أن الضمير مفعول ثان لا أول على تقدير المفعول الثاني .

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة مخطوط ص ٤٤٩ .

(٢) فصلت : ٥٠ .

(٣) مريم : ٧٧ .

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك يقول : هل يكون للإنسان ما تمنى ، أي : هل يأتيه ويستوي له تمنيه إذ تمنى ، أم ليس له غير الحق ، وإن لم يكن يشاؤه .

قال الرازي : فإن قلت : هل يمكن أن تكون أم هاهنا متصلة ؟ قال : نقول نعم ، الجملة الأولى حيثئذ تحتل الوجهين أحدهما : أنها مذكورة في قوله تعالى : ﴿الكم الذكر وله الأثنى﴾ على الحقيقة ، أو ^(١) : تجعلون لأنفسكم ما تشتهون وتتمنون ، وعلى هذا فقوله : ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ وغيرها جملة اعترضت بين كلامين متصلين .

وثانيهما : أنها محذوفة ، وتقدير ذلك هو : أنا بينا ، [وهو] ^(٢) أن قوله : ﴿أفرأيتم﴾ لبيان فساد قولهم : والإشارة إلى ظهور ذلك من غير دليل كما إذا قال [قائل] : فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث : أما رأيت هذا الذي يقوله فلان ؟ ولا يذكر أنه [لا] يصلح للملك ، ويكون مراده ذلك فيذكره وحده متبها على عدم صلاحه له ، فهاهنا قال تعالى : ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ [أي : يستحقان العبادة أم للإنسان أن يعبد ما يشتهي طبعه ، وإن لم يكن يستحق العبادة ، وعلى هذا فقوله : ﴿أم للإنسان﴾ أي : هل [له أن] يعبد بالتمني والاشتفاء ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿وما تهوى الأنفس﴾ أي : عبدتم بهوى أنفسكم مالا يستحق العبادة ، فهل لكم ذلك ^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي : هو ما لكهما فهو يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يتحكم عليه .

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك يقول الله : الأمور كلها أمور الآخرة والأولى ، والأولى : فهي الدنيا ، فأخبر سبحانه أنه لا ينفع أحدا ما تمنى ، ولا يصح في يده شيء من ذلك أصلا ، وأن الأمر كله لله الواحد الأعلى . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ للتكثير من في السموات من الملائكة ،

(١) في الأصل : أي . وفي الرازي : أو . فأنشأنا ما في الرازي .

(٢) ما بين القوسين ثابت في الأصل ، وهو غير موجود في الرازي .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٥٢/١٠ .

أي : هم مع كثرتهم وقربهم إلى الله تعالى ، وكرامتهم لو شفَعوا ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من النفع ، قيل : إن قوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ جواب كلام كأنهم قالوا : لا نشرك بالله شيئا ، وإنما هذه الأصنام شفَعَاؤنا ، فإنها صور ملائكة مقربين ، فقال : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ والمعنى : كيف تشفع هذه ، ومن في السموات لا يملك الشفاعة ، إشارة إلى علو منزلتهم ، ودنو مرتبتهم في مقرر السعادة ، فإن لفظ الملك أشرف أجناس المخلوقات ، وكل ذلك لبيان فساد قولهم : إن الأصنام تشفع ، أي : كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلها ، فإن الجمادات أحسن الأجناس فكيف تقبل شفاعة الجمادات !

[الشفاعة لمن تكون]

قال الهادي عليه السلام : هذا نفي من الله لما ترويه الحشوية والإمامية من الشفاعات لأهل المعاصي ، فأخير سبحانه بما أخير من كثرة الملائكة في السموات ^(١) وأنهم لا تغني شفاعتهم لأحد من خلق الله ولو شفَعوا ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الشفاعة له ﴿وَيَرْضَى﴾ [أي : يرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتها ، والله تعالى لم يأذن لها ، ولا رضي بعبادتها] ^(٢) . ثم قال عليه السلام يقول : لو أنهم شفَعوا بأسرهم في مذنب واحد ممن قد حق عليه الوعيد لم ينفعه ذلك ، ولم تجز شفاعتهم عند الله فيه ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ للمستشفعين ، فيشفَعوا للمؤمنين الذين قد رضي الله سعيهم فتشفع لهم الأنبياء في زيادة المراتب ، وكثرة العطاء ، وبلوغ ما لا يبلغونه بأعمالهم من الأشياء ^(٣) . اهـ

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي : لا يصدقون بها ﴿لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنْسَانِ﴾ وذلك حين زعموا أنهم بنات الله تعالى ، وقال : ﴿تَسْمِيَةَ الْإِنْسَانِ﴾ ولم

(١) لفظ الأصل : من كثرة ملائكة السموات . وما أثبتناه هو لفظ المجموع . المنقول هذا النص منه .

(٢) ما بين القوسين ليس من لفظ المجموع ، بل هو من المصنف .

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة ، وقد أصلحنا اللفظ منه . ص ٤٨٠ .

يقول : تسمية الإناث ؛ لأنهم إذا قالوا : هم بنات الله فقد سموا كل واحدة بتاء وهي تسمية الأنثى .

إن قيل : كيف يصح أن يقال : إنهم لا يؤمنون بالآخرة ، مع أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا ، وكان عادتهم أن يربطوا مركوبا على قبر من يموت ، ويعتقدون أنه يحشر عليه ؟ قيل : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أنهم لما كانوا لا يجزمون به ، كانوا يقولون : لا حشر ، فإن كان فلنا شفعاؤنا ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ (١) .

ثانيهما : أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه ، وهو ما ورد به الرسل . ثم قال تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي : بما يقولون ﴿مَنْ عِلْمٍ﴾ أي : يكون الملائكة إناثا ، قيل : ويحتمل أن الضمير عائد إلى ما تقدم في الآية المتقدمة ﴿مَنْ عِلْمٍ﴾ أي : ما لهم بالله من علم فيشركون .

وقرئ (ما لهم بها) وفيه وجوه : أحدها ما لهم في الآخرة ، وثانيها : ما لهم بالتسمية ، ثالثها : ما لهم بالملائكة .

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الفاسد في تسميتهم إناثا ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ من الإغناء . أي : إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء بالعلم اليقين لا الظن المتوهم ، وقيل : أراد بالحق العلم ، أي : أن الظن لا يغني من العلم شيئا ، لا يقوم مقام العلم .

ثم قال تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى﴾ أي : أعرض عن دعوة من رأته معرضا ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ الذي هو القرآن والآخرة أو الوعظ والتذكير ﴿وَلَمْ يُوَدِّ إِلَّا﴾ إشارا ﴿إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومعنى ﴿فَأَعْرِضْ﴾ أي : اترك محادثتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك .

وأكثر المفسرين يقولون : بأن كل ما في القرآن من قوله : ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ بآية القتال وهو غير صحيح ، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ به ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه

بأباطيلهم قيل له ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) ثم لما لم ينفع قال له ربه : ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولم يقل لهم بالدليل والبرهان فإنهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يتبعون الحق ، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة ، فكيف يكون منسوخا .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وآله طبيب القلوب ، فأتى على ترتيب الأطباء ، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء ، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعمل الدواء القوي ، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكلي ، وقيل : آخر الدواء الكلي ، فالنبي صلى الله عليه وآله أولا أمر القلوب بذكر الله فحسب ، فإن بذكر الله تطمئن القلوب ، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس ، فالذكر غذاء القلب ، ولهذا قال أولا قولوا : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أمر بالذكر ، ثم انتفع به من انتفع ، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل ، وقال : ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ﴿قُلْ انظُرُوا﴾ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ إلى غير ذلك ، فلما لم تنفعهم قال : أعرض عن المعالجة واقطع لا يفسد الصالح .

ثم قال تعالى : ﴿ذَلِكَ﴾ أي : الإيثار الذي أرادوه من الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي : غاية علمهم ، أي : لا يستعملون العلم إلا في أمور دنياهم ومصالحهم فيها لا الآخرة .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه أنهم لم يبلغوا من العلم إلا كميلغ البهائم العجم من المأكول والمشرب والمرح واللعب .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي : ذهب عن دينه فلا يجب إليه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ أي : بمن يجب الدعوة فهون عليك فإنك لا تهدي من أحببت ، وما عليك إلا البلاغ . قال الزمخشري : ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ﴾ كلام معترض بين كلامين^(٢) .

(١) النمل : ١٢٥ .

(٢) لفظ الزمخشري : ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أعراض ، أو فأعرض عنهم ولا تقابله . وقد نقل النص من الرازي ، والنص فيه كما ذكره المصنف ، ولفظ المصنف والرازي ليس كلفظ الكشف ، وإنما بمعناه . وفي الكلام بعده رد لكلام الزمخشري بأنه أعراض ، وذكر المصنف أنه من تمام الكلام الأول ، وأن قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ابتداء كلام .

والمتصل قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وعلى ما ذكرنا المقصود لا يتم إلا به ، ويكون كأنه تعالى قال: أعرض عنهم ، فإن ذلك غايتهم ، ولا يوجد وراء ما ظهر منهم شيء ، وكأن قوله ﴿عَنْ تَوَلَّى﴾ إشارة إلى قطع عذرهم بسبب الجهل ، فإن الجهل [كان] بالتولي ، وإثارة العاجل ، ثم ابتداء وقال: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ والوجه في المناسبة: أنه تعالى لما قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: اعرض ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم شديد الميل إلى إيمان قومه كان ربما هجس في خاطره أن في الذكرى بعد منفعة ، وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال ، فقال له: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ علم أنه لا يؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين ، وإنما ينفع فيهم إن وقع السيف والقتال ﴿فَأَعْرَضَ﴾ عن الجدل ، وأقبل على القتال .^(١)

وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى كمال غنائه وقدرته ليذكر بعد ذلك يقول: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ من الغني القادر ، لأن من علم ولا يقدر لا يتحقق منه الجزاء ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: بعقاب ما عملوا ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ أي: بالثوبة الحسنى ، أو بالعاقبة الحسنى ، أي: جزاؤهم حسن العاقبة ، وهي الجنة ، أو بسبب ما عملوا من سوء ، وبسبب أعمال الحسنى ، واللام متعلق بمحذوف دل عليه المعنى ، أي: أن الله عز وجل إنما خلق وسوى هذه الملكوت لهذا الغرض ، وهو أن يجازي المحسن من المكلفين والمسيء منهم ، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ ليتحقق منه الجزاء ؛ لأن فائدة العلم بالضال والمهتدي جزاؤهما .

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ قال الهادي عليه السلام: هذا

(١) إلى هنا انتهى الوجه الأول من أوجه المناسبة التي ذكرها الرازي ، وقد اقتصر المصنف على هذا الوجه ولم يذكر

بقية الأوجه . انظر التفسير الكبير ٢/٢٩ .

مدح من الله سبحانه لمن اجتنب كبائر الإثم والفواحش ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ فاللمم : هو ما ألم به الإنسان من غير تعمد ولا قصد ولا إرادة ، كالنظر عن غير تعمد ونحو ذلك ، ذكره في معاني السنة^(١).

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : هو الخطأ ، وما يلم به القلب من الخواطر التي لا يقبلها مسلم ، ولا يعمل بها ، وذلك فلا يعذب الله من اتقاه^(٢).

قال المرتضى عليه السلام : هو ما ألم بالقلب وخطر عليه ، مما لو أنفذه صاحبه لكان معصية لله ، ألم بقلبه ثم أعرض عنه ولم يعتقد في نفسه ، ولم يفعله بيده ولا شيء من جوارحه ، فهذا هو اللمم ، ومن اللمم ما ألم به الإنسان مما لا يعتدل^(٣) ولا يقصد له فذلك اللمم ومعناه ، فافهم ذلك إن شاء الله . اهـ

ومثله في البلغة والتجريد قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأي عبد لك لا ألما^(٤)

(١) ولفظ الإمام الهادي عليه السلام في كتاب معاني السنة من مجموعه ، المسمى بمجموع الإمام الهادي قال : والرابع فهو اللمم الذي ذكر الله ، وهو فعل لا يجب فيه الحد لله ولا لرسوله ، ولا للأئمة أدب ، واللمم : فهو ما ألم به صاحبه من غير تعمد ولا اعتقاد ، ولا هم ولا عزم ، كمثل النظر عن غير تعمد ، والمزاولة للمرأة عن غير قصد ، وما أشبه ذلك مما لم يتقدم له ذكر في ذلك على فاعله ، ولم يقصد به اجترأ على خالقه ، ولا تعمدًا لإتيان معصية ولا استحلال محرمة ، فهذا معنى اللمم الذي ذكر الله سبحانه . المجموع خ ٦٣.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في أوائل هذه السورة .

(٣) وفي نسخة : لا يتعمد . وكلام الإمام المرتضى عليه السلام في مجموع تفسير الأئمة ، وفي الآية بحث شيق للإمام المرتضى ، ورد على بعض تفسيرات الجهلة . من ص ٦٦٢ ، إلى ص ٦٦.

(٤) قال في البرهان : قوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ فكبائر الإثم هي الموجبات المحيطة لعمله كالشرك بالله والظلم وقتل النفس بغير حلها ، والصغائر : ما دون ذلك مما يستهلكها الطاعات ، فإن أصر على الصغائر جرت الصغائر مجرى الكبائر لقوله صلى الله عليه وآله : (لا كبيرة مع التوبة والاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار) والفواحش : جميع المعاصي إلا اللمم يعني : ما ألما به من المعاصي في الجاهلية والفواحش التي فعلوها فأحيط أحكامها بالإيمان والإسلام عفا عنهم به ، ودليل ذلك ما روي عن آبائنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يقول :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأي عبد لك لا ألما

يعني : ما ألم بفعل قبيح قبل مبعثه ولا بعد مبعثه . البرهان خ ٣٦١.

أي : لم يحط .

البلغة — والكبائر : هي التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل : التي يكثر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها ، والفواحش ما تزايد قبحه منها خاصة ، وإن كانت قد دخلت في الكبائر ، واللمم : ما قل منها وصغر ، قيل : والمراد الصغائر ، أي : لكن اللمم ، فالاستثناء منقطع ، أو تكون إلا صفة ، أي : غير اللمم فهو مكفر باحتساب الكبائر قاله في التجريد ^(١) .

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي : كثير المغفرة لمن تاب ، ولذي اللمم . وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ يحتمل أن يكون بدلا من ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وهو الظاهر ^(٢) ، وكأنه تعالى قال : ليجزي الذين أسأؤا ويجزي الذين أحسنوا [بالحسن] ^(٣) .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف ردا على صاحب التقریب عندما ذكر بأن شرط أن يكون صفة أن يكون تابعا لجمع غير منكور غير محصور . قال : اعلم أن مذهب سيويه جواز وقوع إلا صفة ، وعليه أكثر المتأخرين تمسكا بقوله : وكل أخ مفارقة أخوه لعمر أيبك إلا الفرقدان

وقوله عليه وآله الصلاة والسلام : (الناس كلهم هلکی إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلکی إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلکی إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظیم) فهذا النظر لا يرد على المصنف بل يرد على ابن الحاجب لو كان هو القائل بذلك لأشراكه ما ذكره وإنما جاز وصف كبائر الإثم مع تعرفها بغير اللمم مع تنكيره ، إما لأن تعريف الإثم كتعريف اللثم أعني تعريف الجنس القريب من النكرة ، لعدم التوقيت ، إما لأن غير هاهنا معرفة بالإضافة إلى اللمم ؛ لأن غير إذا أضيف إلى معرفة ولها ضد واحد تعرف غير لاختصار الغيرية ، نحو عليك بالكریم غير البخیل ، فكذلك غير اللمم معرفة لتخصصه بالكبائر ؛ لأن المراد باللمم الصغائر ، ولا ضد لها إلا الكبائر . حاشية العلوي ٢٩٦ .

(٢) إذا كان بدلا عن الذين أحسنوا فلم يخالف ما بعده بالمضي والاستقبال ، حيث قال تعالى : ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وقال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ ولم يقل : اجتنبوا ؟ نقول : إنه أتى به مضارعا فقال : ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ ليدل على الاستمرار في المستقبل ، ولئلا يتوهم أنه أراد اجتنبوا مرة واحدة ، فعدل إلى المضارع لرفع التوهم . ويكون معناه الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب .

(٣) ما بين القوسين موجود في الأصل وليس موجودا في ما ورد في الرازي يمثل لفظه . والمراد هنا إثبات جزاء الذين أسأؤا والذين أحسنوا . وبهذا يتبين المسيء والمحسن ؛ لأن من لا يجتنب كبائر الإثم يكون مسيئا ، والذي يجتنبها يكون محسنا .

ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره : الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم ، والذي يدل عليه قوله تعالى ﴿إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن ، وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة ، وإن لم يصدر منهم الإحسان وهم الصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ، ولهم العفوان وهو دون الحسنى ، ويظهر هذا بقوله تعالى بعد ﴿إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة ﴿أي : يعلم الحالة التي لا إحسان فيها ولا إساءة كما علم من أساء وضل ، ومن أحسن واهتدى﴾^(١).

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ يقول : عالم بكم وبأخباركم وبما يكون منكم إلى يوم القيامة ، فقد علم ذلك كله منذ وقت إنشائه لكم من الأرض ومعنى إنشائكم من الأرض فهو : خلقه لأدم عليه السلام في بدء الخلق من التراب والأرض^(٢).

﴿وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْنَةٌ﴾ أي : وحين كنتم أجنة : جمع جنين .

﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يقول : إذا أنتم مستجنون في بطون أمهاتكم قبل خروجكم إلى الأرض فهو يعلم ما ستفعلون عند كبركم وبلوغ أشدكم^(٣) ففتح لكم باب التوبة ، ولم يؤاخذكم باللمم .

وفائدة قوله عز وجل : ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [التنبه على] كمال العلم والقدرة ، فإن بطون الأمهات في غاية الظلمة ، ومن علم بحال الجنين فيها لا تخفى عليه أعمال العباد ، ﴿هو أعلم بكم﴾ [تقرير لما مر ، قيل : هو أعلم بمن ضل ، كأن القائل من الكفار : نحن نعمل أموراً في جوف الليل المظلم ، وفي البيت الخالي ، فكيف يعلمه الله تعالى فقال : ليس عملكم أخفى من أحوالكم ، وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، والله عالم بتلك الأحوال]^(٤).

(١) ومثل هذا الكلام في التفسير الكبير للفخر الرازي ٦/٢٩ ، ٧ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة مخطوط ص ٤٨٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ومثل هذا الكلام في الرازي ٩/٢٩ ، وما بين الأقواس منه ليتضح المعنى .

ثم قال سبحانه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام يقول: لا تقولوا إنكم أزكيا ولا تستم بأزكيا، ولا تسموا أنفسكم أتقياء وأنتم تعملون عمل غير أهل التقوى. اهـ
وقيل: معنى ﴿تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تنسبونها إلى زكاء العمل، وزيادة الخير، وعمل الطاعات، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تنسبوا عليها واهضموها^(١).
﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ قال عليه السلام: (أي بمن آمن واهتدى)^(٢) واستوى وفاز بالتقوى أي: فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولا وآخرا، وقيل [أن] يخرجكم من صلب أبيكم، وقيل أن يخرجكم من بطون أمهاتكم، فإياكم والعجب، وأما من اعتقد أنما عمله من الصالحات بتوفيق الله وتأيده، ولم يرد به التمدح فليس من المزكين لأنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.
ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ أي: أعطى قليلا وأكدى أي: قطع عطيته وأمسك، من أكدى الحافر وهو أن تلقاه كدية أي: صلابة كالصخرة، فيكف عن الحفر^(٣).

وقال الهادي عليه السلام: يقول فمن أعطى من حق الله قليلا وأكدى على كثير منه، ومعنى ﴿أكدى﴾ هو: منع وأبى أن يدفع ما عليه من حق الله فقال تبارك وتعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ فيما فعل أنه لا يعاقب عليه ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ أي: فهو يعلم ما له وعليه في ذلك^(٤). اهـ

وقيل: معنى ﴿تَوَلَّى﴾ ترك المركز يوم أحد، سبها ما روي أن عثمان كان يعطي ماله في الخير، فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا

(١) القائل هو الزمخشري في الكشف ٤/٤٢٦.

(٢) ما بين القوسين من كلام الإمام الهادي عليه السلام، وما هو خارج القوسين غير موجود في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام، بل الكلام قريب مما في الكشف ٤/٤٦٢.

(٣) هنا وما قبله قريب منه في الكشف ٤/٤٦٢.

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله، قال أبو البقاء: ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ جملة اسمية واقعة موقع الفعلية، والأصل: أعنده علم الغيب فيرى، ولو جاء على ذلك لكان نصبا على جواب الاستفهام. حاشية العلوي ٢٩٦.

يبقى لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنوبا وإنني أطلب بما أصنع عفو الله ، فقال عبدالله : اعطني ناقتك برجلها وأنا أتحمّل لك ذنوبك فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء فنزلت ، فعاد عثمان إلى أحسن ما كان ^(١).

قال في التجريد : وهذا ليس بصحيح ؛ لأن سياق الآية في كافر ؛ لأن السورة مكية نزلت قبل وقعة أحد .

وقال في البرهان : نزلت الآية في العاص بن وائل السهمي ، كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله فيستمع ما يقوله ، ويتولى عنه ، ولا يعمل به .

﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ [يعني] : أعطى من نفسه بالاستماع ثم أكدى بالانقطاع عن الإيمان والإسلام ^(٢).

وقال في البلغة : هو الوليد بن المغيرة .

﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ﴾ أي : يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف ، فالمشدد معناه : تَمَّ وأكْمَلَ ما أمر به ، والمخفف معناه : أتى بما أمر به أيضا ، والمشدّد أبلغ ، وقيل : وفى — مخففا — : أتى بما وعد به ، وهذا لفظ صالح لكل وفاء وتوفية من غير عموم ، وقد قيل في ذلك : إنه وفى بتبليغ الرسالة ، وقيل : وفى بالصبر على ذبح ولده ، وعلى نار النمرود وغير ذلك . وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفى به ^(٣).

(١) الرواية من الكشاف ، ولا شك في بطلانها ، وأنها من الموضوعات في فضائل عثمان ، ولهذا لم يذكر ابن حجر لها تخريجا ، لأنه لم يجد مصدرا موثوقا يسعفه بأي كلام ، وقد فندها أيضا صاحب التجريد كما ورد أعلاه من وجه آخر فقال : وهذا ليس بصحيح ... الخ ما ستطلع عليه . ولا يبعد عن الزمخشري إيراد مثل هذه الرواية فإنه كان عثمانيا ، قال الرازي بعد ذكره هذه الرواية : وهذا قول باطل لا يجوز ذكره ؛ لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر ، وظاهر حال عثمان يأبى ذلك (انظر الرازي ١١/٢٩) . وأقول : هذا غيض من فيض ، فكلم من موبقات ارتكبت ، وأكذوبات انتحلت لإثبات بعض من الفضائل معارضة لفضائل أهل البيت عليهم السلام ، وقد أمرهم معاوية بذلك كما أورده ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة .

(٢) انظر البرهان خ ٣٦٠.

ثم أخبر سبحانه عما هو في صحفهما فقال جل وعلا: ﴿أَلَا تَرَوْا وَزَرَ أَخْرَى﴾ . قال الهادي عليه السلام : الذي في كتبهما صلوات الله عليهما فهو ما ذكر ﴿أَلَا تَرَوْا وَزَرَ أَخْرَى﴾ ومعنى ﴿وفى﴾ فهو : بلغ وأدى ، ومعنى ﴿وازره﴾ فهي : حاملة ، يقول : لا تحمل حاملة حمل أخرى ، وهذا مثل ، والذي لا يحمل هاهنا فهو العمل لا يحمله غير صاحبه ، أي : لا يلزم عمل واحد غيره ، بل كل إنسان مأخوذ بعمله دون غيره . اهـ

وهذا جواب قائل قال : ما في صحف موسى وإبراهيم ؟ فقال هو ﴿أَلَا تَرَوْا وَزَرَ أَخْرَى﴾ أي : كل نفس تحمل ذنبا يوم القيامة ، فإنما تحمل ذنبا لا غير ، ولا تحمل وزر نفس أخرى ، ولا تؤخذ به ، والوزر : الحمل .

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ قال عليه السلام : ليس يجب للإنسان ولا عليه إلا عمله ﴿وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ يقول : عمله محفوظ لا يضيع سوف يظهر ، ويوجد غداً عند الله جزاؤه ، ألا ترى كيف يقول : ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ أي : يجزي العبد ﴿الْجِزَاءَ الْأَوْفَى﴾ يقول : يعطى عليه العطاء الأوفى ، من خير أو شر ، والأوفى : فهو الذي لا يزيد ولا ينقص . اهـ

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ أي : يعرض عليه ، ويكشف له ، من أريته الشيء ، وفيه بشارة المؤمن ، وذلك أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ، وحزن الكافر^(١) ، فمعنى ﴿إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلا سعيه ، أي : عمله لا نفع له في عمل غيره ، إلا أن يوصي .

وعن المنصور بالله : ان الولد من سعي أبيه فيلحقه ما فعله له ، وقيل : بل جاء عنه صلوات الله عليه وآله صحة الصدقة والحج عن الميت^(٢) .

(٣) وقريب منه في الكشف ٤/٢٢٧ .

(١) فعلى هذا محل الجملة الرفع على الاستئناف ، والاستئناف هنا بياني .

(٢) معطوف على قوله : بشارة المؤمن . أي : وفيه حزن الكافر .

(٣) لا يوجد عندنا مصدر كلام الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام ، وإن شاء الله سنحاول في الحصول عليه وتدعو الله أن يسره لنا .

قال في الكشف : ووجهه أنه لما كان مبنيا على إيمانه كان كأنه من سعيه ، وإذا نواه الساعي له كان كالنائب عنه ^(١).

قال في الثمرات : أما الاستغفار للميت فإنه يلحق ، وادعى الحاكم الإجماع ، وكذا النواوي ، والإمام يحيى وعلل بأنه كالشفاعة ، وقد حكى الله سبحانه استغفار الملائكة للمؤمنين . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ يقول : إليه المصير غدا ، والمنتهى : مصدر بمعنى الانتهاء ، أي : إليه ينتهي الخلق ويرجعون ، وفي المخاطب وجهان أحدهما : أنه عام تقديره : إلى ربك أيها السامع ، أو العاقل ، وعلى هذا فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ؛ لأن قوله : أيها السامع كائنا من كان ﴿إلى ربك المنتهى﴾ يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال .

ثانيهما : أن الخطاب مع النبي ﷺ ، وعلى هذا فهو تسلية لقلبه ، كأنه يقول : لا تحزن فإن المنتهى إلى الله فيكون كقوله تعالى : ﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ ^(٢) إلى أن قال تعالى في آخر السورة ﴿وإليه ترجعون﴾ وأمثاله كثير في القرآن ^(٣).

والقراءة المشهورة بفتح أن على معنى أن هذا كله في صحف موسى ، وبالكسر على الابتداء ، وكذا ما بعده .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ قال الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه أنه الذي جعل في الإنسان استطاعة الضحك والبكاء ، وركب فيه [آلة] ^(٤) السخط والرضاء .

ثم قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ يخبر أن الموت منه والحياة في مبتدأ الخلق والإعادة بعد الموت والإنشاء . اهـ

(١) هذا اللفظ منقول من الكشف بتصرف (أنظر الكشف ٤/٤٢٨) .

(٢) يس : ٧٦ .

(٣) من قوله : وفي المخاطب وجهان .. إلى هنا مثله في الرازي بتقديم وتأخير (١٨/٢٩) .

(٤) ما بين القوسين غير موجود في مجموع تفسير الأئمة ، وهو موجود في أصل هذا التفسير .

أي : اختص بالقدرة على الإمامة والإحياء .
ثم قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ بدل من الزوجين ، يقال للواحد : فرد ، فإذا كان معه غيره من جنسه قيل له : زوج .
﴿مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي : تدفق في الرحم ، يقال : منى وأمنى ، وقيل : تَخَلَّقَ ، من : منى الماني ، أي : قدر المقدر . قاله في الكشاف^(١) .

قال الهادي عليه السلام : فأخبر أنه دبر النطفة في الرحم حيناً ذكراً ، وتكون حيناً أنثى ، حتى خلق من هذا الماء الزوجين ، الذين منهما يكون نسل الآدميين .
﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ يقول سبحانه : إن عليه أن يبعث الخلق ويردهم بعد فنائهم وبوادهم أحياء ، حتى يحاسبهم ويعاقبهم ، ويشيهم بأفعالهم المتقدمة ، والبعث من القبور : هي النشأة الأخرى ، والنشأة الأولى فابتداء خلق النطفة في الرحم بشراً كاملاً .
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ فهو رزق وأعطى ، ومعنى ﴿أَقْنَى﴾ فهو : رزق وكفى ، وتولى كفاية عبيده ، وأرزاق خليقته^(٢) . اهـ
قيل : ﴿وَأَقْنَى﴾ أي : وأعطى القنية وهي المال الذي تأثله وعزمت على أن لا تخرج من يدك .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ إشارة إلى فساد قوم آخرين ، وذلك لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده ، فمن كسب استغنى ، ومن كسل افتقر ، وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بالبحث ، وذلك بالنجوم فقال سبحانه : ﴿[وَأَنَّهُ] هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ وقوله : ﴿[وَأَنَّهُ] هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ لإنكارهم ذلك أكد بالفصل^(٣) والشعري : نجم معروف في السماء ، قال الخطيئة :

نظرتكم العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الإناء

(١) انظر الكشاف ٤/٢٨ ، وقد نسب في الكشاف هذا القول إلى الأخفش .

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام مخطوط ص ٤٨١ .

(٣) أي : بضمير الفصل (هو) .

يقول : انتظرت قراكم أن يأتيني إلى طلوع الشعري ، فطال بي الانتظار ، ولم يأت .
قال الحسين بن القاسم عليه السلام : وهي نجم منير يتبع الجوزاء ، وكان بعض الجاهلية يعبد ، قال الشاعر :

وأبكيكم للجود ما ذر شارق وأبكيكم للحمد ما بدت الشعري

وهما شعرتان الغميصا والعبور ، وأراد العبور وكانت خزاعة تعبدها .

قال في البرهان : الشعري نجم يضئ وراء الجوزاء يسمى مرزم الجوزاء ، ويقال له :
الوقاد ، كان يعبد حمير و خزاعة . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ قال الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه أنه الذي
أهلك عاد الأولى ، ثم معنى الأولى : الأولى ﴿وَوَثِّمُوا قَوْمَ هُودٍ﴾ أي : لم يبق منهم أحد
لما عقروا الناقة وعصوا صالحا ^(١) . اهـ

لما ذكر أنه أغنى وأقنى ، وكان ذلك بفضل الله ، لا بعباء الشعري ، وجب الشكر لمن
هو أملك وكفى لهم دليلا حال عاد وثمود وغيرهم .

قال في البرهان : في عاد الأولى قولان أحدهما : أن عادا الأولى عاد إرم الذين أهلكوا
بريح صرصر عاتية [وعاد الآخرة قوم هود] ^(٢) ، والثاني : أن عادا الأولى هم قوم هود ،
والآخرة قوم حضرموت . اهـ

قيل : وفيه نظر ؛ لأن قوم حضرموت هم قوم هود .

وفي البلغة : عادا الأولى إرم ، وهم الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وعاد الأخرى
أهلكوا ببغي بعضهم على بعض فتفانوا بالقتل .

وفي الكشف : الأولى قوم هود [أهلكوا بالريح] وعاد الأخرى : إرم [أهلكوا بصيحة
جبريل] ^(٣) وقيل : معنى الأولى القدماء ، لأنهم أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، وفيه

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٨٢ .

(٢) انظر تفسير البرهان لأبي الفتح الديلمي خ ص ٣٦١ . وما بين القوسين سقط من أصل هذا التفسير وهو موجود في البرهان

(٣) ما بين القوسين موجود في أصل هذا التفسير وغير موجود في الكشف .

وفي سورة الفجر له ما ينقضه ^(١)، وأن عادا الأولى إرم .

قال زيد بن علي عليه السلام : ﴿عادا الأولى﴾ الذين أرسل الله عليهم الريح فدامت عليهم سبع ليال وثمانية [أيام] حتى هلكوا ، وعاد الآخرة : قوم هود ^(٢).

وقال في التحرير في تفسير سورة الفجر ، وعاد قبيلة وهم أولاد عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح ، ثم قيل للأولين منهم : ﴿عادا الأولى﴾ وإرم تسمية بإرم جد أبيهم عاد ، ولمن بعدهم عاد الأخرى ، فأرم في قوله : ﴿بعاد إرم﴾ عطف بيان لعاد ، وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة ، وقيل : إرم بلدتهم التي كانوا فيها .

﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبل هؤلاء المذكورين أهلكهم ، وعلل ذلك بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ أشد ظلما من غيرهم ، وأزيد طغيانا لأنهم كانوا يؤذونه ، ويضربونه حتى لا يكون به حراك ، ولم يؤثر دعاؤه فيهم قريبا من ألف سنة .

قال الرازي : أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه ، (ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها) والبادئ أظلم .

وأما ﴿أَطْغَى﴾ فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ، ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ، ولا يدعوني على قومه إلا بعد الإصرار العظيم ، والظالم : واضع الشيء في غير موضعه ، والطاغى : المجاوز الحد ، فالطاغي أدخل في الظلم ، فهو كالمغاير والمخالف [فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد ، وكذا المغاير والمضاد ، وكل ضد غير ، وليس كل غير ضدا] .

والمقصود من ذلك بيان شدتهم وقوة أجسامهم ، فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم ، ومع ذلك ما نجا أحد منهم ، فما حال من هو دونهم في العمر والقوة فهو كقوله تعالى : ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ .

(١) الذي في الكشف هو ما نقله صاحب التحرير الآتي قريبا ، وستلاحظ المناقضة . وهو في الكشف ٧٤٧/٤ .

ولفظه : فأرم في قوله : ﴿بعاد إرم﴾ عطف بيان لعاد ، وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة .. الخ ما نقله في التحرير .

(٢) انظر تفسير الإمام زيد بن علي عليها السلام في أوائل هذه السورة ، وفي تفسيره المطبوع ص ٣١١ .

وقوله : ﴿من قبل﴾ المسألة المشهورة في قبل وبعد ، تقطع عن الإضافة فتصير كالغاية ، فتبنى على الضمة ، أما البناء فلتضمنه الإضافة ، وأما على الضمة فلأنها لو بنيت على الفتح لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالإعراب من حيث أنها ظروف زمان ، فتستحق النصب والفتح مثله ، ولو بنيت على الكسر لكان الأمر على ما يقتضيه الإعراب وهو الجر بالجار ، فيبنى على ما يخالف حالتي إعرابها^(١) .

وفي معنى الآية يقول الهادي عليه السلام يقول^(٢) : ﴿أظلم﴾ من عمود وأطفئ ، ومعنى ﴿أطفئ﴾ فهو : أبغى وأشر وأردى .

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ المؤتفكة : المنقلبة ، ومعنى ﴿أهوى﴾ فهو أهلك وأردى ﴿فَغَشَاَهَا﴾ ألبسها من عذابه ﴿مَا غَشَى﴾ ومعنى ﴿غشى﴾ : نزل عليهم وابتلى .

وفي البرهان : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ وهي مدائن قوم لوط احتملها جبريل عليه السلام بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل سماء الدنيا لا يسمعون نباح كلابهم وأصوات دجاجهم ، ثم كفأ بها على وجهها ، ثم أتبعها بالحجارة كما قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا﴾ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ قال عليه السلام : يقول : بأي آلاء ربك تشك ، والآلاء : فهي الآيات هاهنا والابتلاء . اهـ

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله^(٤) أو للإنسان على الإطلاق وهو الأولى ؛ لأنه سبحانه لما عد من قبل النعم ، وهو الخلق في النطفة ، ونفخ الروح الشريفة فيه ، والإغناء والإقناء ، وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ أيها الإنسان ﴿تَتَمَارَى﴾ فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل .

(١) إلى هنا انتهى المنقول من الرازي بتقديم وتأخير . انظر الرازي ٢٩/٢٣ ، ٢٤ .

(٢) فاعل يقول هنا هو الله عز وجل

(٣) وهنا يتوجه سؤال وهو : هل يتمارى رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فالجواب عليه بأنه من باب قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ لِحِطْنِ عَمَلِكِ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن، أو الرسول ﴿نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ﴾ أي: من جنس الإنذارات، أو المنذرين وإنما أنت على تأويل الجماعة .
قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿نَذِيرٌ﴾ فهو مبلغ^(١) معذر منذر ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِيِّ﴾ يريد كالنذر الأولي، يخبر أنهم قد أنذروا كما أنذر الأولون، فإن عصوا كما عصوا هلكوا .
ثم أخبر تعالى بقرب الساعة ودونها فقال سبحانه: ﴿أَزِفَتْ الْأَزْفَةُ﴾ قربت القربة، والقربة الأزفة: فهي القيامة الآخرة^(٢) اهـ

أي: قربت الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة التي كل يوم يزداد قربها، فهي كائنة قربة، وزادت في القرب ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: نفس كاشفة، أي: ليس لها نفس تقدر أن تردّها .

قال الهادي عليه السلام في تفسيرها: يقول ليس لها من دون الله دافع، ولا مؤخر . اهـ
وقيل: معنى الكشف: العلم بمحيثها، وقال الفراء: الكاشفة مصدر بمعنى الكشف، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي: من بقاء ذكره في التجريد .
المعنى: لا يقدر على إقامتها إلا الله سبحانه .

قال الرازي: من زائدة تقديره: ليس لها غير الله كاشفة، وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه، تقول: ما جاءني أحد، وما جاءني من أحد، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير، تقديره: ليس لها من كاشفة دون الله، فيكون نفيًا عامًا بالنسبة إلى الكواشف .

ويحتمل أن يقال: ليست بزائدة، بل معنى الكلام أنه ليس في الوجود نفس تكشفها، أي: تخبر عنها كما هي، ومتى وقتها من غير الله تعالى^(٣) .

(١) في النسخة (ب) من هذا التفسير (وهو مبلغ مفند معذر منذر) ولفظ (مفند) غير موجود في مجموع تفسير الأئمة، ولا في النسخة (أ) من المصايح .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٨٢ .

(٣) ينظر في لفظ من في قوله: من غير الله تعالى، فإن المعنى: لا توجد نفس تكشفها أحوال القيامة ووقتها غير الله تعالى .

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ ويحتمل أن يقال: هذا [إشارة] إلى حديث ﴿الْآزِفَةِ﴾ فإنهم كانوا يعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام بعد الفساد. قال الهادي عليه السلام: يريد سبحانه أقمّن إخبارنا إياكم بأزوف الآزفة، وقرب الآخرة، ووقوع الواقعة ﴿تَعْجَبُونَ﴾ أي: تشكون ولا تصدقون ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء إذا قرئ عليكم ما تسمعون ضحك ممتز في قولنا، شكّ في وعدنا ووعدنا ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعا، والبكاء والخشوع حق عليكم ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ والسامد: فهو المنصت المغموم الوجل الراهب، الذي قد انقطع كلامه من خوف ما أمامه وقدامه. اهـ

وكانوا [هم] أيضا [يضحكون] من حديث النبي والقرآن، ويحتمل أن يكون إنكارا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة، أي: تضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت، فكان حقا عليكم ألا تضحكوا حيثذ^(١).

وقيل: معنى ﴿سَامِدُونَ﴾ أي: غافلون وذكر باسم الفاعل؛ لأن الغفلة دائمة^(٢) وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان^(٣).

قلت: ومثل هذا في تفسير زيد بن علي والحسين عليهما السلام قال الشاعر:

قيل قم فانظر إليهم ثم ذر عنك السمودا

أي: ذر اللهو والغفلة.

وقال في البرهان: روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال:

﴿سَامِدُونَ﴾ غير مصلين، ولا منتظرين الصلاة. اهـ

ثم قال سبحانه: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ قال عليه السلام: هو أمر منه سبحانه لهم بالإيمان والتصديق لما جاء به رسولهم من الوعد والوعيد، والسجود: فهو وضع الجبهة على الأرض. والعبادة: فهي التصديق بالقول والطاعة. اهـ

(١) وما بين الأقواس مثله في الرازي، وما بين الأقواس تصحيح منه.

(٢) غلة للمحيي به اسما دال على الثبوت والدوام.

(٣) غلة للمحيي به فعلا يدل على التجدد والحدوث.

والأمر بالسجود [والعبادة] يحتمل أن يكون عاما ، ويحتمل أن يكون التفاتا فيكون كأنه قال : أيها المؤمنون اشكروا على الهداية ، واشتغلوا بالعبادة ، ولم يقل اعبدوا الله إما لكونه معلوما ، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله ^(١) فقال : ﴿واعبدوا﴾ .

والله أعلم

(١) هذه علة حذف المفعول به .

سورة الطور

أربعون وتسع آيات في الكوفي والشامي ، وثمان في البصري وسبع في الحجازي
(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل : ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾^(١) قال الهادي إلى الحق عليه السلام : هذا قسم من الله سبحانه بهذه الأشياء لما فيها من عظيم الآيات ، والنبا والبركة والخير لمن اهتدى ، والطور : فهو جبل في الشام يسمى الطور ، كثير البركة [والخير] ﴿وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾ فهو : كتاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم^(٢) . اهـ

(١) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٣٠٢ ، قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام : (الطور) هو طور سيناء ، وقد ذكره في غير مكان والبلد الأمين ، فأقسم بهما لما هو أعلم به سبحانه من أمرهما ﴿وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾ في رق منشور هو ما نزل الله من كنه ، وكتب في رق وغيره ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ هو بيت الله الذي يعمر أبدا بذكر الله وبالوافدين في كل حين إلى الله ، كما قال سبحانه لإبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ . ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ هو السماء ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ هو البحر الأعظم ، والمسجور : فهو المحبوس على حدوده ومتناه ، فليس يجوز حدا من حدوده ولا يتعداه . اهـ

(٢) — مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٢ ، وما بين القوسين زيادة منه .
وانظر أيضا (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي عليهما السلام (٣٠٦ ، ٣٠٨) قال فيه ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام في قوله : ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ﴾ معنى الطور : الجبل ، والمسطور : المكتوب وقوله تعالى : ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ فالمعمور : الكبير ، وقال : المعمور : بيت في السماء يقال له : الضراح حيال الكعبة ، يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة .

وفي التجريد : الطور هو الجبل الذي كلم الله موسى ، وموسى عليه ، والطور بمدين ﴿وكتاب مسطور﴾ قيل : مكتوب وهو الذي سطر فيه الأعمال ، أي : كتب ، ونكر لخصوصيته من بين سائر الكتب المسطورة ^(١).

ثم وصفه بقوله تعالى : ﴿ففي رُقٍ منشور﴾ إشارة إلى الوضوح ، وذلك لأن الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه ، فقال : هو ﴿في رُقٍ منشور﴾ ليس كالكتب المطوية ، فمعناه : هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته .
قال [الإمام الهادي] عليه السلام : فالرق فهو المعروف الذي تكتب فيه المصاحف ^(٢).

وقوله تعالى : ﴿والسقف المرفوع﴾ معناه : السماء .
وقوله تعالى : ﴿والبحر المسجور﴾ معناه : المحتلج بعضه من بعض ، وقال : المسجور : الموقد ، وقال الإمام زيد بن علي عليها السلام : البحر المسجور : بحر تحت العرش يسمى بحر الحياة .
وقوله تعالى : ﴿يوم تنور السماء مورا﴾ معناه : تلور بما فيها . وقوله تعالى : ﴿في غوص يلعبون﴾ معناه : في اختلاطهم وقتتهم .
وقوله تعالى : ﴿وتسير الجبال سيرا﴾ معناه : فتسير هي والأرض .
وقوله تعالى : ﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ معناه : يدعون فيها . وقوله تعالى : ﴿فكهن﴾ يعني : معجيين بما آتاهم ربهم .
وقوله تعالى : ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ معناه : أعطينا الأبناء ما أعطينا الآباء في المماثلة من الكرامة . وقوله تعالى : ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ معناه : ما نقصناهم .
وقوله تعالى : ﴿يتنازعون فيها﴾ معناه : يتعاطون فيها ﴿كأسا﴾ معناه : خمر .
وقوله تعالى : ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ معناه : مصون . وقوله تعالى : ﴿إم هم المصيطرون﴾ معناه : الأرباب والرقاء المسلطون .
وقوله تعالى : ﴿إم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ معناه : يخبرون .
وقوله تعالى : ﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا﴾ معناه : قطع واحدها كسفة .
وقوله تعالى : ﴿سحاب مركوم﴾ معناه : قد جعل بعضه على بعض .
وقوله تعالى : ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ معناه : يكذبوا . وقوله تعالى : ﴿يصعقون﴾ معناه : يموتون .
وقوله تعالى : ﴿بأعيننا﴾ معناه : بحفظنا وكلاءتنا .

(١) قوله : (ونكر لخصوصيته من بين سائر الكتب) قال السيد العلوي : أراد أنه إنما نكره مع أنه من أعرف المعارف وأشهرها ليدل على اختصاصه من جنس الكتب بأمر يميز به عن سائرها (وقد مثل الزمخشري بأنه مثل ﴿ونفس وما سواها﴾ وقد جعلها نفسا خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم عليه السلام ، قيل : وواحدة من النفوس . والتحقيق : أن التكرير فيه للتعظيم بسبب تميزه عن سائر الكتب بما اختص به . (حاشية العلوي ٢٩٣) .

قال أبو عبيدة : الرق الورق ، وقيل : الأديم الذي يكتب فيه .

ثم قال [الإمام الهادي] عليه السلام : معنى ﴿منشور﴾ فهو مفتوح معلوم . ﴿وَالْبَيْتَ الْمَعْمُورَ﴾ فهو : كعبة الله التي جعلها للمؤمنين ، وهي بكة ، وهي بقعة البيت التي في وسط مكة . اهـ

ومعنى ﴿المعمور﴾ أي : المعمور بالحجاج والمعتنرين الطائفين به ، العاكفين .
وقال في البرهان : روي عن آياتنا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال :
(البيت المعمور في السماء السابعة حيال الكعبة) ^(١) . اهـ

وقيل : الضراح ^(٢) في السماء السابعة ؛ لأنه ضرح عن الأرض ، أي : أبعد عنها ،
وعمرانه : كثرة غاشيته من الملائكة ، وحرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ،
ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون ثم لا يعودون إلى يوم القيامة ،
هذا رواه في البلغة عن علي عليه السلام ^(٣) . والله أعلم

﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ قال الهادي عليه السلام : وهي السماء المرفوعة التي جعلها الله
سقفا للأرض الموضوعة ، وروي عن علي عليه السلام مثله ^(٤) .

(٢) كلما ذكر المصنف في تفسير هذه السورة عن الإمام الهادي عليه السلام فهو منقول من مجموع تفسير الأئمة عليهم
السلام مخطوط ص ٤٧٢ إلى ص ٤٧٧ . وهذا تنبيه ليرجع إليه ، ويعفينا عن تكرار الحواشي لهذا المصدر .

(١) انظر البرهان مخطوط ص ٣٥٨ ، وكلما نقل المصنف عن البرهان فهو فيه ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، فليعلم .
وتمام الحديث في البرهان (لو غرَّ غرَّ عليها ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا) .

(٢) قال السيد العلوي : الضراح — بالضاد المعجمة — : لأنه ضرح إلى السماء ، أي : أبعد وأرفع ، وقيل : هو من
المضارحة وهي المقابلة ، لأنه مقابل للكعبة ، ولأبي العلاء : لقد بلغ الضراح وساكبه ثاك وزار من سكن الضريحما
[تنبيه] كلما نقلناه عن السيد العلوي في هذه السورة فهو من حاشيته على الكشاف المخطوطة الجزء الثاني ص
٢٩٣ ، ٢٩٤ . وفي لسان العرب ٥٢٤/٢ ط وترتيب يوسف خياط : الضرح : التحية ، والضرح : أن يوحد شيء
فيرمى به في ناحية ، والضراح : بالضم بيت في السماء مقابل الكعبة في الأرض ، قيل : هو البيت المعمور عمن أبين
عباس ، وفي الحديث (الضراح بيت في السماء حيال الكعبة) ويروى : الضريح ، وهو البيت المعمور ، من المضارحة وهي
المقابلة والمضارعة ، وقد جاء ذكره في حديث علي عليه السلام وبمحمد ، قال ابن الأثير : ومن رواه بالصاد فقد صحف .

(٣) كتاب البلغة في التفسير للطوسي ، إلى الآن لم تيسر لنا مخطوطته نسأل الله أن يستأجلها لئتم لنا المطابقة على الأصل .

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [قال الإمام الهادي عليه السلام] : فهو البحر الأخضر المالح الأكبر .

(٤) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره غريب القرآن ما لفظه :

﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ هذه أقسام أقسم الله بها ، والطور : بلد بالشام ﴿والبيت المعمور والسقف المرفوع﴾ روي أنه رفع من الأرض إلى السماء السادسة سنة ، أيام الطوفان فجعل خيال الكعبة ﴿والبحر المسجور﴾ المملوء قال الشاعر :

إذا شاء طالع مسجور يرى تحتها النبع والماء يسحما

وقال آخر :

مسجورة متجاوز أعلامها .

ومعنى قوله : ﴿عمور السماء مورا﴾ أي : تحرك وتسير ، قال الشاعر :

ورابعة عمور بلا خدام

عمور على ثلاث عذمت

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي : يدفعون دفعا ، ومعنى ﴿فاكهين﴾ يريد : عاجزين مسرورين . ومعنى ﴿ما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ أي : ما نقصناهم ، قال الشاعر : جهد الرسالة ما ألتنا وما كذبا .

ومعنى ﴿يتنازعون﴾ أي : يتاول بعضهم بعضا . ومعنى ﴿مشفقين﴾ أي : خائفين ﴿فمن الله علينا﴾ أي : تفضل علينا والكاهن : هو المخوِّص للظن . ومعنى ﴿نربص به ريب المنون﴾ هو نتظر به مصائب الدهر ، والربص هو الانتظار

تطلق يوما أو يموت حليلها

تربص بها ريب المنون لعلها

قال الشاعر :

والمنون : هو الدهر ، قال الشاعر :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

أمن ريب المنون وريبه تتوجع

ومعنى ﴿أما تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾ هذا تقرير لهم على أن أحلامهم لم تأمرهم بذلك ، والأحلام : هي العقول قال الشاعر :

من الناس والأحلام غير عواذب

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم

أي : العقول حاضرة ﴿أما يقولون تقوله﴾ أي : عمله وقاله . ومعنى ﴿كسفا من السماء﴾ أي : قطعها ، ومعنى ﴿يقولوا سبحانه مركوم﴾ هو الذي بعضه على بعض مزروم قال الشاعر : والقينة الطفة الحوري زينها جيد ونحر عليه الدر مركوم .

ومعنى ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ أي : يصيحون ويقولون إذا قرئت بنصب الباء والعين ، وإذا قرئ بغير ذلك فهم يغشون . والصعق : هو المغشي عليه ، والصاعق بالألف هو الذي يصيح ، قال الهادي إلى الحق صلوات

الله عليه : فهم ما بين كلب هارب ذاهل العقل ، ومرعوب صعق ، ومعنى قوله : ﴿فإنك بأعيننا﴾ الأعين فتعقل وجهين : إما أن يكون أراد بعلما ، وإما أن يكون أراد فإنك بأعين رسلنا الذين وكلهم الله بحفظ الأعمال ، والعرب

تقول : جعلنا عليهم عيوننا يحفظون أعمالهم ، قال الشاعر :

جاءت عيون به تعرب

فإن الذي كنتم تحلزون

ومعنى ﴿وإدبار النجوم﴾ يريد إذا ولت وأدبرت ، وذلك في آخر الليل وعند الصبح .

والمسجور : فهو ذو الصوت والهيجان والأمواج ، والمسجور : فهو الموقد الذي قد تأججت ناره ، واستوقدت فيه فهاج لها صوت لديه ، والعرب تقول : اسجر التنور أي : أوقده ، فشبه الله تبارك وتعالى البحر بالتسجير بتسجير النار في التنور ^(١) . اهـ

وفي البرهان : المسجور الموقد [نارا] لأن البحار تصير يوم القيامة نارا ^(٢) . اهـ
وجواب القسم قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي : نازل على المستحقين ، قال [الإمام الهادي] عليه السلام : فوق القسم على وقوع العذاب .

قال في البرهان : روي أن جبير بن مطعم قدم المدينة ليفدي حليفا له أسر يوم بدر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله في الصلاة يقرأ في سورة الطور ، فجلس مستمعا حتى بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ فأسلم جبير خوفا من العذاب ، وجعل يقول : ما كنت أظن أنني ^(٣) أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب ^(٤) .

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ قال [الإمام الهادي] عليه السلام : يقول ما فيه من خيلة ، ولا له من مانع ثم أخبر عز وجل متى يقع العذاب الذي عليه أقسم فقال : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ وذلك فهو يوم القيامة الذي تمور في السماء ، ومورها : فهو امحاقها وذهابها وتقطعها ورجوعها إلى ما منه خلقها ربها .

﴿وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ ومعنى تسير سيرا فهو : نسفها عن وجه الأرض وذهابها من الأرض كما ذكر الله سبحانه حين يقول : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ^(٥) أي : تقطع وتذهب وتمحق كقطع السحاب وذهابها من بعد تجسيمه واجتماعه ، فهذا معنى ﴿تسير الجبال﴾ . اهـ

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٢ . وقد جعلنا نسبته إلى الإمام الهادي بن قوسي زيادة ، لأنه موجود فيه ، وإن سكت المصنف عن نسبته إلى الإمام الهادي .

(٢) ما بين القوسين من البرهان ، وهو ساقط في الأصل من هذا التفسير . انظر البرهان ص ٣٥٨ .

(٣) في البرهان (ما كنت ظننت أن أقوم) .

(٤) انظر البرهان وذكره الزمخشري أيضا ، وخرجه ابن حجر في حاشيته على الكشف ٤/٤٠٩ .

(٥) النمل : ٨٨ .

وقيل : معناه تضطرب وتجيء وتذهب ^(١) ، وقيل : تدور عن ابن عباس ومجاهد والفراء والزجاج وابن قتية .

﴿تسير الجبال﴾ أي : تسير عن مقارها كما يسير السحاب حتى يستوي ، والحكمة في ذلك الإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها وإن لم يبق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدها الله تعالى ^(٢) .

ثم قال سبحانه : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والجزاء ، ومعنى الويل : فهو الهلاك لهم ﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال﴾ أي : إذا علم أن عذاب الله واقع ، وأنه ليس له دافع فويل يومئذ للمكذبين ، فالفاء لاتصال المعنى ^(٣) .

قال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله بأن الويل ينزل بالمكذبين في ﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا﴾ والويل : فهو العذاب ، والمكذبين : هم الذين كذبوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ فالخوض : هو التكذيب والهروج والشك والمرج و﴿يلعبون﴾ فهو يعشون ويهزؤون . اهـ

أي : يخوضون في أمر محمد صلى الله عليه وآله بالتكذيب ، وأصل الخوض : الدخول في الكلام ، وغلب الخوض في الأخذ بالباطل والكذب واللعب وما لا يفيد .
قوله سبحانه : ﴿يَوْمٌ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ بدل من ﴿يوم تمور﴾ ^(٤) والدع : الدفع العنيف ؛ لأن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار على وجوههم .

(١) صاحب القيل هو الرمحشري (انظر الكشف ٤/٤٠٩) .

(٢) ومثله في الرازي ٢٨/٢٤٣ ، ولكن قال فيه : فإن لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع .. إلخ ما ذكره هنا .

(٣) قال الرازي (٢٨/٢٤٥) بعد قوله : فالفاء لاتصال المعنى . وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان ، وذلك لأنه لما قال

﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ لم يبين موقعه من ، فلما قال : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ علم المخصوص به ، وهو المكذب .

وقال في مجمع البيان : دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة والتقدير : إذا كان هذا فويل يومئذ للمكذبين ٦/٢٧

قال عليه السلام: معناه يدفعون ويدقون ويحرون ويضربون ، تقول العرب : دُعِه، أي: ادفعه بيدك والكزه بجمعك . اهـ

ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم توبيخاً: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا وتجادون ، ومواقعتها في هذه اليوم تنكرون ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ الذي ترون من العذاب . قال عليه السلام يقول : هذا العذاب سحر ؟ كما كنتم تفعلون في الدنيا إذ أنذرتم بذلك. ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ بأعينكم ما قد وقعتم فيه من العذاب [كما كنتم عمياً عن الخير عنه في الدنيا]^(١) يريد : بلى إنكم تبصرون وترونه عياناً بعد أن كنتم تكذبون وتكفرونه إنكاراً^(٢).

وإنما هذا تقرير وتهكم بهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون : القرآن سحر ، وأخباره كاذبة ومحمد ساحر ، يغطي على الأبصار بالسحر ، فوبخوا عند رؤية العذاب .

ثم أخبر عز وجل أنه يقال لهم: ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ أي : ادخلوا بين طبقاتها كما تصلّى الشاة ، أي : تُغمر بالجرم ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَّا تُصْبِرُوا ﴾ اجزعوا ، والمعنى : إذا لم يمكنكم إنكارها ويتحقق أنه ليس بسحر ، ولا خلل في أبصاركم فاصلوها .

وقوله: ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَّا تُصْبِرُوا ﴾ فائدته بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص^(٣).
وقوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سواء خير ومبتدأه مدلول عليه [بقوله] ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَّا تُصْبِرُوا ﴾ كأنه يقول : الصبر وعدمه سواء^(٤).

(٤) ويحتمل أن يكون منصوباً بما بعده ، وهو العامل في قوله: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ ﴾ أي : يقال لهم هذه النار يسوم تمور ، وقيل : إنه بدل من يوم في قوله: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ ﴾ .

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة المجموع التي لدينا .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٧٣ .

(٣) وذلك لأن من لا يصبر يدفع العذاب عن نفسه إما بأن يدفع المذهب — بالكسر — فيمنعه ، وإما بأن يغضبه فيقتله فيستريح بالموت . ولا شيء من ذلك يفيد في عذاب الآخرة ، فإنه لا يغلب المذهب فيدفعه ، ولا يتخلص بالإعدام فإنه لا يقضى عليه فيموت ، فإذا الصبر كعدمه ، لأن من يصبر يدوم فيه ، ومن لا يصبر يدوم فيه .

(٤) وقد عاب السيد العلوي على الزمخشري عندما جعل سواء مبتدأ خبره محذوف ، وقال : كان الأولى أن يقول : خير مبتدأ محذوف ؛ لأنه لا يحسن أن يكون المبتدأ نكرة ، والخبر معرفة .

ثم علل استواءهما بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ [ما كنتم تعملون]﴾ ؟ قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة ، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع ذكره في الكشف ^(١) .

ولما بين حال الكافرين أعقبه بذكر حال المتقين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن ، بعد بيان حال الكافر ، وذكر الثواب عقب ذكر العقاب ليلم أمر الترهيب والترغيب ، والتذكير للتفخيم والتعظيم ، أي: في أكمل جنات وأكمل نعيم ﴿فَاكِهِينَ﴾ في ذلك متلذذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ . وفي البرهان : يعني فرحين معجيين .

﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ عطف على ﴿آتَاهُمْ﴾ وما مصدرية ، أي : فأكهين بإتيانهم ربهم ، ووقايتهم إياهم ﴿عَذَابِ الْجَحِيمِ﴾ ويحتمل أن يكون ذلك جملة أخرى مسوقة على الجملة الأولى ، كأنه بين أنه أدخلهم جنات ونعيما ، ووقاهم عذاب الجحيم ^(٢) . ثم أخبر سبحانه أنه قال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي : أكلنا هنيئا وشربا هنيئا ، وهنيئا صفة للطعام والشراب ، وهو الذي لا تنغيص فيه مأمون عاقبته من التخم والسقم ^(٣) [ثم] أعلمهم بم نالوا ذلك فقال: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات .

(١) الكشف ٤/٤٠٩ .

(٢) فعلى الوجه الثاني عله الرفع على أنه معطوف على خبر إن ، وذكر الزمخشري وجها ثالثا ، وهو أن تكون الواو واو الحال ، وقد بعدها مضمرة . وقال السيد العلوي : وإذا كانت موصولة فلا يصح العطف لفقدان العائد من الجملة المعطوفة ، إذ التقدير فأكهين بالذي آتاهم الله ، وبالذي وقاهم ربهم عذاب الجحيم ، وعلى هذا فلا عائد في الجملة المعطوفة .

(٣) ويحتمل أن يكون صفة للمصدر المحذوف ، وذكر السيد العلوي بأنه يحتمل أن يكون ﴿هَنِيئًا﴾ من المصادر التي حذفت عاملها ، وأقيمت مقامه ، والفاعل الأكل ، أو ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على أن الباء زائدة كما في قول كثير عزة :

هنيئا مريئا غير داء مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلحت

لأن ما استحلحت فاعل هنيئا مريئا .

ثم أخبر عن حالهم فقال: ﴿مُتَكِنِينَ عَلَى سُرٍّ﴾ أي: مستندين فوقها، والسرر: جمع سرير ﴿مَصْفُوفَةً﴾ أي: التي صفت، والوسائد والفرش، وقيل: متواصلة متقابلين، لا ينظر بعضهم إلى أقفاء بعض ﴿وَزَوْجَانَهُمْ﴾ أي: قرنائهم ﴿بِخُورٍ عَيْنٍ﴾ جمع عينا، واسعة العين، والخور: شديدة البياض.

وفي البرهان: والعين: الواسعات الأعين في صفاء ونقاء، ولذلك قيل لبقر الوحش: عين، قال زهير:

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وإنما سميت حورا لنقاتهن وبياضهن، كما يقال: دقيق حواري إذا كان نقيا. اهـ
ففي هذا بيان أسباب النعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن، وهي الجنات، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش والبسط، ثم الأزواج، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله.

وقوله: ﴿هَئِثًا﴾ إشارة إلى خلوهما عما يكون فيهما من المفاصد في الدنيا^(١).
ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: بسبب إيمان عظيم رفيع المحل، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذرياتهم، وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلا على الآباء وعليهم، ليكمل سرورهم وسرور الآباء^(٢) وتنكير الإيمان للدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة، ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل، كأنه قيل: بشيء من الإيمان^(٣) لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم.

قال الهادي عليه السلام: يريد سبحانه أن كل مؤمن اتبعته ذريته بإيمان مثل إيمانه، ولقيت الله بذلك فإنهم يلحقون^(٤) به في دار الثواب.

(١) من قوله: ففي هذا.. إلى هنا مثله في الرازي ٢٨/٢٤٨. قال السيد العلوي: والهي والمريء صفتان من هوى الطعام ومرؤ؛ إذا كان سائغا لا تنقيض فيه.

(٢) ومثله في الكشف، وعبرة الرخشري (تفضلا عليهم وعلى آباءهم لنتم سرورهم وتكمل نعيمهم).

(٣) فالتنكير في هذا الوجه الثاني للتحقير، وفي الوجه الأول وهو قوله: على أنه إيمان خاص عظيم. للتعظيم.

(٤) عبارة المجموع (يلتقون) وهنا يلتحقون، وهو الأنسب للآية.

قلت : ويؤيده ما روي عن النبي ﷺ (ترفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقر [بهم] عينه) ثم تلا الآية (١).

قلت لأن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ، ولهذا طيَّب الله تعالى قلوب عباده ، بأنه لا يولهم بأولادهم ، بل يجمع بينهم كما قال سبحانه : ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ قال عليه السلام : يريد وما أُنقصناهم مما وعدناهم على إيمانهم شيئا ، فأما قوله : ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ فإنما يقول : من جزاء عملهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ . اهـ

ومثل هذا في البرهان (٢) والبلغة ، والمعنى : ما نقصناهم من ثوابهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم ، أي : ما نقصنا الآباء من ثواب عملهم بعد أن قرنا بهم ذرياتهم ؛ إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل على الآباء وعلى الأبناء .

ثم قال سبحانه : ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال عليه السلام : فهو يخبر أن كل أمرؤ بعمله مرتتهن ، وبكسبه مجازى ، خيرا فخيرًا وشرًا فشرًا . اهـ

قال الواحدي : هذا عود إلى ذكر أهل النار ، فإنهم مرتتهنون في النار ، وأما المؤمن فلا يكون مرتتهنا ، قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ إلا أصحاب اليمين (٣) وهو قول مجاهد .

وقال الزمخشري : ﴿كُلُّ الْمَرْءِ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب ، فإن كسب خيرا فك رفته ، وإلا أغسلق الرهن ، ومعنى ﴿رَهِينٌ﴾ أي :

(١) ما بين القوسين من الكشف . قال ابن حجر في تخرجه : أخرجه البزار ، وابن عدي ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه ، والعللي ، من طريق قيس بن الربيع ، عن عمرو بن مرة عن سعد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا ، قال البزار : تفرد قيس برفعه ، ورواه الثوري موقوفا ، ورواه الحاكم والبيهقي في الاعتقاد ، والطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفا . (الكشف ٤/ ٤١١) .

(٢) لفظ البرهان : قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو أن يكون الأبناء مثل طاعة الآباء فيجمع الله تعالى بينهم في الجنة ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني : ما نقصناهم وقد مر الاستشهاد فيه ، أي : ما نقصنا الآباء بما أعطينا الأبناء ، ويجوز أن يكون معنى ألتناهم ظلمنا ، كما قال الشاعر :

أبلغ بني جعل عني مغفلة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا (البرهان ٣٥٩)

(٣) المدثر : ٣٨ .

محتبس ، كأن نفسه مرهونة عند الله بالعمل الصالح الذي هي مطالبة به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن خلص وإلا أوبقها^(١) .
ومنه : الرهن لاحتباسه بالحق . شعر

وما كنت أخشى أن أكون رهينة لأحر قبطي من القوم معتق^(٢)
ثم قال تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ﴾ من الإمداد وهي الزيادة ، أي : زدناهم وقتاً بعد وقت ، والفاكهة : كلما يتلذذ به ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ على حسب ما يخطر ببالهم من طيبخ أو شوي فقد جمع أوصافاً حسنة في قوله : ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لأنه لو ذكر نوعاً فرمما يكون ذكر النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال سبحانه : كل يعطى ما يشتهى .

ثم قال تعالى : ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي : خمر ، والكأس : الزجاجة إذا كان فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها كأساً .

قال في البرهان : ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ أي : يتعاطون ويتساقون ، وكل إناء مملوء من الشراب ، يقال له : كأس^(٣) ، وإذا فرغ الإناء لم يسم كأساً .

﴿لَا لَغْوَ فِيهَا﴾ أي : في شربها ﴿وَلَا تَأْنِيمَ﴾ أي : لا باطل الخمر ولا مأثم .

قال الهادي عليه السلام : اللغو فهو الهذيان ، والكلام الذي يخرج من قد زال عقله ، فيلغو^(٤) في لفظه عند سكره وشربه لخمرة ، فأخبر الله أن خمر الآخرة لا تقسد منها العقول ، ولا ينطق شاربيها باللغو والفضول . وأما قوله : ﴿وَلَا تَأْنِيمَ﴾ فهو : لا إثم على شارب خمر الآخرة^(٥) . اهـ

(١) لفظ الرمحشري في ٤/٤١١ : ﴿كل امرؤ بما كسب رهين﴾ أي : مرهون ، كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به ، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحاً فكها وخلصها ، وإلا أوبقها وقد نقلها المصنف بالمعنى .

(٢) ومثله في البرهان ٣٥٩ ، ولفظ البرهان : ﴿كل امرؤ بما كسب رهين﴾ أي : محتبس ، ومنه الرهن .. الخ .

(٣) زيادة في البرهان بعد قوله : يقال له كأس [والمنازعة كما قال الأخطل :

وشارب مرتج بالكأس نادمني لا بالحضور ولا فيها بشار] وإذا فرغ الإناء .. إلى قوله : ولا مأثم . اهـ (٣٥٩)

(٤) في المجموع (فيلني) ص ٤٧٤ .

(٥) في المجموع زيادة بعد قوله : خمر الآخرة [من الإثم والعقوبات ، وما أوعد الله عليها شاربيها من النكرات] .

وقيل : معناه لا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي : ينسب إلى الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم [والكلام الحسن] متلذذين بذلك لأن عقولهم ثابتة^(١) .
لا كفعل المتأدبين في الدنيا على الشرب من السفه والعريضة وسقط الحديث ، وهو اللغو المنفي عن أهل الجنة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ لخدمتهم ﴿ غُلَمَانٌ لَهُمْ ﴾ أي : مملوكون لهم إعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر [والنهي] والاستخدام ، وهذا هو المشهور ، ويحتمل وجها آخر ، وهو أنه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة على خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا ، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة والمملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم ، إما لتوقع النفع ، أو لتوفر الصفح ، وأما في الآخرة فطوافهم عليهم متمحض لهم ولنفعهم ، ولا حاجة لهم إليهم ، والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره ، وربما يبلغ درجة الأولاد ، ذكر هذا الرازي^(٢) .

ثم وصفهم سبحانه فشبههم باللؤلؤ في صفاء الألوان فقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ مستور في الصدف ، وهو أوعيته ؛ لأنه رطبا أحسن وأصفى منه بعد استعماله في الأيدي ، أو ﴿ مَكْنُونٌ ﴾ مخزون ؛ لأنه لا يحزن إلا الثمين الغالي القيمة .
قال في البرهان : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل فقيل [له] : هذا الخادم مثل اللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم ؟ قال : (والذي نفسي بيده لفضل ما بينهم كفضل القمر على النجوم ليلة البدر)^(٣) .

(١) صاحب القيل هو الرمحشري ٤/٤١١ ، ٤١٢ . ولفظ الرمحشري (أي : لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتأدبين في الدنيا على الشراب في سفههم . ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أي : ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك ؛ لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء . (وقد نقله المصنف بتقديم وتأخير وتصرف يسير) .

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٨/٢٥٤ . وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) وذكره أيضا في الكشف عن قتادة ، قال ابن حجر في تخرجه : أخرجه عبد الرزاق ، أخرنا معمر عن قتادة به ، قال : فذكره . وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلا .

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يتحدّثون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله، وما استوجب به نيل ما عند الله تعالى، قال ابن عباس: يتذكرون ما كانوا فيه من الدنيا من الخوف والتعب. ذكره في التجريد.

وهذا إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة، ومن الضيق إلى السعة، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلّف، ومن النعيم إلى الجحيم.

ثم يقولون ما حكى الله عنهم ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف حيث يقول سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾^(١).

قوله: ﴿قَبْلُ﴾ يريد: قبل لقاء الله، أي في دار التكليف، وهذا جواب المسئول منهم قال الهادي عليه السلام: هذا قول من المؤمنين عند ما ينجيهم الله في الآخرة من العذاب [المهين] يخبرون أنهم كانوا في الدنيا وهم بين أهليهم مشفقين من عذاب الله، ومعنى ﴿مشفقين﴾ فهو: خائفين وجلين^(٢) ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرف ما كان منه وجلنا وإشفاقنا، فبسبب ذلك أنعم علينا بما نحن فيه ﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: من عذاب السموم، وإنما اشتق [السموم] من الأمر الشديد من وهج السموم، والسموم: فهي النار ذات الحريق، والحز المهيل، ومنه اشتق اسم السموم للريح الحارة [الشديدة الحرا] التي يلفح الوجه منها كمثل لفتح وهج النار. اهـ

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ لقاء الله في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ إِنَّهُ﴾ أي: لأنه ﴿هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ البر: هو اللطيف المحسن، والرحيم: العظيم الرحمة، الذي إذا أطيع أثاب، وإذا سئل أجاب.

(١) من قوله: هذا إشارة.. إلى هنا. مثله في الرازي ٢٨/٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) في أصل هذا التفسير (هو: خائفين وجلين) وذلك بناء على أنه تفسير لقوله تعالى: ﴿مشفقين﴾. وفي المجموع:

خائفون وجلون، بناء على أنه خبر هو. (انظر المجموع ٤٧٤) وما بين الأقواس من المجموع.

(٣) هذا بناء على قراءة من قرأ ﴿أنه هو البر الرحيم﴾ بفتح الهزلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد ، أي : أثبت علي تذكير الناس ووعظهم ، ولا يشطك قولهم : كاهن أو مجنون .

قال الهادي عليه السلام : هذا أمر من الله ، أمر نبيته صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر به ويدعو إليه ، ثم أخبر أنه ليس كما يقول الكافرون فيه ، ويقذفونه به من الكهانة والجنون ، فنفى الله ذلك عنه فقال : ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ بل [أنت] الرسول الكريم الأمين^(١) . اهـ أي : فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل بكاهن : وهو الذي يلقي عليه مسترقة السم ، وهو يحتاج إلى فطنة ودقة نظر ﴿ولا مجنون﴾ وهو : المغطى على عقله ، وبين الفطنة والجنون تناقض ، فقولهم فيك متناقض ، وما أنت — بحمد الله — أحد هذين .

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أم : منقطعة بمعنى همزة الإنكار وبل ، أي : بل أهو شاعر ، وقال أبو عبيدة : هي بمعنى بل فقط ، تقديره : يقولون إنه شاعر قولاً بل يعتقدونه عقلاً ، ويدخل في عقولهم ذلك ، أي ليس ذلك قولاً منهم من غير عقل ، بل يعتقدون كونه كاهناً ومجنوناً ، ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿بل هم قوم طاغون﴾ لكن بل هاهنا واضح ، وفي قوله : ﴿بل تأمرهم أحلامهم﴾ خفي^(٢) .

ومعنى ﴿تَتَرَبَّصُّ بِهِ﴾ أي : نتظر به ﴿رَبِّ الْمُنُونِ﴾ حوادث الدهر المقلقة للنفوس ، والريب : القلق ، قالوا : نتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء . قال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله عما يقول الكافرون في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون : إنه شاعر لا رسول ، وكان بعضهم يقول لبعض : تربصوا به ريب المنون ، ومعنى تربصوا : فهو انتظروا وتوقعوا ريب المنون ، والريب : فهو الوقوع والنزول ، والمنون : فهو الموت ، فأمر الله نبيته صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم : ﴿قُلْ

(١) ما بين قوسي الزيادة من المجموع ٤٧٤ .

(٢) ومثل هذا في الرازي ٢٨/٢٥٧ ، ولكن الرازي جعل كونها متصلة قولاً راجحاً ، والمنقطعة قولاً ثانياً بعد أرجحية الأول ، أما المصنف فقد اكتفى بالقول الثاني ، ولم يتعرض لصحة كونها متصلة إلا آخره عند نقله عن الزجاج .

تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ ﴿١﴾ يقول : انتظروا [أي] أنتظروا بكم مثل ما تنتظرون بي ، أي : أنتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي على زعمكم ، وأعظم من ذلك ما أرجوه من نزول عذاب الله عليكم [فعدبوا في يوم بدر بالسيف] (١) .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ يقول : أليس يزعمون أن لهم أحلاما وعقولا ، فأحلامهم تأمرهم وتدلهم على المكابرة للحق وقول الباطل ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد والمكابرة مع ظهور الحق ، قال عليه السلام : يريد أم هم قوم قد طغوا وبغوا عليك فينزل بهم البلاء على طغيانهم ويحل بهم النقم على كفرهم . اهـ

والإشارة ﴿بهذا﴾ إلى كفرهم وإنكار النبوة ، وهذه إشارة مبهمة ، أي : إلى هذا الذي يظهر منهم قولا وفعلا ، حيث يعبدون الأصنام والأوثان ، ويقولون الهذيان من الكلام . ويحتمل أن هذا إشارة إلى قولهم : هو كاهن ، هو شاعر ، هو مجنون .

أو هو إشارة إلى التربص ، فإنهم لما قالوا : نربص قال الله تعالى : أعقوهم تأمرهم بربص هلاكهم ، فإن أحدا لم يتوقع هلاك نبيته إلا وهلك ، وأم منقطعة بمعنى بل على قول (٢) . وقال الزجاج : هي متصلة ، والمعنى : أتأمرهم أحلامهم بترك القبول ممن يدعوهم إلى التوحيد ، أم يكفرون طغيانا وعنادا ، وقد ظهر لهم الحق .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي : القرآن ، وهو متصل بقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شاعر نربص به﴾ وتقديره : أيقولون كاهن ، أم يقولون : شاعر ، أم تقوله . قال عليه السلام : أم يقولون : إنه كذبه ، وادعى أنه من الله وليس من الله .

﴿بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول : بل هم لا يصدقون أنه من الله (٣) . فلكفرهم وعنادهم عابوه ، وبهتوه بهذه المقالات مع علمهم بطلان قوتهم . ثم قال لبطلان جميع الأقسام : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي : مثل القرآن في فصاحته

(١) ما بين القوسين ساقط في المجموع . ٤٧٥

(٢) ومثله في الرازي ٢٨/٢٥٧ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ٤٧٥ .

وحسن نظمه ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في أنك تقولته ، فليأتوا بحديث مثله ، والمعنى
أنه إن كان شاعرا ففيكم الشعراء البلغاء ، والكهنة الأذكياء ، ومرتل الخطب
والقصائد ، ومقتص القصص ، ولا يختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ما أتى به ؛ لأنه إن
كان منك فسيقدر على أن يأتوا بمثل ما أتيت به ، وإن كان من عندنا فليقدروا على
ذلك أبدا ؛ لأن قوله تعالى : ﴿فليأتوا﴾ أمر تعجيز ، والفاء للتعقيب ، أي إن كان كذلك
فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصح كلامهم ويبطل كلامه .
ثم أشار سبحانه إلى دليل الأنفس فقال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي :
أحدثوا وقدروا هذا التقدير الذي عليه فطرهم من غير مقدر : أي خالق ﴿أَمْ هُمْ
الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم .

والمعنى كما قال الهادي عليه السلام : أفلا يعتبرون فينظروا في خلقهم أمن شيء خلقوا ؟ أم
من غير شيء جعلوا ؟ فإن نظروا فسنبين لهم من أثر صنعنا ما يدلهم على أن ما جئت به
من عندنا ، ثم لينظروا أهم الخالقون أم غيرهم الخالق ! فإن أقروا بخلق غيرهم لهم ،
وبأنهم لم يخلقوا أنفسهم فسيعلمون أن الذي أرسلك إليهم هو الخالق لهم ^(١) . اهـ
قال الرازي : إن قيل : ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : لما كذبوا النبي صلى الله عليه وآله
وسلم وتبوه إلى الكهانة والجنون والشعر ، وبرأه الله من ذلك ، ذكر الدليل على صدقه
إبطالا لتكذبيهم ، وبدأ بأنفسهم ، فكأنه يقول : كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل
صدقه ؛ لأن قوله في ثلاثة أشياء في التوحيد والحشر والرسالة ، ففي أنفسهم ما يعلم به
صدقه ، وبيانه هو أنهم خلقوا ، وذلك دليل التوحيد لما بينا أن
(في كل شيء له آية تدل على أنه واحد) وقد بينا وجهه مرارا .

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه ، ويدل عليه ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله : ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) ثم أشار تعالى إلى دليل الآفاق فقال سبحانه : ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي : بل أخلقوهما فليس عليهم أمر ولا نهى ؟! ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ لأنهم إذا سئلوا من خلقهم ؟ أو خلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، فما لهم لا يوحّدونه ويطيعونه إن كان قولهم ذلك صدقا ، بل هم شاكون فيما يقولون ؛ لأنهم لا يعلمون بمقتضاه .

وقيل : معناه لا يوقنون أصلا من غير ذكر مفعول ، يقال : فلان ليس بمؤمن ، وفلان [ليس بـ] كافر لبيان مذهبه ، وإن لم ينو مفعولا ، وحيث يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ، ولا يوقنون بهذه الدلائل ، بل لا يوقنون أصلا وإن جتهدهم بكل آية ، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مكرهم﴾^(٢) وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق . وقوله من قبل : ﴿أَمْ خَلَقُوا﴾ دليل الأنفس ثم قال تعالى : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ أي : خزائن رزقه حتى يرزقوا النبوة من شأوا أو يرزقون أنفسهم ، فهم يستغنون عن الله تعالى ، فلذلك أعرضوا عنه ، أو خزائن علمه فهم يعلمون من هو أصلح^(٣) .

قال الهادي عليه السلام : وكل هذا يريد سبحانه أنهم إن كانوا كذلك ، وكانوا يفعلون ذلك فالقول قولهم ، وإن كانوا ليسوا بفاعلين ذلك ، ولا قادرين عليه فليعلموا أن الفاعل لما عجزوا عنه هو الباعث لك ، والمنزل لما معك مما عجزوا عن أن يأتوا بمثله ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيِّطُونَ﴾ يريد : أم هم المستحسون لكل الأشياء الموكلون عليها ، الحافظون لقليلها وكثيرها ، فلن يكونوا كذلك أبدا ، ولن يكون غير الله كذلك ، ولن يعلمه ويخصيه سواه^(٤) . اهـ

(١) الطور : ٤٣ . انظر الرازي ٢٨/٢٥٩ . وأما القسم الثالث ، وهو الرسالة فهذه الآيات تدل على إثباتها ، ولهذا اكتفى المصنف بالتنبيه على المبدأ والمعاد اعتمادا على ما أسلفه من التفسير في بيان صدق الرسالة والمرسل .
(٢) الطور : ٤٣ .

(٣) ومثله في الرازي ، وما بين القوسين إصلاح منه (٢٨/٢٦١) .

(٤) المجموع ص ٤٧٦ .

وقرئ بالسين أيضا، والمسيطر : المتسلط الغالب ، أي : هم الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ، وينبؤوا الأمر على مشيئتهم ، أو فهم لا يؤمرون ولا ينهون .
﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾ أي : صاعدون فيه مستمعون إلى كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا بقدم هلاكك على هلاكهم ، أو ظفرهم في العاقبة دونك .

قال الهادي عليه السلام : وهذا مثل مثله الله تبارك وتعالى يقول : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ﴾ يرقنون فيه إلى السموات حتى يسمعون^(١) وحي الله الذي ينطق به ملائكته عنه ، فإذا كان ذلك كذلك عندهم ﴿فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾ الذي استمع من السماء في السلم لهم ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي : حجة تدل على ذلك وتبينه . اهـ

وذلك إشارة إلى لطيفة ، وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه ، وقيل لهم : ﴿فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾ بما يسمع لكان للواحد أن يقول : أنا سمعت كذا وكذا فيفتري كذبا ، فقال : لا بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه ، وإلا فهم مبطلون ، فالحجة : هي السلطان ، والمبين : بين ظاهر يصدق ما يدعي مستمعهم .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ إشارة إلى نفي الشرك وفساد ما يقولون بطريق آخر وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه ، والله قادر فلا شريك له .
قال الهادي عليه السلام : هنا إنكار من الله لقولهم : إن الملائكة بنات الله ، فقال الله تبارك وتعالى زدا لقولهم : هل يكون ما قلتم من ذلك ، أو يجوز أن يصفىكم بالبني ، ويدع لنفسه البنات لو كان كما تقولون تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وتقدس عما يقول [فيه] الكافرون تقدسنا عزيزا كريما^(٢) . اهـ

فرضوا له بما لم يرضوا لأنفسهم ، ونسبوا إليه التوالد واستخفوا بهم وهم أشرف خلقه ، فجعلوهم إناثا ، وهذا من الالتفات ، وهو يفيد هنا قوة الإنكار عليهم .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والهداية لهم إلى السعادة ﴿فَهُمْ مِنْ

(١) في الأصل (يستمعون) وفي مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام (حتى يسمعون) .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ، وما بين القوسين منه (٤٧٦) .

مَغْرَمٌ مُثْقَلُونَ ﴿١﴾ أي : يثقلهم ، والمغرم : أن يلتزم الإنسان بما ليس عليه .
قال الهادي عليه السلام : يقول : أم هذا الصدود والمنافرة لك لأجر تسألهم إياه ، والأجر :
فهو الأجرة على ما جاء به ﴿فهم من مغرم﴾ يقول : من شدة الغرم الذي ألزمتهم إياه
ومعنى ﴿مثقلون﴾ فهو مفدوحون لا يطيقون ما كلفتهم ، ولا يجدون ما سألتهم فهم
كارهون لأمرك ، لعظم ما كلفتهم من أجرك .

واعلم أن في سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : ﴿أم تسألهم﴾ ولم يقل : أم تسألون
أجرا كما قال تعالى : ﴿أم تقولون﴾ وقال تعالى : ﴿أم يريدون كيدا﴾ إلى غير ذلك
فائدتين إحداهما : تسلية قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وذلك لأنهم لما امتنعوا من
الاستماع ، واستنكفوا من الإتيان صعب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له ربه : أنت
أتيت بما عليك ، فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم ، وإنما تلام لو كنت
طلبت منهم أجرا ، فهل طلبت ذلك فأثقلهم ؟ لا ، فلا حرج عليك إذا .

ثانيهما : أنه لو قال : أم تسألون لزم نفي طلب أجر مطلقا ، وليس كذلك ، وذلك
لأنهم كانوا يشركون ويطلبون بالأجر من رؤسائهم ، وأما النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال
[له] : أنت لا تسألهم أجرا ، فهم لا يتبعونك ، وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون
السائلين ، وهذا غاية الضلال ^(١) .

ثم قال سبحانه : ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول ﴿أم﴾
عندهم الغيب فهم يكتبون كل شيء ، فيكون ما قالوا من علم غيبهم ، ومعنى
﴿يكتبون﴾ فهو : يعلمون . اهـ

وقال ابن قتبية : ﴿يكتبون﴾ يحكمون بما تقولون ، ولعله من قولهم : كتب الله الصيام
فرضه وأوجبه ^(٢) .

(١) ومثله في الرازي ٢٦٤/٢٨ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٦٦/٢٨ ، وذكر أن ابن قتبية ممسك بقوله صلى الله عليه وآله : (اقض بيننا بكتاب الله) أي :
حكم الله . ثم قال الرازي : وليس المراد ذلك ، بل هو من باب الإضمار معناه : بما في كتاب الله تعالى .

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ قال عليه السلام: يقول أم هذا الذي يقولون من التكذيب وغيره مكر بمكرونه بك ، وكيد لك يريدونه . اهـ

قيل : هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبالمؤمنين ، حين تشاوروا عليه في دار الندوة ، يريدون به قبيحا ، وكان قريش يجتمعون فيها للتشاور في المهمات ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ الذين يعود عليهم وبال كيدهم^(١) .

قال الهادي عليه السلام : أي هم المعبذون الذي يقع عليهم الكيد ، ويخصهم دون غيرهم حتى يكون ما أملوا إيقاعه بك من الكيد عليهم ، وتكون أنت سالما من ذلك ، وهم فيه واقعون . وفائدة تنكير الكيد الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون ، فكأنه قال : تأتيهم بغتة ، ولا يكون لهم [به] علم ، أو يكون إيرادا لعظمته^(٢) .

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ قال عليه السلام : يقول — أم لهم خالق [ومدير] غير الله فهم إليه يلجئون ، وبه يتعززون ، كلاً ما لهم من إله غير الله الذي عليه يحترقون ، وبه يكفرون^(٣) .

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول : تعالى الله وتنزه عما يقولون ، ويفعلون ممن شركهم وكفرهم . اهـ

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي : قطعة من السحاب ﴿سَاقِطًا﴾ عليهم لعذابهم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ولم يصدقوا أنه العذاب لشدة طغيانهم وعنادهم ، وهذا جواب قولهم : ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾^(٤) قال الهادي عليه السلام : والكسف هو العذاب النازل من السماء ، فأخبر سبحانه أنهم عند معاينتهم له لو عابوه لقالوا : هذا سحاب مركوم ، والمركوم : فهو الذي بعضه على بعض ، فإذا رأوه توهموا أنه سحاب حتى يقع عليهم فيهلكهم ، وذلك مثل قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾^(٥) .

(١) القائل : هو الزمخشري . انظر الكشاف ٤/٤١٤ .

(٢) ومثل هذه الفائدة في الرازي ٢٨/٢٦٧ . وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه .

(٣) انظر المجموع ٤٧٧ ، وما بين الأقواس منه .

(٤) الإسراء : ٩٢ .

(٥) الأحقاف : ٢٤ .

ويجوز أن يراد لو جئتهم بآية مما يفترون لأنكروها ، فلو أسقط عليهم بعض السماء لقالوا : هذا سحاب مركوم .

قال الرازي : ووجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بين فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار إلى أنه لم يبق لهم شيء من وجه الاعتذار ، فإن الآيات ظهرت ، والحجج بهتت^(١) ، ولم يؤمنوا ، وبعد ذلك إن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب ، أي : ينكرون الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ أي : إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم يتمكنوا ، أي : اتركهم ترك تخلية وخذلان .

وقال زيد بن علي عليه السلام ﴿ ذرهم ﴾ أي : يكذبوا ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي : يموتون . اهـ ومثله في البرهان .

قيل : يموتون عند نفخة إسرافيل الأولى نفخة الصعق لا نفخة البعث .

قال في التجريد : وفيه نظر ؛ لأنه لا يموت بها إلا الأحياء يومئذ^(٢) .

وقيل : يوم يعذبون ، وهو يوم القيامة .

وقيل : معنى ﴿ يصعقون ﴾ يصيحون ويَعُولُونَ . إذا قرئ بنصب الباء والعين ، وإذا قرئ بغير ذلك فهو : يغشون .

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية السيف^(٣) وهو ضعيف ، لأنه ليس المراد الأمر ، إنما المراد التهديد .

و﴿ حَتَّى ﴾ للغاية ، فيكون كأنه تعالى قال : ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم ، ثم ذلك اليوم تجدد الكلام ، وتقول : ألم أقل لكم : إن الساعة آتية ، وإن الحساب يقوم ، والعذاب يدوم .

ثم لما قال : ﴿ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ﴾ وكل بر وفاجر يلاقي يومه أعاد صفة يومهم و[ذكر] ما

(١) في الرازي ، والحجج تميزت (٢٦٨/٢٨) .

(٢) القائل : هو الزعشمري ، وقد رد عليه صاحب تجريد الكشاف كما تراه هنا . الكشاف ٤/٤١٥ .

(٣) قال هذا القول كثير من المفسرين ، ومنهم الإمام أبو الفتح الديلمي في تفسير البرهان (انظر البرهان ٣٥٩) .

يتميز به من يوم المؤمنين فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وهو يخالف يوم المؤمنين فإنه تعالى قال فيه: ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ والمعنى: لا يدفع عنهم كيدهم شيئا، ولا ينفعهم شيئا من النفع ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم، إما بشفاعته شفيع، أو بنصر ناصر.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل يوم القيامة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَنَذِقْنَهُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾^(١). قال في البرهان: وهذا العذاب هو الانتقام الذي ينتقم به أهل المعاصي في دار الدنيا^(٢). قال في الكشاف: وهو القتل بدر، والقحط سبع سنين [وقيل]: عذاب القبر^(٣). وقيل: مصائبهم في الدنيا، ويجوز أن يراد بـ ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ أخف منه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنهم يقعون في ذلك لغفلتهم عن التدبر، وأراد بالأكثر الكل جريا على عادة العرب حيث تعبر عن الأكثر بالكل، كما قال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يعني: فيما امتحنك به من مقاساة قومك، وما حكم به عليك من دعائهم مع تمردهم، وقوة شوكتهم.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال في البرهان: فيه وجهان أحدهما: بعلمنا، والثاني: بمراى منا^(٤) اهـ وهذا كناية عن الحفظ، وعن العلم أيضا، أي: نحفظنا بحيث نراك ونحفظك منهم، وجمعت الأعين لإضافتها إلى لفظ الجمع، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَتَصْنَعَنَّ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ فأفردتها لإضافتها إلى مفرد، وقيل: بأعين رسلنا الذين وكلهم الله بحفظ الأعمال، والعرب تقول: جعلنا عليهم عيوننا يحفظون أعمالهم، قال الشاعر:

فإن الذي كنتم تحذرون
جاءت عيون به تعرب

(١) كون معنى ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل يوم القيامة. ذكر الرازي أنه قول أكثر المفسرين الرازي ٢٧٣/٢٨.

(٢) السجدة: ٢١. وزاد في البرهان بعد قوله: في دار الدنيا. وهو دون عذاب الآخرة. البرهان ٣٥٩.

(٣) لفظ الكشاف ٤١٥/٤ وهو القتل بدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر. وهذا زاد لفظ: [وقيل] عذاب القبر.

(٤) ولفظ البرهان (٣٥٩): قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يعني فيما امتحنك به من مقاساة قومك ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ فيه وجهان أحدهما — بعلمنا، والثاني: بمراى منا.

قال الرازي : لما قال تعالى : ﴿فذرهم﴾ كان [هاهنا] فيه إشارة ^(١) إلى أنه لم يبق في نصيحهم نفع ، ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى : ﴿وإن يروا كسفا من السماء﴾ وذلك مما يحمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الدعاء عليهم ، كما قال نوح عليه السلام : ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾ ^(٢) وكما دعا يونس عليه السلام فقال الله تعالى : ﴿فاصبر﴾ وبَدَل اللعن بالتسبيح ﴿وسبح بحمد ربك﴾ بدل قولك : اللهم أهلكهم ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿فإنك بأعيننا﴾ لما بين تعالى أنهم يكيدونه كان مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم ، فقال : اصبر ولا تخف فإنك محفوظ بأعيننا . اهـ

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي : قل سبحان الله وبحمده ، وقيل : معناه إذا فرغت من وظائف الصلاة فقل : سبحان الله وقد ورد في الحديث (من قال عقيب الصلاة : سبحان الله عشر مرات ، والحمد لله عشر مرات ، والله أكبر عشر مرات كُتب له ألف حسنة) .

قلت : والحديث في أمالي أبي طالب عليه السلام عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (حصلتان — أو خلتان — لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة هما يسير ومن يعمل بهما قليل ، يسبح دبر كل صلاة عشرا ، ويحمد عشرا ، ويكبر عشرا فذلك خمسون ومائة باللسان ، وألف وخمسمائة في الميزان ، ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ، ويحمد ثلاثاً وثلاثين ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين ، فذلك مائة باللسان وألف في الميزان ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعقد هما بيده ، قالوا : يا رسول الله كيف هما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ؟ قال : يأتي أحدكم الشيطان في منامه فينومه قبل أن يقوها ، ويأتيه في صلاته فيذكره حاجة قبل أن يقوها) .

وروى علامة العترة محمد بن القاسم عليه السلام في كتاب الهجرة : أن عليا قال لفاطمة (ع)

(١) ما بين القوسين غير موجود في الرازي ٢٨/٢٧٤ ولفظه : كان فيه الإشارة ، وبقي النص موجود في الرازي بلفظه .

(٢) نوح : ٢٦ .

(٣) القلم : ٤٨ .

إن الطحن واختدامك نفسك قد أجهداك ، فلو أتيت أباك فسألتيه خادما ، قالت : فانطلق معي ، قال : فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : ألا أدلكما على عمل خير لكما من ذلك ، تسبحان الله إذا أويتما فراشكما ثلاثا وثلاثين وتحمدانه ثلاثا وثلاثين ، وتكبرانه أربعا وثلاثين ، فتلك مائة على اللسان ، وألف في الميزان ، قال علي عليه السلام : فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كل صلاة فريضة وعند كل نوم ، فقال له رجل : ولا ليلة صفين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ولا ليلة صفين) . اهـ

قال الإمام شرف الدين عليه السلام بعد أن روى هذا التسبيح في الأئمان عقيب الصلوات الخمس ما لفظه : (هذا الذكر الوارد فضله على هذا الترتيب مع التصور والتدبر لمعانیه الشريفة أعظم الأذكار ، وأشرف الأسرار) إلى آخر كلامه عليه السلام في تفسير هذا الذكر المأثور . وقال في البرهان : ﴿وسبح بحمد ربك﴾ فيه وجهان : سبح بحمد ربك ﴿حين تقوم﴾ من مجلسك ليكون خاتمة كلامك تسبيحا لله تعالى ، والثاني : أن يسبح إذا قام من نومه ليكون فاتحة عمله ذكر الله عز وجل .

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ أي : بعض الليل ﴿فَسُبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ ﴿ومن الليل﴾ المراد به صلاة الليل ﴿وإدبار النجوم﴾ ركعتا الفجر . اهـ

ومعنى ﴿إدبار النجوم﴾ يريد إذا ولت وأدبرت ، وذلك في آخر الليل ، وعند الصبح ، أي : إدبار وقتها . وفي التجريد : قال ابن عباس : وصل حين تقوم من منامك عموما ، وقيل : من قائلتك . وهي صلاة الظهر ، ومن الليل : فسبح صلاة المغرب والعشاء ، وإدبار النجوم : صلاة الفجر ، قاله الضحاك ، وابن زيد .

وقيل : الركعتان قبل صلاة الفجر عن علي عليه السلام ، وقيل : التسبيح قول : سبحان الله وبحمده ، حين تقوم من نومك ، وقيل : حين تقوم إلى صلاتك ، قل : سبحانه اللهم وبحمده وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك . ﴿وإدبار النجوم﴾ إذا أدبرت للغروب ، أي : أدبر ما كان منها طالعا أول الليل ، والله أعلم .

قال الواحدي : إدبارها مغيبها بضوء الصبح .

سورة الذاريات

ستون آية مكية إجماعاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا﴾ قال الهادي إلى الحق عليه السلام : ﴿الذاريات﴾ هي الرياح التي تدرى ما تدرى من التراب وغيره مما تحمله الرياح وتذروه ﴿ذُرُوءًا﴾ فهو تأكيد لذروها ، وتعجب لأمرها ، وهو كقول الرجل : فلان يضرب ضرباً شديداً ، وفلان جرى جرياً .
 ﴿فَالْحَامِلَاتِ وُقُورًا﴾ فهن : السحاب تحمل مطراً يوقرها ، أي : يثقلها ، والوقر فهو ما فيهن من الماء ﴿فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا﴾ فقد قيل : إنهن السفن تجري في البحر جرياً ذا يسر ، أي : سهولة .
 ﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ فهي الملائكة التي تقسم رحمة الله بأمره وتسوق رزقه إلى خلقه من ماء السماء ، الذي به حياة جميع الأشياء ^(١) . اهـ

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٦٨ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الشهيد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا﴾ معناه : الرياح ﴿فَالْحَامِلَاتِ وُقُورًا﴾ معناه : السحاب ﴿فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا﴾ معناه : السفن ﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ يعني : الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَوْ يَخَذَلُونَ الْأَرْضَ كُلَّهَا جَرَرًا﴾ يعني : الحساب .

وقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه الصلاة والسلام : معناه ذات الطرائق ، ويقال : ذات الاستواء والحسن ، وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ الْأَرْضُ الْأَرْضَ الْوَحْدَى﴾ معناه : يدفع عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتُكْفَرُوا عَنْهُ﴾ معناه : الكنايون . وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ يعني : في شك .

وعن علي عليه السلام أنه قال وهو على المنبر : سلوني قبل ألا تسألوني ، ولن تسألوا بعدي مثلي ، فقال ابن الكواء فقال : ما الذاريات ؟ فقال : الرياح ، قال : فالحاملات وقرا ؟ قال : السحاب ، قال : فالجاريات يسرا ؟ قال : الفلك ، قال : فالمقسمات أمرا ؟ قال : الملائكة الذين يقسمون الأرزاق ^(١).

وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ معناه : يوم الجزاء والحساب .
 وقوله تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ معناه : يعذبون . وقوله تعالى ﴿تَأْخُذُ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ معناه : الفرائض .
 وقوله تعالى ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي : قبل أن تنزل الفرائض .
 وقوله تعالى ﴿فَلَيْلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معناه : ينامون . وقوله تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ معناه : يصلون .
 وقوله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : معناه السائل الذي يسأل بكفه ، والمحروم ، الذي لا يسأل الناس شيئا .
 وقوله تعالى ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : إلى خلقكم .
 وقوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : معناه المطر ﴿وَمَا تَوْعَدُونَ﴾ يوم القيامة من الثواب والعقاب .
 وقوله تعالى ﴿أَهْلَ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَلَفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : كان كرامتهم أنه قام بنفسه بخدمهم .
 وقوله تعالى ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ معناه : عدل إليهم ، وقوله تعالى ﴿يَجْعَلُ سُبْحَانَ﴾ معناه : مشوي .
 وقوله تعالى ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ معناه : أضمر خوفا .
 وقوله تعالى ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فُصِكَتْ وَجْهَهَا﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : ضربت بيدها على وجهها .
 وقوله تعالى ﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾﴾ معناه : لا تلد .
 وقوله تعالى ﴿فَمَا عَطْبِكُمْ﴾ معناه : فما أمركم . وقوله تعالى ﴿مَنْ طِينٍ مَسْمُومَةٍ﴾ معناه : معلقة .
 وقوله تعالى ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ معناه : بجانبه وتاحيته . وقوله تعالى ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ معناه : التي لا تلقح .
 وقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ معناه : بقوة .
 وقوله تعالى ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ معناه : بسطناها . والماهد : الباسط .
 وقوله تعالى ﴿وَأَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ معناه : تحاثروا عليه .
 وقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ معناه : إلا ليقرأوا بالوحدانية .
 وقوله تعالى ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ معناه : نصيبا ، وقال : سجيلا ، وقال : سيلا .
 (١) وذكر هذه الرواية عن أمير المؤمنين — الحاكم الجشعي في تفسيره ، ثم قال بعده : وعن ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد مثل ذلك .

وقال في البرهان : يعني الملائكة تنزل بما قسم الله عز وجل لخلقه من الفرائض والحدود والأحكام ، فحيريل : هو صاحب الوحي ، وميكائيل وكله الله عز وجل بالرحمة والمطر ، وعزرائيل وكله الله بقبض الأرواح ^(١) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا جواب قسم ما أقسم الله به من هذه الأشياء المتقدمة إعظاما لها ، أي : أقسم بالرياح فبالسحاب ، فبالفلك ، والفاء للتعقيب ، فأخبر أن وعده حق ، وأن قوله في ذلك كله صدق .

ومعنى ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ فهو : الجزاء ، والجزاء هو يكون في يوم الدين ، ويوم الدين فهو يوم حشر العالمين ، وفي ذلك (اليوم) يقع الدين ، [والدين فهو ما] ^(٢) ذكرنا أنه الجزاء للخلق على أفعالهم ، يجازى ويدان أهل المعاصي بعذاب النيران ، ويدان ويجازى أهل الإيمان بالثواب الكريم في الجنان ، ومعنى [قوله] ﴿لَوَاقِعٌ﴾ فهو : نازل بأهله ، حال مستأهله .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ الحبك : فهو الاستواء والانحباك ، والمنحبك من الأشياء : فهو المعتدل المستوي ، الذي لا اختلاف فيه ولا افتراق . اهـ

وقيل : الحبك الطرائق ، مثل حبك [الرمل و] الماء إذا ضربته الريح ، والدرع محبوكة ؛ لأن حلقها [مطرق] طرائق ، ويقال : إن خلقه السماء كذلك ^(٣) .

وفي التخرید عن الحسن : حبكها بنجومها ، والمعنى : أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى ^(٤) . اهـ

﴿ إِنكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ قيل : قولهم في الرسول صلوات الله عليه وآله وسلم تارة يقولون : إنه أمين ، وأخرى : إنه كاذب ، وكاهن ، وساحر ، وشاعر ، ومجنون ، قال الرازي :

(١) البرهان ٣٥٦ .

(٢) ما بين القوسين ساقط في المجموع .

(٣) ساقط من المصايح ، وثابت في المجموع .

(٤) ومثله في الكشف ٣٩٦/٤ ، وما بين القوسين منه .

(٥) وانظر الكشف أيضا ١٩٢/٤ .

وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا ؛ لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد يمين^(١) . اهـ

وقيل في القرآن : شعر ، سحر ، أساطير الأولين .

وقيل : منكم مصدق ومكذب ، ومقر ومنكر^(٢) .

وقال الهادي عليه السلام : يقول : إنكم لفي آراء ، وأقاول ومذاهب مختلفة ، لا يجتمعون على الحق ، ولا تقولون ما يجب^(٣) من كلمة الصدق ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنْ أَفْكَ﴾ فهو : يعجز عن قبول^(٤) حقه واتباع صدقه من عجز ، والعاجز هاهنا عن قبوله : فهو المكذب بما يسمع من قبله .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه يصرف عنه من صرف ، قال الشاعر :

إن تك عن حسن الصنيعة مأفوا
كأففي آخرين قد أفكوا
أي : صرفوا^(٥) .

(١) انظر الرازي ١٩٧/٢٨ .

(٢) القولين في الكشف ، ونسب القول الثاني إلى قتادة (الكشاف ٤٩٦/٤) .

(٣) في المصاييح (ما يجب) ، وفي مجموع الأئمة (ما يجب) . (المجموع ٤٦٨) .

(٤) في المصاييح (قبول) ، وفي مجموع تفسير الأئمة (قول) والصواب ما في نسخة المصاييح .

(٥) ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره : وما جاء فيه أيضا : تفسير غريب سورة الذاريات

﴿والذاريات﴾ هن الرياح . والحاملات وقرا : هو السحاب ، والوقر : هو الحمل الثقيل ، ومعنى ﴿والسماوات﴾ ذات الحيك^(١) أي : ذات الطرائق والطباق ، قال الشاعر :

مككل بأصول الثبت تنسخه
ريح الجنوب بصاح ما به حيك

وقال آخر :
تلف بناعم المتين جعدا
على الأرذاف كما حيك رداما

﴿يؤفك عنه من أفك﴾ هو : يصرف عنه من صرف ، قال الشاعر :

إن يك عن أحسن الصنيعة مأ
فوكأففي آخرين قد أفكوا

أي : صرفوا ﴿قتل الحراصون﴾ أي : لعن الذين يحرصون ويظنون ، يعني : بغير يقين يتوهمون ، قال الشاعر :

ولقد تعلم القبائل أنما
عصبة الجود غير ظن اخراض

وهذا الاخراض لا يجوز في دين الله ، وغير ذلك مما لا يحل وهو الذي لا يجوز من الظن فاعلم ذلك . ومعنى ﴿وفي﴾

غمرة سامعون ﴿أي﴾ : في جهل قد غمرهم فهم لاهون . ومعنى ﴿أيان يوم الدين﴾ أي : متى يوم الجزاء ، قال الشاعر :

أيان ندفع بالرماح عليهم يا صاح قبل مني وذهابي

أي : متى . ﴿على النار يفتنون﴾ أي : يعذبون . ومعنى ﴿قليلًا من الليل ما يهجعون﴾ أي : قليلًا ما يرقدون ، قال

الشاعر : سمعن صوتنا بعد ما نحن هجمة من الليل فاقولت بهن المضاجع

أي : نومة من الليل ، والمحروم : هو الذي لا يسأل أحدًا من الناس حياء وعفة . ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾

الآيات : العلامات والأمارات والدلالات ، والعرب تقول إذا أرسلت إلى بعض إخوانها : قل لفلان يفعل ذا وذا بآية

كذا وكذا ، أي : بعلامة كذا وكذا ، قال الشاعر : (بآية ما جئت لنا الخرامي)

وقال آخر : بآية ما أني مررت عليكم بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

﴿فراغ إلى أهله﴾ أي : انتقل عنهم ومال ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فالعجل : هو التبع من البقر ، ومعنى ﴿فأوحى منهم

خيفة﴾ أي : حصل على قلبه خوف ﴿في صرة﴾ أي : في صيحة ، وقيل : في جماعة نساء ، وكل ذلك يمكن . والله أعلم

ومعنى ﴿فصكت وجهها﴾ أي : وضعت يدها على وجهها تعجبًا وفكرًا ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي : عاقر . ومعنى

قوله : ﴿قال فما خطبكم﴾ أي : ما خبركم وما شأنكم ؟ ومعنى قوله : ﴿حجارة من طين﴾ أي : لون من الطين ،

وهي حجارة في القسوة ﴿مسومة﴾ أي : بسوم وعلامات ، قال الشاعر : جرداء صافية الأديم مسومة

ومعنى قوله : ﴿غير بيت من المسلمين﴾ البيت : هو القبيلة من القبائل ، قال الإمام المرتضى لدين الله بمدح أباه الهنادي

إلى الحق صلوات الله عليهما :

من آل محمد في غير بيت منيف سمكه فوق السحاب

﴿فتولى بركته﴾ أي : بجانبه معرضًا عن الحق . ومعنى ﴿وهو مليم﴾ أي : مذنب ، يعني فرعون ، قال الشاعر :

(ولكن المسميء هو المليم)

ومعنى ﴿الريح العقيم﴾ هي الريح التي لا تلقح شجرا ، ولا تسوق مطرا ، ولا تجلب خيرا ، وأصل العقيم : هو المنع ،

والعرب تقول : عقمنا الأرض من السيل ، أي : سدناها ومنعناها ، وكذلك هذه الريح مانعة للرخاء والحياة ، عاقمة

لذلك . ومعنى ﴿كالريم﴾ أي : كالعيان المنكسرة من العلف ، قال سيد العابدين عليه السلام :

فأضحوا ريمًا في الزاب وأقفرت مجالس منهم عطلت ومقاصد

﴿فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ يعني الصيحة التي حلت بهم . ومعنى ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون﴾ أي :

بقوة . والموسع : هو الغني ، ولم يرد سعة السماء في هذه الموضع ، ومعنى قوله : ﴿ففرّوا إلى الله﴾ أي : أهربوا إليه

والمتين في اللغة هو القوي ، قال الشاعر :

خطاطيف حجر في حبال متينة تمد بها أيدٍ إليك نوازع

﴿وإن للذين ظلموا ذنوبًا﴾ أي : نصيبًا ، قال الشاعر :

وفي كل حي قد حظيت بنعمة فحق لشناس من نذاك ذنوب

قال في الكشف : والضمير في ﴿عنه﴾ للقرآن أو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أي : يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا [صرف] أشد منه وأعظم ، كقوله : لا يهلك على الله إلا هالك^(١)... ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين ، أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شك ومنهم جاحد ، ثم قال : ﴿يؤفك﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك^(٢)

وعن زيد بن علي عليه السلام ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي : يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه ، وعنه أيضا ﴿يؤفك [عنه] من أفك﴾ أي : يدفع ويصرف الناس عنه من هو أفك ، أي : كذاب^(٣) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال الهادي عليه السلام : معناه : لعن الخراصون ، والخراصون : فهم الكذابون^(٤) المتقولون على أهل الحق

أي : نصيب . وقيل : إن الذنوب أيضا هو الدلو ، قال الشاعر :

أهرق لها من قرقر ذنوبا إن الذنوب ينفع الملقوبا
إني إذا نازعتني شريب فلي ذنوب وله ذنوب

(١) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : قوله : يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا أشد منه (الاتصاف) إنما دل النظم على هذا ؛ لأن قوله : ﴿يصرف عنه﴾ دال على من صرف ، فكأنك قلت : لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا ، وكل صرف دونه كلا صرف ، وقيل : يصرف عن القرآن من يثبت له الصرف الحقيقي ، وذلك من إطلاق صرف ، وجعله بمنزلة يعطي ويمنع ، وقلت : ولعل ذلك استفيد من الإبهام ، في قوله : ﴿من أفك﴾ فإن معناه : من أفك الإفك التام العظيم ، ولولا هذا التقدير لم يفد قوله : ﴿من أفك﴾ لأنه بمنزلة يضرب من ضرب ، إذا لم يحصل على المبالغة ، فإنه لا يفيد ، ومعنى (لا يهلك على الله إلا هالك) الملاك الكلي ، الذي لا هلاك فوقه . وقوله : (ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون) عطف على قوله : الضمير للقرآن . حاشية العلوي خ ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) في المصايح (عن الإقرار بيوم القيامة) وما أثبتناه هو ما في الكشف . انظر الكشف ٣٩٦/٤ ، وموضع النقط حذف من كلام الكشف لم يذكره المصنف ، وفي الكشف وجه آخر : وهو أن يرجع الضمير إلى ﴿قول مختلف﴾ وعن مثله في قوله : يهنون عن أكل وعن شرب ، أي : يتهاون في السمن بسبب الأكل والشرب ، وحقيقته يصدر تهايههم في السمن عنهما ، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف .

(٣) انظر تفسير الإمام زيد عليه السلام المطبوع ٣٠٣ ، ٣٠٥ والمخطوط ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

(٤) في المحرر (الكاذبون) . وما في المصايح هو الموافق للفظ الآية .

بالباطل ، الذين ينطقون فيهم بالمنكر ما ليس فيهم ، ويقولون بالمحال والكذب عليهم
وقيل : هو دعاء عليهم بالقتل ، ثم جرى مجرى لعن وقبح ^(١) .
﴿ في غمرة ﴾ أي : جهل يغمرهم ﴿ ساهون ﴾ أي : في غفلة ، ويجوز جهالة ، والمعنى :
أنهم معرضون غافلون عما يجب عليهم في تكذيبهم ، وعن ما هو نازل بهم من العقوبة
على كفرهم ، وقيل : ساهون عما أمروا به .

وقوله ﴿ ساهون ﴾ يحتمل أن يكون خيرا بعد خير ، والمبتدأ هو قوله ﴿ هم ﴾
وتقديره : هم كائنون في غمرة ساهون ، كما يقال : زيد جاهل جائز لا على قصد
وصف الجاهل بالجائز [بل الإخبار بالوصفين] عن زيد

ويحتمل أن يكون ﴿ ساهون ﴾ خيرا ، و ﴿ في غمرة ﴾ ظرف [له] ، كما يقال : زيد في
بيته قاعد ، يكون الخير هو القاعد لا غير ، وفي بيته لبيان ظرف [القعود] ، وكذلك ﴿ في
غمرة ﴾ لبيان ظرف السهو الذي يصح وصف [المعرفة بالجملة] ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ فيقولون : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ قال الهادي عليه السلام : هو
إخبار من الله عن قولهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون : أيان يوم الدين ، ومعنى ﴿ أيان ﴾
أي : متى يوم الدين ، وأي يوم يوم الدين الذي تصف يا محمد ؟ والدين : فهو الجزاء ،
فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ يريد : هذا اليوم الذي يسألون عن
وقته ، ويكذبون بك وبه هو يوم هم في النار يفتنون ، فقامت على مقام في ، ومعنى
﴿ يفتنون ﴾ فهو : يعذبون ، فأخبر ^(٣) الله بأن يوم الدين يوم عذابهم في النار وخزيهم ،
وحين ملاقاتهم لسوء فعلهم . اهـ

(١) وانظر الكشف أيضا ٣٩٧/٤ ، والحاكم الجشمي خ .

(٢) ومثل هذا الكلام في تفسير الرازي ١٩٨/٢٨ ، وقد صححنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه ، واللفظ فيه

(جائز) من الجواز

(٣) في المجموع (فأخبرهم) ٤٦٩ .

وجواب السؤال ﴿يَوْمَ هُمْ﴾ أي : يقع يوم هم^(١) ، وقرئ بالرفع ، أي : هو يوم هم^(٢) .
 قوله : ﴿ذُوقُوا فَتَنَّتْكُمْ﴾ في محل [النصب]^(٣) ، أي : مقولا هذا القول .
 ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا على وجه التكذيب ﴿هَذَا﴾ مبتدأ ،
 و﴿الذي﴾ خبره ، أي : هذا العذاب هو الذي كنتم به تستعجلون ، ويجوز أن يكون
 ﴿هَذَا﴾ بدلا من ﴿فَتَنَّتْكُمْ﴾ أي : ذوقوا هذا العذاب^(٤) .

ثم لما بين حال المغترين المجرمين — بين حال الحق المتقي فقال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
 جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الجنة : البستان ، والجنة : اسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على
 جنات كثيرة ، والعيون : الأنهار ، والمتقي : من يتقي المحارم مع قيامه بالطاعات ﴿آخِذِينَ
 مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي قابلين راضين بما أعطاهم في الجنة ؛ لأن جميعه حسن طيب ، يعني
 أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضي غير مسخوط .
 وقال زيد بن علي عليه السلام : ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ معناه : الفرائض ، ومثله في
 البرهان^(٥) .

وقيل : معنى ﴿آخِذِينَ﴾ أي : قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله
 لا متناع استيفاء ما لانهاية له^(٦) .

(١) وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم ، كذلك لم يجهم جواب عجيب معلم مبين حيث
 قال : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يَفْتَنُونَ﴾ وجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالأول ، والكلامان في صورة سؤال وجواب ،
 ولا الأول يريد به السؤال ، ولا الثاني يريد به الجواب ، فقد قابل استهزائهم بالإيعاد ، لا على وجه الإتيان بالبيان .

(٢) قال الزجاج : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ﴾ لفظه نصب ، ومعناه معنى الرفع ؛ لأنه مضاف إلى جملة ، تقول : أعجبتني
 يوم أنت قائم ، ويوم أنت تقوم .

(٣) في الأصل (في محل الرفع) والصواب في محل النصب على الحال كما ذكره الزمخشري ٣٩٧/٤ . أو أنه مقولا
 للقول المضمر .

(٤) وانظر الكشف ٣٩٧/٤ .

(٥) انظر تفسير الإمام زيد بن علي المتقدم ، والمطبوع ٣٠٤ ، وانظر البرهان خ ٣٥٦ .

(٦) صاحب القليل هو الرازي (انظر تفسير الرازي ٣٠٠/٢٨) .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ العطاء في الدنيا دار التكليف ، وقيل : قبل أن تنزل الفرائض ، وقيل : قبل دخولهم الجنات ^(١) ﴿مُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم .
ثم فسر الإحسان بقوله ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي : بعضا قليلا من الليل ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي : قليلا ما يرقدون ، قال الشاعر :

سمعن صوتا بعدما نمن هجعة
من الليل فاقولت بهن المضاجع
أي : نومة من الليل ، والمراد بذلك أنهم كانوا يصلون صلاة الليل ، و﴿مَا﴾ زائدة ،
أي : كانوا يهجعون قليلا من الليل ، ويجوز أن تكون [ما] مصدرية ، أو موصولة ^(٢)
والهجوع : النوم اليسير ، والهجوع أيضا : السهر ، فهو من الأضداد ، ومنهم من يقف
على ﴿قليلا﴾ ويتدنى ﴿من الليل ما يهجعون﴾ أي : كانوا قليلا من الناس ، ومثله في
البرهان ^(٣) .

(١) ذكر الحاكم الحشمي بأن الوجه الأول للحسن ، ولم ينسب الثاني إلى معين ، ونسب الوجه الثالث ، وهو قبل دخولهم الجنات إلى سعيد بن جبير .

(٢) قال السيد العلوي : (الانتصاف) جعلها مصدرية يوجب أن يكون قليلا واقعا على الهجوع ، لأنه فاعله ، وقوله : ﴿من الليل﴾ لا يكون صفة للليل ، ولا بيانا له ، ولا من صلة المصدر لتقدمه عليه ، ولا كذلك على أنها موصولة ، فإن قليلا حينئذ واقع على الليل ، كأنه قال : قليلا المقدار الذي كانوا يهجعونه من الليل ، فلا مانع أن يكون من الليل بيانا للليل ، وهذا أيضا ذكره الزجاج ، ومنع الزمخشري نصب قليلا يهجعون ، لأنه لا يتقدم معمول ما بعد النفي عليه ، قال في الانتصاف : ويفسده من حيث المعنى أن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى عنه وقت الهجوع ، ولم يرد به الشرع ، وقال الزجاج : المعنى كانوا يهجعون قليلا من الليل ، أي : ينامون قليلا منه ، وجائز أن تكون ما مؤكدة لغوا ، وجائز أن يكون ما بعدها مصدرا ، المعنى : قليلا من الهجوع هجوعهم ، وقال أبو البقاء : ﴿كانوا قليلا﴾ في خير كان وجهان : أحدهما ﴿ما يهجعون﴾ وفي ما على هذا وجهان ، أحدهما : أنها زائدة ، أي : كانوا يهجعون قليلا ، وقيل : نعت لظرف أو مصدر ، أي : زمنا قليلا ، وهجوعا قليلا ، والثاني : هي نافية ، ذكره بعض النحويين ، ورد لأن النفي لا يتقدم ما في خبره ، والثاني : أن قليلا خير كان ، وما مصدرية ، أي : كانوا قليلا هجوعهم ، كما تقول : كانوا يقل هجوعهم ، ويجوز على هذا أن ﴿ما يهجعون﴾ بدلا من اسم كان بدل الاشتمال ، و﴿من الليل﴾ لا يجوز أن يتعلق يهجعون على هذا لما فيه من تقديم معمول المصدر عليه ، وإنما هو منصوب على التبيين ، ومتعلق بفعل محذوف يفسره يهجعون .

(٣) انظر البرهان ٣٥٧ .

ثم قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: هم الإحصاء بتعقيب آخر ليطلبهم بالاستغفار، أي: يستغفرون من ذنوبهم، ويصلون في الأسحار، والسحر: آخر الليل، وفيه مبالغات، لفظ المجوع، وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ و﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ وقت السبات والراحة، وزيادة ما المؤكدة^(١) لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متلهذين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليالهم الجرائم، وكانوا يقدمون العمل الصالح أول الليل، ويدعون بعده آخر الليل لتفتح أبواب السماء للعمل فيستجاب الدعاء. وفيه فائدة أخرى، وهي أنه تعالى لما عطف ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة هم لصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلا ما يستغفرون، تقول: فلان [قليلا] ما يؤدي إلى الناس محسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء، قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلا ما يؤدي، وهو يحسن زال ذلك الفهم.

والاستغفار يحتمل وجوها أحدها: طلب المغفرة بالذكر بقولهم: ربنا اغفر لنا. الثاني: طلب المغفرة بالفعل، أي: بالأسحار يأتون بفعل آخر طلبا للغفران، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات.

الثالث: وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع إذا جاء وقت حصاده، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة، ويأتيهم أوان المغفرة^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيب قال في الرهان: يعني حق الله عز وجل، ثم ما تبرع الإنسان بعده ما يصل به رحما، أو يقري به ضيفا، أو يحمل به

(١) قال السيد العلوي: (الانتصاف) قال المصنف: وفي الآية مبالغات: لفظ المجوع، وهو القليل من النوم، وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ وقوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ ومعها زيادة ما المؤكدة، وفي الوجه الأخير نظر فإن ما تؤكد المجوع، وتحققه، إلا أنها تجعل في معنى القلة، الإنصاف: بل تؤكد ما سبقها، وهو قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ لأن المجوع قليل، ويحقق أنه قليل الطبع: الظاهر أنها تؤكد المضمون، لأن الإشارة بقوله لذلك، إلى جميع ما سبق مما يعطيه معنى المجوع من قلة النوم ولفظ قليل مما وضع له، وتخصيص ذكر الليل، من إرادة الراحة والقرار: القليل من النوم.

(٢) ومثل هذا المبحث في الرازي ٢٨/٢٠١ - ٢٠٥.

كَلَّا ، أو يعين به محروما^(١) .
 ﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل الناس ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل أحدا من الناس حياء وعفة فيحرم الصدقة لتعففه .

وقيل : الذي لا ينمو له مال ، وقيل : المحارف الذي لا يكتسب .
 والمعنى في ذلك : أن (ما لهم) ظرف لحقوقهم ، فإن كلمة (في) للظرفية ، لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف فكأنه تعالى قال : هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفا للحق ، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف [والظرف ما لهم ، فجعل ما لهم ظرفا] للحقوق ، ولا يكون فوق هذا مدح^(٢) .
 ثم قال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي : علامات ودلائل على الصانع ، وقدرته وعجيب تدبيره وحكمته ، في برها وبحرها وسهلها وجبلها ، واختلاف أشجارها وثمارها في اللون والريح والطعم ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والآيات : فهسي العلامات والأمارات ، والعرب تقول إذا أرسلت إلى إخوانها : قل لفلان يفعل ذا وذا بآية كذا وكذا ، أي : بعلامة كذا وكذا ، قال الشاعر : (بآية ما جنيت لنا الخزامى) وقال آخر :

بآية ما أني مررت عليكما بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل^(٣)
 وخص الموقنين لأنهم المنتفعون بها ، يعني : فيها عظات للمعتبرين من أهل الإسلام واليقين ، الموحدين النظر ، المرزبين في آيات الأرض الموصلة إلى اليقين ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وإيقانا إلى إيقانهم .

(١) انظر البرهان ٣٥٧ ، وقال بعد ذلك : وأما السائل : فهو الذي يسأل الناس ، والمحروم : المحارف الذي لا يكاد يتيسر له معيشته مع كثرة طلبه .

(٢) ومثل هذا بلفظه في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه . (الرازي ٢٨/٢٠٦) .

(٣) ومثل هذا عن الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (أنظر أول السورة) .

يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُتَعَلِّقًا بِأَفْعَالِ الْمُتَّقِينَ ، فَإِنَّهُمْ خَافُوا اللَّهَ فَعَظَمُوهُ وَأَظْهَرُوا الشَّفَقَةَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَكَانَ لَهُمْ آيَاتٌ فِي الْأَرْضِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، عَلَى إِصَابَتِهِمْ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ مِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْأَرْضِ الْآيَاتُ الْعَجِيبَةُ يَكُونُ لَهُ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ ، فَيَخْشَى وَيَتَّقَى ، وَمِنْ لَهُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ حُكْمٌ بِالْغَةِ [وَنَعَمْ سَابِغَةً] يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدَ ، وَيَتْرَكَ الْمَجُوعَ لِعِبَادَتِهِ ، وَإِذَا قَابَلَ الْعَبْدَ الْعِبَادَةَ بِالنِّعْمَةِ يَجِدُهَا دُونَ حَذِّ الشُّكْرِ فَيَسْتَغْفِرُ عَلَى التَّقْصِيرِ ^(١).

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى دَلِيلِ الْأَنْفُسِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فِي حَالِ ابْتِدَائِهَا ، وَتَنْقَلِبِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَفِي بَوَاطِنِهَا وَظَوَاهِرِهَا مِنْ عَجَائِبِ الْفِطْرِ ، وَبِدَائِعِ الْخَلْقِ وَالصُّورِ ، مَا تَحْجِرُ فِيهِ الْأَذْهَانُ ، وَحَسْبُكَ بِالْقُلُوبِ وَمَا رَكِزَ فِيهَا مِنَ الْعُقُولِ ، وَخَصَتْ بِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَعَانِي ، وَبِالْأَلْسِنِ وَالنُّطْقِ ، [وَإِخْتِلَافِ] مَخَارِجِ الْحُرُوفِ ، وَمَا فِي تَرْكِيبِهَا وَتَرْتِيبِهَا وَلَطَائِفِهَا مِنَ الْآيَاتِ السَّاطِعَةِ ، وَالْبَيِّنَاتِ الْقَاطِعَةِ عَلَى حِكْمَةِ الْمَدِيرِ ، دَعِ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَطْرَافِ وَسَائِرَ الْجَوَارِحِ ، وَتَأْتِيهَا لِمَا خَلَقَتْ لَهُ ، وَمَا سِوَى فِي الْأَعْضَاءِ مِنَ الْمَفَاصِلِ لِلانْعِطَافِ وَالتَّنَنِّي ^(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَقْرِيرٌ وَتَحْقِيقٌ لِمَا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لِلتَّعَامِي عَنْهَا إِشَارَةً إِلَى ظَهْوَرِهَا ، أَيْ : أَفَلَا تُبْصِرُونَ بَصَرَ اعْتِبَارٍ ، كَأَنَّكُمْ لَا بَصِيرَةَ لَكُمْ ، وَالبَصِيرُ نُورُ الْقَلْبِ . وَقَوْلُهُ : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ فِيهِ وَجُوهٌ ، أَحَدُهَا : فِي السَّحَابِ الْمَطَرِ ، ثَانِيهَا : فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ مَكْتُوبٌ ، ثَالِثُهَا : تَقْدِيرُ الْأَرْزَاقِ كُلِّهَا مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَاهُ لَمَا حَصَلَ فِي الْأَرْضِ حَبَّةٌ قُوتٍ ^(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قِيلَ : الْجَنَّةُ الْمَوْعُودُ بِهَا ؛ لِأَنَّهَا عَلَى ظَهْرِ السَّمَاءِ السَّابِغَةُ ^(٤)

(١) ومثله في الرازي ، من قوله : ويحتمل إلى هنا ، وقد جعله الرازي أحد وجهين ، اقتصر المصنف على أحدهما (الرازي ٢٨/٢٠٧)

(٢) ومثل هذا في الكشف ٣٩٩/٤ ، ٤٠٠ ، وما بين القوسين من المصاييح ، وغير موجود في الكشف . وفي الكشف زيادة في آخر الكلام (فإنه إذا جسا شئ منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فبارك الله أحسن الخالقين) .

(٣) مثل هذه الفقرة بلفظها في الرازي ٢٨/٢٠٨ .

(٤) صاحب القول هو الرازي (التفسير الكبير ٢٨/٢٠٨) والزنجشيري ٤/٤٠٠ . والقول الثاني في الكشف ، وغير موجود في الرازي . والثالث في الرازي ، وليس موجودا في الكشف ،

أو أراد بما ترزقونه في الدنيا ، وما توعدونه في العقبى ، وقيل : ما توعدون من خير أو شر ، وهو نفع أو ضرر ، ذكره في البلغة ، فيكون إيعادا عاماً ، أي : توعدون الجنة والنار ، وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار ، فيكون كأنه تعالى قال : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ كافية ، وأما أنتم أيها الكافرون ففي أنفسكم آيات هي أظهر الآيات ، وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة ، وفي السماء الأرزاق ، فلو نظرتم وتأملتكم حق التأمل لما تركتم الحق لأجل الرزق ، فإنه واصل بكل طريق ، ولا جنتبتم الباطل إبقاء لما توعدون من العذاب النازل من السماء .

[ثم] أقسم عز وجل على صدق ما وعد وعدد ، فقال تعالى : ﴿ قُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا قسم جوابه ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِقُونَ ﴾ أي : مثل نطقكم ^(١) كقول الناس : [أن هذا] لَحَقٌّ كما أنك ترى وتسمع .

قال في البرهان : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ يعني ما عدد عليهم من آياته في هذه السورة ، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ﴿ قاتل الله أقواما ^(٢) أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه ﴾

(١) قال الزعرري : قرئ مثل بالرفع صفة للحق ، أي : حق مثل نطقكم ، وبالنصب على أنه لَحَقٌّ حقا مثل نطقكم ، ويجوز أن يكون فتحا لإضافته إلى غير متمكن ، وما مزيدة بنص الخليل ، وهذا كقول الناس : إن هذا لَحَقٌّ كما أنك ترى وتسمع ، ومثل : ما إنك هاهنا . الكشاف ٤/ ٤٠٠ .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره : قال مسدد عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن البصري قال بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا " ورواه ابن جرير عن بNDAR عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن فذكره مرسلا .

وفي البرهان ص ٣٥٧ (قاتل الله قوما) ، ثم قال في البرهان : وكان قس بن ساعدة الأيادي يبنه بعقله على هذه العسير ، وهو في الجاهلية قد اعتظ واعتبر ، فروينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رأيته على جمل بعكاز ، وهو يقول : أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كما هم إلى نوم فناموا ، إن في السماء لخبيرا ، وإن في الأرض لعبرا ، أسقف مرفوع ! وليل موضوع ، ونجوم تحور ثم تغور ! أقسم قس ما أتم : إن الله تعالى ديننا هو أرضى من دين نحن عليه ، ثم تكلم بأبيات شعر :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر لما رأيت موارد للموت ليس لها مضاد

قال الهادي عليه السلام : يريد تعالى أن في السماء ومن السماء ينزل الماء ، الذي منه وبه حياة كل شئ ، وصلاح أرزاق كل شئ ، من الثمار والأشجار والزرع مما يأكله الأنعام ، وتعيش به سوائم الأنعام ﴿وما توعدون﴾ يخبر أن من السماء ينزل عليهم كل وعيد ، من العذاب الفادح الشديد ، المهلك العنيد .

ثم أقسم سبحانه أن كل ما ذكر وعدد لنا ، وآخر من البعث والحساب والثواب والعقاب ، وهبوط الأرزاق حق كما أنكم تنطقون حقاً لا شك فيه ^(١) . اهـ

وعن الأصمعي : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال : من الرجل ؟ قلت : من بني أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، قال : اتل علي ، فتلوت والذاريات ، فلما بلغت قوله : ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال : يا أصمعي هذا كلام الرحمن ؟ قلت : إي والذي بعث محمداً بالحق نبياً ، فقال لي : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولّى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف إليّ بصوت دقيق ، فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحلّ واصفراً ، فسلم علي ، واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : هل غير هذا ؟ فقرأت ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق﴾ فصاح وقال : يا سبحان الله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، فلم يصدقه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ، قالها ثلاثاً ، وخرجت معها نفسه ^(٢) .

ثم أشار سبحانه إلى تسليّة قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله فقال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ الاستفهام تفخييم للحديث ، وتنبية على أنه مما لم يعلمه الرسول ، إنما عرفه بالوحي .

ورأيت قومي نحوها بمضي الأكابر والأصاغر لا يرجع الماضي ولا أحد من الحدّثان عابر

أيقنت أنني لاعالة حيث صار القوم صائر

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٦٩ .

(٢) حكاية الأصمعي ذكرها الرعمشري في الكشف ٤٠٠/٤ .

قال في البرهان : كان عليه السلام يخدم ضيفه بنفسه ، وكان يسمى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد ^(١) .

ثم وصفهم بالمكرمين عند الله ، أو عند إبراهيم عليه السلام لأنه خدمهم ، وأخدمهم امرأته ، وعجل قراهم ^(٢) ، وكانوا اثني عشر ملكاً ، وقيل : تسعة عاشرهم جبريل عليه السلام ، وقيل : كانوا أربعة من الملائكة مع جبريل ^(٣) ، وإنما سماوا مكرمين ؛ لأنهم عند الله معظمين ، وسماهم ضيفا ؛ لأنهم في صورة الضيف ؛ ولأنه حسبهم ضيفا ، وهو يقال للواحد والجماعة ؛ لأنه في الأصل مصدر ضَافَهُ .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ متعلق ﴿إِذْ﴾ بالمكرمين ، أو بضيف إبراهيم ^(٤) أي : هم ضيفه حين دخلوا عليه .

قال الهادي عليه السلام : [ضيف إبراهيم] : هم للملائكة التي أرسلها الله إلى لوط نجيها [وأهله] ، وتهلك قومه الذين يعملون السيئات ، أتوا [إلى] إبراهيم بديا ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ سلموا عليه ، فرد عليهم السلام ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ ثم قال : ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي : لا نعرفكم من أهل دهرنا ، ونحن نكر حليتهم ، وصورتهم ^(٥) . اهـ . أي : عليكم سلام ، وسلامه خير من سلامهم ، لما في رفع ﴿سلام﴾ من الدلالة على ثبات السلام ؛ لأن الرفع يفيد الاستمرار في الأوقات ، والنصب يتوقت بوقت فعله الناصب له ، وهذا من إكرامه لهم في كل حال ، وفي هذا تنبيه على أن الرد يكون أحسن من الابتلاء ^(٦) .

(١) البرهان مخطوط ٣٥٧ ،

(٢) وزاد الزمخشري وجها رابعا : فقال : أو أنهم في أنفسهم مكرمون . قال الله تعالى : ﴿يَلْ عِبَادَ مَكْرَمُونَ﴾ .

(٣) هنا ، وفي البرهان : أنهم أربعة مع جبريل ، وفي بعض الأقوال أنهم ثلاثة ، جبريل ، وميكائيل ، وثالث معها .

(٤) تتعلق إذ بالمكرمين ، إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم ، وأما إذا فسر بإكرام الله لهم ، أو بكونهم مكرمين في أنفسهم فلا ينتصب به ؛ لأن إكرام الله لهم ، وكونهم مكرمين في أنفسهم ليس بمنقيد بوقت دخولهم حتى ينصبه ، كما يقيد إكرام إبراهيم به . (انظر حاشية العلوي ٢٩٣) .

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٦٩ ، وما بين أقواس الزيادة من المجموع .

(٦) وهذا بناء على القاعدة ، بأن العملية الاسمية تدل على الثبوت والدوام ، والجملة الفعلية تدل على الحدوث والتجدد والمراد بالابتداء هنا ، أي : ابتداء السلام .

ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: ذهب إليهم في خفية من أضيافه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره من الضيف لئلا يمنعه، وأن يعجل القرى، قال قتادة: وكان عامة مال نبي الله إبراهيم البقر.

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك: ﴿فَرَاغَ﴾ يقول: عطف إلى أهله ومنزله ﴿فَجَاءَ﴾ إلى القوم ﴿يَعْجَلُ سَمِينَ﴾ مشوي يطعمهم إياه ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ فوضعه بين أيديهم ليأكلوه، فلم يأكلوه ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ لما رأى صلى الله عليه وآله وسلم لا تصل إليه كما ذكر في غير هذه السورة ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ والخيفة: فهي الفرع، والمخافة، ومعنى ﴿أَوْجَسَ﴾ أحس منهم بالخيفة، وعلم عند ذلك أنهم ملائكة [أرسلوا للعذاب، وقيل: مسح جبريل العجل بجناحيه فقام يدرج إلى أمه، فلما فهموا منه الخوف] ^(١) ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ﴾ بإسحاق صلى الله عليه وآله وسلم فوهب [الله] له إسحاق بعد إسماعيل عليهما السلام نافلة، كما قال في غير هذه السورة. اهـ.

ومعنى ﴿عَلِيمٍ﴾ أي: يبلغ ويعلم، وهو إسحاق في أكثر الأقاويل وأصحها؛ لأن الصفة صفة امرأة إبراهيم سارة، أم إسحاق، لا صفة هاجر أم إسماعيل؛ لأنها جارية، ومثله في البرهان ^(٢). وعن مجاهد: هو إسماعيل.

ثم قالوا: ومن أدب البشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسره دفعة، فإنه يورث مرضا، يدل عليه أنهم لما جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام قالوا: نبشرك، ثم ذكروا أشرف النوعين، وهو الذكر، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة، واختاروا العلم، إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف، ورئيس النوعين ثم قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَةٍ﴾ قيل: أقبلت إلى بيتها، وكانت في زاوية

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٧٠، وما بين القوسين ليس من كلام الإمام الهادي، بل هو من كلام المؤلف. ولفظ

الجلالة ساقط من المصاييح، وثابت في المجموع. وفي المصاييح (كما كان في غير هذه السورة) وفي المجموع (كما قال

في غير هذه السورة).

(٢) الذي في البرهان: أن المرأة سارة، وأما بقية الكلام الموجود فليس في البرهان (انظر البرهان ٣٥٧). وفي الكشف

مثل هذا الكلام بتمامه مع اختلاف يسير (الكشاف ٤٠٢/٤).

تنظر إليهم ، لأنها وجدت حرارة دم الحيض .

قال الرازي ﴿فَأَقْبَلْتُ﴾ أي : على أهلها ، وذلك لأنها كانت في خدمتهم ، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحييت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة^(١) .

وفي التجريد : قال الفراء وابن قتيبة : لم تُقْبَلْ من موضع إلى موضع ، وإنما هو كقولك : أقبل يشتمني ، وأقبل يصيح ويتكلم^(٢) . قال في البرهان : والصرة : الرنة والتأوؤة^(٣) .

وقيل : معنى ﴿في صرة﴾ أي : في صيحة من صر القلم والباب ، أي تصيح كما جرت عادة النساء ، حيث يسمعن شيئا من أحوالهن ، يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء والتعجب ، وقيل : في جماعة نساء ، وكل ذلك ممكن والله أعلم .

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي : وضعت يدها على وجهها تعجبا وفكرا ، أنها تلد وهي عجوز عقيم ، فكيف ألد؟ قيل : بشرت ولها ثمان وتسعون سنة ، وإبراهيم مائة وعشرون ، واستبعدت لوصفين من اجتماعهما أحدهما : كبير السن ، والثاني : العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت وأبست فاستبعدت ، فكأنها قالت : يا ليتكم دعوتم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية ، كقول الداعي : الله يعطيك مالا ، ويرزقك ولدا^(٤) .

ثم ﴿قَالُوا﴾ ليس هذا منا بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك القول قلنا لك ﴿قَالَ﴾ الله ﴿رَبُّكَ﴾ أي : إنما نخبرك عن الله ، والله قادر فلا تستعدي ، ثم دفعوا استبعادها وعللوا صحة ذلك بقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يقول إلا ما هو صدق وحكمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكيفية استيلاد العقيم .

(١) الرازي ٢٨/٢١٤ . وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٢) وفي الكشف أيضا بمعناه ٤٠٢/٤ .

(٣) البرهان ٣٥٧ .

(٤) ومثل هذا في الرازي ٢٨/٢١٤ ، ٢١٥ ، وكذلك ما بعده مثله بمعناه .

روي أن جبريل عليه السلام قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مشمرة ^(١).

قال الرازي : فإن قيل : قال هاهنا ﴿الحكيم العليم﴾ وقال في هود ﴿حميد مجيد﴾ [قال] : نقول : لما بينا أن الحكاية هناك أبسط ، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم : ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم : ﴿حميد مجيد﴾ فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم ﴿مجيد﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي [الهمة لا يحمد له فعله الجليل وإنما يحمد له ويسبح له لنفسه] وهاهنا لما لم يقولوا : ﴿أتعجبين﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التبيينه على حكمه وعلمه ، وفيه فائدة ، وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد [يتعلق] بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله كما ينبغي لعلمه ، قاصداً لذلك الوجه ، بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا ، كمن ينقلب على جنبه [فيقتل حية] وهو نائم ، فإنه لا يقال له : حكيم ، وأما إذا فعل [فعلا] قاصدا لقتلها بحيث يسلم لسعها يقال له : حكيم فيه ، والعليم : راجع إلى الذات ، إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده ، وإن لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد ^(٢).

ثم قال تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام : ﴿قال فما خطبكم﴾ أي : ما خيركم وشأنكم ؟ لما علم أنهم ملائكة لا ينزلون إلا بإذن الله لأمر عظيم ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ إلى قوم لوط .

ثم بين ما لأجله أرسلوا بقوله : ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ يريد : السجيل ، وهي طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى عاد في صلابة الحجارة ﴿مسومة عند ربك﴾

(١) ذكر هذه الرواية أيضا الزمخشري ٤/٢٠٤.

(٢) انظر الرازي ٢٨/٢١٥ ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه ، وفي نسخة من الرازي لفعله الجليل ، ونسخة أخرى (لفعله الجميل) .

لِلْمُسْرِفِينَ ﴿١﴾ معنى ﴿مُسْرِفٌ﴾ أي : فيها سوم وعلامات ، قيل : على كل واحد منها اسم من يهلك به ، وقيل : أعلمت أنها من حجارة العذاب ، وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا ، وقوله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي للزائدين في القبح لتعديهم إلى نكاح الذكور ، وسماهم مسرفين كما سماهم عادين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم حيث لم يقتنعوا بما أبيع لهم ^(١) . ولذلك قال سبحانه في معصيتهم ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

ثم قال سبحانه : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : هم لوط وابنتاه ، وقيل : لوط عليه السلام وأهل بيته [الذين نجوا] ثلاثة عشر ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو بيت لوط ، والتقدير : غير أهل بيت ، والضمير [في] ﴿فِيهَا﴾ للقرية ، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد ، وأنهما صفتا مدح ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي : قريتهم ﴿آيَةً﴾ من علامة وعبرة ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي : عبرة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم ، قيل : المترك فيها ماء أسود منتن ، انشقت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل : صخر منضود فيها ^(٣) ، وقيل : حجارة مرمية في ديارهم ، وهي بين الشام والحجاز ، وأما كان فالمعنى : أنا تركنا عبرة بآثفأكها .

ثم قال تعالى : ﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ [آيات] ﴿أَوْ عَلَى﴾ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ آية ﴿فَكَانَ قِيلَ﴾ : وفي الأرض آيات للموقنين ، ثم قال : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فإنه من آياته ، ثم قال : ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ﴾ ^(٤) .

(١) إلى هنا مثله في الكشف ٤/٤٠٢ .

(٢) ومثل هذا في الكشف بتقديم وتأخير ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه . (الكشف ٤/٤٠٢)

(٣) القائل : هو ابن جريج . (الكشف ٤/٤٠٣) .

(٤) ذكر هذين الوجهين أيضا الزمخشري ، ويكون الثاني على طريقة : علقتها تبتا وماء باردا ، وقد ذكر الرازي أوجهها كثيرة فقال : ﴿وَفِي مُوسَى﴾ يحتمل أن يكون عطفا على معلوم ، ويحتمل أن يكون عطفا على مذكور ، أما

دليل من المعجزات ﴿مُبِينٍ﴾ بين واضح لاشك فيه ، في إعجازه يحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين ، ويحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون .

ثم قال عز وجل : ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ أي : بجانبه معرضا عن الحق ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي : موسى ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي حول وجهه ، وثنى شقه وجانبه ، ملتفتا عن موسى ، معرضا عما جاء به من الهدى ، ناسبا ما جاء به موسى إلى السحر والجنون ، وهذا شيء يفعله الجبابرة المتكبرون ، والفراعة الطاغون ، فإذا سمعوا ما لا يحبون ، أو واجهوا ما لا يريدون صدوا بأحد جانبهم ، وثنوا وجوههم مع مناكبهم منحرفين عن يقاربهم ^(١) . اهـ

وقيل : معنى ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي : بقوته ، قال عنزة :

فما أوهى مراس الحرب ركني ولكن ما تقدم من عهودي

ثم قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ [قال الإمام الهادي عليه السلام] أي : أوقفناه ﴿وَجَسَدَهُ قَبْضَنَا هُمْ﴾ أي : رميناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ واليم : فهو البحر المالح الأعظم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

الأول ففيه وجوه ، الأول : أن يكون المراد : ذلك في إبراهيم وفي موسى ، لأن من ذكر إبراهيم يعلم ذلك . الثاني : لقومك في لوط وقومه عبرة ، وفي موسى وفرعون ، الثالث : أن يكون هناك معنى قوله تعالى : تفكروا في إبراهيم ولوط وقومهما ، وفي موسى وفرعون ، والكل قريب بعضه من بعض .

وأما الثاني ففيه أيضا وجوه ، أحدها : أنه عطف على قوله : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾ وهو بعيد لبعده في الذكر ، ولعدم المناسبة بينهما . ثانيها : أنه عطف على قوله : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾ أي : وجعلنا في موسى ، على طريقة قولهم : علقتهما تبنا وماء باردا ، وتقلدت سيفا ورعما ، وهو أقرب ، ولا يخلو من تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين : إن الضمير في قوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ عائد إلى القرية ، ثالثها : أن نقول : فيها راجع إلى الحكاية ، فيكون التقدير وتركنا في حكايتهم آية ، أو في قصتهم . فيكون ، وفي قصة موسى آية وهو قريب من الاحتمال الأول ، وهو العطف على معلوم ، رابعها : أن يكون عطفا على ﴿هَلْ أُنَاكَ﴾ حديث ضيف إبراهيم وتقديره : وفي موسى حديث إذ أرسلناه ، وهو مناسب إذ جمع الله كثيرا من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام . (الرازي ٢٢٠/٢٨) .

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧٠ .

أي : بما يلام عليه من كفره مستوجب للعقوبة بفعله^(١) مستدع لدواعي اللائمة إلى نفسه، فاعل لكل ما يلام به .

واللائمة هنا : فهو الذنب الذي عوقب عليه ، ولامه الله فيه ، وقد قيل : إن المليم هو الصامت المتحير الهائب ، يرى من الأمر ما قد بهته وأفرعه ، والقول الأول أحبهما إلي وأصحهما عندي ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام .

ثم قال تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ﴾ وهم قوم هود ، يقول [الهادي عليه السلام] : وفي عاد آية وعبرة وتذكرة لمن أراد التذكرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ أي : حين أرسلنا ﴿عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ والريخ العقيم : فهي ريح العذاب الشديد الأليم ، الذي لا فسحة معها ، ولا فرج فيها ، ولا تنفيس لمن استوجبها ، فلما لم يكن فيها راحة ولا تخفيف ساعة واحدة قيل : هي عقيم من الفرج والراحة ، أي : لا فرج فيها كما يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيمة ، وهما اللذان لا يلدان ، ولا يكون منهما ولد ، فكذلك هذه الريح الشديدة العظيمة التي لا راحة فيها ، ولا يكون منها سكون طرفة عين لأهلها^(٢) حتى تدمر كلما أتت عليه .

فإن قيل : قد ذكرت أن المقصود هاهنا تسليية قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتذكيره بحال الأنبياء ، فلم [لم] يذكر في عاد وثمود أنبياءهم كما ذكر إبراهيم وموسى ؟ قيل له : في ذكر الآيات ست حكايات : حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته ، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين ، وحكاية موسى [عليه السلام] ، وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين ؛ لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين ، أما في حق موسى وإبراهيم عليهما السلام فظاهر ، وأما في قوم لوط فلأن الناجين وإن كانوا أهل بيت واحد لكن المهلكين أيضا كانوا أهل بقعة واحدة ، وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى

(١) في المصاييح (من فعله) ، وفي مجموع تفسير الأئمة (بفعله) ، وهذه الفقرة إلى قوله : ﴿بما يلام به﴾ من المجموع ٤٧٠ .

(٢) في المجموع (عن أهلها) المجموع ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وقال الرعمشري في الكشاف ٤/٤٠٣ : ﴿العقيم﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر ، وهي ريح الهلاك ، واختلف فيها ، فمن علي رضي الله عنه : النكباء ، وعن ابن عباس : الدبور ، وعن ابن المسيب : الجنوب .

الناجين أضعاف عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام ، فذكر الحكايات الثلاث الأولى للتسلية بالنجاة ، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك العدو ، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ إلى أن قال : ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾^(١) وفي هود قال بعد الحكايات : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ إلى أن قال : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾^(٢) فذكر بعدها ما يؤكد التهديد ، وذكر [بعد] الحكايات هاهنا ما يفيد التسلي^(٣) ثم قال عز وجل : ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي : جرت عليه في مرورها ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ كل ما رم أي : بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك ، قال الشاعر :

تركنتي حين كف الدهر عن بصري وإذ بقيت كعظم الرمة البالي
وأحسن من قول الشاعر قول زين العابدين عليه السلام :

فأضحوا رميما في التراب وأقفرنا مجالس منهم عطلت ومقاصر^(٤)
قال الهادي عليه السلام : يقول تعالى : ضربته وطحنته وأبادته حتى تركته مثل الرميم ، والرميم : فهو الحشيش البالي القديم العهد بالحياة ، الذي قد بلي فاسود ، وفني فلم يبق فيه إلا فتات لا منفعة فيه .

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح ، يقول : كذلك آية وعبرة^(٥) . اهـ

(١) الذاريات : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) هود : ١٠٠ ، ١٠٢ .

(٣) ومثل هذا في الرازي ٢٨/٢٢١ ، ٢٢٢ . وفي نسخة من المصاييح (وذكر بعد الحكايات ما يؤكد هاهنا ، مما يفيد التسلي) .

(٤) هذا البيت ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره (أنظره أول السورة) ، والبيت السابق : ذكره الإمام أبو الفتح الديلمي في البرهان خ ص ٣٥٨ .

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧١ .

ومعنى ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي : حين قيل لهم : ﴿تَمَتَّعُوا﴾ انتفعوا ببقية عيشكم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تهديد لهم ، قيل : تفسيره قوله : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ بعد قتلهم الناقة ، وكانت في تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفر وجوههم وتسود ، قيل — وهو ضعيف — لأن قوله تعالى : ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بخرف الفاء دليل على أن الفتو كان بعد قوله : ﴿تَمَتَّعُوا﴾ فإذا الظاهر أن المراد تمتعوا في الدنيا إلى وقت انقضاء آجالكم ^(١).

والمقول لهم ما حكاه الله سبحانه ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ إلى قوله : ﴿وَزَرَعُوا نَخْلًا طَلَعَهَا هُضِيمٌ﴾ ^(٢).

ومعنى ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ استكبروا عن امتثاله فعصوا أمره ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني : الصيحة التي حلت بهم . والصاعقة : النازلة نفسها ، قيل : صيحة جبريل عليه السلام .

(١) ومثل هذه الفقرة إلى هنا في الرازي باختلاف يسير (انظر الرازي ٢٢٣/٢٨ ، ٢٢٤).

(٢) لا يوجد في القرآن في سورة واحدة هذا النص المكتوب في المصاييح ، وذلك لأن الآية الأولى ، وهي قوله : ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هي الآية رقم (٦١) من سورة هود ، وليس بعدها ﴿وَزَرَعُوا نَخْلًا طَلَعَهَا هُضِيمٌ﴾ وإنما هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿وَزَرَعُوا﴾ الخ من سورة الشعراء ، والنص في سورة الشعراء هو : ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعوني (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون في ما هاهنا آمنين (١٤٦) في جنات وعمود (١٤٧) ووزروع ونخل طلعها هضيم . وكان في أصل المصاييح (وزرع) وهو في القرآن بلفظ الجمع .

أما النص في سورة هود فهو : ﴿وإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَوْبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ قَرِيبٌ مَجِيبٌ﴾ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَذِكْرٌ لَكُمْ يَوْمَ تَأْكُلُ فِيهَا مِنْهُ مَكْدُوبٌ﴾ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٦٧) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَّا يَعْبُدُوا لِمُؤَدِّهِمْ فَظَاهَرَهُمُ الْمَوْلُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ خَلَطَ بَيْنَ السَّوَرَتَيْنِ ، فَأَخَذَ آيَةً مِنْ هُودَ ، وَآيَةً مِنَ الشُّعْرَاءِ .

وقال في التجريد : يعني العذاب ، والصاعقة : كل عذاب مهلك ، وقيل : الصاعقة الموت عن ابن عباس
 وقوله : ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إشارة إلى أنها كانت نهارا وهم يعاينون ، أو إشارة إلى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع ، كما يقول القائل للمضروب : يضربك فلان وأنت تنظر ، إشارة إلى أنه لا يدفع^(١) . وقيل : ﴿يَنْظُرُونَ﴾ بمعنى : ينتظرون العذاب ؛ لأنهم قد وعدوا به بعد ثلاثة أيام .

ثم قال تعالى : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ على أقدامهم بل جثموا في الأرض كقوله : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٢) وقيل : من قولهم : ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ، أي : فما قدروا على دفع العذاب عن أنفسهم ﴿وَمَا كَانُوا مُتَتَّبِعِينَ﴾ أي : ممتنعين من العذاب .
 ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ﴾ بالنصب ، أي : أهلكتنا قوم نوح ؛ لأن ما قبله يدل عليه^(٣) ، أو واذكر قوم نوح ،
 [أو هو عطف على الضمير في ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾] وقرئ بالجر ، أي : وفي قوم نوح آية^(٤) . ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي : قبل المذكورين ، والمعنى : وفي قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي : خارجين متوغلين في الكفر .
 ثم رجع بعد التهديد إلى إقامة الدليل فقال سبحانه : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ لِأَنَّا بَنَاءُ السَّمَاءِ دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ الْأَجْسَامِ ثَانِيَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾^(٥) .

ومعنى ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ قال الهادي عليه السلام : فهو جعلناها وخلقناها وقدرناها سقفا عليكم ، ودبرناها ، ومعنى ﴿بِأَيْدٍ﴾ فهو بقوة وإقتدار ﴿وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقول : إنا لها لمعظمون

(١) ومثل هذا إلى هنا في الرازي بتقديم وتأخير واختلاف يسير (الرازي ٢٨/٢٢٤) .

(٢) هود : ٦٧ ، هود : ٩٤ ، والآية في نسخة المصاحب (أصبحوا في ديارهم) وهي في المصحف بلفظ ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ .

(٣) أي : ما تقدم من ذكر الهلاك دل على أن المحذوف هنا أهلكتنا .

(٤) ويشكل عليه أنهم لم يهلكوا بالصاعقة ، وإنما بالفرق .

(٥) أي : أنه عطف على ما تقدم وهو قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ﴾ ﴿وَفِي مُوسَى﴾ .

(٦) يس : ٨١ .

موسعون ، فهي واسعة عظيمة ، طبق على طبق غير ناقصة ولا صغيرة .
ثم قال تعالى استدلالاً بالأرض ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ يقول : بسطناها لكم ومهدناها
فصارت لكم بتقديرنا فراشاً ولأحيائكم وأمواتكم برحمتنا كفاتاً ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾
أي : نعم نحن الماهدون ماهدوها ، أي : الباسطون المسوون الموطئون لصعبها ،
المسهلون لسهلها ، والمهد : ما يهد أي يفرش ليضطجع عليه ^(١) .

ثم قال تعالى استدلالاً بما بينهما ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : من كل الحيوان ﴿خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ﴾ قال [الإمام الهادي إلى الحق] ^(٢) عليه السلام : يريد سبحانه أنا خلقنا من كل
صنف ذكراً وأنثى ، ثم خلقنا منهما نسل ذلك الصنف ، فأخبر سبحانه بأصل التناسل ،
وأنه من الزوجين ، والزوجان فهو الزوج والزوجة المتزاوجان ، وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
يقول : لعلكم تفكرون في قدرة من جعل ذلك ودبره كذلك ، حتى توالد كل صنف ذكر
وأنثى ، فتعلمون أن الذي دبر ذلك في الابتداء قادر سبحانه على أن يحيي الموتى . اهـ

وفي الكشف : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء ، وفرش
الأرض ، وخلق الأزواج ، إرادة أن تذكروا فتعرفوا الخالق وتعبده ^(٣) .
ثم قال ﴿فَفِرُوا﴾ أي : قل لهم يا محمد ﴿فَفِرُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي : اهربوا إليه وإلى
طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ، ووحده ولا تشركوا به .

وقوله ﴿فَفِرُوا﴾ يبنى عن سرعة الهلاك ، كأنه يقول : العذاب والهلاك أسرع وأقرب
من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع ، فافزعوا إلى الله سريعاً ^(٤) .
﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ للإنتذار ، وموضح ومصدق بالمعجزات ، وهو تعليل لما قبله .

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧١ .

(٢) في المصايح قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، ولما لم يكن هذا الكلام موجوداً في تفسير الإمام الحسين بن
القاسم عليه السلام ، وهو موجود في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام عن الإمام الهادي ، استحسنا تصويب العبارة ،
فليعلم ، وانظر المجموع ص ٤٧١ . وتفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة .

(٣) الكشف : ٤/٤٠٤ . وما بين القوسين منه .

(٤) وفي الرازي : (فافزعوا إلى الله سريعاً وفروا) (الرازي ٢٨/٢٢٨) .

ثم نهى سبحانه عن الشرك فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إنما كرر ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ عند الأمر بالطاعة ، والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما ، ألا ترى إلى قوله: ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾^(١) .

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي : أمر الذين من قبلهم مثل ذلك ، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وتسميته ساحرا ومجنونا .

ثم فسر ما أجمل بقوله: ﴿فَمَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي : قريش ﴿مِنْ رَسُولٍ إِلَّا سَاءُ مَا سَاحَرُوا أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الضمير للقول ، يعني : أتواصى الأولون والآخرين من الكفرة بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه^(٢) ، ومعناه : التعجب ، أي : كيف اتفقوا على قول واحد ، كأنهم تواطؤوا عليه ، وقال بعض لبعض : لا تقولوا إلا هذا . ثم قال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ﴾ كلهم ﴿قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ زائدون في الظلم ، أي : لم يتواصوا به ؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ، بل جمعهم العلة الواحدة ، وهي الطغيان ، والطغيان هو الحامل عليه .

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا ، وعرفت منهم العناد واللجاج ، وأيست من إجابتهم إلى الإيمان .

﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ في إعراضك بعد أن بذلت الجهد ، ولا تدع التذكير والموعظة ، وأعرض عن أذاهم ، واصبر على بلائهم ، وقيل : إنه بمعنى ترك الإنذار ، فتكون منسوخة ، واختلفوا فقليل : ناسخها ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ﴾ وقيل : آية السيف ، وليس

(١) الأنعام : ١٥٨ .

(٢) هذا تفسير للضمير في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ أي : قبل قريش .

(٣) إلى هنا مثل ما تقدم في الكشف بلفظ قريب مع تقديم وتأخير . وما بعده مثله في الرازي بتصرف . وفي الرازي :

ومعناه : التعجب ، وفي المصاييح : التعجب . (انظر الكشف ٤/٤٠٥) والرازي ٢٨/٢٣٠ .

هذا بالوجه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير ويقول : إن عدم إيمانهم لتقصيري في التبليغ ، فيجتهد في الإنذار والتبليغ ، فقال تعالى : قد أتيت بما عليك ولا يضرك التولي عنهم ، وكفرهم ليس لتقصير منك ، فلا تحزن فإنك لست بمعلوم بسبب التقصير ، وإنما هم ملامون بالإعراض والعناد^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني : ليس التولي مطلقا ، بل قل وأقبل وأعرض وادع ، فلا التولي يضرك إذا كان عنهم ، ولأن التذكير ينفع إذا كان مع المؤمنين .

وروي أنها لما نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ حزن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واشتد ذلك على أصحابه ، ورأوا أن الوحي قد انقطع ، وأن العذاب قد حضر ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَذَكَرْ﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة بآيات الله فسكنت قلوبهم^(٢) .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿وَذَكَرْ﴾ يعني أقصى غاية التذكير ، بين سبحانه أن الخلق ليس إلا للعبادة ، فقال عز وجل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فالمقصود من الإيجاد هو العبادة ، فذكرهم به ، ودلت الآية على أنه تعالى يريد الطاعة من كل عباده ، ولا يريد المعصية له ، والكفر به من أحد .

فإن قالت المجبرة : لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا ؟

قلنا : إنما أراد سبحانه منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ؛ لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم ، والمعنى على قولنا : إن الله خلقهم لينعم إليهم ، وفي هذا أنه لم يخلقهم ليعينوه في أمر ، ولا يكفوه مهما ، كما هو شأن السادة مع عبيدهم ، وإنما خلقهم ليتفرغوا لعبادته ، وإنما أمرهم بعبادته ، وأكمل عقولهم ليصلوا بها إلى الثواب الذي هو الغرض الأصلي بخلقهم^(٣) .

(١) من قوله : لأن النبي .. إلى قوله : إذا كان مع المؤمنين . مثله في الرازي باختلاف يسير ٢٨/٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) انظر الكشاف ٤/٤٠٥ .

(٣) انظر الكشاف ٤/٤٠٦ .

واعلم أن شغل الأنبياء صلوات الله عليهم وأئمة الهدى عليهم السلام منحصر في أمرين : عبادة الله ، وهداية الخلق .

وقوله تعالى : ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة ، وذلك لأن الفاعل في العرف لا بد له من منفعة ، والمعنى : ليس شأنني مع عبادي كشأن السادة مع عبيدهم يصرفونهم في أنواع المهن لتحصيل أرزاقهم والمعيشة ؛ لأنني غني فلا آمرهم إلا بما يسعدهم في أخراهم ، وأنا ضامن لهم رزق دنياهم . وقيل : المراد ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ﴿وما أريد أن يطعموا﴾ أي : يطعموا خلقي ، فهو على تقدير مضاف ، وإنما أسند الطعام إلى نفسه ؛ لأن الخلق عيال الله ، ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة : (يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني) أي : لم تطعم عبيدي .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : هذه شهادة من الله ، وقول بالحق ، وإخبار من فعله بالصدق ، وأنه لم يخلق خلقا إلا لطاعته ، والعمل بمرضاته ، لا ما يقول الكفرة الفاسقون ، الجورة المجترون : من أنه خلق فريقا للمعصية وفريقا للطاعة ، فأكذبهم الله تبارك وتعالى بما ذكر في هذه الآية . ثم أخبر أنه لم يخلقهم ليرزقوه ، ولا ليطعموه ، وإنما هذا على المثل تبارك وتعالى عن الأكل والشرب والحاجة إلى الرزق ، الذي ليس كمثله شيء ، ولا يشبهه شيء ، وهو على خلاف كل شيء ، وهو السميع العليم .

ثم أخبر أنه الرازق غير المرزوق ، الذي لا يحتاج إلى المخلوقين ، وهم إليه محتاجون ، وإلى رزقه وفضله مضطرون فقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ يقول : ذو القوة والسطوة ﴿المتين﴾ فهو : العظيم المحال الشديد النكال ^(١) . اهـ

والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء .

ثم لما ثبت أن الإنسان مخلوق للعبادة — بين سبحانه أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالما فقال عز وجل : ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴿١﴾ من القرون الماضية ، وعيد لأهل مكة على ظلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتكذيبه ، والمعنى : أن لهم نصيب نظرائهم من الماضين المكذبين لرسولهم .

قال الهادي عليه السلام : يقول الله : لهم سجال من العذاب واقع بهم (كما وقع بأصحابهم ممن عمل كعملهم ، وظلم كظلمهم ، والذنوب : فهي السجال والنصيب والدول عليهم من العذاب كما دال على إخوانهم الأولين ، فينزل بالآخرين من العذاب نصيبهم كما نزل بالأولين ، والذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل أصله في السقاة يقتسمون الماء بها) ^(١) قال الشاعر :

لنا ذُنُوبٌ ولكم ذُنُوبٌ فإن أبيتُم فلنا القليبُ

يقول : لنا جزء ولكم جزء ، ولنا دلو ولكم دلو ، فإن أبيتُم أن نستقي وتستقوا طردناكم عن القليب وأخذناه كله ، والقليب : فهو البير العادية . اهـ .
﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ في إنزاله عليهم ، فإنه آت ، وكل آت قريب ، وكان أهل مكة يستعجلون بالعذاب تكديبا واستهزاء .

ثم أعاد ما ذكر في أول السورة ، وقال : ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي : هلاك ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة ، أو يوم بدر .

والحمد لله رب العالمين

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام (٤٧٢) وما بين القوسين ساقط من نسخة المجموع التي بأيدينا ، وثابت في المصايح .

سورة ق

أربعون آية وخمس آيات (مكية إجماعاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ إن جعل اسماً للسورة فالتقدير : هذه السورة التي أعجزت العرب ، ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ قسم جوابه محذوف ، أي : لتبعن .
والمجيد : فهو ذو المجد والشرف على غيره من الكتب .

وإن جعل تعديداً للحروف للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن ، فالقرآن قسم أيضاً ، ولا يحتاج إلى تقدير محذوف قبل ق ، وقد قيل : إن مثل هذه الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه فلا يفوته شيء من الكلام الرائق ، والمعنى الفائق .

و﴿ق﴾ قيل : هو جبل محيط بالأرض كلها ، هذا قول جماعة من المفسرين ذكره في التجريد^(١) .

(١) وانظر البرهان ٣٥٣ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليها السلام

قال : أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن ابن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ق﴾ معناه : اسم من أسماء القرآن ويقال : فواتح يفتح الله بها .

وقوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ معناه : رد بعيد . وقوله تعالى : ﴿ق﴾ أي أمر مريج معناه : مختلط ، ويقال : الشيء المتغير . وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ معناه : من فتوق . وقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ معناه : بسطناها . وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ معناه : طوال . وقوله تعالى : ﴿طُلُعَ نَضِيدٌ﴾ أي : منضود .

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ معناه: يوم القيامة .
 وقوله تعالى: ﴿يَبْلُغُهُمْ فِي لَيْسَ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ معناه: من إحيائهم بعد الموت .
 وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حِيلِ الْوَرِيدِ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه الصلاة والسلام:
 فالخيل: حيل العاتق، والوريد: العرق الذي في الخلق .
 وقوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ معناه: فكاتب الحسنات عن اليمين، والسيئات عن الشمال .
 وقوله تعالى: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ معناه: حافظ، عتيد: أي: حاضر .
 وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تعدل عنه .
 وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه الصلاة والسلام:
 فالسائق: الذي يسوقها إلى أمر الله تعالى، والشهيد: الذي يشهد عليها بما عملت .
 وقوله تعالى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ معناه: قربت .
 وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه الصلاة والسلام:
 إن الرجل يسكن في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه، وتنظر في وجهه فخذها
 أضوا من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه، فيرد عليها السلام، ويسألها من
 أنت، فتقول: أنا من المزيدي، ويكون عليها سبعون ثوبا أداها مثل شقائق النعمان من طوبى، ينفذها بصره حتى
 يرى مخ ساقها من رواء ذلك . وإن عليها لتيحانا أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب .
 وقوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ معناه: تباعدوا فيه . وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ مِجْصٍ﴾ أي: هل من معدل .
 وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: عقل . وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ معناه: استمع .
 وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ معناه: صل .
 وقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ معناه: ركعتان بعد المغرب ﴿وَأَدْبَارَ النُّجُومِ﴾ الركعتان قبل صلاة الفجر .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: تفسير غريب سورة ق

تأويل قوله: ﴿ق﴾ قسم ﴿المجيد﴾ هو الجيد الرفيع الكريم، قال الشاعر: سهل الخليفة ما جد الأصل .
 وقال آخر: تخبرك عني أن شيعتي المجد
 ومعنى ﴿رجع بعيد﴾ أي: مرجع غير ممكن عندهم، لما هم عليه من كفرهم وجهلهم .
 ومعنى ﴿فهم في أمر مريب﴾ أي: ملتبس . ومعنى ﴿مالها من فروج﴾ أي: من صدوع ومعنى ﴿من كل زوج بهيج﴾ أي: من كل صنف مليح جميل، قال الشاعر:
 فتلك شبيه الماهي إذ طلعت
 يبهجتها من الخدر

أي : بجملها وحسنها . ومعنى ﴿تبصرة﴾ أي : تبصيرا وتذكيرا ﴿كل عبد منيب﴾ والنيب : هو الراجع إلى الحق ،
والإنابة : هي الرجعة ، قال الحسين بن علي صلوات الله عليهما :

فبادر بالإنابة قبل موت على ما فيك من هضم الجناح

ومعنى ﴿وحب الحصيد﴾ هو القصب المحصود ، والحصد : هو القطف ، قال المرتضى لدين الله صلى الله عليه :

الروس تحصد بالسيف ألد من بيضاء ناعمة تخر رداها

أي : تقطع بالسيف ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ الباسق في اللغة : هو المنتصب المعتدل ، قال الشاعر :

كان حوافر أرساغه هو القشب في الحجل البسق

والطلع النضيد : هو المزكم ، قال الشاعر : ربابا ثقلا ومزنا نضيدا . أي : بعضه فوق بعض .

﴿وأصحاب الرس﴾ قيل في ذلك بأقوال والله أعلم ، وقيل : إن الرس بلد بين حضرموت ونجد وخران ، وقيل : إن
الرس هو البر ، وإن قوما قتلوا نبيهم وطرحوه في الرس ، وهو البر القليلة الماء فأهلكهم الله ، وانتصر لنبيه وعذبهم
والرساس في اللغة : هي البيار ، قال الشاعر : (تنبلة يحفرون الرساسا) أي : البيار ، والتنبلة : هم أحسن الناس وسفلهم
ومعنى ﴿أفيعينا بالخلق الأول﴾ هذا توقيف لهم على أنه لم يعي بالخلق الأول ، والمعنى : هو العجز ، قال الشاعر :

أقول بلا عي ولا بجهالة .

ومعنى ﴿من حبل الوريد﴾ هو عرق بين الحلق والعلباء ، ومعنى ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما
يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فالمتلقيان : هما هذان الملكان اللذان وكلهما الله عز وجل يحفظ أعمالنا ، فنستغفر
الله مما كتبنا من قبيح أفعالنا . والقعيد : هو المقتعد الذي يرقب ويجهتد ، والعتيد : هو الحاضر القريب ، قال الشاعر :

نبذ القوم بالقنا وتساقوا بضابة السيوف موتا عتيذا

أي : حاضرا قريبا ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ والسكرة : هي الغمة والغشوة ، ومعنى
﴿تحيد﴾ أي : تهرب وتميل ، قال الشاعر :

تحيد عني وتراني في السند كما يحيد الذئب عن جرو الأسد

ومعنى ﴿فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ الغطاء : هو الجهل ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ أي : ثاقب النظر حين
لا ينفعلك السمع والبصر . ﴿وقال قرينه﴾ أي : صاحبه وأخوه ومقارنه ، قال الشاعر :

وقارن إذا قارنت حرا فإنما يزين ويوزري بالفتى قرناؤه

يريد إخوانه وخلاته وأخدانه ﴿هذا ما لدي عتيد﴾ أي : هذا ما عندي حاضر قريب .
ومعنى ﴿كل كفار عتيد﴾ أي : كل جاحد معرض عن الحق معاند للصدق ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

ويحكم بالكتاب بكل فج ويرجع عن تعديه العتيد

ومعنى ﴿كل معتد قريب﴾ أي : كل ظالم جائر عن الحق . والمريب : فهو الظالم قال الشاعر :

ألا لا أبالي من رمانى بريية إذا كنت عند الله غير مريب

وقال الهادي عليه السلام: ﴿ق﴾ هو جبل كريم جعل الله فيه بركة وخيرا عظيما ، ويقال: إنه أكبر جبال الدنيا وأعظمها عظما ، وأبعدها مدى ، وأشدّها ارتفاعا .
﴿والقرآن المجيد﴾ قال عليه السلام : هو قرآن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعنى ﴿المجيد﴾ فهو: العظيم الكريم .

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ معناها : لقد عجبوا ^(١) وهو جواب القسم بـ
﴿ق﴾ والقرآن المجيد ﴿فقامت الباء مقام اللام ، والمعنى فهو باللام﴾ أن جاءهم منذر ﴿

﴿وأزلفت الجنة﴾ أي : قربت ﴿لكل أبواب حفيظ﴾ أي : راجع إلى ربه ، ومعنى ﴿حفيظ﴾ أي : يحفظ على دينه ورع طاهر ، مجتهد في طاعة ربه . ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي : من أمة وطبقة ، قال الشاعر :

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

﴿فنبقوا في البلاد هل من محيص﴾ أي : ساروا في أقطار البلاد هل من مهرب ، قال الشاعر :

نقبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض أي محال

وقال آخر : وقد نقيت في الأفق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ومعنى ﴿ألقى السمع﴾ يعني أصغى بسمعه للحق ﴿وهو شهيد﴾ أي : حاضر .

ومعنى ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي : من تعب ؛ لأن اليهود قالوا : خلق الله السموات والأرض يوم الأحد ، وفرغ منها يوم الجمعة فاستراح يوم السبت فهو يوم راحة ، قال الكمي بن زيد رحمة الله عليه :

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضأهم في الحق حسرى ولغب

يعني من اللغوب ، وهو التعب والنصب . ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ يريد ما أنت عليهم بجبار ولا متكبر ظالم غاشم قال الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : اعلم أن بل إذا وليها الجملة فقد تكون لتدارك الغلط كما في المفرد ، وقد تكون للانتقال من كلام إلى كلام أهم من الأول ، فلا قصد إلى إهدار الأول ، وجعله في حكم المسكوت عنه كما في هذه الآية ، وكما في قوله : ﴿بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾ ولا يجب في بل إذا وليها جملة أن تكون للانتقال من جملة إلى أخرى ، بل نجى بعد الاستفهام أيضا ، كقوله تعالى : ﴿أتأتون الذكران من العالمين...﴾ إلى قوله : ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ وبعد القسم كما في هذه الآية ، وكما في آية ص فإنه أضرب فيها عن القسم إلى الإخبار عنهم ، بأنهم إنما امتنعوا من الإقرار بحقيقة القرآن لعزتهم وشقاقهم ، والضمير في عجبوا يعود للكافرين ، في قوله : ﴿فقال الكافرون﴾ مع كونه متأخرا ؛ لأنه يجري مجرى المفسر بما بعده ، وقال الراغب : بل هاهنا لتصحيح الأول وإبطال الثاني ، أي ليس امتناعهم من الإيمان بالقرآن بسبب أن لا يجد للقرآن ، ولكن بجهلهم ، ونبه بقوله : ﴿بل عجبوا﴾ على جهلهم ؛ لأن التعجب من الشيء يقتضي الجهل بسببه . حاشية العلوي ٢٨٧/٢ .

فالمنذر فهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعنى ﴿منذر﴾ فهو : مُخَوِّفٌ مُعَذِّرٌ بين يدي عذاب الله ونقمته ، وأخذه سبحانه وبطشه ^(١).

وهذا إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم [بالمخوف] رجل منهم ، قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته ، وأمانته ، ومن كان بهذه الصفة لم يكن إلا ناصحا لقومه ^(٢).

ثم قال سبحانه إنكارا لتعجبهم من البعث ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد ، وأحق بالإنكار ، أي : هذا الرجوع شيء عجيب ، وإنما عجبوا حيث دعاهم إلى إله واحد ، وهو بشر مثلهم ، فأعلمهم بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، تعجبوا أولا من أن يبعث إليهم رجلا منهم ، وثانيا من البعث بعد الموت ، وصيرورتهم ترابا ﴿أَنذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إذا : منصوب بمضمر ^(٣) أي : حين نموت ونبلى نرجع ، أي : نبعث .

ثم قالوا : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي : مرجع ^(٤) غير ممكن مستبعد مستنكر ، كقولك : هذا قول بعيد ، ومعناه : بعيد من الوهم والعادة عندهم لما هم عليه من كفرهم بالله ،

(١) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٢.

(٢) ومثله في الكشاف ٣٧٩/٤ ، ٣٨٠ ، وفيه زيادة (مترقفا عليهم ، خائفوا أن يناههم سوء ، ويحل بهم مكروه ، وإذا علم أن مخوفا أظلمهم لزمه أن ينذرهم ويخبرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف ، ونهاية المحاذير .

(٣) قال السيد العلوي : إذا كان الرجوع بمعنى المصدر صح أن يكون دالا على عامل الظرف ؛ لأن كليهما من كلام القوم .

(٤) في الأصل (مرجع) فينظر في صحة اللفظ ، فلم يذكره صاحب الكشاف وإنما ذكر مرجوعا ، فيحتمل أنه أراد . وقال الرازي : والرجع : مصدر رجع يرجع إذا كان متعديا ، والرجوع مصدره إذا كان لازما ، وكذلك الرجعى مصدر عند لزومه ، والرجع : يصح أن يكون مصدرا لل لازم ، فيحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي : رجوع بعيد ، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي (الرازي ٢٨ / ١٥٢) (والكشاف ٣٨٠/٤) .

وقال السيد العلوي : قوله : الرجع : بمعنى المرجوع ، أي قال الله تعالى جوابا لقولهم ، وردا لزعيمهم : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ بمعنى ما يرجع إليه حاصل كلامهم ، ومآله بعيد ، وعن بعضهم ، وهو الجواب ، أي الجواب الذي جاء به الكفار جواب بعيد ، والجواب هو قولهم : ﴿أَنذَا مِتْنَا﴾ فإنهم إنما قالوا ذلك جوابا لقول المسلمين : إنا نبعث ونرجع بعد الموت . ثم إن قوله : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ إن كان من تنمة كلامهم لم يجز التوقف على ترابا ، وإن كان من كلام

وجهلهم ، وإنما أنكر عليهم تعجبهم من البعث لإقرارهم بالنشأة الأولى بقدرة الله على خلق السموات والأرض ، ومن قدر على ذلك قدر على البعث .

ثم إن الله تعالى قال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ إشارة إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه ؛ وذلك لأن الله تعالى عالم بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشبهه عليه جزء أحد على الآخر ، وقادر على الجمع [والتأليف] ^(١) .

قال الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه أنه عالم بكل ما تنقص الأرض ممن يقع في جوفها ممن موتاه ، فأخبر أنه يعلم ما تأكل منهم الأرض ، وما يبقى من ترابهم ورميمهم ^(٢) . اهـ . وهذا رد لاستبعادهم الرجوع ؛ لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى ، وتأكله من لحومهم [وعظامهم] — كان قادرا على رجوعهم أحياء كما كانوا ^(٣) .

وفي ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم ^(٤) — يرجعهم ويعذبهم بما كانوا يقولون ، وبما كانوا يعملون .

ثم مثل سبحانه علمه بالأشياء وحفظه لها بالشيء المكتوب فقال تعالى : ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴾ وقيل : معناه حافظ لما كتب فيه من البعث وأعمالهم وكفرهم بالبعث وغيره ، أو محفوظ من التغيير ، ومن الشياطين ، قالوا : وهو اللوح المحفوظ .

قلت : وعند القاسم والهادي وغيرهما من أئمة العترة عليهم السلام أن اللوح والكتاب في

الله جوابا عن قولهم جاز الوقف لاختلاف القائلين ، وفي المرشد : الوقف الكافي ﴿وكنّا ترابا﴾ ، والتمام ﴿ذلك رجع بعيد﴾ وقال الزجاج : جواب القسم محذوف يدل عليه ﴿أئذا متنا﴾ المعنى : في القرآن المجيد إنكم مبعثون فعجبوا فقالوا : أئذا متنا ، ويجوز أن يكون الجواب ﴿قد علمنا﴾ أي لقد علمنا وحذف اللام لأن ما قبلها عوض منها ، كما ﴿والشمس وضحاها﴾ إلى قوله : ﴿قد افلح من زكاه﴾ .

(١) ومثله في الرازي ، وزيادة (والتأليف فليس الرجوع منه يبعد) (الرازي ١٥٢/٢٨) وما بين القوسين منه .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٢ .

(٣) إلى هنا مثل هذه الفقرة في الكشف (٣٨٠/٤) .

(٤) في نسخة (أفعالهم) .

هذا الموضع ونحوه عبارة عن علم الله تعالى وحفظه للأشياء ، قال القاسم عليه السلام : لأن أحفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون ، فمثل الله ذلك لهم من علمه وحفظه بما يعرفون ، وأخبرهم أن الذي عنده سبحانه من ذلك وفيه كله على خلاف ما يصفون لفرق ما بينه وبين خلقه في كل صفة ، وليعرفوه في ذلك كله من الفرق بما يجب من المعرفة ^(١) . اهـ

ولفظ الهادي إلى الحق عليه السلام في معنى قوله تعالى : ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ يقول : عندنا من ذلك علم محفوظ حتى نردهم من حيث ما كانوا ، ونجمع أجزاءهم وأعضاءهم من حيث ما توجهوا حتى نلّم بعضها إلى بعض من حيث ما كانت من الأرض ^(٢) . اهـ

وقال عليه السلام في غير هذا الموضع : والكتاب يكون على ثلاثة معان أحدها : بمعنى العلم كما في هذه الموضع ونحوه ، والثاني : بمعنى الحكم من الرحمن ، والثالث : فهو اسم الكتاب المنزل نفسه ، قال عليه السلام : فعلى هذه الثلاثة المعاني يخرج معنى الكتاب ، ولن يوجد معنى رابع بسبب من الأسباب ، وسيأتي له ذلك بلفظه إن شاء الله تعالى حيث ذكره في قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيْوتِكُمْ لَيرِزُ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ ^(٣) .

ثم قال تعالى ردا عليهم : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني ﴿بالحق﴾ القرآن والنبوة الثابتة بالمعجزات ، وقيل : الحشر الذي لا بد من وقوعه ، فهو حق ، وهذا إضراب أتبع الإضراب الأول دلالة على أنهم جاؤا بما هو أقطع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة ، أي : عاندوا ، وليست عقولهم تنكر البعث ، ولا نبوة رجل من البشر ، والتقدير في المضروب عنه أنه لم يكذب المنذر بل كذبوا هم .

وتقريره هو أنه تعالى لما قال عنهم : إنهم قالوا هذا شيء عجب ، كان فيه معنى قولهم : إن المنذر كاذب ، فقال تعالى : لم يكذب المنذر ﴿بَلْ﴾ هم ﴿كذبوا بالحق﴾

(١) انظر كلام الإمام القاسم في الجزء الأول سورة البروج وغيرها .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٢ ،

(٣) آل عمران : ١٥٤ .

جاءهم ﴿أي : في أول وهلة من غير تفكير بصحته﴾ ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ قيل : والمريخ المختلط الملتبس ، الذي بان فساده ، فقال أبو ذؤيب :

مرج الدين فأعددت له مشرف الحارك محبوك الكبد^(١)

المعنى : انهم في أمر مضطرب مختلط ، يقولون تارة : شاعر ، وتارة : ساحر ، ومرة : كاهن ، وهو الذي يلتقى عليه مسترقة السمع ، يقال : مرج الخاتم في إصبعه ، إذا كان فيه سعة ، فقيل : ﴿في أمر مريح﴾ لكونهم لا يشتون عن قول واحد .

قال الرازي : والأصح أن يقال : هذا بيان للاختلاف المذكور في الآيات ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿بَلْ عَجَبُوا﴾ يدل على أمر سابق أضرب منه ، وقد ذكرنا أنه الشك ، وتقديره : والقرآن المجيد إنك لمنذر ، وإنهم شكوا فيك ، بل عجبوا ، بل كذبوا ، وهذه مراتب ثلاث ، الأولى : الشك ، وفوقها التعجب لأن الشاك يكون الأمران عنده سيين ، والمتعجب يترجح عنده عدم وقوع العجب ، لكنه لا يقطع به ، و[المكذب] الذي يجزم بخلاف ذلك ، فكأنهم كانوا شاكين ، وصاروا ظانين ، وصاروا جازمين ، فقال :

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾^(٢)

ثم قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُورُوجٍ﴾ إشارة إلى الدليل الذي يدفع قولهم : ﴿ذلك رجع بعيد﴾ وهذا كما في قوله تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾^(٣) ونحوها ، والمعنى : ألم ينظروا حين كفروا إلى آثار قدرة الله إلى العالم السماوي .

ومعنى ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ هو : كيف رفعناها بغير عمد ﴿وزيَّنَّاهَا﴾ قال الهادي عليه السلام : تزيينها : فهو بما فيها من النجوم ، وذلك قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

(١) هكذا في الأصل : وفي لسان العرب لابن منظور ٦١٥/١ ، ترتيب يوسف خياط : الحارك : منبت أدنى العرف إلى الظهر ، الذي يأخذ به الفارس إذا ركب ، وقيل : الحارك عظم مشرف من جانبي الكاهل ، اكتنفه فرعا الكتفين ، قال لبيد : مغبط الحارك محبوك الكفل .

(٢) انظر الرازي ١٥٤/٢٨ ، وما بين القوسين منه .

(٣) يس : ٨١ .

وجعلناها رجوما للشياطين^(١) ومعنى قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ هو: ما فيها من فروج، فقامت اللام مقام في لأنها من حروف الصفات، يعقب بعضها بعضا، والفروج: فهي الفتوق والشقوق والاختلاف بالفطور، بل هي ملبساء سليمة من العيوب، لا صدع فيها ولا خلل، فأخبر سبحانه أنها مستوية ليس فيها من كل ذلك شيء، وأصل ما أراد بذكر السماء وأمرها، وما جعل فيها من زيتها، ونفى عنها من فطورها — أنه أراد سبحانه: أفلا يوقن يريد يا هذا من فعلنا بقدرتنا على ما أنكر بما ذكرنا له من حشرنا لعبادنا، وبعثنا البشر من فعل ما فعل في السماء — بقادر على أن يحشر ويعيد الأشياء^(٢). اهـ

ثم أشار سبحانه إلى دليل آخر فقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالا ترسيها من الاضطراب والانتقال وتُسكنها، ولولا هي لانقلبت بأهلها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات ﴿بِهَيْجٍ﴾ أي: حسن عجيب، يتبجح [به] لحسنه، أي: تظهر البهجة وهي الحسن في وجه ناظره ﴿تَبْصُرَةً﴾ يبصر بها عباده، وبرهانا دل به الخلق على عظمته وقدرته ﴿وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أي: فعلنا ذلك لأجل أن يتبصر المكلف، أي: يعرف ويتذكر، والمنيب: الذي أخلص توبته، الراجع إلى ربه، المتفكر في بدائع خلقه ثم أشار سبحانه إلى دليل آخر هو ما بين السماء والأرض، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما بينهما فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يعني المطر؛ لأن به يحيي الحيوان والنبات، فأنشأنا به ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين، وهي الأشجار التي تستر^(٣) الأرض من الفواكه ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [البر والشعير وكل ما يحصد من الحبوب].

(١) الملك: ٥٠.

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٣.

(٣) في الرازي، وهي الأشجار التي يقطف ثمارها، وأصولها باقية. وما بين أقواس الزيادة ليتم الكلام على ما ذكره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالا في السماء مرتفعتات قال الهادي عليه السلام في تفسيره لهذه الآيات : هذا مثل قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾^(١) فأخبر أنه أنزل من السماء ماء فأنبت به ما أنبت من الجنات ، والحب الحصيد ، والنخل الباسقات ذوات الطلع النضيد .

فأما معنى قوله : ﴿جَنَاتٍ﴾ فالجنات هي البساتين والحدائق ذوات الالتفاف والثمار والالتلاف ، ذوات الأنهار الجاريات ، والثمار المذلات ، اللواتي قد جعلن كل الثمار ، وجرت فيما بينهن وخلاطن الأنهار ، فما كان هكذا فالعرب تسميه جنانا ، فعلى هذا يخرج ما سمي حصيدا ليسه وبلوغه واستحصاده ، فكل شيء بلغ غايته وينع سَمَتُهُ العرب مستحصدا وحصيدا ، أي : قد جاء وقت حصاده وقطعه ، وبلوغ غاية ما ينتظر به أخذه .

ومعنى قوله في النخل : ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ فالباسقات : هن المشرقات الطوال المرتفعتات . الساميات ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ فالطلع هو هذا الطلع الذي يخرج في النخل المعروف [وهو شيء أبيض ، أول ما يخرج من النخلة مثل الكرم ، وهو أول ما يخرج من العنب] .

ومعنى ﴿نَضِيدٌ﴾ فهو : منضود بعضه إلى بعض ، متداخل بعضه في بعض ، مجتمع متقارب ، وتلك صفته مادام في أكماله حتى تغلق عنه أغشيته ، ثم تفرق من بعد التناضد شماريحه ، وتتباعده حيطانه^(٢) . اهـ

وفي التحريد : النضيد إما أن يراد به كثرة الطلع وتراكمه ، أو كثرة ما فيه من الحب^(٣) ثم قال تعالى : ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ فيه وجهان : أحدهما — نصب على المصدر ؛ لأن الإنبات رزق ، فكأنه تعالى قال : أنبتناها إنباتا للعباد ، والثاني : نصب على كونه مفعول له ، كأنه قال : أنبتناها لرزق العباد^(٤) .

(١) الأنبياء : ٣٠ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٣ ، وما بين القوسين ساقط من المجموع ، وثابت في المصاييح .

(٣) انظر الكشاف ٣٨١/٤ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٤) ومثله بلفظه في الرازي ١٥٧/٢٨ ، ١٥٨ .

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾ عطفًا على ﴿أَنْتَبْنَا بِهِ﴾ فقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بالماء إشارة إلى أنه دليل على الإعادة، كما أنه دليل البقاء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: مثل ذلك الإحياء لهذه الأرض الميتة بالجدب — الخروج، أي: تخرجون منها بعد موتكم، تقديره: أحيينا به بلدة ميتة فتشقت وخرج منها النبات، كذلك تشقق ويخرج منها الأموات.

جعل ذلك كله دليلاً على البعث والنشور من وجهين — أحدهما: أن النشأة الأولى إذا خلقها من غير أصل كانت النشأة الثانية بإعادة ماله أصل أهون.

والثاني: أنه لما شوهده من قدرته إعادة ما مات من زرع ونبات كان إعادة ما مات من العباد أولى للتكليف الموجب للجزاء.

ثم قال عز وجل تسلياً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وتنبيهاً بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصبرهم فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني: قريشا ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ وفيه وعيد لهم.

أما الرس ففيه وجهان أحدهما: أنه كل حفر في الأرض من بئر وقبر، والثاني: أنه البئر الذي لم يطو بحجر ولا غيره.

وأما أصحاب الرس فهم الذين قتلوا صاحب ياسين [في بئر لهم] ^(١) ودسوه ذكره في البرهان. وقيل: هم قوم شعيب، وكانوا أهل آبار ومواش فدعاهم فكذبوا، فبيناهم حول هذه البئر انهارت بهم وبدوا بهم فهلكوا، وقيل: الرس قرية باليمامة.

﴿وَتَمُودٌ﴾ قال فيه: وهم قوم صالح، وكانوا عرباً بوادي القرى وما حولها، وهو مأخوذ من التمد، وهو الماء القليل، قال النابغة:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد التمد

(١) البرهان ٣٥٤، من قوله: أما الرس .. إلى آخر ما ذكره هنا وما بين القوسين يناظر من المصاييح، وثابت في البرهان.

﴿وعاد﴾ وهو اسم رجل من العمالق كثر ولده فصاروا قبائل ، وكانوا باليمن بالأحقاف ، والأحقاف الأرمال ، وهم قوم هود .

﴿وفرعون﴾ أي : قوم فرعون ، كانوا من أبناء مصر ، وروينا أنه عاش ثلاثمائة سنة ، منها مائتان وعشرون [سنة] لا تقضى عينه ، ودعاه موسى ثمانين سنة .

﴿وإخوان لوط﴾ يعني قومه وأتباعه ، وكانوا أربعة آلاف ألف ، وروينا في الآثار أنه ما يقوم أحد يوم القيامة من الأنبياء إلا وقام معه من أمته ناس إلا لوط فإنه يقوم وحده ^(١) .

﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهي الغيظة ذات الشجر المتلف ، وكان عامة شجرها الدوم ، وكان رسولهم شعبيا ^(٢) هلكوا بعذاب الظلة .

﴿وقوم تبع﴾ وتبع كان رجلا من ملوك حمير ، وسمي تبعا لكثرة تبعه ، وروي أن تبعا أسلم ، وكفر قومه فلذلك ذكر قومه ولم يذكر ، وهو الذي حير الحيرة ^(٣) ، وفتح سمرقند حتى أخربها ، وكان يكتب إذا كتب بسم الله الذي تسمى ، وملك برا وبحرا وصحبا ^(٤) وريحا .

وقوله تعالى : ﴿كل كذب الرسل﴾ الرسل : يحتمل وجهين أحدهما : أن كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل ، واللام حيثئذ لتعريف العهد ، وثانيهما : وهو الأصح هو أن كل واحد كذب جميع الرسل ، واللام حيثئذ لتعريف الجنس ، وهو على وجهين أحدهما : أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول ؛ لأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل لاتفاقهم على تصديق كل منهم ، وثانيهما : أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية ^(٥) .

وقوله : ﴿فحق وعيد﴾ أي : فحق وعيد عليهم وعيد الله ، أي ما أوعده الله من نصره

(١) في البرهان (وحيدا)

(٢) في البرهان زيادة : أرسل إلى أمين من الناس أهل مدين ، وأصحاب الأيكة . وقوله : هلكوا بعذاب الظلة . ساقط في البرهان .

(٣) أي بناها ، واختطها .

(٤) ليست منقوطة في المصايح ولا في البرهان ، فيحتمل أنها : صحا ، أي ساكة الريح ، أو صبحا [أي ملك الزمان والوقت] وضبحا . [أي : الخيل التي تضبح في عدوها] . وما تقدم مثله بلقطه في البرهان ، من قوله : أما الرس .. إلى قوله : وريحا .

(٥) وانظر أيضا الرازي ١٦١/٢٨ .

الرسول عليهم وإهلاكهم .

قال في البرهان : وإنما ذكر الله سبحانه قصص هؤلاء لهذه الأمة ليعلم المكذبون منهم بالنبي صلى الله عليه وآله وبالأئمة من ولده أنهم كغيرهم ممن كذبوا الرسول إن أقاموا على التكذيب فلم يؤمنوا حتى أرشد الله من أرشد ، وتبعهم رغبا ورهبا من تبع^(١) .

ثم قال تعالى استدلالا بدلائل الأنفس : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ لما قرن الله دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بالواو فقال : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى تلك الدلائل من جنس ، وهذا من جنس فلم يجعل هذا تبعا لذلك ، ومثل هذا مراعى في أواخر (يس) حيث قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ ﴾^(٢) .

ومعنى قوله : ﴿ أَفَعَيْنَا ﴾ عني بالأمر : لم يهتد لوجه علمه ، والهمزة للإنكار^(٣) . قال الهادي عليه السلام : هذا تقرع من الله للكافرين ، وإخزاء [منه] بالتبكي للمكذبين ، الذين كذبوا النشأة الأخرى ، وأنكروا ما ذكر الله من البعث والقيامة ، وكبر ذلك في صدورهم ، ولم يوقنوا برد الأبدان بعد بلائها وفنائها وتمزقها في الأحداث وذهابها فقال سبحانه : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ يريد : إن كان الخلق الأول أعيانا وأتعبنا فسنعيينا إعادته في النشأة الآخرة ، وإن لم يكن بدو^(٤) خلقكم أعيانا فإن ردكم أهون من ابتدائكم علينا . ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يريد : بل هم في شك من ردنا لهم بعد البلاء في خلق جديد^(٥) . اهـ

وفي تنكير الخلق الجديد دون الخلق الأول شأن عظيم وحال شديد ، حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث [عنه] ولا يقعد على لبس في مثله^(٦) والمعنى : أنا لم نعجز كما

(١) انظر البرهان ٣٥٤ . وفي البرهان (من مكذبي الرسول) بدلا (من كذبوا الرسول) .

(٢) يس : ٧٧ . وانظر الرازي ١٦١/٢٨ . باختلاف يسر .

(٣) انظر الكشف ٣٨٢/٤ .

(٤) بدو خلقكم ، أي : بدء خلقكم . ومعنى أعيانا أي أتعبنا .

(٥) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٤ .

علموا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الثاني ، ثم قال : هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول واعترفهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة ﴿بل هم في لبس﴾ أي : خلط وشبهة قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم ، ومنه قول علي عليه السلام : (يا حار ، إنه للمبوس عليك اعرف الحق تعرف أهله) . وليس الشيطان : تسويله إليهم أن إحياء الموتى [أمر] خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح لأن الإعادة أهون من الإنشاء^(١).

قال في البرهان : وفيه تأول آخر معناه : أفعجزنا عن إهلاك الخلق الأول ، يعني ممن تقدم ذكره حين كذبوا بالرسول مع قوتهم وكثرتهم ، حتى تشكروا من إهلاكنا لكم مع ضعفكم إن كذبتهم ، فيكون هذا خارجا مخرج الوعيد ، والأول خارج مخرج البرهان والدليل^(٢). اهـ

(٦) قال السيد العلوي في معرض حكاية كلام الانتصاف : واعلم أنه برّيت مرة بالتكثير للتفخيم لما فيه من الإيهام ؛ لأنه أفهم من أن يحيط به معرفة ، ومرة يقصد به تقليل المنكر ، فنكر اللبس للعظيم ، كأنه قال : في لبس أي لبس ، وتكثير الخلق الجديد للتقليل ، والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، والتفخيم : كأنه قيل : هو أعظم من أن يكون ملتبسا ، قلعل إشارة المصنف إلى هذا . (الطبي) : قد سلك المصنف مسلكا وعرا ؛ لأنه ذهب إلى أن قوله : ﴿أففيننا بالخلق الأول﴾ دل على أن ذلك الإنكار مما يلزم منه إنكار الخلق الأول ، لأنه لبس من الشيطان ، وخبره منهم ، وكان من حق الظاهر أنهم لا ينكرون الخلق الأول ، بل هم في لبس من الخلق الثاني ، فوضع موضعه ما يقسوي شبهتهم واستيعادهم ، وهو قوله : ﴿خلق جديد﴾ ونكره تنكير تعظيم لبسه على أنه خلق جديد له شأن عظيم ، ولذلك قالوا : ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ وقالوا أنذا ضلنا في الأرض إنا لفي خلق جديد وبمثل هذا ينبغي أن يهتم ويخاف منه ، ويبحث عنه ، والحاصل : أن الخلق الجديد بالنسبة إليهم أمر عظيم ، وبالنسبة إلى الله أسهل وأهون ، فكان الواجب عليهم إزالة تلك الشبهة بالقياس الصحيح ، فهم ما بحثوا عن ذلك ، وداموا على ما كانوا عليه ، فوقعوا في تلك الورطة . (حاشية العلوي ٢٨٩) .

(١) مثله في الكشاف ٣٨٢/٤ ، بتقديم وتأخير ، وتصرف يسير .

(٢) نقله المصنف من البرهان بتصريف ، وقد اكتفى بالوجه الأول عما ذكره في البرهان ، ولفظ البرهان : قوله عز وجل : ﴿أففيننا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ فيه تأويلان ، أحدهما : معناه : أفعجزنا عن إهلاك الخلق الأول ، يعني من تقدم ذكره حين كذبوا بالرسول مع قوتهم وكثرتهم ، حتى تشكروا من إهلاكنا لكم مع ضعفكم إن كذبتهم ، فيكون هذا خارجا مخرج الوعيد . والثاني : معناه : أننا لم نعجز عن إنشاء الأول فكيف تشكون في إنشاء خلق جديد ، يعني البعث بعد الموت ، فيكون هذا خارجا مخرج البرهان والدليل . (البرهان للإمام الناصر أبو الفتح الديلمي ص ٣٥٤) .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ إشارة إلى أنه لا تخفى عليه خافية ، ويعلم ذوات صدورهم ، والوسوسة : كثرة الحديث في خفاء مما لا يتحصل .
وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ بيان لكمال علمه ، والوريد : العرق الذي هو مجرى للدم فيه ، ويصل إلى [كل] جزء من أجزاء البدن ، أي : ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الله أقرب إليه من علم القلب ، وهذا الوريد وريدان في العنق أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، ويحتمل أن يكون المعنى : ونحن أملك به من وريده الذي هو منه ، ووصف الله تعالى بالقرب مجاز ، والمراد قوة علمه به واقداره ، لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كقولهم : هو مني مقعد القابلة ، ومقعد الإزار^(١) ، وكما يقال : الله بكل مكان ، أي : علمه ، وحبل الوريد مثل في فرط القرب ، والحبل : هو العرق ، شبه بواحد الحبال ، والوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين عرق الصدر ، يردان من الرأس إليه^(٢) ، وقيل : سمي وريدا ؛ لأن الروح تردده عند خروجها ، والحبل : هو الوريد ، وإضافته إلى الوريد للبيان ، كعبير سانية .
ثم قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ إذ ظرف ، والعامل فيه ما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متزوك سدى ، والمعنى أنه سبحانه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس ، وما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إذانا بأن استحفاظ الملوك أمر هو غني عنه [وكيف لا يستغني عنه]^(٣) وهو مطلع على أخفى الخفيات ، وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك .

(١) مقعد القابلة ، ومقعد الإزار : يؤتى بهما كناية عن القرب .

(٢) الضمير يعود إلى الوتين .

(٣) وانظر الكشف ٣٨٤/٤ ، ٣٨٥ ، وما بين القوسين زيادة في الكشف .

والتلقيان من الملائكة الحفظة عليهم السلام ، وهم أربعة ملكان بالنهار ، وملكان بالليل يتلقيان الأعمال من الحسنات والسيئات ، ومكان كاتب الحسنات على يمين المكتوب عليه ، ومكان كاتب السيئات على يساره . والتلقي : التلقن بالحفظ والكتاب ، والقعيد : الرصيد ، بمعنى المقاعد والمجالس ، كالجلس والشرب ، والمراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين ، فحذف لدلالة الثاني عليه .

ثم أخبر سبحانه أنه ﴿ مَا يَلْفِظُ ﴾ أي : العبد ﴿ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ ﴾ أي : عنده ملك ﴿ رَقِيبٌ ﴾ يرقب عليه ، أي : يحفظه ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر لا يغيب ، قيل : إلا عند الغائط والجماع ، قيل : يكتبان كل شيء حتى أتت به مرضه ، والصحيح أنهما لا يكتبان إلا ما يثاب عليه ، أو يعاقب ، يدل عليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (كاتب الحسنات على يمين الرجل يكتب الحسنة عشرةا وهو أمين على كاتب السيئات فإذا عمل سيئة يقول له صاحب اليمين دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر)^(١) .

وقيل : يكتبان أفعال القلوب يطلعهم الله على الضمائر ، وقيل : لا يكتبان أفعال القلوب بل يتولى الله حسابها من غير كتابه .

واعلم أنه سبحانه لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته [وعلمه] أعلمهم أن ما أنكروه وجمحدوه هم لأقوة عن قريب عند موتهم ، وعند قيام الساعة ، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي ، وهو قوله عز وجل : ﴿ وَجَاءَتْ

(١) الحديث أيضا في الكشف ٣٨٥/٤ ، ولفظه فيه : (كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرةا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر) قال ابن حجر في تحريمه : أخرجه الثعلبي والبخاري من طريق جعفر ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني ، وأخرجه البيهقي من هذا الوجه ، ومن رواية بشر بن عمر عن القاسم نحوه ، وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن زيد ، عن القاسم نحوه ، وروى أبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عيسى ، عن عاصم بن رجاء ، عن عروة بن رديم ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، وعند الطبري من طريق علي بن جرير ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة ، قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله كم مع العبد ملك ؟ .. الحديث .

سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴿١﴾ [وسكرة الموت]: هي شدته الذاهبة بالعقل ، وعبر عن اقتراب ما جحدوه بجاءت ، كأن مجيئها قد وقع ﴿١﴾ بالحق ﴿١﴾ أي : بحقيقة الأمر مما ينكشف للإنسان من سعادة أو شقاوة ؛ لأن الموت أول أحوال الآخرة ، وقوله ﴿١﴾ بالحق ﴿١﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد منه الموت ، فإنه حق ، كأن شدة الموت تحضر الموت ، والباء حينئذ للتعدية يقال : جاء فلان بكذا ، أي : أحضره ، وثانيهما : أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين ؛ لأنه حق ، وهو يظهر في " شدة الموت " ، وما من أحد إلا وهو في تلك الحالة يظهر الإيمان ، لكنه لا يقبل إلا من سبق منه ذلك ، وآمن بالغيب ، ومعنى المجيء به : هو أنه يظهره ، كما يقال : الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي أظهره ، ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه : جاء به وهو قوله تعالى ﴿١﴾ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١﴾ يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى الموت ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الحق ، ومعنى ﴿١﴾ تحيد ﴿١﴾ أي : تفر وتهرب ، قيل : خطاب للكافر ، والأقوى أن يقال : هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول : ﴿١﴾ ذلك ما كنت منه تحيد ﴿١﴾ أيها السامع " .

وفي الحفظة ومجيء سكرة الموت بالحق يقول الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه بحفظ الحفظة له الذين عن يمينه وشماله وهما الملكان اللذان ذكرهما الله أنهما عن اليمين والشمال قعيد يحفظان عليه كل لفظه وفعله ، وهما الرقيب العتيد الذي مع كل آدمي ، والرقيب : فهو المحصي لفعل كل فاعل ، والعتيد : فهو الثابت الراتب الذي ليس بمفقود . سكرة الموت : هي غشية الموت وشدته ، وإزالته لعقل الميت وكربته ، فشبه الله زوال عقل الميت وكربته ، وما ينزل به من غشيته بالسكرة التي تذهب العقل وتفسده ، والعرب تمثل كل شدة أزال عقل صاحبها بالسكرة — تقول : مرت بنا من هذه الأمور

(١) في الرازي : وهو يظهر عند شدة الموت (١٦٤/٢٨) .

(٢) وانظر الرازي ١٦٤/٢٨ ، وقد أصلحنا اللفظ منه . قال في الكشف : وعن بعضهم أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك ، فقال : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحكاه لصالح بن كيسان ، فقال : والله ما من عالية ، ولا لسان فصيح ، ولا معرفة بكلام العرب ، هو للكافر ، ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، فقال : أخالفهما جميعا : هو للبر والفاجر . (الكشف ٣٨٦/٤) .

سكرات بعد سكرات ، تريد شذائد حالات بعد حالات .

ومعنى ﴿بالحق﴾ فهو : بحقائق ما وعد الله ، من ذلك قوله : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾^(١) فحذاء وعد الله على حقائقه ، ونزل بأهله على يقينه وصدقه ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ يقول : ذلك ما كنت منه يا هذا الميت تفر وتكره قربه ولا تريده نفسه^(٢) قال الشاعر :

تحيد مني وتراني في السند كما يحيد الذئب من جرو الأسد^(٣)

وفي البرهان : معنى ﴿تحيد﴾ تتنجي ، قال عدي :

ولقد قلت حين لم يك عنه لي ولا للرجال عنه محيد^(٤)

وقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ عطف على قوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ ويكون قوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ إشارة إلى الإمامة ، وقوله : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء^(٥).

ومعنى النفخ في الصور أي : في صور الموتى ، وهو عبارة عن نفخ الروح فيها . وقيل : هو القرن ينفخ فيه إسرا في يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ قال الزمخشري : هو على تقدير حذف المضاف ، أي وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ^(٦) .

(١) آل عمران : ١٨٥ ، الأنبياء : ٣٥ ، العنكبوت : ٥٧ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٤ .

(٣) قال الإمام الحسين بن القاسم العباسي عليه السلام في تفسيره : ومعنى ﴿تحيد﴾ أي تهرب وتميل قال الشاعر :

تحيد عني وتراني في السند كما يحيد الذئب عن جرو الأسد

(٤) البرهان مخطوط ٣٥٥ .

(٥) في الرازي : وقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ عطف على قوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ والمراد منه إما النفخة الأولى ، فيكون بياناً لما يكون عند مجيء سكرة الموت . أو النفخة الثانية ، وهو أظهر ؛ لأن قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء . (تفسير الرازي الكبير ١٦٤/٢٨) .

(٦) انظر الكشف ٣٨٦/٤ .

قال الرازي: وهو ضعيف ؛ لأن يوم لو كان منصوبا لكان ما ذكر ظاهرا ، وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم ، والمصدر لا يكون نفس الزمان ، وإنما يكون في الزمان ، فالأولى أن يقال : ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله : ﴿ وَنَفَخَ ﴾ لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان ، فكأنه تعالى قال : ذلك الزمان يوم الوعيد ، والوعيد : فهو الذي أوعد به من الحشر والإيتاء والمجازاة ^(١).

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا في يوم القيامة عند خروج الخلق من قبورهم ومصيرهم إلى حشرهم ، ووقفت حسابهم حينئذ تأتي كل نفس ومعها ما ذكر الله من السائق والشهيد ، والسائق والشهيد : فهو الرقيب الذي ذكر الله العتيد ، وهما الملكان اللذان قال الله : ﴿ عَنْ يَمِينٍ وَعَنْ شِمَالٍ قَعِيدٌ ﴾ فهما يشهدان عليه ويسوقانه ^(٢) . اهـ

يعني : إلى الموقف ، ومنه إلى مقعده ، والسائق لازم للبر والفاجر ، أما البر فيساق إلى الجنة ، وأما الفاجر فيلحق النار ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ^(٣) ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ ^(٤) .

وقيل : المراد بالسائق والشهيد العمل ؛ لأنه يسوقه إلى الجنة والنار ذكره في البرهان ^(٥) . وفي التحرير : قال الكلبي — السائق : الذي يكتب عليهما السيئات ، والشهيد : الذي يكتب الحسنات .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ ﴾ أي : يقال للإنسان : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي : يوم القيامة ، قاله الضحاک ، ومقاتل ، أي : لإنكارك له وكفرك ، جعلت الغفلة كأنها غطاء على جسده كله ، وغشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر ، فإذا كانت

(١) انظر الرازي ١٦٤/٢٨ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٢ .

(٣) الزمر : ٧١

(٤) الزمر : ٧٣

(٥) انظر البرهان ٣٥٥ .

القيامة زالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر من الحق ما لم يبصره ، وهو معنى قوله : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ أي : أزلنا عنك غفلتك ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ وكان من قبل كليلاً .

قال الهادي عليه السلام : يقول سبحانه : قد كنت بتكذيبك وقلّة نظرك لنفسك والإعراض عن العمل في الدنيا بما يخلصك في هذا اليوم في غفلة ، والغفلة : فهي من الترك للعمل ، ومعنى ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ هو بما أظهر له من المعاينة لما كان فيه شاكاً وعن العمل له معرضاً ، حتى رآه عياناً ، وواجهه صراحاً ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي : ثاقب النظر حتى لا ينفع السمع والبصر ، فهذا مثلٌ مثلٌ به الله ، يريد أنك كنت من قبل تكذب بهذا وبرؤيته ، فقد أصبحت اليوم حديد البصر بمعاينته ، وزال عنك الخبر ووقع العيان ^(١) . اهـ وقيل : الغطاء هو الجهل .

ثم أخير سبحانه عن قرينه المغوي له فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ ﴾ قرينه : أي شيطانه الذي قيض له وقرين به من جنّي وأنسي ، وقيل : الملك هو القرين ، أي : هذا وكلت به قد أظهرته ، ومثل هذا ذكره في البلغة ^(٢) .

قلت : ويدل على الأول قوله تعالى : ﴿ وَقِيضْنَا لَهُمْ قَرْنًا ﴾ ^(٣) وقال تعالى : ﴿ نَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ^(٤) وقال تعالى : ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ ونحو ذلك مما سيأتي إن شاء الله تعالى قال الهادي عليه السلام : القرين الذي يقول هذا : فهو صاحب الفاسق المغسوي له في الدنيا ، والمشارك له في الإثم من جنّي موسوس ، أو إنسي رديء فاجر مؤذ ، ومعنى ﴿ مَا لَدَيَّ ﴾ فهو : ما عندي مما استوجهه بفعلي ﴿ عِتِيدٌ ﴾ فهو : مقيم ، وهو عذاب الله الأليم النازل به وبقرينه المشارك له في آثامه ^(٥) . اهـ

(١) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٥ .

(٢) تفسير البلغة للطوسي مخطوط ، ولم نتحصل عليه إلى الآن .

(٣) فصلت : ٢٥ .

(٤) الزخرف : ٣٨ .

(٥) مجموع تفسير الأئمة ٤٦٥ .

وقيل : معنى ﴿عَنِيْدٌ﴾ أي : هذا ما عندي حاضر قريب .
ثم يقال للسائق والشهيد : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيْدٍ﴾ أي : كل جاحد معرض عن الحق معاند للصدق .

قال في البرهان : والمأمور بـ ﴿أَلْقِيَا...﴾ كل كفار ﴿﴾ في النار ملكان ، ويجوز أن يكون واحدا أمر بلفظ الاثنين ، كما قال الشاعر :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر
وإن تدعواني أحرم عرضا ممنعا^(١)
قال في الكشف : لأن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثرت في ألسنتهم أن يقولوا : خليلي وصاحبي ، وقفا ، وأسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين^(٢) لكثرة خطابهما على ألسنتهم .

أو نزلت تشية الفاعل منزلة تشية الفعل لاتحادهما ، كأنه قيل : ألقى ألقى للتأكيد^(٣) .
وقوله : ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه ، والخير : اسم المال ، أو مناع الجنس الخير أن يصل إلى أهله .
وفي البرهان : الخير المال كله ، ومنعه أن ينفق في [غير]^(٤) طاعة الله عز وجل ، وتحبس فيه الزكاة المفروضة . اهـ

وقوله تعالى : ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي : ظالم متجاوز للحق ، وقوله : ﴿مُرِيْبٍ﴾ فيه وجهان أحدهما : ذو ريب أي شك في الله وفي دينه ، وثانيهما : مريب يوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة ، والإرابة جاءت بالمعنيين جميعا ، وفي الآية ترتيب آخر غير ما ذكرناه ، وهو أن يقال : هذا بيان أحوال الكفار بالنسبة إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ، وإلى اليوم الآخر فقال : ﴿كَفَّارٍ عَنِيْدٍ﴾ إشارة إلى حاله مع الله يكفر به ويعاند آياته ، وقوله :

(١) البرهان ٣٥٥ .

(٢) إلى هنا نهاية ما في الكشف ، وما بعده ليس من الكشف (الكشاف ٣٨٧/٤) .

(٣) قال السيد العلوي : قوله : كأنه قيل : ألقى ألقى . وجه ذلك أنه حذف الفعل الثاني ، ثم أتى بفاعله ، وفاعل الفعل الأول على صورة ضمير الاثنين متصلا بالفعل الأول .

(٤) في المصايح والبرهان : ومنعه أن ينفق في طاعة الله ، والصواب : ومنعه أن ينفق في غير طاعة الله . البرهان ٣٥٥ .

﴿مناع للخير معتد﴾ إشارة إلى حاله مع رسوله فيمنع الناس من أتباعه ، ومن الإنفاق على من عنده ، ويتعمد بالإيذاء وكثرة الاعتداء^(١) ، وقوله : ﴿مريب﴾ إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ، ولا يظن أن الساعة قائمة .
وقيل : المريب هو الظالم قال الشاعر :

ألا لا أبالي من رماني برية
إذا كنت عند الله غير مريب^(٢)
﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي : شريكاً له في العبادة ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أي : فبسبب ذلك القيام ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ .

قال في الكشف : ﴿الذي جعل﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرك ، ولذلك أحجب بالفاء ، ويجوز أن يكون ﴿الذي جعل﴾ منصوباً بدلاً من ﴿كل كفار﴾ ويكون ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكريراً للتوكيد^(٣) . اهـ

كأنه قال : القيا في جهنم كل كفار عنيد ، وهو الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، فَأَلْقِيَاهُ بعد ما أَلْقَيْتُمُوهُ في جهنم في عذاب شديد من عذاب جهنم .

قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة كان يمنع بني أخيه من الإسلام ، ويتوعدهم إن أسلموا أنه لا ينفعهم بخير ما عاش^(٤) .

ثم قال تعالى : ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وهو جواب لكلام مقدر ، كأن الكافر حين ما يلقى في النار يقول : ربنا أطفاني شيطاني ، فيقول الشيطان : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ، كقوله لهم : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^(٥) فاطرحت هذه المقابلة لما يدل عليها ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى بعد هذا : ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾

(١) وفي الرازي : وكثرة الهذاء . (الرازي ١٦٦/٢٨) .

(٢) صاحب القول هذا هو الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ، وانظر كتابه تفسير غريب القرآن ١٧٣ .

(٣) انظر الكشف ٣٨٧/٤ .

(٤) ذكره في مجمع البيان للطبرسي ١٨٦/٩ ، وفي الكشف : ٣٨٧/٤ .

(٥) إبراهيم : ٢٢ .

لأن الاختصاص يستدعي كلاماً من الجانبين ، وحيث هذا كما قال تعالى في هذه السورة ، وفي ص ﴿قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ربنا من قدم لنا هذا فزده﴾^(٢) إلى أن قال : ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾^(٣) .

قال في الكشف : الطغيان الزيادة في الظلم ، ولم يقل : وقال بالواو ، كما قال أولاً ؛ لأن الجملة الأولى عطفها واجب للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أي مجيء كل نفس مع الملكين ، وقول قرينه ما قال [له] ، بخلاف هذه الجملة فهي مستأنفة كالجملة الواقعة في حكاية التقاليد^(٤) .

قال الرازي : فقوله ﴿في ضلال بعيد﴾ وصف المصدر بما يوصف به الفاعل ، كما يقال : كلام صادق ، وعيشة راضية ، أي في ضلال ذي بعد ، والضلال إذا بعد مداه ، وامتد الضال فيه يصير بينا ويظهر الضلال ؛ لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تغير عليه السمات والجهات [ولا يرى عين المقصد] ويتبين له أنه ضل عن الطريق ، وربما يقع في أودية ومفاوز ، وتظهر [له] أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلاً ، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من المواضع ، فقال تارة : ﴿في ضلال مبين﴾^(٥) وأخرى قال : ﴿في ضلال بعيد﴾^(٦) . اهـ

قال الهادي عليه السلام : ثم أخبر سبحانه باختصاص الفاجر وقرينه وتلاومه هو ونظيره ، فكان من رد الله عليهما حين كان منهما ما كان من قولهما : ﴿قال لا تخصصوا لدي﴾ يقول : لا

(١) ص : ٦٠ .

(٢) ص : ٦١ .

(٣) ص : ٦٤ .

(٤) الكشف ٣٨٧/٤ بتصرف يسير ، وتقديم وتأخير .

(٥) تكررت في القرآن في ثمانية عشر موضعاً : آل عمران : ١٦٤ ، الأنعام : ٧٤ ، الأعراف : ٦٠ ، يوسف : ٨ ، ٣٠ ، مريم : ٣٨ ، الأنبياء : ٥٤ ، الشعراء : ٩٧ ، القصص : ٨٥ ، لقمان : ١١ ، سبأ : ٢٤ ، يس : ٢٤ ، ٤٧ ، الزمر : ٢٢ ، الزخرف : ٤٠ ، الأحقاف : ٣٢ ، الجمعة : ٢ ، الملك : ٢٩ .

(٦) مثله بلفظه في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة من الرازي (الرازي ١٦٨/٢٨) .

تختصموا اليوم عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ في دار التكليف على السنة رسلي ﴿بِأَلْوَعِيدٍ﴾ يقول : قدمت إليكم بالإعذار والإنذار والوعيد لهذا النهار ، فلم ينفعكما إعذارني ، ولم يردعكما عن المعصية وعيدي ، فما تركت لكم علي حجة ، فاليوم ﴿مَا يُدِلُّ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فهو : تحريفه ، والتحريف فهو من الكافرين عند تخصمهم ، يقول بعضهم لبعض : هذا بأفعالكم ، وهذا بأسبابكم نزل بنا ، وحق علينا وعيد ربنا ، ويقول الآخرون مثل مقاتلتهم ، وينسبون سبب ذلك إليهم ، فكلٌّ يطرح الذنب على صاحبه ، ويحيل الإغواء عليه ^(١) . اهـ ثم نفى سبحانه عن نفسه الظلم فقال : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي : ما أنا بمعذب من لم يجترم ، ولا بزائد في عقاب مسيء ، ولا ناقص من ثواب محسن ، والظلام : مبالغة في الظالم ، والوجه فيه كما قاله جار الله : إن ذلك أمر تقديري ، كأنه تعالى يقول : لو ظلمت عبدي الضعيف ، الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم ، وما أنا بذلك فيلزم [من نفى كونه ظالماً] نفى كونه ظالماً ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ اذكر ، أو أنذر ^(٣) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِحَبَّهْمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وسؤالها وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب [وتثبيته] وفيه معنيان أحدهما : أنه إنكار لموضع الزيادة ، أو لإمكان الزيادة بمعنى أنها قد امتلأت ، أي لا مزيد ^(٤) .

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢) العبارة موجودة بلفظها في الرازي ١٧٢/٢٨ ، وقد نقلها الرازي من الكشاف بتصرف ، ولفظ الكشاف : فإن قلت : كيف قال : ﴿بِظَلَّامٍ﴾ على لفظ المبالغة ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من قولك : هو ظالم لعبده وظلام لعبيده ، والثاني : أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاماً مفرطاً الظلم ، نفى ذلك . الكشاف ٣٨٨/٤ .

(٣) أي : أنه منصوب بمضمر تقديره : اذكر ، أو أنذر .

(٤) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف ٢٩١ : قوله : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ذكر فيه أربعة أوجه ، الأول : أن الاستفهام فيه إنكار موضع المزيد . والثاني : أنه فيه لتقرير ثبوت موضع المزيد ، والثالث : أنه استكثار للداخلين من غير تعرض بالمكان ، وهو في الحقيقة إنكار للزيادة على الداخلين ، والرابع : أنه طلب للزيادة في الداخلين للغيظ على العصاة ، قيل : والطلب هاهنا بمعنى التمني ، كأنها تمنى ذلك .

والثاني : أنه استدعاء للزيادة وطلب لها غيظا على العصاة ، و ﴿مزيد﴾ إما اسم مكان أو مصدر على الأول ، وعلى الثاني مصدر ، أو اسم مفعول كالبيع ذكره في التحويد (١) وقال الهادي عليه السلام ما لفظه : (هذا اليوم يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، ومعنى ﴿يوم نقول لجهنم﴾ هو قوله لخزنتها : ﴿هل امتلأت﴾ وكذلك قوله : ﴿وتقول هل من مزيد﴾ وهو قول لخزنتها : هل من مزيد ، لما أن كان الخزنة من أسبابها جاز أن يطرحوا ، ويكون الخطاب لها على مجاز الكلام ، وهذا في القرآن موجود ، وفي اللغة ومن ذلك من كتاب الله سبحانه : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ (٢) فالعجل لا يشرب في القلب ، وإنما الذي أشرب القلب حبه ، فأراد أشربوا في قلوبهم حب العجل ، فطرح حب ، وأقام العجل مقامه ، إذ كان من سببه ، وفي ذلك ما يقول الشاعر :
إلا إنني أسقيت أسود حالكا

فقال : أسقيت ، والأسود فلا يسقاه أحد ، وإنما سقي سم الأسود ، فطرح السم ، وأثبت الأسود مكانه ، إذ كان من سببه ، والشاهد على ذلك من كتاب الله سبحانه أيضا قوله : ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ (٣) والقرية فإنما هي البيوت والأبنية ، وليس شئ من هذا يخاطب ولا يسأل ، وإنما أراد أهل القرية وسكانها ، فطرح الأهل والسكان إذ كانوا من سبب القرية ، وأثبت القرية ، فكذلك قوله : ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ أراد خزنة جهنم ، فطرح الخزنة إذ كانوا من سبب جهنم فجاء المعنى كأن المخاطبة لجهنم ، وإنما المخاطبة لخزنتها والقومة بها .
ومعنى ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهو كرم وشرفت وقربت منهم ، وقربوا منها ، وهذا مشتق من الزلفى ، والزلفى : فهي الكرامة بالخلاصة العالية (٤) .
ومعنى ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي : مكانا غير بعيد منهم ، ومعناه التوكيد كما تقول : هو

(١) البقرة : ٩٣ .

(٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٤) البقرة : ١٧٧ .

(٥) البقرة : ١٧٧ .

(٦) البقرة : ١٧٧ .

قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل ، فإن قيل : فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأولى بإزلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله : ﴿أَزَلَفْتَ الْجَنَّةَ﴾ ؟ قيل له : إكراماً للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يحشى إليه ، ويدنى منه .

ثم قال تعالى : ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ أي : يقال لهم هذا الثواب والتقريب الذي كنتم توعدون في الدنيا ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ لكل رجّاع إلى الله بالتوبة .

قال مجاهد : هو الذي يذكر ذنوبه فيتوب منها ، ويستغفر ، وقال سعيد بن المسيب : هو الذي يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب .

﴿حَفِيفٌ﴾ لأمر الله وحدوده ، أي : حافظ [لها] لا يتعدها ، متحفظ على دينه ، ورع طاهر مجتهد في طاعة ربه . وقيل : حفيظ لذنوبه فيستغفر لها عن ابن عباس .

وفي البرهان : الأواب — الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل ، والحفيظ : المحافظ على وصية الله عز وجل ، المطيع له في السر والظهر ^(١) . اهـ

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانََ الْغَيْبَ﴾ قال الهادي عليه السلام : فهو خشيه في الغيب ، والغيب : فهو ما غاب من الناس واستتر من ضمير القلوب ، أو عمل مستور ^(٢) . اهـ

وقوله سبحانه : ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قيل : جاء عند الموت وانقطاع التكليف ، وقيل : جاء إلى طاعة ربه بقلب منيب .

وقال الهادي عليه السلام : فهو جاء يوم القيامة بقلب تائب راجع ، قد رجع في دنياه إلى الله وأتاب إلى طاعة الله [فكان لها في دنياه من العاملين ، ورجع إلى الله وهو من المنيبين المكرمين] ^(٣) .

قال في الكشف : فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟ فقال : للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة ، كما أثنى عليه بأنه

(١) البرهان : ٣٥٥ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٧ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦٧ ، وما بين قوسي الزيادة موجد في المجموع ، وساقط من المصايح .

خاشٍ مع أن المخشي منه غائب ، ونحوه ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾^(١) فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات ، ووصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله ؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب^(٢).

ثم قال تعالى : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي : يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي : سالمين من العذاب ، وزوال النعم ، أو مسلماً عليكم ، يسلم الله عليكم وملائكته والمؤمنون .
﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي : يوم تقدير الخلود ، كقوله : ﴿فادخلوها خالدين﴾^(٣) أي : مقدرين الخلود ، والخلود : البقاء الذي لا انقطاع له ولا زوال لنعمه ، والفائدة في ذكر الخلود مع علم المؤمن أنه إذا دخل الجنة أخلد فيها — أن اطمئنان القلب بالقول أكثر .
ثم قال تعالى : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي : الجنة ، وهو ما لم يخطر ببالهم ، ولم تبلغه أمانهم حتى يشاءوه .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشاءه قال زيد بن علي عليه السلام : إن الرجل ليسكن في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه ، وتنظر في وجهه ، فخذها^(٤) أضوا من المرأة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب ، فتسلم عليه ، فيرد عليها السلام ، ويسألها من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد ، ويكون عليها سبعون ثوبا ، أداها مثل شقائق النعمان من طوبى ، ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها لتيجانا أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب^(٥) .

قال الرازي : وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال : ﴿أَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يقل : قرب المتقون من الجنة بيانا للإكرام حيث

(١) المؤمنون : ٦٠ .

(٢) انظر الكشاف ٤/٣٩٠ .

(٣) الزمر : ٧٣ .

(٤) غير منقوط في المصاحف ، ولا في تفسير الإمام زيد عليه السلام المخطوط ، فيحتمل أن اللفظة : فخذها ، أو (فخذها)

(٥) تفسير غريب القرآن للإمام زيد عليه السلام ٣٠١ . وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه . ومن المخطوط ٢٩٣ .

جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان [بما فيها من الحسان] ثم قال لهم : هذا لكم بقوله : ﴿ هذا ما توعدون ﴾ ... ثم قال ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي : لا تخافون ما لحقكم من قبل ، حيث أخرج أبويكم منها ، فهذا دخول لا خروج بعده منها .

ثم لما بين أنهم فيها خالدون قال : لا تخافوا انقطاع أرزاقكم ، وبقاءكم في حاجة ، كما كنتم في الدنيا ، من كان يعمر ينكس ويحتاج ، بل لكم الخلود ، ولا ينفد ما تمتعون به فلکم ما تشاؤون ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ يعني أهل مكة ، ومعنى ﴿ كم ﴾ التكثير ، أي : كثيرا أهلكناهم قبلهم ، ومعنى ﴿ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي : من أمة وطبقة ، قال :

إذا ذهب القرن الذي كنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب
﴿ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أي : قوة وأوفر عددا من أهل مكة ، لما أُنذِرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم ، والعذاب الأليم — أُنذِرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك ، والإهلاك المدرك ، وبين لهم حال من تقدمهم .

فإن قيل : إذا كان كذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل فلم توسطهما قوله تعالى : ﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَدِينَا مَزِيدٌ ﴾ ؟ .

قيل في الجواب : ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع ، فذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد — في الآخرة ترهيبا وترغيبا .

ثم قال تعالى : إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم فما أنتم في ريب من العذاب العاجل المهلك الذي أهلك أمثالكم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ التنقيب : البحث عن الأمر والطلب ، وقرئ بالتخفيف ، أي : فخرقوا ودوخوا ، والفاء سببية عن قولهم : هم أشد منهم بطشا ،

(١) الرازي ٢٨/١٨٠ ، وفيه زيادة بعد قوله : فلکم ما تشاءون ، في أي وقت تشاءون ، وإلى الله المنتهى ، وعند الوصول إليه ، والمثل بين يديه ، فلا يوصف ما لديه ، ولا يطلع أحد عليه ، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده . وفيه زيادة وهو واقعة بين قوله : ﴿ هذا ما توعدون ﴾ وقوله : ثم قال : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أنظرها هناك .

أي: شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه ، وأصله من النقب ، وهو الطريق وجمعه نقوب ، كأنهم سلكوا كل طريق فلم يجدوا محيصا عن أمر الله ﴿فَنَقَبُوا﴾ أي : ساروا في أقطار البلاد وعملوا طرقا ومسالك ، قال الشاعر :

نَقَبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَخَالٍ^(١)

وقال آخر :

وَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام^(٢) وغيره .

قال الهادي عليه السلام : معنى نقبوا : هو ركضوا وهربوا خوفا من العذاب ، فلم يفهم ذلك ولحققتهم من الله النقم والمهالك . اهـ

وقد شاهد أهل مكة آثار القرون المهلكين من نحو عاد وثمود في أسفارهم ، أو نقب أهل مكة في أرض القرون ، وأحاطوا بها خبرة ، فهل رأوا محيصا لأحد من المهلكين ثم قال تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ مَّحِصٍ ﴾ أي : هل وجدوا من الله محيصا ، أي : مهربا وملجأ يحصون إليه أو يروغون إليه ، أو يلجؤون نحوه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور من قصص المهلكين ﴿ لَذِكْرٌ ﴾ يقول : تذكرة وعبرة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ واع ؛ لأنه من لا يعي قلبه كمن لا قلب له ، ومعنى ﴿ قلب ﴾ أي : عقل ، كني عنه بمحلله .

قال الهادي عليه السلام : معناه من كانت له فكرة ونظر ، واستعمال للتمييز بعقله إذا فكر . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ فهو : ألقى بالطاعة إلى الله ورسوله فسمع لأمر الله وأطاع ، وكان لأحكام الله ذا قبول وإتباع ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ يقول : شاهد بالحق ، قائل فيه بالصدق ،

(١) الشاعر : هو الحارث بن حلزة ، وفي عليان : للحارث بن كلدة ، والنقب : الطريق ، ونقبوا : أي ساروا في طرق البلاد ، ونقبوا وفتشوا على مهرب وملجأ ؛ لأجل حذرهم من الموت ، وجالوا : أي ذهبوا في الأرض ، والجول : الناحية والجانب ، أي : ساروا في نواحي الأرض وجوانبها . كل مجال : أي كل طريق ، أو كل جولان ، لأن مفعل صالح للمكان والحدث . انظر الكشف ٣٩٠/٤ .

(٢) تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام مخطوط ١٧٤ .

يشهد أن ما جاء به نبيه من الله ، وأنه أنزل بأمر الله ، وأنه من عند الله . اهـ .
ومعنى ﴿ألقى السمع﴾ هو : أصغى إليه سمعه ، والمراد بالسمع : المسموع به ، أي :
وأصغى أذنه إلى الوحي للوعظ بذكره ، ومعنى ﴿شاهد﴾ أي : حاضر بذهنه وفطنته ؛
لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

وفي البرهان — أي : ألقى السمع في ما غاب عنه ، وهو شهيد فيما عاينه بالحضور أو
سمع ما أنذر به من ثواب أو عقاب ، وهو شهيد على نفسه بما عمل من سيئة أو حسنة^(١) .
ثم رجع عز وجل إلى الاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما بياناً لكمال
القدرة ، وردا على منكري الإعادة قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي : في مدة مقدرة بستة أيام ؛ لأن اليوم لا يعرف إلا بالشمس ،
ولا شمس هناك ، والله قادر على خلقها في لحظة طرفه ، لكن لحكمة علمها وإن جهلناها
ابن المسيب : هو تعليم لعباده التثبت في الأمور .

قال في البرهان : نزلت هذه الآية في اليهود زعموا أن الله خلق السموات والأرض في
ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت فلذلك جعلوه يوم راحة^(٢) .
والظاهر أن المراد الرد على المشرك ، والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما .
وقوله تعالى : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ﴾ أي : ما تعبت بالخلق الأول حتى لا نقدر على
الإعادة ثانياً والخلق الجديد ، كما قال تعالى : ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ وأما ما قاله اليهود
ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم ، أو لم يعلموا تأويله ؛ وذلك لأن الأحد والاثنين
أزمنة متميزة بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات ابتداء يوم الأحد لكان الزمان
متحققاً قبل الأجسام — والزمان لا ينفك عن الأجسام — فيكون قبل خلق الأجسام
أجسام آخر ، فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ، ومن العجيب أن بين
الفلاسفة والمشيبة غاية الخلاف .

(١) البرهان : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، وفيه (الثاني) بدلا عن (أو) فيما ذكره هنا .

(٢) البرهان : ٣٥٦ . ومثله في الكشف : ٣٩٢ / ٤ ، ومثله في مجمع البيان ١٩٠ / ٩ .

ومعنى قوله: ﴿مَنْ لَغُوبٌ﴾ أي: من تعب، قال الكميث^(١):
 إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضأؤهم في الحق حسرى ولُغِبُ
 بعض من اللغوب، وهو التعب والنصب والإعياء والوئاء من الجهد، لغب: إذا فتر
 وكل من المشقة، وقال آخر:

إذا رقى الجاري المطي اللغا

ثم قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول المشركون من إنكار
 البعث، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على ما يقولون بالكذب به فيما جاء،
 والوعيد له بالقتل، قيل: وهي منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل الصبر مأمور
 به على كل حال، وذلك أن تكذيبهم الرسول، وتعجبهم من قوله، واستهزاءهم به
 كان يوجب في العادة أن يشتغل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلغتهم وسبهم، والدعاء عليهم
 فقال: اصبر على ما يقولون، واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم [التسبيح لله والحمد له
 ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أو كنوح عليه السلام] حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى
 الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ بل ادع إلى ربك، فإذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم
 فاشتغل بذكر ربك في نفسك^(٢).

(١) في نسخة المصاييح، فأبصارهم، وفي نسخة تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني، فأنضأؤهم
 والكميث: هو الكميث بن زيد الأسدي، أبو المستهل، المولود سنة ٦٠هـ والمتوفى سنة ١٢٦هـ شاعر أهل البيت
 عليهم السلام، وأشعر شعراء أهل الكوفة المقدمين في القرن الأول الهجري، عالم بلغات العرب وأنسابهم وأيامهم،
 معروف بالتشيع لآل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مشهور بذلك، كان خطيب بني أسد، حافظاً للقرآن، رامياً
 فارساً، شجاعاً، جدياً، وهو أول من ناظر في التشيع، رثى الإمام زيد بن علي عليهما السلام، وابنه الحسين عليه
 السلام، ومدح بني هاشم، وهما بني أمية، فأخذ وحسب، وأخرج من الحبس بحيلة، أراد بعض أهل البيت إعطائه
 مالا مقابل مدحه، فقال: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يده، ولكن أحببتكم للآخرة،
 أما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها ليركها، وأما المال فلا أقبله، قال في معجم أصحاب الإمام زيد: دخل
 الكميث على الإمام زيد بمدائح وقصائد، واسمعه إياها، فأحابه عليه السلام بكلام فيه من الفصاحة والبلاغة ما أطربه،
 حتى خرج من عنده وهو يقول: ما رأيت قط أبلغ من زيد بن علي. (انظر أعلام المؤلفين الزيدية تحت الطبع).

(٢) ومثل هذا بلفظه في الرازي ١٨٥/٢٨، وقد أصلحنا اللفظ منه، وما بين قوسي الزيادة موجود في الرازي، وساقط من المصاييح.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ المراد في هذين الوقتين ؛ لأن طلوع الشمس هو إقبال النهار ﴿وَحِينَ الْغُرُوبِ﴾ هو إدباره ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صلاة التيسيح الذي في صلاة الليل ﴿وَأَذْبَارِ السُّجُودِ﴾ يعني أعقاب الصلوات ، ذكره في البرهان ^(١).

وذكر محمد بن القاسم في كتاب الوصية والمهجرة قال عليه السلام فيها : وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، كتب الله [له] بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات) ^(٢).

وذكر عن علي عليه السلام من وجوه كثيرة حديث مشهور معروف عند أهل البيت عليهم السلام والعامّة قد سمعته غير مرة (أن عليا عليه السلام قال لفاطمة عليها الرضوان : إن الطحين واختدامك على نفسك قد جهداك ، فلو أتيت أباك فسألتيه خادما فقالت : فيا نطلق معي ، قال : فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : ألا أدلكما على عمل خير لكما من ذلك : تسبحان الله إذا أويتما فراشكما ثلاثا وثلاثين ، وتحمدانه ثلاثا وثلاثين ، وتكبرانه أربعا وثلاثين ، فذلك مائة على اللسان وألف في الميزان ، قال علي عليه السلام : ما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كل فريضة ، وعند كل نوم ، فقال له رجل : ولا ليلة صفين يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ولا ليلة صفين) . اهـ

ويحتمل قوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أن يكون أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم له شغلان أحدهما : عبادة الله ، وثانيهما : هداية الخلق ، فإذا هداهم ولم يهتدوا قيل له : أقبل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هذا إشارة إلى بيان

(١) انظر البرهان ٣٥٦.

(٢) حديث (من قال : سبحان الله) شواهد كثيرة ، ذكرها في موسوعة أطراف الحديث النبوي ، وعرا بعضها إلى الطبراني ٣٨٨/٢ ، والحاكم في المستدرک ٥٠٢/١ ، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤٣٥/٢٠٢٥/٢٠٢٥ وجمع الزوائد ٨٩/١٠ ، ٩١ ، وكنز العمال رقم ٢٠٣٦.

غاية التسبيح ، بمعنى اشتغل بتزنيه الله وانتظر المنادي ، كقوله تعالى : ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ والمعنى : واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة ، وفيه تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، وهو المحدث عنه .

وقوله : ﴿يوم يناد المناد﴾ استئناف كلام ، قال العامة من المفسرين : والمنادي : إسرافي يقف على صخرة بيت المقدس فينادي أيها الناس هلموا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء .

والمكان القريب : صخرة بيت المقدس هي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلا . قلت : وأحسن من هذا وأصح ما ذكره الإمام الناصر لدين الله عليه السلام في برهانه حيث قال في معنى ذلك : شبه الله عز وجل خلقه في اجتماعهم يوم القيامة عند بعثهم بمن يجتمعهم الصوت والنداء من مكان قريب ؛ لأن الله قادر على جمعهم ، وإن بعدت ديارهم وأوطانهم وأماكنهم ؛ لأن ذلك البعد في مقدور الله عز وجل قريب^(١) . اهـ

وقد تقدم في سورة القارعة للقاسم بن إبراهيم عليه السلام ما يؤيد هذا ، وأن الداعي يدعوهم يوم يكون الناس كالفرش المبثوث^(٢) .

وأما قوله تعالى : ﴿من مكان قريب﴾ فهو إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد ، بل يستوي في استماعه كل أحد ، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى ، إذ ليس المراد من المكان نفس المكان ، بل ظهور النداء ، وهو من الله تعالى أقرب ، وهذا كما قال في هذه السورة : ﴿ونحن أقرب إليه من جبل الوريد﴾ وليس ذلك بالمكان .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ هي النفخة الثانية ، وقوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ المراد به البعث والنشر للجزاء الذي هو حق ، وقيل : يسمعونها حقا ، أي : بلا شك ﴿ذَلِكَ﴾ أي : يوم يسمعون الصيحة ﴿يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور .

ثم قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ في الدنيا ﴿وَنُمِيتُ﴾ فيها أيضا ، أي : نحن المختصون

(١) البرهان ٣٥٦ .

(٢) انظر الجزء الأول من المصاييح ، تفسير سورة القارعة .

بالقدرة على ذلك ، وكذلك على البعث ﴿وَالْيَا الْمَاصِرُ﴾ وهو المرجع ، والحياة للبعث والجزاء ، أي : لا يرجع جزاء العباد إلى غيرنا ، فقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لتعريف عظمته ، يقول القائل : أنا أنا ، أي : مشهور ، و﴿نَحْيِي وَنَمِيتُ﴾ أمور مؤكدة معني العظمة ﴿وَالْيَا الْمَاصِرُ﴾ بيان إلى المقصود .

ومعنى ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي : تفتح عنهم قبورهم ، وكانت منطقية فيخرجون منها ﴿سَرَّاعًا﴾ فقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَّاعًا﴾ العامل فيه هو ما في قوله : ﴿يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من الفعل ، أي : يخرجون يوم تشقق الأرض عنهم ، وقوله : ﴿سَرَّاعًا﴾ حال للخارجين ؛ لأن قوله تعالى : ﴿عَنْهُمْ﴾ يفيد كونهم مفعولين بالتشقق .

ثم قال تعالى : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من حديث البعث ﴿حَشَرٌ﴾ أي : جمع العباد ، والحشر : الجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي : سهل فعله ، لا يسهل إلا علينا ؛ لأنه أمر عظيم ، وقوله تعالى : ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص ، أي : هو علينا هين ، لا على غيرنا ، وهو إعادة جواب قولهم ﴿ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يعني : من تصديق أو تكذيب ، من إنكار البعث وغيره ، وفيه تهديد لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ يعني : بمتسلط متحجر عليهم ، تكرههم على الإيمان ، وقيل : أراد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم^(١) .

ثم أمر تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بمقتضى ما في القرآن من الأوامر السوارة بالتبليغ والتذكير فقال سبحانه : ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي : يتفزع بالوعظ والذكرى ، وهو الذي يخاف وعيدي ؛ لأن الذكرى لا تنفع إلا فيه ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ .

والله أعلم

(١) ومثل هذا في البرهان ، وتفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي .

سورة الحجرات

ثمانية عشرة آية باتفاق (مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) أي لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكم الله ورسوله . قاله الواحدي^(٢)

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آتاه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ معناه : لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه . وقوله تعالى : ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ أُمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ معناه : اصطفاهم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَنَ﴾ معناه أصابكم لعنة ، وهو الضرر .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ معناه رجعت . وقوله تعالى : ﴿وَأَقْطَعُوا﴾ معناه اعدلوا .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه لا تغيبوا ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ معناه : لا تقولوا : يا كافر ، يا فاسق .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ معناه : كل الظن . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ معناه : لا تبحثوا .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آتاه الصلاة والسلام :

فالشعوب أكبر القبائل .

وقوله تعالى : ﴿لَتَعَارَفُوا﴾ معناه : لتعلموا . وقوله تعالى : ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾ معناه : لم يشكوا .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَلْتَمِسُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ معناه : لا ينقصكم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ معناه : استسلمنا لخوف القتل والسي .

ومن تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام تفسير غريب سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنْ تَحِبَّ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي : تهلك وتبطل ، والعرب تقول مما بلغنا : حبط الحمل إذا

مات ، ومعنى ﴿لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي : لا تعلمون ، قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه :

فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدنه لم يشعر

أي : لم يعلم ، ومعنى يفضون أصواتهم : النض هو : الحفظ ، قال الله عز وجل فيما حكى عن لقمان عليه السلام (واغضض من صوتك) . ومعنى ﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي : اختبر قلوبهم للتقوى ، أي : بالتقوى ، ولكن اللام تقوم مقام الباء . ومعنى ﴿ينادونك من وراء الحجاب﴾ أي : من وراء الجدر ، ومعنى ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ يريد إن جاءكم بخبر فلا تعملوا حتى يتبين الأمر ﴿أن تصيبوا قوما بجهالة﴾ يريد أن لا تصيبوا قوما لم يذنبوا ، فحذف لا كما قال الشاعر : نزل من الأضياف منا فعملنا القرى أن تشتموننا
فحذف لا وهو يريدنا ، وإنما أراد أن لا تشتموننا ، ومعنى ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾ قال الشاعر :

رأيتك تبتغي عني وتسعي مع الساعي علي بغير ذحل

أي : تطلب تعبي وعمي .

ومعنى ﴿وإن طائفتان من المؤمنين﴾ الطائفة : هي الجماعة ، والطائفتان : هما الجماعتان ، ومعنى ﴿من المؤمنين﴾ أي : من المؤمنين بالإيمان المقرين ، ولم يرد المؤمنين المحققين ، ومعنى ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي : حتى ترجع ، قيل : نزلت في رهط عبد الله بن أبي الأنصاري ، وفي رهط عبد الله بن رواحه الأنصاري ، مر رسول الله صلى الله عليه وآله بعد آذاني ، فقال عبد الله بن رواحه : لا تنأذ بحمار رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوالله إنه خير منك ، فوقع القتال بينهما وبين قومهما على هذه الكلمة .

ومعنى ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ أي : لا يتهازأ قوم بقوم ، ولا يتلعبوا بذكرهم وعيهم ، فلعلهم خير منهم ﴿ولا تنازروا بالألقاب﴾ التبر : هو اللقب ، وهو الاسم القبيح الذي يشتهر به صاحبه ، ويطعن عليه به ، قال الكندي بسن زيد رحمة الله عليه : اسم هو المستبان لا التبر الـ كاذب من قاله ولا اللقب واللفظ يختلف ، والمعنى واحد مؤتلف ، ومعنى ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ بئس : كلمة ذم ، ونعم : كلمة مدح ، وفي هذا تقديم وتأخير ، والمعنى فيه الفسوق بعد الإيمان بئس الاسم ، والفسوق : هو الخروج من الدين . ومعنى ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ هو اعتزلوا ، قال الشاعر :

قالت وردت مع رسول الله منتدب
مالك عندي من نوال فاجتنب
لا والذي حجت له الشعث العصب
أرضا بها ذكرى وأمنع الحرب

يريد : فاعتزل أرضاً بها ذكرى . ومعنى ﴿ولا تجسسوا﴾ أي : لا تجسسوا على الناس ، ولا تبحثوا عن أسرارهم ، والعرب تقول للكلب إذا توحش ودار لطلب المأكول : إنه ليتجسس . فنهاهم الله عز وجل من تجسس الأسرار ، والبحث عن مالا يعينهم من الاعوار ، وفعل الخونة الأشرار .

ومعنى ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ هذا نهى عن غيبة المؤمنين ، والطعن عليهم إذا غابوا من مجالس الفاسقين . ﴿وجعلناكم شعوباً﴾ أي : قبائل متشعبة مفرقة ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أي : أرفعكم قدراً أتقاكم ، ولو كان عبداً . ومعنى قوله في الأعراب : ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي : سلمنا ولم نحارب .

وقال المفسرون : لا تعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقوله رسول الله أو يفعله ^(١) .
قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام ، وبين يدي الأب ، أي : لا
تعجل بالأمر والنهي قبله ^(٢) .

المعنى : لا تتكلموا بين يدي كلامه ، ولا تتقدموه في شيء من أفعاله .
يوضح ذلك تفسير الإمام الهادي عليه السلام لهذه الآية حيث قال : هذا نهى من الله سبحانه
للمؤمنين أن لا يتقدموا في شيء من الأشياء بيسط ، أو أمر ، أو أخذ ، أو إعطاء ، وإيمان
عدو ، أو مسالة ، أو لقاء دون الله ورسوله ، والإذن في ذلك من الله ورسوله ^(٣) . اهـ

[سبب النزول]

واختلف في سبب نزولها ، فقيل : إن عمرو بن أمية الضمري ، ورجلين معه قتلوا
رجلين من بني سليم ظنوهما مشركين من بني عامر ، قيل أن يستأذن عمرو رسول الله
فقال صلى الله عليه وآله : (بئس ما صنعتما) ووداهما ^(٤) .

ومعنى ﴿لا يأتكم من أعمالكم﴾ أي : لا ينقصكم ، قال الشاعر :
(جهد الرسالة لا أنا ولا كذبا)
أي : لا نقص . ومعنى ﴿لم يرتابوا﴾ أي : لم يشكوا . ومعنى ﴿يعنون عليك أن أسلموا﴾ يريد : أنهم يستكبرون
لك ويمتدحون عليك بإسلامهم وشهادتهم وإقرارهم ﴿والله بصير بما تعملون﴾ يريد : أنه عليم بكل ما يفعلون .
(٢) وذكره الحاكم الجشمي عن ابن زيد .

(١) قال الحاكم الجشمي : وقيل : لا تسبقوه بقول ولا فعل حتى يأمركم به عن السدي ، والكلبي ، وأبي عيسى لأن
التقدم هو أن يفعل ما لم يؤمر به ، وقيل : لا تقطعوا أمرا من دونه عن ابن زيد ،
(٢) في النسخ (أبو عبيد) والصواب (أبو عبيدة) ، وهو في مجمع البيان بلفظه ٨٤/٦ ط مكتبة الحياة بيروت .
(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥٦ .

(٤) وذكر الحاكم الجشمي مثله عن عطاء الخراساني ، وأيضاً في الكشاف ، قال : وقيل : بعث رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلاً ، وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فقتلهم بنو عامر ، وعليهم عامر بن
الطقيط ، إلا ثلاثة نفر نجوا ، فلقوا رجلين من بني سليم قرب المدينة ، فاعتزبا لهم إلى بني عامر لأنهم أحر من بني سليم
فقتلوهما وسلبوهما ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : بئس ما صنعتما ، كانا من بني سليم ، والسلب ما
كسوتهما ، فوداهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزلت .

وقيل : نزلت في النهي عن تعجيل الذبح يوم الأضحى^(١) قبل الصلاة ، وقالت عائشة : نزلت في النهي عن صوم يوم الشك^(٢) ، وقيل : غير ذلك^(٣) .

وذكر البيهقي في حق الله مجاز على طريق التخييل ، ويراد بقولهم : بين يدي كذا في غيره تعالى : قدام الشيء وأمام الشيء ، ومنه : ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾^(٤) ويجوز أن يكون ذكر الله تعالى مقدمة لذكر رسوله يفيد التأكيد ، نحو قولهم : أعجني زيد وأدبه ، أي : أعجني أدب زيد ، فيراد لا تقدموا بين يدي رسول الله ، ويجوز أن يقدر مضاف ، أي : لا تقدموا بين يدي وحي الله ، أو بين يدي أمر الله ونهيه .

وقرأ ابن مسعود وقادة ويعقوب (تقدموا) بفتح التاء والذال ، قال الفراء والزجاج : ومعناها واحد ، قدمت وتقدمت^(٥) . ذكره في التحريد .

﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك ما نهاكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعني : سمعاً لقولكم ، عليماً بفعلكم ، وحقه أن يتقى .

قال ابن حجر في التخريج : أخرجه البيهقي في الشعب ، في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان ... ورواه في الدلائل من طريق ابن إسحاق ، ومن طريق موسى بن عتبة : هذه القصة على غير هذا السياق ، وأن المقتولين من بني كلاب ، وأن الثلاثة قتل منهم واحد ، وهو المحفوظ والمشهور في المغازي : (الكشاف ٣٥٠/٤) .

(١) نسب الحاكم هذا القول إلى عامر بن عبد الله ، والحسن . وفي الكشاف عن الحسن ، وقال ابن حجر في التخريج : أخرجه عبد الرزاق ... ، وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة ... وقال الحسن : هم أناس .. فذكره . الكشاف ٣٥٠/٤ .

(٢) قال الحاكم الجشمي : وقيل : نزلت في قوم صاموا قبل صوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عائشة ، قال مسروق : دخلت عليها يوم الشك فأمرت لي بفسل ، فقلت : إني صائم ، فقالت : نهى النبي صلى الله عليه وآله عن صوم هذا اليوم . وذكره أيضاً الزمخشري في الكشاف ، قال ابن حجر في تخرجه : هكذا ذكره الثعلبي بغير سند ، وذكره الدار قطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة ، والراء عن مسروق ... وذكر مثله . الكشاف ٣٥٠/٤ .

(٣) قال الحاكم : وقيل : نزلت في أناس كانوا يقولون : لو أنزل في كذا ، أو وضع كذا ، فكره الله ذلك ونزلت الآية عن قتادة . وقيل : نزلت في الشرائع والقتال ، يعني لا تقضوا أمراً دونه عن الضحك . وقيل : نزلت في قوم كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فإذا سئل حاضوا فيه قبله وأفتوا فنهوا عن ذلك عن أبي علي .

(٤) سبأ : ٤٦ .

(٥) لف ونشر غير مرتب ، فتقدمت لقراءة النصب ، وقدمت لقراءة رفع التاء وكسر الدال .

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إذا نطق ونطقتم ، فلا تبلغ أصواتكم ، وراء الحد الذي يبلغه بصوته ، وعليكم أن تغضوا بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم ، حتى تميز مرتبته .

قوله: ﴿لَا تَقْدُمُوا﴾ نهى عن فعل يني عن كونهم عاجلين^(١) .

وقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ نهى عن قول يني عن ذلك الأمر ، لأن من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارا أو عظمة ، وأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام ، وترك الاحترام ، وتكرير النداء عليهم استدعاء منهم لتحديد التيقظ عند كل خطاب ، وتطرية للإنصات لكل حكم نازل لئلا يفترخوا عن تأمله ، ويغفلوا عما أخذوا به من الإنصاف في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأن إعظام صاحب الشرع إعظام لما جاء به .

[سبب النزول]

وفي البرهان قيل: إن رجلين من الصحابة تماريا عنده فارتفعت أصواتهما فنزل ذلك فيهما^(٢) . ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي إذا كلمتموه وهو صامت خفضتم أصواتكم كما تكون مخاطبة المهيب المعظم ، لاكما يجهر بعضكم لبعض .

وقال في البرهان : وإنما هذا الجهر هو المنع من دعائه باسمه ، أو كنيته ، كما يدعو بعضهم بعضا ، وليكن دعاؤه بالنبوة أو الرسالة كما قال عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُلِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٣) . اهـ

وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف ، وإنما الغرض ألا ينتهي ذلك إلى حد لا يناسب ما يخاطب به العظماء ، لكن يتكلف من الغض ما يدل

(١) في الرازي : ﴿لَا تَقْدُمُوا﴾ نهى عن فعل يني عن كونهم جاعلين لأنفسهم عند الله ورسوله بالنسبة إليهما وزنا ومقدارا ومدخلا في أمر من أوامرهما ونواهيهما . ثم ذكر بعده ما ذكره المصنف (الرازي ١١٢/٢٨) .

(٢) البرهان ٣٥٠ .

(٣) سورة النور : ٢٣ ، البرهان ٣٥٠ .

على توقير المخاطب ، ولم يتناول النهي أيضا الرفع الذي لا يتأذى به صلى الله عليه وآله وسلم [وهو ما كان منهم] ^(١) في حرب أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدو ، ونحو ذلك .
ثم علل ذلك بقوله عز وجل : ﴿أَنْ تَحِيطَ أَغْمَالُكُمْ﴾ أي : تهلك وتبطل ، والعرب فيما تقول : حبط الجمل إذا مات .

[وعن] ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس ، وكان في أذنه وقر ، وكان جهوري الصوت ، فإذا كلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربما يتأذى ، وأنه لما نزلت فقد ثابت فنفقده صلى الله عليه وآله وسلم فأخبر بشأنه ، فسأله فقال : أخاف أن يكون عملي قد حبط ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : (لست هناك ، إنك تعيش بخير ، وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة) ^(٢)
قلت : وروى الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش في كتابه البساط : أن هذه الآية نزلت في الخيرين أبي بكر وعمر ، قال عليه السلام : فإذا كان مثل عمل أبي بكر وعمر ، وإقرارهما الذي هو إيمانهما — تحبط وتبطل إذا رفعا أصواتهما فوق [صوت] النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع مكانهما في الإسلام ، فما يكون حال سواهما ؟!

قال عليه السلام : قال : حدثنا بشر بن عبد الوهاب ^(٣) بدمشق ، قال : حدثنا وكيع بن الجراح ^(٤) ، قال : حدثنا نافع ^(٥) بن عمر الجمحي ، عن ابن أبي مليكة ^(٦) : (كاد الخير أن يهلكا أبو بكر وعمر ، لما قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع

(١) ومثل هذا الكلام في الكشاف بصرف ، وما بين القوسين من الكشاف ٣٥٢/٤ .

(٢) أخرج مثله البخاري في التفسير ٥٩٠/٨ ، ومسلم في الإيمان برقم ١١٩ ، والنسائي في التفسير ٣١٦/٢ ، وابن جرير ١١٨/٢٦ ، والواحدي برقم ١٠١٥ ، وهو في الكشاف ٣٥٣/٤ ، قال ابن حجر في فتحه : متفق عليه من حديث أنس ، ورواه أحمد والطبراني .

(٣) بشر بن عبد الوهاب الأموي ، عن وكيع (٣١) في البساط ، وفي أمالي أبي طالب عليه السلام بشر بن عبد الوهاب ، عن عبيد الله بن موسى ، وعنه الناصر ، وأحمد بن محمد بن فراس بن الهيثم الغراسي البصري .

(٤) وكيع بن الجراح يفتح الجيم والراء المشددة ، وبهاء مهملة الرؤاسي ، حافظ للحديث ، ثبت ، كان محدث العراق في عصره ، عن هشام ، والأعمش ، والباقر ، وأبي حنيفة ، والثوري ، وشعبة ، وغيرهم ، وعنه علي بن حكيم أبو كريب ، وابن المديني ، وابن أبي شيبة ، وبشر بن عبد الوهاب ، وعلاق ، أنثى عليه العليلاء ، وهو من محدثي الشيعة ،

ابن حابس الحنظلي^(١) أخني بني مجاشع ، وأشار الآخر بغيره فقال أبو بكر لعمر: إنما أردت خلافي فقال عمر: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢) قال ابن أبي مليكة: قال ابن الزبير [ولم يذكر ذلك عن

ولد سنة ١٢٩هـ ، وتوفي سنة ١٩٧هـ ، خرج له الجماعة ، وأتمتا الخمسة ، وغيرهم .

(٥) نافع بن عمر الجمحي : هو نافع بن عمر بن عبد الله بن حميل القرشي الجمحي المكي ، حافظ للحديث ، كان يحدث مكة في زمانه ، عن ابن أبي مليكة ، وسعيد بن أبي هند ، وعمرو بن دينار ، وغيرهم ، وعنه ابن القطان ، وابن مهدي ، ووكيع ، وأبو نعيم وخلق ، أنشئ عليه العلماء ، توفي سنة ١٦٩هـ ، احتج به الجماعة .

(٦) ابن أبي مليكة : هو عبد الله بن عبد الله التيمي المكي ، قاض من رجال الحديث الثقات ، ولاء ابن الزبير قضاء الطائف ، عن العبادة الأربعة ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأسماء ، وعائشة ، وأم سلمة ، وعثمان بن عفان وغيرهم ، وعنه ابنه يحيى ، وعطاء ، وحيد الطويل ، ونافع بن عمر الجمحي ، وأبو هلال الراسي وجماعة ، مات سنة ١١٧هـ من ثقة التابعين .

(١) الأقرع بن حابس : هو الأقرع بن حابس بن عقيل ، المجاشعي ، التيمي ، صحابي ، من سادات العرب في الجاهلية ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله في وفد من بني دارم من ميم فأسلموا ، وشهد فتح مكة ، وكان من المؤلف ، وقتل بالجزع سنة ٣١هـ .

(٢) أخرج البخاري ٦/ ٢٤٣ (٣٣٩) وابن المنذر ، والطبراني ، عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا .. الخ وأخرجه الترمذي من طريق ابن أبي مليكة ، وابن جرير . الدر المنثور ٧/ ٥٤٨ .

وابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير بن العوام ، القرشي ، أبو بكر ، أول مولود في المدينة بعد الهجرة ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وآله وعن أبيه ، ووجهه أبو بكر ، وعليه عليه السلام ، وعمر ، وعثمان ، وعائشة ، وغيرهم ، وعنه أولاده عباد ، وعامر ، وأم عمرو ، وأخوه عروة ، وغيرهم ، بويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ عقب موت يزيد بن معاوية ، فحكم مصر والحجاز ، واليمن ، وخراسان ، والعراق ، وأكثر الشام ، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة ، قتل في إحدى سنين ٧٣هـ وكانت مدة خلافته سبع سنين ، وقد ذاق أهل البيت منه الويلات ، وحسمهم في شعب أبي طالب ، ونفى ابن عباس إلى الطائف ، وله ترجمة مستوفاة في لوامع الأنوار ، للمولى العلامة محمد الديسن المؤيدي الجزء الثالث .

والزبير : هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي ، أبو عبد الله ، ابن عمه النبي صلى الله عليه وآله ولد سنة ٢٨ ق هـ أسلم وله اثنا عشرة سنة ، وشهد بدر ، وأحدا ، وغيرهما ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله ، وعنه ابنه

أبيه] : ذكر أن عمر بعد ذلك كان إذا حدث النبي ﷺ بحديث حديثه كأخي السرار لا يسمعه حتى يستفهمه ؛ من خفيض صوته .

قلت : ومثل هذا في البخاري بإسناده إلى ابن أبي مليكة ، وهو في التجريد أيضا ، قال عليه السلام : وإني لأكثر التعجب ، من قوم لهم عقول وتمييز وفهم ، يسمعون الله سبحانه يقول : لمن عصاه ، وعصا رسوله ﷺ : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾^(١) فيقولون : بلى هم مؤمنون ، إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل . فآله المستعان ! اهـ

قال في الكشف : وقوله ﴿ أن تحبط أعمالكم ﴾ منصوب الموضع على أنه مفعول له ، [وفي متعلقه وجهان أحدهما أن] يتعلق بمعنى النهي ، أي : انتهوا عما نهيتهم لخشية حبوط أعمالكم ، أي : بطلانها ، من حبطت الإبل إذا أكلت الخضراء ، أي : بقل الربيع فتنتفع بطونها فتهلك .

ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل ، ويكون المعنى أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط ؛ لأنه لما كان يصدد الأداء إلى الحبوط ، جعل كأنه جعل لأجله ، فكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل التمثيل ، كقوله : ﴿ ليكون لهم عدوا ﴾ ذكره في الكشف^(٢) ثم قال تعالى : ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ حبوطها ، أي : لا تعلمون .

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يتوقى .

واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي ﷺ وإكرامه وتقديره على أنفسهم ، وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه بالرفقة والرحمة ، وأن يكون أرفأ بهم من الوالد كما

عبد الله وعروة ، والأحف وغيرهم ، قتل يوم الجمل بواد السباع غيلة سنة ٣٦ ، خلف أملاكاً بيعت بنحو أربعين مليون درهم وفي الأثر (مازال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله) .

(١) النور : ٤٧ .

(٢) انظر الكشف ٤/٤٠٤ ، وما بين القوسين منه ، وهو ساقط في الأصل .

قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٢) وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾^(٣) إلى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الأحرار بالقهر ، فيكون انقيادهم له لوجه الله تعالى^(٤).

ثم أثنى على المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإكرامه وإجلاله وتعظيمه ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي : يعضونها عند خطابـه ، والغض : هو الخفض ، كما حكى الله عن لقمان ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وفيه حث على ما أرشدهم إليه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي : امتحنها ليعلم منها التقوى ، ومعناه : ليظهر معلومه منها .

وقال ابن عباس : معناه أخلصها . وقال الزجاج : اختبرها ، يقال : امتحن الذهب إذا أخلصه من خبثه ، والامتحان : هو اختبار بليغ .

قال الهادي عليه السلام : هذا شاء من الله تبارك وتعالى على من يفعل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله إجلالا وتعظيما مما يكون من غض صوته وتكريمه ، فأثنى الله على من فعل ذلك ، وأخبر أنه ممن قد امتحن الله قلبه للتقوى ، وامتحان الله لقلبه بما أمره به من تعظيم نبيه ، وإجلال ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من وحيه ، فكان غضهم للأصوات عنده قياما منهم لمؤكد المحبة ، وكان قيامهم بالامتحان تقوى منهم وإيمانا^(٥) . اهـ

ثم قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ المغفرة : إزالة السيئات ، وفيها تعريض بتعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم ، أو استيجاب ضد ما أستوجب هؤلاء .

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٦) وراء : اسم للجهة ، والذي يقول : ناداني [فلان] من وراء الدار لم يرد وجه الدار ولا دبرها ،

(١) الحجر : ٨٨ .

(٢) الكهف : ٢٨ .

(٣) القلم : ٤٨ .

(٤) ومثله في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه ١١٤/٢٨ .

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٧

ولكن أي قطر من أقطارها ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أن النداء وقع منهم في أدبار الحجرات ، أو في وجوهها ، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البر والخارج مناداة الأحلاف بعضهم ، من غير قصد إلى جهة دون جهة .

والحجرات : جمع حجرة البقعة من الأرض المحجورة بحدار يحيط بها ، والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان لكل واحدة حجرة ، ومناداتهم [من ورائها] يحتمل أنهم تفرقوا عليها [متطلبين له] فنادوا ، بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك ، وأنهم أتوه حجرة حجرة فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، لكن جمعت إجلالا له صلى الله عليه وآله [ولم كان حرمة] والفعل وإن أسند إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم ، ورضيه الباقون ، فكانهم تولوه معا^(١) .

فقد روي أن الذي ناداه عيينة بن حصن ، وكان اسمه حذيفة ، والأقرع بن حابس . قال في التحريد : روي أن وفد بني عثيم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقت الظهيرة وهو قائل ، فجعلوا ينادونه : يا محمد اخرج ، فاستيقظ وخرج ونزلت .

وقال الثعلبي : كان لكل امرأة من نسائه صلى الله عليه وآله وسلم بيت وحجرة ، فجعلوا ينادونه وهو نائم القائلة في سبي لهم فأذوه فقال صلى الله عليه وآله : اجعل بيني وبينكم حكما ، فحكموا الأعور ، فقال : تفادي بعضهم وتعنى بعضهم ، ففعل صلى الله عليه وآله وسلم .

قال في الكشف : ومن هنا يقتطف ثمرات الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد ومكانه من الزهد والعلم ، وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال : ما دققت على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه^(٢) .

وقال في البرهان : في سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما : أن رجلا^(٣) جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فناداه من وراء الحجرات : يا محمد إن مدحي زين ، وإن ذمي شين ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ويلك ، ذلك الله [وحده] عز وجل ، فأنزل الله هذه الآية .

(١) ومثل هذا في الكشف ، وقد أصلحنا اللفظ منه (٣٥٧/٤) .

(٢) الكشف ٣٥٩/٤ .

والثاني : أن أناساً أتوا النبي صلى الله عليه وآله فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يـك نبيا فنحن أسعد الناس بإتباعه ، وإن يكن ملكا نعش في حياته ، فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وهو في حجرته فنادوا : يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إنهم كانوا تسعة نفر ، قيس بن عاصم ، والزبير بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هشام ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والقعقاع بن معبد ، وو كيع بن وكيع ، وعيينة بن حصن . اهـ .

وقوله : ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ قَصَدَ بِالْحَاشَاةِ ، وَيَحْتَمَلُ أَنَّهُ قَصَدَ إِلَى نَفْيِ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ يَعْقِلُ ، فَإِنَّ الْقِلَّةَ تَقَعُ مَوْقِعَ النَّفْيِ فِي كَلَامِهِمْ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ الصَّبْرُ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ إشارة إلى حسن الأدب الذي على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب .

ثم أخبر سبحانه عن قبوله التوبة فقال : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بليغ الغفران والرحمة لهم ، إذا تابوا .

ثم أرشد جل جلاله المؤمنين إلى حسن الثبوت والثبات فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ يريد أن جاءكم بخبر فلا تعجلوا حتى يتبين لكم الأمر ويتحقق ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ لئلا تصيبوا ﴿ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : جاهلين حقيقة الأمر .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد أن لا تصيبوا قوما لم يذنبوا ، فحذف لا ، كما قال الشاعر :

نزلتم منزل الأضياف منا
فعجلنا القرى أن تشتمونا

وإنما أراد أن لا تشتمونا ، فحذف لا وهو يريد بها .

وقد ذكر الرازي في قوله تعالى : ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ وجهين : أحدهما - مذهب الكوفيين ،

(٣) ذكره الواحدي في تفسيره ، ونسبه إلى وفد بني ثميم ، وهم الذين قالوا هذا القول ، ثم ذكر المحقق أن الحديث أخرجه البخاري في التفسير ١٥٩٠/٨ ، والنسائي في تفسير ٣١٨/٢ ، والترمذي في التفسير برقم ٣٢٦٦ ، وابن جرير ١٢٢/٢٦ . (الوجيز ١٠١٦) .

(٤) ما بين القوسين موجود في الأصل لهذا التفسير ، وغير موجود في البرهان المخطوط . (البرهان ٣٥١) .

وهو أن المراد لثلاث تصيبوا .

وثانيهما : مذهب البصريين ، وهو أن المراد كراهة أن تصيبوا ^(١) .

[سبب النزول]

قال في البرهان : نزلت في الوليد [بن عقبة بن أبي] ^(٢) معيط ، وسبب نزولها فيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث الوليد إلى بني المصطلق ، فلما أبصروه أقبلوا نحوه ، فهابهم فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فبعث إليهم [رسول الله] صلى الله عليه وآله بعض أصحابه ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق الرسول حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونه ، فلما جاؤه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم

(١) الرازي ١٢٠/٢٨ .

(٢) ما بين القوسين ثابت في البرهان ٣٥٢ .

وهذا قول مجاهد في تفسيره ص ٦٠٦ ، وأخرجه أحمد بسند جيد ١٢٧٩/٤ ، وذكره الواحدي في الأسباب ص ٤٥٠ ، بزيادة (وكانت بينهم ترة في الجاهلية ، فخاف أن يأتيهم ، وانصرف من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله) وأخرجه ابن جرير ١٢٣/٢٦ ، عن أم سلمة ، وهو في الكشف ٣٥٩/٤ ، ولفظه : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد ابن عقبة — أخا عثمان لأمه — وهو الذي ولاه عثمان الكوفة ، بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ، ثم قال : هل أزيدكم ؟ فعزله عثمان عنهم — مصداقاً إلى بني المصطلق ، وكانت بينه وبينهم إحنة ، فلما شاف ديارهم ركبوا مستقبليين له ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ارتدوا ، ومنعوا الزكاة .. الخ ما ذكره هناك .

قال ابن حجر في تخرجه : أخرجه إسحاق ، والطبراني ، من حديث أم سلمة ، دون قوله : (فاتهمهم فقال : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً ، هو عندي كنفي ، يقاتل مقاتلتكم .. الخ ، وعندهما بدل ذلك : فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، ونحوه رواه أحمد ، والطبراني أيضاً ، من حديث الحارث بن دثار الخزاعي ، وأخرجه ابن مردويه ، من طريق عبد الله بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن موسى بن المسيب ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة ، فذكر الحديث بنحوه ، وزاد فقال عليه الصلاة والسلام : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً ... فذكره . (الكشف ٣٦٠/٤)

وقال ابن حجر في تخرجه ما ذكره الكشف ، من صلاة الوليد بن عقبة وهو سكران : أخرجه مسلم ، من طريق أبي ساسان حصين بن منذر ، قال : شهدت عثمان أخا الوليد بن عقبة ، وقد صلى الغداة بالكوفة أربعاً : الحديث بطوله ، وأخرجه ابن إسحاق ، والنسائي من هذا الوجه ، وقالوا : فيه : (وقد ظننى الغداة أربعاً) .

وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم [الرسول] ، ورأى صحة ما ذكر له ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [فنزلت هذه الآية] ^(١) .

قال في التجريد : أمر إليهم علي بن أبي طالب ، فوجدهم منادين بالصلاة متهجين ، وسلموا إليه الصدقة ، فنزلت هذه الآية .

وروى الإمام محمد بن القاسم عليهما السلام في كتاب دعائم الإيمان ، في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، عن عائشة ، والحارث بن ضرار الخزاعي ، وغيرهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أن خزاعة أتت النبي فأسلموا ، وكان رئيسهم الحارث بن ضرار ، فقال الحارث : يا رسول الله بيننا وبين هذا الحي من كفار قريش حروب ، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، وإني صائر إلى قومي ، فأجمع صدقات من أسلم منهم ، فإذا كان الحول أرسلت من يحمل صدقاتنا ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أرسل نعم ، ووعدته ، فلما كان رأس الحول أرسل إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فلما صار في بعض الطريق خاف ورجع ، وقال : يا رسول الله ، أتيت الحارث بن ضرار وقومه ، فجددوا لي القتال ، وهموا بقتلي ، فوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشا إلى الحارث بن ضرار وإلى خزاعة ، فلما كان الجيش في بعض الطريق لقيهم الحارث بن ضرار في سراوات قومه ، وقد حملوا صدقاتهم ، فقال أمير الجيش : يا حارث بن ضرار أردت قتل رسول رسول الله ، ومنعت الزكاة ، فارتددت عن الإسلام ؟ فقال الحارث : والذي بعثه بالحق ما أخرجني في سراوات قومي إلا إبطاء خبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عني ، فقدم المدينة ، فلما أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : هيه يا حارث أردت قتل رسولي ، ومنعت الزكاة ، وجددت لي القتال ؟ فقال الحارث : والذي بعثك بالحق ما أخرجني في سراوات قومي إلا إبطاء خبرك ، وهذه صدقات قومي ، فأنزل الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ ^(٢) .

(١) ما بين أقواس الزيادة من البرهان ٣٥٢ ، وفي تفسير المصايح (فرجع إلى الرسول)، وما أثبتناه هو ما في البرهان .

قال الرازي : هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على صنفين ؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجا عنها وهو الفاسق ، والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم إما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم ، فهذه خمسة أقسام أحدهما : متعلق بجانب الله ، وثانيها : بجانب الرسول ، وثالثها : بجانب الفاسق ، ورابعها : بالمؤمن الحاضر ، وخامسها : بالمؤمن الغائب .

فذكرهم الله تعالى في هذه السورة خمس مرات ^(١) ، وأرشدتهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة ، فقال : أولا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ؛ لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ، وقال ثانيا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال ثالثا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم... ^(٢) وقال رابعا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِنْ قَوْمٍ﴾ وقال : ﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والازدراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامسا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ [إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ]﴾ وقال : ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ وقال : ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرا لتأذي ، وهو في غاية الحسن من الترتيب ^(٣) .

(١) في الرازي (فذكرهم الله تعالى خمس مرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . وقد حذفها المصنف لئلا يتوهم أن الفاسق مؤمن . (الرازي ١١٩/٢٨) .

(٢) هنا حذف عما في الرازي والزيادة التي في الرازي هي : (وبين ذلك عند تفسير قوله ﴿وَأَنْ سَافَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اقتلوا) (الرازي ١١٩/٢٨) .

(٣) ما بين أقوال الزيادة من الرازي ، وفي الرازي (وهو في غاية الحسن من الترتيب) أي : وهذا الكلام في غاية الحسن من الترتيب . وفي أصل هذا التفسير (وهي في غاية الحسن) أي : وهذه الأوجه الخمسة في غاية الحسن . وقد أثبتنا ما في الرازي (١١٩/٢٨) .

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ لأن الجاهل لا بد أن يكون على فعله نادما ، وقوله: ﴿فَتَصَبِّحُوا﴾ معناه : تصيروا ، قال النحاة : (أصبح) يستعمل على أحد ثلاثة أوجه ، أحدها : بمعنى دخول الرجل في الصباح ، كما يقول القائل : أصبحنا [نقضي عليه] وثانيها : بمعنى كان الأمر وقت الصباح كذا [وكذا] ، كما يقال : أصبح اليوم مريضنا خيرا مما كان . وثالثها : بمعنى صار ، يقول القائل : أصبح زيد غنيا ، ويريد به صار من غير إرادة وقت دون وقت .

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تقولوا الباطل ، فإن الله يخبره ، قاله الواحدي ^(١) .

المعنى : أن فيكم رسول الله إن كذبتموه أخبره فافتضحتم .

ثم استأنف فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي : لو أطاع ^(٢) مثل هذا المخبر بما لا أصل له ﴿لَعَنْتُمْ﴾ أي : لأنتنم وهلكتم ، ووقعتم في الجهل ، يقال : فلان يتعننت فلانا ، أي : يطلب ما يؤديه إلى الهلاك ، وقد أعنت العظم : إذا هيض — أي : كسر — بعد الجبر ، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وآله وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق الوليد ^(٣) .

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ليس بمستأنف ، وإنما هو متصل بقوله: ﴿فِيكُمْ﴾ على أنه

(١) في كتابه الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، الجزء الثاني ص ١٠١٧ ، بلفظه .

(٢) قوله : (أي : لو أطاع) فيه إشارة إلى قول الزمخشري : فإن قلت : فلم قيل ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ دون أطاعكم ، قلت للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه ، وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولا عليه بدليل قوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ كقولك : فلان يقرئ الضيف ، ويحكي الحريم . تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرا . الكشف ٣٦١/٤ .

(٣) ومثل هذا في الكشف ، وزاد الزمخشري : (وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصنون ويزعهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استنابهم بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ﴾ الإيمان) أي : إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إجازات القرآن ، ولحنه اللطيفة ، التي لا يفتن إليها إلا الخواص .

حال منه . المعنى : أن فيكم رسول الله وأنتم على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهي أنكم تطلبون منه أن يعمل في الحوادث على ما ترون من الرأي كما يفعل التابع لغيره ^(١) ولو فعل ذلك لعنتم .

قال في البرهان : ويحتمل أن يكون لنا لتكم مشقة وشدة ، فإذا كانوا هم ورسول الله صلى الله عليه وآله فيهم بهذه الصفة ، فأهل عصرنا والله أسخف رأيا ، وأضعف عقولا [وأطيش أحلاما نسأل الله المعونة والمكافأة] ^(٢) .

ولفظ الهادي عليه السلام في ذلك : هذا خير بخير سبحانه بتوفيق الله لنبيته ، ومعرفة عما جهله غيره من الأحكام والرأي في جميع أمور أهل الإسلام ، فيقول سبحانه : لو أطاعكم الرسول فيما تهوون وتريدون ، وتشأؤه قلوبكم وتظنون من طرق كثيرة ، وأسباب تميلون إليها جليلة ، من حمية وعصبية — لقد عنتم ، ومعنى العنوت : فهو هلكتم عند الله وعطبتكم .

ثم أخرج سبحانه بتمته عليهم ، وأياديه العظيمة لديهم فيما من به فيهم من تحبيب الإيمان [إلهم] وإدخاله في قلوبهم ، وتبغيض ما كانوا عليه من الكفر إليهم ، وإخراج ما كانوا فيه بديا من صدورهم ، حتى عادوا لجهالتهم الأولى مبغضين ، ولما دخلوا فيه من محض الحق محبين ، وحتى صاروا برحمة الله مطيعين ، وعن عصيانهما نازحين ، فصاروا

(١) وقد اختار هذا الوجه الرازي فقال : ولنذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز أن يقال : أما ما قيل : فلنحضر أحسنه ، وهو ما اختاره الزمخشري ، فإنه بحث في تفسير هذه الآية بحثا طويلا فقال : قوله تعالى ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم﴾ ليس كلاما مستأنفا لأدائه إلى تنافر النظم ، إذ لا تبقى مناسبة بين قوله ﴿واعلموا﴾ وبين قوله ﴿لو يطيعكم﴾ ثم وجه التعلق هو أن قوله ﴿لو يطيعكم﴾ في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله ﴿فيكم﴾ كأن التقدير كائن فيكم ، أو موجود فيكم ، على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ، ولا ينبغي أن يكون في تلك الحال ؛ لأنه لو فعل ذلك ﴿لعنتكم﴾ أي : لوقعتم في شدة ، أو لمت به . (الرازي ١٢٢/٢٨) .

وقد ذكر الزمخشري بأنه يصح أن يكون حالا من الضمير المرفوع في فيكم ، أو المجرور ، وتقدير المجرور : أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها ، ولم يذكرها المصنف ، ولا الرازي . انظر الكشاف ٣٦١/٤ .

(٢) انظر البرهان مخطوط ٣٥٢ ، وما بين القوسين زيادة منه .

لله من العداوة أولياء ، وبحقائق الإسلام بعد الكفر أتقياء ، فقال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ﴾ .

قال في البرهان : وإنما حبيه بما جعل عليه من الثواب والمدح ^(١) .

وقال في الكشف : معنى تحبيب الله [وتكريهه] هو اللطف والإمداد بالتوفيق ، وسبيله [سبيل] الكناية .. وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغيب عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يمدحوا بفعل الله ، وقد نفى الله هذا على من أنزل فيهم : ﴿ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا﴾ والعقل قاض بمنع المدح للإنسان بغير فعله ، وأما مدح العرب بالجمال ، وحسن الوجوه ونحوه ، وهو فعل الله فالذي سوغ لهم ذلك أنهم رأوا حسن الخلق يدل على حسن الخلق ، وأن حسن الرواء ، ووسامة المنظر في الغالب يسفر عن مخبر رضي ، وأخلاق محمودة فلم يمدحوا به إلا لدلالته على غيره ، على أن من محققة النقاد ، وعلماء المعاني — من دفع ذلك ، وخطأ المادح به ، وقصر المدح على ما يقع باختيار فاعله ، وجعل المدح بالجمال والثروة والحفدة والأعضاء ، وغير ذلك مما ليس للإنسان فيه عمل — غلطاً ، ومخالفة عن المعقول ^(٢) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : بما دل من الشواهد على صحته ، وأبان من الآيات على سلامته .

وفي الكشف : أي [حبيه] إلى بعضكم ، لكن أغنى عن ذكر البعض ذكر صفاتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولحاته ، التي لا يفطن لها إلا الخواص ^(٣) ﴿وَكْرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ﴾ هو : تعطية نعم الله بالجحود ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ الخروج عن الإيمان ﴿وَالْعَصِيَانَ﴾ ترك الانقياد للشرع والحق .

قال في البرهان : ﴿كره إليكم [الكفر والفسوق والعصيان]﴾ يعني : بما وصفه الله من

(١) انظر البرهان (٣٥٢) .

(٢) انظر الكشف ٣٦٢/٤ ، وقد نقله المصنف بتصريف يسير .

(٣) ما بين القوسين غير موجود في الكشف ٣٦١/٤ ، وهو موجود في أصل هذا التفسير .

العقاب عليه ، والفسوق : هو كلما خرج به الإنسان من طاعة ربه ^(١) .
وقال بعض الناس : ﴿الكفر﴾ : ظاهر ﴿والفسوق﴾ : هو الكبيرة ﴿والعصيان﴾ : هو الصغيرة ^(٢) .

وقال الرازي : هذه ثلاثة في مقابل الإيمان الكامل ؛ لأن الإيمان الكامل المزين هو أن يجمع التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان [أحدهما] قوله تعالى : ﴿كره إليكم الكفر﴾ وهو التكذيب ، وهو في مقابلة التصديق بالجنان ﴿والفسوق﴾ : هو الكذب . [وثانيها : هو ما قبل هذه الآية] وهو قوله تعالى : ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ سمي من كذب فاسقاً ، فيكون الكذب فسوقاً . [ثالثها] ما ذكره بعد هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ فإنه يدل على أن الفسق أمر قولي ... قال : فتخصيص الفسق بالأمر القولي أقرب ^(٣) ، وأما العصيان فترك الأمر ، وهو بالفعل أليق . اهـ كلامه .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة . والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة ، وهي الصخرة ، قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة ^(٤) .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ بمعنى الإفضال والإنعام ﴿فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ وهما تعليل لمحدوف دل عليه الكلام ، أي : وقع ذلك بهم لأجل إفضال الله عليهم وإنعامه ، أو لما وقع الرشد عبارة عن التحجب والتزيين والتكريه ، مسندة إلى اسمه

(١) انظر البرهان ٣٥٢ ، وما بين أقواس الزيادة من البرهان .

(٢) ومثل هذا في تفسير الرازي ١٢٥/٢٨ . ولم يبين من هو البعض .

(٣) ولفظ الرازي (ما الفرق بين الأمور الثلاثة وهي : الكفر ، والفسوق ، والعصيان ؟ فنقول : هذه أمور ثلاثة في مقابلة الإيمان الكامل .. الخ ما ذكره هنا ، وما بين الأقواس من الرازي ، والكلام من موضعين ، ومحل الموضع الثاني هو بعد نطق الفراغ الثلاث . انظر الرازي ١٢٤/٢٨)

(٤) في الكشاف ٣٦٣/٤ : والرشد : الاستقامة على طريق الحق ، مع تصلب فيه .. الخ ما ذكره المصنف هنا ، ثم قال الرمحشري بعد قوله : رشادة ، وأنشد : وغير مقلد وموشحات صلين الضوء من صم الرشاد

تعالى — صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه ، [أ] أو لا ينتصب عن الراشدون ﴿﴾ ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله ، والجملة التي : ﴿أولئك هم الراشدون﴾ اعتراض ذكره في الكشف ^(١) .

ويحتمل أن يكون ﴿فضلاً﴾ مصدر ، وفيه وجهان أحدهما : أن يكون مصدرا من غير اللفظ ، ولأن الرشد فضل ، فكأنه قال : أولئك هم الراشدون رشدا .

وثانيهما : أن يكون مصدرا لفعل مضمر ، كأنه قال : حب إليكم الإيمان ، وكره إليكم الكفر ، فأفضل فضلا ، وأنعم نعمة .

ويحتمل أن يكون مفعولا به ، والفعل مضمر دل عليه قوله : ﴿أولئك هم الراشدون﴾ أي : يتغون ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ .

وقيل : الفرق بين الفضل والنعمة في الآية أن فضل الله جل جلاله إشارة إلى ما عنده من الخير ، وهو مستغن عنه ، والنعمة : إشارة إلى ما يصل إلى العبد ، وهو محتاج إليه ^(٢)

(١) انظر الكشف ٣٦٣/٤ ، وخلاصة ما ذكره المصنف رحمه الله ، والزحشري : أن (فضلاً إما مصدر ، أو مفعولاً له ، فإن كان مصدراً فهو إما مصدر من غير اللفظ ؛ لأن الرشد بمعنى الفضل والإنعام ، أو يكون مصدراً لفعل مضمر وسواء كان تقديره من لفظه ، كما ذكر المصنف ، أو من غير لفظه كما ذكره الزحشري حيث قال تقديره : جرى ذلك [فمحله على هذا التقدير النصب على الحالية] أو كان ذلك [ومحله على هذا التقدير النصب على الخيرية] .

والثاني أن يكون مفعولاً له ، ولما كان هناك إشكال ، كيف يصح وقوعه مفعولاً له ، والرشد فعل القوم ؟ والفضل فعل الله تعالى ، وشرط المفعول له أن يتحد الفاعل ؟ وقد أجاب عن هذه المصنف بقوله : أو لما وقع الرشد عبارة عن التحب ، والتزين ، والتكريه — مسندة إلى اسمه تعالى صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه . أو أنه منصوب عن الفعل : ﴿حب﴾ على أنه مفعول له أيضاً . وقد ذكر المصنف رحمه الله وجهاً ثالثاً ، وهو أنه مفعول به ، والتقدير : يتغون فضلاً . وقد ذكر هذا الوجه أيضاً الرازي ١٢٥/٢٨ . وكذلك بقية الأوجه .

(٢) وقد علل ذلك الرازي فقال : لأن الفضل في الأصل بني عن الزيادة ، وعنده خزائن من الرحمة لا حاجة إليها ، ويرسل منها على عباده ما لا يتقون معه في ورطة الحاجة ، يوجه من الوجوه ، والنعمة : تنبي عن الرأفة والرحمة ، وهو من جانب العبد ، وفيه معنى لطيف ، وهو تأكيد الإعطاء ، وذلك لأن المحتاج يقول للغني : اعطني ما فضل عنك وعندك ، وذلك غير ملفت إليه ، وأنا به قايي وبقي ، فإذا قال : (فضل من الله) إشارة إلى ما هو من جانب الله الغني ، والنعمة إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة ، وهذا يؤكد قولنا (فضلاً) منصوب بفعل مضمر ، وهو الابتغاء والطلب . الرازي ١٢٦/٢٨ .

ثم أخبر سبحانه عن علمه وحكمته في فعله فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ، وما بينهم من التفاضل ، ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يفضل ، وينعم بالتوفيق على أفاضلهم . ثم لما حذر الله المؤمنين من نأ الفاسق — أشار إلى ما يلزم منه ، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ كان القياس اقتلتا^(١) ، كما قرئ ، ولكن حمل على المعنى ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم .

قال في التحريد : والمراد بقوله: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ أرادوا القتال ، فلذلك سماهم مؤمنين^(٢) ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ والصلح بينهما واجب للآية ، ولم يذكر العدل في هذا الصلح كالثاني ؛ لأنهما هنا باغيتان معا ، أو راكبتان شبهة ، فيمشي بين الباغيتين بالصلح ، فإن أبنا إلا البغي قوتلتا حتى ترجعا إلى أمر الله ، ويوضح الحق لراكب الشبهة ، فإذا أصرتا قوتلتا كالباغيتين حتى تفنى كل واحدة ، وهو معنى ما ذكره الهادي إلى الحق [عليه السلام] فإنه قال عليه السلام : هذا أمر من الله سبحانه لنبيه وللمؤمنين فيمن شاجر وخرج بالجهل والمعصية إلى ما ذكر الله من القتال فأمرهم إذا صارت فتتان من المؤمنين إلى هذا الحد أن يصلحوا بينهما فيمنعوهما من التقاطع في فعلهما .

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ — [من البغي : وهو الاستطالة والظلم والامتناع من الصلح] — وأبى القبول ، وأقبلت الأخرى إلى الحق في الفعل والقول ﴿فَفَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ وتأبى ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ في كتابه ، أي : حتى ترجع إليه وإلى الحق والتقوى ، والمقاتلة : هي المحاربة بالضرب والطعن والرمي أبدا ، حتى ترجع إلى ما خرجت منه من النصفة ، وترك ما صارت إليه من البغي والحمية^(٣) . اهـ

(١) وهي قراءة إبراهيم بن أبي عيلة ، وقرأ عبيد بن عمير (اقتتلا) على تأويل الرهطين أو نفرين .

(٢) ولهذا قيل : إنه لما ولي الاسم وهو طائفتان أداة الشرط ، ومن حقها أن يكون ما بعدها فعلا ، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال ، فيؤكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة إن ، وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما .

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٨ ، وما بين قوسي الزيادة من تعريف للبغي هو من كلام المصنف ، لا من كلام الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام .

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ رجعت إلى الصلح فكفوا عن قتالها ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الفئتين ﴿بِالْعَدْلِ﴾ وهو أن ترد الباغية ما صار إليها من الأموال، وتضمن ما جنت، وأما المبغي عليها فلا تضمن ما جنت حال المدافعة، ولا ترد ما أخذت عند الهادي والمنصور بالله، وعند القاسم والمؤيد بالله أنها ترد ما كان باقيا، وتضمن ما كان تالفا، وهو قول الشيباني، وهذا هو العدل المطابق للتزويل.

وقرن الصلح الثاني بالعدل؛ لأن الغرض به الفيء، وهو التضمن بالعدل، لا الأول، فالواجب إظهار الحق والمواظع، ونفي الشبه، دون الضمان فعام لكل منهما على ما جنت الأخرى في نفس أو مال، لعدم الدليل المستفيض، واكتفى بذكر العدل إجراء دلالاته على مثله أولا، فإن العدل محتاج إليه في كل قول وفعل.

قال في التحريد: والمذهب أن المظلومين إذا ظفروا بالباغية، وغلب على ظنونهم أنهم إن أسلموا رجعوا إلى محاربتهم — جاز قتلهم حال الهزيمة.

وعن الإمام يحيى: إذا خافوا منهم ذلك جاز قصدهم إلى ديارهم، إذا كان لا يكتفى شرهم قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿بِالْعَدْلِ﴾ فهو: بالحق.

ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ فهو: تحروا الحق في ذلك واعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: يحب العادلين المحققين. وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ يدل على أنه أراد فإن لم تف فقاتلوه، حتى تفنوها وتهلكوها وتبيدوها، أو ترجع إلى الحق الذي منه خرجت، وتترك الباطل الذي فيه دخلت.

قال في الكشف: أمر باستعمال القسط على طريق العموم، بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين، والقول فيه مثل القول في الأمر باتقاء الله عقيب النهي عن التقديم بين يديه، والقسط — بالفتح — الجور^(١).

(١) انظر الكشف ٣٦٥/٤، ٣٦٦، وقد نقله المصنف بتصريف يسير، وقال الزمخشري بعد قوله: والقسط — بالفتح — الجور: من القسط: وهو اعوجاج في الرجلين، وعود قاسط، يابس، وأقسطه الرياح: وأما القسط بمعنى العدل، فالفعل منه أقسط، وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

ثم قال تعالى تميمًا للإرشاد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي : ما المؤمنون إلا إخوة في الدين ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ المقتتلين ، وخَصَّ الاثنان ؛ لأن أقل ما يقع الشقاق بين اثنين ، فإذا لُزمت المصالحة في الأقل كانت بين الأكثر ألزم لعظم الفساد فيه .

وقال بعض أهل اللغة : الأخوة : جمع الأخوة من النسب ، والإخوان : جمع الأخ من الصداقة ، فالتعالي قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تأكيداً للأمر ، وإشارة إلى أن ما بينهم ما بين الاخوة من النسب ، والإسلام كالأب ، قال قائلهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم
حكى هذا الرازي ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامثال ما أمركم ، والتقوى أيضا تحملكم على الائتلاف ، والإزالة لما يفرط منكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ أي : لكي ترحموا ، وقيل : هو ترجية لهم ، أي : فإنكم ترجون بذلك الوصول إلى رحمته وثوابه ، والسلامة من غضبه وعقابه .
قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في فريقين من الأنصار ، جرى بينهما مرء فأصلح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينهم ^(٢) .

وفي التحرير : أن النبي صلى الله عليه وآله وقف على مجلس بعض الأنصار ، وكان يريد عيادة سعد بن عباد ، وكان في ذلك المجلس عبد الله بن أبي ، وكان رسول الله راكبا على حمار ، فبال الحمار فأمسك ابن أبي أنفه ، وقال : خل سبيل حمارك فقد آذانا ننته ، فقال عبد الله بن رواحة : والله إن بول حماره لأطيب من مسكك ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وطال بينهما الخصام حتى غضب لكل منهما من حضر من قومه فتجالدوا بالعصي والنعال والجريد ، فرجع إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأصلح بينهم فنزلت . وقيل : قرأها عليهم فاصطلحوا ^(٣) .

(١) انظر الرازي (١٢٩/٢٨) .

(٢) البرهان ٣٥٢ .

(٣) الحديث في البخاري ومسلم عن أنس بلفظ قريب لما ذكره في التحرير . وهو في الكشف أيضا ٣٦٤/٤ .

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْكُمْ أَيُّ : يَهْزَأُ وَيُضْحِكُ﴾ ﴿قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ قال في البرهان : وفي هذه السخرية وجهان أحدهما : استهزاء الغني بالفقير إذا سأله ، والثاني : استهزاء الفاسق المعلن بفسقه بالمسلم . اهـ

وهذا من الله عز وجل نهى ، لا يهزأ قوم بقوم ، ولا يلغو بذكرهم وغيتهم . والقوم : الرجال خاصة ؛ لقيامهم بأمور النساء .

قال في التحريد : فلذلك قال : ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ وقد يأتي لفظ القوم ، ويراد به الرجال والنساء على وجه التغليب .

قال في الكشف : وهذا في الأصل جمع قائم كصوم وزور ، وأما قولهم في قوم فرعون ، وقوم عاد [إنهم] الذكور والإناث . فليس كذلك ^(١) وإنما قصد الذكور ، وتركوا ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن . اهـ

ثم قال : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا﴾ أي : المسخور بهم ﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ عند الله ، والاعتبار بتطهير البواطن ، وخلوص الضمائر .

قال في التحريد : وقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ كلام مستأنف في معنى التعليل للنهي عن السخرية ، ومعناه لا تسخروا من أحد لثلاثة حال أو عاهة ، أو نحو ذلك ، فرمما كان المسخور منهم خيرا عند الله من الساخرين ، والرجاء بعسى ، أو التوقع هو من جهة الساخر ، لا من جهة الله تعالى . اهـ

﴿وَلَا يَسْخَرْ﴾ ﴿نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ عند الله ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي : لا يلمز بعضكم بعضا ، واللمز : الطعن والضرب باللسان ، أي : لا يطعن بعضكم على بعض ، أي : لا يعيب بعضكم بعضا ، ومن سمع السخرية والعيب ، ورضي أو ضحك فهو شريك في إثمه ، فأما من هو على خلاف صفتكم في الدين فلا حرج في غيبته ، وأما المؤمنون فهم كنفس واحدة ، فمن عاب مؤمنا فكأنما عاب نفسه

(١) عبارة الزمخشري : فليس لفظ القوم بمعطى للفرقين . وما بين القوسين ليس في الكشف ، وهو في الأصل لهذا التفسير . انظر الكشف ٣٧٦/٤ .

﴿وَلَا تَنَابَرُوا﴾ وتَدَاعَوْا ﴿بِالْأَلْقَابِ﴾ والمنهي عنه ما يكرهه المدعو به ، يقال : نَبَرَهُ ، ونَبَرَهُ إذا دعاه بقلب سوء يكرهه المدعو به ، فأما ما يحبه فلا بأس به .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (من حق المؤمن على المؤمن أن يدعوه بأحب أسمائه إليه) ^(١) .

قال في البرهان : النبز : هو وضع اللقب المكروه على الرجل ، ودعاؤه به ^(٢) .

وقيل : هذه نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنيه ثقل ، فكان يدنو من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يسمع حديثه ، فجاء ذات يوم ، وقد أخذ الناس مجالسهم فقال : تفسحوا ، ففعلوا إلا رجلاً كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يفسح ، وقال : قد أصبت موضعاً ، فنبره بقلب كان لأمه مكروهاً ، فنزلت فيه هذه الآية ^(٣) .

ومن النبز : أن يعبر الرجل بعد إسلامه بما سلف من شركه ، أو يسميه بعد إسلامه باسم دينه قبل إسلامه ، فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فغير مكروه .

وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى ﴿لَا تَلْمُزُوا﴾ هو : لا يقع بعضكم في بعض بالباطل ، ولا يؤذيه بالكذب والوقعة [فيه] بالمحال .

ومعنى ﴿لَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ فالتنابر : هو التداعي بالألقاب ، وتسمية بعضهم بعضاً بها والألقاب : فهي أسامي مكروهة عند سائر الناس ، ينبر بعضهم بعضاً بها ليتقصه بذلك ، فهي الله من كان كذلك عن العودة إلى ما يورث الشحاء ، ويوقع البلية بين أهل التقوى . ثم ذكر سبحانه أنه من جعل هذا بعد أن نهاه عنه فقد دخل في اسم الفسوق بالمعصية لله ، إذ نهاه عن ذلك فقال : ﴿يَنْسِ الْأِسْمَ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يقول : ينس الرجل رجل عصاً ، فسمي بعد ما كان مطيعاً بفعله ومعصيته فاسقاً ، فبنس البدل من تبدل الفسق بالإيمان ^(٤) .

(١) الحديث ذكره في الكشف ٣٦٩/٤ . قال في التخريج : لم أحده هكذا . وأورد له شواهد عن البيهقي في الشعب ، وأبي يعلى ، والطبراني .

(٢) انظر البرهان ٣٥٢ .

(٣) انظر البرهان ٣٥٢ . قال في تخريج أحاديث الكشف : ذكره الثعلبي ، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند (الكشف ٣٧٠/٤) .

(٤) انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

وفي الكشف: معنى ﴿بئس﴾ الذم، والاسم هنا: الذكر. من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم [أي: ذكره، والفسق والفسوق: الخروج من الإيمان والمعنى]: "بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق".^(١)

وفي هذا أن الداعي للمؤمن يلقب بالسوء يفسق بذلك.

وقيل: نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا ببلال، وخبّاب، وصهيب، وعمّار، وأبي ذر، وسالم مولى جديفة^(٢).

وعن ابن عباس أن أم سلمة رضي الله عنها ربطت حقويها بنطاقها، وأرخت إحدى طرفيه خلفها، فقالت إحدى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأخرى: انظري إلى ما خلفها كأنه لسان كلب، وقيل: القائلة عائشة تقول لحفصة^(٣).

وعنه: نزلت ﴿ولا تنازعوا بالألقاب﴾ في شأن صفية بنت حيي، قالت: يا رسول الله النساء يعيرني، ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فهلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد^(٤).

وقوله: ﴿بعد الإيمان﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: لاستقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي ياباه الإيمان، كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرية الصبوة.

(١) ما بين قوسي الزيادة ليس من الكشف. انظر الكشف ٣٧٠/٤. وفيه زيادة بدلا عما في الأقواس: أو اللوم كما يقال: طار ثأؤه وصيته، وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس ألا ترى إلى قولهم: أشاد بذكره كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع.. إلخ ما ذكره هنا.

(٢) إل هنا انتهى ما في الكشف.

(٣) ذكره في الكشف، وقال: روي عن الضحاك (انظر الكشف ٣٧٠/٤).

(٤) ذكر هذه الرواية الزمخشري في كشافه ٣٧٠/٤، وأورد هذه الرواية أيضا الطبرسي في مجمع البيان ١٧٢/٩.

(٥) قال ابن حجر في تخریج الكشف: ذكره الثعلبي عن عكرمة، عن ابن عباس، بغير إسناد، وفي الترمذي من رواية هاشم بن سعيد الكوفي، حدثنا كنانة، حدثنا صفية بنت حيي، قالت: دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم... إلى آخر الحديث، وقال: غريب، وليس إسناده بذلك، وروى الترمذي، وابن حبان، وأحمد، والطبراني من رواية معمر، عن ثابت، عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت. فذكر معناه. انظر الكشف ٣٧٠/٤.

والثاني : أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود ، يا يهودي ، يا فاسق ، فنهوا عنه فقليل لهم : بشئ الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهي عن التنايز ^(١).

والثالث : أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بسست الحرفة الفلاحة بعد التجارة . ذكره في الكشف .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ﴾ عن هذه المناهي ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول سبحانه : من لم يتب عما نهى عنه من التنايز وغيره فهم الظالمون لأنفسهم بما أوقعوها فيه من الهلك عند الله على فعلهم ^(٢). اهـ

[بحث في الظن والتجسس والغيبة]

ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ لأن الظن هو السبب فيما تقدم ، وهو ظن السوء بمن ظاهره الصلاح ، أي : أبعدوا عنه ، وأصله : اجعلوه في جانب ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن لا كله بدليل قوله : ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلا أن ذلك البعض موصوف بالكثرة .

وضابطه : أن كل ظن بلا أمانة صحيحة ، وهو أن يكون المظنون به ممن ظاهره السر والصلاح فهو حرام بخلاف من اشتهر بالقبائح .

قال الحسن : كنا في زمن الظن بالناس فيه حرام ، وأنت اليوم في زمن أعمل واسكت ، وظن بالناس ما شئت ، وعنه : لا حرمة لفاجر ^(٣).

قال الهادي عليه السلام : هذا نهى من الله سبحانه لعباده عن سوء الظن في إخوانهم المؤمنين ، الذين قد عرفوا محض الإيمان ، وأيقنوا منهم بترك معاصي الرحمن .

ثم أخبر سبحانه أن من ظن بأخيه المؤمن ما قد علم خلافه من التقوى فقد دخل في

(١) من قوله : وقوله ﴿بعد الإيمان﴾ فيه ثلاثة أوجه إلى آخر الوجه الثالث في الكشف ٣/ ٣٧٠.

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٩ .

(٣) وانظر الكشف ٤/ ٣٧٢ .

الإثم والردى^(١) اهـ

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ تماماً لما سبق؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ فُهِمَ منه أن المعتبر اليقين والتجسس — بالجيم والحاء — والمعنى قريب، وقيل: بالحاء: الخير، وبالجيم: الشر.

وفي البرهان: الفرق بين التجسس بالجيم، والتجسس بالحاء، التجسس بالجيم هو البحث، ومنه سمي الجاسوس، لأنه يبحث عن الأمور، والتجسس بالحاء: ما أدركه الإنسان ببعض حواسه^(٢) اهـ

والمعنى فيه كما قال الهادي عليه السلام: هو ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ من طريق طلب الغيب من إخوانكم والبحث، أن تجدوا لهم عيوباً تعيينوهم بها، من بعد أن قد شهدتم بالإيمان، وأقررتم بالتقوى لهم، فهذا الذي نهى الله المؤمنين أن يتجسسوا عليه، وفيه، وله.

وأما ما كان ذا تهمة من أهل الزلة والعثرة، والدخول فيما يستخط الله من المعصية، فالتجسس عليه واجب، ليظفر به، وليشهد على فعله، فتقام واجبات حدود الله عليه في صنعه، فيكون ذلك نكابة به وبمن هو على شكله^(٣) اهـ

ثم أشار تعالى إلى حفظ عرض المؤمن في غيبته فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [قال الهادي]: نهى سبحانه عن أن يقع بعضكم في بعض، أو يرميه بالباطل والبهتان، أو بالظن الكاذب في بعض الشأن^(٤).

قال الإمام محمد بن القاسم عليها السلام في كتاب دعائم الإيمان: وإنما الغيبة في الحقيقة المنهي عنها بقوله صلى الله عليه وآله: (من ذكر أخاه بما فيه فقد اغتابه، وأما من قال فيه بما ليس فيه فقد بهته)^(٥).

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٩.

(٢) انظر البرهان ص ٣٥٢.

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٩، وفي المجموع بدلا عن قوله: (نكابة به وبمن هو على شكله): نكالا له ولغيره من شكله.

(٤) المصدر السابق.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى بعض نسائه وقد مرت مارية القبطية في طريق وكانت أم إبراهيم ، فأشارت إليها بيدها أنها قصيرة على وجه المزؤ منها ، والعجب لها بذلك ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منها غيبة لها بما لا عيب فيه عليها ، وبما ليس من كسبها . وكذلك إذا عاب الرجل أخاه بقبح مخرج كلامه لبعض خلقه ، وكلما أشبه هذا مما لا فعل له فيه من قبحه في المنظر وغيره ، فهو غيبة لا تحل له ، وعليه الاستغفار والندم لما كان منه .

وكذلك إن عابه بأمر قد كان فعله وتاب منه ، فأما أن يقول فيه شيء ليس فيه قل أو كثر فهو بهت ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأما إذا كان فيه في معصية قد أصر عليها ولم يتب إلى الله منها فينبغي أن ينهيه على ذلك في ستر ، فإن لم يراجع فالواجب عليه هتكه ، والتنبيه على سوء حالته ، إلا أن يكون في ذلك هتك نفسه ، أو أيجاب حد عليه في ظاهر الحكم إذا كان الذي اطلع عليه مستورا في الظاهر عند الناس ، فأما إذا لم يكن كذلك فالذي يجب عليه من هتكه ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس) ^(١) . اهـ ثم قال سبحانه : ﴿أَيُّ حُبِّ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [قال الإمام الهادي] : بالاغتياب له من ورائه ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وجعلهما سيان في كل معنى ^(٢) .

(٥) ولفظه في الكشف : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الغيبة فقال : (أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبه ، وإن لم يكن فيه فقد بهته) . قال ابن حجر في تحريجه : متفق عليه ، من حديث أبي هريرة .

(١) كتاب دعائم الإيمان مخطوط ، وهو غير متوفر لدينا حال تحرير هذا ، وحديث (اذكروا الفاسق ..) أورده في الكشف بلفظ (اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس) قال ابن حجر في تحريجه : أخرجه أبو يعلى ، والترمذي الحكيم ، في النوادر ، في الثامن والستين ، والعقيلي ، وابن عدي ، وابن حبان ، كلهم من رواية الجارود بن يزيد ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده مرفوعا ... ثم قال : وقال ابن طاهر : روي عن معمر ، عن بهز أيضا ، أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق ، وعبد الوهاب كذاب ، وأخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال : لم يروه عن معمر غيره ، قال : وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب رواه يوسف بن أبان ، حدثنا الأبرد بن حاتم ، أخبرني منهال السراج عن عمر . (انظر الكشف ٣٦٩/٤) .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ٤٥٩ .

قال الرازي : والحكمة في هذا التشبيه هو الإشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ؛ لأن ذلك آلم ، وقوله : ﴿لحم أخيه﴾ أكد في المنع ؛ لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو ، يقال : أصدق الأصدقاء من ولدته أمك ، فأكل لحمه أقبح ما يكون ، وقوله تعالى : ﴿ميتاً﴾ إشارة إلى دفع وهم ، وهو أن يقال : القول في الوجه يؤلم فيحرم ، وأما الاغتيا ب فلا إطلاع عليه للمغتتاب فلا يؤلم . فقال : أكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح ؛ لأنه لو اطلع عليه لتألم كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه ... وقوله تعالى : ﴿ميتاً﴾ حال عن اللحم ، وعن الأخير . اهـ كلام الرازي ^(١)

قال الهادي عليه السلام : وفي ذلك ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (إن الله يبغيض البيت اللحم) يريد الذي يوقع فيه بالمؤمنين ، ويغتابون ويؤذون ، وبالباطل فيه يرمون ، وفي ذلك ما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم حين رجم ماعز بن مالك الأسلمي حين أقر عنده بالزنى فرجه ، ثم انصرف المسلمون ، فقال طلحة والزبير : انظروا إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم يستر على نفسه حتى رجم مرجم الكلب . فسمعهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسكت عنهما حتى أجاز بحيفة حمار شاغر برجله ، فوقف ثم قال لهما : انزلا فأصيبا من هذه الحيفة ، فقالا : نعيذك بالله يا رسول الله ، أن نأكل الميتة ونصيب منها ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : [لما أصبتما من أخيكما أنفا أعظم مما تصيبان من هذه الحيفة ، إنه الآن يتقمص في أنهار الجنة] يريد : لما أصبتما من ماعز بن مالك من الأذية والاغتيا ب أعظم عند الله من أكلكما هذه الميتة ؛ لأن الله قد حرم اغتيا ب المؤمنين كما حرم أكل الميتة ، ثم للمؤمن حرمة ليست للميتة ، فمن عصى الله بقطيعه ذي حق فاغتياه أعظم من إصابته من الميتة المحرمة التي لا حرمة لها مع تحريمها ^(٢) . اهـ

(١) انظر الرازي ١٣٤/٢٨ ، ١٣٥ .

(٢) انظر مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٠ ، وما بين قوسي الزيادة من المجموع ، وهو ساقط في المصاييح .

واعلم أن الغيبة : ذكر السوء في حال غيبة المذكور ، وسئل صلى الله عليه وآله وسلم عن الغيبة ، فقال : أن تذكر أحاك بما يكره ، فإن تكن فيه فقد اغتبت ، وإن لم تكن فيه فقد بهتته (وكفى بهذه الآية الكريمة من تقبيح هذه الخصلة الذميمة ، وتشنيعها وتهجينها وتفظيعها . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الربا نيف وسبعون بابا ، وأهونهن بابا من الربا مثل من أتى أمه في الإسلام ، ودرهم ربا أشد من خمس وثلاثين زينة ، وأشد الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم ، وانتهاك حرمة) رواه الإمام عز الدين بن الحسن عليه السلام عن البيهقي وغيره .

وقوله : ﴿لحم أخيه ميتا﴾ هذا تصوير و تمثيل لما يناله المغتاب من عرض من يغتابه على أقطع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالحجة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على مثل الاغتيال بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أحا . ومنها : أنه لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعل ميتا ، فتحققت — بوجوب الإقرار عليكم ؛ فإنكم لا تقدرون على دفع وإنكار — كراهتكم له وتقدرُّكم منه ، فليتحقق أيضا ما هو نظيره من الغيبة للمسلمين^(١) . ثم قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ عطف على ما تقدم من الأوامر والنواهي ، أي : اجتنبوا واتقوا ، معناه : اتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ما وجد منكم [منه] فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بنواب المتقين التائبين ،

(١) ومثله في الكشف ، وقد أصلحنا بعض الألفاظ منه ، وفي الزمخشري (على دفعه وإنكاره) وفيه أيضا (فليتحقق أيضا ما هو نظيره من الغيبة والظعن في أعراض المسلمين) . انظر الكشف ٣٧٣/٤ ، ٣٧٤ . وقال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : قال ابن الحاجب في الأمالي : إنه تعالى لما نهى عن الغيبة شبهها بما هو مكروه من معتادهم ، وهو أكل لحم المغتاب ميتا ، وأتى به على صيغة الإنكار ؛ تبيينا على أنه مما لا يفعلونه ، ثم كأن ذلك التشبيه مسيا عن هذا التشبيه سببا لذكر تحقق الكراهة ، فقال بعد ذلك : ﴿فكفركموه﴾ فكان ذلك تحقيق الكراهة وثبوتها مسيا عن هذا التشبيه ، الذي قصد به تأكيد كراهة ما نهى عنه ، إذ به تحقيق توبيخهم في وقوعهم في الغيبة ، المشبهة بما يأتونه ويكرهونه . (حاشية العلوي ٢٨٦) .

والمبالغة في التوَّاب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقرّفه المقرّف إلا كان مغفورا عنده بالتوبة ، أو [لأنه] بليغ في قبول التوبة ، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ﴿رَحِيمٌ﴾ بسعة رحمته وكرمه فَعَلْ ذَلِكَ ^(١).

ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ هو آدم وحواء عليهما السلام نبينا لما تقدم وتقريرا له ، وذلك لأن السخرية من اللمز والعيب إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان فهو جائز ؛ لأن قوله تعالى : ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ وقوله : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ منع من عيب المؤمن وغيبته ، وإن لم يكن بذلك فلا يجوز .

ثم قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ معناه : لتعلموا ، قيل : إن الشعوب النسب الأبعد ، والقبايل : النسب الأقرب ، قال الشاعر :

قبايل من شعوب ليس منهم كريم قد يعدُّ ولا نجيبُ

وسموا شعوبا ؛ لأن القبائل تشعبت منها ، شعب شعوبا جمع شعب ، وهو أعم من القبيلة ؛ لأنها تفرع عنه ، وهو أول الطبقات التي عليها العرب ، وهي الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وكل طبقة تجمع ما تحتها ، فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العماثر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل ، جذمة : شعب ، وكنانة : قبيلة ، وقريش : عمارة ، وقصي : بطن ، وهاشم : فخذ ، والعباس : فصيلة .

ثم بين فائدة ذلك وهي التعارف ، وفيه وجهان أحدهما : أن فائدة ذلك التناصر [لا التناكر] ^(٢) ولا التفاخر . وثانيهما : أن فائدته التعارف لا التناكر واللمز والسخرية ، والغيبة تقضي إلى التناكر لا إلى التعارف .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ يعني : أن الفضل والكرم بالأفعال لا بالأنساب ، والمعنى : من يكن أتقى يكن عند الله أكرم ، أي : التقوى تفيد الإكرام ،

(١) ومثله في الكشاف بتقديم وتأخير ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين الأقواس من الكشاف . (الكشاف ٣٧٤/٤)

(٢) ومثل هذين الوجهين أيضا في الرازي ، وما بين القوسين ليس موجودا في الرازي (١٣٨/٢٨) .

فأرفعكم قدرا أتقاكم ، ولو كان عبدا ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿أيها الناس ، إنما الناس رجلان : مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله﴾ ثم قرأ الآية^(١) .
 فإن قال قائل : التقوى من الأعمال والعلم أشرف ؟ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (لفقيه [واحد] أشد على الشيطان من ألف عابد)^(٢) ؟ قيل له : التقوى ثمرة العلم ، قال الله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فلا تقوى إلا للعالم ، فالمتقي العالم أتم علمه ، والعالم الذي لا يتقي كشجرة لا ثمرة لها ، لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجر الذي لا يثمر ، بل هو حطب ، وكذلك العالم [الذي لا يتقي] حصب جهنم ، وأما العابد الذي يفضل [الله] عليه الفقيه فهو الذي لا علم له ، وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل^(٣) .

فإن قيل : يؤخذ من هذه الآية عدم الكرم بالأنساب ؛ لأن الله قال : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قالوا : ولو كان عبدا حبشيا ؟ وقد احتج بها كثير في نفي اعتبار الكفاءة ؟ قلنا : ليس كذلك ، بل لا شبهة في ذلك إلا على من جهل وتابع نشوان وأضرابه ، بل هذه الآية الكريمة كما قال بعض محققي الشيعة من أعظم الأدلة في اعتبارها ، إذ هي من فوائد قوله : ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ وكل واحد من لفظي ﴿أكرمكم﴾ و﴿أتقاكم﴾ مقصور على الآخر في المعنى الذي سيقته الآية ، وهي بيان الحكمة في

(١) قال ابن حجر في تخريج هذا الحديث : أخرجه الترمذي ، وابن حبان ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، من رواية عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، وفي الباب عن أبي هريرة ، أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وأحمد ، والبيهقي ، وابن المبارك ، في البر والصلة ، من رواية سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عنه نحوه ، ومنهم من قال : عن سعيد ، عن أبي هريرة ، وعن عبد الملك بن قدامة الحافظي ، حدثني أبي (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام فتح مكة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أيها الناس) فذكر نحوه ، وأخرجه . الكشاف ٣٧٥/٤ .

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ، وما بين قوسي الزيادة منه (انظر الرازي ١٣٩/٢٨) .

(٣) ومثل هذا في الرازي ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة منه ، وفيه أيضا زيادة بعد قوله : نصاب كامل ، (ولعله يعبد مخافة الإلقاء في النار ، فهو كالمكره ، أو لدخول الجنة فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع إلى بيته ، والمتقي هو العالم بالله ، المواظب لبابه ، أي : المقرب إلى جنبه ، عنده بيت .. الخ ما ذكره (الرازي ١٣٩/٢٨) .

الشعوب والقبائل ، وأن بمعرفتها يكون التعارف المقصود للشارع ، إذ لا طريق لنا إلى معرفة الأتقى من غيره إلا خير الشارع إما تفصيلا كالمنصوص على أعيانهم بالتفصيل على غيرهم ، أو جملة كما في آيات الاصطفاء والاختيار ، فيستوي فيهما التقديم والتأخير ، وإلا لزم اصطفاء غير الأتقى ، واختيار غير الأكرم على الأكرم ، وهو قدح في الحكمة أو رجوع — والعياذ بالله — إلى مذهب أهل التطريف ، ومنكري تفضيل الخير اللطيف ^(١) . اهـ

وقد نبه عز وجل على هذا المعنى فقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي : بالحكمة التي رتبكم لأجلها شعوبا وقبائل ﴿خَيْرٌ﴾ بما يوجب الكرم عنده ، وبكل خفي عليكم .

السبب أنه صلى الله عليه وآله وسلم مر في سوق المدينة على غلام أسود يقول : من أشتراني فعلى شرط : لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاشتراه رجل فقده صلى الله عليه وآله وسلم ، فسأل عنه ، فقيل : محموم ، فعاده صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم سأل عنه بعد أيام فقيل : هو لما به — أي : يعالج الموت — فجاهه وهو في ذمائه — أي : بقية حركته — فتولى غسله فدفنه ، فدخل على المسلمين أمر عظيم ، فنزلت ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ هم نفر من بني أسد قدموا المدينة في جذب فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، ويقولون : أتتكم العرب بأنفسها على رواحلها ، وجئناكم بالأنفال والذرائر ، يريدون الصدقة ، ويمنون عليه صلى الله عليه وآله ^(٣) .

ثم قال تعالى لنبيته ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ تكذيب لدعواهم مع أدب حسن ، حيث لم يصرحوا فلم يقل : كذبتُم ، والإيمان التصديق مع الثقة وسكون القلب ، والإسلام :

(١) ينظر من المراد ببعض محققي الشيعة . وقد قال الرازي في تفسيره ١٣٧/٢٨ : فإن قيل : هذا مبني على عدم اعتبار النسب ؟ وليس كذلك ، فإن للنسب اعتبارا عرفا وشرعا ، حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي .

(٢) رواه في الكشف عن يزيد بن شجرة . قال ابن حجر في تخريجه : هكذا ذكره الثعلبي ، والواحدي بغير سند . (الكشف ٣٧٥/٤) .

(٣) ذكره أيضا الزمخشري في الكشف ٣٧٧/٤ ، والرازي في تفسيره ١٤٠/٢٨ ، وكذلك في مجمع البيان ١٧٦/٩ ،

الدخول في السلم ، والخروج من أن يكونوا حرباً للمؤمنين ، بإظهار الشهادتين باللسان ، من دون مواطأة القلب له ، وهو المراد بقوله : ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي : أقررنا باللسان .

قال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه ، وشهادة منه ، على أن الإيمان قول مقول ، وعمل معمول ، واعتقاد في العقول ، وتكذيب لمن قال بغير ذلك : من أن الإيمان قول بلا عمل . فأخبر سبحانه عن الأعراب الذين قالوا ، وأقروا ، وصدقوا ولم يعملوا أنهم في قولهم : إنهم مؤمنون — مبطلون وكاذبون ، وأمرهم أن يقولوا : أسلمنا . ومعنى ﴿أَسْلَمْنَا﴾ فهو صدقنا ، واستسلمنا للحكم ، ألا ترى كيف قال : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يريد : لم يصح الإيمان لكم ، ولم يدخل في قلوبكم بالقول دون العمل ، فلستم من المستسلمين العاملين ، ولستم من المؤمنين المخلصين ^(١) . اهـ .

قال في الكشف : وقوله : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ إلى آخره ليس بتكرير لقوله : ﴿لَمْ تَزِدْهُمْ مِنْهُ﴾ من غير زيادة فيه ، بل فيه زيادة ، وهي التوقيت ؛ لأنه حال من قوله : ﴿أَسْلَمْنَا﴾ أي : التوقيت لما أمروا به أن يقولوه ؛ لأنهم لم يؤمروا بذلك القول مطلقاً ، لكن ما دامت قلوبهم غير مواطئة لألستهم ، ولما فيها ^(٢) من معنى التوقع ، وذلك المعنى دال على أنهم قد آمنوا فيما بعد .

قال في التجريد : ويحتمل أنه إخبار من الله معطوف على ﴿تَوَدَّعُوا﴾ أي : لم تؤمنوا . ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : لم تصدقوا ، وإنما أسلمتم تعوداً من القتل ، ولما تفيد استمرار النفي إلى وقت الكلام .

وقال الهادي عليه السلام : معنى قوله : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : لم تعملوا أعمال الإيمان ، فلم تعزم عليها قلوبكم من الطاعة لله والعرفان ؛ لأن ذلك كله من

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٦٠ ، وفي المصايح (واعتماد في العقول) وفي المجموع (العقول) وهو ما أثبتناه .

(٢) الضمير عائد لـ (لَمَّا) ، وعبرة الزمخشري ، وما في (لما) من معنى التوقع ، والكلام منقول من الكشف بتصرف ، وانظر نص العبارة في الكشف ٣٧٦/٤ ، ٣٧٧ .

شرط الإيمان ، ولا يكفي الإقرار بالله وبالرسول باللسان ^(١). اهـ.

قلت : ويدل على هذا ما رواه المرشد بالله ^(٢) عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه نادى بصوت أسمع العواتق في أجواف الخدور فقال : يا معشر من أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تدموا المسلمين ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من يطلب عورة أخيه المسلم هتك الله ستره ، وأبدى عورته ، ولو كان في ستر بيته ^(٣).

قال الهادي عليه السلام : ثم أخبر سبحانه أنهم إن تابوا ورجعوا إلى العمل فعملوا بعد القول ، واعتقدوا طاعة ذي الجلال وال طول ، فعملوا بأمره كله ، وانتهوا عن نهيه كله ، وكانوا مع إقرارهم بالوحدانية عاملين مجتهدين كانوا من بعد ذلك عنده من المفلحين ،

(١) هذا ساقط في مجموع تفسير الأئمة ، وهو في أصل المؤلف رحمه الله .

(٢) هو الإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين بن إسماعيل بن حرب بن زيد الجرجاني الشجري ، المولود سنة ٤١٢ هـ والمتوفى سنة ٤٧٩ هـ أحد العلماء الأعلام ، وأئمة الزيدية في الجبل والديلم ، حافظ مسند ، متكلم ، نسابة ، مصنف ، دعا إلى الله في الجبل ، والديلم ، والري ، وجرجان ، في أيام المستظهر العباسي ، وسلك مسلك أئمة آل في العلم والعمل ، والجهاد والعدل ، وهو كثير الرواية عن مشاهير المحدثين في عصره ، ومنهم والده الإمام الموفق بالله الحسين بن إسماعيل الجرجاني ، مؤلف كتاب (الإحاطة) وكتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) ومن مؤلفات المرحم له : (الأمالي الإثنية) كان عليها يوم الاثنين ، وتسمى : الأنوار في فضائل آل البيت عليهم السلام ، من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإمام زيد عليه السلام . ٢- الأمالي الخمسية ، في مكارم الأخلاق جزآن ، طبع في مجلد واحد ٣- سيرة الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الماروني خطية (انظر أعلام المؤلفين الزيدية) تحت الطبع .

(٣) وذكره في الكشف ، قال ابن حجر في تحريجه : أخرجه الطبراني والعقيلي ، وابن عدي ، من رواية قدامة بن محمد الأشجعي ، عن إسماعيل بن شبيب الطائفي ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس بهذا ، وفي الباب عن ابن عمر ، رواه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه ، ولفظه : صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ... وعن أبي بردة عند أبي داود ، وأحمد ، والطبراني ، وأبي يعلى ، وعن البراء بن عازب عند أبي يعلى والبيهقي في الشعب في التاسع والستين ، من رواية مصعب بن سلام عن أبي إسحاق ، عن البراء .

وعن ثوبان عند أحمد بلفظ : (ولا تفرقوا عباد الله ، ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفرضه في بيته) وعن بريدة عند الطبراني ، وابن مردويه ، ولفظه : (صلينا الظهر خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما انتقل أقبل علينا غضبان ، فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الخدور) فذكر نحوه (الكشاف ٣٧٣/٤) .

وصح لهم به اسم المؤمنين ، وذلك قوله : ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَآتِيَنَّكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ — [آلته لينا ، وآلته لنا : نقصه نقصا ، وظلمه ظلما] يريد : لا ينقصكم من جزاء أفعالكم وسعيكم ، ولو كان كما يقول أهل الجهل والبهتان : إن الإيمان قول بلا عمل لما قال : ﴿وَلَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ ولما قال [للأعراب الذين وحدوا وشهدوا بالشهادتين ، وصدقوا وجاهدوا ، ولم يعملوا بكل الفرائض] ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ يريد سبحانه [أنهم] لن يكونوا أبدا مؤمنين ، حتى يكونوا للفرائض كلها عاملين^(١) . اهـ

ثم أخبر سبحانه أنه يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : يقبل توبتهم ، ويهب لهم مغفرته ورحمته بنعمته عليهم بجزيل الثواب .
ثم قال سبحانه مرشدا للأعراب الذين قالوا : ﴿آمَنَّا﴾ إلى حقيقة الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكوا فيما آمنوا به ، ولا توهموا من صدقوه

قال الهادي عليه السلام : فلم يحكم بحقائق الإيمان إلا لمن بعد منه الارتياب في وجوه الدين والإحسان ، فنسأل الله الثبات على دينه بالتوفيق لما يرضيه برحمته . اهـ
ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ التراخي ، والبعد فيما بين إحداث الإيمان من الفضل ، وبين الاستمرار على الإخلاص ، أي : أنشأوا الإيمان ، وفعلوا ما هو أفضل منه وأعلى منزلة ، وهو الاستمرار على الإيقان والإخلاص .

قال في الكشف : ارتاب : مطاوع رابه ، إذا أوقعه في الشك مع التهمة ... ، قال : فإن قلت : ما معنى ثم هنا ، وهي للتراخي ؟ وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان ... ؟ قلت : الجواب على طريقتين أحدهما : أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين بعد تلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه ، أو

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٦١ ، وما بين قوسي الزيادة الأولين [آلته ..] ليس من كلام الإمام الهادي عليه السلام بل من المصنف ، وما بين أقواس الزيادة الآخرين ، فهو نقص في نسخة المصاييح ، وهو في مجموع تفسير الأئمة

نظر هو نظرا غير شديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك راكبا رأسه لا يطلب له مخرجا ، فَوُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ [حقا] بالبعد عن هذه الموبقات ، ونظيره قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾

والثاني : أن الإيقان ، وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيها على مكانه ، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا ^(١) . اهـ

ثم قال عز وجل في صفتهم : ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي : جاهدوا العدو المحارب ، والشيطان والهوى ، وقوله : ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ تناول كل قرينة تعلق بالمال ، مما يخالف فيها الهوى ، وأنفسهم في الغزو ، أو كل العبادات في سبيل الله في الجهاد ، أو عام في كل القربات ، فكلها سبيل يرضي الله تعالى .

ثم قال عز وجل في الجامعين هذه الصفات : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين إيمانهم إيمان صدق ، وإيمان حق وحث وثبات ، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد . قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام : فهذه الآية بيان لمحمل لفظ المؤمنين ، فيجب أن يراعى فصولها ، وتتعرف معانيها ، إذ لا إيمان لمن أحل بشيء منها ؛ لأن الحكيم جل وعلا عقب التأكيد بالنفي ، ثم فصل معاني الإيمان ، فبدأ سبحانه بالتصديق باللسان والقلب ؛ لأن تصديق اللسان لا حكم له ، وقد كذب الله المنافقين لما قالوا : الحق في ألسنتهم . ولا علم في قلوبهم ، وذلك ظاهر في قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجرى التصديق باللسان من دون اعتقاد في القلب صحيح — مجرى الاستهزاء ، فلذلك استحق فاعله الذم والعقاب ، ولا يقع الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بمعرفة ، ولا يقع معرفة في ذلك مع التكليف إلا بدلالة ، سيما وقد أكد ذلك الارتياب ، ولا يزول الارتياب إلا بعد استحكام العلم بالبرهان .

(١) الكشف ٣٧٧/٤ ، وقد نقله المصنف مع حذف يسير محل النقط التي أثبتناها .

فيجب معرفة الباري تعالى وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وأفعاله وأحكام أفعاله ، وما يجوز عليه من ذلك ، وما لا يجوز ، والنسوة وما يتبعها ، والشرائع وما يتبعها ، بأدلة واضحة ، وبالعمل بمقتضى ذلك ، ولذلك عقبه بذكر العمل ، وابتدأ بذكر أفضل الأعمال ، الذي هو الجهاد ؛ لأن به همدت نيران الضلال ، واشتعلت أنوار الحق ، وكبر به الحكيم تعالى من رؤوس الجبال ، وبطون الأودية ، ونكص الشيطان على عقبيه ، وتبرأ ممن اعتمد عليه ، لما نظر إلى أولياء الله مستبسلين للموت كأنهم جمال تحطم نباتاً أمامهم ، وقد قدم ذكر الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ؛ لأن المقاتل أكثر من المنفق فيما نشاهده ، فكان الإنفاق أصعب الأمرين على النفوس ، وبه تجهز الحيوش ، وتعان الغزاة ، وتبلغ الأغراض في العدو ، ودرهمه بسبعمئة درهم ودينار ، وهذا الغرض العام ، وقد يضاعف الله لمن يشاء ، وهم أهل المقصود والمعرفة بوجوده الإيقاعات أضعافاً لا يعلم بها إلا الله ، وهذا المبيع المفيد ، والمتجر الربيع ، وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : ﴿ من جهز غازياً أو حاجاً ، أو خلفه في أهله كان له مثل أجره ﴾

ثم عقب سبحانه الجهاد بالنفس لكونه أحد مرتبتي الجهاد ، وركني قاعدة الإسلام ، وقد روينا في ذلك عن عمران بن الحصين ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادة رجل ستين سنة) . وهذا أمر من حرمة فقد حرم ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا توفيقه وتسديده ، وعونه وتأنيده إلى سبيل رضوانه .

ثم عقب ذلك بقوله سبحانه : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ فدل ذلك أن من ادعى الإيمان بغير ما ذكرنا فهو من الكاذبين ، وأن دعواه تلحق بدعوى المنافقين ، فالواجب التحفظ والاحتراز . اهـ

ثم أمر عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لبعض كبراء قريش : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ تجهيل لهم في قولهم : ﴿ آمنا ﴾ كأن الله لا يعلم ما في قلوبهم ، ولا حقيقة دينهم ، فعلموه ما لم يحط به منه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ومن جملة حقيقة

دينكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فكيف تعلمونه بدينكم ، وتبتنون خلاف ما أظهرتم .
ثم قال تعالى فيهم : ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي : لأجل أن أسلموا ، والمنّة :
النعمة التي لا يطلب بها مسديها عوضا ، واشتقاقها من القطع ؛ لأنه إنما يسديها إليه
ليقطع بها حاجته من غير أن يعمل لطلب مثوبة ، ثم قال : مَنْ عَلَيْهِ صَنْعُهُ . إذا اعتده
عليه منة وإنعاما ، ومنه ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ .

ثم قال سبحانه فيهم أيضا : ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي : لا تعتدوا علي ما لا
يعتد به ، وهو إسلامكم الذي زعمتموه إيمانا ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي : يعتد عليكم
بما هو منة ، وهو ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي : الإسلام كما زعمتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ أي : إن صح زعمكم أنكم مؤمنون ، إلا أنكم تزعمون ما الله عليم بخلافه .
ولم يقل سبحانه : يمين عليكم أن أسلمتم ، بل قال : ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لأن
إسلامهم كان ضلالة ، حيث كان نفاقا فَمَا مِنْ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وجواب الشرط محذوف
لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن كنتم صادقين فلله المنّة عليكم .

وهذا كما قال الهادي عليه السلام : ذم من الله سبحانه لمن من على رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم بالطاعة له ، والمعاونة ، والقيام فيما أوجب الله عليه ، فأخبر سبحانه أنه من يمين
بطاعة رسول الله ، أو بالدخول في طاعة الله ، والقيام بواجب فرض الله مخط في فعله ،
عاص لربه ، منتقص لدينه ، غير شاكر لنعمة خالقه .

ثم أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبين لمن كان كذلك ، أو فعل شيئا من ذلك ، فيعلمه
أنه ليس على رسوله له في إسلامه منّة ، وأنه لم يفعل إليه في ذلك حسنة .
ثم أخبر أن المنّة على من فعل ذلك هي الله ورسوله ؛ إذ هداه إلى النجاة [وخلصه من
الهلكة حتى صار من أهل الجنان] بعد أن كان من حطب النيران ، وحتى صار برحمة الله
ومنته لله وليا ، مستوجبا لثوابه بعد أن كان حربا [عدوا] مستأهلا لعقابه .

ثم قال : ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في أنكم مؤمنون ،
وفيما تدعون من الإخلاص ، فأقروا بما قلنا ، واخضعوا لحقنا ، فإن لم تقرّوا بذلك

وتخضعوا فليستم بصادقين فيما تدعون من الإيمان ، وتنسبون إليه أنفسكم من الإخلاص للرحمن ، وهذه الآية نزلت في بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كبار قريش ، وكان عتب عليه النبي في أفعاله ، فمن على النبي بإسلامه ، وإتباعه له ، وقيامه معه ونصرته ، فأنزل الله عز وجل فيه ما تسمع ، وأوقع عليه من الذم في ذلك ما أوقع ^(١) . اهـ

ثم أخبر سبحانه أنه لا يخفى عليه أسراركم ، وأعمال قلوبكم الخفية ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : الغائب فيهما عن العباد ، فلا يخفى عليه ما في ضمائركم من الكذب ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بيان لكونهم غير صادقين ، يعني أنه عز وجل يعلم كل مستتر في السموات والأرض ، ويصدر كل عمل تعملونه ، في سركم وعلايتكم ، فيجازيكم بحسبه ، لا يخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ، ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أن حاله مع كل معلوم واحد لا يختلف .

والله أعلم

سورة الفتح

تسع وعشرون آية إجماعاً (مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ هو فتح مكة ، وقد كان وعده الله تعالى به عام الحديبية ، عند انكفائه منها ، ذكره في البرهان^(١) .

(١) انظر البرهان مخطوط ٣٤٩ ، وفي النسخة التي بأيدينا (وقد كان وعده الله أنه) وفي البرهان (به) ، وذكر في البرهان أيضا بعده ما ذكره المصنف هنا بقوله : وقبل الفتح ما كان من أمره بالحديبية .. الخ ما ذكره المصنف بتصرف يسير ، وتقديم وتأخير .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام قال :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ معناه : قضينا لك قضاء بينا ، وحكمنا لك حكما ، يريد فتح خيبر .

وقوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام : معناه ليغفر الله لأمتك بك ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ، وذلك أن لهم الشفاعة يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَتَعَزَّزُوا بِقُوَّتِهِ﴾ معناه : تعظموه وتسودوه .

وقوله تعالى : ﴿يَدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه : قدرته ومنته . وقوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ معناه : هلكى .

وقوله تعالى : ﴿مُسْتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ معناه : إلى أهل الأوثان .

وقوله تعالى : ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ معناه : فارس والروم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَابَهُمْ فَتَحْنَا قُرْيَاهُ﴾ معناه : فتح خيبر ، ويقال : الفتوح التي تفتح لهم .

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ معناه : إثم وضيق .

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزِهِمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ معناه: لا إله إلا الله .
 وقوله تعالى: ﴿فَتَصِيحِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً﴾ معناه: جناية وشر . وقوله تعالى: ﴿تَزِيلُوا﴾ معناه: امتازوا .
 وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ معناه: العصبية .
 وقوله تعالى: ﴿سِيَاهُمْ فِي وَجْهِهِمْ﴾ معناه: الخشوع ، والسياء : العلامة .
 وقوله تعالى: ﴿كَرَعَ أَخْرَجَ شَطَاؤَهُ﴾ معناه : جواتبه .
 وقوله تعالى: ﴿فَازَرَهُ﴾ معناه : ساواه فصار مثل الأم ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ معناه : غلظ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ قال الإمام
 الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وآله الصلاة والسلام : فالساق : حاملة الشجر .
 وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : تفسير غريب سورة الفتح
 تأويل قول سيدنا عز وجل: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ يعنيك الله ويؤيدك ، بعد أن غفر لك ما تقدم من ذنبك وما
 تأخر ، واحسب أن الله وعده بأن لا يعذبه على ما كان من نسيانه ، ولا يعاقبه بما أصاب من الذنوب على ظننه
 وحسبانه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يعتمد كباثر العصيان فيما مضى ، ولا فيما تأخر من الزمان .
 ومعنى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ السكينة : هي الطمأنينة والخشوع واليقين ، والجنود : هم
 الجموع ، ومعنى ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يريد : عليهم مصيبة السوء ، قال الشاعر :
 ولقد خشوت بأن أموت ولم تدر
 للحرب دائرة على ابني ضمضم
 ومعنى ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتَقْرُوهُ﴾ فالتعزير هو التعظيم ، قال الشاعر :
 عزروا الأملاك في دهرهم
 وأطاعوا كل كذاب أئيم
 يريد : وقروا وعظموا ، ومعنى قوله: ﴿بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي : غدوة وعشيا ، قال أبو طالب :
 وبالأسود المحبوب إذ يحسونه
 إذا اكتفوه بالضحي والأصائل
 يريد : بالضحي والعشايا ، ومعنى ﴿يَبَايَعُونَكَ﴾ أي : يحلفون لك ، والبيعة : هي اليمين ، قال الشاعر :
 والنقض للبيعة بعد الإصر .
 أي : اليمين بعد العهد . ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي : قوة الله فوق قوتهم ، قال الشاعر :
 وما من يد إلا يد الله فوقها
 ولا ظالم إلا سبيلى بظالم
 ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ أي : نقض ، ومعنى ﴿قَوْمًا بَوْرًا﴾ أي : هلكى عند الله عز وجل ، والبوار : هو الهلاك ، قال الشاعر :
 فبار أبو حكم في الوغى .
 هناك وأسرته الأردلوننا
 ومعنى ﴿وَعَدْنَا لِّلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي : أحضرنا للكافرين وقربنا ، ومعنى ﴿سَعِيرًا﴾ أي : نارا . ومعنى ﴿لَيْسَ
 عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ أي : ليس عليه ضيق ولا مأثم ، بل و معذور ، قال العالم صلوات الله عليه :
 وأسلب ما كلفت به
 ويبقى الوزر والخرج
 وقال الشاعر :
 يا ليتني قد زرت غير حارج
 ذات الوشاح الكتزة الدماج

والفتح : الظفر بالبلد قهراً أو صلحا ، نجرب أو غيره ، ونزلت هذه عام الحديبية حين رده المشركون من مكة ، وهي عدّة له بالفتح ، وجاء على لفظ الماضي على عادة الله في أخباره ؛ لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة ، فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمر لا دافع [له] واقع لا رافع له ^(١).

أي : غير أثم . ومعنى قوله : ﴿وَكُفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي : لزم أيديهم بما شاء قال الشاعر :
وذي ظعن كفت الناس عنه وكنت على مساء ته مقينا

أي : لزمت النفس عنه ﴿وَأُخْرَى﴾ لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ﴿يعني مكة﴾ ، وذلك أن الله لزم نبيه عن دخول مكة حتى غنمه خيبر [وأخرى] فتح مكة فلم يقدر على دخولها وفتحها حتى دخل خيبر قبل فتح مكة ، فيما روي والله أعلم وأحكم .

ومعنى ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي : محبوسا بالحديبية ، وهي بالقرب من مكة فيما بلغني ، ولم أصل هنالك بعد إلى هذه الغاية ، ومعنى ﴿أَنْ يَلْبِغَ مَعْلَهُ﴾ يريد أن لا يبلغ محله ، يريد مكة في يوم النحر الذي يحل فيه النحر للهدي .

ومعنى ﴿مَعْرَةً﴾ أي : مأثم قال الشاعر : أهل جور وغيون حمة ومعرات بكسب المكتسب
والمعرات : الذنوب والمأثم ، ومعنى ﴿لَوْ تَزِيلُوا﴾ أي : لو تفرقوا ، يعني المؤمنين الذين بمكة مع الكافرين ، قال الشاعر :
فألقه بالمهاديات ودونه حواجزها في صرة لم تزيل

أي : تفرق ، ومعنى ﴿الْحِمَى حِمَى الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي : الحاماة والأئمة والنكف على الكفر قال الشاعر :

أما من فتى من عامر ذي حمية طويل نجاد السيف همته شرار

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي : أعطاهم من المألزم والأخذ ، لا من الإلزام والإكراه ، كما قالت القدرية الظلمة .

ومعنى ﴿لِيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي : ليعليه ويرفعه على جميع الأديان ، والظهور : هو الارتفاع .

ومعنى ﴿سِيَاهِهِمْ فِي وَجُوهِهِمْ﴾ أي : علامتهم من أثر السجود ، ذلك ﴿مِثْلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي : صفتهم ﴿ومِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَّرَ أَخْرَجَ شَطَاةً﴾ أي : ورقه ونباته ، قال الشاعر :

ينرج الشطأ على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر

﴿فَاسْتَغْلَظْ﴾ أي : علا وكثر ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ أي : انتصب على سوفة ، أي : على قصبه ، ويحتمل وجها آخر ، وهو استواؤه أي : بلغ إلى غايته ، وكمل على غاية نفاقه وكثرة قيمته ، والله أعلم .

ومعنى قوله : ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي : ليغم أعداء الله بكمال محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليما ، وهذه الآيات في النبي وأهل بيته خاصة ، روي ذلك عن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين .

(١) وزاد الزمخشري على ما ذكره المصنف ، وفي ذلك من الفحامة ، والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى (الكشاف ٣٣٢/٤) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قوله : وفي ذلك فحامة ، أي : في بحى لفظ الوعد

ويحتمل أن معناه : فتحنا في حكمنا وتقديرنا ^(١) ، والله أعلم .
وقيل : الفتح ما كان من أمره بالحديبية ^(٢) ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أصاب فيها ما لم يصب في غيرها ، ببيع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر .
وكان في فتح الحديبية آية عظيمة ، وذلك أنه نزع ماؤها ^(٣) حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [ثم] جمه فيها ، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه ، [وقيل] : فجاش الماء حتى امتلأت ، ولم ينفد ماؤها بعد ^(٤) .

على لفظ الماضي مسندا إلى ضمير العظمة ، وذلك لأن الوعد لا يأتي على هذا الأسلوب إلا ممن كملت قدرته ، واستحال العجز عليه ، وعلم بأنه لا بد من وقوعه ، وقال الطيبي : لأن هذا الأسلوب لا يرتكب إلا في أمر معظم أمثاله ، ويعز الوصول إليه ، ولا يقدر على نيله إلا من له سلطان وقهر ، ومن يغلب ولا يغالب ، ولذلك ترى أكثر أحوال القيامة واردة على هذا المنهج ، لأن فتح مكة من أمهات الفتوح ، وبه دخل الناس في دين الله أفواجا ، وأمر رسوله بالاستغفار ، والتأهب للمسير إلى دار القرار ، ولو أخذ مع ذلك صيغة التعظيم بلغ الغاية .

(١) هذا أيضا تعليل لمحيء الفعل بصيغة الماضي . ومثله في الرازي ٨٨/٢٨ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب : قيل : هو فتح مكة عن جماعة من المفسرين منهم أبو علي ، قال : نزل بعد رجوعه من الحديبية كأنه بشر في ذلك الوقت ، والحديبية اسم بر ، عن قتادة وأنس عن جابر (ما كنا نعلم بفتح مكة إلا يوم الحديبية . وقيل : ﴿فتحنا﴾ قضينا لك بالفتح والنصر ، وقيل : هو فتح خيبر عن مجاهد ، قال الشعبي : بالحديبية يوم بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وبلغ الهدي محله ، وفرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، لأن ذلك كان أمانة لعلو كلمة الإسلام ، وقيل : هو فتح الحديبية عن الضحّاك ، وكان بغير قتال ، والصلح من الفتح ، وهو اختيار القاضي ، لأن السورة نزلت قبل فتح مكة ، وقيل : بشرناك بشري مينا عن مقاتل ، وقيل : فتح الله بالإسلام ليغفر لك الله عن الحسن ، وقيل : هو الفتح والظفر على الأعداء كلهم بالحجج والمعجزات الظاهر ، وقيل : هو فتح الإسلام وظهوره ، وذلك بأربعة أوجه ، أحدها : تعريف الله نبيه أمر الدين وإظهار الحجج حتى تكامل أصولها وفروعها ، وجعل يفتح على غيره بأن يعلمه ، وثانيها : تصديقه بالمعجزات الظاهرة نحو القرآن وحنين الجذع ، وانفجار الماء من بين أصابعه ، وانشقاق القمر ، وثالثها : أنه تكفل بنصرته على أعدائه حتى يظهر دينه على الأديان كلها ، ورابعها : أنه نصره حالا بعد حال ، ونصر أمته حتى علا أمره وظهر دينه ، وقيل : أراد بالفتح ما عمله من القرآن وأنزل عليه من الوحي ، وبيان الدين ، فكأنه قال : علمتكم القرآن والدين ، وأوحيت إليكم لتبلغ الرسالة ، وتتقرب إلي بجميع ما أمرتكم فأغفر لك الأول والآخر من ذنوبك عن أبي مسلم

(٣) أي : ماء البئر التي تسمى الحديبية ، قال الحاكم الجشمي في تفسيره ، والحديبية : اسم بر . وكذا في البرهان كما سيأتي . ومثل هذا اللفظ في الكشف ٣٣٢/٤ . وقد أصلحنا اللفظ منه ، وكذلك ما بين أقواس الزيادة من الكشف .

وظهرت الروم على فارس تصديقا بالخير ، وبلغ الهدي محله .
 وقيل : المراد فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .
 وقيل : الحكم لقوله : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾^(١) وقوله : ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾^(٢)
 قال الرازي : والمختار من الكل وجوه : أحدها : فتح مكة ، والآخر : فتح الحديبية ،
 والثالث : فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان ، والأول مناسب لآخر ما قبلها^(٣)
 من وجوه : أحدها — أنه تعالى لما قال : ﴿هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ إلى
 أن قال : ﴿ومن يخل فإنما يخل عن نفسه﴾^(٤) بين تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم

(٤) قال ابن حجر في تخریج الکشاف ٣٣٣/٤ : متفق عليه من حديث البراء مطولا باللفظ الأول ، ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع ، قال : قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لا ترويهما ، ففقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جنب الركية فلما دعا ، وإما بصق . قال : فجاشت ، فسقينا واستقينا . وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن عزمة ومروان : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، فلم يلبث النسياس أن سرحوه ، وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يمحش لهم بالري ، ولا يخالفه في هذا الحديث البراء ، لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبي مروان عن أبيه ، حدثني أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة ، أن ناجية بن الأعجم قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين شكى إليه من قلة الماء ، فدفعت إلي سهما من كنانته ، وأمر بدلو من مائها ، فعضض فاه منه ، ثم به في الدلو ، وقال لي : انزل الماء فصبه في البئر ، وفتحت الماء بالسهم ، ففعلت ، فوالدي بعته بالحق ، ما كدت أخرج حتى كاد يغمرني) وروي أيضا من حديث قتادة ، قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرجل ، فنزل بالسهم وتوضأ ، ومج فاه منه ، ثم رده في البئر جاشت بالرواء .

(١) الأعراف : ٨٩ .

(٢) سبأ : ٢٦ .

(٣) — هذا اللفظ هو الموجود في تفسير الرازي ٧٧/٢٨ ، وكان المعنى بأن الأول وهو فتح مكة ، مناسب للثالث هنا ، وهو فتح الإسلام بالآية والبيان ، والحجة والبرهان ، فإن الرازي قد ذكره قبل الحكم الأخير ، فقد قال الرازي : في الفتح وجوه : أخذها فتح مكة وهو ظاهر ، وثانيها : فتح الروم وغيرها ، وثالثها : المراد من الفتح صلح الحديبية ، ورابعها : فتح الإسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وخامسها : المراد منه الحكم .. إلى آخر ما ذكره المصنف هنا ، ثم دلل على ذلك بأن الآيات الواردة كلها تدل على أن المراد فتح مكة ، وما كان مثله وجاريا مجراه .

(٤) محمد : ٣٨ .

وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ، ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك ، فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم .

ثانيها : لما قال : ﴿والله معكم﴾ وقال : ﴿وأنتم الأعلون﴾ بين برهانه بفتح مكة ، فإنهم كانوا [هم الأعلون] ^(١) .

ثالثها : لما قال الله تعالى : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ ^(٢) وكان معناه : لا تسألوا الصلح من عندكم ، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ، ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية . اهـ

قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا القرآن ، وكثر الإسلام وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير .
فإن قلت : كيف يكون فتحا وقد أحصروا ؟ قلت : كان فتحا مبينا بعد الهدنة وعقد الصلح ، والإحصار قبل ذلك ، قاله في التجريد ^(٣) .

قال في البرهان : والحديبية بئر ، وفيها مضمض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحاشت بالرواء .
قال في الكشف : فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ^(٤) ؟ قال : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة ، وإتمام النعمة ^(٥) وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك

(١) ما بين القوسين لفظ الرازي ٧٧/٢٨ ، ولفظ الأصل (كانوا الأعلين) .

(٢) محمد : ٣٥ .

(٣) وذكره أيضا في الكشف ٣٣٣/٤ .

(٤) في المصاييح (علة للغفران) وفي الكشف (علة للمغفرة) وفيه أيضا بدلا من قال : لم يجعل (قلت : لم يجعل ..) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف مخطوط : قوله : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ وجه السؤال أن الفتح فعل الله فلا يكون علة للمغفرة ، وخلاصة الجواب أن المعلن متعدد ، وهو المعطوفات الأربع ، فتؤخذ الزبدة والخلاصة من المجموع ، فيكون هو المعلن كما قال : لنجمع لك بين عز الدارين .

(٥) وإتمام النعمة (في المصاييح مؤخرة عن هداية الصراط المستقيم . وفي الكشف موضعها هنا . ولما كان المصنف ناقلا عن الكشف كما ذكر ، فقد استحسنا تقديمها ، موافقة للفظ الكشف . انظر الكشف ٣٣٢/٤ .

على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض العاجل والآجل ، ويجوز أن يكون فتح مكة — من حيث إنه جهاد [للعُدو] — سبباً^(١) للغفران والثواب .

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي : جميع ما فرط منك^(٢) ، وقيل : ما تقدم في الجاهلية وما بعدها .

قال في البرهان : يعني ليست بالفتح جميع ما أذنبوا عليك ، والذنب وإن كان في اللفظ مضافاً إليه ، فهو لغيره من قريش وسائر الكفار حين آذوه وأتعبوه^(٣) . اهـ

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : وأحسب — والله أعلم — أن معنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر : هو أن الله عز وجل وعده بأنه لا يعذبه على ما كان من نسيانه ، ولا يعاقبه بما أصاب من الذنوب على ظنه وحسابه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يتعمد كبائر العصيان ، لا فيما مضى ، ولا فيما تأخر من الزمان^(٤) . اهـ

(١) خير يكون ، وفتح مكة اسمها .

(٢) لفظ المصاييح (من جميع ما فرط منك) ولا وجه لمن هنا ، لأن المعنى : ليغفر الله لك جميع ما فرط منك ، أي : من ذنبك ، فلا حاجة لتقدم من على جميع ، وهكذا هي العبارة في الكشف بدون لفظ من . الكشف ٣٣٣/٤ .

(٣) انظر البرهان مخطوط (٣٤٩) .

(٤) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة . قال الرازي : (المسألة الثالثة) لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذنب فماذا يغفر له ؟ قلنا : الجواب عنه قد تقدم مراراً من وجوه ، أحدها : المراد ذنب المؤمنين ، ثانيها : المراد ترك الأفضل . ثالثها : الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد ، وهو يصونهم عن العجب ، رابعها : المراد العصمة ، وقد بينا وجهه في سورة القتال (الرازي ٧٨/٢٨) . وذكر الحاكم الجشعي في تفسيره قال بعد أن ذكر أوجها كثيرة : وقيل : ﴿ما تقدم من ذنبك﴾ ما تقدم من ذنب أبويك آدم وحواء ، وما تأخر : من ذنوب أمتك بدعوتك ، عن عطاء الخراساني ، وقيل : هو على التقدير ، أي : لو كان لك ذنب قديم ، أو حديث لغفرناه ... ثم قال : يدل قوله : ﴿ليغفر﴾ على جواز الصغائر على الأنبياء قبل النبوة وبعدها ، خلاف قول الإمامية ، وتدل على أنها مغفورة ، ومتى قيل : كيف تكون مغفورة ؟ قلنا : بإيجاب ما يجبر نقصا دخل في ثوابه بتلك الصغيرة ، ومتى قيل : كيف يجوز ذلك عليهم ؟ قلنا : ما يتعلق بالرسالة ومصالح الأمة لا يجوز عليه في الكبيرة ولا الصغيرة ، ولا السهو ولا الغلط ، ولا النسيان ، لأن في ذلك فوت المصالح ، فأما ما يتعلق بحاله ، فلا تجوز الكبيرة أصلاً ، والصغير ما كان مسخفاً ومنفراً لا يجوز عليه ، وما عدا ذلك لا مانع منه ، فيجوز . انظر التهذيب مخطوط ص ٢٤٣ .

﴿وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ وهي النبوة والرياسة بالدين يتمها بالفتح الذي خضع به من استكبر ، وأطاع من تجر^(١) وقيل : بإظهار دينك .

﴿وَيَهْدِيكَ﴾ أي : يزيدك هدى ، أو يثبتك على ما أنت عليه ﴿صِرَاطًا﴾ أي : طريقا مختارا من بين الصراط ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ ثابتا عظيم الاستقامة ، وهو دين الإسلام ، أي : يثبتك عليه ، ويديم هدايتك إليه ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ هو : يعينك ويؤيدك ويظهرك على عدوك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي : نصرا ذا عز لا يقع معه ذل .

قال في البرهان : روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما نزلت هذه الآية تلاها على أصحابه فقال قائل منهم : هنيئا مريفا يا رسول الله ، قد بين الله تعالى لنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٢) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ السكينة : هي الطمأنينة والخشوع والصبر على أوامر الله ، والثقة بوعد الله .

قال في الكشف : السكون والطمأنينة بسبب صلح الحديبية ، والسكينة : السكون كالبهيته للبهتان^(٣) . اهـ

﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي : يقينا مع يقينهم ، وقيل : ليزدادوا إيمانا بالشرائع

(١) ومثل هذا ذكره الإمام أبو الفتح الديلمي في البرهان ٣٤٩ .

(٢) البرهان ٣٤٩ .

(٣) لفظ الكشف : السكينة : السكون ، كالبهيته للبهتان ، أي : أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن . ٣٣٣/٤ ، ٣٣٤ . وزاد الزمخشري : ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة غيب القتال ، فزادوا يقينا إلى يقينهم ، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع . قال السيد العلوي في حاشيته : قوله : السكينة : السكون . أراد بها معناه ، وهو زوال الرعب . .. ثم قال : فسر إنزال السكينة بوجوه : أولها حصول الطمأنينة والأمن في قلوبهم بعد الخوف ، لينتمكوا من يزيد به إيمانهم ، فإن الخائف من العدو قلق مزعج وثائبا : السكون إلى التوحيد ، وهو مجرد التصديق ، والإزدياد بانضمام الأعمال الصالحة إليه ، وثالثها : حصول الاطمئنان في القلب ليكون سببا لقوة اليقين .

مقرونا مع إيمانهم ، وهو التوحيد ؛ لأن الله أنزل الشرائع شيئا فشيئا^(١) و[قيل : ليزدادوا] ثقة بالنصر مع إيمانهم بالجزاء^(٢) وقيل : ليعرفوا فضل الله بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة عقيب القتال .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال في البرهان : يحتمل وجهين : أن يكون معناه : والله ملك السموات والأرض ، ترغيبا للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة

والثاني : معناه — والله جنود السموات والأرض إشعارا للمؤمنين بأن لهم في جهادهم أعوانا لهم على طاعة ربهم^(٣) . اهـ

(١) قال الحاكم الحسني في التهذيب ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ قيل : ليزدادوا مع النصرة في الدين طاعة ، في مجاهدة أعداء الله ، وسائر أمور الدين ، وقيل : ليزدادوا : يقينهم بما يرون من الفتح ، وعلو كلمة الإسلام على فوق ما وعد ، وقيل : تصديقا بشرائع الإسلام ، فإن الله تعالى بعث نبيه بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدقوه زادهم الصلاة ، فلما صدقوه زادهم الزكاة ، فلما صدقوه زادهم الصيام ، ثم زادهم الحج والجهاد ، حتى أكمل لهم دينهم عن ابن عباس ، وقيل : يقينا مع يقينهم ، عن الضحاك ، يعني ثقة بوعده ووعيد ، ويقينا .

(٢) صاحب القول هو الإمام أبو الفتح الديلمي ، وقد ذكره في البرهان فقال : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ والسكينة : هي الصبر على أوامر الله ، والثقة بوعده الله ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ أي : ليزدادوا ثقة بالنصر مع إيمانهم بالجزاء . البرهان ٣٤٩ .

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٤٩ ، وقال الحاكم الحسني : ﴿ والله جنود السموات والأرض ﴾ من الملائكة والمؤمنين ، قيل : أنصار دينه ينتقم بهم من أعدائهم ، وقيل : كل الجنود عبيده ، ومتى قيل : كيف أضاف جميع المؤمنين أنهم جنوده ؟ قلنا : لأنهم يحاربون أعداءه بوجهين ، أحدهما : الذب عن دينه فينفون التشبيه عن صفاته ، والقائح عن أفعاله ، وكذلك يذبون عن أنبيائه كل ذلك بالحجج الدالة ، فهم جنوده من هذا الوجه ، وهم أهل التوحيد والعدل ، كما أن الحجرية جنود الشيطان ينفون الشر عنه ، ويضيفونه إلى الله تعالى .

والثاني : المجاهدة بالسيف لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وهم أيضا أهل التوحيد والعدل ؛ لأنهم يجاهدون بالسيف ليعزوا الكفر ، ويؤمنوا بالله ، ويدنوا بدين الله ، الذي أمر به ، وبعث أنبيائه بالدعاء إليه ، فأما أهل الجبر إذا قالوا : إن الكفر خلق الله وإرادته وقضاؤه ، ثم يحاربون في إزالته ، ولا يرضون به فهم يحاربون الله ، حيث لم يرضوا بما خلق وأراد ، وجاهدوا في دفعه ، فلم يكونوا جنده ﴿ وكان الله عليما ﴾ بالأشياء ﴿ حكيم ﴾ يفعل ما هو الصلاح لعباده .

قال ابن عباس : يعني الملائكة والجن والإنس والشياطين ، فلو أراد نصرته نبيته بغيركم لفعل ، ولكنه اختاركم لذلك ، فاشكروه وأطيعوه ، وارضوا بحكمه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يسلط إلا بحسب المصلحة ، ومن حكمته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم .

وقوله : ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ﴾ مردود على ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ بغير حرف ، كأنه قيل : إنا فتحنا لك ليغفر لك الله [و] ليدخل المؤمنين والمؤمنات (١) .

وقيل : يتعلق بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي : أنزلها في قلوبهم ليدخلهم جنت ، أو بما يفهم من قوله : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : أمركم بالجهاد وإن كان غنيا عنكم ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوَابَ الْمَذْكُورَ﴾ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي : في حكمه وقضائه ﴿فَوْزًا﴾ أي : ظفرا عظيما .

ثم قال تعالى : ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ أي : وليعذب ﴿الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ إما في الدنيا بفعل الجهاد وغيره من التكاليف الشاقة ؛ لأنهم لا ينالون بها ثوابا ، وإنما هي فتنة لهم يظهر بها نفاقهم ، أو يعذبهم في الآخرة بترك الجهاد ؛ لأنهم كانوا يتخلفون عن رسول الله ، ويتسللون عنه لوأذا .

وأما تعذيب المشركين في الدنيا بالجهاد فهو بما يقع من السي والقتل ، أو في الآخرة ، أو فيهما معا .

﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ هو ظنهم أن الله لا ينصر الرسول والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين ، فاتحها عنوة وقهرا .

وقيل : ظنهم أن الله شريكا ، وقيل : ظنهم أن الله لا يعث الموتى ، والأولى حملة على الجميع (٢) .

(١) قال الحاكم الحسني في تهذيبه : كأنه قيل : فتحنا ليغفر لك ، وفتحنا ليدخل المؤمنين ، فهو على التكرير ، أي : ليدخلهم

(٢) قال الحاكم في التهذيب : ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ قيل : ظنهم أن الله لا ينصر نبيه والمؤمنين ، وقيل : هو : قوله

﴿يَلْظُنُّهُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي : لا يرجعون من الحديبية سالمين ، وظنوا

والسوء في كلام العرب : عبارة عن رداءة الشيء وفساده ، والصدق : عبارة عن جودته وصلاحه .

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ أي : ما يظنونونه ويتربصون به بالمؤمنين ، فهو حائق بهم ، ودائر عليهم ، والسوء — بالضم — : الهلاك والدمار ، وبالفتح : المراد الدائيرة التي يذمونها ويسخطونها ، فهي عندهم دائرة سوء ، وما عند المؤمنين دائرة صدق ذكره في الكشف^(١) .

قال في التجريد : والفرق بين السُّوء — بفتح السين — والسُّوء — بضمها — : أن مفتوح السين يراد به ما كان مذموماً قبيحاً في الحقيقة ، يقال : رجل سوء ، ونقيضه رجل صدق في المدح ، ومضمومها : يراد به ما يسوء الإنسان ، أي : يحزنه حسناً كان أو قبيحاً ، كقوله : ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ إذا ثبت هذا فمعنى ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بفتح السين : الدائرة التي هي عندهم دائرة سوء وقبح وذم ، وإن كانت عند الله حسنة ؛ لأنهم يستحقونها ، ومعنى ﴿دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين : التي تسوؤهم وتخزنهم قال في الكشف : هما كالكره والكراه ، والضَّعْف والضَّعْف ، إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء ، وأما السوء — بالضم — فجار مجرى الشر ، الذي هو نقيض الخير ، يقال : أراد به السوء ، وأراد به الخير ، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموماً ، وكانت الدائرة محمودة ، فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا^(٢) . اهـ

عليهم دائرة السوء ، وقيل : ظنهم أن الكفار يغلبون ، وقيل : ظنهم أن عادي محمدا لا يغالب ، وكل ذلك فظنون قبيحة ، فخبب الله ظنهم ، وجعل كل مكروه عليهم

(١) الكشف ٣٣٤/٤ ، وكذلك ما ذكره صاحب التجريد ، معناه في الكشف .

(٢) الكشف : ٣٣٤/٤ ، وفي المصابيح (وأما المذموم فجار مجرى الشر) وفي الكشف (وأما السوء — بالضم — فجار مجرى الشر) فأتينا ما في الكشف .

﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أراد انتقامهم^(١) ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أبعدهم من رحمته ، قال :
 وغضب الله إشارة إلى أن الذي حاق بهم على وجه التعذيب ، وقوله : ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أفاد
 به زيادة ؛ لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالغيب والشتم والضرب ،
 ولا يفضي غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنبه ، وطرده عن بابه ، وقد يكون بحيث
 يفضي إلى الطرد والإبعاد [فقال] : ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ لكون الغضب شديدا

ثم لما بين حالهم في الدنيا بين ما لهم في العقبى فقال تعالى : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾^(٢)
 أي : هياها لهم ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : هو قادر على
 أن يهلك أعداءه من المنافقين والمشركين بغير أيدي المؤمنين ، ولكنه أحرز هلاكهم
 بالاستئصال ، وجعله بأيدي المؤمنين لما علمه من المصلحة ؛ لأنه عزيز حكيم ﴿وَكَانَ
 اللَّهُ عَزِيزًا﴾ قادرا على ما يشاء ، قاهرا لا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ لا يفعل شيئا إلا على
 مقتضى العدل والحكمة .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على أمتك بالبلاغ ، و﴿شَاهِدًا﴾ حال
 ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة لمن أطاعك ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصاك^(٣) .
 ثم بين فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال تعالى : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
 بالتاء في هذا وما بعده على أن الخطاب لأمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن قرأ بالياء فيهن
 على أن المراد الناس ﴿وَتَعَزَّوهُ﴾ أي : الله ، أي : تجلوه وتنصروه ، أي : دينه^(٤)
 ﴿وَتُوقِّرُوهُ﴾ تعظموه ، أي : الله .

(١) يحتمل أن اللفظ (أراد : انتقم منهم) فينظر في نسخ المصاييح .

(٢) من قوله : ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ .. إلى هنا مثله في الرازي ، باختلاف في أوله يسير ، فقد قال الرازي : ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زيادة
 إفادة .. الخ (الرازي ٨٤/٢٨) .

(٣) ومثله في البرهان ، ولفظ البرهان : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني على أمتك بالبلاغ ، وبشيرا بالجنة
 لمن أطاع ، ونذيرا من النار لمن عصى . (البرهان ٣٤٩) .

(٤) قال الزمخشري : والمراد بتعزير الله ، تعزير دينه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن فرق الضمائر فقد أبعد
 . (٣٣٥/٤) .

والتعزير : هو التوقير والتعظيم ، قال الشاعر :

عزروا الأملاك في دهرهم
وأطاعوا كل كذاب أئيم

أي : وقروا وعظمو^(١).

﴿وَتَسْبِّحُوهُ﴾ أي : تنزهوه من القبائح ، والضمائر لله ، فمن فرق^(٢) فقد أبعد ، ويحتمل أن يراد بالتسبيح : الصلاة من السبحة ، وهي الصلاة ﴿بُكُورَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار .

ويحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويحتمل أن يكون أمراً بخلاف ما كان المشركون يعملون ، فإنهم يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرة وعشية ، فأمرُوا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون الفحشاء والمنكر .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : حتى تسبحوه ، وهو تقدسوه وتنزهوه ، وأفضل

(١) هذا القول ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره (أنظره في أول السورة). في المصابيح (عزروا الملوك في دهرهم) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (عزروا الأملاك في دهرهم) .

(٢) وكذلك الرمحشري قد ذكر مثل هذا القول ، وأن من فرق بين الضمائر فقد أبعد ، قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : وقوله : ومن فرق بين الضمائر فقد أبعد . أراد أن من جعل الضمير من الأولين في تعزروه وتوقروه للرسول باعتبار أنه لا يستعمل التعزير في حق الله تعالى ، والضمير الأخير في ﴿تسبحوه﴾ لله باعتبار أن التسبيح هو التنزيه عما لا يليق بجلاله وكبريائه لا يكون إلا له ، أو باعتبار أن المراد به الصلاة ، وهي مختصة به أيضاً ، فقد أتى بما هو بعيد غير مناسب لبلاغة القرآن وفصاحته ، وذلك لأدائه إلى تباين النظم .

ولكن الحاكم الجشمي يخالفهم في هذا الرأي فقد قال : ﴿وتعزروه﴾ قيل : تعظموه ، وقيل : ﴿تعزروه﴾ تنصروه . ﴿وتوقروه﴾ تعظموه عن قتادة ، وقيل : لتقاتلوا معه بالسيف عن عكرمة ، وقيل : ﴿تعزروه﴾ تمنعوه عن الأعداء عن أبي مسلم ﴿وتسبحوه﴾ قيل : الوقف على قوله : ﴿وتوقروه﴾ وقد تم ، ثم يتدنى ﴿وتسبحوه﴾ أي : تنزهوا الله سبحانه ، وقيل : هو عبارة عن الدوام ، والتسبيح : التنزيه ، هذا كله على أن الكناية في تسبحوه يعود على اسم الله تعالى ، وقيل : الكناية تعود على اسم الرسول فيتصل بما قبله ، ولا يكون ثم وقف ، أي : تنزهوا الرسول عما لا يليق به ، كما يقوله الحشوية على يوسف وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : تابعوا الصلاة عليه ، وقيل : هذا من تلوين الخطاب ، وذلك الغاية في الفصاحة ؛ لأنه ابتداء الخطاب إليه ، ثم عاد إلى خطاب الأمة ، وذكر الأمر بطاعة الرسول ، وتسبيح الله سبحانه ، ثم عقبه بذكر الذين بايعوه ، وحثهم على إتمام طاعته فيهما ..

التسبيح هو التنزيه لله ، والتبديد له من شبه المخلوقين ، في معنى سبحان الله : هو بعدان الله من كل قبيح من الصفات ^(١).

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله تعالى ، وهذه بيعة الرضوان عام الحديبية .

قال في التجريد : وكانوا ألفا وأربعمائة رجل ، وقيل : ألفا وخمسمائة ، وقيل : ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين رجلا بايعوه في الحديبية حين بعث النبي صلى الله عليه وآله عثمان إلى أهل مكة ، فأرجف بأنه قتل ، فبايع النبي أصحابه على أن يقاتلوا ولا يفروا ، وقيل : [على] الموت ، وقيل : كان منهم من بايع على أن لا يفر ، ومنهم من بايع على الموت . وقوله : ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي : هم في الحكم كمن يبايع الله .

قال في البرهان : لأن بيعة نبيته في طاعة الله عز وجل ، وإنما سميت بيعة ؛ لأنها عقد على الطاعة ، تشبيها بعقد البيع ، ولأن المبايع كأنه باع نفسه بالجنة ^(٢).

وقوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد : أن يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله تعالى ، فهو على طريق التخييل والتمثيل ، أي الحال مثل حال من يبايع ذوي الأيدي فيكون يده فوق يده ، والمراد بهذا التمثيل التأكيد الذي يستفاد به فضل مبايعة رسول الله تلك البيعة ، وتعظيم النكت ، والله يتعالى عن الأعضاء والجوارح ، وإنما تقديره أن عقد الميثاق مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ^(٣). وقال في البرهان : ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ يعني قوة الله تعالى ونصره فوق قوتهم ونصرتهم ، ويجوز و﴿يَدُ اللَّهِ﴾ يعني منة الله في الهداية فوق أيديهم بالطاعة ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ أي : نقض البيعة

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة .

(٢) البرهان : ٣٥٠ .

(٣) قال السيد العلوي : قوله : على طريق التخييل ، أي : على طريق الاستعارة التخيلية ، التي تتبعها الاستعارة بالكناية ، وذلك لأن الله تعالى وتقدس شبه بالمبايع ، فاحتال ألهم فاخترع له ما قوام مبايعة البائع به ، وهو اليد ، ثم أطلق على ذلك التخييل اسم اليد المتحقة مضافة إلى الله تعالى ، لتكون الإضافة إليه قرينة مانعة عن الحمل على الحقيقة ، أعني على العضو المخصوص ، وذلك لكونه مبتزها عن الجوارح ، وعن جميع صفات الأجسام .

والنكت : نقض العهد والكفر بعد الإيمان . اهـ

﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي : بما يعود ضرر نقضه عليه .

قال جابر : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر ، فما نكث أحد منا إلا جد بن قيس ، وكان منافقا ، اختبأ تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم ، أي : يبايع^(١) .

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ﴾ من أمر النصيحة لرسوله ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني : ثوابا جزيلا ، لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، والعظيم فوق الكبير ، كما أن الحقير دون الصغير .

قال الرازي : ^(٢) العظيم في الأجرام : إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع ، والسمك الغليظ ، فيقال [في] ^(٣) الجبل الذي هو مرتفع ، ولا اتساع لعرضه : جبل عال ، أو مرتفع ، أو شاهق ، وإذا انضم إليه الاتساع في الجوانب يقال : عظيم .

[والأجر كذلك ؛ لأن ماكل الجنة تكون من أرفع الأجناس ، وتكون في غاية الكثرة ، وتكون ممتدة إلى الأبد لا انقطاع لها ، فحصل فيه ما يناسب أن يقال له : عظيم] ^(٤)

والعظيم في حق الله تعالى إشارة إلى كماله في صفاته ، كما أنه في الجسم ^(٥) إشارة إلى كماله في جهاته .

ثم لما بين تعالى حال المنافقين ذكر المتخلفين عن الحديبية فقال سبحانه : ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ يا محمد ﴿الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ^(٦) الذين امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى

(١) قال ابن حجر : في حديث جابر : (أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربعة عشر مائة ، فبايعناه وعمره أخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، فبايعناه ، وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره) أخرجه مسلم (انظر تخريج ابن حجر ، الكشف ٣٣٥/٤) .

(٢) لفظ الرازي ٨٦/٢٨ : وقد ذكرنا أن العظم في الأجرام لا يقال إلا إذا اجتمع فيه .. الخ الكلام الموجود هنا .

(٣) لفظ الأصل هنا فيقال للجبل ، وما بين القوسين من تفسير الرازي ٨٧/٢٨ .

(٤) ما بين قوسي الزيادة من الرازي ، ولم يذكرها المصنف مع أنها بيت القصيد ، والذي ينبغي توضيحه هنا ، فأثبتنا ما يمكن أنه سها المصنف عنه عند نقله عن الرازي (انظر الرازي ٨٧/٢٨) .

(٥) لفظ الأصل كما أن الجسم ، وما أثبتناه هو ما في الرازي ٨٧/٢٨ .

الله عليه وآله وسلم — عن ابن عباس : هم أعراب غفار ومزينة وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، والدليل ^(١) : ﴿ شَغَلْتَنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ النساء والذري عن الخروج معك ، أي لم يكن لنا من يخلفنا فيهم ، وخفنا عليهم الضيعة ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ ذنبنا لتخلفنا عنك ، وكانهم قالوا هذا القول اعتذارا بعد رجوعه من الحديبية ، وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا — دعا من حول المدينة من الأعراب ، وأهل البوادي ليخرجوا معه ، حذرا من قریش أن يعرضوا له ، ويصدوه عن البيت الحرام ، وأحرم صلى الله عليه وآله وسلم وساق معه الهدي ، ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتناقل كثير من الأعراب ، وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره ^(٢) بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة فاعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ، وأنه ليس لهم

(٦) قال الإمام الهادي عليه السلام في مسائله التي يرد بها على ابن الحنفية : ومن قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ما يقول الله سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فأخبر الله عنهم بما كان من كذبهم فيما ذكروا أنه شغلهم ، وأخبر بتناقضهم وتوهمهم ، وما وهموا نبيه صلى الله عليه وآله من إحقاقهم فيما طلبوا منه من الاستغفار لهم ، والصفح في ذلك عنهم ، فأمره الله سبحانه ، أن يخبرهم أن استغفاره لهم غير دافع عقوبة الله عنهم إذا أراد الانتقام في ذلك منهم ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وآله عن أمورهم بما كانوا يتوهمون أنه قد خفي عليه علمه ، بما كانوا ظنوه وأخوه في صدورهم ، فقال ذو المعارج والحلال : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لِنَنْقَلِبَ الرُّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّيِّئَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ فأخبرهم سبحانه بما ظنوا من الظن القبيح في الرسول والمؤمنين ، وتوهموا ، وما زين في قلوبهم الشيطان من ذلك وأملى ، وأنهم كانوا في ذلك قوما بورا ﴿ (انظر رسائل العدل والتوحيد تحقيق سيف الدين الكاتب ص ٩٢ ، ٩٣ .

(١) ذكره في الكشف ٣٣٦/٤ ، بدون إسناد ، وذكره الحاكم الحسني في التهذيب فقال : قيل : نزلت الآية في غفار وجهينة ، وأشجع وأسلم ، والدليل ، تخلفوا عن الحديبية ، وذلك أن رسول الله أشعر الأعراب حول المدينة لما أراد الخروج إلى مكة معتمرا حذرا من قریش ، وأحرم وساق الهدي ، ليعلموا أنه لا يريد حربا ، فتناقل عنه كثير من الأعراب ، واعتلوا بالشغل ، فنزلت الآية عن ابن عباس ومجاهد ، وابن إسحاق ، وقيل : نزلت في المتخلفين عن غزوة تبوك عن الحسن . وذكره أيضا الطبرسي في مجمع البيان ، ١٤٧/٩ .

(٢) في حاشية في الأصل : عقر الدار : بالفتح لغة أهل نجد ، وهي محلة القوم ، وبالضم لغة أهل الحجاز (عن شمس العلوم)

من يقوم بأشغالهم^(١) فكذبهم الله تعالى وقال: ﴿يَقُولُونَ بِالْأَلْسِنَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وأن الذي خلفهم إنما هو الشك في الله ، والنفاق ، وطلبهم الاستغفار ليس بصادق عن حقيقة ، أي : ليس في قلوبهم مبالاة بالاستغفار وعدمه ، وفي الآية دليل على أنها نزلت قبل أن يقولوا ذلك ، وهم قالوا ذلك بعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة الحديبية إلى المدينة ، أو في طريقه راجعا . والله أعلم .

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي : من يمنعكم من مشيئته وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ أي : ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من ظفر أو غنيمة .

قال في التحريد : ظنوا أن تخلفهم يدفع عنهم الضر بسلامة أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله تعالى أنه إن أراد بهم شيئا لم يقدروا هم ولا غيرهم دفعه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم بحسبه ، وهذا وعيد على إظهار النفاق .

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ من عمرته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنهم قالوا : إن محمدا وأصحابه أكلة رأس، وإنهم لا يرجعون أبدا، و﴿أَنْ﴾ مخففة عن الثقيلة ، أي : ظننتم أنهم لا ينقلبون ولا يرجعون ﴿وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : التخلف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وظنهم أنه لا يرجع ، والذي زين تخلفهم هو الشيطان .

ويجوز أن يكون الله تعالى على طريق المجاز لخدلانه أو لتخليته بينهم وبين الشيطان ونحو ذلك . قال الرازي^(٢): ﴿وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني ظننتم أولا ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم [به] ، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل ، وإن كان لا يشك فيها العاقل .

(١) قد تقدم ذكره عن الحاكم الجشعي في التهذيب ، وذكره أيضا الرغشري في الكشاف ٣٣٦/٤ ، وقال ابن حجر في تخرجه : الحديث أخرجه البيهقي في الدلائل ، من رواية آدم عن ورقاء ، عن ابن نجيح ، عن مجاهد نحوه .

(٢) تفسير الرازي ٨٩/٢٨ ، وما بين قوسي الزيادة ثابت في الرازي .

﴿وَضَنَنْتُمْ ظَنَّنَا السَّوْءَ﴾ أي : الظن المذموم ، وأنهم لا يتقبلون ، ويحتمل أن يكون هذا العطف عطفاً يفيد المغايرة ، فقوله ﴿وَضَنَنْتُمْ ظَنَّنَا﴾ غير الذي في قوله : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه : وظننتم أن الله يخلف وعده ، أو ظننتم أن الله كاذب في قوله ^(١).

ثم قال سبحانه : ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي : صرتم بذلك الظن بائرين هالكين ، و﴿بوراً﴾ جمع بائر ، كعائد وعوذ ، أي : هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه ، والبوار : هو الهلاك ، قال الشاعر :

فبار أبو حكم في الوغى هناك وأسرته الأرذلونا ^(٢)

أو فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم ، لا خير فيكم ^(٣).

ويجوز أن يكون ﴿بوراً﴾ مصدر من بار ، كاهلك من هلك بناء ومعنى ، ولذلك وصف به الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ^(٤).

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي : هيئنا وأحضرنّا وقربنا ﴿لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ نارا مخصوصة عظيمة الانتهاب ، لذلك نكر ﴿سعيراً﴾ .

ثم قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يديره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ للتائبين ؛ لأنه لا يغفر ذنباً من غير توبة ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من لم يتب لأن مشيئته تابعة لحكمه ، وحكمته المغفرة للتائب ، وتعذيب المصّر ، وإنما أجهل المشيئة لبيانها في آي كثيرة لمن يغفر له ، من نحو قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

(١) ومثل هذا الكلام في الرازي بتقديم وتأخير وتصرف يسر ، وفي الرازي (أو ظننتم أن الرسول كاذب في قوله) وفي المصايح ما هو ثابت من إسناد الكذب إلى الله تعالى . (انظر الرازي ٨٩/٢٨) .

(٢) ومثل هذا في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، أنظره في الحاشية أول هذه السورة . وانظر تفسير غريب القرآن للإمام زيد أول هذه السورة أيضاً .

(٣) ومثل هذا أيضاً في الكشف عدا البيت الشعر ، بتقديم وتأخير (٣٣٧/٤) .

(٤) وانظر الكشف ٣٣٧/٤ .

صالحاً ثم اهتدى ﴿١﴾ ولمن لا يغفر له نحو ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ﴿٢﴾
﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ ﴿٣﴾ ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ ﴿٤﴾ ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ ﴿٥﴾ ﴿وإن الفجار لفي حميم﴾ ﴿٦﴾ ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ ﴿٧﴾ ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ ﴿٨﴾ ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ ﴿٩﴾ ﴿إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأتته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ ﴿١٠﴾
وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ كان : عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ، ولا انقطاع طارئ ، ومنه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ و﴿كنتم خير أمة﴾ كأنه قيل : وجدتم ، أي : أنتم خير أمة وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يفيد عظمة الأمرين جميعاً ، لأن من

(١) طه : ٨٢ .

(٢) التوبة : ٩٦ .

(٣) يونس : ٨١ .

(٤) الزخرف : ٧٥ .

(٥) القمر : ٤٧ .

(٦) الانقطار : ١٤ .

(٧) الشورى : ٢١ .

(٨) الشورى : ٤٥ .

(٩) الشورى : ٤٦ .

(١٠) طه : ٧٤ ، ٧٥ . قال الحاكم الحسني في تهذيبه : ﴿يغفر لمن يشاء﴾ بشرط التوبة والإيمان ﴿ويعذب من يشاء﴾ يوك الإيمان والطاعة والإصرار على الكبائر ، وقيل : أراد بهذا بيان قدرته ، أي : هو قادر على أن يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، ولكن لا يفعل إلا الحكمة ، فيغفر للمؤمنين ، ويعذب الكافرين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فإن غفر فيفضله ورحمته ، وإن عاقب فيعده ، وقيل : يغفر الذنوب بالتوبة ، ويدخلهم الجنة بالرحمة . وقال الزنجشيري في الكشف ٣٣٧/٤ : ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب ، وتعذيب المصر .

عظم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم ، وعذابه وعقوبته في غاية النكال والالم^(١) ثم قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ وهي خير ، وذلك أن الله وعد المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية فتح خير ، وخص بها من شهد الحديبية : ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وقرئ (كَلِمَ الله) واختلف في المراد بـ ﴿ كَلَامَ الله ﴾ (كَلِمَ الله) فقال ابن عباس : هو مواعده لأهل الحديبية خاصة بغنائم خير^(٢).

وقال مقاتل : هو قول الله تعالى لنبيه وأمره أن لا يسير معه منهم أحد^(٣) ﴿ قُلْ ﴾ لهم جوابا عليهم ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ ﴾ أي : مثل ذلك القول ﴿ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل فتح خير ، أوضح الله سبحانه كذبهم حيث كانوا يقولون عندما يكون السير إلى مغنم يتوقعونها من تلقاء أنفسهم : ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ فإن كان أموالهم وأهلهم شغلهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة ، وفي المراد بهذا القول القولان المتقدمان عن ابن عباس ومقاتل^(٤).

وقيل : ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل هذا الوقت ، قيل : في (التوبة) وهي قوله : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾^(٥) وقيل : هذا لا يستقيم لأن آية التوبة متأخر نزولها عن سورة

(١) ومثل هذه الفقرة بلفظها في الرازي ٩٠/٢٨.

(٢) قال الحاكم النجاشي : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ قيل : عن الحديبية ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، وابن إسحاق ، وقيل : من تبوك ، عن الحسن ، وأبي علي ، وهو الأظهر ؛ لأن التخلف عن تبوك عظيم ، على ما نطق به القرآن ، ووردت به السنة ، ولم يرو في التخلف عن الحديبية ذلك ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ ﴾ قيل : غنائم خير ، على أنه في شأن الحديبية ، وقيل : غنائم مطلقة إذا ظنوا أن المسلمين غالبون.

(٣) كذا عن ابن عباس ومقاتل ، ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٤٧/٩ ، ١٤٨.

(٤) معنى قول المصنف : (وفي المراد بهذا القول) .. الخ أي : أن معنى ﴿ كَذَلِكُمْ ﴾ قال الله من قبل ﴿ هو ما ذكره ابن عباس من أنه مواعده لأهل الحديبية خاصة بغنائم خير ، وقول مقاتل : هو قول الله تعالى لنبيه وأمره أن لا يسير معه منهم أحد .

(٥) التوبة : ٨٣ .

الفتح، وإنما المعنى بكلام الله وقوله هو قوله في هذه السورة ﴿وَأَنَابَهُمْ فَتَحَا قُرْيَا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وهي مغانم خيبر، فجعلها سبحانه لأهل الحديبية خاصة، وما أخبر الله سبحانه به عن المتخلفين من الأعراب، وما يقولونه هو متأخر عن نزول هذه الآية؛ لأن الله أخبر بما يقولونه قبل وقوعه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ من مقول القول، أي: وقل لهم: كذلكم قال الله من قبل، والجواب عليهم من النبي صلى الله عليه وآله إنما يكون وقت قولهم: ﴿ذَرُونَا تَتَّبِعْكُمْ﴾ وذلك حين أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم غزو خيبر، فهذا الحق الذي يستقيم التنزيل عليه ولا يتدافع؛ لأن سورة الفتح نزلت مرجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحديبية في الطريق قبل أن يصل إلى المدينة، فافهم ذلك موقفاً.

وفي البلغة: جعل الله غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، وليس إشارة إلى سورة التوبة، وهو الأظهر؛ لأن الله تعالى قال لنبيه في الآية التي بعدها: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلو كان هؤلاء هم الذين ذكرهم في سورة براءة لما جاز دعاؤهم إلى القتال؛ لأن الله تعالى قال فيهم: ﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدَاؤُ﴾ هؤلاء الأعراب أمر الله نبيه عليه السلام يقول لهم: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ الآية، فصح أن هؤلاء الأعراب غير أولئك^(١). اهـ

وهذا حق؛ لأن سورة براءة ما نزلت إلا بعد سورة الفتح بمدة طويلة؛ لأنها في ذكر غزوة تبوك وهي متأخرة بمدة طويلة مذكورة في الكتب.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم، وهذا رد على قوله تعالى: ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ﴾ كأنهم قالوا: ما قال الله كذلك من قبل ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

ثم قال تعالى رداً عليهم كما ردوا عليه: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ﴿إِلَّا﴾ فهما ﴿قَلِيلًا﴾ وهو فطنتهم لأمر الدنيا دون أمور الدين، كقوله تعالى:

(١) البلغة: تفسير الطوسي مخطوط، وإلى الآن لم يتيسر لنا.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) والفرق بين حربي الإضراب [أن] الأول : إضراب معناه : ردُّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم ، وإثبات الحسد ، والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفهم^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ أي : حرب قوم ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي : قتال شديد ، وهم هوازن وخطفان يوم حنين ، والداعي لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأن الكلام في متخلفي الأعراب عن الحديبية ؛ لأن الله سبحانه لما منعهم عن مغام خيبر أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم : إن الجهاد باب واسع ، وإن الله سيدعوكم على يد رسوله إلى جهاد الكفار كهوازن وغيرهم ، فإن تبتم وأطعتم أتابكم وغفر لكم ، وإن توليتم واعتزلتم ﴿كما توليتم من قبل﴾ أي : يوم الحديبية ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال بعض علمائنا عليهم السلام : وهذا التفسير هو الحق ، ومن عدل عنه فهو غلط أو مغالط^(٣) .

وقيل : هم بنو حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر . والأولى ما ذكره في البلغة : من أن هذه الدعوة في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنه بعد انصرافه من الحديبية كانت له غزوات ، وهؤلاء دعوا إلى قتال أولئك الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل لهم : إن أعرضتم كما أعرضتم من قبل يعذبكم الله ، وقد بينا أن هؤلاء غير أولئك الذين ذكروا في سورة براءة ، ولأن بني حنيفة اختلف أهل القبلة في أمورهم فمنهم من قال : إنهم مرتدون ، ومنهم من قال : بخلاف ذلك ، والخلاف فيه ظاهر .

(١) الروم : ٧ .

(٢) ومثل هذا في الكشاف ٣٣٨/٤ ، وفيه (وقلة الفقه) بدلا عن (وقلة الفهم) .

(٣) وذلك لأن بعض المفسرين منهم الرعشي بأن المراد بهم بنو حنيفة قوم مسيلمة ، وغيرهم ممن حاربهم أبو بكر ، وقالوا : فيه دلالة على صحة إمامة أبي بكر .

قال الرازي : وأقوى الوجوه وهو أن الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان الأظهر غيره) ثم أوضح الدليل وأوسع الاحتجاج (١) على قوة أن داعي لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) — قال الرازي في تفسيره ٩٢/٢٨ : وفي قوله ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر ، وثانيها : هم فارس والروم غزاهم عمر ، ثالثها : هوازن وثقيف غزاهم النبي صلى الله عليه وآله ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان الأظهر غيره ، أما الدليل على قوة هذا الوجه : هو أن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب في زمان النبي صلى الله عليه وآله ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر ، أو مؤمن تقي طاهر ، وامتنع النبي صلى الله عليه وآله من الصلاة على موتى المنافقين ، وترك المؤمنون مخالطتهم، حتى أن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة ، وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقا ، فإن كان ظهروا حالهم بغير هذا ، فلا معنى لجعل هذا علامة ، وإن ظهر بهذا الظهور كان في زمان النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأن النبي عليه [وآله] الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لإتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى : ﴿واتبعوه﴾ وقوله : ﴿فاتبعوني﴾ ، فإن قيل : هذا ضعيف لوجهين أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وآله قال : ﴿لن تتبعونا﴾ وقال : ﴿لن تخرجوا معي أبدا﴾ فكيف كانوا يتبعونه مع النفي ، الثاني : قوله تعالى : ﴿أولي بأس شديد﴾ ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه [وآله] الصلاة والسلام حرب قوم أولي بأس شديد ، فإن الرعب استولى على قلوب الناس ، ولم يبق للكفار بعده بأس وشدة ، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور ؟ .

نقول : أما الجواب عن الأول فمن وجهين أحدهما : أن يكون ذلك مقيدا ، تقديره : لن تخرجوا معي أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ، ويجب هذا التقييد لأننا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك ، وما كان يجوز للنبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهم : لستم مسلمين لقوله تعالى : ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدا ، وقد تبين حسن حالهم ، فإن النبي صلى الله عليه وآله دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون ، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان .

الثاني : المراد من قوله : ﴿لن تتبعونا﴾ في هذا القتال فحسب ، وقوله : ﴿لن تخرجوا معي﴾ كان في غير هذا ، وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك .

وأما اتفاق الجمهور ، فنقول : لا مخالفة بيننا وبينهم ؛ لأننا نقول النبي صلى الله عليه وآله دعاهم أولا ، وأبو بكر رضي الله عنه أيضا دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وآله ، إنما نحن نثبت أن النبي صلى الله عليه وآله دعاهم . فإن قالوا : أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تناف ، وإن قالوا : لم يدعهم النبي صلى الله عليه وآله فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع ، وكيف لا والنبي عليه وآله الصلاة والسلام قال من كلام الله :

وقوله تعالى: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ أي : يكون أحد الأمرين المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما .

قال الهادي عليه السلام : المتخلفون الذين تخلفوا في أهليهم ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم فلم يكن بالإذن منه لهم ، ولكن باختيارهم لمعصية ربهم ، وإنما جاز أن يقول : ﴿لِلْمُخَلَّفِينَ﴾^(١) وهم المتخلفون ، من أجل أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعرض عنهم حين اختاروا التخلف ، ولم يغضبهم على الخروج معه ، فلذلك جاز أن يقول : ﴿الْمُخَلَّفِينَ﴾ والقوم الذين هم أولي^(٢) البأس الشديد : هم الروم ، وأنها وقعة مؤتة ، وهذا عندي أشبه بالحق بأسباب تدخل فيه ، ومعاني توضح ذلك وتبينه ، فقال : ﴿سَدْعُونَ﴾ إلى قتالهم ﴿أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾^(٣) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ في ذلك ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة فلا تجيئون إلى قتالهم وتخلفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ وتخلفتم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾^(٤) في غزوة تبوك والحديبية ﴿يُعَذِّبُكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ شديد الألم ، فجعل لقبول توبتهم علامة ، وهو أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد ، وتطيعون بخلاف

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ وقال : ﴿وَاتَّبِعُونِي﴾ هذا صراط مستقيم ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله ؛ لأن بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان بعيد ، ويوم قوله صلى الله عليه وآله : ﴿لَنْ تَبْعُونَا﴾ كان أكثر العرب على الكفر والنفاق ؛ لأنه كان قبل فتح مكة ، وقبل أخذ حصون كثيرة . الخ كلامه ٩٢/٢٨ ، ٩٣ .

(١) أي : بصيغة المفعول ، كان أحدا خلّفهم ، مع أنهم تخلفوا من أنفسهم
(٢) لم يقل : (أولو) إشارة لما في الآية من جر أولي ، وحكاية لها بلفظها ، وإلا فسلحها هنا الرفع .
(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥٦ ، وفيه أيضا ، قال الهادي عليه السلام : أولوا البأس الشديد : فهم أهل فارس وخراسان ، فقال : سَدْعُونَ إلى قتالهم أو يسلمون .

(٤) في تفسير الأئمة عليهم السلام المخطوط ص ٤٥٦ — قال الهادي عليه السلام : ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ في ذلك ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن قتالهم ، وتخلفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ﴾ وتخلفتم ﴿مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فكان دعاهم إلى جهاد أهل فارس من بعد النبي صلى الله عليه وآله ، وقد قيل : إن أولي البأس الشديد هم الروم ، وإنها وقعة مؤتة ، وهذا عندي أشبه المعنيين بالحق ، بأسباب تدخل فيه ، ومعاني توضح ذلك وتبينه .

حال ثعلبة^(١) .

ثم ذكر سبحانه من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾^(٢) المعنى : أن الله تبارك وتعالى نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات ، وعذرهم في التخلف عن الغزو في الحديبية وغيرها .

والحرج : الضيق والمأثم قال الشاعر :

ذات الوشاح الكنزة الدمالج

يا ليتني قد زرت غير حارج

وأحسن من هذا قول نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم عليه السلام :

ويبقى الوزر والحرج^(٣)

فأسلب ما كلفت به

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مع أن

(١) ثعلبة : هو الصحابي الذي طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدعو له بأن يرزقه الله ، فلما صار ذا مال منع من المال حقه من الزكاة ، فلم يقبل الله منه شيئا بعد أن امتنع أولا من أداء حق الله في هذا المال .

(٢) ومثل هذا من قوله : والحرج .. إلى هنا ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره غريب القرآن (أنظره أول هذه السورة) . والبيت من قصيدة رافقة للإمام القاسم بن إبراهيم الرسي عليه السلام : أوردها الإمام أبو طالب الطاروني في ترجمة القاسم من كتاب الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ص ١١٧ ، ١١٨ . قال : ومن فحول أشعاره ما أنشدني أبو العباس الحسيني رحمه الله قال : أنشدني عبد الله بن أحمد بن سلام ، قال : أنشدني القاسم بن إبراهيم لنفسه :

ونسي التهجير والبدلج	وأقصر في المنى الجرج	وطاف بحالكلي وضج	عليه من البلى نهج
فقلت لنفس مكتتب	علاء من الردى ثبج	قطي ما دمت في مهل	فلإن الحبل مندمج
ولا تستوقري شهبها	فوجه الحق منبلج	وزور القول محقق	إذا طافت بمن الحجج
فهبك رتعت في مهل	أليس وراءك اللجج	وعاذلة تورقني	وجنح الليل معتلج
فقلت رويد عاتبة	لكل مهمة فرج	أسرك أن أكون رتعت	حيث المال والبهج
وإني بت يصهرني	لحر فراقه وهج	فأسلب ما كلفت به	ويبقى الوزر والحرج
ذريني حلف قاضية	تضايق بني وتفرج	ولا ترمين بني غرضا	تطايرونة المهج
إذا أكدى جنى وطني	قلبي في الأرض منفرج		

طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر ، بيان لطاعة الله ، فإن الله تعالى لو قال : ومن يطع الله ، كان لبعض الناس أن يقول : نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه ؟ فقال : طاعته في طاعة رسوله ، وكلامه يُسمع من رسوله .
ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أي : يعرض عما أمر الله به ورسوله ، ويخالف ما نهى الله عنه ورسوله ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ثم أخبر سبحانه برضاه عن المؤمنين حين بايعوا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي : حين يبایعونك ﴿ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ كانت سمره ، وهذه بيعة الرضوان سميت بهذه الآية .

[بيعة الرضوان]

قصتها عنه صلى الله عليه وآله وسلم حين نزل الحديبية بعث عثمان إلى مكة يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، فعظموه وأذنوا له بالطواف بالبيت ، فقال : ما كنت لأطوف قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واحتبس عندهم ، فأرجف بأنهم قتلوه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا تبرح حتى تناجز القوم ، أي تحاربهم ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أتمم اليوم خير أهل الأرض ، وكانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين ^(١) وقيل : ألفا وأربع مائة ، وقيل : ألفا وثلاثمائة ، كذا في الكشاف ^(٢) .

قال الهادي عليه السلام : الشجرة التي بايع المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحتها فهي شجرة بالحديبية بايعوا تحتها رسول الله على الصبر والبلوى ، أو يدخلوا مكة ، وهم بالحرم وبجانب فح ، فأنزل الله على نبيته ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ﴾

(١) في الأصل هنا وفيما سبق عند ذكر هذه العدد (وخمسة وعشرون) برفع (عشرين) والظاهر أنه معطوف على خبر كان والمعطوف عليه منصوب ، وهو في الكشاف أيضا بالنصب ٣٤٠/٤ .

(٢) الكشاف ٣٣٩/٤ ، ٣٤٠ ، وقد نقلها المصنف باختصار وتصرف ، وانظر تحريجها في الكشاف .

الله^(١) فلما طلبوا السلم أجابهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك ، فكتب الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو على الهدنة عشر سنين ، وعلى شروط شرطوها بينهم ، ونحر هدي عمرته في الموضع ، على أن يأتي في السنة الأخرى فيدخل مكة هو وأصحابه ، ويقيمون بها ثلاثاً ، ويخرجون ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من السنة المقبلة ، وتم لهم على الهدنة حتى نقضوا .

ومعنى قوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : علم ما في قلوبهم من النية والصبر والاحتساب له سبحانه ، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : السكون والطمأنينة .

الظاهر أن سببها بعض كلام سمعوه في الصلح فاشأزوا منه في الآية الآتية ﴿ وَأَنَابَهُمْ ﴾ من الثواب ﴿ فَفَتْحًا ﴾ وهو الجزاء ﴿ قَرِيبًا ﴾ يقول : أعطاهم ورزقهم فتحاً قريباً ، وهو فتح خيبر ومغانمها الكثيرة ، التي أخذوا منها من التخييل والأثاث ، والذهب والفضة ، والتي لم يقدروا عليها في ذلك الوقت ، ثم قدروا عليها من بعد ، فهي بلاد الروم والشامات ، وما والاها ، ثم افتتحوها في غزوة تبوك ، ثم افتتحوها من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لنيبته^(٢) . اهـ

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ هي أرض خيبر ، وكانت ذات عقار^(٣) وأموال فتقسمها بين المسلمين ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا قَاهِرًا قَادِرًا عَلَىٰ أَن يَظْفَرَ كَيْدَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . اهـ

﴿ حَكِيمًا ﴾ لا يفعل ذلك إلا لحكمة وتدبير .

ومعنى ﴿ عَزِيزًا ﴾ كامل القدرة غنياً عن إغاثكم إياه ﴿ حَكِيمًا ﴾ حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه ، أو لأن في ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين ، قال : يذل من يشاء بعزته ، ويعز من يشاء بحكمته .

(١) الأنفال : ٦١

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٣٩٢ .

(٣) في حاشية الكشاف (عليان) قوله : (ذات عقار) أي الطحاح : العقار بالفتح — الأرض والضياع والتخلل

(٤) ٣٤٠/٣٤١ .

ثم قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما يغنم المؤمنون إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ المغانم ، أي : مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم ، وهم أسد وغطفان الخليفان ، عليهم عينة بن حصن ومالك بن عوف ، جاؤا لينصروا أهل خيبر ، فألقى الله في قلوبهم الرعب فانهمزوا ، وقيل : أيدي أهل مكة [بالصلح]^(١) ، وقيل : بل معنى ﴿كف أيدي الناس﴾ أي : منع سائر الناس أن يخرجوا معكم في غزو خيبر لئلا يشاركوكم في هذه الغنائم .

قال الحاكم : كانت غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة دون غيرهم ، وروى أنه لم يغب أحد من الحديبية عن خيبر إلا جابر بن عبد الله فأسهم له رسول الله صلى الله عليه وآله كمن حضر .

وروى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق : أن غنائم خيبر قسمت على أهل الحديبية من شهد خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقسم له رسول الله كسهم من حضرها ﴿وَلَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : هذه الكفة . وفي البلغة ، ولتكون الأموال والغنائم التي يأخذها المسلمون على حسب ما أخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية للعالمين ، ودلالة على صدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم^(٢) . اهـ
لأن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية وعبرة ، يعرفون بها أن الله ضامن نصرتهم ، وأنهم منه بمكان .

ثم قال عز وجل : ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي : يزيدكم ثقة بفضل الله ، وبصيرة وهداية وإيقانا بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به .
﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي : وعدكم الله مغانم لم تقدرُوا عليها في الحال ، وستقدرون عليها في المستقبل ، كذا في البلغة . وفي البرهان : يعني فتح مكة .
وفي الكشف : ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ.....وَأُخْرَى﴾ وهي مغانم هوازن في حنين ،

(١) من قوله : ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ إلى هنا ، مثله في الكشف ٣٤٠/٤ ، وما بين قوسي الزيادة من الكشف

(٢) البلغة في تفسير القرآن تأليف محمد بن أحمد بن الحكم الطوسي مخطوط .

وقال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما لحقهم في حنين من الهزيمة^(١).
 وقال عطا وابن عباس: هي فارس والروم، وما كانت العرب تقدر على قتالهم،
 وفتح مدائنهم، بل كانوا خولا لهم، فأقدرهم الله بالإسلام^(٢).
 ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر عليها، واستولى، وأظهركم عليها.
 وقال الفراء: كأنه قال: حفظها الله لكم، ومنعها عن غيركم حتى تفتحوها، وقد
 أحاط بها علمه أنها ستكون لكم.
 ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المقدورات ﴿قَدِيرًا﴾ والوفاء بما وعد من هذه
 الغنائم من جملة المقدورات.
 ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة، ولم يصالحوا، أو حلفاء
 أهل خيبر ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ﴾ لغلبوا وانهزموا مديريين هارين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا﴾
 يتولاهم بالإعانة ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم لدفع المؤمنين عنهم، يريد: وليس إذا ولوا
 الأدبار يتخلصون، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم
 ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ إرسالك، يعني عادة الله السالفة في
 نصرته أوليائه ورسله على أعدائه، ولن تغير عادة الله في نصرك على أعدائك [وأعدائه]^(٣).
 والمعنى: أن الله سن غلبة أوليائه سنة، وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٤).
 ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لا تغير ولا تحول.
 وفي البلغة: ما من نبي أمره الله بمحاربة الكفار إلا نصره الله عليهم، ولو أمرتك يوم
 الحديبية بمحاربتهم لكانت هذه السنة حاصلة.

(١) الكشاف ٣٤١/٤، والذي في الكشاف (وأخرى) معطوفة على هذه، أي: فعجل لكم هذه المغام، ومغام
 أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغام هوازن في غزوة حنين، وقال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الجولة.
 (٢) انظر مجمع البيان ١٥٨/٩، عن ابن عباس، والحسن، والجبائي، وهو كذلك عن الإمام زيد، انظر تفسيره أول
 هذه السورة.
 (٣) في البرهان مثله، من قوله: يعني عادة الله .. إلى هنا، وما بين القوسين من البرهان.
 (٤) المجادلة: ٢١.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أهل مكة ﴿عَنْكُمْ﴾ بإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ بالنهي لكم عن القتال^(١) وإنما نهى عن قتالهم إلقاء المؤمنين الذين في أيديهم ، ولمصلحة علمها الله سبحانه في المصلحة . اهـ

قوله : ﴿بِطَّنْ مَكَّةَ﴾ هو موضع الحديبية ، وقيل : وادي مكة ، وقيل : التنعيم ﴿مِنْ بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي : قضى بينكم بالمكافأة بعد أن أظفركم عليهم ، قيل : وذلك يوم الفتح ، ولهذا احتج أبو حنيفة أن مكة فتحت عنوة لا صلحا ، وهو رأي أهل البيت عليه السلام ، وقيل : كان ذلك في الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة ، فبعث صلى الله عليه وآله وسلم من هزمه ، فأدخله حيطان مكة^(٢) .

ابن عباس : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت . وفي البلغة : إن هذا الموضع الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في أيدي المشركين من جملة بلادهم ، فلما نزل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كره منهم كان ذلك ظفرا ونعمة .

وفي التجريد عن الواحدي ، وعن عبد الله بن مغفل المزني^(٣) : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أصل الشجرة ، إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فناروا في وجوهنا ، فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأخذ الله بأبصارهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : هل جئتم في عهد ؟ قالوا : لا ، فخلّى سبيلهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ . وعن أنس أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جبل التنعيم

(١) وفي البرهان ٣٥٠ مثله من قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ .. إلى قوله بالنهي لكم عن القتال ، مع اختلاف في هذه اللفظة ففي البرهان (والنهي إلى وقت القتال) .

(٢) قال ابن حجر في تخريج الكشف : أخرجه الطبري ، عن شيخه محمد بن حميد ، عن يعقوب القمي ، عن جعفر ، هو ابن أبي المغيرة ، عن ابن أبي ثم قال : وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه . (الكشاف ٣٤١/٤ ، ٣٤٢) .

(٣) وذكره أيضا القرطبي في تفسيره عن عبد الله بن مغفل .

متسلحين ، يريدون غرة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، فأخذهم سلماً فاستحياهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾^(١) . والمعنى : أن الله تعالى ذكر منته بحجزة بين الفريقين ، حتى اتفق بينهم الذي كان أعظم من الفتح .

قال الهادي عليه السلام في جواب الحسن بن محمد بن الحنفية^(٢) وقد احتج على ما زعم من صحة الخبر بهذه الآية ، فقال عليه السلام : وأما ما سأل عنه من قوله الله سبحانه : ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ فقال : هل كان يستطيع أحد أن يمد يده إلى عدوه ، وقد كف [الله سبحانه] أيدي حربه من رسوله والمؤمنين عن حزب الشيطان الفاسقين ، وأذن لرسوله وأطلق لهم مهادة قريش ومن تبعهم من المشركين ، نظراً منه سبحانه للمؤمنين ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [لما أن طلبته قريش منه ، ولو لم يأذن الله له — عز وجل — في ذلك لم يفعله ، ولم يك لرجوع يوم الحديبية حتى يقاتلهم وعلى الحق وبالحق ينازلهم ، ولقد أراد ذلك صلى الله عليه وآله وبإيع أصحابه على الموت فيه بيعة ثانية ، وهي البيعة التي ذكر الله عن المؤمنين ، ورضي بها عنهم ، وأنزل السكينة عليهم ، وصرف القتال ، وكف أيدي الكل من الرجال بما أطلق لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم من إجابته لهم إلى ما طلبوا من المهادة في ذلك العام ، والرجوع عنهم والدخول في السنة المقبلة إلى البيت الحرام ، فأطلق الله له الرجوع عنهم ، والترك لمقاتلتهم لما ذكر سبحانه [في من كان بمكة من المؤمنين والمؤمنات لئلا يطأوهم] فيقتلوهم بغير علم ، فتصيبهم منهم معرفة عند الله بالحكم .

(١) وفي البرهان ص ٣٥٠ (وقيل سبب نزول هذه الآية ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من قبل التعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم ، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعتقهم) .

ورواه ابن كثير في تفسيره ، عن أحمد بن حنبل ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد ، عن أنس بن مالك .

(٢) الحسن بن محمد بن الحنفية : هو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية ، كان من أئمة الكيسانية ، ومن قالوا بالخير والتشبيه ، وهو غير الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية ، العف الورع ، الذي ترجم له ابن حجر في تقريب التهذيب (رسائل العدل والتوحيد تحقيق سيف الدين الكاتب ص ١٩) .

والمعرة هاهنا : فهي الدية ، لا ما قال غيرنا به فيه من الإثم ، وكيف يأثم من بر وكر ، وقاتل على الحق — كما ذكر الله عز وجل — من خالفه من الخلق ، فقتل مؤمنا بغير علم ولا تعمد ، وهو فإنما قتله وهو يحسبه كافرا ، ويظنه في دين الله فاجرا ، فهو — والحمد لله — في ذلك غير آثم ، ولا متعد في فعله ولا ظالم ، ولكنه مخطئ فعليه ما على مثله ، وهو ما ذكر الله في قوله حين يقول : ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾^(١) وإنما جعل عليه العتق والدية تعظيما لقتل المؤمن ، وتشديدا على المؤمنين في الثبوت والتبيين عند قتال الكافرين ، كما قال سبحانه : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾^(٢) .

وأما معنى قوله سبحانه : ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ فهو : الحكم لهم من الله عز وجل بالنصرة إذ نصره ، ومن ذلك ما قال ذو العز والجلال : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾^(٣) ولا نصر يكون أكبر من نصره لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين [فحكم الله سبحانه لهم على أعدائه بالنصر إذا التقوا ، وبالغلبة] إن احتربوا ، ألا تسمع كيف يقول : ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾^(٤) يقول : حكم الله للمؤمنين بالنصر على الكافرين الفاسقين ، ولن تجد لما حكم به رب العالمين للمؤمنين تبديلا ، فهذا معنى الآية وتفسيرها ، لا كما قال من نسب إلى الله جل ثناؤه فاحش المقال ، من جبر العباد على الخير ، وإدخالهم قسرا في كل شر وضير^(٥) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي : عليما بما تعملون فيجازيكم عليه ، وكان الله يرى من المصلحة وإن كنتم لا ترون ذلك بقوله : ﴿هُم الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) النساء : ٩٢ .

(٢) الحجرات : ٦ .

(٣) محمد : ٧ .

(٤) الفتح : ٢٣ .

(٥) انظر رسائل العدل والتوحيد ، بتحقيق سيف الدين الكاتب ص ١٢٩ — ١٣١ . وما بين أقواس الزيادة منه .

يعني قريشا ﴿وَصَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني : كفار مكة جمعوا بين الكفر وبين صدكم عن المسجد الحرام ، حين أحرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعمره عام الحديبية ، وسمى الحرام لعظم حرمة ﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا﴾ أي : صدوكم ، وصدوا الهدى ، و﴿مَعْكُوفًا﴾ بيان لحال الهدى ، أي : محبوسا ﴿أَنْ يَلْبُغَ مَحِلَّهُ﴾ معناه : أن لا يبلغ ، فحذف لا . و﴿مَحِلَّهُ﴾ هو مكانه الذي يحل فيه نحره ، أي : يجب ، ومحل الدين : وقت حلوله ، أي : وجوبه ، أي : لم يبلغ المحل المعهود ، وهو مكة ؛ لأنها محل هدي العمرة ، ومحل هدي الحج منى ، وإلا فقد نحره صلى الله عليه وآله وسلم في الحرم ، لأن بعض الحديبية من الحرم . وروي أن مضارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت في الحل ومضلاه في الحرم ، وفيه دليل لأبي حنيفة أن المحصر محل هديه الحرم ^(١) .

والهدى : ما يهدى إلى الكعبة ، وهي البدن التي ساقها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معه ، وكانت سبعين بدنة .

﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ بمكة ﴿وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي : لم تعلموا بإيمانهم ، أو غير متميزين لكم ، وقيل : رجال ونساء علم الله أنهم مؤمنون . وقوله : ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ بدل اشتغال من هم في ﴿تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي : لم تعلموا وطأهم ، والوطء : عبارة عن الإيقاع والإهلاك ﴿فَتَصِيكُم مِّنْهُمْ﴾ بإهلاكهم ﴿مَعْرَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة هاهنا : هي الدية ، وقيل : عيب من المشركين وتعيير ، فيقولون : قتلوا أهل الله ، وقيل : غم وحزن ، وقيل : معنى ﴿مَعْرَةٍ﴾ أي : مآثم ، والمعرات : هي الذنوب والمآثم . فإن قيل : أي معرة تصيهم إذا قتلوهم ، وهم لا يعلمون ؟ قيل : له : يصيهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ^(٢) . وقوله : ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أي : تطوهم بغير علم ، وجواب لولا محذوف دل عليه الكلام أي : لولا أن تهلكوا ناسا مؤمنين .. إلى آخره لما كف أيديكم عنهم

(١) وانظر الكشف ٣٤٢/٤ .

(٢) وزاد الزمخشري سببا ثالثا لل منع فقال : والمآثم إذا جرى منهم بعض التقصير . (الكشف ٣٤٣/٤) .

ويحتمل أن يقال : جواب لولا ما دل عليه قوله تعالى ﴿ هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ يعني : قد استحقوا أن لا يهملوا ﴿ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ ﴾ لَوَقَعَ مَا اسْتَحَقُّوهُ ، كما يقول القائل : هو سارق ولولا فلان لقطعت يده ، وذلك لأن لولا لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره ، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير ، فذكر الله تعالى أولاً المقتضي التام البالغ ، وهو الكفر والصد والمنع ، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه ، وهو وجود الرجال المؤمنين . ذكره الرازي^(١) .

وقوله : ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية من كف أيدي المؤمنين عن أهل مكة ، صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين ، كأنه قيل : كان ذلك الكف ومنع التعذيب ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي : في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنهم ، أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركهم .

ثم قال : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ أي : لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض ، وهو كالتركيز لـ ﴿ لَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ ﴾ لمرجعهما إلى معنى واحد ، والمعنى : أنه كان بمكة مسلمون مختلطون بالمشركون غير متميزين منهم ، ولا معروفين الأماكن ، فقيل : لولا كراهة أن تهلكوا ناسا من المؤمنين بين [ظهري] المشركون ، وأنتم غير عارفين بهم ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ من الذين بمكة ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بالقتل والأسر^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : واذكر حين جعل الذين كفروا من أهل مكة^(٣) ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ الأنفة والكبر ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ هي أنفتهم أن يقرؤا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة ، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم^(٤) وذلك ما يروى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل الحديدية بعثت إليه قريش سهيل بن عمرو وغيره ،

(١) انظر الرازي ٢٨/١٠٠ .

(٢) انظر الكشاف ٤/٣٤٣ ، ٣٤٤ . ففيه مثل هذا الكلام مع تقديم وتأخير ، وتصرف يسير .

(٣) وقد ذكر الزمخشري وجه آخر للنصب ، وهو أن يعمل فيه ما قبله ، أي : لعذبناهم ، أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت . (الكشاف ٤/٣٤٤) .

(٤) وزاد في البرهان (ومنعهم عن دخوله مكة) . البرهان ٣٥٠ .

وأمرهم أن يعرضوا عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يرجع من عامه ذلك ، على أن يخلوا له مكة في العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، وكتبوا بينهم كتابا فقال صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وآله أهل مكة ، فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ، ولا قاتلناك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أني رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويشتمزوا منه ^(١) ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الصبر الذي صبروا ، والإجابة إلى ما سألوا ، والصلح الذي عقده حتى عاد إليهم في مثل هذا الشهر من السنة الثانية قاضيا لعمرته ، ظافرا لطلبته .

وفيه لطائف معنوية [ولفظية] الأولى ^(٢) : هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، إشارة إلى ثلاثة أشياء : أحدها — جعل ما للكافرين يجعلهم فقال : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجعل ما للمؤمنين يجعل الله فقال ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وبين الفاعلين ما لا يخفى ، ثانيها : جعل الحمية للكافرين ، وللمؤمنين السكينة ، وبين المفعولين تفاوت . ثالثها : أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : ﴿حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وقال : ﴿سَكِينَتَهُ﴾ وبين الإضافتين ما لا يذكر .

ثم قال تعالى : ﴿وَالْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ كلمة التقوى هي بسم الله الرحمن الرحيم ، ومحمد رسول الله قد اختارها

(١) إلى هنا مثله في الكشف بتصرف يسير جدا (الكشاف ٣٤٤/٤) . وقال ابن حجر في تخريجه : أخرجه البيهقي في الدلائل ، من رواية عروة في قصة الحديبية ، وفيه : ثم بعث قريش إلى سهيل بن عمرو .. الخ مطبوعا ، والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب ، ومن رواية مروان ، والمسور ، وفي النسائي مختصرة ، من رواية ثابت البناني ، عن عبد الله بن مغفل .

(٢) لم يذكر المصنف اللفظية ، ولكن ليتين معنى الأولى ، وأن المراد بها المعنوية ، ذكرنا ما هو موجود في السرازي ، وإن لم يتعرض المصنف للطائف اللفظية . وفي الرازي ، فأشار إلى ثلاثة أشياء ، بدلا عن (إشارة إلى ثلاثة أشياء) وفي الرازي أيضا : (جعل للكافرين الحمية) (انظر الرازي ١٠٢/٢٨) .

الله لنبيته ، وقيل : هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله ^(١) قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم ، وروي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ^(٢).

وعن الحسن : كلمة التقوى الوفاء بالعهد .

ومعنى إضافتها إلى التقوى أنها سببها وأساسها ، أعني لا إله إلا الله ذكره في التجريد .

وفي البلغة : وألزم المؤمنين كلمة الإخلاص ﴿وكانوا أحق بها﴾ أولى بها وبالهداية من غيرهم ﴿وأهلها﴾ لأنها من الخير ، وهم أهل الخير .

ثم قال تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ أي : صدقه فيما رأى ، وفي حصوله صدقا متلبسا بالحق ، أي : بالغرض الصحيح ، والحكمة البالغة لما فيه من الابتلاء والتمييز بين [المؤمن] المخلص ، وبين من في قلبه مرض ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، وقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا ، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله حق ، فلما تأخر ذلك وصالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون حين قال النبي صلى الله عليه وآله : فما رأيت في هذا العام ، فقال عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحارث :

(١) لأن بها يقع الاتقاء عن الشرك .

(٢) قال الحاكم الحشمي في تهذيبه : ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قيل : كلمة التقوى : لا إله إلا الله ، عن ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، وعمرو بن ميمون ، ومجاهد ، والضحاك ، وسلمة بن كهيل ، وعبيد بن عمير ، والسدي ، وقيل : كان شعارهم في الحرب : لا إله إلا الله ، فلزموا ذلك ، وقيل : كلمة الإخلاص عن مجاهد ، وقيل : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، عن علي وابن عمر ، وقيل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، عن عطاء ابن أبي رباح ، وقيل : بسم الله الرحمن الرحيم عن الزهري ، وقيل : التوحيد وعبادة الله وحده عن أبي مسلم ، وقيل : طاعة الله قبول لجميع ما أمرهم به عن أبي علي ، وقيل : ألزمهم ثواب كلمة التقوى . ﴿وكانوا﴾ يعني : المؤمنين ﴿أحق بها﴾ قيل : أحق بالتوحيد ، وكلمة الإخلاص ، والتقوى عن أبي مسلم ، وأبي علي ، وقيل : كانوا أحق بالحمة والتشديد ؛ لأنهم كانوا على الحق ، وقيل : كانوا أحق بثواب التقوى ؛ لأنهم أهلها وفعلوها ، وقيل : أهلها ؛ لأنهم عليها يحون ، وعليها يموتون ، وعليها يبعثون .

والله ما جلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت^(١) فكان تأخير الوعد بالفتح فتنة للناس .

قال الهادي عليه السلام : ومعنى ﴿أريناك﴾ فهي التي أخبرناك بها وأعلمناك ، وهو ما وعده من فتح مكة ، فكانوا يتقاضونه ذلك ، ويقولون : يا رسول الله قلت لنا كذا ، ووعدتنا بالفتح ، وقد أبطأ ذلك ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (لم أوقت لكم وقتاً ، وإنما وعدتكم أمراً ، وستصلون إليه) وكان في قلوب المنافقين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يصدقهم^(٢) . اهـ

فكان تأخير تصديق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين عاد إليهم في مثل ذلك الشهر من السنة الثانية ، قاضيا لعمرته ، ظافرا بطلبته فتنة للناس بما يقع في قلوبهم من استبطاء الموعد ، وتصديق الرؤيا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿إن شاء الله﴾ فيه سؤال لأنه لا يقوله إلا الشاك ؟ وهذا وحشي من الله . وجوابه من وجوه أحدها : أنه تعليم لعباده أن يتأدبوا بأدابه ، فيقولوا في عداثهم مثل ذلك ، وإن كان تعالى قد علم أن ذلك كائن لا محالة ، وثانيها : أنه متعلق بآمنين لا بالدخول ، فلا شك فيه ، فعلى هذا إن ﴿آمنين﴾ ليس من الوحي ، بل هو من قول قائل في المنام ، وفيه نظر ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحى ، وثالثها : أنه على الحكاية كأن رسول الله رأى في المنام أن قاتلا يقول : ﴿لندخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾ تعالى كذا في التجريد ، ومثل هذا الوجه الثالث ذكره في البرهان^(٣) .

(١) مثل هذه الرواية موجودة في الكشف بلفظها إلا قوله (وصالح قريشا بالحديبية ارتاب المنافقون حين قال النبي صلى الله عليه وآله : فما رأيت هذا العام) فإن هذا اللفظ موجود في البرهان ٣٥١ ، وانظر أيضا التخریج من الكشف ٤/٤٥٥

(٢) لم أجده في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام .

(٣) قال الحاكم الجشمي : ﴿إن شاء الله آمنين﴾ اختلفوا في أن الاستثناء عما ذا ؟ وقد طعن بعض الملاحدة فيه ، فقالوا : كيف يكون في كلام الله ورسوله استثناء ، وهلا قطع على ذلك ؟ قلنا : من قال : إنه كلام رسول الله قال : إنه استثنى بأن أتى بأدب الله ، حيث قال : ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾ وإنما هو انقطاع إليه ،

قوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: البعض محلق، والبعض مقصر لأجل الإحرام، أي: لأجل التحلل منه ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من أهل مكة، أي: غير خائفين، وليس ﴿لَا﴾ للنهي ^(١) ﴿فَعَلِمَ﴾ من الحكمة والمصلحة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يعني: فعلم أن دخولها إلى سنة ولم يعلموا.

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني: فتح خير، لتستروح [إليه] ^(٢) قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود به وهو فتح مكة.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هو دين الإسلام، والهدى: هو القرآن كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ والظهور هو الارتفاع، أي: ليعليه ويرفعه على الأديان كلها، أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب، وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام لا يبقى على وجه الأرض كافر ^(٣).

قال الرازي: وأكثر المفسرين على أن الهاء في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ راجعة إلى الرسول، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق، أي: أرسل الرسول بالدين الحق ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: ليظهر الدين الحق على كل الأديان، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للإظهار هو الله، ويحتمل أن يكون [هو] النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي: ليظهر النبي دين الحق. اهـ

لا أنه شك فيه، عن ابن كيسان. وقيل: إن معنى (أن يشاء) تقديره: إن شاء الله، كقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ تَحْصَانًا﴾ عن أبي عبيدة، وقيل: الاستثناء من الدخول لا من الرؤيا، وبين الدخول كانت مدة، وقد هلك أناس فهو لدخول الجميع، أي: ليقعن، عن أبي علي، وقيل: الاستثناء واقع على الخوف والأمن على الدخول، أي: إن شاء الله أمنكم فتدخلوا آمين، وقيل: كانت تلك الرؤيا، والرؤيا منها: ما يوجد كما رأي، ومنها: ما يكون تأويله مخالفا لما رأي، فاستثنى ليعلم أن تأويله وفق ظاهره، وهو حكاية الرؤيا، فكانه أرى ذلك، وعلق بالمشية، عن أبي مسلم (١) ومعلوم أن لا ليست للنهي، والدليل رفع تخافون، وإنما هي للنفي بمعنى غير خائفين، وعملها النصب على الحالية من فاعل لتدخلن، أو من الضمير في آمين، أو في محلقين.

(٢) ما بين القوسين زيادة من الكشاف ٣٤٦/٤.

(٣) ومثله في الكشاف ٣٤٦/٤.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن .
الحسن : شهيد على نفسه أنه سيظهر دينك يا محمد .
وقيل : كفى بالله شهيدا في أنه رسول الله ، وهذا مما يسلي قلوب المؤمنين ، فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب ، وقالوا : لا نعلم أنه رسول الله فلا تكلموا محمد رسول الله ، بل اكتبوا محمد بن عبد الله ، فقال تعالى : ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ في أنه رسول الله ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فيه وجوه أحدها : خير مبتدأ محذوف ، تقديره : هو محمد الذي سبق ذكره بقوله : ﴿أرسل رسوله﴾ محمد ، و﴿رسول الله﴾ عطف بيان ^(٢) .

وثانيها : أن ﴿محمد﴾ مبتدأ وخبره ﴿رسول الله﴾ وهذا تأكيد لما تقدم .
وثالثها : وهو مستنبط ، وهو أن يقال : ﴿محمد﴾ مبتدأ و﴿رسول الله﴾ عطف بيان ، أو نسق للمدح لا للتمييز ، و﴿الذين معه﴾ عطف على ﴿محمد﴾ وقوله : ﴿أشداء﴾ خبرهم ، قاله الرازي .

قوله : ﴿أشداء﴾ و﴿رحماء﴾ جمع شديد ورحيم ، بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى المؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه ، والمصافحة لم

(١) صاحب القيل هذا هو الرازي (انظر التفسير الكبير ١٠٧/٢٨) فهو موجود فيه بلفظه .
(٢) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشاف : قوله : (وإما مبتدأ ورسول الله عطف بيان) قال صاحب التقریب : وفيه نظر ؛ لأنه يخالف ما ذكره قبل من اشتراط العلمية في عطف البيان ، قيل : وعلى تقدير كونه مبتدأ ورسول الله عطف بيان فالخير أشداء .

أقول : المصنف لم يذكر أن يكون محمد مبتدأ ، ورسول الله عطف بيان إلا في الوجه الثالث ، الذي نسب إلى الرازي ، ويمكن أن يجعل كلام الزمخشري على ما اقتصر عليه المصنف من الوجهين الأولين ، ويجعل قوله : (و﴿رسول الله﴾ عطف بيان) من تمام الوجه الأول ، لا من تمام الوجه الثاني ، وقد اقتصر الزمخشري على ذكر احتمال أن يكون محمد مبتدأ ، وترك ذكر الخبر لوضوحه . (انظر حاشية العلوي ، والكشاف ٣٤٦/٤) (والرازي ١٠٧/٢٨) .

يختلف فيها الفقهاء ، وأما المعانقة ، فقد كرهها أبو حنيفة ، وكذلك التقبيل ، قال : ولا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده ، وقد رخص أبو يوسف في المعانقة ، ومن حق المسلمين [في كل زمان] أن يراعوا هذا التشدد ، وهذا التعطف^(١) . كذا في الكشف .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ لا يكون خطاباً مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل يكون عاماً أخرج مخرج الخطاب ، تقديره : تراهم أيها السامع كائناً من كان^(٢) . ومعنى ﴿ يَتَتَوْنَ ﴾ أي : يطلبون ﴿ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ﴾ وهو الجنة ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ منه عنهم . وقوله تعالى : ﴿ يَتَتَوْنَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ﴾ لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم ، وركوع المرآئي وسجوده ، فإنه لا يتتقى به ذلك .

ثم قال سبحانه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ أي : علاماتهم من آثار صلواتهم وسجودهم تبدو في وجوههم ، ونور يكسوها الله عز وجل على ما جاء في الحديث من صلاة الليل ، أو المراد السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله : ﴿ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ يفسرها ، أي : من تأثير السجود ، وقيل : صفرة الوجوه من خوف ربهم ، وقيل : ندى الطهور وتراب الأرض^(٣) .

(١) الكشف ٣٤٧/٤ ، وفيه زيادة بعد قوله : وهذا التعطف : فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ، ويعاشرُوا اخوتهم في الإسلام متعطفين بالر والصلة ، وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة [أي: السهلة] .

(٢) ومثل هذه الفقرة موجود في تفسير الرازي ، وزيادة في آخره : كما قلنا : إن الواعظ يقول : انتبه قبل أن يقع الانتباه ، ولا يريد به واحداً بعينه .

(٣) ذكره في الكشف ، ونسبه إلى سعيد بن المسيب . وقال أيضاً : وكان كل من العليين ، علي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك يقال له : ذو الثغفات ؛ لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثغفات البعير (٣٤٧/٤) .

وقال الحاكم الجشمي في تهذيبه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ قيل : علامتهم يوم القيامة ، عن ابن عباس ، والحسن ، وعطاء ، والربيع بن أنس ، قال شهر بن حوشب : تكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر ، وقيل : علامتهم في الدنيا من أثر الخشوع عن مجاهد ، وقيل : أثر الثراب على وجوههم ، عن عكرمة وسعيد بن جبير ، وأبي

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي : وصفهم ﴿فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ لأن المثل يراد به الوصف ، أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعا .
قال في التحرير : اختلف في قوله : ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ على ثلاثة أقوال أحدها : أن مثلهم في الكتابين واحد ، وهو ما تقدم ، ثم ابتداء فقال : ﴿كَزَّرَعٍ﴾ أي : هم كزرع .
وثانيها : أن مثلهم في الكتابين واحد أيضا ، وهو قوله : ﴿كَزَّرَعٍ﴾^(١)
وثالثها : أن مثلهم في التوراة ما تقدم ، ومثلهم في الإنجيل ﴿كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه ، أي : أوله عند نباته ، أشطى الزرع إذا فرخ ، وهو ما يتولد منه ، أي ورقه ونباته قال الشاعر :

يخرج الشطأ على وجه الثرى
ومن الأشجار أفنان الثمر
﴿فَازَرَهُ﴾ من الموازنة ، فهي : المعاونة ، أي : فشد أزره وقواه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ غلظ وكثر ، أي : صار من الرقة إلى الغلظ^(٢) يعني باجتماع الفراخ مع الأصول ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ جمع ساق ، أي : على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقا له ، أي : فاستقام على قصبه ﴿يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ تكامله وغلظه ، وهذا مثل ضرب به الله لبدو الإسلام ، وترقيه في الريادة إلى أن قوي واستحكم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام وحده ، ثم قواه بمن آمن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع مما يحتف بها مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع ﴿لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يعني بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن

العالية ، قال سفيان : يصلون بالليل ، فإذا أصبحوا رئي ذلك في وجوههم ، وعن عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من صلى الخمس ، وقيل : من الصفرة والنحول عن الضحاك ، قال الحسن : إذا رأيتم حسبتهم مرضى ، وما هم بمرضى ، وقيل : صفرة السهر ، وغض البصر .
قال في حاشية الأصل لهذا التفسير : جاء في أمالي الشجري عن الإمام زيد بن علي عليه السلام قال : صفرة الوجوه ، وعمشة العيون .

(١) فعلى هذا يكون (مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل) مبتدأ ، وقوله : ﴿كَزَّرَعٍ﴾ خبر المبتدئين المعطوف ، والمعطوف عليه . وفي الوجه الثالث : هو خبر عن قوله : ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾ والواو للابتداء ، وليست للعطف .
(٢) أي : أنه من باب استنوق الجمل .

آمن به وصدقه ، لأن ما أعجب [المؤمنين] ^(١) من قوتهم ، كإعجاب الزراع بقوة زرعهم هو الذي غاظ المشركين منهم .

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ليغشم أعداء الله بكمال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذه الآيات في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي أهل بيته خاصة ، روي ذلك عن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق عليه السلام ^(٢) . اهـ

وهو تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من غنائهم وترقيهم في الريادة والقوة ، أي : أنماهم الله عز وجل بالكثرة ليغيط بهم الكفار .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي : وعدهم الأجر العظيم على العمل الصالح ، وقيل : الفعل المعلن هو قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يقال : رغما لأنفك أنعم الله عليه .

وقوله : ﴿مِنْهُمْ﴾ من لبيان الجنس ؛ لأنهم كلهم مؤمنون عن الزجاج ، أي : من جنس الصحابة ، وقيل : للتبعيض ، والمراد الذين استقاموا على الإيمان إلى الموت .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

(١) ما بين القوسين زيادة من البرهان ، وكان في أصل التفسير إشكال من حيث فهم المعنى ، وبالرجوع إلى البرهان ، ووجود هذا بلفظه فيه أصله منه .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول السورة .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

تسع وثلاثون آية في الحجازي والمكي والشامي ، وثمان وثلاثون في الكوفي ، وأربعون في البصري (مدنية) وعن الضحاك وسعيد بن جبير (مكية) وهي سورة القتال .
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المثني مكان الإنجيل ، وأعطاني مكان الزبور المثاني ، وفضلني ربي بالمفصل) (١) وفي تفسير الماوردي (٢) : اختلف في المفصل على ثلاثة أقوال أحدها : — وهو الأكثر من سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى سورة الناس ، والثاني : أنه من سورة ق إلى سورة الناس . والثالث : من سورة الضحى إلى سورة الناس . عن ابن عباس ، وكان يفضل بين كل سورتين بالتكبير ، وبه سمي المفصل ، وقيل : سمي لكثرة الفصل بين سورة .

(١) الحديث في كنز العمال برقم (٢٥٨٢) بلفظ : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المثني . وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل وعزاه إلى الطبراني ، والبيهقي عن واثلة ، وبرقم (٢٥٨٥) بلفظ : (أعطاني ربي السبع الطوال مكان التوراة ، والمثني مكان الإنجيل ، وفضلت بالمفصل) وعزاه إلى الطبراني عن أبي أمامة ، وبرقم (٢٥٨١) بلفظ (إن الله تعالى أعطاني السبع مكان التوراة ، وأعطاني الرايات إلى الطواشين مكان الإنجيل ، وأعطاني ما بين الطواشين إلى الحواميم ، مكان الزبور ، وفضلني في الحواميم والمفضل ، ما قرأه نبي قبلي) وعزاه إلى محمد بن نصر ، عن أنس ، وفي موسوعة أطراف الحديث النبوي ، غزا الحديث إلى الكثر ، وإلى الدر المنثور ٣٤٤/٥ ، والقرطبي ٨٧/١٣ .

(٢) الماوردي : هو علي بن محمد بن حبيب ، أبو الحسن الماوردي (٣٤٦ — ٤٥٠ هـ) فقيه شافعي : أصولي ، مفسر ، أديب ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد ، وولي القضاء في بلدان كثيرة ، ثم جعله القائم بأمر الله العباسي قاضي القضاة سنة ٤٢٩ هـ وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، وبلغ منزلة عند ملوك بني بويه ، وسمي الماوردي نسبة إلى بيع ماء الورد ، توفي ببغداد ، ومن كتبه : النكت والعيون في تفسير القرآن . المصادر (طبقات الشافعية للسبكي ٢٦٧/٥ ، تاريخ بغداد ١٠٢/١٢ ، المنتظم ١٩٩/٨ ، وفيات الأعيان ٢٨٢/٣ ، معجم الأدباء ٥٢/١٥ ، شذرات الذهب ٢٧٥/٣ ، معجم المفسرين ٣٧٥/١ ، وانظر بقية المراجع فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: امتنعوا عن الدخول في دين الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه، قيل: وهو عام يدخل فيه كل كافر. وعن ابن عباس: (هم المطعمون يوم بدر) ^(١) [يمنعون عن الدخول في الإسلام، ويأمرون بالكفر].

وعن مقاتل: (كانوا اثني عشر رجلاً من المشركين، يصدون [الناس] عن الإسلام [ويأمرونهم بالكفر]) ^(٢).

قال في البرهان: نزلت في اثني عشر من كفار مكة، منهم ^(٣): أبو جهل بن هشام، وعتيبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، ومنبه ونيبه ابنا الحجاج، وأبو البحتري، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حرام، والحارث بن عامر بن نوفل. اهـ

وقيل: هم من أهل الكتاب، كفروا وصدوا من أراد الإسلام منهم ومن غيرهم. أو صدوا عن بيت الله بمنع قاصديه، ودفع زائريه ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ^(٤): أحبطها، من ضلت إبله: ضاعت، كما يقال: أضل بعيره إذا تركه مسيباً فضاع، وهي ما عملوه

(١) إلى هنا انتهى كلام ابن عباس، وما بين أقواس الزيادة من المصنف، وليست من كلام ابن عباس (انظر الكشاف ٣١٤/٤)

(٢) ما بين أقواس الزيادة لفظه (الناس) مقدمة من تأخير، وقوله: (ويأمرونهم بالكفر) غير ثابتة في المصايح، وهو موجودة في الكشاف من كلام مقاتل (الكشاف ٣١٤/٤).

(٣) في المصايح والبرهان (منهم) والصواب: وهم؛ لأنه ذكر الإثني عشر كلهم. فلا مناسبة لمن هنا (البرهان ٣٤٦)

(٤) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليهما السلام ما لفظه:

أخبرنا أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسن الحسين زيد بن علي عليه وآله الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ معناه: لا يقبل مع الكفر عملاً وقد كانت لهم أعمال، فأضلها يوم القيامة، فلا يقدر على شيء مما كسبوا. وقوله تعالى: ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ معناه: بينها لهم، وعرفهم منازلهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معناه: وليهم وناصرهم .
 وقوله تعالى: ﴿مَنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ معناه: غير متغير ، ولا متن . وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا الْبَاطِلَ﴾ معناه: الشيطان .
 وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ قال: أعلامها ، ويقال: أولها . وقوله تعالى: ﴿سُورِلَ لَهُمْ﴾ معناه: زين لهم .
 وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ معناه: جد . وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ معناه: ناصحوه .
 وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْصُرْ لَهُمْ﴾ معناه: لا مانع لهم . وقوله تعالى: ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معناه: في فحوى القول .
 وقوله تعالى: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ معناه: حتى نميز . وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ معناه: تضعفوا .
 وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَرْكُمَ أَعْمَالُكُمْ﴾ معناه: لن ينقصكم ، ولن يظلمكم . وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ هَا﴾ يفترض عليكم . وقوله تعالى: ﴿فِي حُفْرِكُمْ﴾ معناه: يلح عليكم . وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بِهِمْ﴾ معناه: حاطهم .
 وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ أَصْغَانَكُمْ﴾ معناه: أحقادكم .
 وقوله تعالى: ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ معناه: ثوابهم في الآخرة ، ويقال: بين لهم ما يتقون .
 وقوله تعالى: ﴿مُتَقَلِّبِكُمْ﴾ معناه: منقلب كل غاية . ﴿وَمُتَوَكِّلٌ﴾ معناه: متوكل كل دابة بالليل والنهار .
 وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ معناه: الغالبون . (انظر تفسير الإمام زيد عليه السلام تحقيق الحكيم ص ٢٩٤ ، ٢٩٥)
وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ما لفظه:
 تأويل قول سيدنا عز وجل: ﴿وَصَدُوا﴾ أي: أعرضوا ومالوا ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وضللها ، قال الشاعر:
 إن من الرأي الذي تضلله
 مشورة النصيح لمن لا يقبله
 ومعنى ﴿كُفِرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ﴾ أي: غطى عنهم ذنوبهم وسرّها ، ومعنى ﴿وَأَصْلَحَ بِهِمْ﴾ أي: حاطهم وشأنهم ، قال الشاعر:
 (وخالف بال أهل الدار بالي) أي: خالف حاطهم حالي .
 ومعنى ﴿أَنْخَسْتُمُوهُمْ﴾ أي: أذللتهم ، قال الهادي إلى الحق عليه السلام:
 وقد أنخست عند ذاك عداتي
 فهم في الهوان أسرى وقتلي
 ﴿فَشَدُّوا الْوَتَاكُ﴾ أي: رباط الأسارى ، قال إبراهيم بن إسماعيل أبو القاسم العالم عليه السلام:
 قد موت قلبي المموم وطولت
 ليلى مهانا في الضفاد وثاقا
 ﴿فَإِذَا مَنَا بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءٍ﴾ أي: تفضلا ، أو فدية بمال ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: عددها وأهبتها ، قال الشاعر:
 أعددت للحرب أوزارها
 رماحا طولا وخيلا ذكورا
 ﴿لِيَلْبِسُوا بَعْضُكُمُ الْبِلَؤَى﴾ هي الاختيار . ومعنى ﴿عَرَفَهَا لَكُمْ﴾ أي: زينها لكم ، وهياها ، ونصيها ، وشرفها
 ومعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَعَسَا لَهُمْ﴾ أي: تعبوا وعسرة ، قال العالم صلوات الله عليه:
 بذلك أوصاني مثالة أحمد
 بحفظي لأصحابي على اليسر والعسر [والتعسر]
 ومعنى ﴿عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: آخر أمرهم ، ومجازاة الله لهم ، قال الإمام المرتضى لدين الله صلوات الله عليهم:
 (مهين ضعيف فعله في العواقب) أي: في أواخر الأمر .

﴿دمر الله عليهم﴾ أي : أهلكهم ، قال الشاعر : إني بوجه الله من شر البشر أعوذ من لم يعذ الله دمر

أي : هلك ، ومعنى ﴿الله مولى الذين آمنوا﴾ أي : وليهم ﴿وكأين من قرية﴾ أي : وكم من قرية ، قال الشاعر :

وكانت ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

أي : وكم ، وقال آخر : وكان تنطت ناقتي من مفازة إلى داري سهلها وحزونها

أي : وكم تنطت ، ومعنى ﴿هي أشد قوة من قريتك﴾ لم يرد القرية ، وإنما أراد أهلها ، فاختصر ، وهذا جائر ، قال

الشاعر : هلا سألت الخيل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

فقال : هلا سألت الخيل ، وإنما أراد أهل الخيل ، وقول الله عز وجل أصدق من قول الشاعر ، حين يقول فيما حكى

عن أولاد يعقوب صلى الله عليه : ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ وقد علم كل الناس أن خطاب

القرية لا تسأل ، وأن الجمال أيضا لا تسأل ، ولا يقول بذلك ولا يتوهمه أحد يعقل ، وإنما أراد أهل القرية ، وأهمل

العير ومعنى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾ أي : صفة الجنة ؛ لأنه لم يأت بمثل غير الصفة التي وصف من

أنهار الماء ، وأنهار اللبن ، وأنهار الخمر ، وأنهار العسل ، ومعنى ﴿غير آسن﴾ أي : غير أجن ، ولا متغير الطعم ، قال

الشاعر : وماء آسن بركت عليه وكان مناخها ملقى لجام

والأمعاء هي آلات البطن ، التي تحمل الأغذية ، ومعنى ﴿ماذا قال أنفا﴾ أي : ماذا قال منذ ساعة ، قبل هذا الحين

﴿طبع الله على قلوبهم﴾ أي : ختم عليها ، إذ خلاها على انطباعها وتركها ، فأما هو فلم يجبرها على ذلك من أمرها

ومعنى ﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أي : مفاجأة ، ومعنى ﴿فقد جاء أشرطها﴾ أي : علامتها ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم﴾

ذكراهم﴾ أي : كيف لهم بالتذكر ، إذا جاءتهم الساعة ، وليس ينفع التذكر والاعتبار ، و﴿أنى﴾ في اللغة هو كيف ،

قال الشاعر : (أنى ومن أين جاءك الطرب) أي : كيف أتاك الطرب ، ومن أين أتاك ؟ ثم قال : (من حيث لا صوة ولا لعب)

ومعنى ﴿متقلبكم ومثواكم﴾ المتقلب : هو المتحرك والمذهب ، والمغدا ، والمراح ، والمثوى : هو المستقر ، والمقام ،

والوطن ، قال الشاعر : (رب ثاوبل منه الثواء) أي : المقام ، ومعنى ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي : شك وجبن ، قال

المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

فلرب اليوم قد شاهدته بجنان صبح ما فيه مرض

ومعنى ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾ أي : طاعة ، وقول حسن أولى بهم وأحق ، وغير لهم . ومعنى ﴿فهل

عسىتم إن توليتم﴾ يريد عساكم ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾ على وجه التقرير والتفهم ، وكم عسى أن تقيموا في الدنيا ،

ليس آخر أمركم إلى الموت والبلوى ، أقول — وأنا عبد الله بن محمد المذنب : بلى والله بلى . قال الشاعر :

كم ذا عسيت وكم أقاوم ذا الهوى وأضل في درج الصباية أرتقى

ومعنى ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي : ما هم لا يتدبرون وينظرون هو حكمة وصواب ؟ أم هو

عبث ولعاب ؟ قال العالم صلوات الله عليه :

ألم يتدبر آية قنذله على بعض ما يأتي أم القلب مقفل

في كفرهم مما كانوا يعدونه مكارم ، نحو صلة الأرحام ، وإطعام الطعام ، وفك الأسارى ؛ لأنه لا قرينة لكافر ، وقيل : أبطل ما كادوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما صدوا عن سبيل الله ، فنصره عليهم .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الكفار بين حال المؤمنين فقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

والمقفل : هو المهمل الذي ترك على جهله ، ولم يفتح بالعلم ، ولم يستعمل ، ومعنى ﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ أي : مناهم ، وزين لهم . ثم ابتدأ الخبر عن إملاته سبحانه لهم ، فقال : ﴿وأملى لهم﴾ وإبليس اللعين هو السَّوْلُ ، والله هو المملي ، أي : أحلهم ، ولكنه اختصر ، ولم يذكر اسم الله ، فجاء الكلام مستههما ، ومعنى ﴿أضغسانهم﴾ أي : حقدهم وعداوتهم ، قال الشاعر :

وذى ضغن كفت النفس عنه وكنت على مساءة مقينا

أي : ذي عداوة ، ولزمت النفس عنه ، ومعنى ﴿لتعرفنهم في لحن القول﴾ أي : لتعرفنهم في مقصدهم وقولهم ، ومرادهم وغرضهم وهمتهم ، قال الشاعر :

وأعرف غش المرء في لحن قوله لذي العقل قبل اليوم ما تفرع العصا

أي : في مقصد قوله ، ومعنى ﴿ولنبلونكم﴾ أي : لننتحنكم ، ونختبركم ، قال الشاعر :

فاليوم أبلوك وتبليني واليوم تبلو غلظي وليني

أي : اختبرك وتختبرني . ومعنى ﴿وشاقوا الرسول﴾ أي : باينوه وقاطعوه ، والشاقة : مأخوذة من اشتقاق العصا حتى يبين أحد الشقين عن الآخر ولا يلائمه ، قال الشاعر :

فإلى عدو بالشقاق مباين بل عن صديق بالثفاق مباحن

فلقد يطاق دفاع شر ظاهر ما لا يطاق دفاع شر باطن

ومعنى قوله ﴿فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم﴾ أي : لا تضعفوا ، والوهن : هو الضعف ، قال مولانا زكرياء عليه السلام ﴿إني وهن العظم مني﴾ أي : ضعف ، ومعنى ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ أي : إلى الصلح والسلامة من الحرب ، قال : (وفي السلم يدعو بالسواك ويحني) أي : في المسألة من الحرب ، ومعنى ﴿ولن يركم أعمالكم﴾ أي : لن يظلمتكم أعمالكم ، قال الكمي بن زيد رحمة الله عليه :

على الطرد من آل الوجيه ولاحق تذكرها أوتارنا حين تصهل

وقال مولانا زيد بن علي صلوات الله عليه : نحن الموتورون ، ونحن طلبة الدم ، أي : نحن المظلومون والمقتولون ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿إن يسألكموها فيحفيكم﴾ الإخفاء : مأخوذ من الحفا ، والأصل في ذلك الاستقصاء على الظفر ، على يحفى ، وكذلك المسألة للناس تحفيهم وتولهم ﴿ويخرج أضغانكم﴾ أي : عداوتهم وحقدهم قال الشاعر :

(وأضمر أضغانا على كشوحها) .

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ

قال في البرهان : هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب صلوات الله عليه .

ومعنى ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي : أن إيمانهم هو الحق من ربهم بما هداهم الله إليه . اهـ

قوله : ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ اختصاص للإيمان بالمتزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم

من بين ما يجب الإيمان به تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ،

وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية [التي] هي قوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قاله في الكشف .

ثم قال تعالى : ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي : غطى عنهم ذنوبهم وغفرها بإيمانهم

وعملهم الصالح وسترها ﴿وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ﴾ أي : حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمر الدين ،

والنصر في الدنيا قال الميرد : البال هنا الحال ، قال الشاعر :

(وخالف بال أهل الدار بالي)

أي : خالف حالهم حالي .

﴿ذَلِكَ﴾ أي : الإضلال لأعمال الكافرين ، والتكفير لسيئات المؤمنين ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا﴾ أي : بسبب أن الذين كفروا ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي : الأمر الباطل ، الذي لا يتففع به

قال في البرهان : يعني من الأصنام والرؤساء الذين أضلوهم ، وإنما سموا بالباطل

لدعائهم إليه . اهـ

وعن مجاهد — الباطل : الشيطان . وإتباع المؤمنين : الحق الثابت .

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ في الكشف : ﴿ذلك﴾ مبتدأ وما بعده

خبره ، أي : ذلك الأمر وهو إضلال أحد الفريقين ، وتكفير سيئات الثاني كائن بسبب

إتباع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، ويجوز أن يكون ﴿ذلك﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي :

(١) وانظر ما ذكره الحاكم الحسكاني في كتابه شواهد التنزيل ١٧١/٢ ، ١٧٢ .

(٢) لفظ البرهان : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب صلوات الله عليه

[﴿وَأَمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ صلى الله عليه يعني القرآن] ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي : أن إيمانهم هو الحق من ربهم

بما هداهم الله إليه . فما بين قوسي الزيادة في الحاشية محذوف من نسخة المصايح ، وثابت في البرهان (٣٤٦) .

(٣) انظر الكشف ٣١٥/٤ .

الأمر كما ذكر ، بهذا السبب^(١)
قال في البرهان : وعنى بالذين آمنوا : أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وكل آية في القرآن فيها ذكر المؤمنين فعلي عليه السلام قائدها وسائقها ، والحق : القرآن ، وسمي حقاً لإتيانه بالحق ، ولموافقة أحكامه الحق .^(٢) اهـ

ثم قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ﴾ أي : مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ يعني صفات أفعالهم من خير أو شر .

قال فيه ^(٣) : و (الناس) فيه وجهان : أحدهما [يجوز] أن يكون المعنى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والثاني : يجوز أن يكون المراد به سائر الناس . اهـ

والضمير يرجع إلى الناس [أو إلى] المذكورين من الفريقين ، على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم .

فإن قيل : أين ضرب [الله] ^(٤) الأمثال ؟ قيل له : ضرب الأمثال بأن جعل إتياع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، وإتياع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، أو بأن جعل الإضلال مثلاً لخفية الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين .

(١) في المصاييح (لهذا السبب) وفي الكشف (بهذا السبب) وهو الأنسب لقوله تعالى : ﴿بِأَن الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعمل الجار والمجرور على الوجه الثاني نصب على الحال ، أي : ملتبساً ، ومرفوعاً على الأول خبر عن اسم الإشارة .
(٢) انظر البرهان مخطوط . ٣٤٧ .

(٣) الضمير عائد إلى البرهان ، وما بين قوسي الزيادة من البرهان . وكذلك تفسير قوله تعالى : ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ النَّاسَ أَمْثَالَهُمْ﴾
(٤) لفظ الكشف : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : ... الخ ما ذكره هنا وقد نقل كلام الكشف هذا والذي بعده بتصرف يسير (انظر الكشف ٣١٦/٤) قال السيد العلوي رحمه الله تعالى : قوله (أين ضرب الأمثال) يعني : معنى ضرب المثل : استعمال القول المشبه بمضربه بمورده ، وأين ذلك ها هنا ، وأجاب بأن المثل ها هنا مستعار للتشبيـه ، وتشبيه حالتي المؤمنين والكافرين ، ووصفتهم العجيبة الشأن ، ثم إن المشار إليه بقوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ إما معنى الآية الأولى أو الثانية ، فالعنى على الأول حالة أولئك البعداء عن الله ، في أن أفعالهم الحسنة ضلت وبطلت ، وصارت هباء منثوراً ، وحالة هؤلاء المقرين في أن أفعالهم السيئة اضمحلت وتلاشت ، وما اكتفى بذلك ، بل زادهم إصلاح بأفعالهم من الصفات العجيبة الشأن ، التي يضح أن يكون موقعاً لضرب المثل ، وتسير في الآفاق ، وعلى الثاني صفة الكفار في أنهم اتبعوا الباطل مع وضوح الحق فخابوا ، وصفة المؤمنين في أنهم اتبعوا الحق ففازوا — من الأمثال .

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ﴾ أصله : فاضربوا الرقاب ضرباً^(١) أي : فاقتلوه ، لكن لما كان أكثر القتال بهذه الصفة وقع بهذه العبارة ، والمراد القتل ، ولما فيها من الغلظة والشدّة ، التي ليست في لفظ القتل لما فيها من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق ، وإطارة الرأس ، ذكره في الكشف^(٢) .

﴿حَتَّى إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ أي : الرباط للأسرى ، قال إبراهيم بن إسماعيل^(٣) أبو القاسم العالم عليها السلام :

قد موتت قلبي الهموم وطولت ليالي مهانا في الصفاد وثاقا

والوثاق بالفتح والكسر : اسم ما يوثق به من جبلٍ وقِدٍّ ونحوهما ، والمراد : فأسروهم وقيل : الوثاق هذا : الإيثاق ، ويقال : وثقته إيثاقاً ووثاقاً إذا شد أسره كيلاً يفلت ، ومعنى ﴿أَنْخَسْتُمُوهُمْ﴾ أي : أذللتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ، أي : أنقلتموهم بالقتل والجراح ، أو أغلظتموه ، من الشيء الثخين ، وهو الغليظ ، ذكره في التجريد وغيره ، وحتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل .

ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مِّنَّا بَعْدُ﴾ وهو الإطلاق بغير شيء ، كما من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم على ثمانية بعد أسره ، ويحتمل أنه العتق ﴿وَأِمَّا فِدَاءٌ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه المفاداة على مال يؤخذ ، أو أسير يطلق كما فادى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم بدر ، كل أسيرين بأربعة آلاف درهم ، وفادى في بعض المواضع رجلاً برجلين ، والثاني : أنه

(١) قوله : أصله فاضربوا الرقاب ضرباً ، أي : أنه حذف الفعل ، وقدم المصدر ، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنك تذكر المصدر ، وتدل على الفعل بالنصب التي فيه (ذكره الزمخشري في الكشف ٣١٦/٤) .

(٢) وذكر السيد العلوي رحمه الله : أراد أنه لو قال : فاضربوا الأعناق منهم والبنان لكان فيه غلظة ، فلما أتى بلفظ فوق وكل ازدادت الغلظة .

(٣) هو : إبراهيم (طباطبائي) بن إسماعيل (الديباج) بن إبراهيم (الشبه) بن الحسن ، بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، والد الإمامين العلمين ، أبي القاسم محمد بن إبراهيم ، والإمام القاسم بن إبراهيم جد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليهم السلام ، كان في حبس محمد الملقب بالمهدي العباسي ، ثم في حبس موسى وهارون ، ومات في الحبس (انظر الإفادة ترجيح الإمامين محمد بن إبراهيم ، والقاسم بن إبراهيم) .

البيع ، أي : فبعد الأسر لكم هذا التخيير بين المن والفداء .
 قال في التحرير : للإمام أن يفعل بأسرى المشركين البالغين أحد أربعة أشياء : القتل ، والاسترقاق ، على تفصيل يذكر في كتب الفقه ، والفداء ، والمن ، وهو قولنا والشافعي ، وقال أبو حنيفة : ليس له إلا قتلهم واسترقاقهم ، ويقول في المن والفداء : إنه منسوخ بقوله : ﴿ اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وهو قول مجاهد والسدي وابن جريج .
 ثم قال تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ حتى متعلق بالضرب والشدة ، أي : اقتلوهم حتى تضع ، أو بالمن والفداء ، أي : لا تزالون على ذلك إلى أن لا يكون حرب من المشركين ، وذلك إذا لم تبق لهم شوكة ، بأن يكونوا من أهل الذمة ، أو يسلموا ، أو يوادعوا ، وأوزار الحرب : آلتها وأثقالها ، وعددها وأهبتها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع قال الشاعر (١) :

وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا
 وسميت أوزاراً ؛ لأن الحرب لا تقع إلا بها ، فكانها تحملها ، فإذا انقضت فكانها وضعتها ، والمعنى حتى يضع أهل الحرب سلاحهم ، وقيل : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ يعني : أوزار كفرهم بالإسلام ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : الأمر ذلك الذي ذكروا ، أو فعلوا ذلك ، والمبتدأ محذوف ، ويحتمل أن يقال : ذلك واجب أو مقدم ، كما يقول القائل : إن فعلت فذاك ، أي : فذاك مقصود ومطلوب (٢) .

ثم بين أن قتالهم ليس طريقاً متعيناً بل الله لو أراد أهلكهم بغير جند فقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ بغير قتال ، أي : انتقم ببعض أسباب الهلاك ، من خسف أو موت ، أو غرق ﴿ وَلَكِنْ ﴾ أمركم بالحرب ﴿ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : ليختبر المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا ليستحقوا الثواب ، والكافرين بالمؤمنين

(١) هو الأعشى : واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية ، ويحتمل أنه شبه الحرب بمطايا ذات أوزار أي : أحمال ثقيل على طريق المكنية ، وإثبات الأوزار تخييل ، ورمحا ، بدل .

(٢) أي : فهو مبتدأ ، والخبر محذوف . والأول خبر ، والمبتدأ محذوف .

بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب من العذاب .

إن قيل : ما التحقيق في قولنا : التكليف ابتلاء وامتحان ، والله يعلم السر وأخفى ؟ وماذا يفهم من قوله : ﴿[ولكن] ليلو بعضكم بعضاً﴾ ؟ .

قيل له : إن المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين ، أي : كما يفعل المبتلي المختبر ، وذلك أن الله تعالى يلو ليطهر الأمر لغيره إما الملائكة ، وإما الناس ، والتحقيق هو أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء ، وهو إما الطاعة أو المعصية ، أي : ليظهر معلوم الله ، لأنه تعالى لا يعاقب ولا يثيب على ما يعلم حتى يظهر الفعل ، وهو لا يكون إلا بذلك^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام : فهو لن يضلها ولن يُلْتَمَ إياها [بل]^(٢) سيحازيهم عليها ، ويعظم لهم الأجر فيها . [ومعنى] ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ هو يهديهم إلى دار ثوابه ، ويصيرهم إلى ما أعد لهم من دار كرامته ﴿وَيُصْلِحُ بِأَلْهِمُ﴾ فهو : يصلح حالهم ، البال : الحال والأمر^(٣) .

قال في التحريد : وظاهره أنه لا يكون الهدى وإصلاح البال إلا في الدنيا للأحياء ، وقد اختلف فقيل : ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي : يوفقهم ويلطف بهم في التكليف ، ويصلح حالهم في أمر الدين ، وهذا على قراءة الأكثرين وهي ﴿قاتلوا﴾ والأقلين ﴿قتلوا﴾ . وقيل : ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ لجواب منكر ونكير ، وقيل : إلى طريق الجنة في الآخرة ، وهذان يصحان على قراءة أبي عمرو .

ثم قال سبحانه : ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام : هو طيبها لهم ، وتطيبه لها فهو : جمعه فيها للخيرات التي هي مجموعة فيها حتى طابت لأهلها بوجودهم ، كلما يجوبون فيها . وفي التحريد قيل : عرفهم منازلهم فيها [فهم]^(٤) يستدلون عليها ، بل يكونون أعرف

(١) وذكر الرازي قريبا من هذا (التفسير الكبير ٤٦/٢٨) .

(٢) ما بين القوسين من المجموع .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٦ .

(٤) في الأصل : فلا يستدلون عليها .

من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم ، وهو قول قتادة وعامة المفسرين .
وعن مقاتل : [إن] الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه ، فيعرفه كل شيء أعطاه الله ، وقيل : ﴿عرفها﴾ طيبها ، أي : طيب رائحتها ^(١) ، قال ابن قتيبة : وهو قول أصحاب اللغة .

ثم إنه تعالى لما بين ما على القتال من الثواب والأجر ، وعدهم بالنصر في الدنيا وزيادة في الخت ليرداد منهم الإقدام ، فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي : دين الله وبيته بالصبر في مواطن القتال ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في نصره في مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ هذا زيادة في تقوية قلوبهم ؛ لأنه تعالى لما قال : ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ جاز أن يتوهم أن الكافر أيضا يصير للقتال فيدوم القتال والحرب والطعان والضراب ، وفيه المشقة العظيمة ، فقال تعالى : لكم الثبات ، ولهم الزوال والتغير والهلاك ، فلا يكون العثار ^(٢) .

ومعنى ﴿فتعسا لهم﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي : تعبوا وعسروا ، قال العالم صلوات الله عليه :

بذلك أوصاني سلالة أحمد
يحفظني لأصحابي على اليسر والتعس ^(٣)
وفي البرهان : التعس : الانحطاط والعثار ^(٤) . كأنه قال : أتعسهم الله تعسا ، وهو دعاء عليهم بعدم الانتعاش إذا عثروا .

قال ابن قتيبة والزجاج : هو من قولك : تعست ، بفتح العين إذا عثرت ، وتعسا له :

(١) وانظر الكشف ٣١٨/٤ .

(٢) أي : فلا يكون العثار للمؤمنين . وفي الرازي (فلا يكون الثبات) أي : لا يكون الثبات للكافرين .

(٣) العالم : هو الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ، وكلما ورد العالم فالمراد به هو . وفي المصاييح (عليه السلام) بدلا من (صلوات الله عليه) الموجودة في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ، وفي تفسير الغريب للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (على اليسر والعسر) ولكن على هذه الرواية ليس فيها شاهد لما ورد في الآية ، فالصحيح ما ورد في المصاييح .

(٤) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وما بعده ليس من البرهان بل هو من المصنف رحمه الله .

نقيض لعا له ، يقال للعاثر : لعا لك ، معناه الدعاء له ، والقوة على الثبوت ، وتعسا له معناه : الدعاء عليه بالعثور ، قال ابن عباس : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردي في النار ، ذكره في التحريد وغيره ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ معطوف على أتعس المقدر ^(٢) قبل ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : ضيع وأبطل أعمالهم ، وفيه إشارة إلى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين ، حيث قال في حق قتلاهم : ﴿ فَلَنْ يَضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وقال في موتى الكافرين : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ . ثم بين الله تعالى سبب ما اختلفوا فيه فقال : ﴿ ذَلِكَ ﴾ الواقع على الذين كفروا ﴿ بَأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من القرآن ، وما فيه من التكاليف ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التي يعدونها مكارم ، أي : أبطلها ؛ لأنها لم تكن مع إيمان . ثم قال تعالى : ﴿ أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ المعنى : ترك السر ^(٣) للنظر والاعتبار بعاقبة الذين كفروا من قبلهم كعاد وثمود وما جرى عليهم بسبب الكفر منهم والمعاصي ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : أهلك عليهم ما يختص بهم ^(٤) من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وقيل : ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ مثل دمرهم هنا أي : أهلكهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ أي : لمن يشاركونهم في موجب التدمير أمثال هذه العاقبة ، أو الهلكة ؛ لأن التدمير يدل عليها ، يحتمل أن يكون المراد : لهم أمثالها في

(١) وفي الكشاف أيضا ٣١٩/٤ .

(٢) هذا على وجه نصب الذين كفروا ، وفي قوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وجه ثان ، وهو أن يكون مبتدأ ، وما بعده الخبر ، فعلى هذا يكون معطوفا على الخبر . قال الزجاج : الذين مبتدأ ، والخبر (فتعسا لهم) ويجوز أن يكون نصبا على معنى : أتعسهم الله تعسا ، وقال مكي : الذين كفروا مبتدأ وما بعده الخبر ، وتعسا نصب على المصدر ، وهو مشتق من فعل مستعمل ، ويجوز الرفع على الابتداء وهم الخبر ، والجملة خبر الذين . (انظر حاشية العلوي) .

(٣) لفظة (السر) غير معجمة في المصايح ، فيحتمل أنها السر ، أي : أن الله ترك السر على المهلكين بأن جعل آثار العاقبة التي نزلت عليهم ظاهرا ، لأجل النظر والاعتبار ، ويحتمل انه (السر) أي : أنهم تركوا السير للنظر والاعتبار بآثار المهلكين من قبلهم .

(٤) انظر الكشاف ٣١٩/٤ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

الدنيا ، وحيث يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحتمل أن يكون لهم أمثالها في الآخرة ، فيكون المراد من تقدم ، كأنه يقول : دمر الله عليهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة أمثالها ^(١).

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ المذكور من نصر المؤمنين ، والتعسف للكافرين ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ ﴾ أي : بسبب أن الله ﴿ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : وليهم وناصرهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ لا ولي لهم ، ولا ناصر ؛ لأن عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع ؛ إذ لا قدرة لها ، وإلا فهو مولى جميع خلقه ، أي : مآلكنهم ﴿ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾ ^(٢).

ثم لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بين حالهم في الآخرة فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ قد مر تفسيره .
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ﴾ يتفعمون بمتاع الدنيا أياما قلائل ، والتمتع الانتفاع القليل بالعاجل ﴿ وَيَأْكُلُونَ ﴾ غافلين عن أمر الآخرة ﴿ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ في معالها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ والمثوى : موضع الثواء ، وهو الإقامة ، أي : منزل لهم ومقام . ولما ضرب الله لهم مثلا بقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلا تسليية [له] فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ معناها : الكثير ، مثل كم ، أي : وكثير من أهل قرية ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ﴾ يعني مكة ﴿ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ ﴾ أي : التي كان أهلها سبب خروجك إلى المدينة ^(٣) ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ بعذابنا ، كذلك نفعل بهم ، فاصبر كما صبر رسلكم ، وقوله : ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ أي : فلا مانع لهم منا ، وهذا وعيد لهم .

(١) ومثل هذا في الرازي بتقديم وتأخير وتصرف يسير (الرازي ٢٨/٥٠) .

(٢) يونس : ٣٠ .

(٣) قال مكِّي : ﴿ مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ ﴾ مما حذف فيه المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، أي : التي أخرجك أهلها ، فحذف الأهل ، فقام ضمير القرية مقامهم ، فصار مرفوعا بأخرج ، واستتر فيه ، وظهرت علامة التانيث .
(حاشية العلوي ٢٧٩) .

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: على حجة ظاهرة، وهي القرآن المعجز، وسائر المعجزات، يعني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شرهم، وقيل: هو كل مؤمن وكافر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الشرك وعداوتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن الشرك لا يقضي به عقل ولا سمع، وإنما دليلهم فيه إتباع الهوى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَيْنَةٍ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿مَنْ رَبِّهِ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها، وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر، وكذلك ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ تكملة، وذلك أن من زين له سوء العمل، وراحت الشبهة عليه في مقابلة من تبين له البرهان وقبلة^(١)

ثم لما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال — بين الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة؛ لأنه لم يمثل بمثل غير الصفة التي وصف من أنهار الماء، وأنهار اللبن والخمر، وأنهار العسل، وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ هذا مبتدأ خبره ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾^(٢).

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: صفتها العجيبة الشأن، ثم أخذ في بيان غايتها، وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه النفي والإنكار لدخوله تحت حكم [كلام مصدر بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه، وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى]: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فكأنه قال: أمثل الجنة الموصوفة كمن هو خالد في النار، أي:

(١) انظر الرازي ٥٣/٢٨، وقد أصلحنا اللفظ منه.

(٢) قال السيد العلوي: قوله: وهو مبتدأ، خبره ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ قال الفراء: أراد من كان في هذا النعيم ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ﴾ يدل على هذا المحذوف ﴿وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أو حرف التشبيه الدال على المشبه، ذكره صاحب المطلع، وعلى هذا لا بد من تقدير شيء إما عند المشبه كما ذهب الفراء، وإما عند المشبه به كما قدره المصنف، وهو: كمثل جزاء من هو خالد.

كمثل جزاء من هو خالد في النار. وأراد المبالغة في نفى تقارب ما بينهما^(١). وقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ جواب قائل قال: ما مثلها؟ فقيل: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾^(٢) أي: غير متغير، يقال: آسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه قال الشاعر:

وماء آسن تركت عليه وكان مناخها ملقى لجام^(٣)

قال الرازي: قوله تعالى ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ﴾ يستدعي أمرا يمثل به فما هو؟ قال: نقول: فيه وجوه الأول: ^(٤) قول سيويه حيث قال: المثل هو الوصف، معناه: وصف الجنة، وذلك لا يقتضي ممثلا به، وعلى هذا ففيه احتمالان، أحدهما: أن يكون الخير محذوفا، ويكون ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ تقديره: فيما قصصناه مثل الجنة، ثم يستأنف ويقول: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾.

والاحتمال الثاني: أن يكون ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [خبرا كما يقال: صف لي زيدا، فيقول القائل: زيد أحمر قصير]^(٥).

والقول الثاني: إن المثل زيادة والتقدير: الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار.

(١) ومثل هذا في الكشف ٣٢١/٤، وما بين القوسين من الكشف. وقد أضفناه ليتضح المعنى المراد. قال السيد العلوي: قال في الانتصاف: ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أَجْعَلُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ كَمَنْ آمَنَ﴾ أي: أهل سقاية الحاج فيكون حينئذ تنظيرا بعد التسوية بين المتمسك بدينه، وراكب الهوى، وبعد التسوية بين النعم في الجنة، والمعذب في النار، وهو من باب تنظير الشيء بنفسه باعتبار حالين، أحدهما أوضح بيانا من الأخرى، فالتمسك بالجنة هو النعم في الجنة، والمتبع للهوى هو المعذب في النار.

(٢) وعلى هذا فمحله الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هي فيها أنهار، وأن تكون في موضع الحال، أي: مستقرة فيها أنهار. (وانظر الكشف ٣٢٢/٤). قال السيد العلوي: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ في جملة مبنية، أي هي مثل الجنة التي وعد المتقون، كأن قائلها قال: وما مثلها؟ فقيل: فيها أنهار، (وهي المقدرة هنا ضمير مبهم مفسر بالخبر، ومنه: هي العرب تقول ما شئت).

(٣) وقد استشهد بهذا البيت أيضا الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره، أنظره أول هذه السورة.

(٤) في الأصل: (فيه وجوه الأول: أحدها) هكذا في النسختين الموجودتين لدينا، وقد صححنا اللفظ من تفسير الرازي، وكذلك ما أثبتناه بين أقواس الزيادة — تفسير الرازي ٥٣/٢٨.

(٥) ما بين القوسين من الرازي، ولا يتم المعنى إلا بقوله: خيرا،

الوجه الثاني : هاهنا المثل به محذوف غير مذكور ، وهو يحتمل قولين أحدهما : قول الزجاج حيث قال : ﴿مثل الجنة﴾ [جنة] تجري ﴿فيها أنهار﴾ كما يقال : مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون [هو] في الحقيقة إلا زيدا .
الثاني من القولين : هو أن يقال : معناه ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ مثل عجيب أو شيء عظيم ، أو مثل ذلك ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿فيها أنهار﴾ كلاما مستأنفا محققا لقولنا : مثل عجيب .

الوجه الثالث : الممثل به مذكور ، وهو قول الزمخشري حيث قال : ﴿كمن هو خالد في النار﴾ مشبه به على طريقة الإنكار ...^(١) كأنه تعالى قال : ﴿مثل الجنة كمن هو خالد في النار﴾ وهذا أقصى ما يمكن أن يقرر به قول الزمخشري ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿فيها أنهار﴾ وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر .^(٢) والله أعلم .
ثم قال تعالى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما تغير ألبان الدنيا لطول المدة فيها ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ تأنيث لذيذ^(٣) ، أي : اللذيذ ، المعنى : ما هو إلا التلذذ الخالص ، وليس معه ذهاب عقل ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ ليس فيه شمع وغيره مما يكون في عسل الدنيا ؛ لأنه لم يخرج من بطون النحل .
ثم قال تعالى بعد ذكر المشروب إشارة إلى المأكول : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ولما

(١) هنا حذف عما في تفسير الرازي والمحذوف هو : [وحيث هذا كقول القائل : حركات زيد أو أخلاقه كعمرو ، وكذلك على أحد التأويلين ، إما على تأويل كحركات عمرو ، أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو وكذلك ههنا ..] إلخ ما ذكره هنا (٥٤/٢٨)

(٢) ما بين الأقواس أثبتناه من تفسير الرازي ، ليكون المعنى واضحا ، وفي التفسير زيادة بعد قوله : بين المبتدأ والخبر (كما يقال : نظير زيد فيه مرؤة وعند علم وله أصل عمرو) . الرازي ٥٤/٢٨ .

(٣) في المصايح (الذ) وفي الكشف (لذ) (٣٢٢/٤) قال الشهاب في حاشيته على البياضوي : فهو صفة مشبهة كصيفته ، ومذكرها (لذ) ، أو هو مصدر يتدرج مضاف ، أو يجعلها عين اللذة ، مبالغة على التحوز فيه ، أو في الإسناد كما هو معروف في أمثاله (حاشية الشهاب ٤٥) وقال عبي الدين الدرويش في إعراب القرآن : ولذة للشاربين نعت ثان ، وللشاربين : متعلق بلذة ؛ لأنها مصدر بمعنى الالتذاذ ، ووقعت صفة للخمر ، ويجوز أن تكون مؤنث لذ ، ولد : بمعنى اللذيذ ، وعلى الأول لابد من تأويلها بالمشتق ، ليصح النعت بها ، على حد زيد عدل ، بمعنى عادل (إعراب القرآن ٢٠٨/٩) .

كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة ، بخلاف الخبز واللحم .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ كقوله : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ لأن المغفرة لا تكون إلا للمرضي عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ أي : هذه الجنة التي مثلها ما ذكرنا كمثل جزاء من هو خالد في النار .

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾ شديد الحر ، قيل : إذا دنوا منه شوى وجوههم فاختلعت جلدة رؤوسهم ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ وخرج من أديبارهم ، والأمعاء : هي آلات البطن التي تحمل الأغذية .

قال الهادي عليه السلام : أراد الله هل يستوي من كان في هذه الجنة ، وفي أشربتها ولذاتها ومن هو خالد في النار يسقى الحميم لا يستويان ، صدق الله تبارك وتعالى ، ولا يستوي محل أوليائه ، ولا محل أعدائه في عذاب النار ، وأشر قرار ، وأوليأؤه في خير دار ، والخمر : هي الخمر التي لا فيها غول ، والغول : فهو ما اغتال العقول ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾^(١) والنزف : فهو ما ينزل بشراب حمر الدنيا النجسة فينزفون من طرفيهم مشيا وقيئا ، فأخبر الله تبارك وتعالى بطهارة هذه ، وبعدها مما تفعل حمر الدنيا بأهلها .

ثم [بنا] بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ أي : المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله ليستمعوا كلامه فلا يعونه تهاونا منهم به .

﴿ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الصحابة ﴿ مَاذَا قَال ﴾ أي : ما الذي قال ﴿ أَنفًا ﴾ أي : قبلا ، أي : الساعة التي تقرب منا^(٢) ، بمعنى أنهم يستعيدون كلامه من الابتداء كما يقول المستعيد للمعيد : أعد كلامك من الابتداء حتى

(١) الصفات : ٤٧ / وقد ذكرها الإمام الهادي عليه السلام هنا ، ليبين بها أوصاف حمر الآخرة ، وعدم مشابقتها لحمر الدنيا (انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٦ .

(٢) قال في إعراب القرآن : قال في القاموس : وقال أنفا : كصاحب وكشف ، وقرئ بهما ، أي : مذ ساعة ، أي : في أول وقت يقرب منا . كأنه يعيل إلى نصبه على الظرفية . إعراب القرآن ٢١١/٩ .

لا يفوتني شيء [منه]، قالوه على وجه الاستهزاء ولم يعقلوه^(١).
ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها؛ إذ خلاها
على انطباعها وتركها، أي: خذهم حتى صاروا كالمطبوع على قلوبهم، أي: المختوم
عليها، لعلهم أنهم لا يقبلون اللطف حيث تركوا اتباع الحق بعد وضوحه ﴿وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ﴾ بغير دليل.

ولما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا يتفهم، ويستعيد ولا يستفيد — بين أن حال
المؤمن المهتدي بخلافه فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ بالتوفيق والترغيب
في الطاعة ﴿وَأَتَاهُم تَقْوَاهُمْ﴾ أي: أعانهم على التقوى، أو آتاهم جزاء تقواهم،
وقيل: بين لهم ما يتقون^(٢).

قال في البرهان: وهذه الآية في أمير المؤمنين علي عليه السلام، والأئمة الراشدين من
ولده زادهم هدى على اهتدائهم؛ لأنهم علموا بما سمعوا، وعملوا بما علموا ﴿وَأَتَاهُم
تَقْوَاهُمْ﴾ أي: ثواب ما عملوا^(٣).

وقيل: معناه كانوا مهتدين فزادهم الله على الاهتداء هدى حتى ارتقوا من درجة
المهتدي إلى درجة الهادين^(٤).

ويحتمل أن يقال قوله: ﴿زَادَهُمْ﴾ إشارة إلى العلم ﴿وَأَتَاهُم تَقْوَاهُمْ﴾ إشارة إلى الأخذ
بالاحتياط فيما لم يعلموه، وهو مستنبط من قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ
الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٥).

(١) صواب اللفظ: (أو لم يعقلوه) بأو لأن هذا وجه لتفسير آخر، وهو أنهم قالوا ذلك لأنهم لا يعون ولا يفقهون ما
يقوله لهم، وهو يناسب قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ والأول يؤكد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى
شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ انظر الرازي ٥٨/٢٨.

(٢) قال في حاشية الشهاب ٤٦/٨: فالإتياء مجاز عن البيان أو الإعانة، أو هو على حقيقته، والتقوى مجاز عن جزائها
لأنها سبب، أو فيه مضاف مقدر. وهي على هذا مفعول ثان لأنهم.

(٣) انظر البرهان مخطوط ٣٤٨.

(٤) صاحب القيل: هو الرازي، وكذلك الفقرة التي بعد هذا من الرازي. (انظر تفسير الرازي ٥٩/٢٨).

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ يعني: الكافرون والمنافقون^(١) لا ينتظرون إلا الساعة أي: القيامة.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة^(٢)، أي فهل ينتظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: مفاجأة على غفلة، وذلك لأن البراهين قد ظهرت، والأمور قد انضحت، وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين أحدهما: لبيان غاية عنادهم. وتحقيقه: هو أن الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا (فهم)^(٣) لم يبق إلا إيمان اليأس وهو عند قيام الساعة، لكن أشراطها ثابتة^(٤) وكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا، فهم في لجة الفساد وغاية العناد.

و[ثانيهما]: أن يكون لتسليّة قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾

(٥) الزمر: ١٨ / يقول الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام: ﴿والذين اهدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ فأخبرنا سبحانه أنه ولي المتقين، بجانب خاذل للفاسقين، وكذلك قال سبحانه رب العالمين: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ يريد سبحانه أنه ولي الذين آمنوا، والمتولي في كل الأسباب لهم، وأنه الخاذل للكافرين، والبارك لتأييدهم، الرافض لتوفيقهم وتسديدهم، ألا ترى كيف يقول ويخبر بتأييده وصنعه وتسديده ولطفه للمؤمنين، وتخليته بين المؤمنين والكافرين، ومن أطغاهم من الطواغيت، والطواغيت: فهم الذين أحابوا إلى دعائهم، واتبعهم في أهوائهم، من مستحجي الشيطان، وأبالسة الإنس والملاعين الذين أطغوه، واستغفروهم في الردى والطغيان، ومنهزم مع الإقامة على ذلك من الله الغفران، قال الله سبحانه: ﴿والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ (الرسائل تحقيق سيف الدين الكاتب ٩٨).

(١) الكافرون والمنافقون، ذكرهما بالرفع؛ لأنه تفسير لفاعل ينظرون، أو أن الفعل (يعني) دخل على جملة: الكافرون والمنافقون لا ينتظرون، فهي منصوبة محلا.

(٢) بدل اشتغال، على تقدير: لا ينتظرون إلا الساعة إتيانها بغتة.

(٣) في المصاييح (و لم يؤمنوا [فهم] لم يبق إلا إيمان اليأس) الخ فإذا كان هذا ضمرا، فلا معنى له، وإن كان فعلا من الفهم فهو يحتاج إلى زيادة [أنه]، إلا أن يكون معناه: فهم معنى الجملة التي وليته. فليُنظر في نسخة صحيحة من الرازي لأنه لا يوجد في النسخة الموجودة زيادة (فهم) (٦٠/٢٨).

(٤) في النسخة أ: وهم عند قيام الساعة، وما أثبتناه هو من النسخة ب.

(٥) في الرازي (بانت) وفي المصاييح ثابت.

فهم منه تعذيبهم ، والساعة عند العوام مستبظاة ، فكأن قائلاً قال : متى تكون الساعة ؟ فقد جاء أشراطها ، كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وأشراطها : علاماتها ، قيل : مبعث محمد ﷺ منها ؛ لأنه خاتم الأنبياء ، وانشقاق القمر ، والدخان المذكور في سورة الدخان .

وعن الكلبي : كثرة المال ، والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام وكثرة اللئام^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أي : فكيف لهم بذكراهم ، أي : توبتهم واتعاظهم إذا جاءهم ، لا تنفعهم الذكرى حينئذ لأجل الإلجاء .
ثم قال تعالى : ﴿ فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ معناه : قد ذكر ما ذكر من سعادة هؤلاء ، وشقاوة هؤلاء ، فثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، وعلى هضم نفسك بالاستغفار من ذنبك وذنوب من على دينك^(٢) .

وعنه ﷺ أنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة .
وروى الثعلبي عن النبي ﷺ (من لم يكن عنده ما يتصدق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنها صدقة) .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاتِكُمْ ﴾ متقلبكم في معاشكم ومتاجرکم ﴿ وَمَتَوَاتِكُمْ ﴾ حيث تستقرون في منازلكم ، أو متقلبكم في حياتكم ، ومتواتكم في القبور أو متقلبكم في أعمالكم ، ومتواتكم من الجنة والنار ، ومثله حقيق بأن يتقى ويخشى ويستغفر^(٣) .
ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : بالستهم فقط^(٤) ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ﴾ بينة غير متشابهة لا تحتمل إلا وجوب القتال ﴿ وَذُكِّرَ فِيهَا

(١) ذكر هذا عن الكلبي الرعشري في الكشف ٣٢٣/٤ .

(٢) ومثل هذه الفقرة في الكشف باختلاف يسير (انظر الكشف ٣٢٣/٤ ، ٣٢٤) .

(٣) انظر الكشف ٣٢٤/٤ .

القتال ﴿أَي: أَمَرُوا فِيهَا بِمَا عَمِنُوا﴾ ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ﴿أَي: شَكَّ وَنَفَاقَ﴾ ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ ﴿يَا مُحَمَّدُ عِنْدَ تِلَاوَتِكَ مَا نَزَلَ فِي الْجِهَادِ﴾ ﴿نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ﴾ ﴿أَي: لِأَجْلِ الْمَوْتِ، أَي: تَشْخِصَ أَبْصَارَهُمْ جَنَابًا وَخَوْفًا كَمَا يَنْظُرُ مَنْ أَصَابَتْهُ الْعَشْيَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ .

وقيل: أراد المؤمنين المخلصين، قال في البرهان: كان المؤمنون إذا تأخر نزول القرآن اشتاقوا إليه وتمنوه ليعلموا أوامر الله عز وجل فيهم، وتعبده لهم ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ﴾ يعني: التي أحكمت بالحلال والحرام، والأمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ] ﴿أَي: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ إِذَا رَأَوْا سُورَةَ فِيهَا ذَكَرَ الْقِتَالَ قَدْ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَظَرُوا إِلَيْهِ نَظَرَ الْمَغْشَى غَمًا بِهَا وَجَزَعًا مِنْهَا﴾^(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ﴾ يعني: فأولى بهم طاعة ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ من أن يجزعوا عند فرض الجهاد عليهم، فالطاعة في طاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله، وطاعة أولى الأمر من ولده فيما أمره الله عز وجل به، ونهي عنه .
﴿وقول معروف﴾ هو الصدق . اهـ

قال في التجريد: وهو متصل بقوله: ﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ معناه الإخبار بأن الطاعة أولى لهم و﴿أولى﴾ على هذا بمعنى أحق، وقيل: ﴿فَأَوَّلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى فويل لهم، وهو أفعل من الولي وهو القرب^(٢) ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه، وقوله: ﴿طَاعَةٌ﴾

(٤) تعليل لإطلاق لفظ الإيمان على الذين في قلوبهم مرض . والوجه الثاني: هو ما ذكره المصنف من إطلاقه على المؤمنين حقا حيث يقولون استابقا للوحي وحرصا على الجهاد: لولا نزلت سورة بأمر الجهاد، فالمؤمنون يبادرون إلى الجهاد والعمل بما أمروا، والمنافقون الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظرا المغشي عليه من الموت هلعًا وجبنًا .
(١) انظر البرهان خ ٣٤٨، وفيه (نظروا إليها نظر المغشي) وفي المصباح (إليه) وهو المناسب للفظ الآية . وما بسين قوسي الزيادة من الآية القرآنية ثابت في البرهان .

(٢) قال الشهاب في حاشيته: والأكثر على أنه اسم تفضيل من الولي بمعنى القرب، وقال أبو علي: إنه اسم تفضيل من الويل، والأصل أويل، فقلب فوزنه أفلع، ورد بأن الويل غير متصرف، وأن القلب خلاف الأصل، وفيه نظر،

على هذا كلام مبتدأ ، أي : طاعة لله ولرسوله وقول معروف خير لهم .
وقيل : هو حكاية قولهم ، أي : قالوا أمرنا طاعة وقول معروف ، ويشهد له قراءة أبي (يقولون طاعة وقول معروف) أرادوا أنهم لا يفعلون إلا الطاعة ، ولا يقولون إلا المعروف ، أي : الحسن (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ جوابه محذوف تقديره : فإذا عزم الأمر خالفوا وتخلفوا ، وهو مناسب لقراءة أبي ، كأنه يقول في أول الأمر قالوا : سمعنا وطاعة ، وعند آخر الأمر خالفوا ، وأخلفوا موعدهم ، ونسبة العزم إلى الأمر والعزم لصاحب الأمر مجاز ، كقولنا : جاء الأمر (٢) .

قال في البرهان : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ يعني : جد الأمر في القتال . اهـ
والعزم والجد لأصحاب الأمر ، وإنما يسندان إلى الأمر مجازا ، ومنه قوله : ﴿ إِنْ ذَلِكَ

وقد قيل : إنه أفعل فعلى من آل يؤول كما سيأتي ، وقال الرضي : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ لهم خبره ، وقد سمع فيه أولاة بناء تأنيث ، وهو كما قيل : يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فعلى ، وأنه علم ، وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمي بهما ، فلذا لم ينصرف ، ولا اسم فعل ؛ لأنه سمع فيه أولاة معربا ، مرفوعا ، ولو كان اسم فعل بني ، وفيه أنه لا مانع من كون أولاة لفظا آخر بمعناه ، فلا يرد شيء منه عليهم أصلا ، كما جاء أول أفعل تفضيل ، واسم ظرف كقبل ، وسمع فيه أوله ، كما نقله أبو حيان (حاشية الشهاب ٤٨/٨) .

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره : واختلف المفسرون في قوله : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ على أقوال ثلاثة ، الأول : أنه يتصل بما قبله ، ثم اختلفوا فقيل : العقاب أو الوعيد لهم على ما ذكرنا ، وقيل : بعدا وسحفا ، وقيل : أولى بهم طاعة ، وقيل : تقديره إذا أنزلت سورة ذكر فيها القتال طاعة وقول معروف رأيت الذين في قلوبهم مرض .

وثانيها : أنه كلام مبتدأ ، ثم اختلفوا فقيل : يقول هؤلاء المنافقون عند نزول الآية : طاعة ، أي : أمرنا طاعة ، وقول معروف حسن لا ينكره السامع . وقيل : قول معروف أن يقول : سمعنا وأطعنا ، وقيل : الذي أمروا به طاعة وقول معروف عن ابن عباس ، وقيل : طاعة وقول معروف أمثل بهم ، وأولى بالحق ، وقيل : طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند فرض الجهاد ، عن الحسن وأبي علي : الطاعة خير لهم من الجبن والجزع ، وإظهار الكراهة .

وثالثها : أنه يتعلق بما بعده ، وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : فإذا عزم الأمر فليكن طاعة ، وقول معروف . (انظر التهذيب مخطوط) .

(٢) إلى هنا مثله هذا في الرازي (٦٣/٢٨) .

من عزم الأمور ﴿١﴾ أي : عزم أصحاب الأمور .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ يعني : بأعمالهم وواطأت قلوبهم ألسنتهم في إيمانهم ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من نفاقهم الذي أضمره ، وقوله : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا ﴾ جواب ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ ﴾ وقيل : جواب إذا محذوف تقديره : نكلوا ، ودل عليه بقوله : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ التفات من الله من الغيبة إلى الخطاب ، لأنه أبلغ في التوبيخ ، ومعناه : هل يتوقع منكم الإفساد في الأرض ، والاستفهام على الله لا يجوز ؛ لأنه عالم بما كان وبما يكون ، لكن المعنى : أنكم لأجل ما عرف منكم أحقاء بأن يقول لكم من ذاقكم وعرف نفاقكم : ﴿ هل عسيت ﴾ أي : هل يتوقع منكم ﴿ إن توليتم ﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم ، وأعرضتم عن الإسلام إلا الفساد في الأرض بالمعاصي ، وبما يظهر من ظلمكم ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ بالقتل ، أو بمنع الحقوق تغالبا على الملك ، وتهالكا على الدنيا ^(١) .

(١) لقمان : ١٧ ومثل هذه الفقرة إلى هنا في الكشاف ٣٢٥/٤ .

(٢) ومثل هذا أيضا في الكشاف ٣٢٥/٤ . وزاد فيه (وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه (تَوَلَّيْتُمْ) أي : إن تولاكم ولاية غشمة خرجتم معهم ، ومشيتم تحت لوائهم ، وأفسدتم بإفسادهم . وزاد الرازي : وقطعتم أرحامكم ، والنبي عليه السلام لا يأمركم إلا بالإصلاح ، وصلة الأرحام ، فلم تتقاعدوا عن القتال ، وتتقاعدون عن الضلال . (الرازي ٦٤/٢٨) .

وقال الحاكم في التهذيب : ﴿ فهل عسيت إن توليتم ﴾ فيه قولان ، الأول : أعرض من الإعراض ، وهو ترك القبول ، أي : أمرتم بالطاعة فأعرضتم عنها . الثاني : من الولاية . والمعنى : هل تقدرون أنكم إذا أمرتم بالطاعة أعرضتم ، وفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، وعلى الوجه الثاني : هل تقدرون أنكم تتمكنون في الأرض ففسدوا بالقتل والأسر والغارة ، وتقطعوا أرحامكم بمحاربة أقاربكم من المسلمين ، فأيسهم الله بما قدروا في أنفسهم ، وقيل : قل للمؤمنين هل تحبون أن تكونوا مثل هؤلاء المنافقين تتولوا عن الرسول ، وفسدوا في الأرض ، وتقطعوا الأرحام ، عن أبي مسلم ، وقيل تقديره : هل تقدرون أن يخليكم الله والإفساد في الأرض وقطع الأرحام إن أردتم ذلك وتوليتم عن الرسول ، وقيل : معناه : هل لكم إن أعرضتم عن القرآن أن تفسدوا في الأرض ، وتعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفرقة ، قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن القرآن ؟ ألم يسفكوا الدم ؟ وقطعوا الأرحام ؟ وعصوا الرحمن ؟ .

قال في البرهان : وهذه الآية نزلت في المنافقين .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ﴾ من يفعل ما ذكر من التولي والإفساد ، وقطع الأرحام ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى من سبق ذكرهم من المنافقين ، فأخبر سبحانه أنه أبعدهم من رحمته ؛ لإفسادهم وقطعهم أرحامهم ﴿فَأَصْحَبُكُمْ﴾ منعهم الألفاف لعلهم أنهم لا يقبلونها ، وخذلهم حتى صموا عن استماع الموعدة .

﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ فلم يبصروا طريق الهدى ، والعى عن رؤية الأدلة ، ويجوز أن يكون بمعنى : الحكم والتسمية ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي : يتفهمونه ويتصفحون ما فيه من الأدلة والمواعظ والوعيد حتى لا يحسروا على المعاصي .

﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : والمقفل : المهمل الذي ترك على جهله ، ولم يفتح بالعلم ، ولم يستعمل ، أي : ما لهم لا يتدبرون وينظرون أهو حكمة وصواب ؟ أم هو عبث وألعاب ؟ قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام :

ألم يتدبر آية قتله على بعض ما يأتي أم القلب مقفل ^(٢) أم

﴿وَأَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة للتسجيل عليهم بأن قلوبهم [مقفلة] لا يتوصل إليها ذكر قال في التحريد : والمعنى إنكار أن يكون على قلوبهم أقفال تمنعها من دخول الهدى ، وهو رد لقولهم : ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ ^(٣) ونحوه .

(١) قال الحاكم في التهذيب ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي : أبعدهم من رحمته ﴿فَأَصْحَبُكُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي : لا يعون ما يسمعون ، ولا يبصرون ما به يعتبرون ، فهم بمنزلة الأصم والأعمى ، عن أبي مسلم ، وقيل : في الآخرة لا يهتدون إلى الجنة بمنزلة الأعمى في الدنيا ، عن أبي علي ، ولا يجوز حله على أنهم صاروا صما عميا ؛ لأنهم لو كانوا كذلك لما ذموا على أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، وقيل : الصم لا يذكر إلا في الأذن فلذلك أطلق ، والعى يذكر مقرونا بالبصر وبالقلب وغيره ، فلذلك قرنه بالأبصار .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة ، وفيه قال العالم بدلا عن (قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام) وفي المصاحح (ألم يتدبروا آية قتله) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ما أثبتناه هنا

(٣) فصلت : هـ .

وقيل : ﴿أَمْ﴾ بمعنى : بل ، والمعنى إثبات الأقفال على قلوبهم ، وهو نحو الطبع والختم . اهـ

ونَكَرَ القلوب ؛ لأنه أراد على قلوب قاسية شديدة القسوة ، وأضاف الأقفال إليها لأنه أراد الأقفال المختصة بها ، وهي أقفال الكفر التي استغلفت فلا تنفتح ، والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الإسلام^(١).

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ إشارة إلى جماعة منعهم حب الرئاسة عن إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا يعلمون أنه الحق ، قالوا : وفيهم قولان أحدهما : أنهم المنافقون ، عن ابن عباس ، والسدي ، والثاني : أنهم اليهود ، قاله قتادة ومجاهد .

والصحيح الذي عليه آل محمد صلوات الله عليه وعليهم ما ذكره في البرهان : [وهذه] الآية في كل من رفض الهداة من آل الرسول عليه السلام من بعد ما بان لهم أنهم أهل الحق المأمور بإتباعهم ونصرتهم وطاعتهم^(٢).

والهدى : هو الإسلام وصحته ، ومن قال : نزلت في اليهود قال : الهدى صفة محمد في كتابهم ونعته^(٣).

ومعنى ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي : زين لهم الخطأ ، وسهل لهم ركوب العظائم من السَّوَل ، وهو الاسترخاء في المفاصل ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ في الآمال والأمان^(٤).

(١) وزاد الزمخشري ، وجها آخر في تنكير القلوب ، وهو أن يكون المراد من التنكير التبعيض ، قال الرازي : لأن النكرة لا تعم ، فقال : أو يراد على بعض القلوب ، وهي قلوب المنافقين . انظر الكشاف ٣٢٦/٤ . والرازي ٦٣/٢٨ وقال في التهذيب : ﴿أَمْ على قلوب أقفالها﴾ قيل : أم بمعنى الاستفهام ، أي : على قلوب أقفال يمنعهم عن الإيمان ، وقيل : أم بمعنى بل ، أي : بل على قلوبهم أقفال ، والأول إنكار ، أي : ليس على قلوبهم ما يمنعهم من الإيمان ، والثاني : بل في قلوبهم من الكفر والإلف والعادة ما يمنعهم من الإيمان .

(٢) انظر البرهان خ ٣٤٨ . وما بين قوسي الزيادة منه .

(٣) والقائل هو الزمخشري : قال في الكشاف ٣٢٦/٤ : فإن قلت : من هؤلاء ؟ قلت : اليهود ، كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهو نعت في التوراة .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿سول لهم﴾ أي: مناهم وزين لهم^(١).
ثم ابتداءً للخبر عن إيمانه سبحانه لهم فقال: ﴿وأملئ لهم﴾ فإبليس اللعين هو المسول،
والله هو المملئ، ولكنه اختصر ولم يذكر اسم الله فجاء الكلام مشتبهاً^(٢).
﴿ذَلِكَ﴾ الارتداد ﴿بأنهم﴾ أو: ذلك التسويل والإملاء بسبب أنهم ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ
كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ اختلف في القائلين، فقيل: هم
المنافقون، والذين كرهوا ما نزل الله: اليهود، وقيل: عكسه، واختلف ما ﴿بَعْضِ

(٤) يقول الإمام الهادي عليه السلام في جوابه على ابن الحنفية: ألا تسمع كيف أثبت لهم الفهم بما يقال لهم، والمعرفة
بما يتلى عليهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى
لَهُمْ﴾ فأخبر الله الواحد الجليل فيما أوحى، ونزل من التنزيل أن الهدى قد تبين لهم، وصح لديهم، وثبت في قلوبهم،
ولولا سلامة القلوب من الختم الذي يذهب إليه الجاهلون، ويقول به على الله سبحانه الظالمون، لم بثبت أبداً في
قلوبهم الهدى، ولو لم يثبت لم يبين، ثم أخبر الله ما سبب ارتدادهم في الطغيان ومعصيتهم، من بعد أن بين لهم ذلك
الرحمن، فقال: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ ولم يقل: الرحمن ردهم وأضلهم، ثم أخبر بالسبب الذي كان عنهم
فتمكن، إذ قالوا الشيطان منهم، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ثم أخبر بما يصيرون إليه عند موتهم، من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم، فقال: ﴿فَكَيْفَ
إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ثم أخبر لم فعل ذلك بهم، وحنم عليهم بضرب الملائكة لوجوههم
وأدبارهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا سَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمَانًا﴾ أفيظن أحد ممن وهب لباً وتمييزاً وعلماً أن
الله سبحانه أوجب ما أوجب عليهم، وذكر ما ذكره عنهم، وأمرهم بالسير في الأرضين، والنظر في آثار الأولين ممن
هلك بما هم عليه من الكفران، وبما يختارونه من الفجور والعصيان، ولم يجعل لهم إلى ذلك سبيلاً، ويركب إليهم
فيه دليلاً، وهم لا يقدرُونَ على ذلك لما قد فعله بهم من الختم، على أسماعهم وأبصارهم، والطبع على قلوبهم، التي
بها يعقلون، وبسلامتها يميزون ويفهمون، كذب العادلون بالله، والقائلون الزور على الله، بل سلم ذلك لهم ووفره،
لإكمال الحجة عليهم، ثم أمرهم بالتسديد وما ربك بظلام للعبيد (رسائل العدل والتوحيد تحقيق سيف الدين الكاتب ٨٨).

(١) انظر تفسيره أول هذه السورة: وقال الحاكم في تهذيبه: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ قيل: زين لهم من أفعالهم ما وافق
هواهم، وأعطاهم سؤلهم وقبلوا منه، أي: دعاهم الشيطان إلى ما يريدون ووافق دعاؤه مرادهم وسؤلهم وأمنيتهم عن
أي مسلم، وقيل: سهل لهم وأملئ لهم، وقيل: أوهمهم طول العمر مع الأمن من المكارة، وأبعد لهم في الأمل
والأمنية، وقيل: بسط لهم آمالاً فاغروا بها، واتكلوا عليها، وقيل: الله أملئ لهم، أي: مد لهم حتى اغروا.
(٢) انظر الرازي ٦٦/٢٨، ويشهد لهذا قراءة من قرأ: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ بفتح الباء، وضم الهزرة على البناء للمفعول.

الأمرك؟ فقيل: التكذيب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أو ترك نصرته .
وقيل: هو قولهم ﴿لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ وَلَا نطيع فيكم أحدا﴾ (١) الآية .
ومن قال: القائلون هم اليهود ، فبعض الأمر إخفاء صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
قاله الزجاج .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ لأنهم قالوا ذلك ، فأفشى الله سرهم ، وأظهره لبيته صلى الله عليه وآله وسلم

وقال في البرهان : هو قول اليهود للمنافقين : سنطيعكم في كل ما علمناه من نبوة
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقول المنافقين لليهود : سنطيعكم في تخلفنا عن الجهاد مع
محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي : ما أسر بعضهم إلى بعض من هذا
القول . اهـ

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي : فكيف يعملون وما حيلتهم عند
الموت؟! ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ كما قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾
قال : فهب أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفيا وقت وفاتهم؟! وكيف
يعملون؟! وما حيلتهم وحالهم عند الموت ، إذا ضرب في وجوههم وأدبارهم؟! .

قيل : لا تتوفى الملائكة أحدا على معصية إلا تضرب في وجهه وفي دبره .
وقال في البرهان : يعني يضربون وجوههم في القتال نصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
عند الطلب ، وأدبارهم عند الهرب .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ إشارة إلى التوفي المذكور ، وقيل : ﴿ذلك﴾ أي : الضرب بسبب
أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا اسْتَخَطَ اللَّهُ﴾ من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَكُرْهُوا
رِضْوَانَهُ﴾ الإيمان برسوله .

(١) الحشر : ١١ .
(٢) في الكشاف ٣٢٧/٤ : وعن ابن عباس رضي الله عنهما (لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في
وجهه ودبره) .

قال الرازي : إن الله تعالى ذكر أمرين ضرب الوجه ، وضرب الأدبار ، وذكر بعدهما أمرين آخرين إتباع ما أسخط الله ، وكراهة رضوانه ، فكأنه تعالى قابل الأمرين فقال : ﴿يضربون وجوههم﴾ حيث أقبلوا على سخط الله^(١) ، فإن المتبع للشيء متوجه إليه ، ويضربون أدبارهم ؛ لأنهم تولوا عما فيه رضى الله ، فإن الكاره للشيء يتولى عنه .
وما أسخط الله يحتمل وجوها الأول : إنكار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ورضوانه : الإقرار به والإسلام ، الثاني : الكفر [هو] ما أسخط الله ، والإيمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى : ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾^(٢) .

الثالث : ﴿ما أسخط الله﴾ تسويل الشيطان ، ورضوان الله : التعويل على البرهان والقرآن^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿فَأَحْطَ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي كانوا عدوها مكارم .
قال الهادي عليه السلام : إن قال قائل : ما هذه الأعمال التي أحبطها ، وهم فلم يؤمنوا فتكون لهم أعمال ؟ قيل له : هذا خير من الله سبحانه عن فعل من مضى ممن لم يقبل الهدى ، وهو وعيد لمن بقي من أهل الدنيا ، ممن يدعي الإسلام من سائر الأنعام إلى يوم الدين ، وحشر العالمين ، فأما أعمال من لم يؤمن بالله ورسوله فإنه لم تكن أمة من الأمم إلا وهي تعلم أن الله خالقها ، وخالق غيرها ، وذلك قوله : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾^(٤) وكل أمة قد كانت لها أعمال ترى أنها أفضل الأديان ، من عبادة الشمس والقمر والنجوم والأوثان والأنصاب ، ومنهم من كان يعبد الملائكة المقربين ، ويزعمون أنهم يريدون بذلك التقرب إلى رب العالمين ،

(١) في المصايح (السخط) وفي الرازي (سخط الله) .

(٢) الزمر : ٧

(٣) إلى هنا انتهى ما في الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وفي المصايح حذف يسير عما في الرازي (انظر الرازي

. ٦٨/٢٨

(٤) الزخرف : ٩ .

ومنهم من كان يعبد اللات والعزى ، وهما قبتان كانتا بالطائف ونخلة ، فأخبر الله أن ذلك كله نور حابط ، وأنه بكل شيء محيط ، وإحباطه إياه هو حكمه بالبطلان والبور ، وجعله إياه هباء منثورا ، لا يُرْفَعُ منه قليل ولا كثير ، فلا ينتفعوا منه وإن جهدوا فيه تحقير ولا خطير ، إذ ذلك عند الله كفر وشرك ، وأنه لا يرضى من أحد من خلقه بغير الإخلاص والإيثار ، وترك عبادة كل ما كانوا دونه يعبدون ، ورفض ما كانوا يؤثرون .

فأما وعيده لمن بقي من بعد أولئك ممن يدعي الإسلام ، ويتحلل دين محمد عليه السلام فقلوه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فأخبر أن أعمال من كان غير متق ، وكان من أهل الاجتراء والمعاصي ، وكان مقرا بالتوحيد — غير مقبولة ولا مرفوعة ، ومن كان عارفا بما جاء به الرسول ، قائما بفرائض ربه ، مؤديا لكل أمره ، غير مقارف للمظالم والعصيان ، ولا داخل في كبائر ما نهى عنه ذو المن والسلطان ، فإن أعماله مقبولة مرفوعة ، لا يرفع إلا ما يقبل من الأعمال ؛ لأن رفعه هو تقبله ، وتقبله هو رفعه لا فرق بينهما ، فكل ما تقبله فقد رفعه ، وكل ما رفع فقد تقبل .

وكذلك حال من كان في الأرض من أهل الملل وغيرهم ، من المجوس ونظرائهم من السامرية ^(١) والسودان والروم ، وغيرهم من أهل البلدان .
وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ إشارة إلى المنافقين ، وأم تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام ؛ لأن كلمة أم إذا كانت متصلة استفهامية تستدعي [سبق] جملة أخرى استفهامية ، يقال : أزيد في الدار أم عمرو ، وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك ، يقال : إن هذا لزيد أم عمرو ، وكما يقال : بل عمرو والمفسرون على أنها منقطعة ^(٢) .

(١) السامرية : هم قوم موسى الذين عبدوا العجل بعد أن صنعهم لهم السامري ، وأغواهم به ، وقد نسبوا إليه .

(٢) ومثل هذه الفقرة في الرازي بلفظها ، وما بين الأقواس من الرازي (٦٩/٢٨) وزاد فيه أيضا : ويحتمل أن يقال : إنها استفهامية ، والسابق مفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ فكأنه تعالى قال : أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم ، أم حسب المنافقون أن لن يظهرها ، والكل قاصر ، وإنما يعلمها ويظهرها ، ويؤيد هذا أن المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام ، فلا يقال ابتداء : بل جاء زيد ، ولا أم جاء عمرو .

فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَسِبُ﴾ إنكار لحسانهم ، أي : بل حسب المنافقون ؛ لأن النفاق مرض في القلب ﴿أَنْ لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي : يظهر أحقادهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين ، أن يطلعهم بالوحي على ذلك ، وكانت صدورهم تغلي حقا عليهم .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي : لعرفناكم ، تقول : أريتك هذا ، أي : عرفتك إياه ، والمعنى : لiddelناك عليهم بعلامة لا يخفون عليك ، وهي السيماء ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي : بتلك العلامة ، وقوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ لزيادة فائدة ، وهي أن التعريف قد يطلق فلا تلزمه المعرفة ، يقال : عرفتُه فلم يعرف ، وفهمته فلم يفهم ، فقال هاهنا: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ يعني : عرفناهم تعريفا تعرفهم به ، إشارة إلى قوة التعريف ، واللام في قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ هي التي تقع في جزاء لو ، كما في قوله: ﴿لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أدخلت على المعرفة إشارة إلى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة ، كأنه قال : ولو نشاء لعرفتهم ، ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف ، فتفيد تأكيد التعريف ، أي : لو نشاء لعرفناك تعريفا معه المعرفة لا بعده^(١) .

عن أنس (ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وآله بعد هذه الآية شيء من المنافقين)^(٢) .
ثم قال: ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في أسلوبه ، أي : لتعرفهم في مقصدهم وقولهم ومرادهم ، وهمتهم ، قال الشاعر :

وأعرف غش المرء في لحن قوله لذي العقل قبل اليوم ما تفرع العصا^(٣)
أي : في مقصد قوله .

وعن ابن عباس : هو قولهم : مالنا إن أطعنا من الثواب ؟ ولا يقولون : ما علينا أن عصينا من العقاب

(١) ومثله في الرازي بلفظه ٦٩/٢٨ . وزاد : وأما اللام في قوله ﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ جواب لقسم محذوف ، كأنه قال : ولتعرفهم والله .

(٢) ذكر هذه الرواية الزعشري في الكشف ٣٢٧/٤ .

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة . في المصاييح (أي : في مقصود قولهم) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (في مقصد قوله) وهو المناسب لقوله : لتعرفهم في مقصدهم وقولهم .

وقيل: اللحن أن تميل كلامك من جهة إلى جهة ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية ، وقيل للمخطئ: لاحت لأنه تميل بالكلام عن الصواب^(١).

قال الواحدي عن المفسرين: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وفحوى الكلام ومعناه ، وما يعرضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وكان بعد هذا لا يتكلم عنده منافق إلا عرفه بكلامه ، لما نبهه الله على ذلك^(٢).

واللام في قوله: ﴿ولتعرفنهم﴾ جواب لقسم محذوف ، كأنه قال : ولتعرفنهم والله ثم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها حسنهما وقبيحها ، فيجازي بحسب ذلك ، وهو وعد للمؤمنين ، وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافقين . ثم قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي : نختبركم في الجهاد ، أي : نفعل فعل المختبر الذي يريد أن يعلم الشيء باختباره ، أي : نزل بكم بلايا وشدائد من التكليف حتى يوجد الإيمان أو عدمه ، وأراد بالعلم وقوع المعلوم ووجوده بحيث يتعلق به الجزاء^(٣).

(١) وانظر الكشف ٣٢٧/٤ ، ٣٢٨ . وأنشد الزمخشري قول الشاعر :

ولقد لحت لكم لكيما تفقهوا
واللحن يعرفه ذورا الألباب

قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : أي أملت لكم الكلام ، وأنشد الزجاج قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيانا
وعير الكلام ما كان لحنا

أي : عير الحديث ما لا يعرفه كل أحد ، إنما يعرف غرضها في أنحاء قولها ، هذا هو المراد من قول المصنف : كالتعريض والتورية .

وقال الراغب : اللحن ضرب الكلام عن سننه الجاري عليه ، إما بإزالة الإعراب والتصحيح ، وهو اللحن المذموم ، وذلك أكثر استعمالا ، وإما بإزائه عن التصريح ، وصرف معناه إلى تعريض وفحوى ، وهو محمود من حيث البلاغة ، وإياه قصد الشاعر عند أكثر الأدباء (واجتر الكلام ما كان لحنا) وكنا قصد بقوله: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وفي الحديث (لعل بعضكم أحسن بحجته) أي : الشئ وأفصح ، وأبين كلاما ، وأقدر على الحجة . حاشية العلوي خ ص ٢٨٠ .

(٢) وفي مجمع البيان ١٣٦/٩ ، قال : أي : وتعرفهم الآن في فحوى كلامهم ومعناه ، وقصصه ومغزاه ؛ لأن كلام الإنسان يدل على ما في ضميره ، وعن أبي سعيد الخدري قال : لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب ، وقال : وكنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بغضهم علي بن أبي طالب ، وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله ، وعن عبادة بن الصامت .

في قوله سبحانه: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ نعلم ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ علما يتعلق به الجزاء ، أي نعلم الشيء موجودا ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي : ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ؛ ليعلم حسنها من قبيحها ؛ لأن الخير على حسب الخبر عنه ، إن حسنا فحسن ، وإن قبيحا فقبيح .

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيل : هم المطعمون يوم بدر من المشركين ، وقيل : هم قريظة والنضير ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امتنعوا عن دين الله ، أو منعوا غيرهم .
﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي : باينوه وقاطعوه ، والمشاقة : مأخوذة من انشقاق العصا ، حتى يبين أحد الشقين عن الآخر ولا يلائمه ، قال الشاعر:

فإلى عدو بالشقاق مباین لآعن صديق بالنفاق مDAHن

فلقد يطاق دفاع شر ظاهر مالا يطاق دفاع شر باطن^(١)

وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي : تبين لهم صدق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما في كتابهم من نعمة صلى الله عليه وآله ، وإن كانوا المشركين من قريش فهو فيما جاء به من المعجزات .
وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ من الضر تهديد معناه : هم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول ، وليس كذلك بل الشقاق مع الله ، فإن محمدا رسول الله ، ما عليه إلا البلاغ ، فإن ضروا يضروا الرسل ، لكن الله تعالى منزّه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق ، وإنما يعود ضررهم على أنفسهم ﴿وَسَيَحِطُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي : يبطل مكائدهم

(٣) قال الحاكم في تهذيبه: ﴿وَنَبْلُوَنَكُمْ﴾ أي : نعاملكم معاملة المختبر بالأمر والنهي ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ قيل : نعلم أوليائي ، وقيل : نعامله معاملة من يطلب العلم ، وقيل : حتى يتميز المعلوم ، يعني المجاهد والمخلص من غيره ، وذكر العلم وأراد المعلوم ، لأن الاختيار يراذ ليعلم المعلوم ، وقيل : حتى يعلم المجاهد واقعا ، كما علمه غير واقع قبل وقوعه ، ولما كان ذلك بالتكليف صار ذلك عبارة عن البلوى ، ولا يجوز أن يحمل على أنه تعالى يعلمه في الحال ، ولم يكن علما به ؛ لأنه تعالى عالم لذاته لم يزل ولا يزال لجميع المعلومات ، فلا يجوز عليه حدوث العلم ، ولأن الإعلام قط لا يكون لظهور العلم ، بل يكون لظهور المعلوم .

(١) من قوله: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ إلى هنا مثله في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أنظره أول هذه السورة وفيه (بل عن صديق بالنفاق مDAHن) .

للإسلام ، أو التي يرجون بها الثواب ؛ لأنها مع كفرهم برسول الله باطلة . وقيل : هم رؤساء قريش .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ بتوحيده ، وامثال أوامره ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ بتصديقه .

قال الرازي : وهذا إشارة إلى العمل بعد حصول العلم ، كأنه تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْلُبُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ الصالحة بارتكاب الكبائر .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ قيل : الذين دفنوا في قليب بدر ، والظاهر العموم ^(٢) .

ثم لما بين أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط ، وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور ، وبين أن لا حرمة له في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ وأمر بالقتال [بقوله] ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ [أي] : فلا تضعفوا بعدما وجد السبب ، في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد ^(٣) — قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ أي : لا تضعفوا وتذلوا للعدو ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ﴾ المسالمة والمودعة أي : لا تكونوا أول من يطلبه ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ الأغلبون الأقهرون ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ أي : ناصركم ، أي : لا تدعوا والله معكم .

﴿ وَلَنْ يَتْرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي : لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا ، قال الشاعر :

لا تفتني عن الصراط بحقي ^(٤)

إن تترني عن الإجارة شيئا

وقيل : معناه لن يظلمكم أعمالكم ^(٥) .

(١) تفسير الرازي ٧٢/٢٨ .

(٢) ومثله في الكشف ٣٢٩/٤ .

(٣) من قوله : ثم لما بين أن عمل الكافر .. إلى هنا ، مثله بلفظه في الرازي ، وما بين الأقواس منه (الرازي ٧٢/٢٨)

(٤) ومثله في البرهان . ومعنى البيت : أنك إن حرمتني ونقصتني وظلمتني عن إجارتي شيئا ، فإنك لا تفتني عن الصراط .

(٥) عن ابن عباس وقتادة ، وابن زيد والضحاك (تهذيب الحاكم الجشعي) .

قال زيد بن علي عليه السلام : نحن الموتورون ، ونحن طلبة الدم^(١) . أي : نحن المظلومون المقتولون ، من وترت الرجل إذا قتلت له من يحب ، وأخذت ماله ، وحقيقته أفردته من ماله أو قريبه ، أو من الوتر ، وهو الفرد ، فشبه إضاعة العمل بوتر الرجل الوائر^(٢) .

ثم أخبر سبحانه عن صفة الدنيا وحقارتها فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان ساعة ، ثم يفرقون عنه ﴿ وَلَهُوَ ﴾ بمعنى اللعب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي : تصدقوا ﴿ وَتَقُوا ﴾ الله بطاعته واجتناب معصيته ﴿ يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾ والإضافة للتعريف ، أي : الأجر الذي وعدكم بقوله : ﴿ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾^(٣) و﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾^(٤) و﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾^(٥) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾ أي : جميعها ، بل يقتصر على ربع العشر ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُخْفِكُمْ تَخْلَوْا ﴾ يخفكم أي : يجهدكم ، والإحفاء : المبالغة في كل شيء ، وهو هنا المبالغة في المسألة ، واشتقاقه من الحفاء ، وهو المشي بغير حذاء^(٦) والأصل في ذلك الاستقصاء على الظفر حتى يخفى ، وكذلك المسألة للناس تخفيهم وتؤلهم ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ أحقادكم على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وعداوتكم ، أي : تضيق صدوركم لذلك ، وتظهر كراهتكم لدين يذهب بأموالكم ، وفي الضمير الفاعل لقوله : ﴿ وَيُخْرِجْ ﴾ قولان : أحدهما — أنه الله تعالى ، والثاني : ضمير البخل ، حكاهما الفراء^(٧) .

(١) ذكره الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره ، وذكره الحاكم الجشمي عن مجاهد .

(٢) انظر الكشاف ٣٣٠/٤ .

(٣) يس : ١١ ، الحديد : ١١ ، الحديد : ١٨ .

(٤) هود : ١١ ، فاطر : ٧ ، الملك : ١٢ .

(٥) المائدة : ٩ ، الأنفال : ٢٨ ، التوبة : ٢٢ ، الحجرات : ٣ ، التغابن : ١٥ .

(٦) انظر البرهان . قال الحاكم في التهذيب : الإحفاء : الإلحاح في السؤال حتى ينتهي إلى مثل الحفا ، والمشي بغير حذاء ، أحفى يخفى إحفاء ، قال أبو مسلم : الإحفاء في المسألة الإلطاف ، ومنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

(٧) وانظر أيضا الكشاف ٣٣٠/٤ . قال الحاكم في التهذيب : ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكُمْوَهَا ﴾ فيه ثلاث كنايةات ، أولها يسأل ، قيل : كناية عن الله تعالى ، وقيل : عن الرسول ، وثانيها : يسألكموها خطاب لمن تقدم ذكره في قوله : ﴿ وَلَا

ثم قال تعالى بيانا لما قاله: ﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَبْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الغزو ،
وقيل : هي الزكاة ، وها أنتم : هي هاء التنبيه دخلت على أنتم ، وأولاء : اسم إشارة
وقيل : بمعنى الذي ، كأنه قال : هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ
يَبْخُلُ﴾ ربع العشر ، أو بالكل ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم
العتاء ، واضطغتم — أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فمنكم ناس يبخلون به ^(١) .
ثم قال : ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ﴾ بالفريضة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ لأن ضرر بخله لا يعود إلا
عليه ، فلا يتعبده ضرر بخله ، يقال : بخلت عليه وعنه بمعنى واحد ، قاله في التحرير ^(٢) .
﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ فهو لا يدعوكم إلى حاجة إليه ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى
الثواب ، وهو معنى قوله : ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ .
﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن طاعته من الإيمان والتقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق
سواكم على خلاف صفتكم .

وفي البرهان : هم الأنصار من اليمن ^(٣) .
وقيل : فارس والروم ^(٤) ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ يعني في البخل والإنفاق في سبيل
الله ، وفي المعصية وترك الطاعة . اهـ

يسألكم أموالكم﴾ وثالثها : كناية عن الأموال ، يعني إن عنكم مالكم فيحفكم ، أي : يلج عليكم ويلجف
وقيل : يسألكم ذلك ويلطف في السؤال بأن يعد عليه لا ثواب الواجب ﴿ويخرج أضغانكم﴾ قيل : البخل يخرج
أضغانكم وحقدكم وعداوتكم ، وقيل : يخرج الله تعالى المشقة التي في قلوبهم بسؤال أموالكم ، أي : يظهرها ،
وقيل : السؤال يظهر أحقادكم .

(١) ومثل هذا الكلام والفقرة التي تلي هذا في الكشف ٤/ ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٢) انظر البرهان خ ٣٤٩ . وقوله : (وقيل : فارس والروم) ليس من البرهان ، وما بعده من البرهان إلى قوله . اهـ .
(٣) ذكره في الكشف عن عكرمة . ثم قال : وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القوم ، وكان سلميعة
إلى جنبه ، فضرب على فخذه وقال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإسلام منوطا بالثريا لتناول رجال من
فارس (الكشف ٤/ ٣٣١) وقال الحاكم في التهذيب : وليس في الآية بيان البدل ، واختلفوا فيه ، قيل : هم كندة
والنخع عن الكلبي ، وقيل : النخع عن الحسن ، وروي ذلك مرفوعا ، وقيل : فارس والروم عن عكرمة ، وقيل : يجوز
أن يكون قوما في المعلوم يثبتون على الإيمان والحق بدل المعرضين ، وقيل : يجوز أن تكون ملائكة ، فإنهم نصره في

قال الرازي : وقوله : ﴿ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ فيه مسألة نحوية [يتبين] منها فوائد عزيزة ، وهي أن النحاة قالوا : يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم — الجزم والرفع ، تقول : إن تأتني آتاك بالجزم والرفع ، قال الله تعالى هاهنا : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ بالجزم ، وقال في موضع آخر : ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾^(١) بالرفع بإثبات النون ، وهو مع الجواز ففيه تدقيق ، وهو أن هاهنا لا يكون متعلقا بالتولي ؛ لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة ، وإن تولوا لا يكونون مثلهم ، لكونهم عاصين ، وكون من يأتي بهم مطيعين ، وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، فلم يكن للتعلق هناك وجه فرفع بالابتداء ، وهاهنا جزم للتعلق^(٢) . اهـ

والله أعلم
وصلّى الله على محمد وآله وسلم

مواطن ، وقيل : لا يكونوا في الصورة أمثالكم ، وقيل : أراد به الأنصار ، وأهل المدينة بدلا من أهل مكة ، وقد فعل ، فإنهم قاموا بنصرته في حياته ، وبعد وفاته عن الحسن ، وقيل : الإبدال مشروط بالتولي ، وحيث لم يتولوا لم يجب الاستبدال ، فهذا كقوله تعالى : ﴿إن طلقكن أن يبدله أزواجه﴾ .

(١) آل عمران : ١١١ .

(٢) انظر الرازي ٧٦/٢٨ .

سورة الأحقاف

أربع وثلاثون آية في الأكثرين ، وقيل : خمس في الكوفي (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿حَمْدٌ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : هو قسم أقسم الله به .

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام ما لفظه :
تأويل قول مولانا عز وجل ﴿حَمْدٌ﴾ هو قسم أقسم الله به ، وسنذكر أسرار كتاب الله أن بلغنا الله ذلك ، ومعنى ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي : للحق ؛ لأن الحكيم لم يصنع ذلك إلا للحق والصدق ، ولكن الباء الزائدة قامت مقام اللام ، ثم قال عطفًا على الحق ، وأجل مسمى ، أي : ولأجل مسمى ، يعني : يوم القيامة .
ومعنى ﴿أَوْ أَنَارَةً مِنْ عِلْمٍ﴾ والأنارة : هي الرواية ، والآثار : هي الأخبار ، ومعنى ﴿وَإِذَا حَشَرَ النَّاسَ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يريد : أن الناس إذا حشروا رجعوا يعادون ألفتهم ، ويعتقون بها ، ويكفرون بعبادتها ، ومعنى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي : هو أعلم بما تمشون فيه ، وتعملون وتلقون ، وتخوضون ، والإفاضة : هي العمل في الشيء ، والقيام بأمره .

ومعنى ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرِّسْلِ﴾ أي : أولاً ، وبدنيا ، والابتداع : هو الابتداء الذي لم يجر به العادة من قبل .

ومعنى ﴿إِنِّكَ قَدِيمٌ﴾ أي : كذب ، قال الشاعر : (هذا الحديث فقلنا الإفك والزور)

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الإمام : هو القدوة ، الذي يتبع ويقتدى به ، وينتفع .

ومعنى ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي : كلاماً عربياً .

ومعنى ﴿حَمْلَتُهُ أُمَّهُ كَرَاهًا وَوَضَعَتْهُ كَرَاهًا﴾ أي : مكروهة مجبورة على الحمل والولادة ، وذلك لإلزام لها من الله ذي الفضل والأيد .

ومعنى ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ يريد : ألهمني أن أشكر على نعمتك ، ولكنه اختصر قال أمير المؤمنين

صلوات الله عليه : لو شكرتوا النعمة زادت - هم مقالة الله التي قالها

لأن شكرتم لأزيدنكم لا كنما كفرهم غالها

فقال صلوات الله عليه : لو شكرتوا النعمة ، ولكنه اختصر .

ومعنى ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فالتجاوز : هو الذك والتخليه عن حسابهم والمغفرة لما أخطأوا به من جميع أسبابهم .
ومعنى ﴿أَفْ لَكُمْ﴾ فالتأفف معروف ، وهو المقت ، والتفرز .

ومعنى ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ﴾ أي : مضت وانصرمت ، قال الشاعر : (هل يرجعن لكم الزمان الخالي) أي : الماضي .
﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي : يدعوان بالغوث ، وهو النجاة من النار ، قال المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :
(أدي الفروض لخالقي وغيائي)
أي : منقذي من الهلاك .

وإنما سمي الغيث غيثا ؛ لأنه يغيث العباد ، وينجيهم من الهلاك .

ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي : وقع بهم الرعيد .

ومعنى ﴿يَوْمَ يَعْرِضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ العرض لهم على النار : هو النشر لهم فيها .

ومعنى ﴿عَذَابُ الْهُونِ﴾ أي : عذاب الهوان ، قال الشاعر :

إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون

ومعنى قوله : ﴿إِذْ أَنْذَرِ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أي : بالرمال ، قال الشاعر : (مثل الأفاعي اهتر بالحقوف) .

ومعنى ﴿لَتَأْفِكُنَا عَنْ الْهَتَا﴾ أي : لتصرفنا وتعدلنا ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ يعني العذاب ، وكل ما عرض فهو عارض لا اعتراضه للناظرين ، وظهوره وبيانه ، قال الشاعر :

فدع ذا وما فات من ذكرها وابعث لهم عارضا مستطيرا

قال الإمام المرتضى لدين الله عليه السلام : (أقل القرن إذ القرن اعترض)

أي : بان للقتال وظهر ، ومعنى ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي : تهلكه وتغيره .

ومعنى ﴿وَلَقَدْ مَكَنَاهُمْ﴾ أي : رزقناهم ، وأقدرناهم ، والتمكين : هو العطاء والاقتدار على الشيء ، وكل شيء قدرت عليه فهو يمكنه ، قال الشاعر :

ومعنى ﴿فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ﴾ أي : فيما قد مكناكم فيه ، من أمور الدنيا ، ولذاتها ، وحطامها وشهواتها .

ومعنى ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي : أحاط بهم ولزمهم ، ونزل بهم ، وسمعت حيا من العرب يقولون : حقا الأجران من الثمار ، حتى لم نترك بها شيئا . وهو القم في لغة أهل الحجاز ، والحوش في لغة اليمن ، يقولون : حشنا البيت حوشا ،

وسألت رجلا من أهل اللغة ، فقال : معناه الإحاطة بالشيء ، والقلع له ، وأنشد بيتا من الشعر :

تحد من إشراق كوكب برهة فهو لزب الساعدية حائق

ومعنى ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي : بينا الآيات بالتكرير والتزديد ، وهو التصريف .

ومعنى ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ قَرِيبَانَا إِلَهَةً﴾ فالقربان برعمهم ما يتقربون به إلى الله ﴿وَذَلِكَ إِنْكِهِمْ﴾ أي : كذبهم .

ومعنى ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾ أي : يخترعون ويخترقون من المحال .

ومعنى ﴿أَنْصَتُوا﴾ أي : أصغوا أذانكم ، وأصيخوا واسمعوا .

ومعنى ﴿فَلَمَّا قَضَى﴾ أي : فرغ منه ، وقطع .

وقلت : وقول القاسم والهادي عليها السلام في هذا ونحوه : إنها حروف ، وتولى الله علمها ، لم يبينها لأحد من خلقه ؛ إذ ليس أمر ، ولا نهى ، ولا فرض ، ولا أمر تعبد به عباده فيحتاجون إلى علمه ومعرفته ، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى بلفظه .

وقد قال المفسرون في ﴿حم﴾ : إن جعلت اسما للسورة مبتدأ ، خبره ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ ويكون الكتاب على هذا السورة ^(١) .

وإن جعلت تعديدا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ ، وصح أن يراد بالكتاب القرآن ^(٢) وقوله : ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر على ما يشاء من تنزيل وغيره ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما هو مصلحة وحكمة وصواب .

ومعنى ﴿يَجْرِمُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي : ينحيكم من العذاب ، ويعذكم منه .

ومعنى ﴿كَمَا صِرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ﴾ أي : كما صير الرسل أولوا العزم ، على التقديم والتأخير ، و(من) زيادة وصلة ، مثل قوله عز وجل : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والمعنى : يغفر لكم كل ذنوبكم ، وقد توهم بعض الجهال أن من الرسل من ليس بذئ عزم ، وهذا من أكبر المحال ؛ لأن الرسل كلها قد عزمت على إنفاذ أمر الله خالقها ، والعزم هو الإزمام ، والعزيمة والرحلة ، والإجماع .

ومعنى ﴿بَلَاغٍ﴾ أي : بيان بالغ كامل ، يعني القرآن ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي : ليس يهلك إلا القوم الكافرون .

(١) وذلك حتى يستقيم وجود رابط بين المبتدأ والخبر ، فالكتاب بمنزلة الضمير العائد على حم التي معناها هذه السورة . وقد ذكر العلوي أيضا في جعل تنزيل الكتاب خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، بأن هذا إشارة إلى أقرب ملفوظ ، وهو السورة (انظر حاشية العلوي تفسير سورة الزمر) .

(٢) ويكون خبره الظرف وهو (من الله) قال السيد العلوي : وإنما كان الظاهر على هذا الوجه أنه القرآن ؛ لأنه لا يختص للسورة بالإخبار عنها ، بأنها من الله ، فيكون المراد جميع القرآن من الله . ثم قال : وأما على القراءة بالنصب ، فالظاهر أنه القرآن .

وقريب مما ذكره المصنف ما ذكره الزمخشري في الكشف ١١٠/٤ ، في تفسير سورة الزمر ، فقال : ﴿تنزيل الكتاب﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف ، أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل ، كما تقول : نزل من عند الله ، أو غير صلة ، كقولك : هذا الكتاب من فلان إلى فلان ، فهو على هذا خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، هذا من الله . .. ثم قال : فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن ، وعلى الثاني : أنه السورة .

ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقا ملتبسا بالحكمة والغرض الصحيح^(١)، وهو منافع العباد في الدين والدنيا، ويجوز أن تكون الباء للسببية^(٢)، قال ابن عباس: لم يخلقهما إلا للجزاء، الثواب والعقاب.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وبتقدير أجل مسمى تنتهي إليه^(٣)، وهو يوم القيامة^(٤)، وهذا يدل على أن إله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدا سرمدا، إنما خلقه ليكون دار العمل، ثم إنه سبحانه يفنيه، ثم يعيده فيقع الجزاء في الدار الآخرة، فعل هذا الأجل المسمى هو الوقت الذي عينه الله تعالى لإفناء الدنيا^(٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿مُعْرَضُونَ﴾ ويحتمل أن المراد مع نصب الله تعالى هذه الدلائل، ومع إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار، بقي هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا^(٦).

واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى إثبات كونه حكيما عادلا رحيمًا، وعلى إثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع، والرد على عبدة الأصنام، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: بأي سبب عبدتموهم وسئتموهم شركاء لله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: هل لهم صنع في خلق شيء من الأرض.

(١) جعله المصنف هنا في موقع المصدر؛ لأن المقرون بالحكمة وتقدير المدة هو الخلق حقيقة لا المخلوق.

(٢) فالجار والمجرور في محل نصب على الحال من الفاعل، أو المفعول.

(٣) وقدر المصنف هنا التقدير، بقوله: (وبتقدير أجل مسمى) لأن الخلق إنما يليق به، لا بالأجل نفسه.

(٤) وزاد البيضاوي: أو كل واحد وهو آخر مدة بقائه المقدرة له (حاشية الشهاب ٢٥/٨).

(٥) من قوله: وهذا يدل.. إلى هنا مثله بلفظه في الرازي ٣/٢٨.

(٦) ويحتمل أن المراد مع نصب الله.. إلى هنا، في تفسير الرازي مثله بلفظه (٣/٢٨) والوجه الأول، وهو قوله: من

هول.. مثله في الكشاف (٢٩٤/٤).

قال في البرهان : ولم يقل : [ماذا] خلقت ، ولا خلقت ، لأنه إنما أراد الأصنام فجعل فعلهم كفعل الناس وأشباههم ؛ لأن الأصنام تعبد وتعظم كما يعظم الأمراء وأشباههم ، فذهب بها إلى مثل الناس ، وهي في قراءة ابن مسعود (أفرأيتم من تدعون من دون الله) فجعلها من ، فهذا تصريح بشبه الناس في الاسم والفعل^(١) . اهـ

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ التي لا يحسبها إلا قدرته ، أي : أبل لهم شرك فيها ﴿إِنِّي أَنزَلْتُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ، يشهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ، يعني أن القرآن وجميع ما تقدم من الكتب ناطقة بتوحيد الله ﴿أَوْ أَثَارَةٌ﴾ أي : بقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ بقيت من علوم الأولين ، يقال : ناقة ذات أثارة ، أي : بقية من شحم ، قاله ابن قتيبة^(٢) .

(١) هذا تعليل لمحي ضمير الجمع العقلاء كناية عن الأصنام ، وهي التي لا عقل لها . (البرهان خ ٣٤٥) .

(٢) في تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليها السلام من تفسيره لهذه السورة ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ﴾ معناه : بقية من علم ، وقال : هو الخط في الأرض ، فكان علم نبي من الأنبياء فيما خلا .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِنَ الرِّسَالِ﴾ معناه : ما كنت أولهم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ معناه : في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام : فالحمل : ستة أشهر ، وهو أقله ، والفصال : والفطام في الحولين ، وأكثر الحمل ستان .

وقوله تعالى : ﴿وَحَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ معناه : ثلاثة وثلاثين سنة ، واستوى : أي : بلغ أربعين سنة .

وللإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه الصلاة والسلام قول ثان : أن يبلغ الحلم ، إذا كب على الإنسان الحسنات والسيئات .

وقوله تعالى : ﴿أَوْزَعَنِي﴾ معناه : ألهمني .

وقوله تعالى : ﴿أَنذَرُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ فالأحقاف : بلاد رمل باليمن ، واحدها : حقف .

وقوله تعالى : ﴿لَنَأْفُكَنَّ﴾ معناه : لنصرفنا .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَّطَرَنَا﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام : فالعارض :

السحاب الذي يرى في ناحية من نواحي السماء بالعشي ، ثم يصبح وقد جثا حتى استوى .

وقال المبرد : يريد ما يؤثر من علم الأولين ، أي : يروى ، والآثار : هي الرواية ، والآثار : هي الأخبار

وقرئ شاذاً (أثرة) بوزن شجرة^(١) ، أي : من شئ أوثرتم به ، وخصصتم من علم لا إحاطة لغيركم به ، وقرئ (أثرة) بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء في الشاذ أيضاً ، فمكسور الهمزة بمعنى الأثرة مفتوحة الثاء ، ومفتوحة الهمزة^(٢) : المرة ، من مصدر : أثر الحديث إذا روي ، ومضمومها : اسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به ، ذكره في التحريد^(٣) .

وجواب قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن كنتم صادقين في أنكم على حق فأتوني بذلك .

ثم لما بين تعالى أن القول بعبادة الأصنام قول باطل ، من حيث أنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام ، والنفع والضرر — أردفه بدليل آخر يدل على

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آله الصلاة والسلام : بلغني أنهم كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة ، أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيطن نخلة ، وهو قائم يصلي ، فاستمعوا القراءة . وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا﴾ معناه : قالوا : صه .

وقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا أَوَّلُوا الْعَزْمَ مِنَ الرِّسَالِ﴾ معناه : أولوا العزم أربعة : نوح وإبراهيم ، وهود ومحمد ، عليهم السلام ، وقيل : كان لوط ، وشعيب ، وهود انظر أيضاً الكشف ٢٩٥/٤ .

(١) ذكرها الحاكم الجشمي فقال : وعن علي بن أبي طالب (أو أثره) بفتح الهمزة .
(٢) أي : (الأثرة) .

(٣) وانظر الكشف أيضاً ٢٩٥/٤ . قال الحاكم الجشمي في تهذيبه : ﴿أو أثاره من علم﴾ قيل : خير عن الأنبياء عليهم السلام عن عكرمة ، ومقاتل ، وأبي علي ، وقيل : بكتاب منزل من السماء ، أو أثاره من علم من تقدم من الأمم والأنبياء تنسبون إليه ذلك ، عن أبي بكر بن عياش ، وأبي مسلم ، وقيل : خاصة من علم أوثرتم به عن سلمة ابن عبد الرحمن ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، وقيل : إسناد تذكرونه عن القرظي ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تزعمونه ، فهاتوا إحدى هذه الثلاث ، أولها : دليل العقل ، كعقل الفعل بالفاعل ، فهل خلق يدل عليهم ، الثاني : الكتاب ، فهل كتاب منزل يدل على ما قلتم ، والثالث : الأخبار المتواترة ، فهل معكم ذلك ، فإذا لم يكن من ذلك شيء فهو باطل (انظر تفسير الحاكم التهذيب خ) .

بطلان ذلك المذهب فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ لأنه حماد لا قدرة له على الاستجابة ما دامت الدنيا ، والدعاء إن كان بمعنى العبادة ، فالاستجابة بمعنى الثواب ، وإن كان بمعنى النداء فالاستجابة بمعنى التلبية والاستفهام لإنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له ، ويترك دعاء السميع الحبيب القادر على تحصيل كل بغية .

وقوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ يحتمل أن يريد به التأييد ، ويحتمل أنهم يستجيئون لهم يوم القيامة باللعن والتبري ، ذكره في التجريد وغيره ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وإنما أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء ^(٢) من الاستجابة لوصفهم إياهم بالتمييز ، ولو كان جهلا ؛ لأنهم لما عبدوها ، ونزلوها منزلة من ينفع ويضر — صح أن يقال فيها : [إنها] بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يحيب . أو يريد كل معبود من دون الله تعالى ، وفيهم العقلاء ، وغلبوا على من لا يعقل ^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ أي : جمعوا في الآخرة ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ ﴾ أي : كانت الأوثان للمشركين أعداء ﴿ وَكَانُوا ﴾ يعني المشركين ﴿ بَعَادَتِهِمْ ﴾ أي : بعبادة الأصنام ﴿ كَافِرِينَ ﴾ يريد أن الناس إذا حشروا رجعوا يعادون آلهتهم ، ويمقتونها ، ويكفرون بعبادتها .

(١) اقتصر في الكشف على الوجه الأول ، وأن المراد به التأييد ، وذكر هذا أيضا السيد العلوي في حاشيته ، وابن المنير في الانتصاف فقال : وفي قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المعيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيئون لهم ، فالوجه — والله أعلم — أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها ؛ إلا أنه أريد منه زيادة بينة تلحق بالثاني ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تريد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم ، فهو من وادي ما تقدم أتفا في سورة الزخرف في قوله : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ . الكشف ٢٩٥/٤ .

(٢) وذلك بقوله : ﴿ وَمِنْ ... وَهُمْ ﴾

(٣) انظر تفسير الرازي ٦/٢٨ . والكشف ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦ .

واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ، ونفي الأضداد والأنداد — تكلم في النبوة ، وبين أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كلما عرض عليهم نوعا من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر ، فقال تعالى : ﴿وَإِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ المتلو عليهم ، أي : لأجل الحق ، وهو الآيات ^(١) ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أراد أنهم بادؤوه بالجحود أول ما سمعوه قبل التدبر لصحته ، وسموه سحرا مبينا ، أي : ظاهر أمره في البطلان .

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي : بل يقولون ﴿افْتَرَاهُ﴾ أي : الحق ، الذي هو الآيات ، أي : كذبه على الله ، وهذا إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم : إن محمدا افتراه ، ومعنى الهمزة في أم الإنكار والتعجب ^(٢) .

ثم إنه تعالى بين بطلان شبههم فقال : ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الفرض عاجلي بعقوبة ذلك الافتراء ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي : فلا تقدرون على كفه عن معاجلي ، فكيف أنعرض لعقابه بالافتراء .

ثم قال تعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي : بما تندفعون فيه من العيب والقبح في وحي الله ، وتسمية آياته سحرا تارة ، وفرية أخرى ﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق [والبلاغ] ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، ومعنى ذكر العلم والشهادة — الوعيد بجزاء إفاضتهم ^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قيل : هو وعيد أيضا ، بمعنى أنكم تستحقون تعجيل العقوبة لولا أنه غفور رحيم ، فأخر عقوبتكم ، وقيل : موعدة بالغفران والرحمة

(١) قال الشهاب في حاشيته (٢٧/٨) : يعني أن اللام متعلقة بقال ، لا على أنها لام التبليغ ، بل لام العلة ، وما يقال في أمره وشأنه فهو مسوق لأجله ، وأما تعلقه بكفروا ، واللام بمعنى الباء ، أو حمل على تقيضه وهو الإيمان ، فإنه يتعدى بها نحو ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ فيبعد عن السياق بمراحل ، ومخالف للظاهر .

(٢) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : هذا الإضراب مثل الغاية السابقة ، لكون ما بعده أزيد مما قبله ، فنزل لزيادته عليه كالمناهي له ، إذ تكذيب الآيات أبلغ من قوله : إنها سحر .

(٣) انظر الكشف ٢٩٦/٤ ، ٢٩٧ ، وتفسير الرازي ٦/٢٨ ، والبيضاوي (حاشية الشهاب ٢٨/٨) .

إن تابوا عن الكفر وآمنوا .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم طعنوا في كون القرآن معجزاً بأن قالوا : إنه يختلف من عند نفسه ، ثم ينسبه إلى أنه كلام الله تعالى على سبيل الفرية — حكى عنهم نوعاً آخر من الشبهات ، وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجبية قاهرة ، ويطالبونه بأن يغيرهم عن المغييات ، فأجاب الله تعالى عنه قال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ فتستكبرون ما أتيت به ، وتستعظمون ما نطقت به ، هي سبل الرسل كلما أتيت ، وإلى ما دعت به من طاعة [الله] ، يقول : [ما أتيت بغير] ما أتت به الرسل من الدعاء إلى الله وإلى حقه ذكره الهادي عليه السلام^(١) ، فمعنى ﴿ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أي : ما كنت أولهم ، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم ، ولا تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد ، ونفي الشريك ، فإن كل الرسل إنما بعثوا بهذه الطريق .

وقيل : ما كنت بدعاً من الرسل فأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغييات ، فإن الرسل قبلي لم يكونوا يخبرون إلا بما يوحى إليهم ، لا بكل ما يسألون عنه ، وأنا مثلهم . ومعنى ﴿ بِدْعًا ﴾ بديعاً ، أي : أولاً ، والبدع والبديع من كل شيء : المبتدأ الذي لم تجر به العادة من قبله ، وقيل : إنهم كانوا يعيونه بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وبأنه فقير ، وبأن أتباعه فقراء ، فقال : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ فكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة ، فهذه الأشياء لا تقدح في نبؤتي كما لا تقدح في نبوتهم ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ في مستقبل الزمان .

قال الهادي عليه السلام : يقول من موت ولا حياة ولا خير ولا شر في الدنيا ، إذ لست أعلم الغيب ، وما يعلم الغيب إلا الله [﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾] يعني : أني لا أقول

(١) قال في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام : وسألت عن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، وما أنا إلا نذير مبين ﴿ قال : يقول : ما أتيت بغير ما أتت به الرسل من الدعاء إلى الله ، وإلى حقه ، ومعنى ﴿ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ فهو فتستكبرون ما أتيت به ، وتستعظمون ما نطقت به ، هي سبل الرسل كلما أتيت ، وإلى ما دعت به من طاعة الله .

في المصايح (والى ما دعت به من طاعة الرسل) والصواب ما في المجموع .

قولا ، ولا أعمل عملا إلا بمقتضى الوحي [﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾] يقول : منذر لكم أنذركم ما أمرت به ﴿مُبِينٌ﴾ [أي : موضح الإنذار] يقول : مبين بقولي ، مظهر لما أتيت به إليكم [بالمعجزات] من ربي ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي : اخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ جواب الشرط المحذوف ، قال الهادي عليه السلام : [هذا كلام تحتة ضمير] يريد قل : إن كان من عند الله وكفرتم به أستم متعرضين للنقمة أن تنزل بكم . وأما قوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فقال الهادي عليه السلام : فالشهادة التي هي مثل هذه التي شهد بها شاهد بني إسرائيل [فهي الشهادة] ^(٢) التي شهد بها مؤمن آل فرعون ، مثل هذه الآية وضميرها سواء سواء ، وهو قوله : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ إلى قوله : ﴿مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ فشهد بأنه إن كان موسى صادقا أصابهم بعض ما يعدهم به موسى من النقم ، من تكذيبهم بآيات الله .

ومعنى ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ يريد على مثل الآية الأولى ، وضميره على أن من كذب بآيات الله ورسله نزل به من الله تعالى ما نزل بغيره من النقم المهلكات ، والآفات المتابعات ^(٣) . اهـ

قال بعض المفسرين ^(٤) في قوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ : إنه ليس المراد منه شخصا معينا ، بل المراد منه أن ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم موجود في التوراة ، والبشارة بمقدمه حاصلة فيها ، فتقدير الكلام : ولو أن رجلا منصفًا عارفا بالتوراة أقر

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة ٤٥٥ ، وما بين أقواس الزيادة ليست موجودة في تفسير الأئمة ، وهي موجودة في

المصابيح ، وقد أصلحتنا اللفظ من المجموع

(٢) ما بين القوسين في المجموع .

(٣) ما بين القوسين من المجموع .

(٤) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ٤٥٥ .

(٥) هو الشعبي ومسروق ، وجماعة آخرون ، أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام ، قالوا : لأن إسلامه كان بالمدينة ، قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعلمين ، وهذه السورة مكية ، فكيف يمكن حمل هذه الآية للمكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة ، وأجاب الكلبي بأن السورة مكية إلا هذه الآية ، فإنها مدنية ، وإن الله تعالى أمر رسوله

بذلك واعترف به ، ثم [إنه] آمن بمحمد [صلی الله علیه وآله وسلم وأنكرتم] ألستم ظالمين لأنفسكم ؟ ضالين عن الحق ؟ فهذا الكلام متقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصا معينا ، أو لم يكن كذلك ؛ لأن المقصود من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة ، أن هذا الكتاب من عند الله ، وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلّی الله علیه وآله وسلم ، ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعاقل إنكار نبوته ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿على مثله﴾ ذكروا فيه وجوها ، والأقرب أنه نقول : كأنه عليه السلام قال لهم : أرأيتم إن كان [هذا] القرآن من عند الله ، كما أقول ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على [مثل] ما قلت ﴿فأمن واستكبرتم﴾ ألستم كنتم ظالمين أنفسكم ؟ .
وقيل : ﴿على مثله﴾ أي : مثل القرآن ^(٢) ، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد ، والشاهد عبد الله بن سلام ﴿واستكبرتم﴾ عن الإيمان بما آمن به .

لما قدم صلّی الله علیه وآله وسلم المدينة نظر عبد الله في وجهه ، فعلم أنه النبي المنتظر بما يجد ، وسأله عن مسائل ، وقال : لا يعلمهن إلا نبي ، فأجابه صلّی الله علیه وآله وسلم عنهن ، فقال : أشهد أنك رسول الله ، وقيل : الشاهد موسى ؛ لأن الآية مكية ، وإسلام ابن سلام في المدينة .
وقوله : ﴿على مثله﴾ هو التوراة ﴿فأمن﴾ واستكبرتم ﴿أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن ، وأجيب عن ذلك بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية ، وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلّی الله علیه وآله وسلم أن يضعها في سورة كذا ، فهذه الآية نزلت بالمدينة ، وأن الله أمر رسوله بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين منها . والله أعلم
ولما كان هؤلاء المستكبرون ^(٣) لا يقبلون الهداية قال عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ولا يحكم لهم بالهدى ، أو لا يسميهم به .

صلّی الله علیه وآله وسلم بأن يضعها في هذه السورة المكية ، في هذا الموضع المعين . (تفسير الرازي ١٠/٢٨) .

(١) انظر تفسير الرازي ١٠/٢٨ . وكذلك الفقرة التي تلي هذه .

(٢) في الكشف ٢٩٩/٤ : (أي : مثل القرآن في المعنى .. إلى قوله والوعيد) .

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كفار مكة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: لأجلهم ، لا أنهم خاطبهم ، وإنما خطاب بعضهم مع بعض بدليل قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ بالغيبة ؛ لأنه قد يحكى اللفظ والمعنى ، فجاء هذا على حكاية المعنى ، قالوا : عامة أتباع محمد هؤلاء السقاط ، يعنون الفقراء ، كصهيب وابن عمار وابن مسعود ، ولو كان ما دعا إليه محمد خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء ؛ لأننا أعز وأفضل^(١).

وقيل : القائلون اليهود ، ومرادهم لو كان خيرا ما سبقونا إليه ؛ لأننا نعلم وهم أميون . ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ الذي هو الظرف متعلق بمحذوف ، أي : حين لم يهتدوا بالقرآن ظهر عنادهم^(٢) ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي : كذب متقدم ، أخذه عن غيره ، وقيل : يعنون أساطير الأولين ، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي : القرآن ، أو المرسل

(٣) في السخنين أ و ب (ولما كان هؤلاء المستكبرين) ولما كانت المستكبرون بدلا من هؤلاء وهو اسم كان فهي مرفوعة ، وخبر كان هو قوله : (لا يقبلون الهداية) فقد أبدلنا اللفظ المنصوب بالمرفوع .

(١) قال الشهاب ٢٩/٨ : وقوله : لأجلهم ، فاللام ليست لام المشافهة والتبليغ ، وإلا لقل : ما سبقتمونا ، وليس من مواطن الالتفات ، وكونهم قصدوا تخفيرهم بالغيبة لا وجه له . قلت : وفي هذا رد على الرازي لما ذهب إليه من هذه الأوجه .

(٢) قال السيد العلوي : أراد من الظروف اللازمة للإضافة إلى الحمل ، وقد أضيفت إلى قوله : ﴿لم يهتدوا﴾ فلا تعمل فيها ، وكذا لا يعمل فيها ﴿فسيقولون﴾ لأن إذ للمضي ، وهو للاستقبال ، وأيضا الفاء في ﴿فسيقولون﴾ يقتضي سببا ، وأجاب بأن العامل في إذ مقدر ، وهو السبب في فسيقولون ، والتقدير إذا لم يهتدوا ظهر عنادهم فسيقولون ، وحذف عامل الظرف جائز ، كما في قوله تعالى : ﴿فلما ذهبوا به﴾ وهو : فعلوا به ما فعلوا ، أو غيره مما قدر ، وكذا في قول الناس حينئذ الآن ، أي : كان ذلك حينئذ وسمع الآن .

وقال الواحدي : إذ بمعنى إن ، والمعنى : إن لم يصبوا الهداية بالقرآن فسيقولون : إنه كذب ، وقال بعضهم : إذ هنا بمعنى إذا ، كما في قوله : ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال﴾ أراد أنها قد تأتي للاستقبال كذا ، على أنه يمكن أن تزول بالتعليلية .

وقال ابن الحاجب : يجوز أن تكون إذ متضمنة معنى الشرط ، لدلالة الفاء بعدها ، وكونها في معنى إذا ، وحسن تغييرها بها لدالتها على تحقق ذلك ، لكونها للماضي ، ويجوز أن تكون إذ معمولا للقول ، باعتبار إرادة الاستمرار ، كما في قوله : فلان يقرى الضيف ونعمي الدمار .

وقال صاحب الانتصاف : إن لم يمنع عمل فسيقولون إلا الاستقبال فلا مانع ، لأن الاستقبال إنما جاء للإشعار بدوام ما وقع ، وأنهم حرموا به ، وقالوا : هذا إفك وأساطير ، فمعناها : وقالوا إذ لم يهتدوا به : هذا إفك قديم ، ودأموا عليه ، فعبّر عن الوقوع والدوام بالاستمرار . (حاشية العلوي ٢٧٥) .

به ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ التوراة ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ مبتدأ و﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ خبر مقدم عليه^(١).
ومعنى قوله تعالى: ﴿إِمَامًا﴾ أي: قدوة في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام
﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن وعمل بما فيه، و﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ منصوبان على الحال، وكذا
﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ خالان، ولسان موطنٌ لعربي، كما تقول: جاءني [زيد] رجلاً صالحاً،
تريد جاءني [زيد] صالحاً^(٢).

[مناسبة الآيات لما قبلها]

ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله، هو أن القوم طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: ﴿لَوْ
كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ هؤلاء الصعاليك، فكأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة
القرآن أنكم لا تنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، وجعل هذا
الكتاب إماماً يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم،
فإذا سلمتم كون التوراة إماماً يقتدى به فاقبلوا حكمه في كون كتاب محمد صلى الله عليه وآله
وسلم حقاً من عند الله^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، ولما تقدمه
من الكتب.

وقوله: ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ بيان لحال الكتاب^(٤)، أو مفعول لمصدق، أي: مصدق
صاحب لسان عربي، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) قال في الكشاف ٣٠١/٤: ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ مبتدأ و﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ ظرف واقع خيراً مقدماً عليه، وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال.
(٢) قال السيد العلوي: (قال الزجاج: المعنى مصدقاً لما بين يديه عربياً، وذكر لساناً توكيداً، كما تقول: جاءني زيد
رجلاً صالحاً، أي: جاءني زيد صالحاً، ورجلاً توكيداً. وابن يعيش يسمي هذه الحال موطئة). (حاشية العلوي).
(٣) ومثله في الرازي ١٢/٢٨.

(٤) أي: أنه حال من (كتاب) المذكور، وصح لتخصه بالصفة، والعامل فيه معنى الإشارة، أو أنه حال من ضمير
الكتاب في مصدق، والعامل فيه مصدق، والوجه الثاني: أن يكون نصبه مفعولاً لمصدق ولا بد من تقدير ذا، أو
صاحب لأن التصديق لصاحب اللسان لا للسان. وانظر الكشاف ٣٠١/٤، والشهاب ٣٠/٨، وحاشية العلوي خ.
وقال الحاكم في التهذيب: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ نصب على الحال عن الكسائي، وقال أبو عبيدة: فيه إضمار، أي:

قال في التحريد : وفي الكلام حذف تقديره : فلم يهتدوا به ؛ لأن المشركين لم يهتدوا بالتوراة لما قالوا : إن القرآن إفك قديم ، وقيل : لا يحتاج إلى هذا التقدير ، بل قوله : ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ متصل بقوله : ﴿وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا﴾ أي : ومن قبل هذا الكتاب الحق الصحيح ، وهذا مصدق له ، فيكون مثله حقا صحيحا ؛ لأن ما وافق الحق وصدقه فهو حق مثله .

ثم قال تعالى : ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم ، وحاصل الكلام أن المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين .

ثم أعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة ، وذكر شبهات المنكرين ، وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة الحقيقين ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي : آمنوا ووحدوا ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي : داموا على الإيمان ^(١) ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي : لا يلحقهم غم في الآخرة لتوقع مخوف ، ولا هم يغمون لواقع نزل بهم ؛ لأنهم في دار السرور ، و﴿ثُمَّ﴾ ليان فضل الاستقامة وبعد مرتبتها ^(٢) .

دلت الآية على بطلان قول من زعم أن المؤمنين يوم القيامة إذا زفرت جهنم جثوا إلى الركب خوفا من عذاب الله ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا خوف عليهم في الآخرة ، ولا هم يحزنون ، فدعوى خلاف نص كتاب الله يقتدر إلى دليل صحيح ، والله يقول فيهم : ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وسيأتي إن شاء الله ما يؤيد هذا في مواضع كثيرة من نصوص أئمتنا عليهم السلام .

ثم قال سبحانه : ﴿أُولَئِكَ﴾ لا غيرهم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات .

أنزلناه ، أو جعلناه إماما ورحمة ، وقال الأخفش نصب على القطع ، لأن قوله : ﴿كتاب موسى﴾ معرفة بالإضافة ، وقوله : ﴿لسانا عربيا﴾ نعت للسان ، ويجوز أن يكون نصب لسانا ؛ لأنه مفعول به .

(١) أن الذين قالوا ربنا الله تدل على الإيمان بالقول والاعتقاد ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ تدل على العمل ، وفيه دلالة أنه لا يتم الإيمان إلا باجتماع القول والاعتقاد والعمل .

(٢) وذلك مستفاد من ثم ، التي تفيد التراخي ، والتراخي هنا هو باعتبار المرتبة ، ويمكن أن يحمل على التراخي الوجودي فإن التوحيد سابق للعمل .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وكان من أعظم أنواع الاستقامة الإحسان إلى الوالدين ، لا جرم أردفه بهذا المعنى فقال سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ أمرناه بإيتاء والديه ﴿إِحْسَانًا﴾ أي : فعلا ذا حسن .

وقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ بيان لحالها في مشقة حملها له في بطنها ، أي : حملته ذات كره ، أو حملا ذا كره^(١) ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد شدة الطلق .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي مكرهة مجبورة على الحمل والولاد ، وذلك إلزام لها من الله ذي الفضل والأيد^(٢) . اهـ وقرئ بضم الكاف وفتحها ، وهذا زيادة وتوصية في حق الأم بما يلحقها من المشقة في حمله ووضعه .

ثم قال تعالى : ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ أي : مدة حمله وفصاله ، أي : فطامه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ سمي الرضاع فصلا للملاسته له لأنه ينتهي به ويتم ، وفيه دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر^(٣) ، وروي عن عمر أن امرأة رفعت إليه ، وكانت قد ولدت لستة أشهر فأمر برجمها ، فقال علي عليه السلام : لا رجم عليها ، وذكر الطريق التي ذكرنا .

ثم قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ الأشد : أن يكتهل ويستوفي السن التي يستحكم فيها قوته وعقله ، وذلك إذا أناف على الثلاثين ، وقارب الأربعين ؛ لأن قوله : ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ظاهره أن الأشد قبل أربعين سنة للعطف^(٤) .

قال ابن قتيبة : أشد الرجل غير أشد اليتيم ؛ لأن أشد الرجل الاكتهال والحنكة حتى يشتد رأيه وعقله ، وهو ثلاثون سنة في قول ، وفي قول : ثلاث وثلاثون ، وفي قول : ثمان وثلاثون ، وفي قول : أربعون ، وقد يجمع بين هذه فيقال : أوله ثلاثون سنة ، وكمال الأشد أربعون سنة ، وقيل^(٥) : لم يبعث نبي [قط] إلا بعد أربعين سنة ، أو على

(١) يعني أن كرها على هذا الوجه صفة للمصدر ، وعلى الوجه الأول نصبا على الحال من الفاعل بتقدير مضاف .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة .

(٣) لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين ، لقوله تعالى : ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرضاعة﴾ بقيت للحمل ستة أشهر .

(٤) قال الحاكم في تهذيبه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ كمال قوله ، قيل : ثلاث وثلاثون سنة ، عن ابن عباس وقسادة ،

وقيل : بلوغ الحلم عن الشعبي ، وقيل : قيام الحجة عن الحسن ، وقيل : هو أربعون سنة ؛ لذلك فسر به .

رأس أربعين سنة .

وأما أشد الغلام : فهو أن يشتد خلقه ويكمل عقل التكليف ، وهو البلوغ الشرعي خمس عشرة سنة في قول ، أو ثمانين عشرة سنة ، أو تسع عشرة سنة في قول ، وهذه الآية على العموم لم يرد بها شخص معين من المؤمنين ، ذكره في التجريد .

ومعنى ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أي : وفقني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ قال صاحب الصحاح : أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به ، فهو موزوع به أي : مغرى به ، واستوزعت الله شكره فأوزعني أي : استلهمته فألهمني .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد ألهمني أن أشكر على نعمتك ، ولكنه اختصر ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لكن شكرتم لأزيدنكم
لكنما كفركم غالها

فقال : لو شكروا النعمة ، وإنما أراد : لو شكروا الله على النعمة ، ولكنه اختصر ^(١) . اهـ
وفي التجريد : ﴿ وَأَوْزِعْنِي ﴾ أي : اجعلني وازعاً ، أي : كافاً حافظاً بالشكر ، والمراد نعمة التوحيد والإسلام ، وجمع بين شكر النعمة عليه وعلى والديه ؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه ؛ لأن الولد يشرف بشرفهما ، ويشفعان له ، ويتشفع بدعائهما في الدنيا ، ويحاط بصلاحهما ، قال : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ^(٢) الآية . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ وقيل : في الصلوات الخمس .

ثم قال : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أي : اجعلهم موقعاً للصالح ومظنة ، كأنه قال : هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم ^(٣) . واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة ^(٤) ، قال بعد ذلك ﴿ إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ ﴾ من جميع الذنوب

(٥) انظر الكشاف ٣٠٢/٤ .

(١) كنا في المصايح ، وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام (لكنما كفرهم غالها) . انظر تفسيره أول هذه السورة .

(٢) الكهف : ٨٢ .

(٣) هذا تبين لمعنى (في) في قوله : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي ذُرِّيَّتِي ﴾ وانظر الكشاف ٣٠٢/٤ .

(٤) وهي ١ — أن يوقعه الله للشكر على النعمة ٢ — أن يوقعه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله ٣ — أن يصلح له في ذريته

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين الذين لوجهك ، والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة ، ومع كونه من المسلمين ، فتبين إنني إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت من الكفر ، ومن كل قبيح ، وبعد أن دخلت في الإسلام والانقياد لأمر الله ولقضائه^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي : عملهم الذي هو عندهم حسن ، وعند الله أحسن ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ﴾ قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول ، وقرئ بالنون المفتوحة ، وكذلك ﴿تَحَاوَزَ﴾ وكلاهما في المعنى واحد ؛ لأن الفعل وإن كان مبنيًا للمفعول فمعلوم أنه لله سبحانه وتعالى ، [فهو كقوله : ﴿يَغْفِرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فيبين تعالى^(٢)] بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا الدعاء ، ويسلك هذه الطريقة التي تقدم ذكرها ﴿تَقْبَلُ عَنْهُمْ﴾ عملهم ، والتقبل من الله هو بإيجاب الثواب [له] على عمله^(٣) .

قلت : وهذه الآية الكريمة تبطل قول أهل الموازنة القائلين : بأن طاعات الفاسق متقبلة ، وأنها تسقط من عقاب عصيانه بقدر ثوابها ؛ لأن الله سبحانه قال : ﴿أُولَئِكَ﴾ الذي معناه : لا غيرهم ممن لم يثبت له صفاتهم ، والله أعلم .

فإن قيل : ولم قال تعالى : ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والله يتقبل الأحسن فما دون ؟ .
قيل : في الجواب وجهان الأول : أن المراد بالأحسن الحسن ، كقوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤) وكقولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، أي : عادلا بني مروان .

الثاني : الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب ، والأحسن ما يغير ذلك ، فهو كل ما كان مندوبا أو واجبا^(٥) .

(١) انظر الرازي ٢٨/٢١ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من المصاحح ، وهو ثابت في الرازي بلفظه ٢٨/٢١ .

(٣) من قوله : واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي .. إلى هنا مثله في الرازي بلفظه ٢٨/٢١ .

(٤) الزمر : ٥٥ .

(٥) ومثل هذا في الرازي ٢٨/٢٢ .

ثم قال تعالى: ﴿وَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: الصغائر، أو التي تابوا منها، والتجاوز: هو الترك والتخلي عن حسابهم، والمغفرة لما أخطأوا به من جميع أسبابهم. وقوله: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ محله النصب على الحال، أي: كائنين، أو معدودين في جملة أصحاب الجنة، كقولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابي، وقوله: ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ﴾ وما بعده؛ لأن قوله: ﴿تَقْبَلُ﴾ و ﴿تَجَاوَزُ﴾ وعد من الله لهم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على السنة الرسل، فبين سبحانه أنه صدق لاشك فيه.

ثم أعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بالديه، وصف العاق لوالديه فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفْ لَكُمْ﴾ الذي قال ﴿مبتدأ، خبره﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾. ومعنى ﴿أف﴾ صوت يدل على تضجر قائله، واللام في لكما للبيان معناه: وهذا التأنيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما، والمراد بـ ﴿الذي قال﴾ الجنس، وقيل: هو الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث^(١).

[وعن] قتادة: هو صفة عبد سوء [عاق لوالديه] فاجر^(٢).

ثم حكى الله تعالى عنه مقاله فقال: ﴿أَتَعِدَّانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من الأرض، أي: أبعث بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ﴾ أي: مضت الأمم ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ أي: ولم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي: يدعوان بالغيوث وهو النجاة من النار، يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك.

وقوله: ﴿وَيْلَكَ أَمِنْ﴾ دعاء عليه بالهلاك، والمراد الحث على الإيمان، لا الدعاء حقيقة، والإشعار بأن ما هو عليه موجب لهلاكه^(٣).

(١) نسب الزمخشري هذا القول إلى الحسن، وفي المصاحب (المكذب لهما بالبعث) وفي الزمخشري (المكذب بالبعث) ٣٠٣/٤.

(٢) انظر الكشف ٣٠٣/٤، وما بين أقواس الزيادة منه.

(٣) قوله: دعاء عليه بالهلاك، والمراد الحث. قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشف: قالوا: الويل بمعنى الهلاك، ودلالته على الحث على الفعل من حيث أن فيه إشعاراً بأن ما هو مرتكب له حقيق بأن تهلكه فيه، وأن يطلب له الهلاك، فإذا سمع ذلك كان باعثاً على تركه، هكذا قيل، وهو لا يناسب معنى الحث، بل نقول: إنما دل

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعده بالبعث صحيح واقع لا محالة ﴿فَيَقُولُ﴾ هما: ﴿مَا هَذَا﴾ الذي تقولانه من البعث وتدعواني إليه ﴿إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيبهم، وما كتبوه لاعن حقيقة.

قال في التجرید: قيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه^(١)، قال الزجاج، ويضعف هذا القول أنه قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهذا لا يقوله الله تعالى في من علم أنه يؤمن، والصحيح أن هذا كالذي قبله في غير معين، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لعباده ليقنطروا، مثل البار بوالديه الصالح، وما يفعله من الدعاء، ومثل العاق الفاجر وما يفعله.

ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمْ﴾ هو وجب ووقع عليهم وعيد الله، ومعنى ﴿فِي أُمِّ﴾ أي: في جملة أمم ﴿فَدَّ خَلَّتْ﴾ أي: مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: لأنهم كانوا في الدنيا محتارين؛ بسبب خسران أنفسهم بوقوعها في النار.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: ولكل من الجنسين مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقرى بالياء والنون تعليل لحذف دل عليه الكلام، كأنه قيل: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم. قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات، والعقاب دركات^(٢).

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص شيء من أجورهم. ولما بين الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بين أحوال [أهل] العقاب فقال سبحانه:

على الحث على الفعل من حيث أن فيه إشعاراً بأن الفعل الذي أمر به مما ينبغي أن يحسد عليه، فيدعى عليه بذلك، فيكون باعثاً من هذه الجهة.

(١) والزمخشري في كشافه ٣٠٣/٤، والرازي في تفسيره ٢٨/٢٣. والحاكم الحشمي في تهذيبه خ ١٩٩.

(٢) انظر الكشاف ٣٠٤/٤.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي : واذكروا يوم يعرض ، وعرضهم على النار تعذيبهم بها ، أو يجاء بهم إليها ، وذلك قبل دخولهم فيها ، فيقال لهم : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ قرئ (أذهبتم) بهزمة الاستفهام ، ويراد به التوبيخ ، وبغير همزة استفهام ، قال الفراء والزجاج : العرب توبخ بهزمة وبغير همزة ، فتقول : أذهبت ففعلت كذا ؟ أو ذهبت ففعلت كذا^(١) ، قال المفسرون : طيباتهم : ما كانوا فيه من اللذات مشتغلين بها عن الآخرة معرضين عن شكرها ، ومعنى الآية : ما بقي لكم شيء من الطيبات إلا ما قد استوفيتموه وأصبتموه في الدنيا ، فلم يبق لكم في الآخرة شيء . ومعنى ﴿وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا﴾ أي : انتفعتم بها لمجرد التلذذ .

ولما ونحهم الله بذلك ، أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الصالحون اجتناب نعيم الدنيا ولذتها ليتكامل أجورهم ، ولئلا تلهيهم عن الآخرة .

وعن عمر بن الخطاب أنه دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مشربة له ، وهو مضطجع على خصفة ، وبعضه على التراب ، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا ، فقال : يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته ، وكسرى وقيصر على فرش الذهب ، وفرش الديباج والحرير ، فقال : يا عمر أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم ، وهي وشيكة الانقطاع ، وإننا أخرت لنا طيباتنا^(٢) .

(١) قال القرطبي في تفسيره : أي يقال لهم أذهبتم ، فالقول مضمرة . وقرأ الحسن ونصر وأبو العال ويعقوب وابن كثير "أذهبتم" بهزتين مخففتين ، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حية وهشام "أذهبتم" بهزمة واحدة مطولة على الاستفهام . الباقر بهزمة واحدة من غير مد على الخبر ، وكلها لغات فصحة ومعناها التوبيخ ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ، وقد تقدم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة نافع وعاصم وأبي عمرو وحزمة والكسائي ، مع من وافقهم شيبه والزهري وابن محيصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثاب وغيرهم ، فهذه عليها جلة النسخ . وترك الاستفهام أحسن ، لأن إثباته يومهم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضاً ، يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ، يوبخ ويقول : أذهبت فعلت كل ذلك جائز . ومعنى "أذهبتم طيباتكم" أي تمتعتم بالطيبات في الدنيا وابتغيت الشهوات واللذات ، يعني المعاصي .

(٢) وفي مسلم وغيره : أن عمر دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئاً يرد البصر إلا أبداً جلوداً معطونة قد سطع ريحها ، فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالسا وقال : (أي شك أنت يا ابن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا) فقلت : استغفر لي فقال : (اللهم اغفر له) (أنظر تفسير القرطبي) .

وروى جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب رأى في يده لحما معلقا ، فقال : ما هذا يا جابر ؟ فقلت : اشتهيت لحما فاشتريته ، قال : افكلما اشتهيت اشتريت يا جابر ما تخاف هذه الآية «أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها»^(١) .
والاستمتاع : الانتفاع اليسير المعجل ، هكذا في التحرير .

قلت : [وأحسن]^(٢) من هذا كله في معنى هذه الآية الكريمة هو تفسير الهادي عليه السلام حيث قال ما لفظه : الطيبات الذي أذهبوها في حياتهم فهي طيبات الجنان ، التي جعلها الله لأهل الطاعة والإيمان ، بما ذكر أنه أعد لأهل التقوى والإحسان ، من أزواج الفواكه والرمان ، وغير ذلك من النخيل واللحمان^(٣) وكل ما تشتهي الأنفس من اللباس والنسوان ، وإذهابهم إياها فهو بعصيانهم لربهم وجرأتهم على خالقهم ؛ لأن الله عز وجل إنما حكم بالطيبات لمن أطاعه ، وحرمها على من عصاه ، فمن أطاعه فقد استوجبها بطاعته ، ومن عصاه فقد أذهبها بمعصيته ، فهذا تفسير إذهابهم للطيبات ، لا ما يقول من جهل فلم يعلم ، وضل عن مذهبه فلم يفهم : إن من إذهابهم للطيبات هو أكلها في حياتهم ، فإن من أكلها في الدنيا الفانية حرمها في الآخرة الباقية ، وإن من لبس الثياب السرية ، وأكل الطعام الفائق وركب الخيول حاللا كان أو حراما فقد أذهب طيبات الآخرة ، بما أطلق لنفسه من استعمال طيبات الدنيا ، وحاش لله أن يكون الجواب على ذلك ، أو يكون [قول] من علم كذلك [فأما الكافر وأشباهه فقد استغنينا عن الفتش عنه وعن أمره بما قد عندنا من حاله ، كثرت دنياه أو قلّت ، فمصيره إلى النار، وأما المؤمن به ، والعامل بطاعة خالقه ، المحتذي بأمره فيما أمر به ربه فكيف يكون

(١) في تفسير القرطبي : وقال جابر : اشتهى أهلي لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئا جعله في بطنه أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : «أذهبتم طيباتكم» الآية

(٢) ما بين الأقواس من النسخة (ب) .

(٣) بمعنى : اللحم . وزيادة الألف والنون تدل على المبالغة والكثرة . وكذلك النسوان بمعنى النساء .

تلك حاله ، وإنما جعل الله الطيبات للمؤمنين خاصة دون الفاسقين^(١) ألم يسمعون قول الله في القرآن ، وما نزل من النور والبرهان حين يقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ومعناها : ويوم القيامة ، فجعلها لهم في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة التي تبقى ، فكيف يقال : أو يستحاز في ذي الجلال والإكرام أنه جعلها لهم رزقا ، وأعطاهم إياها عطاء حقا في دار الدنيا ، ثم حرمهم إياها في الآخرة التي تبقى عقوبة على أخذ ما أعطاهم ، وقبول ما امتن به عليهم وآتاهم ، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فأمر رسله أن يأكلوا من الطيبات ، وأن يعملوا له ما يرضيه من الصالحات ، وفي أقل من ذلك ما أجراً من كان ذا حجي . والحمد لله العلي الأعلى^(٢) . اهـ

ثم بين عز وجل سبب عذابهم فقال سبحانه : ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي :

(١) ما بين قوسي الزيادة من قوله : فأما الكافر .. إلى دون الفاسقين . هذا النص أقبحه المصنف هنا من نص آخر موجود في صفحة أخرى ، ونحتم هذا النص المقحم هنا (في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام) — هو : (فقال في كتابه عز وجل لأنبيائه عليهم السلام : ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ وقال في كتابه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ومعناها : ويوم القيامة ، وقال في كتابه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حُنَاحٌ ﴾ الخ فلم يجعل الله عز وجل على المؤمنين حرجاً في شيء مما رزقهم ، إذا حذوا على ما جعل لهم وأمرهم به ، فساروا فيه بطاعة الله ، ولم يتعدوا إلى شيء مما يسخط الله ؛ لأن الله عز وجل — أيها السائل — لم يجعل في هذه الدنيا من خيرها ومراكبها التي خلقها لشرار أهلها ، ولا لمن عند عن طاعة خالقها ، وإنما جعلها للصالحين ، ولعباده المتقين ، يأمرهم فيها بأمره ، وينهون عن نهيه ، مقيمون أحكامه ، منفذوه لأمره عليها ، وللطاعة والمطيعين خالقها رب العالمين . ثم أمرهم ونهاهم ، وبصرهم عنها وهداهم ، وجعل لهم الاستطاعة إلى طاعة مولاهم ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴿ وإنما معنى الآية ، وقول الله سبحانه : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فبكتنا منه سبحانه لأهل النار ، وتوقفا على تفریطهم في طاعة ربهم ، ومعنى ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ أي : تركتم وبحقتم وعطلتم ما جعله الله لكم بالطاعة من النعيم المقيم ، والخلد مع المتقين ، في الثواب الكريم ، بارتكابكم المعاصي ، وترككم الطاعة ، حتى تخرجتم مما جعله الله للمطيعين ، وصرتم إلى حكم الفسقة الكافرين ، في عذاب مهين ، فهذا معنى ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ . المجموع ص ٥٠٩ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٥١١ ، ٥١٢ .

الهوان والصغار ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فقابل تعالى ذلك العذاب بأمرين أولهما : الاستكبار والترفع ، وهو ذنب القلب ، والثاني : ^(١) ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثاني ؛ لأن أحوال القلوب أعظم وقعا من أعمال الجوارح . وأما الفسق : فهو المعاصي قال الهادي عليه السلام : والاستكبار : فهو الجرأة على الله الواحد الجبار ، والمخالفة له في أمره ، من ذلك التجبر على عباد الله في أرضه .

والفسق : فهو الفسق في الدين [والفسق في الدين] ^(٢) فهو المخالفة لرب العالمين . اهـ وقوله : ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأن الاستكبار بالحق لا يكون إلا لله تعالى ، وقالوا : وللمؤمن على المتكبر .

وقوله : ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي : وبسبب فجوركم ، الذي خرجتم به عن طاعة الله تعالى .

واعلم أنه تعالى لما أودع أنواع الدلائل في إثبات التوحيد والنبوة ، وكان أهل مكة سبب تكبرهم قد أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها ، ولهذا السبب قال تعالى في حقهم : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ بين عز وجل أن قوم عاد كانوا أعظم منهم قوة وجاها ، فقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [أي] : اذكر يا محمد لقومك أخا عاد هوذا عليه السلام ؛ لأنه منهم ، أي عظمهم بقصته ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ أي : حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، فلما كذبوه سلب الله العذاب عنهم بسبب شؤم كفرهم ، فذكر هذه القصة هاهنا ليعتبر بها أهل مكة ، فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع ، وهو مناسب لما تقدم ؛ لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق ضرب الأمثال ، وتقديره : أن من واطب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا .

(١) انظر الرازي ٢٨ / ٢٥ ، وفيه (والثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح) .

(٢) ما بين القوسين من (ب) والمجموع ص ٥١٢ .

وقوله: ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ أي: فيها قال أبو عبيد: الحقف: الرمل المعوج، ومنه قيل للمعوج: محقوق^(١) والأحقاف: جمع حقف، وهي رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من احقوق الشيء إذا اعوج، قال الشاعر: (مثل الأفاعي اهتز بالحقوق)^(٢)

(١) في الرازي: ومنه قيل للمعوج: محقوق. قال في إعراب القرآن لحي الدين الدرويش: قال في القاموس: (الحقف بالكسر: المعوج من الرمل، والجمع أحقاف، وحقاف، وحقوق، وجمع الجمع حقائف، وحقفّة، أو: الرمل العظيم المستدير، أو المستطيل المشف، أو: هي رمال مستطيلة بناحية الشجر) وقال شارحه في التاج: (وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَمَرْنَا الْأَمْنَادَ أَنْ يَنْزِلُوا بِالْأَحْقَافِ﴾ قال الجوهري: وهي ديار عاد، وقال ابن عرفة: قوم عاد كانت منازلهم بالرمال، وهي الأحقاف.

وروي عن ابن عباس أنها واد بين عمان وأرض مهرة، وقال ابن إسحاق: الأحقاف: رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف: رمال مشرفة على هجر بالشجر من أرض اليمن. الخ ما ذكره (١٨١/٨، ١٨٢). وقال القرطبي في تفسيره: والأحقاف: ديار عاد. وهي الرمال العظام، في قول الخليل وغيره. وكانوا قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم. والأحقاف جمع حقف، وهو ما استطال من الرمل العظيم وأعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا، والجمع حقاف وأحقاف وحقوق. واحقوق الرمل والهلل أي: اعوج. وقيل: الحقف جمع حقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حقف أحقف. قال الأعشى:

بات إلى أرطاة حقف أحقفا
أي رمل مستطيل مشرف. والفعل منه احقوقف. قال العجاج:

طوى الليالي زلفا فزلفا سماوة الهلال حتى احقوقفا
أي انحنى وأستدار. وقال امرؤ القيس:

كحقف النقا بمشي الوليدان فوقه بما احتسبا من لين مس وتسها

وفيما أريد بالأحقاف ها هنا مختلف فيه. فقال ابن زيد: هي رمال مشرفة مستطيلة كهية الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبلا، وشاهده ما ذكرناه. وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشجر، والشجر قريب من عدن، يقال: شجر عمان وشجر عمان، وهو ساحل البحر بين عمان وعدن. وعنه أيضا: ذكر لنا أن عادا كانوا أحياء باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشجر.

وقال مجاهد: هي أرض من حسمى تسمى بالأحقاف. وحسمى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواحق ملى الجوانب لا يكاد القنم يفارقها. قال النابغة: فأصبح عاقلا بجبال حسمى دقاق الرب محترم القنم قاله الجوهري. وقال ابن عباس والضحاك: الأحقاف جبل بالشام. وعن ابن عباس أيضا: واد بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال له مهرة، وإليه تنسب الإبل المهرية، فيقال: إبل مهرة ومهاري. وكانوا أهل عمد سيرة في الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا من قبيلة إرم. وقال الكلبي: أحقاف الجبل ما نضب عنه الماء زمان الغرف، كان ينضب الماء من الأرض ويبقى أثره.

أي : بالرمال ، وكانت عاد أهل عمد بين رمال مشرفين على البحر بالشجر من اليمن ، وكانوا ينزلون ما بين عمان وحضرموت ، واليمن كله عن ابن إسحاق .

وقيل : الأحقاف جبل بالشام ، وقيل : أحقاف الجبل : مدره ، كذا في البرهان .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَّتْ النُّذُرُ﴾ أي : مضت ، النذر : جمع نذير ، بمعنى منذر ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي : من قبله ومن بعده ، أي : الرسل كلها قد أنذرت عاقبة الشرك كإنذاره ، فذكر قومك بهم ليحذروا سوء العاقبة .

وقوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ تفسير للإنذار ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة ، ووصف بالعظم لما يقع فيه من الشدائد ، وأعلمهم أن الذين قبله من الرسل والذين سيعثون بعده كلهم منذرون كإنذاره ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ جاؤا بالتوحيد ، واتفقوا عليه ، وهذا اعتراض بين حكاية إنذار هود^(١) .

وروى الطفيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : خير وادين في الناس واد بمكة وواد نزل به آدم بأرض الهند . وشر وادين في الناس واد بالأحقاف ، وواد بحضر موت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار . وخير بئر في الناس بئر زمزم ، وشر بئر في الناس بئر برهوت ، وهو في ذلك الوادي الذي يحضر موت . (انظر تفسير القرطبي) .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة . وفيه (بالحقوف) بدلا عن (الحقوف) كما في بعض النسخ (١) قوله : وهذا اعتراض .. الخ ، أي : أن قوله ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ من بقية الجملة المعروضة وهي قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَّتْ ..﴾ ولم أحد أحدا من المفسرين الذين مراجعهم بين يدي ذكر مثل هذا القول ، والوجه الثاني وهو قوله : ويجوز أن يكون الاعتراض قد تم .. الخ هو الذي عليه أكثر المفسرين ، قال في الكشف : إشارة إلى قوله : ﴿وَقَدْ خَلَّتْ النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ فإنه اعتراض بين المفسر وتفسيره . (انظر الكشف ٣٠٦/٤) . وقال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : يحتمل أن تكون ﴿وَقَدْ خَلَّتْ النذر من بين يديه﴾ حالا من فاعل أنذر ، أو من مفعوله ، أي : ﴿أنذر قومه﴾ معلما لهم ، أو أنذرهم وهم عالمون بذلك ، وأن تكون اعتراضا بين التفسير والمفسر ، لأن (أن) بمعنى أي : لأن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته ، فعلى أن يكون حالا ينبغي أن يتقدم علم بمقتضى الحال ليدخل تحت الإنذار ، ويحصل الاعتبار ، وعلم ذلك إما بإعلام هود بإهام قطعا ، إذا أريد بمن خلفه الذين سيعثون بعده ، أو بمشاهدتهم ذلك ، إذا أريد بهم الذين بعثوا في زمانه ، وأنذروا بعد إنذاره ، وعلى أن تكون معروضة للمخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمعنى : اذكر يا محمد إنذار هود قومه عاقبة الشرك ، واذكر أيضا أنه قد أنذر من تقدمه من الرسل ، ومن تأخر عنه مثل ذلك الإنذار ، بخلاف الحال ، وهذا التفسير إشارة إلى تفسير ابن عباس .

وقال الشهاب في حاشيته على البياضوي ٣٤/٨ : قوله : والجملة [وهي ﴿وَقَدْ خَلَّتْ النذر من بين يديه ومن خلفه﴾]

ثم رجع إلى كلام هود بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ ويجوز أن يكون الاعتراض قد تم بقوله: ﴿مَنْ خَلَفَهُ﴾ وقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ من كلام هود ، أي : وقد خلت النذر ينذرون أقوامهم ، وإنما قيل : خلت من خلفه ؛ لأنه ماض بالنسبة إلى نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكره في التجريد .

ثم حكى الله عن الكفار أنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ﴾ أي : لتصرفنا وتقلبنا ، والإفك: هو القلب ، وقيل : من الإفك الذي هو الكذب ، أي : لتصرفنا بالإفك ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي : عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي : عجل لنا ما تعدنا من عذاب الشرك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعيدك ، استعجال منهم على وجه التكذيب ، فقال لهم هود عليه السلام ما حكى الله عنه ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناه : لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصواباً ^(١) ، فكيف أدعوه بأن يعجله كما تقتضون بخلاف ما علم صلاحه ﴿وَأَبْلُغْكُمْ﴾ تقديره : وأنا أبلغكم ، أي : ما شأني إلا تبليغ ^(٢) ﴿مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ مما هو شأني وشرطي وهو الإنذار لكم بجهدني من العذاب ، فأما العلم بوقته فما

حال ، أي : من فاعل أنذر ، أي : معلما بأنها خلت ، أو من المفعول ، أي : عالين ذلك بإعلامه لهم ، أو بغیره ، أو المعنى : أنذرهم على فترة من الرسل ، فلا يؤول بما ذكر ، ويجوز عطفه على أنذر ، وقوله : (أو اعتراض) أي : بين المفسر والمفسر ، أو بين الفعل ومتعلقه ، كأنه قيل : اذكر زمان إنذار هود بما أنذر به الرسل قبله وبعده ، وهو أن لا تعبدوا .. الخ تنبيها على أنه إنذار ثابت ، قديما وحديثا ، اتفق عليه الرسل ، فهو مؤكد لما اعترض فيه ، مع الإشارة إلى أنه مقصود ، لا قيد تابع ، كما في الحالية ، ولذا رجحه في الكشف ، مع ما فيه من التفسير بعد الإبهام ، والسلامة عن تكلف الجمع بين الماضي والمستقبل ، قوله : (أي : لا تعبدوا) فإن مفسرة بمعنى أي ، لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه ، وهو الإنذار ، والمفسر محموله المقدر ، وقوله : بأن لا تعبدوا .. الخ على أنها مصدرية ، أو مخففة من الثقيلة ، فقبلها حرف جر مقدر ، متعلق بأنذر ، كما مر تحقيقه ، وقوله : (لأن النهي ..) الخ . بيان لكون ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ مفسرا للإنذار ، أو مقدره به على الوجهين ، واشتمال ما بعده ، أو مجموع الكلام على الإنذار لا يفني عما ذكر ، وقوله : (إني أخاف .. الخ استئناف لتعليل النهي .

(١) هذا مدلول الحصر وإنما مع كون تعريف العلم للعهد ، فالمراد به العلم بوقت وقوع ما استعجلوه .

(٢) فيه إشارة إلى أنه يفيد الحصر الإضائي بقرينة السياق ، واحتاج أيضا إلى تقدير : أنا ، لتوافق الجملتان المعطوفتان بالواو ، ويكون التقدير : وأما أنا فإني أمهني التبليغ .. انظر الشهاب ٣٥/٨ ، وإعراب القرآن ١٨٥/٩ .

أوحاه [الله] إلي ﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أن الرسل لم يبعثوا إلا منذرين غير سائلين غير ما أذن لهم ^(١)، أو المعنى : تجهلون حيث تصرون على طلب العذاب ، وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقا ، ولكن لم يظهر أيضا كوني كاذبا ، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ضمير الهاء يرجع إلى ما تعدنا ، أي رأوا العذاب الموعود به ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ وقيل : الضمير عائد إلى غير مذكور ، وبينه قوله : ﴿عَارِضًا﴾ كما قال : ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ ^(٣) ولم يذكر الأرض لكونها معلومة ، فكذا هاهنا الضمير عائد إلى السحاب ، كأنه قيل : فلما رأوا السحاب عارضا ، وهذا اختيار الزجاج ، ويكون من باب الإضمار [لا] على شريطة التفسير ، والعارض : السحاب الذي يعرض في أفق السماء ^(٤) .

كَانَ الْمَطَرُ قَدْ حَبَسَ عَنْ عَادٍ فَسَاقَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ سَحَابَةً سَوْدَاءَ فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ وَادٍ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ : الْمَغِيثُ ، ففرحوا حين رأوها ، ﴿وَقَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾ والمعنى : ممطر إيانا ^(٥) ، وكلما عرض فهو عارض لاعتراضه للناظرين ، وظهوره وبيانه ، قال الشاعر :

فدع ذا وما فات من ذكرها وابعث لهم عارضا مستطيرا ^(٦)

قيل : كان هود قاعدا في قومه فجاءه سحاب مكفهر ، فقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فقال : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب ، ثم بين ماهيته فقال ﴿رِيحٌ﴾ أي : هي

(١) فيه إشارة إلى أن الفعل تجهلون متعد . وقوله : أو المعنى : تجهلون حيث تصرون الخ فيه إشارة إلى أن الفعل لازم غير متعد .

(٢) انظر تفسير الرازي ٢٧/٢٨ .

(٣) فاطر : ٤٥ .

(٤) قال الرازي ٢٨/٢٨ : قال أبو زيد : العارض : السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبق .

(٥) قوله : ممطر إيانا . فيه إشارة إلى أن الإضافة فيه مجازية غير معرفة ، بدليل وقوع (مطر) وهي مضافة إلى معرفة وصفا للنكرة وهو عارض . انظر الكشف ٣٠٧/٤ .

(٦) من قوله : وكلما عرض .. إلى هنا — مثله في تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم عليه السلام . أنظره أول هذه السورة

ريح ^(١) ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي : تهلك كل شيء من نفوس عاد وأموالهم الجرم الكثير ، فعبر عن الكثرة بالكلية .

قوله: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إضافة الرب إلى الريح للدلالة على أن تصرفها مما يشهد بعظم قدرته ؛ لأنها من أعاجيب خلقه ، وأكابر جنوده ، وأن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب ، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم .

ثم قال في صفة هلاكهم ^(٢) ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ يعني عاداً ﴿لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ قرئ بفتح (تا) ترى ، على أن الخطاب لغير معين ، ونصب مساكنهم ، وبضمها على التأنيث ، ورفع مساكنهم عن علي وأبي عبد الرحمن السلمي ^(٣) ، والحسن ، وقتادة ، والقياس التذكير ، كما تقول : ما قام إلا هند ، وهي قراءة حمزة ^(٤) ، وعاصم ^(٥) ، وإنما لم تسر إلا مساكنهم ؛ لأن الريح أهلكهم ، والمعنى أنهم لا يرون أحياء فصاروا كالمعدومين .

(١) قوله : هي ريح ، فيه إشارة إلى أن المبتدأ محذوف ، وريح خبر ، وفيها : خبر مقدم ، وعذاب : مبتدأ مؤخر . وفيه وجه آخر ، وهو أن تكون (ريح) بدل من ما في قوله: ﴿مَا اسْتَعْلَجْتُمْ بِهِ﴾ .

(٢) في النسخة (أ) (في صفة عذابكم) .

(٣) أبو عبد الرحمن السلمي : هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة (بالنصغير) أبو عبد الرحمن السلمي ، الكوفي ، القارئ ، الضرير ، أحد التابعين ، كان يقرأ القرآن بالكوفة ، من زمن عثمان ، إلى إمرة الحجاج ، قال أبو إسحاق السبيعي : أقرأ أبو عبد الرحمن السلمي القرآن في المسجد أربعين سنة ، روى عن حذيفة بن اليمان ، وأبى المؤمنين ، وعمر ، وعثمان ، وغيرهم ، وعنه سعيد بن جبير ، وعاصم بن بهدلة ، وإسماعيل السدي ، وغيرهم ، قيل : مات سنة ٧٢ هـ وقيل : سنة ٩٢ هـ ، وقيل : سنة ٧٤ هـ ، وقيل : سنة ١٠٥ هـ انظر تهذيب الكمال ١٤ / ٤٠٨ ، وبقية مصادر الترجمة المذكورة فيه .

(٤) حمزة : هو حمزة بن حبيب بن عمار ، بن إسماعيل النيمي الزيات ، أحد القراء السبعة ، كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان في آخر سواد العراق ، مما يلي بلاد الجليل ، ويجلب الجين ، والجوز إلى الكوفة ، وكان علماً بالقراءات ، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول ، توفي بحلوان سنة ١٥٦ هـ وقيل : سنة ١٥٨ هـ . أما مولده ففي سنة ٨٠ هـ انظر الأعلام ٢ / ٢٧٧ .

(٥) عاصم : هو عاصم بن أبي النجود بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء ، أبو بكر ، أحد القراء السبعة ، تابعي من أهل الكوفة ، كان ثقة في القراءات ، قيل : اسم أبيه عبيد ، وبهدلة اسم أمه ، توفي في الكوفة سنة ١٢٧ هـ . انظر الأعلام

وقيل : أمالت الرياح عليهم الأحقاف ، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنبين عظيم ، ثم كشفت عنهم الرياح فاحتلمتهم فطرحتهم في البحر .
روي أن الرياح كانت تحمل الفسطاط — أي : الخيمة — أو الضعينة فترفعها [في الجوا] حتى ترى كأنها جردة ثم تطرحها .

وقيل : أول من أبصر العذاب امرأة [منهم] قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار .
وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب — أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالمهم ومواشيهم تطير بهم الرياح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم فقلعت [الرياح] الأبواب وصرعتهم ، ولم يبق إلا هود ومن آمن معه .
وروي أن هودا [لما أحس بالريح] خط على نفسه وعلى المؤمنين معه خطا إلى جنب عين تنبع .

ابن عباس : اعتزل ومن معه في حظيرة ما يصيبهم إلا ما [يلين على الجلود و] تشتهيه^(١) الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالضعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . قاله في التجريد وغيره^(٢) .

قال الرازي : وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الرياح من هذا الوجه^(٣) .
وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا رأى الرياح فزع ، وقال : اللهم إني أسألك خيرا ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما أرسلت به^(٤) .

(١) في الكشف (وتلذه الأنفس) ٣٠٨/

(٢) وهذا كله مثله في الكشف ، بتقديم وتأخير ، وما بين أقواس الزيادة من الكشف ٣٠٧/٤ ، ٣٠٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨/٢٨ .

(٤) قال ابن حجر : أخرجه مسلم ، والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والبخاري ، وأبو يعلى ، والبخاري في الأدب المفرد ، كلهم من رواية عطاء عن عائشة ، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب (انظر تخريج ابن حجر على الكشف ٣٠٨/٤) وقال القرطبي في تفسيره : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن المقدم بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا رأى ناشئا في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول "اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه فإن كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل وإن أمطر قال

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء ﴿نَحْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ والمقصود تخويف كفار مكة.

فإن قيل: لما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(١) فكيف يبقى التخويف؟ قلنا: ^(٢) قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ إنما نزل في آخر الأمر، فكان التخويف حاصلا قبل نزوله.

ثم إنه تعالى خوف كفار مكة، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أراد بالتمكين تمكينهم من أمور الدنيا ولذاتها، وحطامها وشهواتها، بكثرة المال والرجال والقوة، والمعنى على هذا: ولقد مكناهم في الذي لم تمكنكم فيه يا قريش، (ما) بمعنى الذي، و(إن) نافية [منزلة ما] أي في الذي ما مكناكم فيه، واختير (إن) على (ما) لأنها أحسن في اللفظ؛ لما فيه من مجامعة (ما) مثلها، من التكرير المستبشع، ومثله يجنب.

وقد جعلت إن زائدة^(٣)، وتؤول بأنا مكناهم في مثل ما مكناكم، والصحيح الأول لقوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً﴾^(٤) فدل على أن تمكينهم فوق تمكين قريش لا مثله، وهو أبلغ في التوبيخ، وأدخل في الحث على الاعتبار^(٥).

اللهم صيبا نافعا "طريق أخرى" قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر الطاهر أخبرنا ابن وهب قال سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا عصفت الريح قال "اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به" الخ ما ذكره القرطبي. (أنظر تفسير القرطبي).

(١) الأنفال: ٣٣، في أصل المصاييح (وما كان الله معذبهم وأنت فيهم) ونص الآية ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(٢) في المصاييح (قلنا: قالوا: قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ..﴾ الخ وفي الرازي (قلنا: قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ..﴾ الخ ما هنا

(٣) ذكر هذا الرازي في تفسيره (٢٨/٢٩) ونسبه إلى ابن قتيبة. وقد غلطه الرازي من ثلاثة أوجه فقال: الأول أن الحكم بأن حرفا من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل. والثاني: أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة، ثم إنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله، فكيف يكون حالكم وهذا المقصود إنما يتم لو دلت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة. الثالث: أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى قال تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَنًا وَرِيًّا﴾ وقال: ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَأَثَرًا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ يريد سبحانه : أنا فتحنا عليهم أبواب النعم ، وأعطيناهم سمعا فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها في تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى ، بل صرفوا هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) من الإغناء ، وهو القليل منه ، بمعنى : أنه جعل لهم آلة صحيحة ، السمع والبصر والأفئدة ، للفهم والتدبر فما انتفعوا بها فيما خلقت له من الأمور الدينية . وقوله : ﴿ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (إذ) متعلق بأغنى ، جار مجرى التعليل ، أي : ما أغنى عنهم إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : جزاء استهزائهم ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي : رجع عليهم وأحاط بهم . قال الحسين بن القاسم عليه السلام : وسألت رجلا من أهل اللغة فقال : معناه الإحاطة ، وأنشدنا من الشعر فقال :
تحدّر من إشراق كوكب برهة فهو لثرب الساعدية جائق^(٢)

فبين عز وجل أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم وأبصارهم ؛ لأجل أنهم كانوا يجحدون ، ولفظ (إذ) قد يذكر لإفادة التعليل ، تقول : ضربته إذ أساء ، والمعنى ضربته لأنه أساء . وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة ، فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم ، فأهل مكة مع

(٤) غافر : ٨٢ .

(٥) انظر الكشف ٣٠٨/٤ ، ٣٠٩ . وفيه : والوجه هو الأول . قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : لما نبه عليه من موافقة للآي الآخر ، لأن التوبيخ والإمراء فيه أبلغ ، وقيل : لأن المعنى الثاني يؤدي إلى أن يقال : مكناهم في مثل ما مكناكم فيه ، فيلزم تفضيل هؤلاء على أولئك ؛ لأن المشبه به أقوى في الوجه غالبا ، والأول معناه : ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه ، والذي سيق له الكلام أن كفار مكة دون أولئك الكفار في التمكن في الأرض ، لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ وَاللَّعْنُ لِمَنْ نَعَطَ أَهْلَ مَكَّةَ نَحْوَ مَا أَعْطَيْنَا عَادًا وَنَمُودَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْبَسْطِ لَهُمْ فِي الْأَجْسَامِ ، والسعة في الأموال ، والاستظهار بأسباب الدنيا .

(١) من قوله : يريد سبحانه .. إلى هنا مثله في الرازي ٢٨/٢٩ .

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة .

عجزهم وضعفهم أولى أن يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا .

واستهزاءهم : أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب ، وإنما [كانوا]^(١) يطلبونه على سبيل الاستهزاء ، ثم نزل بهم ذلك العذاب الذي كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء ، والله أعلم ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ﴾ يا قريش ﴿ مِنْ الْقَرْيَةِ ﴾ أي : من أهل القرى ، من نحو حجر عموذ ، وقري قوم لوط ﴿ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ ﴾ أكثرنا تصرفها ، وهو ترديدها ، أي : جئنا بآيات كثيرة على أنحاء مختلفة ، وقيل : صرفناها : بيناها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ليرجعوا عن كفرهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ ﴾ أي : فهلا نصر أهل القرى أصنامهم ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا ﴾ أي : اتخذوهم ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ أي : تقربا إلى الله ، والقربان : ما تقرب به ، وهو^(٢) حال من الآلهة متقدمة ، والتقدير : فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة متقربا بهم إلى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

ويجوز أن يكون ﴿ قُرْبَانًا ﴾ مفعول ﴿ اتَّخَذُوا ﴾ و﴿ آلِهَةً ﴾ بدلا منه ، والمعنى : فهلا منعتهم من الهلاك نصره آلهتهم لهم^(٣) ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ أي : غابوا عن نصرتهم ونفعهم

(١) ما بين القوسين من الرازي ٢٨/٢٩ .

(٢) الضمير يعود على (قربانا) . وقدم على حد قوله : لمية موحشا طلل . قال الرازي في تفسيره ٢٨/٣٠ : وفي إعراب الآية وجوه ، الأول : قال صاحب الكشاف : أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين هو محذوف ، والمفعول الثاني (آلهة) و﴿ قُرْبَانًا ﴾ حال ، وقيل عليه : إن الفعل المتعدي إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظا ، والحال مشعر بتمام الكلام ، ولا شك أن إتيان الحال بين المفعولين على خلاف الأصل . الثاني : قال بعضهم (قربانا) مفعول ثان قدم على المفعول الأول ، وهو آلهة ، فقيل عليه : إنه يؤدي إلى غلو الكلام عن الراجع إلى الذين . والثالث : قال بعض المحققين : يضر أحد مفعولي اتخذوا ، وهو الراجع إلى الذين ، ويجعل قربانا مفعولا ثانيا ، وآلهة عطف بيان .

(٣) وقد منع الرمخشي أن يكون ﴿ قُرْبَانًا ﴾ مفعولا ثانيا ، وآلهة بدل منه ، لفساد المعنى ، قال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشاف (٢٧٧) : قال صاحب التفسير : وغاية تقديره أن اتخذها قربانا وشفعاء جهة معتبرة في النصر ، ولو جعل بدلا منه لكان في حكم الطرح ، وخرج عن الاعتبار ، وفيه نظر ، وقال رضي الله عنه : إنه لا يصح تقربوا بها من دون الله ؛ لأن الله لا يتقرب به ؛ لأنك إذا جعلت آلهة بدلا من قربا ، وجعلت قربانا مفعولا ثانيا لاتخذ كأنك قلت : اتخذوا الأصنام قربانا من دون الله ، وغاية تقرير هذا أن يقال : فهم من هذا الكلام أنهم فقدوا النصر

﴿وَذَلِكَ﴾ الضلال وعدم النصرة ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي : ثمة إفكهم ، أي : كذبهم ، وأنسر شركهم وافترائهم على الله من كونه ذا شركاء .

ثم قال : ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي : يجترئون ويحترفون من المحال ، وقيل : ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اتخاذهم الآلهة دون الله ، أي : واتخاذهم الآلهة هو كذبهم وافترائهم .

[قصة دعوة النبي الجن للإسلام]

ولما بين تعالى أن في الناس من آمن ، وفيهم من كفر ، بين أيضا أن الجن فيهم من آمن ، وفيهم من كفر فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أي : واذكر إذ صرفنا إليك ﴿نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أي : أملناهم وأقبلنا بهم ، والنفر دون العشرة ، وجمعه أنفار ﴿يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي : سمعوه يقرأ منه في سورة صلاة الفجر بوادي نخلة ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي : حضروا القرآن ، أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي : قال بعضهم لبعض : اسكتوا مستمعين .

لاخطائهم الطريق ، فلو كان قربانا مفعولا ثانيا لفهم أن الإخطاء إنما كان لأجل أنهم اتخذوا الأصنام قربانا من دون الله ، ولو اتخذوا الله قربانا من دونها لم يخطئوه ، ولم يفقدوا النصر ، كما أن المفهوم من الكلام على تقدير كون آلهة مفعولا ثانيا : أنهم أخطأوا الطريق لاتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله ، ولو اتخذوا الله إلها دونها لم يخطئوه ، ولا شك أن هذا كلام صحيح ، بخلاف ما قبله ، لأن الله لا يتخذ قربانا ، فلهذا فسد المعنى على تقدير كون قربانا مفعولا ثانيا .

ويمكن أن يقال : فساد المعنى إنما لزم من حيث أن آلهة إذا كان بدلا من قربانا ، وإن كان قربانا في حكم الطرح ، يكون تقدير الكلام فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ، وهذا فاسد لأنهم لم يتخذوهم آلهة من دون الله حتى ينسب ذلك إليهم ، بل كانوا مقرين بإلهية الله مع قولهم بأن الأصنام آلهة ، والمفهوم من قوله : ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله﴾ أنهم قالوا بإلهية الأصنام ، وإن لم يقولوا بإلهية الله ، وهذا بخلاف ما إذا كان قربانا حالا ؛ لأن المعنى أنهم اتخذوهم آلهة حال تقريبهم بهم إلى الله ، فإنه لا يفهم من هنا نفى إلهية الله ، وهنا الموضع موضع تأمل .

وقال صاحب الإيضاح : يفسد المعنى ؛ لأنه لا يستقيم أن يقال : كان من حق الله أن يتخذ إلها ، وهم اتخذوا الأصنام من دونه قربانا ، كما استقام كان من حق الله أن يتخذ إلها ، وهم اتخذوا الأصنام من دونه آلهة ، وهو قريب مما قلناه .

وقال صاحب الانتصاف : لا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا ، وآلهة حال ؛ لأنه يصير معنى الهم متوجها إلى ترك اتخاذ الله متقربا به ؛ لأنه إذا قلت لعبدك : اتخذت فلانا سيدا دوني . لمتة على نسبة السيادة على غيرك ، والله تعالى لا يتقرب به ، ولكن يتقرب إليه .

روي أن الجن كانت تسترق السمع فلما حرس السماء ، ورجعوا بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا لنبا حدث ، فنهض سبعة نفر أو تسعة ، من أشرف جن نصيين أو نينوى ، منهم زوبعة ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا إلى وادي نخلة ، فوافوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قائم يصلي في جوف الليل ، أو في صلاة الفجر ، فاستمعوا لقراءته ، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج يستنصرهم فلم يجيبوه ، وأغروا به سفهاء ثقيف^(١) .

وعن سعيد بن جبير : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الجن ، ولا رآهم ، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به ، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم^(٢) . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ فرغ من قراءته ﴿ وَلَوْ ﴾ رجعوا ﴿ إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾ من الجن ﴿ مُنْذِرِينَ ﴾ لهم بما يستمعون من القرآن .

وقال ابن مسعود وغيره : بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ، فصرف إليه نفرا منهم جمعهم له ، فقال : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعني ؟ فاتبعه ابن مسعود لا غير ، حتى إذا كان في شعب الحجون خط النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطأ ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وغشيت أسودة كثيرة حالت بيني وبينه ، حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لي رسول الله : هل رأيت شيئا ؟ قلت : رأيت رجالا

(١) في الكشف : (فلم يجيبوه إلى طلبته) قال ابن حجر في تخريج الكشف ٣١١/٤ : متفق عليه من رواية سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، دون أوله ، ودون قوله : (وكانوا تسعة نفر ، أحدهم زوبعة) ودون قوله : (في جوف الليل يصلي) ودون قوله (من نينوى) ودون قوله : (عند منصرفه ..) إلخ ، وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية [أبي] أذر عن ابن مسعود ، قال : (هبطوا — يعني — الجن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ القرآن بيطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ ﴾ نفرا ﴿ الآية . وقوله : (نينوى) أخرجه الطبري من رواية قتادة في هذه الآية ، قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى .. الحديث .

وذكر القصة أيضا بطولها من مسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف إلى حين التقائه بهم ، وعدد أسماءهم — القرطي في تفسيره وعزاها إلى ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وغيرهم . (أنظر تفسير القرطي) .

(٢) قال ابن حجر في تخريج الكشف ٣١١/٤ : متفق عليه من رواية سعيد بن جبير ، وهو في الذي قبله .

سودا مستغفرين^(١) بثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والسورة التي قرأها عليهم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾^(٢) . وقد ضعف هذا بأن النفر لا يطلق على الكثير ، ويمكن الجواب بأنه أريد بالنفر رؤسائهم .

ثم قال تعالى : ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي : من بعد عهده وزمانه ، ولم يقولوا : من بعد عيسى ، فعن عطاء : كانوا على اليهودية . ابن عباس : لم يسمعوا^(٣) بعيسى .

ثم وصفوه بوصفين ، الأول : كونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المتقدمة ، والثاني : أنه ﴿يَهْدِي﴾ متبعيه ﴿إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ثابت ، وهو دين الإسلام ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ هذا من جملة قول أصحابهم ﴿وآمِنُوا بِهِ﴾ أي :

(١) في الكشف (مستغفري ثياب بيض) قال في حاشية الكشف : في القاموس : (الاستغفار) أن يدخل إزاره بين فخذه ملويا ، وإدخال الكلب ذنبه بين فخذه حتى يلزقه ببطنه) (الكشاف ٣١٢/٤) .

(٢) القلم : ١ . قال ابن حجر في تخرجه على الكشف : لم أجده بتمامه في سياق واحد ، بل وجدته مفرا ، فروى الطبري من رواية قتادة : (ذكر لنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إني أمرت أن أقرأ على الجن . فأيتكم يتبعني ، فأطرقوا ثلاثا إلا ابن مسعود فاتبعه حتى دخل شعبا ، يقال له شعب الحجون ، قال : وخط على ابن مسعود خطأ .. فذكر إلى قوله : حتى خفت عليه . وزاد فيه : فقلت : ما هذا اللغظ ؟ فقال : اختصوا إلى في جبل قضيت بينهم بالحق) وروى الحاكم والطبراني والدارقطني ، من طريق أبي عثمان بن شبة الخزاعي ، وكان رجلا من أهل الشام ، أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه وهو بمكة : من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليعمل ، فلم يحضر منهم أحد غيري ، قال : فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطأ ، ثم أمرني أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام ، فافتتح القرآن .. الخ الحديث . ولم يذكر رجلا سودا .. إلى آخره ، وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي ، أنه سأل ابن مسعود ، فذكر القصة ، وفيها فقال : (رأيت رجلا سودا مستشعرين بثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين ، سألوني المتاع — فذكر الحديث . وليس فيه عددهم ، ولا اسم السورة ، وروى ابن أبي خاتم ، من رواية عكرمة في هذه الآية قال : كانوا من جن نصيبين ، جاؤا من جزيرة الموصل ، وكانوا اثني عشر ألفا ، فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة . (الكشاف ٣١٢/٤) .

(٣) لفظ الكشف : (وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالت : من بعد موسى . (الكشاف ٣١٢/٤) .

الله إيماناً كاملاً ، وهو أن تؤمنوا به وبكتابه ورسوله .
وقد دلت [الآية على أنه صلى الله عليه وآله وسلم] ^(١) كان مبعوثاً إلى الجن ، كما كان مبعوثاً إلى
الإنس ، قال مقاتل : ولم يبعث الله نبيّاً إلى الجن والإنس قبله ^(٢) .
وقوله تعالى : ﴿أُحْيِيُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أمر بإجابه في كل ما أمر به ، فيدخل فيه الأمر
بالإيمان ، إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين ، لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها ، وقد
جرت عادة القرآن بأنه يذكر اللفظ العام ، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه ، كقوله :
﴿وملائكته﴾ [ورسله] وجبريل ^(٣) .

وقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ ^(٤) ولما أمر بالإيمان به — ذكر
فائدة ذلك الإيمان وهي قوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي : بعضها ؛ لأن من
الذنوب ما لا يغفر بالإيمان مما يتعلق بالعباد من أعراضهم كالذم ونحوه ، ومن أموالهم
كالديون ونحوها ^(٥) .

وقيل : من هاهنا زائدة ، والتقدير : يغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيَجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾
وبهذه الآية قيل : لا ثواب للجن إلا النجاة من النار ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، والصحيح
أنهم كسبي آدم مكلفون .

[بحث للإمام المرتضى في الجن وثوابهم وشهواتهم]

وقد سئل المرتضى عليه السلام عن مؤمني الجن : هل يكونون في الآخرة يأكلون ويشربون
ويتنعمون ؟ قال عليه السلام : الأكل والشرب والنكاح ، فإنما هو شيء ركه الله في الآدميين

(١) ما بين القوسين زيادة من (ب) .

(٢) ومثل هذه الفقرة بلفظها في الرازي ٣٢/٢٨ ، وكذلك الفقرة التي بعدها .. إلى قوله : وهي قوله تعالى :
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ .

(٣) البقرة : ٩٨ . في المصاييح (وملائكته وجبريل) ولا يوجد في القرآن لفظ كهذا ، وإنما الموجود (من كان عدواً لله
وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)

(٤) الأحزاب : ٧ .

(٥) من قوله : (لأن من الذنوب) إلى هنا قريب منه في الكشاف ٣١٢/٤ .

وجعل لهم فيه لذة وشهوة ، والله تبارك تعالى فقد ركب في الجن أسبابا ، ينالون بها لذة وفرحا وطربة في الآخرة ، شبهها بما ينال بها الآدميون أو أكثر ، إذ اللذة في الآدميين من الله ، جعلها سبحانه فيهم ، فصارت لذة إذ جعلها من طباعهم ، كذلك عز وجل يجعل لهم على طاعتهم وحسن استقامتهم ، من الجزاء والثواب ما يقنعهم ويكون ألد لهم من لذتكم ، أو لستم ترون ذلك في هذه الدنيا في خلق الله سبحانه ، قد جعل لكل ذي روح غذاء وطربة وراحة لا يجدها الآخر ، من ذلك بنو آدم يأكلون الفواكه والأطعمات ، ومن ذلك الخيل والدواب تأكل الحشيش ، وما أشبه ذلك من النبات ، وكل قد قامت بنيته على ما جعل من غذائه ، وحسنت حالته على ذلك ، ولو أطعم أحد الجنسين غذاء صاحبه ، إذا لم تحسن بذلك حالته ، ولم تقم عليه بنيته ، وكان من المالكين ، فهذا دليل على أن كلا قانع بما ركب فيه ، لا يريد غيره ، ولا تحسن حالته إلا به . اهـ

واعلم أن ذلك الجنى لما أمر قومه بإحابة الرسول ، والإيمان به حذرهم من ترك الإحابة فقال : ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : فليس ينجي منه مهرب ، ولا هو بفائت ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أنصار يتولونه بدفع العذاب عنه . ثم بين أنهم في ذهاب بين عن طريق الحق والنجاة ، فقال سبحانه : ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي : هو بين ظاهر .

ثم خاطب قريشا فقال إنكارا عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [أي : أو لم يعلموا] ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار ، ثم فرع عليه فرعين الأول : إبطال قول عبدة الأصنام ، والثاني : إثبات النبوة ، وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة ، وأجاب عنها ، و[لما] كان [أكثر] إغراض أهل مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا ، واستغراقهم في استيفاء طياتها وشهواتها ، وبسبب أنه كان ثقل عليهم الانقياد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والاعتراف بتقدمه عليهم ، ضرب لذلك مثلا في قوم عاد ، فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد صلى الله عليه

وآله وسلم ، فلما أصرروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم ، فكان ذلك تخويفا لأهل مكة بإصرارهم على إنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وآله .

ثم لما قرر نبوته على الإنس أرفده بإثبات نبوته في الجن ، وإلى هاهنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ، ثم ذكر عقيبتها تقدير مسألة المعاد ، ومن تأمل في هذا [البيان الذي ذكرناه] علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد ، وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول .

والمقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادرا على البعث ، والدليل عليه : أنه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة ، على أنه هو الذي خلق السموات والأرض ، ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حيا بعد أن صار ميتا ، والقادر على الأقوى الأكمل لا بد وأن يكون قادرا على الأقل الأضعف .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن ، إذ لو لم يكن ممكنا في نفسه لما وقع أولا ، والله تعالى قادر على كل الممكنات ، فوجب كونه قادرا على تلك الإعادة ، وهذه الدلائل يقينية وظاهرة ، ذكر هذا الرازي ^(١) .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ﴾ فمعناه : لم يخف عليه خلقهن ، يقال : عي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله ، ولم يعرف جهة الصواب فيه ، ولم يقدر عليه ، ويقال : أعيت إذا تعبت ^(٢) ، وقوله : ﴿بِقَادِرٍ﴾ محله الرفع ؛ لأنه خير إن ^(٣) ، يدل عليه قراءة عبد الله (قادر) وقد سد مسد مفعولي ^(٤) (يروا) والباء زائدة ، كما تزداد مع النفي في نحو ما أظنك بقائم

(١) انظر الرازي ٣٤/٢٨ ، وما بين أقواس الزيادة منه .

(٢) قال الكسائي : يقال : أعيت من التعب ، وعيت : من انقطاع الحيلة ، والعجز والتحير في الأمر .

(٣) أي : أن الباء فيه زائدة لتأكيد النفي ، لأن النفي مشتمل على إن وما في حيزها ، وكأنه قال : ليس الله بقادر . قال الشهاب ٣٨/٨ : إشارة إلى ما مر من أن الباء تزداد بعد النفي ، وما في حيز إن مثبت ، لكن لانسحاب النفي عليه عوامل معاملة النفي ، ولهذا أحاب عنه بقوله : بلى ؛ لأن بلى تخصص بجماد النفي وتقيد بإبطاله ، على المشهور ، وإن ورد في الإثبات نادرا ، وأجازه بعض النحاة .

وحكى الواحدي وابن الجوزي هذا عن الكسائي والزجاج ، وعن الأخفش أيضاً ، وأبي عبيدة ، قال ابن الجوزي : وقرأ يعقوب (يقدر) بياء مفتوحة مضارع قدر .

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ (يوم) متعلق بمحذوف مقدر قبل ﴿ أَلَيْسَ ﴾ أي : يوم يعذبون في النار يقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ أي : العذاب ﴿ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى ﴾ أي : هو الحق ﴿ وَرَبَّنَا ﴾ قسم جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، أي : وربنا إنه لحق ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وتكذبون بالجزاء ، والمقصود التهكم بهم ، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾^(٤) .

ثم اعلم أنه لما قرر المطالب الثلاثة ، وهي التوحيد والنبوة والمعاد ، وأحاط عن الشبهات — أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذونه ، ويوحشون صدره ، فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي : أولوا الجِد والصبر والثبات ، و(من) اللتين ، ولا يبعث الله إلا من كان ذا عزم وحزم [ورأي وكمال عقل] ، وهو قول [ابن] زيد ، وابن الأنباري وغيرهما .
وقيل : يجوز أن تكون (من) للتبعض^(٥) ، قيل : وهم نوح كان يضربه قومه حتى يغشى

(٤) قوله : (وقد سد مسد مفعولي يروا) معناه : وقد سدت (أن وما في حيزها من الاسم والخبر مسد مفعولي يروا . وكان صواب اللفظ ، وقد سدت مسد .. الخ

(١) الشعراء : ١٣٨ ، سبأ : ٣٥ . الصافات : ٥٩ .

(٢) القائل هو الزعشمي : قال في الكشف ٣١٣/٤ : و(من) يجوز أن تكون للتبعض ، ويراد بأولي العزم بعض الأنبياء وقال الحاكم الحشمي في تهذيبه : ﴿ كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ قيل : من هنا للتأكيد والبيان ، لا للتبعض ، فجميع الرسل أولوا العزم عن ابن زيد ، وأبي علي ، وجماعة ، لأنهم عزموا على أداء الرسالة والصبر فيه ، وتعمل الشدائد ، وأداء ما أمروا به ، وهذا هو الوجه ، وقيل : من للتبعض ، وأراد بعضهم ، ثم اختلفوا من هم ؟ قيل : المذكورون في سورة الأنعام ، وقيل : الذين أمروا بالقتال ، وأظهروا المكاشفة ، وجاهدوا وقاسوا قومهم ، كإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ، عن أبي مسلم ، والكلبي ، وقيل : اثنا عشر من أنبياء بني إسرائيل ، منهم من قتلوا ، ومنهم من نشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلده ، وقيل : هم ستة نوح وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وهم المذكورون في سورة هود والشعراء ، وقيل : أصحاب الشرائع ، وهم خمسة ، نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ،

عليه ، وإبراهيم صبر على النار ، وعلى ذبح ولده ، ويعقوب على فقد ولده وبصره ، ويوسف على الحب والسجن ، وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه : ﴿إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾^(١) وداود بكى على ذنبه أربعين سنة .

وقال المرتضى عليه السلام : أولوا العزم : هم كل من امتحن ، وفرض عليه الجهاد بالسيف ، فكل من كان من الأنبياء قد افترض عليه الجهاد ، فهو من أولي العزم ، فكان محمد صلوات الله عليه وآله وسلم من أولي العزم ، وكذلك موسى وداود وسليمان ومن قاتل من الأنبياء فهو من أولي العزم صلوات الله عليهم أجمعين . اهـ .

وقال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره ما لفظه : معنى ﴿كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ أي : كما صبر الرسل أولوا العزم ، على التقديم والتأخير ، و(من) زيادة وصلة ، مثل قوله : ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾^(٢) والمعنى : يغفر لكم كل ذنوبكم ، وقد توهم بعض الجهال ، أن من الرسل من ليس بذئ عزم ، وهذا من أكبر المحال ؛ لأن الرسل قد عزموا على إنفاذ أمر خالقها ، والعزم فهو الإجماع والعزيمة والرحلة والإجماع^(٣) .

قال الرازي ما لفظه : (من) في قوله : ﴿من الرسل﴾ تبيين لا تبعيض كما يقال : كسيت^(٤) من الخبز ، فكأنه قيل : اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ، ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم . ومثل هذا في البلغة ، أي : اصبر يا محمد على أداء الرسالة ، واحتمال الأذى ، كما صبر الرسل الذين كانوا قبلك .

ومحمد ، وقيل : نوح ، وإبراهيم ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وعمر صبروا على ما نالهم ، عن مقاتل ، وقيل : أربعة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، عن قتادة ، وقيل : ثلاثة ورابعهم محمد صلوات الله عليه وآله عن أبي العالية واحتفظوا في معنى أولي العزم ، قيل : ذؤوا الخزم ، عن ابن عباس ، وقيل : ذؤوا الجد والصبر عن الضحاك ، وقيل : ذؤوا الرأي الصواب عن القرظي ، وقيل : الذين عزموا على أداء الرسالة ، وتحمل المشقة فيها ، وهم جميع الرسل ، عن أبي علي ، وأبي مسلم .

(١) الشعراء : ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الأحقاف : ٣١ ، نوح : ٤ .

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام أول هذه السورة .

(٤) في الرازي (كسيت) وفي المصاييح (أكسه من الخبز) . (الرازي ٣٥/٢٨) .

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ ينزل العذاب^(١) بهم في دار الدنيا ؛ لأن في تأخيرها حكمة بالغة ، وإذا رأوا عذاب يوم القيامة كان حالهم ما ذكر الله في الآية التي بعد هذه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ، أي : لا تدع بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ، فأمر بالصبر وترك الاستعجال .

ثم أخبر أن ذلك [العذاب] منهم قريب ، وأن عند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوا ساعة من نهار فقال سبحانه : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا أو البرزخ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ لأن ما مضى كأن لم يكن ، وقيل : في جنب طول الآخرة ، قيل : وهذا لشدة العذاب ؛ لأن أيام السرور قصار .

قال في التحرير : وهنا تم الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿بَلَاغٌ﴾ أي : هذا القرآن ، وهذا الكلام بلاغ^(٢) ، أي : بالغ أقصى الغرض^(٣) ، أي : كفاية في الموعظة ، أو هذا بيان كامل ، وتبليغ من الرسول . وقال ابن جرير : المعنى أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث ﴿بلاغ﴾ أي بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم^(٤) .

(١) قوله : ينزل العذاب ، يريد أن المحذوف في محل نصب مفعول تستعجل .

(٢) فيلاغ على هذا خير مبتدأ محذوف

(٣) أي : أنه من بَلَّغَ بلاغا وبلوغا ، وقوله : وتبليغ من الرسول : فماضيه بَلَّغَ تبليغا . قال في الشهاب : ويشهد له قراءة (بلغ) على صيغة الأمر . قال الراغب : البلوغ والبلاغ : الانتهاء إلى أقصى المقصد والنتهى مكانا أو زمانا ، أو أمرا من الأمور .. ثم قال : والبلاغ : التبليغ . والبلاغ : الكفاية . (مفردات الراغب ١٤٤) .

(٤) فيلاغ على هذا مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : بلاغ لهم ، وقيل : خبره (لهم) السابق في قوله ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ وما بينهما اعتراض ، فيوقف على قوله : ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾ ويتبدى بقوله : ﴿لَهُمْ﴾ . البلاغ : وما بينهما من التشبيه معترض بين المبتدأ والخبر ، وهو ضعيف جدا لما فيه من الفصل ، ومخالفة الظاهر ، لأن الظاهر تعلق ﴿لَهُمْ﴾ بتستعجل . (حاشية الشهاب ٣٩/٨) .

ومعنى ﴿بلاغ﴾ على هذا : القليل ، أي : الذي تبلغ به ، كما تقول : نعيم الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، أي بلاغ قليل ، كقولهم : ما معه من الزاد إلا بلاغ .
 ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بالعذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الاعتاض به ، والعمل بموجبه^(١) قال قتادة : اعلم أنه لا يهلك على الله إلا من عتأ عتوا ، وتمرد تمردا ؛ لأنه تعالى قد أبلغ في الإنذار ، والإمهال^(٢) .

والحمد لله كثيرا

يتلوه الجزء الثالث

وأوله سورة الجاثية

نسأل الله العليّ القدير الإعانة والتوفيق

(١) ونظيره في الرازي ٣٦/٢٨ والكشاف ٣١٤/٤ ، وفيهما : (موجبه) وفي المصايح (مواجهه) ،

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : وبعضه ما روى الواحدي عن الزجاج تأويله : لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، ولهذا قال قوم : ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية .

الفهارس

٣	مقدمة الطبع
٥	تفسير سورة (الجمعة)
٢٠	سبب نزول قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾
٢٣	تفسير سورة (الصف)
٢٤	سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾
٣١	فضل الجهاد للإمام الهادي عليه السلام
٣٥	تفسير سورة (الممتحنة)
٣٦	سبب نزول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾
	سبب نزول قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ
٤٨	فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾
٥٧	تفسير سورة (الحشر)
٨٧	تفسير سورة (المجادلة)
١١٩	تفسير سورة (الحديد)
١٤١	سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾
١٦٥	تفسير سورة (الواقعة)
٢٠٧	تفسير سورة (الرحمن)
٢٣٧	تفسير سورة (اقتربت) (القمر)

٢٦٩	تفسير سورة (النجم)
٢٧٥	رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام وثبوت المعراج إلى السماء
٢٨٥	ثبوت الشفاعة ولمن تكون
٣٠٣	تفسير سورة (الطور)
٣٢٧	تفسير سورة (الذاريات)
٣٥٧	تفسير سورة (ق)
٣٩١	تفسير سورة (الحجرات)
٣٩٣	سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾
٣٩٥	سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾
٤٠٢	سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾
٤١٦	بحث في الظن والتجسس والغيبة
٤٢٣	سبب نزول قوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾
٤٣١	تفسير سورة (الفتح)
٤٥٦	قصة بيعة الرضوان
٤٧٣	تفسير سورة محمد ﷺ
٥٠٩	تفسير سورة (الأحقاف)
٥٤١	قصة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجن للإسلام
٥٤٤	بحث للإمام المرتضى عليه السلام في الجن وثوابهم وشهواتهم